دار الاستقلال للدراسات والنشر

ص. ب ١٤/٦١٤٣

بيروت ـــ لبنان

فلسطين

القَضيَة • الشَعب • الحَضارة

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ
لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ

صدق الله العظيم

(سورة الإسراء ١٧ : ١)


To: www.al-mostafa.com

بيان نويهض الحوت

فلسطين

القضية • الشعب • الحضارة

التاريخ السياسي من عهد الكنعانيين
حتى القرن العشرين (١٩١٧)

دار الإستقلال للدراسات والنشر
بيروت

تصميم الغلاف
يوسف حمّو

الطبعة الأولى
بيروت ــ ١٩٩١

المحتويـات

القسم الثاني
العرب في فلسطين

القسم الثالث

الحركة العربية وفلسطين

القسم الرابع
الحركة الصهيونية وفلسطين

القسم الخامس
فلسطين ووعد بلفور

مُقَـدّمَـة

لكل بلد في العالم تاريخه الحضاري والسياسي، وقلما نجد خلافا بين المؤرخين بشأن الكليات في تاريخ هذا البلد او داك. فالتباين في التحليل والرأي، وحتى بشأن المعلومات التاريخية، يتناول الجزئيات عادة، او ما يمكن اعتباره دون الكليات على الأقل وهكذا، فمسألة وجود حضارة ما، او عدم وحودها، تقع ضمن الكليات، وكذلك مسألة وجود شعب ما، او عدم وجوده

لا احد ينكر حضارة الفراعنة في مصر، مثلا، او الاغريق في اليونان. ولكن هناك من يتجاهل حضارة الكنعانيين في فلسطين الى حد الالغاء، او الى ما دون ذلك بقليل، او الى حد تهميش الوجود الكنعاني في ظل «الحضارة الاسرائيلية القديمة»، بينما الكنعانيون هم الأصل والبداية.

وكما الاختلاف في عصور ما قبل الميلاد، بالنسبة الى فلسطين، كذلك فيما بعده، وخصوصا في الحقبة الممتدة بين القرن السابع للميلاد والقرن العشرين. فقد كانت فلسطين في هذه القرون الثلاثة عشر جزءا من الدولة العربية الاسلامية، وعاش شعبها جزءا من الأمة العربية. غير ان فلسطين قد برزت في الكتابات الصهيونية، وفي معظم الكتابات الاستشراقية، ذلك البلد المهمل المنسيّ، لا أكثر ولا أقل. ولم تكن الاشارة الى شعبها سوى الاشارة الى مجموعات وشراذم من قوميات متعددة، سكنت البلاد عبر التاريخ، وقد يقال عنها أحيانا: «مسلمون ومسيحيون»، او «سكان مدن وبدو وفلاحون». وقد تطلق عليها اية تسمية اخرى، شرط ألا تؤدي الى اعتبارها شعبا له الحق في ارضه وتاريخه وتقرير مصيره، اسوة بأي شعب آخر في الدنيا.

لا تتجاوز المطامع الصهيونية في فلسطين حدود الأرض، وأبعاد الحاضر والمستقبل، فحسب، ولكنها تحتكر لنفسها تاريخ البلاد بأسره؛ فهي تنطلق من أعماق التاريخ القديم، معتبرة ان حركتها «الاستعمارية الاستيطانية»، التي لم تنطلق إلا مع نهاية القرن التاسع عشر، هي وارثة مملكة داود وسليمان (والتي كانت قائمة في القرن العاشر قبل الميلاد). وليس في الكتابات الصهيونية، ولا في الكتابات اليهودية الدينية، من وجود في فلسطين إلا للوجود اليهودي، وقد يقال عنه الاسرائيلي، كما قد يُنعت بالصهيوني. وقد تختلط التسميات، ولكن يبقى الجوهر واحدا، وهو ضرورة «تفريغ» فلسطين من تاريخها وحضارتها وشعبها؛ وهذا يتضمن حتمية إلغاء الوجود العربي، او حشره في زوايا الأقليات، إنْ يكن إلغاؤه عملية شبه مستحيلة.

ان هذه الصورة التي تبدو مغالية في تبسيطها، تزداد تعقيدا لدى الغوص في تاريخ كل مرحلة من مراحل تاريخ فلسطين. ولا تبرز الصعوبة الأولى أمام الباحث نتيجة قلة المصادر، بل على العكس من ذلك، اي نتيجة وفرتها الهائلة، ونتيجة تلوّن العديد منها بألوان أصحابها، مما يحتّم عليه قراءة الكثير الكثير، وفي مختلف الاتجاهات، كي يستخلص من الحقيقة ما أمكن.

وأما الصعوبة الثانية، فتنحصر في العامل الذاتي. ففي حالات الصراع بين الأمم، يخضع الإعلام، والخطاب السياسي، وحتى كتابة التاريخ، لمستلزمات الصراع؛ كل جانب يدعم ما كان في مصلحته قوميا وسياسيا. وهكذا، كان العامل الذاتي من ابرز الصعوبات بالنسبة اليّ، كما كان من ابرز العناصر المساعدة في الوقت نفسه.

القضية الفلسطينية قضية شعبي، والقدس مدينتي، والهجرة المرّة ذكريات طفولتي، والمفتاح الحديدي الكبير الذي اشتهرت فلسطين به من عهد أجدادنا الكنعانيين، والذي حملته والدتي مع القليل مما حملناه، يوم الرحيل، أمانة في عنقي فكيف ارد الأمانة الى الباب العتيق؟ وكيف يسترد شعب بأسره ــ هو شعبي ــ حقوقه المشروعة؟

ان الباحث صاحب القضية التي يعيشها، لا فضل له في البحث والتنقيب عن ابعد أبعادها، وأدق تفاصيلها. وهنا اليُسر والسهولة، فلا مكان للتعب. وأما الصعوبة، فتكمن أيضا في كونه صاحب القضية؛ إذ كيف يوفّق بين الأمانة العلمية والالتزام الوطني؟

تلك هي المشكلة.

ان القراءة الصهيونية لتاريخ فلسطين تحذف، وتزوّر، وتشطب نهائيا. والمعادلة الصهيونية واضحة؛ فمن أجل ان يحيا شعب، او يُحيَى شعب. . يضمحل شعب.

إزاء ذلك، ماذا يفعل الكاتب الانسان؟ وخصوصا الكاتب العربي، او الكاتب الفلسطيني، والمؤلفات بين يديه ــ في هذا الفصل او في تلك الصفحة ــ تتجاهل شعبه، وتعتدي على تاريخه، وتحتقر وجوده أصلا. ماذا يفعل، وفكره ارجوحة بين الغضب والأمانة العلمية؟

لدى إعدادي لهذا البحث بالذات، حاصرني ظلم العديد من المؤرخين والمستشرقين والكتّاب الصهاينة، يهودا كانوا او غير يهود، أكثر من اي بحث آخر اعددته سابقا في القضية الفلسطينية. وربما يعود السبب لكونه بحثا في التاريخ القديم، لا المعاصر؛ فتاريخ الأجداد رسالة وأمانة، ورجاله ليسوا بأحياء كي يتكلموا.

وبعد تجربة أكثر قسوة ومرارة من اية تجربة سابقة، وقفت الى جانب الأمانة العلمية؛ فلليهود في فلسطين ما يشهد التاريخ لهم به، لا ما يضيفون اليه، او ما يقومون بتزويره او احتكاره. غير ان

موقفي هذا، لم يكن من المنطلق العقلاني، او الضمير العلمي، فحسب، بل هو أيضا موقف عقائدي وتراثي؛ فالعربي عامة، والفلسطيني خاصة، مسيحيا كان او مسلما، ليس في استطاعته، وفقا لتربيته الدينية والحضارية، إلا ان يعتز بإرث موسى وداود وسليمان، وليس في استطاعته أيضا إلا ان يعتبر تاريخ بني اسرائيل القدماء جزءا من تاريخ فلسطين. هو يقرأ تاريخ بلاده كاملا من دون اجتزاء لهذا العهد او ذاك، لا كما تفعل الصهيونية لدى قراءتها لتاريخ فلسطين.

وأما الصعوبة الثالثة، فكانت في محاولة الاقتراب الدائم والضروري من الكليات، وسط شعاب مملوءة بالجزئيات، بحيث لا تطغى الجزئيات على الكليات، بل توفر الأدلّة على صحتها. وقد تكون هذه مشكلة تأريخية عامة، ولكنها في تاريخ متنازَع بشأنه ــ كتاريخ فلسطين ــ أكثر تشعبا، وأطول متاهة.

ان التوصل الى الطبيعة المتميزة التي لازمت فلسطين وقضيتها، من بين القضايا العالمية المعاصرة، يستوجب ملاحقة جذور هذه القضية من اقدم العصور. ولا يتم ذلك من خلال مجرد عملية تجميع لأجزاء التاريخ، وإنما من خلال النقد والبناء، ومن خلال الكشف عن المصادر المنصفة والمصادر المنحازة، ومن خلال البحث في الخلفية السابقة لكل ما هو قائم في عصرنا؛ وبذلك يكون الشمول والتواصل، وكلاهما من أهداف البحث. ومن أهدافه، أيضا، الاجابة عن الأسئلة التالية:

فلسطين لمن؟

مَنْ شعبها؟

ما قضيتها؟

ان الحلول النهائية للقضايا السياسية الدولية لا يمكن ان تبنى على مقاييس او نماذج محددة، فلكل قضية مستعصية تاريخها وظروفها وأوضاعها. ولعل الميزة التي تنفرد القضية الفلسطينية بها، بالمقارنة مع سواها، هي كونها القضية الوحيدة التي تضرب جذورها في أعماق التاريخ لآلاف السنين؛ إذ لا يمكن فهم الصراع الدائر اليوم من دون الرجوع الى التاريخ القديم، والى مجمل تاريخ فلسطين. ولنتوقف عند هذه النقطة بالذات، للاجابة عن السؤال التقليدي: لمَ كان هذا البحث أصلا؟

على الرغم من الشائعة بأن رفوف المكتبات العربية قد امتلأت بالمؤلفات المتنوعة في القضية الفلسطينية، بحثا وتوثيقا، فان الكتاب الفلسطيني يعاني مشكلة انصراف الأكثرية من المؤرخين والكتّاب العرب نحو فلسطين المعاصرة. فقد استحوذت شؤون النضال ضد الصهيونية على اهتمام

الجميع؛ وهذا امر منطقي وطبيعي، إلا انه قد ادى الى الاجحاف بالجانب التاريخي، الى حد بعيد. ولهذا، ارتأيت معالجة التاريخ الحضاري والسياسي لفلسطين، بدءا بفجر الحضارة الأولى في المنطقة، وأعني حضارة الكنعانيين.

لا يقتصر البحث على جانب واحد، اوجوانب محددة من تاريخ فلسطين السياسي وحضارتها؛ فهو محاولة للاحاطة بمختلف الجوانب، دينيا وقوميا وحضاريا واجتماعيا وعمرانيا واقتصاديا وسياسيا. ونلاحظ ان الأقسام الثلاثة الأولى تتناول هذه الجوانب كلها في تسلسل تاريخي: فيتناول القسم الأول تاريخ فلسطين القديم، ويعالج ماهية الحقوق الدينية والتاريخية لليهود. ويتناول القسم الثاني وجود العرب منذ القبائل العربية الأولى المعاصرة للكنعانيين، والقبائل العربية التي استقرت خلال العهد الروماني، اي قبل المسيحية والاسلام، كما يتناول الفتح العربي الاسلامي، والحضارة العربية الاسلامية التي سادت البلاد منذ القرن السابع حتى القرن العشرين، ومساهمة الشعب العربي الفلسطيني في بناء هذه الحضارة خلال ثلاثة عشر قرنا بتواصل ويتناول القسم الثالث الحركة العربية الحديثة وفلسطين، ودور أبناء فلسطين في صفوف هذه الحركة التي انتهت بالثورة العربية في خضم الحرب الكبرى، وقد كانت اتفاقية سايكس ــ بيكو سنة ١٩١٦ هي الفصل الختامي لهذه المرحلة.

لو كان قَدَر فلسطين كقدر لبنان او سوريا او الأردن، مثلا، لانتهى بحثنا في تاريخ فلسطين الحضاري والسياسي حتى الحرب الكبرى، عند هذا الحد. غير ان تاريخ فلسطين الحديث قد تعرّض لهجمة صهيونية لفحته نيرانها من أوروبا، كما انه قد تعرض لهجمة استعمارية «متميزة» عن النمط الانتدابي السائد في المرحلة التاريخية نفسها. فبريطانيا لم تكن مجرد دولة انتدابية بالنسبة الى فلسطين، كما كانت بالنسبة الى الأردن او العراق؛ فهي الدولة التي اصدرت صك ميلاد الدولة الصهيونية الاستيطانية القادمة من بعدها، وذلك قبل ان يتقرر ــ دوليا ــ انتدابها هي على فلسطين، وحتى قبل ان تدخل جنودها ارض فلسطين.

وهكذا، كان لزاما علينا ان تنتقل الساحة بنا من فلسطين الى أوروبا، مهد الاستعمار، ومهد الحركة الصهيونية. وكان لزاما علينا ان يتناول القسم الرابع الحركة الصهيونية، فكرا، وأهدافا، وانطلاقة، وروّادا، ونشاطا سياسيا، وأن يتناول القسم الخامس وعد بلفور. وقبل التوقف عند أسباب الوعد وتفاصيله، نعرض الأوضاع العامة لكل من السكان العرب، وقد كانوا الأكثرية الساحقة، والسكان اليهود، وقد كانوا الأقلية. وينتهي القسم الخامس والأخير سنة ١٩١٧، وهي

السنة الفاصلة بين فلسطين العربية، الموعودة بمكانها في الدولة العربية الواحدة، وفلسطين البلد الرازح تحت الحكم البريطاني.

وآمل، في السنوات المقبلة، بأن أتمكن ــ بعون الله تعالى ــ من إصدار الكتاب الثاني عن فلسطين ونضال شعبها ضد الانتداب والصهيونية، ومن إصدار الكتاب الثالث عن فلسطين ونضال شعبها من مرحلة الشتات الى قيام منظمة التحرير الفلسطينية، والثورة، حتى الانتفاضة المباركة.

وتبقى كلمة في روح البحث ومنهجيته. فمن أجل الأمانة في عرض المواقف والآراء عبر قرون من الزمن، آثرت إحياء التاريخ على ألسنة صانعيه وأبنائه، فنقلت عنهم الإقتباسات الضرورية، كما نقلتها عن الكتّاب الذين كان لتحليلاتهم الأثر البعيد، إيجابا او سلبا. وكان هدفي من وراء ذلك كله، ليس مجرّد الأمانة العلمية، بل أيضا محاولة إضفاء الأجواء التاريخية الحقيقية، ما أمكن.

وأما بالنسبة الى المنهجية، فهذا بحث تاريخي ــ سياسي، ولكنه لا يقتصر على جانب واحد، او على جوانب محددة من فلسطين، تاريخا وقضية كما لّمحنا، بل هو محاولة أولية للاحاطة بمختلف الجوانب الدينية والعقائدية والسياسية والحضارية والتراثية والاجتماعية والاقتصادية. وقد كانت النواة لهذا البحث محاضرات جامعية في القضية الفلسطينية، بدأتُ بإلقائها منذ سنة ١٩٧٩. ومع مرور السنوات، كان الحوار الدائم مع طالباتي وطلابي يجعلني أزداد قناعة بأن دراسة القضية الفلسطينية ما هي إلا حلقات متشابكة من مختلف الدراسات والعلوم.

وليس في هذا التوجه من جديد في البحث التاريخي عامة؛ فهذا النهج هو كما شرحه جاك بارزن وهنري غراف، في كتابهما المعروف «الباحث الجديد» (*The Modern Researcher*, 1985, 13)، «ان الشمولية الكلية للتاريخ تربط الباحث بكل نوع آخر من أنواع المعرفة تقريبا، وتجعل منه امرؤا متعدد الكفاءات ومتخصصا في الوقت نفسه.»

وعلى هذا النهج الشامل والمتخصص معا، كانت المحاولة وراء هذا البحث. فالجديد فيه، إذاً، ليس نشر ما لم يُنشر بعد، وإنما الاحاطة بالأجزاء المتناثرة في تاريخ فلسطين وقضيتها، وفي كل ما يتعلق بفلسطين، وفق رؤية شاملة؛ وهو ما يمكن ان نطلق عليه بالانكليزية Palestinology، اي فِلَسْطينولوجيا. فكما يوجد تخصص في دراسة اليابان، مثلا، بأن يقال Japanology، او في دراسة افريقيا بأن يقال Africanology، آن لنا في دراستنا لفلسطين ان نطرق فلسطين من كل أبوابها.

وإنْ يكن هذا الكتاب بين أيدينا يرفع راية الفلسطينولوجيا كعلم، إلا انه ليس الأول في المضمار؛ إذ صدر سنة ١٩٨٣ الجزء الأول من كتاب «القضية الفلسطينية والصراع العربي ــ الصهيوني» عن اتحاد الجامعات العربية، ويضم مجموعة من المقالات لعدد من المؤرخين والكتّاب،

باشراف الدكتور وليد الخالدي، وهو كتاب شمولي في تاريخ فلسطين وقضيتها حتى عشية التقسيم. وتلاه القسم الأول من الجزء الثاني سنة ١٩٨٩ على النهج نفسه حتى حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، وهو باشراف الدكتور عبد العزيز الدوري، وكذلك صدر القسم الثاني، إلا انني لم أتمكن من الاطلاع عليه بعد.

وعلى النهج المتكامل نفسه، صدر القسم الثاني من الموسوعة الفلسطينية سنة ١٩٩٠ باشراف الدكتور انيس صايغ، وهي موسوعة من ستة مجلدات، ساهم فيها اربعة وستون باحثا، وتتوزع موادها بين الدراسات الجغرافية والاقتصادية والتاريخية والحضارية ودراسات القضية من الأبعاد المختلفة: الوطنية الفلسطينية، والقومية العربية، والدولية، والصهيونية ــ الاسرائيلية.

ولا يسعنا، في هذا المجال، إلا ان نتوقف عند التراث الفكري الذي تركه لنا المؤرخ الكبير الراحل مصطفى مراد الدباغ، ولا سيما من خلال سلسلته «بلادنا فلسطين» التي أصدرها تباعا في عشرة أجزاء، او من خلال سلسلته «فلسطينيات» من ستة أجزاء؛ فهذا الفلسطيني الأصيل لم يترك معلومة واحدة يعرفها عن فلسطين إلا ونقلها الى القارىء. ولا يبدو انه مرّ به يوم في حياته لم يخطّ فيه قلمه كلمات عن فلسطين.

أملي كبير بأن يساهم هذا البحث في دفع الآخرين الى القيام بأبحاث مماثلة، كي تتضاعف الدراسات الفلسطينية على هذا النهج الشامل والمتكامل، وكي تتطور مادة الفلسطينولوجيا فتصبح مادة دراسية منهجية لا لطلاب فلسطين وحدهم، وإنما أيضا لطلاب العلم وطلاب المعرفة، أينما كانوا.

وإنْ يكن الكتاب مظهرا من مظاهر الحضارة والرقي في حياة الشعوب، فهو في حياة الشعب الفلسطيني أكثر من ذلك؛ انه واسطة العقد بين ماض تنكر الصهيونية ما فيه من حضارة ومجد، وبين حاضر تستولي خلاله على الأرض والسيادة، وبين مستقبل تهدّد معه الهوية والوحدة.

بيان نويهض الحوت

بيـــروت

رجب ١٤١١ هجرية،

كانون الثاني/يناير ١٩٩١ ميلادية

كلمة شكر

نواة هذا الكتاب مجموعة من المحاضرات الجامعية كنت قد ابتدأت باعدادها منذ سنة ١٩٧٩، في مادة «القضية الفلسطينية» للسنة الرابعة في قسم العلوم السياسية في كلية الحقوق والعلوم السياسية والادارية ــ الفرع الأول ــ الجامعة اللبنانية.

وكم يسعدني القول ان طلابي كانوا طلاب علم حقا، وكانوا شجعانا، بكل ما في هذه الكلمة من معنى؛ فرغبتهم في المعرفة، وأسئلتهم، وتعليقاتهم، لم تعرف حدودا حتى في ادقّ الأوضاع السياسية والأمنية. ففي هذه المرحلة، كان الاجتياح الاسرائيلي للبنان، ثم كان ما كان من امور جسام اعقبت هذا الاجتياح لأعوام طويلة، إنْ في الساحة اللبنانية، او في الساحة الفلسطينية. وصدقا أقول: ان عملي على إنجاز هذا الكتاب ما كان ليتمّ لولا طالباتي وطلابي؛ فهم قد ساهموا معي، من حيث ادري ولا يدرون، في إثارة العديد من الموضوعات. ولا أكون من الأوفياء إنْ لم اتوقف لأقول انني اعتبر هذا الجهد عملية مشتركة، فشكرا.

والشكر أيضا للأستاذ الكبير الدكتور انيس صايغ على مراجعته القسم الأكبر من المخطوطة، وإبدائه الملاحظات القيّمة، وتشجيعه المتواصل. ان أعظم ما تعلمته من الدكتور صايغ، خلال إعدادي لرسالة الدكتوراه، وقد كان أستاذي المشرف، هو كيف يمكن لاثنين ان يختلفا في الرأي من دون خلاف؛ فهو من العلماء القلائل الذين عرفتهم في وطننا العربي، يرحبون بالمعارضة العلمية ترحيبهم بالتوافق. ولعلّني لا أفيه حقه إلّا حين أتمكن من السير مع طلابي، على النهج الذي عرفته عنه.

والشكر أيضا لرفيق العمر شفيق الحوت على مساهمته في هذا الكتاب، تشجيعا، وصبرا، ومناقشات متواصلة. وهي مساهمة لأعظم من ان يفيها حقها اي شكر، إذ أنها لا تقتصر على مراجعته الدقيقة لكل قسم او فصل حال انتهائه؛ فهذا الكتاب كان بالنسبة اليه، منذ البداية حتى النهاية، همّا فكريا متواصلا. وَمَنْ يعرف هموم المفكر العربي في هذه المرحلة الصعبة من حياة الأمة، يقدر كل التقدير اهتمام الآخرين الدائم بهمومه الفكرية الخاصة، وحتى لو كان هؤلاء من اقرب الناس اليه. فشكرا أبا هادر.

والشكر أيضا للأستاذ محمود سويد، بصفته الأخ والصديق، وبصفته المدير العام لمؤسسة

الدراسات الفلسطينية؛ فقد كان بهدوئه وتفانيه في عمله خير من ذلّل أمامي العقبات، من مرحلة الحصول على المراجـع النادرة، والمخبأة في أكثر من مكان، الى نهاية الشوط. وليس في إمكاني تصور القيام بهذا البحث، على هذه الصورة، لولا المكتبة القيّمة في هذه المؤسسة العلمية، ولولا المشرفين عليها والمثابرين حتى في أحلك الأوقات وأصعب الأيام. وكيف يمكنني ان انسى الأشهر الطوال، حين كنا نطالـع ونكتب في حراسة أكياس الرمل المكدسة على الشرفات، تحسبا من القصف العشوائي. فالشكر اليهم جميعا، وعلى رأسهم الصديقة منى نصولي.

والشكر أيضا للعديد من الصديقات والأصدقاء الذين ساهموا في مناقشة الأفكار، او تقديم المراجـع، او إبداء الآراء. من هؤلاء الصديق الكبير المرحوم الدكتور عبد الرحمن اللبان؛ فقد تناقشت معه مطولا بشأن المنهاج الذي اعددته لمادة «القضية الفلسطينية» قبل اثني عشر عاما، ولم يكن ــ رحمه الله ــ صاحب رأي في ضرورة البدء منذ العهد القديم فحسب، بل كان صاحب عقيدة، كما كان أول من شجعني على التوجه في دراسة القضية الفلسطينية، وتدريسها، من نواحيها كافة. ومنهم الأستاذ الياس سحاب؛ فهو حقا كاتب صاحب رسالة، وواحد من أبناء فلسطين الذين يتابعون كل حرف يكتب عنها، إذ كان لتساؤلاته المتعددة أثر بارز في صفحات الكتاب. ومنهم أيضا، السيدة عفاف منقارة الداعوق، التي يعود اليها الفضل في العديد من الأمور الفنية والتقنية، كما ان حماستها الدائمة، واهتمامها المتواصل، كانا لي خير معين.

ومن هؤلاء الأصدقاء، أخيرا لا آخرا، الأستاذ سمير الديك الذي تتعدى مساهمته الفعلية كل ما قام به من جهد في التصحيـح، ذلك بأنه ليس من الذين يتعاملون مـع اللغة العربية على قواعد سيبويه وحدها، بل بأصالة فنية، وحب كبير لهذه اللغة الجميلة، لغتنا العربية.

القِسْمُ الأوّل

مَاهيَّة حقوق اليهود الدّينيَّة وَالتَاريخيَّة في فلسْطين

الفصل الأول
الحق الديني

أولا: الترابط بين الحقوق الدينية والتاريخية

قامت الحركة الصهيونية المعاصرة، في احدى دعائمها البارزة، على حق بني اسرائيل الديني في الأرض المقدسة، أي فلسطين. ويستند اليهود، في ادعائهم هذا، الى نصوص التوراة التي وعدهم الرب فيها بأرض الميعاد. وكما يزعمون، فان الرب أعطاهم، وحدهم، هذا الحق بصفتهم «شعب الله المختار»، وبصفتهم أبناء ابراهيم من ولده اسحق، كما ان الميثاق الذي قطعه الرب لابراهيم ونسله من بعده، لا يعني أحدا سواهم. هذا هو الشرح التلمودي واليهودي للتوراة.

أما بالنسبة الى الحق التاريخي، فهم يستندون الى قيام مملكة داود وسليمان، ثم مملكتين اسرائيليتين في فلسطين منذ اكثر من ثلاثة آلاف عام. والسبب في كونهما مملكتين لا مملكة واحدة، هو عجز قضاة اليهود وملوكهم عن توحيد الاسرائيليين في مملكة واحدة وقد عاشت المملكة «الجنوبية» بضع مئات من السنين أكثر من «الشمالية».

والرد المنطقي على ادعاء اليهود بحقهم في بناء دولة اسرائيلية سنة ١٩٤٨، استنادا الى دولتهم الغابرة منذ آلاف السنين، هو استحالة اعادة تقسيم الدول على الكرة الأرضية بناء على التاريخ الغابر. ولو صحّ ذلك، لكان في الامكان عودة الحكم العربي الى اسبانيا مثلا، وعودة حكم اسبانيا الى اميركا الجنوبية والى المكسيك، وعودة حكم المكسيك الى قسم من الولايات المتحدة، وكذلك عودة حكم بريطانيا الى الولايات المتحدة.

بالاضافة الى الاستحالة الواقعية والسياسية، فان مبدأ الحق التاريخي نفسه لا وجود له في المبادىء السياسية الحديثة، ولم يكن له أي شأن في تاريخ العلاقات بين الأمم او في نشأة الدول. وحتى لو افترضنا ان هذا المبدأ قائم، وتناولنا الفرضية الاسرائيلية نفسها، فالشعب الفلسطيني لا الاسرائيلي يصبح صاحب الحق الأقوى، ان لم نقل الأوحد، في ارض فلسطين. فالفلسطينيون هم أصحاب

الأرض وسادتها منذ آلاف السنين حتى قيام الدولة الصهيونية في منتصف القرن العشرين. هم أصحاب حق تاريخي بعيد الجذور؛ حق لم ينقطع يوما إلا بنجاح التآمر الصهيوني الدولي، بدءا بوعد بلفور وانتهاء بقرار التقسيم.

أما بالنسبة الى الحق الديني، فيجدر أولا إلقاء الضوء على حقيقة الوعود الدينية في الكتاب المقدّس، وعبر سؤال مبسّط: هل وعد الرب الاسرائيليين بهذه الأرض المقدسة؟ ثم ما هي حدود هذه الأرض؟

ان الدعاية الصهيونية لا تترك مجالا للانسان العادي، أوروبيا كان او اميركيا او سوى ذلك، إلا ان يعتقد اعتقادا جازما ان الوعود الدينية امر مقدس لا ريب فيه. وفي هذه الدراسة، سوف نعتمد شروحات دينية وردودا لاهوتية لمجموعة مى رجال الدين المسيحيين واليهود، وجلهم من المتخصصين بدراسة الكتاب المقدس، ولهم جميعا دراسات منشورة. هذا، فضلا عن قيام معظمهم بتدريس «العهد القديم» أو «العهد الجديد» في جامعات بريطانية وأميركية متعددة.

من هؤلاء: الحاخام الدكتور إلمر بيرغر من كبار الأساتذة والمؤلفين اليهود في هذا الحقل، والبروفسور ألفرد غيّوم استاذ «العهد القديم» في جامعة لندن سابقا، والدكتور وليم ستينسبرنغ، والدكتور فرانك ستاغ، والدكتور اوفيد سيليرز، الاساتذة في الجامعات الاميركية المتعددة. ومى رجال الكنيسة: المطران جوناثان شيرمان. ومن الباحثين الفلسطينيين: الدكتور فايز صايغ، ووالده هو القس عبدالله صايغ.

جميع هؤلاء يتفقون في كتاباتهم على انه لا يوجد اساس لادعاء الصهيونية بحقها في فلسطين على اساس النبوءات التوراتية. وهم يجزمون ان هذا «الاساس الديني»، الذي اقيمت بناء عليه الدولة الاسرائيلية سنة ١٩٤٨، لا وجود له أصلا لا في «العهد القديم» ولا في «العهد الجديد». ويتضح من دراساتهم ان النبوءات التوراتية كانت للجنس البشري كافة، ولم تكن محصورة باليهود او بالصهاينة.[١]

وقبل أن نتناول هذه الردود بشيء من التفصيل، ونتوقف إزاء ابرز النصوص التي تستند اليها الحركة الصهيونية في دعواها وفي ادعائها، نعود الى اسس الفكر الديني الاسرائيلي، لكونها تختلف عن اسس الأديان المعروفة.

---

(١) William F. Stinespring, «Introduction,» p 10, as quoted in M T. Mehdi, ed., *Palestine and The Bible* (New York New World Press, 1970), p 10.

ثانيا: الفكر الديني الاسرائيلي

ان الالمام بطبيعة الدين اليهودي ونشأته وتاريخه ضرورة لفهم الحركة الصهيونية العالمية الحديثة؛ ذلك بأن الدين اليهودي هو عصب العنصرية اليهودية. و«اسرائيل» الدولة التي يقدمها روادها وبُناتها الصهاينة الى العالم الغربي على انها الدولة وارثة الحضارة والثقافة الغربيتين، والمتفوقة بالعلم والتكنولوجيا، والواحة الوحيدة للديمقراطية في هده المنطقة مس العالم، «اسرائيل» هذه هي ابعد دول العالم عن «العلمنة»، التي تعتبر من ابرز الأسس التي قامت عليها الديمقراطيات الغربية الحديثة. فتقاليدها الدينية وطقوسها جزء لا يتجزأ من كيانها، ومن البداهة بمكان الأهمية القصوى لتمسك «اسرائيل» بأهداب الشرائع والطقوس والعقائد. فهي ان تخلت عن هذا المنحى، وتحولت الى دولة علمانية عصرية حقا، فقدت مبرر وجودها.

يختلف الدين اليهودي، نشأة وتاريخا، عن سائر الأديان المعروفة لكونه مجموعة من الشرائع والطقوس وقواعد السلوك والأخلاق، تراكمت وتطورت على مدى آلاف من السنين. اي انها لم تنزل على نبي واحد. فتاريخ النبوءة لدى الاسرائيليين يواكب تاريخهم الاجتماعي والسياسي، وهو حلقات متواصلة منذ بداية تاريخهم حتى بداية القرن الرابع ق.م. ففي بداية القرن الرابع ق.م.، يتوقف المدققون من أحبار اليهود معتبرين ان مرحلة النبوّة قد توقفت. أما سواهم من غير المدققين، فيتخطون القرن الرابع، وتستمر عندهم مرحلة النبوة على ايدي الكهنة والأحبار. ويبقى باب النبوة مفتوحا لدى مؤرخي الفكر الاسرائيلي الديني، ليدخل منه أنبياء انكرهم اليهود وكفروا بهم، ومنهم: يوحنا المعمدان، والسيد المسيح عليه السلام. وهذا، إن لم يُبقِ بعض الغلاة من الصهاينة باب النبوة مفتوحا حتى مطلع القرن العشرين، ليدخل من بابه العريض تيودور هيرتسل.[٢]

يتلخص جوهر الديانة اليهودية في ان المسيح لم يأت بعد. وانتظار المسيح لا يتم إلا فوق ارض فلسطين، وتحت سقف هيكل سليمان. فاليهودي هو ذلك الانسان الذي ما برح ينتظر قدوم المسيح منذ ألفي سنة. وطال الانتظار، فكانت الحركة الصهيونية الحديثة، وهي من اقوى الحركات السياسية الاخطبوطية المعاصرة؛ انها الجسر لتحقيق الحلم الديني الموعود بحكم فلسطين.

تلك هي الصورة ظاهريا. أما الحقيقة، فعلى العكس من ذلك إذ ان بناء الدولة هو الهدف، والحلم الديني هو الجسر الى ذاك الهدف

منذ زوال مملكة داود وسليمان، واليهود ينتظرون من الرب مسيحا يخلصهم من حكم الرومان.

---

(٢) حسن ظاظا، «الفكر الديني الاسرائيلي. أطواره ومذاهبه» (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧١)، ص ٥.

واستمروا يفتشون عن المسيح حتى جاء المسيح، لكنهم لم يصدقوه. وقد سأل اليهود السيد المسيح مرات: أأنت هو المسيح، ام ننتظر مسيحا آخر؟ فيجيب: اذا قلت لكم لا تصدقون. وكان يقول لهم ذلك لأنه كان يعلم صفات المسيح الذي يحلمون به. كانوا يعتقدون انه سيأتي بسلطان زمني يحقق لهم الحلم الدنيوي الكبير، أي دولة اسرائيل. لكن المسيح بشّرهم بخلاص روحي. لم يرقهم ذلك، ولم يكفهم الخلاص الروحي: فرفضوه، وتآمروا عليه، وصلبوه.(٣)

ان كتاب اليهودية الديني الرئيسي هو التوراة. ومعنى التوراة الحرفي هو «التعليم»، ومدلولها الاول شريعة النبي موسى او أسفار موسى الخمسة، التي اتسعت مع الزمن حتى صارت تشمل أسفارا اخرى لأنبياء اسرائيل، وأسفارا تاريخية تتعلق بتاريخهم، وأسفارا ادبية شعرية. وتعتبر مزامير داود، من بينها، نموذجا للأدب الرفيع.

ومن عهد موسى الى السبي، والعودة من السبي البابلي واختتام أسفار التوراة، هناك ما يقرب من ألف سنة، وقد جمعت على يد عزرا الكاتب بعد العودة من السبي.

وفي القرن الأول المسيحي، ذكر المؤرخ اليهودي الكبير، يوسيفوس، ان التوراة تحتوي على ٢٢ سفرا، وهذه الأسفار تؤلف «العهد القديم» من الكتاب المقدّس. ولما جاءت المسيحية سمّي عهدها العهد الجديد، وهو يحتوي على ٢٧ سفرا.

وقد اعترفت الكنيسة المسيحية بالعهد القديم، فأصبح الكتاب المقدس ــ بالعهدين القديم والجديد ــ المرجع الديني لها. أما اليهودية، فهي مقتصرة بتعاليمها على العهد القديم، وبالاضافة اليه التلمود، وقد وضع نهائيا بعد انتهاء أسفار التوراة بعدة قرون.(٤)

نشأ التلمود عندما استحدثت وسائل جديدة لتفسير التوراة. وقد أُطلق على هذا العمل «المشْنا»، ومعناها تفسير شريعة شفوية معزوة الى النبي موسى. وفي القرن المسيحي الأول، كان لدى اليهود تياران دينيان، هما الفريسيون والصدوقيون. وقد كان بينهما ثلاثمائة نقطة خلاف في التفسير. وتعاقب المفسرون، غير ان المرحلة الأولى، اي مرحلة المشنا، لم يكن التلمود فيها يحتوي على اكثر من ستة أبواب بدائية تتناول شؤون الفلاحة، والأعياد والمواسم، والنساء، والعقوبات، والذبائح والقرابين، والطهارة.

تلك هي كتب المشنا الاساسية. غير ان اليهود اكتشفوا ان المشنا نفسها بحاجة الى الشرح؛

---

(٣) كمال الحاج وعبدالله النجار، «الصهيونية بين تاريخين» (بيروت: دار العودة، ١٩٧٢)، القسم الثاني، ص ٢٢٧ ــ ٢٢٩

(٤) عجاج نويهض، «بروتوكولات حكماء صهيون» (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، الطبعة الثانية، ١٩٨٠)، المجلد الثاني، ص ٢ ــ ٣.

فشرحوا كثيرا وأضافوا كثيرا، وأطلقوا على هذه الشروحات «الجمّارا» ومعناها التكملة، وهي شرح المشنا وقد تمت الشروحات في كل من فلسطين والعراق، فأصبح هناك تلمود اورشليمي وتلمود بابلي. غير ان التلمود البابلي بقي هو المعتمد بسبب لغته. وكلمة التلمود تعني المشنا والجمّارا معا.

انتهى العمل التلمودي في القرن السادس بعد المسيح، وقبل ظهور الاسلام بقليل. وكان قد بلغ اثني عشر مجلدا. غير ان أحبار اليهود ما برحوا يضيفون الى التلمود ما يشاؤون حتى جاوز في كثير من المواضع حدود العقل، وصارت الاقوال المختلفة فيه تحول دون الوصول الى جميع نصوصه بسهولة، إلا بالنسبة الى رجال الدين.

والتلمود اليوم، في اللغة الانكليزية ــ بأصوله ومتونه وشروحه وتعليقاته ــ يبلغ ستة وثلاثين مجلدا. واختفت، في اكثر من طبعة تلمودية، العبارات البذيئة والمسيئة الى السيد المسيح والبابوية. وكانت هذه العبارات قد ظهرت في الطبعة الأولى.

وفي التلمود بذور العنصرية الصهيونية وروح الاستعلاء على سائر الشعوب؛ فاليهود شعب الله المختار، وبقية الشعوب «غوييم» اي حيوانات عجماء. وقد نعتوا العرب، بالذات، بأوصاف محتقرة، منها «العرب، الأمة المحتقرة»، و«العرب هم مرتكبو تسعة أعشار الجرائم في العالم»، و«العربي يعبد الغبار الذي يعلق بصندله.»[٥]

ونختصر أهمية التلمود في الفكر الديني الاسرائيلي بما قاله بولس حنا مسعد:

> للمسيحي إنجيله ينشر به العالم، وللمسلم قرآنه ينشره بين جميع الشعوب. أما الاسرائيلي فله كتابان: كتاب معروف وهو التوراة لا يعمل به، وآخر مجهول عند العالم، يدعى التلمود، يفضله على الاول، ويدرسه خفية، وهو أساس كل مصيبة
>
> ان النصارى يؤمنون بأن الله هو أبو الجميع، والمسلمين يعترفون بأن الله رب العالمين أما الصهيونيون فلا يريدون ان يكون الإله إلا لهم وحدهم. رد على ذلك، ان التلمود ينص على ان جميع خيرات الارض ملك لبني اسرائيل، وان النصارى والمسلمين وعبدة الأوثان خلقوا عبيدا لهم. هم متحدرون من الله كما يتحدّر الابن من ابيه، وشعوب الارض مشتقة من الأرواح النجسة، ولم يعطوا صورة الانسانية إلا اكراما لأبناء اسرائيل.[٦]

---

(٥) راجع: المصدر نفسه، ص ١٤٩ ــ ١٦٧.

(٦) بولس حنا مسعد، «همجية التعاليم الصهيونية» (القاهرة: مطبعة كوستاتسوماس، ١٩٣٨)، ص ٤.

راجع بشأن تعاليم التلمود عن المسيحيين: الأب برانايتس، «فضح التلمود: تعاليم الحاخامين السرية»، أعدّه وترجمه عن الانكليزية زهدي الفاتح (بيروت: دار النفائس، الطبعة الثانية، ١٩٨٣).

وضع النص الاصلي للكتاب باللغتين العبرية واللاتينية، وقد صدر عن «الاكاديمية الامبراطورية للعلوم» في سان بيترسبورغ، ١٨٩٢.

ثالثا: فلسطين والكتاب المقدس

يسود اعتقاد عام، في الشرق والغرب، ان هناك علاقة دينية وطيدة بين «اسرائيل» التي اعلنت على جزء من ارض فلسطين في ١٥ ايار / مايو ١٩٤٨ بمؤامرة دولية كبرى، وبين نبوءات التوراة المعروفة التي منحت فلسطين وما حولها لليهود وحدهم من دون سائر شعوب الارض.

لا بد، لمناقشة هذا الاعتقاد، من العودة الى النصوص التوراتية الاصلية، لفهمها على حقيقتها ومقارنتها بالشرح الصهيوني المقابل. وما نقتبسه في هذه المناقشة هو ترجمة مختصرة لآراء البروفسور ألفرد غيّوم، الذي يطرح ثلاثة اسئلة رئيسية: ١ ــ لمن أُعطيت هذه الوعود؟ ٢ ــ ما هي حدود الارض الموعودة؟ ٣ ــ هل كانت تلك الوعود مشروطة؟

للاجابة عن السؤال الاول نعود الى سفر التكوين (١٣: ١٤ ــ ١٥)، وفيه قال الرب لأبرام (ابراهيم) وهو واقف على تلة في ارض كنعان (فلسطين): «وقالَ الربُّ لابرامَ بعدَ اعتزالِ لُوطٍ عنه. ارفَعْ عينَيْكَ وانظُرْ منَ الموضعِ الذي انتَ فيهِ شِمالاً وجَنوباً وشَرْقاً وغَرْباً. لأنَّ جميعَ الارضِ التي انتَ ترى لكَ أُعطيها ولنسْلِكَ الى الأبد.» وجاء في سفر التكوين أيضا (١٥: ١٨): «في ذلكَ اليومِ قَطَعَ الربُّ مع أَبْرامَ ميثاقاً قائلاً. لنسلِكَ أُعطي هذهِ الأرضَ من نهرِ مِصْرَ الى النهرِ الكبيرِ نهرِ الفُرات.»

هذه الوعود تكررت لاسحق ويعقوب؛ فبينما كان يعقوب ذاهبا من بئر السبع الى حاران، غابت الشمس فنام الى جانب الطريق، وخاطبه الرب وهو نائم (سفر التكوين ٢٨: ١٢ ــ ١٤): «ورأى حُلْماً واذا سُلَّمٌ منصوبَةٌ على الأرضِ ورأسُها يَمَسُّ السماءَ. وهُوَذا ملائكةُ اللهِ صاعدةٌ ونازلةٌ عليها. وهُوَذا الربُّ واقفٌ عليها فقالَ أنا الربُّ إلهُ ابراهيمَ أبيكَ وإلهُ اسحقَ. الأرضُ التي انتَ مضْطَجعٌ عليها أُعطيها لكَ ولنسلِكَ. ويكونُ نسلُكَ كتُرابِ الأرضِ وتمتدُّ غرباً وشرقاً وشَمالاً وجَنوباً ويتباركُ فيكَ وفي نسلِكَ جميعُ قبائلِ الارض.»

وفي العهد الذي قطعه الرب لأبرام لما اصبح في التاسعة والتسعين من عمره، قال له (سفر التكوين ١٧: ٤ ــ ٨): «أمّا أنا فَهُوَذا عهدِي معكَ وتكونُ أبًا لجمهورٍ منَ الأممِ. فلا يُدعَى اسمُكَ بَعْدُ أبْرامَ بلْ يكونُ اسمُكَ إبراهيمَ. لأني اجعلُكَ أبًا لجمهورٍ من الأممِ. وأُثْمِرُكَ كثيرًا جدًا وأَجْعَلُكَ أُمَمًا. وملوكٌ منكَ يَخْرُجونَ. وأُقيمُ عهدِي بيني وبينك وبين نسلِكَ من بعدِكَ في أجيالِهِمْ عهدًا أبديًا. لأكونَ إلهًا لكَ ولنسلِكَ من بعدِكَ. وأُعطي لكَ ولنسلِكَ من بعدِكَ ارضَ غُرْبَتِكَ كُلَّ ارضِ كنعانَ مُلْكاً أبديًا. وأكونُ إلهَهُمْ.»

وهناك نصوص دينية اخرى، لكن المذكورة أعلاه هي الأهم. وفي ضوء هذه النصوص يسود

الاعتقاد ان الوعود قطعت لليهود وحدهم. غير ان التوراة لم تقل ذلك قط. فكلمة «لنسلك» تعني العرب أيضا من مسيحيين ومسلمين. فهؤلاء أيضا من نسل اسماعيل، الابن الاكبر لابراهيم. وفي سفر التكوين ذكرٌ للقبائل العربية التي يعتبر اسماعيل جدا لها، وكذلك وعد الرب بأن يجعل من نسل اسماعيل أمّة (سفر التكوين ٢١. ٩ ــ ١٣): «ورأتْ سارَةُ ابنَ هاجَرَ المِصْريةِ الذي وَلَدَتْهُ لإبراهيمَ يَمْزَحُ. فقالتْ لإبراهيمَ اطرُدْ هذهِ الجاريةَ وابْنَها. لأن ابنَ هذه الجاريةِ لا يَرِثُ مع ابني اسحقَ. فَقَبُحَ الكلامُ جدًا في عيني إبراهيمَ لسببِ ابنهِ. فقالَ اللهُ لإبراهيمَ لا يَقْبُحُ في عينيكَ منْ اجلِ الغلامِ ومن اجلِ جاريتِكَ. في كلِّ ما تقولُ لكَ سارَةُ اسمَعْ لقولِها. لأنهُ باسحقَ يُدعَى لكَ نَسْلٌ. وابنُ الجاريةِ أيضًا سأجعلُهُ أُمَّةً لأنهُ نَسْلُكَ.»

من هنا، فالذين يشملهم الوعد بحرفيته لا شك في انهم أبناء اسماعيل، اي العرب. وأكثر من ذلك، فالوعد بأرض كنعان ملكا أبديا هو لنسل ابراهيم ــ هذا ان أخذنا الوعد بحرفيته. فهذا الوعد عندما اعطي لابراهيم كان ابنه اسماعيل، وهو ابنه الاكبر من جاريته هاجر، المقصود بهذا الوعد. أما اسحق، ابنه الثاني من زوجته سارة، فلم يكن قد ولد بعد.

إذاً، فالوعود الاولى تشمل العرب بلا اي جدال. أما الوعود لاسحق ويعقوب، فيبدو انها مقتصرة على ذريتهما، لكنها لا تستثني العرب بصورة واضحة أبدا.

ويجدر التذكر ان عددا من العرب رافقوا النبي موسى نحو فلسطين. وكانت مصاهرة النبي موسى للعرب، بزواجه من صفّورة ابنة رعوئيل كاهن المديانيين، وذلك بعد ان غادر مصر، واكرام الملك له ورعايته له، سببا مهما من أسباب نجاحه. وقد وردت قصة زواجه في «سفر الخروج»، وفيها أيضا ان صفّورة ولدت له ابنا: «فدعا اسمَهُ جِرْشُومَ. لأنهُ قالَ كنتُ نزيلاً في ارضٍ غريبةٍ.» (٢ : ٢٢).

والسؤال الثاني بشأن حدود الأرض الموعودة. وللاجابة عنه، نعرض النصوص التي وردت أعلاه، ومنها نعلم ان الاشارة الى الارض كانت أولا غير محددة «هذه الارض»، اي شكيم (نابلس) وما تراه العين من حولها. ثم في نصوص غيرها، تمتد الأرض من النيل الى الفرات. وفي غيرها تتحدث التوراة عن نسل ابراهيم ينتشرون في بقاع الارض في كل الاتجاهات.

ومن المهم هنا ان نذكر ان الوعد عندما أعطي من النيل الى الفرات كان ذلك قبل مولد اسحق، وحتى قبل مولد اسماعيل؛ فالارض، إذاً، لن تكون بالضرورة اسرائيلية. وهذا أيضا ينطبق على شرقي الاردن؛ فالوعد بالأردن، الذي يعتبره الاسرائيليون جزءا من ارضهم الموعودة باعتبار ان الواقف على التلة كان في استطاعته رؤية ارض شرقي الاردن ــ هذا الوعد أيضا يسبق مولد اسماعيل واسحق.

وورد، في سفر التثنية، ان النبي موسى قال لشعبه ان الرب امرهم باحتلال الارض من البحر المتوسط غربا حتى الفرات شرقا، ومن النقب جنوبا حتى لبنان شمالا

هذه التعليمات والأوامر لم ينفذها الاسرائيليون. فهم لم يتمكنوا من احتلال الساحل الفلسطيني حيث كانت القبائل الفلسطينية مسيطرة، ولم يتمكنوا قط من التوغل في ارض الفينيقيين. وفي عهد الملك داود فقط توسعت المملكة الاسرائيلية، غير انها عادت فتقلصت في نهاية عهد سليمان، واستمرت في تقلصها حتى انتهت على ايدي البابليين سنة ٥٩٧ ق.م.

وردا على السؤال الثالث هل كانت هذه الوعود مشروطة؟ يجاب باختصار: نعم. فالوعد يتطلب من الشعب الطاعة والاستقامة، فان فشل الاسرائيليون في ذلك أصابهم الضرر والهلاك. ويحتوي الاصحاح الثامن والعشرون من سفر التثنية على جميع صور المهانة والمذلة والسبي والعذاب التي تنتظر الاسرائيليين ان لم يستمعوا الى صوت الرب ولم يعملوا بجميع الوصايا التي أنزلها على النبي موسى. ومما جاء فيه (سفر التثنية ٢٨ : ٣٦ ــ ٤٥):

«يذهبُ بكَ الربُّ وبِمَلِكِكَ الذي تقيمُهُ عليكَ الى أُمَّةٍ لم تعرفْها انتَ ولا آباؤُكَ وتَعْبُدُ هناكَ آلِهَةً أُخرى من خَشَبٍ وحَجَرٍ. وتكونُ دَهَشًا ومَثَلًا وهُزْأَةً في جميعِ الشعوبِ الذين يسوقُكَ الربُّ اليهم. بِذاراً كثيراً تُخْرِجُ الى الحقلِ وقليلاً تَجْمَعُ لأن الجرادَ يأكُلُهُ كرومًا تَغْرِسُ وتشتغِلُ وخَمْرًا لا تشربُ ولا تَجني لأن الدودَ يأكُلُها. يكونُ لكَ زيتونٌ في جميعِ تخومِكَ وبزيتٍ لا تَدَّهِنُ لأن زيتونَكَ يَنْتَثِرُ بنينَ وبناتٍ تَلِدُ ولا يكونونَ لكَ لأنهمْ الى السَّبْيِ يذهبونَ. جميعُ أشجارِكَ وأثمارِ أرضِكَ يتولاَّهُ الصَّرْصَرُ الغريبُ الذي في وسطِكَ يَسْتَعْلِي عليكَ متصاعدًا وأنتَ تنحطُّ متنازِلاً. هُوَ يُقْرِضُكَ وأنتَ لا تُقْرِضُهُ. هُوَ يكونُ رأسًا وأنتَ تكونُ ذَنَبًا وتأتي عليكَ جميعُ هذهِ اللعْناتِ وتَتْبَعُكَ وتُدْرِكُكَ حتى تَهْلِكَ لأنكَ لم تسمعْ لِصَوْتِ الربِّ إلهِكَ لتحفظَ وصاياهُ وفرائِضَهُ التي أوصاكَ بها.»

وفي تاريخ الاسرائيليين على ارض فلسطين اتضح لأحبارهم نبوءة التوراة؛ فنتيجة الضلال الذي ساروا عليه أُسر اليهود في السامرة على يد الآشوريين، وفي يهودا على يد البابليين.

ونتتبع النبوءة التوراتية بضرورة عودة الاسرائيليين من الشتات لبناء الهيكل. فهذه النبوءة قد تحققت فعلا في الماضي، وقد عاد اليهود الى يهودا وأعادوا بناء الهيكل، ثم عاشوا بنوع من الاستقلالية في عهد المكابيين. وما دامت هذه النبوءة قد تحققت مرة، فلا يمكن ان تتحقق مرتين؛ فالتوراة لم تتنبأ بمرة ثانية.[٧]

ان القيمة الكبرى للقراءة التوراتية التي قام بها البروفسور غيّوم، وأوجزناها أعلاه، تكمن في

---

(٧) Alfred Guillaume, «Zionists and the Bible,» as quoted in Mehdi, *op cit*, pp. 14-19

كونه يشرح النصوص الدينية بعقل لاهوتي مؤمن ومنصف؛ فمن البداهة، إذاً، ان يتناقض كليا مع القراءة الصهيونية للنصوص نفسها.

ومن زاوية اخرى، يطرح الدكتور إلمر بيرغر، وهو حاخام يهودي، السؤال التالي: «هل تحقق دولة ‹اسرائيل› اليوم نبوءات التوراة؟».

ويرد على السؤال بقوله انه ما من جهة محلية أو دولية، كانت ذات علاقة بالقضية الفلسطينية، قد ادعت او اقرت بأن النبوءات القديمة تشكل شرعية قانونية للمطالب الصهيونية بالأرض المقدسة. هذا، بالاضافة الى انه حتى بالنسبة الى الصهاينة الذين يقولون ان «اسرائيل» تحقق نبوءات التوراة، فهؤلاء لا يمكنهم عندما يجابهون بوصايا «التوراة» ان يبرروا او يدافعوا عن الأساليب التي اتبعت لقيام «اسرائيل». ويزداد حرجهم لدى مناقشة طبيعة القوانين والأوضاع الداخلية التي تسود «اسرائيل»، اذ لا يمكن نعتها بأنها دينية محض.

ان الجماعة الوحيدة القائمة في يومنا هذا، والتي تنادي بأهمية شرعية توراتية لـ «اسرائيل»، لا تتعدى اقلية متديّنة من الشعب الاسرائيلي، تخوض معركة سياسية حتى تتبنى الدولة قوانين منسجمة مع التوراة، ومن وحيها. ولا يبدو ان النجاح سيُكتب لمطالب هذه الاقلية في اي مستقبل منظور.(٨)

رابعا: «اسرائيل» في المفهوم المسيحي

اعتبرت الكنيسة المسيحية، منذ البداية، ان التوراة ــ اي «العهد القديم» ــ كتاب مقدس. ولم يعتقد المسيحيون الأوائل قط ان دينهم دين جديد بكليته، لكنهم آمنوا بأنه يحقق النبوءات السابقة. فأقروا الوصايا العشر، وآمنوا بأن النبوءة بقدوم المسيح المنتظر قد تحققت بمجيء يسوع المسيح.

وكان القديس بولس يبشر بأن الرجل غير اليهودي، عندما يؤمن بالمسيح يصبح وارثا لكل الوعود التي اعطيت لاسرائيل. وقد جاء في الانجيل المقدس (رسالة بولس الرسول الى اهل غلاطيّة ٦: ١٥ ــ ١٦): «لأنهُ في المسيحِ يسوعَ ليسَ الخِتانُ ينفعُ شيئًا ولا الغُرْلَةُ بَلِ الخليقةُ الجديدةُ. فكلُّ الذينَ يسلُكُونَ بحسَبِ هذا القانونِ عليهِمْ سَلامٌ ورحمةٌ وعلى إسرائِيلِ اللـهِ.»

ويعني بولس الرسول باسرائيل الله، التي تحدث عنها، المجتمع الذي يضم المؤمنين جميعا. وكذلك علّم التلاميذ الأوائل ان «العهد الجديد» الذي دعا اليه ارمياء في التوراة، وتكرر في الانجيل، قد تحقق بمجيء يسوع الناصري، وبموته، وبصعوده الى السماء.

جاء في التوراة (سفر ارمياء ٣١: ٣١ ــ ٣٤): «ها أيّامٌ تأتي يقولُ الربُّ وأَقْطَعُ معَ بيتِ اسرائيلَ

(٨) Elmer Berger, «Israel: Fulfillment of Biblical Prophecy,» as quoted in *Ibid.*, pp. 20-26.

ومع بيتِ يَهُوذا عَهْدًا جديدًا. ليسَ كالعهدِ الذي قطعتُهُ مع آبائهمْ يومَ أمسكتُهُمْ بيدهِمْ لأُخْرِجَهُمْ من ارضِ مِصْرَ حينَ نَقَضُوا عهدي فرفضتُهُمْ يقولُ الربُّ. بلْ هذا هُوَ العهدُ الذي أَقْطَعُهُ مع بيتِ اسرائيلَ بعد تلكَ الأيامِ يقولُ الربُّ. أَجْعَلُ شريعتي في داخِلِهِمْ وأَكْتُبُها على قلوبِهِمْ وأكونُ لهم إلهًا وهمْ يكونونَ لي شعبًا. ولا يُعَلِّمونَ بَعْدُ كلُّ واحدٍ صاحِبَهُ وكلُّ واحدٍ أخاهُ قائلينَ اعْرِفُوا الربَّ لأنهمْ كلُّهُمْ سَيَعْرِفونَني من صغيرِهِمْ الى كبيرِهِمْ يقولُ الربُّ. لأني أَصْفَحُ عن إثمِهِمْ ولا أَذْكُرُ خطيَّتَهُمْ بَعْدُ.»

ونجد المعنى نفسه في الانجيل المقدس (الرسالة الى العبرانيّين ٨:٨ ــ ١٢): «لأنهُ يقولُ لهمُ لائِمًا هُوَذا أيّامٌ تأتي يقولُ الربُّ حينَ أُكَمِّلُ مع بيتِ اسرائيلَ ومع بيتِ يَهُوذا عهدًا جديدًا. لا كالعهدِ الذي عَمِلْتُهُ مع آبائِهِمْ يومَ أَمْسَكْتُ بيدِهمْ لأُخْرِجَهُمْ من أرضِ مِصْرَ لأنهمْ لم يَثْبُتُوا في عهدي وأنا أَهْمَلْتُهُمْ يقولُ الربُّ. لأنَّ هذا هُوَ العهدُ الذي أَعْهَدُهُ مع بيتِ اسرائيلَ بعدَ تلكَ الأيامِ يقولُ الربُّ أَجْعَلُ نواميسي في أذهانِهِمْ وأكتُبُها على قلوبِهِمْ وأنا اكونُ لهمْ إلهًا وهُمْ يكونونَ لي شعبًا. ولا يُعَلِّمونَ كلُّ واحدٍ قريبَهُ وكلُّ واحدٍ أخاهُ قائلاً اعرِفِ الربَّ لأنَّ الجميعَ سَيَعْرِفونَني من صغيرِهِمْ الى كبيرِهِمْ. لأني اكونُ صَفُوحًا عن آثامِهِمْ ولا أَذْكُرُ خطاياهُمْ وتَعَدِّياتِهِمْ في ما بَعْدُ.»

وفي سير الرسل، ان بولس الرسول كان دائما فخورا بأصله اليهودي، وكان يسمي نفسه اسرائيليا، ومن نسل ابراهيم من قبيلة بنيامين. لكنه كان يؤمن بأن رفض اليهود للسيد المسيح قد ابعدهم موقتا عن الحظوة لدى الله وكان يأمل دائما بأن يرتدّوا عن فجورهم

ويختصر الدكتور اوفيد سيليرز صورة «اسرائيل» لدى المفهوم المسيحي، بقوله ان المسيحي يتصور كلمة «اسرائيل» لا بمعناها الجغرافي او العِرقي او السياسي، بل بمعناها الجامع لكل المؤمنين، فهي «اسرائيل الله».(٩)

وبمعنى مشابه يقول الدكتور فايز صايغ ان اسرائيل ذات الطبيعة البشرية قد انتهت في الديانة المسيحية لتحل مكانها اسرائيل ذات الطبيعة الروحية.(١٠) ويتبنى الدكتور صايغ شرح الدكتور ألّيس للطبيعة الروحية: «يقترب اليهودي المؤمن اليوم من السماء، وهو في الولايات المتحدة كما لو كان في القدس. واليهودي غير المؤمن بعيد عن السماء، وهو في القدس كما لو كان في نيويورك او لندن. وبالنسبة الى المسيحي أصلا، يهوديا كان او غير يهودي، فلا يربطه بأرض فلسطين سوى الاهتمام العاطفي. وذلك كل ما في الأمر.»(١١)

---

(٩) Ovid R. Sellers, «The Meaning of ‹Israel› to a Christian,» as quoted in *Ibid*, pp. 33-35

(١٠) راجع:
Fayez A Sayegh, «Do Jews have a 'Divine Right' to Palestine?,» as quoted in *Ibid*, pp 51-60

(١١) *Ibid*, p 59.

وأبلغ ما ننقل عبره جوهر المسيحية القائم على الروح، ما جاء على لسان السيد المسيح في انجيل يوحنا، وهو يجيب امرأة سألته عن مكان العبادة والصلاة الامثل: أفي الجبل حيث صلى الآباء، ام في اورشليم؟ (انجيل يوحنا ٤: ٢١ ــ ٢٤):

«قالَ لها يسوعُ يا امرأةُ صدِّقيني انهُ تأتي ساعةٌ لا في هذا الجَبَلِ ولا في أُورُشَلِيمَ تَسْجُدونَ للآبِ انتمْ تَسْجُدونَ لما لا تعلمون. أما نحن فَنَسْجُدُ لما نَعْلَمْ لأنّ الخلاصَ هو من اليهودِ. ولكنْ تأتي ساعةٌ وهي الآنَ حينَ السّاجِدونَ الحقيقيونَ يسجُدونَ للآبِ بالروحِ والحقِّ. لأنّ الآبَ طالِبٌ مِثْلَ هؤلاء الساجدينَ له. اللهُ روحٌ. والذينَ يسجُدونَ له فبالروحِ والحقِّ يبغي ان يَسْجُدوا.»

خامسا: وعد التوراة لاسرائيل بالخراب

حتى تكتمل الوعود الدينية لليهود كما جاءت في التوراة على حقيقتها، تجدر الاشارة الى ان هناك وعودا من نوع آخر، وعودا بفناء الدولة لا ببنائها، وبتمزيق اسرائيل لا باحيائها. غير ان الفكر الصهيوني لا يتوقف لحظة ازاء هذه الوعود بغية محوها من الأذهان، ذلك بأنها وعود تنذر الاسرائيليين بالخراب [١٢]

ففي سفر الملوك الأول، يبتدىء الاصحاح الحادي عشر بذكر النساء اللاتي احبهن الملك سليمان؛ فمع بنت فرعون مصر تزوج فتيات مؤابيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثّيات، وكان الرب قد اوصى بني اسرائيل بالابتعاد عن هذه الامم كيلا يتعلقوا بآلهة اخرى. وقد كان لسليمان سبعمائة من النساء السيدات، وثلاثمائة من السراري كما ورد في الاصحاح نفسه، وكانت نساؤه الغريبات يوقدن ويذبحن لآلهتهن. وهذا ما اغضب الرب، فورد في سفر الملوك الاول (١١. ٩ ــ ١٢): «فَغَضِبَ الربُّ على سُلَيْمَانَ لأنَّ قلبَهُ مالَ عن الربِّ إلهِ اسرائيلَ الذي تراءى له مرتين وأوصاهُ في هذا الامرِ انْ لا يَتَّبِعَ آلِهَةً أُخْرى. فلمْ يَحْفَظْ ما أوصى بهِ الربُّ. فقالَ الربُّ لسليمانَ من اجلِ أَنَّ ذلكَ عندَكَ ولمْ تحفظْ عهدي وفرائضي التي اوصيتُكَ بها فاني أُمَزِّقُ المملكةَ عنْكَ تمزيقًا وأُعطيها لعبدِكَ. إلاّ إني لا أَفْعَلُ ذلكَ في أيامِكَ من اجلِ داودَ ابيكَ بلْ من يدِ ابنِكَ أُمَزِّقُها.»

وفي الاصحاح التاسع من سفر الملوك الاول أيضا، يهدد الرب سليمان ان لم يتبع بنو اسرائيل وصاياه وفرائضه، بأن يقطع اسرائيل عن وجه الارض (٩: ٦ ــ ٩): «إنْ كنتمْ تنقلبونَ انتمْ او أبناؤكُمْ

(١٢) Ilene Beatty, *Arab and Jew in the Land of Canaan* (Chicago. Henry Regnery Company, 1957), p. 65

من ورائي ولا تحفَظُونَ وصاياي فرائضيَ التي جعلْتُها أمـامكُمْ بل تذهبونَ وتَعْبُدونَ آلِهَةً أُخرى وتَسْجُدونَ لها فاني أَقْطَعُ اسرائِيلَ عن وجهِ الأرض التي اعطيتُهُمْ إياها والبيتُ الذي قدستُهُ لاسمي أَنفيهِ من أمامي ويكونُ اسرائيلُ مَثَلاً وهُزْأَةً في جميعِ الشعوبِ. وهذا البيتُ يكونُ عِبْرَةً. كلُّ من يمرُّ عليهِ يتعجَّبُ ويَصْفُرُ ويقولونَ لماذا عَمِلَ الربُّ هكذا لهذهِ الارضِ ولهذا البيتِ. فيقولونَ من احلِ انهمْ تركوا الربَّ إلهَهُمْ الذي اخرجَ آباءَهُمْ من ارضِ مِصْرَ وتمسَّكوا بآلهةٍ أُخرى وسَجَدوا لها وَعَبَدُوها لذلكَ جَلَبَ الربُّ عليهِمْ كلَّ هذا الشرِّ.»

* * *

وكما تتجاهل الصهيونية في كتاباتها الوعود المذكورة أعلاه لأنها ليست في مصلحتها، فهي تتجاهل أيضا وحود اسماعيل، الابن الاكبر لابراهيم عليه السلام وجدّ العرب. والسبب لا يحتاج الى تبيان؛ فهي ان اعترفت باسماعيل اعترفت بحق العرب في فلسطين فالتوراة المقدسة إذاً، بالنسبة الى العقل الصهيوني، أداة للمآرب السياسية لا كتاب صلاة، يأخذ منه ما يشاء ويتغاضى عما يشاء.

الفصل الثاني
موجز لتاريخ فلسطين القديم

أولا : مصادر التاريخ الفلسطيني القديم

تعتبر التوراة المصدر الاساسي او الوحيد تقريبا الذي يرجع اليه الباحثون في تاريخ فلسطين القديم، وذلك باستثناء الكتابات اليونانية والرومانية المتأخرة. ولكون التوراة كتابا دينيا مقدسا، فقد كانت الحقائق تقبل من دون نقاش [١٣] لكن، لما كانت التوراة من كتابة اليهود، واليهود كانوا من ألد أعداء الكنعانيين والفينيقيين، لذلك كان مؤرخو اليهود شديدي الوطأة في حكمهم على الحضارتين الكنعانية والفينيقية. غير انه على الرغم من تحيزهم الواضح، فان الدكتور انيس فريحة يرى ان التوراة تبقى من افضل المصادر لدراسة الكنعانيين والفينيقيين ــ اذا استثنينا الحفريات.[١٤]

وتتداخل طبيعة التوراة الدينية والتاريخية، هذا بصرف النظر عن وجود فريق يرفض معالجة التوراة ككتاب تاريخي. غير ان هذا الرفض لا يلغي حقيقة كون التوراة، فعلا، مرجعا تاريخيا مهما لهذه المرحلة، ان لم يكن الأهم.

تتباهى كل اسيكلوبيديا عصرية بأنها تحتوي على جميع الاسماء والموضوعات التوراتية. ومن باب التوراة دخل المؤرخون العبريون آفاق الفكر الاوروبي والغربي الحديث، كما كان لهم اثر واضح في فن التأريخ او صناعته ومن المؤرخين الاميركيين من يعتبر المؤرخين العبريين روادا في كتابة التاريخ، ومبدعين بحيث انهم قد جعلوا للتاريخ معنى بكتابتهم الخاصة؛ فبالنسبة الى المؤرخ العبري، لا يوجد حدث مصادفة، فالأعمال من صنع الله لعقاب الشعب او لمكافأته.[١٥]

---

(١٣) احمد سوسه، «العرب واليهود في التاريخ: حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الآثارية» (بغداد: وزارة الاعلام ــ مديرية الثقافة العامة، ١٩٧٢)، المقدمة، ص ل ــ م.

(١٤) انيس فريحة، «أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها. دراسة لغوية»، سلسلة العلوم الشرقية ــ الحلقة السابعة والعشرون (بيروت: الجامعة الاميركية ــ منشورات كلية العلوم والآداب، ١٩٥٦)، المقدمة، ص XXIV.

(١٥) Stewart C Easton, *The Heritage of the Past From the Earliest Times to the Close of the Middle Ages* (New York, Holt, Rinhart and Winston, 1963), p 115

ان هيرودوتس، ابا التاريخ، لم يلق مديحا من الكتّاب الاوروبيين والاميركيين كما لقي المؤرخون العبريون. ونتساءل بعد ذلك عن تداخل طبيعة التوراة الدينية والتاريخية؟

ان ابرز المكتشفات الأثرية، بالاضافة الى نقوش البابليين والآشوريين والمصريين، هي تلك المعروفة بمكتشفات تل العمارنة في صعيد مصر، التي تعود الى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد؛ وهي لوحات مسمارية كتبت باللغة الاكادية، وموضوعها مراسلات من ولاة الأقاليم والحكام الى فراعنة مصر. ويظهر على بعض اللوحات، في الرسائل الواردة من ارض كنعان، تفسيرات باللغة الكنعانية، تعتبر الاكثر قدما مما لدينا من الكتابة الكنعانية.[١٦]

عثر على رسائل تل العمارنة سنة ١٨٨٧، وهي عبارة عن ٣٦٠ آجرّة او لوحة مسمارية. وهذه الرسائل هي من افضل المصادر الموثوق بها فيما يتعلق بالحياة السياسية والاجتماعية والدينية لتلك العهود الغابرة في هذه المنطقة[١٧] (سوريا، ولبنان، والاردن، وفلسطين، والعراق).

وكما اكتشف فلاح مصري اول لوحة مسمارية مصادفة في تل العمارنة، اكتشف أيضا فلاح سوري المنطقة الاثرية المهمة في رأس شمرا الى الشمال من اللاذقية؛ فقد ارتطم محراثه بسرداب تحت الأرض في يوم ربيعي من سنة ١٩٢٨ وفي تلك السنة، كان البحث والحفريات لبعثة فرنسية؛ فالبلاد كانت تحت وطأة الانتداب الفرنسي. أما تل العمارنة، فالسباقون اليها كانوا الألمان.

عرفت منطقة رأس شمرا أيام الفينيقيين بمدينة اوغاريت، وكانت ميناء مهما وقد عثر فيها على قصر كبير وتماثيل وفخار وعظام بشرية ومجموعة كبيرة من اللوحات المسمارية، معظمها أساطير وملاحم شعرية وأناشيد وصلوات دينية كتبت باللغة الكنعانية ـ الفينيقية

ولأوغاريت، بالاضافة الى اهميتها التاريخية، اهمية حضارية ادبية بالغة؛ فاللوحات تعود الى سنة ١٥٠٠ ق م. تقريبا، ومن البديهي ان الملاحم الشعرية والأناشيد المنقوشة تعود الى قبل ذلك التاريخ. وهي تثبت ان الكنعانيين والفينيقيين قد عرفوا ادب الملاحم قبل الاسرائيليين بزمن طويل. فالاسرائيليون يدعون، من جملة ادعاءاتهم، انهم كانوا الرواد في ادب الملاحم.[١٨]

وتبرز اهمية مكتشفات تل العمارنة وأوغاريت، من ناحية اخرى، في كونها مجموعة وثائقية لا يناقش في صحتها. وبمقارنة ما ورد فيها بما ورد في التوراة، علينا ان نتذكر ان المكتشفات الأثرية تعود الى الزمن الاقدم، وان التوراة كانت قد كتبت في عصور لاحقة، وعلى مدى عصور مديدة. يضاف الى

---

(١٦) حسن ظاظا، «الساميون ولغاتهم: تعريف بالقرابات اللغوية والحضارية للعرب» (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١)، ص ٥٤

(١٧) أنيس فريحة، مصدر سبق ذكره، المقدمة، ص XXIV

(١٨) حسن ظاظا، «الساميون ولغاتهم...»، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤ ــ ٥٦

ذلك، ان المعلومات الواردة في هذه النقوش والكتابات المسمارية القديمة لا تعود الى شعب واحد، بل الى عدد من شعوب المنطقة: الى السومريين والكنعانيين والفينيقيين والاكاديين والبابليين والحثيين والآشوريين والمصريين، وهي باللغات الاصلية، وتعود الى الزمن الذي جرت فيه الأحداث

ويقدر عدد الوثائق الأصلية القديمة بنصف مليون قطعة، تتناول شؤون الحياة المختلفة لتلك المرحلة التاريخية. وفي ضوء هذه المكتشفات، عمد فريق من المؤرخين الى التمييز بين الحقائق الواقعة والأساطير في التوراة، وقد تمكنوا من ضبط التواريخ وفقا للتسلسل الزمني.(١٩)

ويوضح الدكتور احمد سوسه ــ وهو من ابرز المؤرخين العرب المتضلعين من علم الآثار ــ اهمية هذه الوثائق بما يلي:

١ ــ تشخيص اكثر مواقع المدن والأماكن التي ورد ذكرها في هذه المدوّنات القديمة وفي كتابات التوراة.

٢ ــ تعيين تواريخ الحوادث بصورة مضبوطة بحسب تسلسلها الزمني وتوضيح علاقة الأقوام بعضها ببعض وتعيين أدوارها، وخاصة هجرة الأقوام بوجه عام وتطور ثقافاتها ولغاتها

٣ ــ تتبّع أزمان الهجرات السامية من جزيرة العرب الى فلسطين والى بلاد الهلال الخصيب قبل ظهور النبي موسى وشرح دور هذه الهجرات العربية في تطور وتقدم الحضارة السامية.

٤ ــ تعيين زمن الحوادث التاريخية الوارد ذكرها في التوراة بالقياس الى الوقائع الحربية والسلالات الحاكمة في كل عصر من العصور بحسب تسلسلها الزمني

٥ ــ توصّل الخبراء الى ان الكثير مما ورد في التوراة من قصص وأساطير وشرائع يرجع الى اصل قديم وجد مثيله او ما يشابهه في المدونات السومرية والأكادية والكنعانية والبابلية والآشورية والمصرية، مما يدل على انه ليس لليهود ادب مبتكر او ثقافة خاصة بهم.

٦ ــ توصل الخبراء الى ان مواد عديدة من التوراة مأخوذة من شريعة حمورابي والشرائع القديمة الاخرى، وان اكثر التراتيل والمزامير والتسابيح الدينية التي وردت في التوراة مقتبسة من الكنعانيين وقد عثر عليها في «اوغاريت» (فينيقيا).

٧ ــ توصل الخبراء الى ان شرائع التوراة هي نفسها الشرائع التي كان يمارسها الكنعانيون والبابليون من قبل وقد اقتبسها اليهود منهم ومارسوها ثم أدخلوها في كتبهم المقدسة.

٨ ــ ثبوت كون اليهود غرباء دخلاء على فلسطين وان كل ما يملكون من المقومات الثقافية ومن ضمنها اللغة وكتابهم المقدس مقتبس من الحضارة الكنعانية والآرامية وهي من اصل عربي، وان الاسماء التاريخية الواردة في التوراة سواء كانت اسماء شخصيات او اسماء أماكن هي من اصل كنعاني عربي ترجع الى ما قبل ظهور اللغة العبرية بأكثر من ألفي سنة.

٩ ــ ثبوت كون اليهود عاشوا في فلسطين وهم اقلية بين السكان الاصليين طيلة مدة مكوثهم فيها.

(١٩) احمد سوسه، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٣ ــ ١٨٤

١٠ ــ ثبوت عجز اليهود في اي دور من أدوار التاريخ عن انشاء دولة مدنية زمنية تضم كل فلسطين وان دولة داود وسليمان كانت قائمة في القرن العاشر قبل الميلاد على تراث كنعاني بحت قبل نشوء العبرية (اليهودية) بعدة قرون [٢٠]

وعلى النقيض من المؤرخين الذين وجدوا في المكتشفات الاثرية أساسا لاعادة النظر في تاريخ المنطقة القديم، وقف المؤرخون المؤيدون لتاريخ الاسرائيليين، كما يكتبه الاسرائيليون، وبالمجمل وبالتفاصيل، ليقولوا ان المكتشفات الأثرية هي التي اكدت ما جاء في التوراة.[٢١] ومن ابرز هؤلاء كيللر، وهو ألماني، ولم يكن من العلماء بالتوراة، غير انه لما قرأ في سنة ١٩٥٠ تقارير علماء الآثار، أمثال باروت وشيفر، جذبته المغامرة العلمية فتفرغ سنوات للدراسة والمقارنة، وخلص الى ان المكتشفات الأثرية جاءت لخدمة تاريخ الاسرائيليين.[٢٢] والعديد من هؤلاء الكتاب، يهودا كانوا او من المتهوّدين عقلا اكثر من اليهود انفسهم، يتجاهلون حتى الاختلاف في التواريخ.

ثانيا: الساميون

يتضح، وفقا للمكتشفات الأثرية في مصر والعراق، ان الساميين هم اقدم الشعوب المعروفة على ارض فلسطين؛ فمنذ الألف الرابع قبل الميلاد، كان الساميون على شاطىء البحر المتوسط الشرقي، لكننا لا نستطيع الاستنتاج انهم كانوا اول السكان البدائيين في المنطقة؛ ذلك بأن اقدم المحفوظات المصرية والبابلية تعود الى سنة ٣٥٠٠ ق م.[٢٣]

من الوجهة الدينية، يعتبر الساميون ــ في الاصل ــ القبائل المتحدرة من سام، الابن الاكبر لنوح عليه السلام واللفظة، على الصعيد العلمي، باتت لغويّة؛ فهي تشمل كل الشعوب التي تكلمت باللغات السامية: الآشورية البابليّة (الأكادية)، والكنعانية، والفينيقية، والآرامية، والعبرية، والعربية، والأثيوبية. ومما لا جدال فيه، وجود عدد من نقاط التشابه بين اللغات السامية؛[٢٤] فجذر الأفعال في كل من هذه اللغات ثلاثي، ولها صيغتان هما الماضي والمضارع، هذا

---

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٨٤ ــ ١٨٥

(٢١) Easton, *op.cit.*, p 116

(٢٢) راجع:

Werner Keller, *The Bible as History: Archaeology Confirms the Book of Books* Translated from the German by William Neil (London: Hodder & Stoughton, 1956),

John Van Seters, *In Search of History·Historiography in the Ancient World and the Origins of Biblical History* (New Haven· Yale University Press, 1983)

(٢٣) Lewis Bayles Paton, *The Early History of Syria and Palestine* Reprint of the 1901 ed (U S A Hyperion Press, 1981), pp 2-3.

(٢٤) Philip K Hitti, *History of Syria: Including Lebanon and Palestine* (London Macmillan, 1951), p. 61

عدا عن التشابه في تصريف الافعال،[٢٥] ووحود المثنى، والتشابه في الكلمات الأساسية، كالكلمات الدالة على القربى في العائلة الواحدة والضمائر والأعداد وأعصاء الحسم

ان هذه القربى اللعوية هي الأهم، لكن يضاف اليها تشابه في قيام المؤسسات الاجتماعية والمعتقدات الدينية، وحتى في الشكل والقسمات الخارجية.[٢٦] ومن الرسومات المصرية والآشورية، يظهر ان الساميّ كان ذا بشرة سمراء داكنة، وشعر اسود محعّد، بالاصافة الى رسومات تشير الى بشرة شقراء وشعر احمر.[٢٧]

أما من اين جاء الساميون؟ فقد اصبحت نظرية متفقا عليها بين معظم المؤرخين ان الحزيرة العربية هي المهد الاول لجميع الشعوب السامية؛ هذه الشعوب التي تعود بدورها الى الشعب الأصل. ولا يعطي المؤرخ فيليب حتّي الشعب السامي الأول او الأصل اية مواصفات، لكنه يجزم ان موطنه كان الجزيرة العربية.[٢٨] ويضيف العديد من المؤرخين الى ذلك، ان هذا الشعب السامي الأصل، اي الشعب الأب لكل الشعوب السامية من بعده، كانت لغته السامية الأم اقرب ما تكون اليها اللغة العربية الفصحى المعروفة. ويؤكد هذه القربى اللغوية الشديدة علماء النحو المقارن للعات السامية، ومنهم. بروكلمان، ووليم رايت، وادوار دورم[٢٩]

وليس تاريخ الشعوب السامية هدفنا في هذا البحث، غير ان معرفة الأصل ضرورة لما لها من اثر في حق العرب التاريخي في فلسطين.

* * *

تعرضت فلسطين لموجة من الهجرات السامية منذ فجر التاريح. واذا تتبعنا الساميين منذ هجراتهم الاولى، التي حدثت بسبب الجفاف في الجزيرة العربية، فان المكتشفات الأثرية ما بين النهرين في العراق تثبت ان اولى الهجرات السامية جرت قبل خمسة آلاف سنة من ميلاد المسيح، وربما حدث غيرها قبل ذلك. ونحو سنة ٣٥٠٠ ق.م.، أخذوا ينزلون مصر عن طريق فلسطين وسيناء، واستقروا في مصر وامتزجوا بالسكان الاصليين.

وفي هجرة ثانية في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد، هاجروا الى العراق، فنزل الاكاديون في

---

(٢٥) مصطفى مراد الدباغ، «بلادنا فلسطين» (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٥)، الجزء الاول، القسم الاول، ص ٣٧٨.

(٢٦) Hitti, *op.cit*, p. 62.

(٢٧) Paton, *op.cit.*, p. 4.

(٢٨) Hitti, *op.cit.*, p. 62.

(٢٩) حسن ظاظا، «الساميون ولغاتهم...»، مصدر سبق ذكره، ص ١٥.

الجنوب والآشوريون في الشمال. وفي منتصف الألف الثالث، أي نحو سنة ٢٥٠٠ق م. ،كانت الموجة السامية المعروفة بالموجة الآمورية ــ الكنعانية. وقد استقرت هذه في بلاد الشام، فعاش الآموريون في الداخل والكنعانيون في فلسطين والساحل واستمرت الموجات السامية في تدفقها من الجزيرة، وكان من ابرزها الهجرة الآرامية، وفيها القبائل المؤابية والآدومية والعمّونية. وبينما سكن الآراميون في سوريا، في الشمال والوسط، وانشأوا عددا من المدن التجارية اهمها دمشق، سكن المؤابيون والآدوميون والعمّونيون جنوب سوريا، وكذلك شمالي البحر الميت حتى العقبة. ومن القبائل الآمورية كانت قبيلة كَلْدي التي استقرت في جنوب العراق وأسست الامبراطورية الكلدانية.

ومن أواخر الهجرات السامية، كانت هجرة الأنباط الى جنوبـي الشام نحو سنة ٥٠٠ ق.م. ومن بعدها هجرة اللخميين والغساسنة الى العراق والشام. وفي القرن السابع للميلاد، كانت آخر الموجات من الجزيرة العربية مع الفتوحات العربية الاسلامية، التي انتشرت في مساحات شاسعة امتدت من الهلال الخصيب حتى المحيط الأطلسي.[٣٠]

وهنا تجدر الاشارة الى فريقين من المؤرخين العرب: فريق منهم يؤكد التشابه في اللغات، ووحدة الاصل والمنشأ من الجزيرة العربية؛ وفريق يذهب الى ابعد من دلك، فيؤكد ان الساميين عرب، وبالتالي يؤكد هذا الفريق ان الكنعانيين عرب، ويستشهد بما قاله العلاّمة المؤرخ ابن خلدون. «اول مُلكٍ في فلسطين في فجر تاريخها كان للعرب.»

ويقول الدكتور احمد سوسه في كتابه «العرب واليهود في التاريخ»:

> ومن الثابت ان سكان فلسطين الاصليين القدماء، وقد كانوا كلهم عربا، هاجروا من جزيرة العرب اثر الجفاف الذي حل بها، فعاشوا في وطنهم الحديد «كنعان» اكثر من ألفي عام قبل ظهور النبـي موسى وأتباعه على مسرح الاحداث، وقد اخذ الموسويون بعد ظهورهم في ارض كنعان بلغة الكنعانيين وثقافتهم وحضارتهم وتقاليدهم. هذه حقيقة تاريخية ثابتة، ايدتها المكتشفات الآثارية الاخيرة، وأخذ بها العلماء بالاجماع تقريبا. إلا ان اكثر الكتاب العرب الذين كتبوا في تاريخ حضارة العرب، لم يتناولوا هذا الدور في بحوثهم إلا عرضا، ولعل مرد ذلك الى اصطباغ مصادره بصبغة اختصاصية تنحصر بالبحوث الآثارية لذلك انحصرت بحوثهم في عصور الجاهلية على الاكثر، فتركوا بذلك فراغا في تاريخ فترة ما قبل عهد النبـي موسى في الأدب العربي، وهي الفترة التي عدها اليهود بداية تاريخهم من غير اي سند علمي او واقع تاريخي، وقد جاراهم في ذلك حتى الكتّاب العرب معتمدين على الكتابات اليهودية والاجنبية التي قبلوها على علاتها من غير تمحيص.[٣١]

ويقول المؤرخ مصطفى الدباغ في الجزء الاول من موسوعته الضخمة «بلادنا فلسطين»:

---

(٣٠) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٨ ــ ٣٨١.

(٣١) احمد سوسه، مصدر سبق ذكره، المقدمة، ص ل ــ م.

ان هـؤلاء الساميين هم جميعا طبقات متتابعة من العرب وان اختلفت اسماؤهم، وان بلادهم، جزيرة العرب، ظلّت منذ العصور المتناهية في القدم خاصة بهم وما دراستنا لتاريخهم إلا دراسة لتاريخ بعض الأقوام العربية البائدة. ويرى عدد من ثقات المؤرخين الاوروبيين ان العرب والساميين شيء واحد وقال شبرنغر ان جميع الساميين عرب.(٣٢)

* * *

ان اعتبار الكنعانيين بالذات ساميين عربا ام ساميين فقط، لقضية جدلية. أما الثابت تاريخيا، فهو وجود العديد من القبائل والشعوب العربية على ارض فلسطين قبل الفتح العربي الاسلامي بقرون عديدة، وحتى من عهد النبي موسى، ومن هؤلاء العرب العمالقة، ومنهم القبائل العربية التي نقلها سرجون الثاني الى السامرة، ومنهم القبائل التي جاءت البلاد قبيل الفتح. (ونعود للبحث بشأن هذه القبائل في القسم الثاني).

* * *

ومما يميز تاريخ فلسطين، منذ القرن الخامس عشر ق.م الى أوائل القرن الثاني عشر ق م.، انه تعرض لسلسلة من غزوات الحثيين والمصريين، وكثيرا ما اصبحت البلاد مسرحا للقتال بين الجيش الحثي والجيش المصري. وكثيرا أيضا ما ثار السكان على الاحتلال المصري الفرعوني الذي كانت نهايته بالتدريج بسبب ضعف خلفاء رعمسيس الثالث

وبعد الفراعنة نازع الكنعانيين، وهم السكان الاصليون، قومان في عصر واحد: «الفلسطينيون» او الفلسطيون الذين جاؤوا من البحر، و «الاسرائيليون» الذين قدموا من الصحراء. ولم يصمد الكنعانيون كثيرا أمام الغزاة الجدد، وخصوصا ان البلاد كانت في حالة اقتصادية سيئة نتيجة الحملات التأديبية التي كان يرسلها الفراعنة، ونتيجة الجزية التي فرضوها عليهم. وقد تمكن القائد الاسرائيلي يوشع من دخول فلسطين، على الرغم من بسالة الكنعانيين وشجاعتهم.

ثالثا: الكنعانيون

وفقا للتقديرات الموثّقة، فان الهجرة الآمورية ـ الكنعانية الشهيرة من الجزيرة العربية قد حدثت في منتصف الألف الثالث ق. م. غير ان بعض الباحثين يستنتجون ان الكنعانيين كانوا منذ بداية الألف الثالث مستقرين في البلاد، مستندين في ذلك الى ان اللغة الكنعانية قد ثبت انتشارها منذ أول الألف الثاني ق م.، وذلك من خلال مكتشفات الآثار المصرية.(٣٣) ويذهب باحثون آخرون الى

---

(٣٢) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨١.

(٣٣) William Foxwell Albright, *Archaelogy and the Religion of Israel* (New York: Anchor Books, 1969), p. 67.

ابعد من ذلك، فيقولون بوجود الكنعانيين ما قبل سبعة آلاف سنة، وذلك من خلال تتبـع الآثار في مدنهم القديمة، وأقدمها مدينة أريحا الباقية حتى اليوم، وهي تعتبر اقدم مدينة في العالم.(٣٤)

وإن تأرجحت تقديرات البداية الزمنية لوجود الكنعانيين، فمما لا خلاف فيـه اطلاقا انهم كانوا اول من سكن المنطقة من الشعوب المعروفة تاريخيا، وأول من بنى على ارض فلسطين حضارة.

وورد في الكتابات العبرية ان الكنعانيين هم سكان البلاد الاصليون، كما ذُكِر في التوراة انهم الشعب الآموري. ويحلل بعض الثقات ان الآموريين هم الكنعانيون، والكنعانيين هم الآموريون، انما كانوا يسمون اولا بالآموريين، ومع الزمن عرفوا باسم الكنعانيين.(٣٥)

يذكرنا هذا التشابه بتاريخ الكنعانيين والفينيقيين؛ فالشعبان شعب واحد في الاساس لغة ودينا وحضارة، لكنهما كانا قبائل لم تجمعها رابطة سياسية إلا في الاوقات العصيبة لدرء الخطر عنها من الشمال والجنوب ووفقا للتوراة، تمتد كنعان من اوغاريت (رأس شمرا) حتى غزة، وقد عثر على قطعة نقود اثرية كتب عليها «اللاذقية في كنعان».

وقد ورد في اماكن اخرى ان الكنعاني مرادف للفينيقي، والفينيقي مرادف للتاجر.(٣٦) وقد كانت اهم المدن الفينيقية، كصيدا وصور وأوغاريت، تعرف أيضـا بالمدن الكنعانية. فبلاد كنعان، إذاً، امتـدت تاريخيا على طول الشاطىء، وفي الداخل شملت فلسطين كلها وقسما كبيرا من سوريا. واليونانيون هم اول من اطلق اسم الفينيقيين منذ القرن الثاني عشر ق م على الكنعانيين الذين بادلوهم التجارة على شاطىء المتوسط (الشاطىء اللبناني السوري اليوم). أما الكنعانيون (سكان فلسطين) فقد رفضوا تبديل اسمهم على الرغم من الشهرة التي اكتسبها الفينيقيون عبر البحار.(٣٧)

هناك اختلاف في تفسير كلمة كنعان. فقد ذكر البعض ان «كَنَع» او «خَنَع» كلمة سامية معناها الأرض المنخفضة، فكانت تسميتهم بالكنعانيين لسكناهم الأراضي السهلية، غير انهم كانوا من سكان الجبال كذلك. والأرجح ان التسمية جاءت نسبة الى الجد الاول كنعان، سيرا على العادة القبلية بأن ينسب القوم الى الجد فيقال «بنو هاشم» او «بنو كنعان». وليس من شك في ان الجزيرة العربية كانت موطنهم الاول.(٣٨)

كانت لغة الكنعانيين اقرب ما تكون الى اللغة السامية الأم (اي اللغة العربية البائدة، وذلك وفقا

---

(٣٤) Keller, *op cit.*, p 159

(٣٥) انيس فريحة، مصدر سبق ذكره، المقدمة، ص XVIII، XIX.

(٣٦) المصدر نفسه، المقدمة، ص XXII

(٣٧) احمد سوسه، مصدر سبق ذكره، ص ١٠

(٣٨) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨٧.

للعديد من المتضلعين من اللغات السامية)، ثم انفردت بخصائص معينة وأصبحت ضمن مجموعة عرفت بكتلة اللغات السامية الغربية، ومنها المؤابية والفينيقية والعبرية [٣٩]

واليوم، عندما نقارن اللعة العربية باللغة الكنعانية، نكتشف كلمات متطابقة لا تحصى، ومنها. جبل، لون، ام، اب، اخ، بيت، ارض، قبر، رأس، يد، ثلاث، أربع، الخ . . .، وهناك كلمات عديدة متشابهة، ومنها: لسن (لسان)، شمش (شمس)، نحس (نحاس)، كتن (كتّان)، قرت (قرية)، الخ . . [٤٠]

ويبدو ان لغة الكنعانيين وطقوسهم الدينية قد تبلورت ونضجت في بداية الألف الثاني ق.م. [٤١] وكان الاله ايّل هو الاله العظيم الذي آمنوا بأنه يبعث مياه الانهر لتجري في الارض، ويحيي مواتها، وهو يبعث المطر فيجعل الاودية تفيض عسلا، وهو القادر على كل شيء. [٤٢]

لم يكن الحكم في كنعان حكما موحدا قط، فقد كانت البلاد تتألف من دول مدينية تتقاتل فيما بينها إلا عند مجابهة الخطر الخارجي، وخصوصا من الحثيين او المصريين. واشتهر الكنعانيون ببناء القلاع والأسوار لحماية انفسهم وقد ارهبت قلاع أريحا الجواسيس والعيون الذين ارسلهم موسى لاستكشاف ارض فلسطين [٤٣]

وتوصل الكنعانيون الى بناء الصهاريج فوق السطوح، وحفر الأنفاق الطويلة تحت الأرض لايصال المياه الى داخل القلاع، ومن اهم هذه الانفاق نفق مدينة حازر، التي كانت تقع على بعد ٣٥ كلم من يبوس (القدس) وكذلك نفق لمدينة يبوس نفسها، حفره اليبوسيون (وهم فرع من القبائل الكنعانية)، وجاؤوا بالمياه الى حصن يبوس من نبع جيحون، ولذلك صمدت القلعة ثلاثمائة سنة أمام الاسرائيليين. غير ان الملك داود اكتشف المدخل السري من خارج السور، فأدخل رجاله الى النفق حتى وصلوا الى منتهاه داخل السور، وصعدوا الى السطح وباغتوا اليبوسيين واحتلوا الحصن والمدينة بلا قتال على الأرجح. [٤٤]

استعمل الكنعانيون، في الحرب، الحصان والمركبة الحربية، وكذلك اسلحة الحديد. [٤٥] كما استعملوا القوس والنشّاب والخنجر القصير والسكين المعقوف. وعلى الرغم من

---

(٣٩) احمد سوسه، مصدر سبق ذكره، ص ١٠

(٤٠) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨٦

(٤١) Hitti, *op cit*, p 81

(٤٢) احمد سوسه، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦

(٤٣) Hitti, *op cit.*, p. 82.

(٤٤) احمد سوسه، مصدر سبق ذكره، ص ١٣ ــ ١٦.

(٤٥) Easton, *op cit*, p. 115

براعة الكنعانيين في صناعة الأدوات الحربية، وعلى الرغم من كونهم اول من ادخل فن التعدين مما ساعدهم فـي صناعة الاسلحة الفتاكة من البرونز والحديد وحتى الفولاذ، فانهم لم يشتهروا بأنهم شعب مقاتل. لقد برهنوا على انهم شعب مسالم اكثر من كونهم شعبا تحكمه عقلية الحرب. كانوا مدافعين عن انفسهم، ولم يكونوا مهاجمين، وهذا ما جعل العديد من الأمم المجاورة تتغلب عليهم من مصر وبابل وبلاد الحثيين ومقدونيا. وكانوا عادة يفضلون دفع الضرائب والجزية كي يدفعوا عنهم التدخلات الخارجية.(٤٦) وفي عهد الفرعون تحتمس الثالث اضطروا الى التحالف فيما بينهم (١٤٧٩ ق.م.)، ضد الفرعون المصري في مجدّو. وعندما عاد تحتمس الثالث الى بلاده اخذ معه العربات المطعمة بالذهب، وأسرّة من العاج، وأواني وسيوفا وتماثيل من الذهب. كما اخذ ٢٠٧ آلاف كيس من الحنطة. وفي كتاباته أسماء ١١٨ مدينة، يعتقد انها المدن التي افتتحها في بلاد كنعان. وقد تحولت الدويلات او الدول المدينية الى محميات مصرية بعد ذلك.(٤٧)

ومن اقدم المدن الكنعانية الباقية حتى اليوم: أريحا، وأشدود (اسدود)، وعكّو (عكا)، وغزة، والمحدل، ويافي (يافا). ومن المدن التي تغيرت أسماؤها بمرور الزمن: يبوس (القدس)، وشكيم (نابلس)، واشقلون (عسقلان)، وبيت شان (بيسان)، وصدّيم (حطين). وهنالك أيضا أسماء مئات من المدن والقرى، منها ما بقي حتى اليوم ومنها ما اندثر. وقد كانت شكيم العاصمة الطبيعية لكنعان.(٤٨)

اشتهر الكنعانيون بالزراعة، وخصوصا زراعـة مختلف أنواع الحبوب والعنب والتين والزيتون والرمان والنخيل والتفاح وكانوا يعرفون معظم الاشجار والفاكهة والأعشاب التي نعرفها اليوم.(٤٩)

وفي الصناعة، برعوا في التعدين وصاعة الخزف والزجاج والنسيج وصناعة الثياب. كما برعوا في فن العمارة، فبنيت منازل الملوك والأغنياء داخل الاسوار من الحجارة المنحوتة، وهي عادة تتألف من باحة في الوسط وحولها الغرف. وحتى البيوت العادية فقد كان فيها آبار للمياه وعنابر للقمح، ونوافذها تطل على الباحة. أما بيوت الفقراء، فكانت من اللِّبن (مزيج من التراب والطين والماء) او الحجارة غير

(٤٦) Hitti, *op cit*, pp 83-85

(٤٧) احمد سوسه، مصدر سق دكره، ص ١١، ٣٣

(٤٨) راحع بشأن المدن والقرى الكنعانية· مصطفى الدباع، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢٠ ــ ٤٦١

(٤٩) راحع بشأن أنواع الحبوب والعاكهة والأشجار الكنعانية·

ــ المصدر نفسه، ص ٤٦٢ ــ ٤٦٨،

ــ عر الدين المناصرة، «الكنعاياذا» (بيروت: الدار العالمية، ١٩٨٣).

لـم تكن الرراعة في كنعان هدف الشاعر المناصرة في مجموعته الشعرية أعلاه، بل كان هدفه وصل الماضي بالحاضر، الدم الكنعاني لاجداده بالدم الفلسطيني لشعبه اليوم لكن القصائد بلغة الادب الكنعاني والأسماء الكنعانية لنتاح البيادر والمواسم والحقول الح تصبح مرجعا.

المنحوتة. وفي الداخل، استعملوا الأسرة والكراسي والفخار وأدوات المطبخ المتنوعة، وكانت مفاتيح بيوتهم ضخمة وكبيرة تصنع من الخشب او المعدن. وفي الكثير من قرى فلسطين والشام ومصر ما زالت المفاتيح حتى اليوم على هذا الطراز (٥٠)

وعلى رأس الهرم في الحضارة الكنعانية الموسيقى. ويقول فيليب حتي، المؤرخ اللبناني الكبير:

> لم يُعْنَ شعب سامي بالفن الموسيقي كما عني به الكنعانيون فقد اقتبسوا كثيرا من عناصر موسيقاهم من شعوب مختلفة توطنت الشرق الادنى القديم وسموا به الى أعلى ما عرف في الموسيقى عند معاصريهم ذلك لأن طقوس العبادة الكنعانية كانت تقتضي استخدام الغناء. وهكذا انتشرت ألحانهم وأدوات موسيقاهم في جميع بقاع المتوسط وتكاثر الطلب على اقتناء مغنيهم ومغنياتهم من الجواري في مصر زمن الامبراطورية الحديثة. (٥١)

ليس هناك من يجادل في ان الأدب والفن هما عنوان للحضارة؛ فليس غريبا، إذاً، أننا عندما نتتبع الكتابات الاسرائيلية، نكتشف الجهد الكبير الذي بذله الاسرائيليون ويبذلونه لايهام الدنيا بأنهم هم الذين كانوا بناة الحضارة العريقة، وأصحاب الأناشيد والتراتيل والغناء. وقد تمكنوا فعلا من جعل الوهم حقيقة في عقول الكثيرين، إلا المؤرخين الكبار الثقات أمثال برستد، الذي يصف المدن الكنعانية المزدهرة يوم دخلها العبريون بقوله انها كانت مدنا فيها البيوت المترفة المريحة، وفيها الصناعة والتجارة والكتابة والمعابد، وفيها الحضارة التي سرعان ما اقتبسها العبريون الرعاة البدائيون، فتركوا خيامهم وقلدوهم في بناء البيوت، كما خلعوا الجلود التي ارتدوها في الصحراء، وارتدوا الثياب الصوفية الزاهية الالوان وبعد فترة، لم يعد في الامكان ان يفرق المرء بين الكنعانيين والعبريين بالمظهر الخارجي وباختصار، فهم اقتبسوا الحضارة الكنعانية كما يقتبس المهاجرون الجدد الى اميركا، في يومنا هذا، طرق المعيشة الاميركية. (٥٢)

وبعد دخول الفلسطينيين من جهة البحر، والاسرائيليين من جهة الاردن، توزعت ارض كنعان بين الأقوام الثلاثة، ولم يعد الكنعانيون وحدهم سادة البلاد. غير ان اللغة الكنعانية بقيت هي السائدة. ومنذ فجر التاريخ المكتوب، اي منذ خمسة آلاف عام، لم تعرف فلسطين حتى عهد الانتداب البريطاني سنة ١٩٢٠، سوى لغات ثلاث: الكنعانية اولا، والآرامية ثانيا—وهي اللغة التي تكلم بها السيد المسيح — والعربية ثالثا.

---

(٥٠) راجع بشأن المدنيّة الكنعانية مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦٢ — ٤٨٨

(٥١) Philip K Hitti, *Lebanon in History* (London: Macmillan, 1957), pp. 106-107

(٥٢) James Henry Breasted, *The Conquest of Civilization* Revised ed. (New York. Harper & Brothers Publishers, 1938), p 186

رابعا: بنو اسرائيل

أ ـ الرواية الدينية

تعود كلمة «اسرائيل» الى يعقوب الملقب باسرائيل، وهو حفيد ابراهيم من ولده اسحق. وأبو هذه الأمة ابراهيم ولد في اور الكلدانيين، وقد وصل من بلاده الى ارض كنعان نحو القرن الحادي والعشرين أو العشرين ق.م. وقد غادر ابراهيم بلاده مع بعض أفراد عائلته ليعبد الله عملا بما انزل عليه من الوحي؛ فعشيرته كانت تعبد الأصنام، وهو كان مؤمنا موحدا. وكانت حاران (حران)، وتقع في الشمال الشرقي لما بين الفرات وخابور، اول محطة له، وفيها مات ابوه تارح، فأكمل السير بعد وفاته حتى وصل الى شكيم (نابلس).

حدث جوع شديد في ارض كنعان، فرحل ابراهيم وأهله الى مصر، ولما عاد وقع بينه وبين ابن اخيه لوط نزاع، فرحل لوط الى الأردن، ووصل ابراهيم الى حبرون (الخليل). لكن لما أغار بعض الملوك القادمين من جهة ما بين النهرين على لوط، وأسروه مع أهل بيته، سلّح ابراهيم غلمانه وعبيده وانتصر لابن اخيه وتمكن من استرداد الاسرى والسبايا، وأبى ان يأخذ لنفسه شيئا من الغنائم حتى التقى مِلْكي صادق، ملك ساليم، وهو عائد فأعطاه عُشْر الغنائم.

ان سيرة ابراهيم، بحسب ما وردت في التوراة، اشبه ما تكون بسيرة شيخ قبيلة عربية؛ فقد كان اعتماده في المعيشة على مواشيه وقطعانه الكثيرة، يضرب فيها بطول البلاد وعرضها، بحثا عن الكلأ والماء. وما عرف عنه كان من عادات العرب، كإكرام الضيف والألفة والنجدة وشدة البأس والكرم وحفظ الجوار.[٥٣]

رزق ابراهيم من جاريته هاجر بابنه الاول اسماعيل، ثم رزق بابنه الثاني اسحق من زوجته سارة. ويعتبر اسماعيل جد العرب، كما يعتبر اخوه اسحق جدا لليهود. وقد ولد لاسحق عيسو ويعقوب، وهو الملقب بـ «اسرائيل». وقد ولد ليعقوب اثنا عشر ولدا، يعتبر كل منهم أبا لسبط من أسباط اليهود. ومن أولاده كان يوسف، الذي نقم عليه اخوته وحسدوه فباعوه الى تجار مصر وادعوا لأبيهم انه قتل. وفي مصر، سجن يوسف ظلما، ثم أُفرج عنه ودخل في خدمة فرعون، وأصبحت له سلطة واسعة، فأرسل وراء ابيه واخوته؛ وهكذا انتقلت اسرة يعقوب الى مصر.

أقطع فرعون مصر يعقوب وبنيه جزءا من الدلتا، فعاشوا هناك عيشا رغدا نحو أربعمائة سنة. ولا يعرف متى انقلب فرعون مصر ــ او اي فرعون بالذات ــ ضدهم فكرهوا الاسرائيليين وأذلوهم، واستخدموهم بقسوة بالغة، وأمر فرعون بقتل الذكور من الأطفال حين يولدون، ونجا موسى

(٥٣) شاهين مكاريوس، «تاريخ الاسرائيليين» (مصر: مطبعة المقتطف، [١٩٠٤])، ص ٤

«الرضيع» على يد ابنة الفرعون، فاتخذته ابنا لها ونشأ في قصر ابيها نشأة أبناء الملوك، ودرس علوم المصريين وآدابهم.

ولما كبر موسى، ورأى ما يحوق ببني جنسه من الظلم، وشاهد استعباد الفراعنة لهم وارغامهم على مختلف الأشغال الشاقة، أخذ يفكر في النزوح. وكان يوم رأى فيه موسى مصريا يضرب واحدا من بني قومه، فثارت كرامته وقتل المصري. ولما شاع الامر فر الى ارض مديان التي تقع قرب خليج العقبة. وعلى جبل الطور اوحى الرب الى موسى بأن يعود الى مصر وينقذ بني قومه فيخرجهم من مصر «ارض العبودية». وقد عاد موسى فعلا مع اخيه هارون وأخرج بني قومه، وابتدأت رحلة التيه، وكان ذلك نحو ١٢٢٧ ق.م. وفي التيه ارتد قوم موسى عن دينهم الى عبادة العجل، وهناك نزلت «الوصايا العشر»، وبقي بنو اسرائيل في التيه اربعين سنة حتى يخرج جيل صلب شجاع.

ارسل موسى الرسل، اكثر من مرة، لاستطلاع الأوضاع في ارض كنعان، وعاد الرسل فأخبروه ان ارض كنعان خيّرة، وهي تجود لبنا وعسلا، غير ان سكانها أشداء ولا قدرة للاسرائيليين على محاربتهم. وغضب الرب عليهم لجبنهم، وقضى عليهم بالبقاء في التيه حتى يموت الجيل المتردد الجبان، وينشأ الجيل القوي.

ولما عزم الاسرائيليون دخول ارض كنعان قاومهم سكان الجنوب بعنف، فاضطروا الى التوغل شرقا والى عبور شرق الأردن اولا. وهناك توفي موسى عليه السلام، وتولى القيادة من بعده يوشع (او يشوع) بن نون، وكان قائدا صلبا عنيفا، وقد صمم على ابادة سكان البلاد بكاملهم. ولما كانت أريحا اول مدينة وطئها بنو اسرائيل القادمون من شرقي النهر، فقد لقيت الأهوال اذ حاصروها وأحرقوها وقتلوا سكانها، ثم استولوا على معظم جنوب فلسطين. وبقي الكنعانيون في قسم منها، كما بقي الفلسطينيون في القسم الغربي. ومنذ عهد القضاة، وهو العهد الذي ابتدأ بعد وفاة يوشع، عاش الأقوام الثلاثة مئات السنين، تخللتها سلسلة من الحروب الفلسطينية ــ الاسرائيلية، والحروب الكنعانية ــ الاسرائيلية.

امتد عهد القضاة قرنا ونصف قرن من الزمن، حكم خلاله اثنا عشر قاضيا، كان آخرهم صموئيل. واتفق الاسرائيليون، بمشورة صموئيل نفسه، على تعيين شاول بن قيس ملكا عليهم لتوحيد قبائلهم، غير انه قتل في احدى حروبه مع الفلسطينيين، وجاء بعده الملك داود.[٥٤]

---

(٥٤) راجع الرواية الدينية في: «الكتاب المقدس ــ العهد القديم»، وخصوصا في الأسفار الاولى: التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية.

ب ـ ملوك اسرائيل

على الرغم من ان عهد الملكية قد ابتدأ بالملك شاول، فان مملكته لم تتعد كثيرا عشيرته بنيامين، وكان مسكنه خيمة. وقد انتهى أمره بتغلب الفلسطينيين عليه، وقتلهم ثلاثة من ابنائه واصابته بجروح بليغة. ولم يحتمل شاول كل هذه المآسي، وخصوصا انه كان يتصف بضعف الشخصية والسوداوية، فأقدم على الانتحار. (٥٥)

ابتدأ حكم الملك داود من بعده (١٠١٠ ق. م. ـ ٩٧١ ق. م. على وجه التقريب)، وعلى الرغم من ان داود كان في بداية عهده خاضعا لنفوذ الفلسطينيين، فانه في نهاية عهده تمكن من ان يحكم اوسع رقعة من الارض عرفتها المملكة الاسرائيلية

ولوقت طويل، كانت نظرة الفلسطينيين حيادية تجاه داود، وذلك في اثناء الصراعات الاسرائيلية الداخلية؛ فداود كان قد التجأ الى مؤاب عندما أراد كسب حليف له ضد شاول، وأبرم اتفاقا مع الفلسطينيين، وبناء عليه أقطعه الفلسطينيون مدينة صقلغ، فأصبح بطبيعة الأمر خاضعا لهم. ولم يكن هذا الموقف سهلا على داود، فهو موقف يناقض بصيرته الثاقبة في الشؤون السياسية والدبلوماسية. لكن يبدو انه كان مرغما عليه، والدليل على ذلك انه لما عاد وتمكن من القضاء على سكان صقلغ بالذات (اي المدينة التي آوته) امر بقتل سكانها جميعا، نساء ورجالا وأطفالا، لئلا يبقى منهم من يخبر (٥٦)

حكم داود أربعين سنة، منها سبع سنين في حبرون (الخليل)، والباقي في اورشليم او يبوس (القدس)، بعد ان اخذها بالحيلة من اليبوسيين كما ذكرنا سابقا. وقد تمكن في عهده من اخضاع العديد من القبائل والشعوب، فتخلص من هيمنة الفلسطينيين وأخضعهم، كما اخضع آدوم ومؤاب وعمّون وجزءا من سوريا الآرامية.

واستقر داود في قصره في يبوس بعد ان اخضع الامم المجاورة. وكان قصره من حجر منحوت ومن خشب الأرز، وقد ساهم في بنائه العمال والمهرة من مدينة صور، الذين أرسلهم الملك حيرام صديقه. وبنى أيضا مكانا مقدسا لعبادة يَهْوَه وقد جعل دين يَهْوَه دين بني قومه جميعا في المملكة الواحدة. ومما لا شك فيه انه كان ملكا مثاليا لبني اسرائيل. (٥٧) ومن ابرز صفاته المعروفة، انه الملك المحارب والسياسي والشاعر والموسيقي، وهو صاحب المزامير الشهيرة بمزامير داود، وما زالت تقرأ وترتل من التوراة أناشيد خالدة.

جاء من بعد داود ابنه الملك سليمان (٩٧١ ق.م. ـ ٩٣١ ق.م على وجه

---

(٥٥) Hitti, *History of Syria* , *op cit* , pp 186-187

(٥٦) H Jagersma, *A History of Israel in the Old Testament Period* Translated by John Bowden from the Dutch (Philadelphia. Fortress Press, 1983), pp 97, 102

(٥٧) Hitti, *History of Syria* , *op.cit.*, p. 188

التقريب).[٥٨] وعلى العكس من ابيه، فعهده كان عهد سلام لا عهد حرب، وقد تقلصت المملكة في عهده ومن الذين استرجعوا ملكهم، في عهده، كان ملك آدوم الذي هرب الى مصر في اثناء حكم داود، ثم عاد في عهد سليمان فاسترجع جزءا من بلاده في الجنوب، ولم يفعل سليمان شيئا ضده. وما كسبه سليمان لم يكن بالحرب كما فعل ابوه، بل بسياسته الخارجية التي ارتكزت على المداهنة والمصاهرة؛ فقد استنجد بفرعون مصر، شيشنق، وتزوج ابنته، وما كان من الفرعون إلا ان ساعده فانتقم له من الكنعانيين وأحرق مدينة جارر، ثم أهداه اياها هدية الزواج. وهكذا، عاد الى الفراعنة شيء من النفوذ في عهد سليمان.[٥٩]

ومن الشعوب المجاورة التي استرضاها الملك سليمان بالمصاهرة: المؤابية، والعمّونية، والآدومية، والصيدونية، والحثية. وقد جاء في التوراة (سفر الملوك الاول ١١ :٣) انه كانت له سبعمائة من النساء وثلاثمائة من السراري، مما اغضب الرب عليه، لأن نساءه بقين يتبعن آلهتهن.

كانت الحكمة اكثر الصفات التي اشتهر بها الملك سليمان، فعرف بسليمان الحكيم وقيل انه تكلم بثلاثة آلاف مثل، وكانت نشائده ألفا وخمسا. وما من مؤرخ إلا ووقف ازاء حكمة سليمان. وقد وقف المؤرخ برستد، ايضا، ازاء صفة اخرى لا علاقة وثيقة لها بالحكمة؛ فقد ذكر ان سليمان، مثل حمورابي، اصبح من التجار الأوائل في الشرق. فقد أطلق أسطولا بحريا (عبر البحر الاحمر)، وقوافل برية بالمشاركة مع صديقه الملك حيرام الفينيقي، ملك صور.[٦٠] ولم يساهم حيرام مع صديقه في التجارة فقط، وانما ايضا في بناء الهيكل المشهور بهيكل سليمان؛ فقد ارسل له العمال المهرة لبناء الهيكل. وهكذا انتقل بنو اسرائيل من عبادة يهوه في خيمة متنقلة، الى عبادته في الهيكل الحجري.

استغرق بناء الهيكل سبع سنوات، وقد عمل فيه ثلاثون ألفا من العمال، فكانوا ينقلون خشب الأرز من لبنان عبر البحر الى شاطىء يافا. ومرة اخرى، جاء المهندسون والبناؤون المهرة والنجارون الحاذقون من صور لبناء الهيكل. وهكذا كان الاشراف على البناء فينيقيا، وجلّ العمال الثلاثين ألفا كان من الكنعانيين. وداخل الهيكل، كان التصميم وكانت النقوش كنعانية، وفي الصلوات كانت الطقوس كنعانية، وكلمة «هيكل»، في الاصل، كلمة كنعانية اخذت عن السومرية.[٦١] أما الهيكل نفسه، فهو هيكل اسرائيلي!! وهو رمز من رموز الحضارة الاسرائيلية الأولى!!

---

(٥٨) لم يتفق المؤرخون على تحديد السنوات، انما هي على وجه التقريب. والمصدر الذي اعتمدنا التواريخ الواردة فيه بالنسبة الى عهدي داود وسليمان هو احمد سوسه، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧٠، ٤٧٦.

(٥٩) Jagersma, *op cit*, p. 118.

(٦٠) Breasted, *op.cit*, p 188.

(٦١) Hitti, *History of Syria*, *op cit.*, p. 189

ولقاء المساعدات الضخمة التي قدمها حيرام الى سليمان لساء الهيكل وقصره الذي استغرق بناؤه ثلاث عشرة سنة، تنازل سليمان لصديقه عن عشرين مدينة كنعانية تقع في الجليل الاعلى شرقي عكّو (عكا). [٦٢]

ولما مات الملك سليمان، كانت الضرائب الباهظة التي فرضها بسبب البذخ الشديد الذي اشتهر به عهده تنوء بالبلاد. ولم تكن القصور التي شيدها اكثر من شاهد على ذلك البذخ. وبموته انتهت المملكة الواحدة.

ج ـ الانقسامات ونهاية المملكتين

انقسمت المملكة بعد موت سليمان الى دولتين متناحرتين ضعيفتين، وأصبحت شكيم (نابلس) عاصمة للدولة الشمالية (وقد عرفت بمملكة اسرائيل)، التي يتبعها عشرة أسباط يهودية وبقيت اورشليم عاصمة للدولة الجنوبية (وقد عرفت بمملكة يهوذا)، التي يتبعها السبطان الباقيان. وهكذا لم تبق اورشليم عاصمة للدولة الواحدة إلا في عهدي داود وسليمان.

حكم مملكة اسرائيل الشمالية (٩٣١ق.م. ـ ٧٢٤ق م) تسعة عشر ملكا طوال القرنين، ثم اندحرت على يد الآشوريين، وتمكّن سرجون الثاني سنة ٧٢٢ق.م من سبي وجوه المملكة ونخبة الشعب، وكان عددهم ٢٧,٢٨٠ نسمة، وكان عدد الاسرائيليين اجمالا ٤٠٠,٠٠٠ نسمة. وزالت المملكة الاسرائيلية من الوجود بعد ذلك، فهرب قسم من سكانها الى المملكة الجنوبية، ودفع الباقي الجزية.

دامت مملكة يهوذا الجنوبية (٩٣١ق.م. ـ ٥٨٦ق.م.) نحو ١٣٨ سنة بعد خراب الشمالية، وهي مدينة بتأخير سقوطها للثورات التي قامت في الدول المجاورة وقد حكمها عشرون ملكا، قتل ستة منهم بأيدي شعبهم.

وكان السبي الثاني على يدنبوخذ نصّرالكلداني، بعد ان حل الكلدانيون محل الآشوريين؛ فقد حاصر اورشليم، وسبى الملك وعائلته وسبعة آلاف رجل وألف عامل، وأرسلهم الى العراق. ولما رفض الباقون من اليهود دفع الجزية هاجم نبوخذ نصر اورشليم من جديد، فحاصرها لسنة ونصف السنة، وأحرق هيكل سليمان ونقل خمسين ألفا منهم اسرى الى بابل، وهكذا حكم الكلدانيون فلسطين. [٦٣]

---

(٦٢) راجع. «الكتاب المقدّس ـ العهد القديم»، سفر الملوك الأول ٩ ـ ١١.

(٦٣) راجع بشأن انقسام المملكة اليهودية وبشأن السبي.
ـ احمد سوسه، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٢ ـ ٣١٦؛
ـ مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦٤ ـ ٥٧٨.

بقي اليهود في بابل سبعين سنة، وهناك تعلموا الآرامية وأصحت لغتهم المحكيّة التي تطورت بعد ذلك الى العبرية. وبهذه اللغة المقتبسة من الآرامية، وفي طورها الاول، وضع الكهنة اليهود في الأسر البابلي توراتهم. وليس من شك في ان هذه اللغة ليست لغة موسى المصرية التي نزلت بها توراة موسى الاصلية هذا، فضلا عن ان اليهود استمروا يتكلمون الآرامية فقط، وانحصرت اللغة العبرية في كتب التوراة. وكانوا، في مختلف أنحاء العالم، يتكلمون بلغات البلاد التي سكنوها، ويقرأون التوراة من دون ان يفهموا معناها.

ويقول البعض (وخصوصا من اليهود) بوجود لغة عبرية قديمة ولغة عبرية متأخرة غير انه، تاريخيا، لا يعقل إلا ان تكون هناك لغة عبرية واحدة هي التي كتبت بها التوراة في الأسر في القرن السادس قبل الميلاد وما بعده أما اللغة العبرية القديمة، فلا شكّ في انها الكنعانية القديمة، لغة فلسطين الاولى، وهي اللغة التي اقتبسها الموسويون بعد عصر موسى ولا يوجد اي دليل، اطلاقا، على انه كان في البلاد لغة غير لغة الكنعانيين القديمة في عصر الملوك.(٦٤)

هذا، بالاضافة الى ان بني اسرائيل عادوا، بعد انقسام مملكة سليمان، الى الوثنية وتخلّوا عن ديانة موسى. وفي التوراة ان الملك سليمان نفسه بنى في عهده على المرتفعات أماكن لعبادة الوثنيين

وفي اثناء حكم الفرس (٥٣٩ق.م ــ٣٣١ق م.)، وبعد ان فتح كورش بلاد بابل واحتل سوريا وفلسطين، سمح لمن أراد من اسرى اليهود في بابل بالعودة الى فلسطين، وأعاد اليهم كنوز الهيكل التي كان نبوخذ نصّر قد اخذها. كما انه امر باعادة بناء هيكل سليمان على نفقة بيت الملك. وعاد قسم من اليهود (وقد شاعت تسمية اليهود بعد مملكة يهوذا الجنوبية)، وأعيد بناء الهيكل فعلا. وقد تم البناء في عهد دارا (داريوس) سنة ٥١٥ ق.م. وفي عهد الفرس، تمتع اليهود بالحرية في ممارسة شعائرهم الدينية، وكانت منطقتهم في اورشليم وما حولها.

وفي سنة ٣٣٢ق.م.، فتح الاسكندر المقدوني فلسطين، وابتدأ عهد الاغريق في المنطقة (٣٣٢ق.م.ــ٦٤ق.م.). وقد تأرجح وضع اليهود في عهدهم بين مد وجزر، وكانت اسوأ سنواتهم في عهد الملك السلوقي انطيوخس الرابع (١٧٥ق.م. ــ ١٦٤ق.م.)؛ فقد دمر الهيكل، ونهب كل ما فيه، وأجبر اليهود على اعتناق الوثنية الاغريقية. واشتد الصراع بين اليهود والاغريق اليونانيين حتى اندلعت ثورة المكابيين.(٦٥)

د ــ المكابيون

هدف اليهود من وراء ثورتهم، بقيادة العائلة المكابية، الى الدفاع عن آدابهم وثقافتهم، ثم

---

(٦٤) احمد سوسه، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٠ ــ ٣٢٣.

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٣٢٣ ــ ٣٢٥.

تطورت الى ثورة تنادي بالاستقلال السياسي. وقد اضطر السلوقيون، نظرا الى ضعفهم، الى الاعتراف باستقلال المكابيين. وأعلن سمعان، احد قادة الثورة، حاكما وكاهنا اعظم على قومه في سنة ١٤١ق.م وفي نهاية القرن الثاني هذا، اخذ المكابيون يجبرون سكان الجليل من غير اليهود والآدوميين من سكان جنوب فلسطين على اعتناق الدين اليهودي، وكان سلطانهم اصبح يمتد على الاراضي الواقعة جنوبي الكرمل باستثناء المدن الساحلية. ويشير المؤرخ توينبي الى ان هذه هي الاولى من نوعها تاريخيا في مسلسل التعصب الديني. ويتصف تاريخ قادة المكابيين وملوكهم بأبشع أنواع القسوة والهمجية. ومما يروى عن ملكهم اسكندر جنيوس، انه بعد ان تمكن من فتح مدينة عصت حكمه، قبض على ثمانمائة رجل في يوم واحد، وأتى بهم الى اورشليم فصلبهم في يوم واحد، واستحضر نساءهم وأطفالهم فأبسلهم تجاه عيونهم. وقد أقام في ذلك اليوم مأدبة لنسائه وسراريه في مكان مشرف على القتلى.[٦٦] وكانت نهاية المكابي هذا ان مات من التخمة والخمرة.

وفي بداية انتشار النفوذ الروماني، تملق المكابيون الرومان الجدد. غير ان امر المكابيين انتهى تماما لما حكم الرومان البلاد.

وفي العهد الروماني، قام اليهود بدورهم التاريخي المعروف في التنكر للسيد المسيح وفي معاداة النصرانية. أما صلاتهم بالرومان، فلم تكن إلا العداء على الرغم من التسامح الذي اظهره حكام الرومان نحو اليهود، من المحافظة على شعائرهم الدينية ومحاكمهم الخاصة بهم. ومنذ السنة السادسة والستين ميلادية، ابتدأ اليهود بمهاجمة الحاميات الرومانية، وقابل الرومان ذلك بارسال جيشهم لمقاتلتهم وبالفتك الشديد. وقد عين الامبراطور نيرون القائد فلافيوس فاسبسيان، وهو من اشهر قواده، لقتال اليهود. وقد لحق بجيشه جنود من الشام وبلاد العرب بقيادة مالك الثاني، ملك الانباط. ولما اضطر فاسبسيان الى العودة الى روما لتولي الملك بعد وفاة نيرون، تسلم القيادة ابنه القائد تيطُس. وفي العام السبعين، دخل القدس فنهبها وأحرقها، كما احرق المعبد الذي بناه هيرودوس.

هـ ــ نهاية اليهود على يد الرومان

ومرة اخيرة، ثار اليهود في عهد تراجان ومن بعده هدريان. وكان زعيم اليهود «سمعان»، المدعو أيضا «باركوخبا»، يدعي انه المسيح المنتظر، وهو لم يكن اكثر من لص وقاتل، وقد انتهى امره سنة ١٣٥م. وبعد أن نكّل هدريان باليهود اشد تنكيل، منعهم من دخول اورشليم او سكناها او حتى الاقتراب منها. وقد سمح للمسيحيين بالاقامة فيها، على ألا يكونوا من اصل يهودي، وهو الذي سمى

(٦٦) المطران يوسف الدبس، «من تاريخ سورية الدنيوي والديني» (بيروت: المطبعة العمومية، [١٩٠٠؟])، الجزء الثاني، المجلد الثالث، ص٢٦٢ ــ ٢٦٣. (جرى الحديث أعلاه، سنة ٨٦ ق م).

المدينة باسم «ايليا كابيتوليا». وقد بقيت على هذا الاسم حتى فتحها الخليفة عمر بن الخطاب

قتل هدريان من اليهود أعدادا كبيرة. ومنذ ذلك الزمن، منذ الثلث الأول من القرن الثاني الميلادي، لم يعد لليهود في فلسطين اي وزن على الاطلاق.[٦٧] وبمعنى آخر، فالحركة الصهيونية عندما عملت على انشاء دولة «اسرائيل» في القرن العشرين على ارض فلسطين، كان قد مضى على وجود آخر الجماعات اليهودية المتمردة ثمانية عشر قرنا، كما كان قد مضى على نهاية مملكة سليمان تسعة وعشرون قرنا؛ فأي حق تاريخي بحاجة الى النقاش بعد ذلك؟

و ــ أسماء بني اسرائيل

لا يوجد في كتب التاريخ اسم واحد او كلمة واحدة يمكن ان يشار بها الى بني اسرائيل، والى تاريخهم على ارض فلسطين. ويتساوى في هذا الضياع المؤرخون الكبار من أجانب وعرب؛ فهناك اربع تسميات يختلط بعضها ببعض فهم العبرانيون، وهم الاسرائيليون، وهم الموسويون، وهم اليهود. وحديثا، هم ــ في أغلبيتهم ــ الصهاينة او الصهيونيون.

أيُّ شعب عبر التاريخ حمل خمسة أسماء؟

من الممكن ان يحمل شعب ما عددا من الأسماء، لكنها تختلف باختلاف المراحل الزمنية، ولا خلاف بشأنها عادة. أما أسماء اليهود، فهي وان تكن، تاريخيا، قد وجدت فعلا في أزمان متعددة، غير ان كتّابهم أرادوا هذه التعمية وهذا الخلط بين الأسماء، حتى باتت التسمية غالبا لا علاقة لها بالعهد الذي يكتب عنه والهدف من التعمية هو الجشع الكبير للاستيلاء على كل ما من شأنه ان ينسب ارض فلسطين وما حول فلسطين، حقا خالصا للحركة الصهيونية الحديثة. والكتاب المؤرخون ــ والأجانب منهم قبل العرب ــ باتوا هم الآخرون يختلفون في التسميات لأن التاريخ نفسه غير متفق عليه؛ ومن هنا أصبحنا نقرأ عن سليمان، مثلا، انه كان ملكا على الاسرائيليين في مكان، وعلى العبرانيين في مكان آخر، وعلى اليهود في مكان سواه. وواضح اننا في بحثنا هذا استعملنا تسمية «بني اسرائيل»، وذلك ليس عن قناعة بأنها الأصوب لكل العهود، بل لكونها تسمية الكتاب المقدس والقرآن الكريم. وفضلا عن ذلك، فما من تسمية واحدة لليهود تصلح لكل العهود. وهذا البحث ليس تاريخيا ليشتمل على كل الدقائق والتفاصيل. انما يجدر الالمام بالفوارق بين هذه التسميات ومعرفة بداياتها.

١ ــ العبرانيون او العبريون:

أُطلقت كلمة العبري او العبراني في الألف الثاني قبل الميلاد على طائفة من القبائل العربية في

---

(٦٧) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥٧ ــ ٦٦٠.

شمال الجزيرة العربية وفي بادية الشام، وكانت مرادفة لابن البادية. وفي اللوحات المسمارية والفرعونية، وردت كلمات «الابري» و«الهبيري» و«الخبيرو» و«العبيرو». وفي تلك المرحلة، لم يكن للاسرائيليين ولا للموسويين ولا لليهود اي وجود بعد. ونُعت ابراهيم الخليل في التوراة بالعبراني، والمقصود بها «العبريّون» او«العبيرو»، وهم القبائل البدوية، ومنها الآرامية التي ينتمي اليها ابراهيم الخليل نفسه. وفي القرآن الكريم لم يرد مصطلح العبرانيين قط. وما بين عصر ابراهيم وعصر موسى سبعمائة عام.

٢ ــ الاسرائيليــون:

يُنسب الاسرائيليون الى يعقوب (الملقب باسرائيل)، حفيد ابراهيم الخليل. ومن الاكتشافات الاخيرة نعلم ان كلمة «اسرائيل» كانت اسما لموضع في فلسطين، وهي كلمة كنعانية. ولما هاجرت اسرة يعقوب الى مصر وانضمت الى يوسف، اندمجت في البيئة المصرية اندماجا نهائيا. ويعتقد الباحثون الذين يقولون بذلك ان قوم موسى كانوا، في معظمهم، من بقايا الهكسوس، وان لا علاقة بين العصرين

٣ ــ الموسويون او قوم موسى:

يمتد دورهم سبعمائة عام تقريبا، وكانوا يؤمنون، هم والنبي موسى، بدين التوحيد الذي ورثوه عن أخناتون، فرعون مصر. وكانوا يتكلمون باللغة المصرية، وهي اللغة التي نقل بها موسى الشريعة والوصايا العشر، فعلى الارجح انها كتبت بالهيروغليفية التي تعلمها موسى في بلاط فرعون. وقد اخذ الموسويون بثقافة الكنعانيين ولغتهم، ثم جاء يوم انحرفوا فيه عن ديانة موسى وشريعته. أما شريعة موسى فلم يعثر لها على اثر.

٤ ــ اليهــود:

اطلق اسم اليهود على بقايا جماعة يهوذا الذين سباهم نبوخذ نصّر الى بابل في القرن السادس ق.م.، وذلك نسبة الى مملكة يهوذا المنقرضة. واقتبس هؤلاء لهجتهم العبرية من الآرامية، وبها دوّنوا التوراة في الأسر، في بابل، اي بعد زمن موسى بثمانمائة عام.

وهدفَ أحبار اليهود من كتابة تاريخهم الى جعل انفسهم مقام الشعب المختار والأفضل من سائر شعوب الارض:(٦٨)

---

(٦٨) احمد سوسه، مصدر سبق ذكره، المقدمة، ص ف ــ ر.

ولتحقيق ذلك كان لا بد من ارجاع اصلهم الى اقدس شخصية قديمة، اي شخصية ابراهيم الخليل الذي كان صيته قد عم جميع أرجاء عالمهم في تلك الازمان. وقد حالفهم النجاح في سرد تاريخهم حسب أهوائهم بلباقة ومهارة لم يسبق لها نظير في الأدب القديم، وأضفوا عليه صبغة دينية ليضمنوا تقبله من أتباعهم وهكذا فقد أرجعوا تاريخهم الى ابراهيم الخليل والى حفيده يعقوب (اسرائيل)، فسموا جماعة موسى بني اسرائيل على رغم كونهم ظهروا بعد اسرائيل بزهاء ستمائة عام، وذلك بغية ربط اصلهم بابراهيم الخليل، وابتدعوا فكرة الشعب المختار التي كان ابراهيم الخليل ويعقوب وموسى بريئين منها. ثم جعلوا بني اسرائيل الموضوع الرئيسي الذي تدور حوله جميع الحوادث الواردة في التوراة، فعدّتهم التوراة موجودين في كل زمان وفي كل مكان حتى في الأدوار التي سبقت ظهور يعقوب الى عالم الوجود فقد اعتبرت وجود بني اسرائيل في عصر ابراهيم الخليل في القرن التاسع عشر قبل الميلاد قبل ان يلد يعقوب (اسرائيل)!! كما انها عدت وجودهم بعد عهد ابيهم يعقوب بحوالي ستمائة عام، اي في عهد موسى عندما غزت جماعته ارض كنعان (فلسطين) من مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ثم اعتبرت وجودهم في جميع الأدوار والأحداث التالية ومن ضمنها عهد الملوك وعهد الانقسام وما تلا ذلك، وحتى يهود الخزر الذين اعتنقوا اليهودية في وقت لاحق وهم من اصل تركي وكذلك يهود اوروبا وأميركا ويهود العالم جميعا هم على رأي التوراة نفس أولاد يعقوب الذي عاش قبل ٣٧٠٠ سنة، فما أغرب هذا المنطق!!. والأغرب من هذا كله هو اننا نجد الكثير من العلماء والباحثين من يتقبل مثل هذا الخلط.[٦٩]

ويتقبل الكثير من العلماء والباحثين ايضا فكرة «الحضارة الاسرائيلية» التي كانت الاولى والأعظم والأكثر ازدهارا في العالم القديم. وليس من شك أبدا في مساهمة عهد داود وسليمان بالذات في حضارة المنطقة؛ فهذا فصل مزدهر من فصول التاريخ القديم على ارض فلسطين، لكنه ليس الأوحد ولا الأول، بأي حال من الأحوال.

وكانت الحضارة الكنعانية منتشرة، وعنها اخذ «الموسويون»، الهاربون من العبودية والتائهون في الصحراء، اصول المدنية؛ فتكلموا اللغة، وقلدوا العمران، واقتبسوا الأدب والموسيقى، وحتى طقوس العبادة.

ان من يدرس تواصل الحضارات بين الشعوب، ومن يقرأ تاريخ الشعوب السامية بالذات، لا يستطيع ادعاء ملكية الحضارة لشعب من دون الشعوب الاخرى ملكية خالصة؛ فالكنعانيون انفسهم — وهم الأصل والبداية في فلسطين — بقيت لغة التجارة عندهم اللغة البابلية. وما تقارب اللغات والعبادات ووسائل المعيشة بينهم وبين الشعوب المجاورة إلا دليل على اتصال الحضارات المجاورة بعضها ببعض، ودليل على تواصلها.

---

(٦٩) المصدر نفسه، المقدمة، ص ر — ش.

خامسا: الفلسطينيون

في أواخر القرن الثالث عشر ق.م.، زحفت القبائل الهندو ــ اوروبية على بلاد اليونان، فاضطر سكانها الايجيون الى الفرار بحرا، ووصلوا الى اقرب السواحل، وهي سواحل مصر وسوريا اليوم. وكان الفلسطينيون (او الفلسطيّون) بين هؤلاء الذين جاؤوا من جزيرة كريت، واحتلوا مدينتي أرواد وقادش. ولما أرادوا الوصول الى مصر، جمع رعمسيس الثالث (١١٩٨ ق.م. ــ ١١٦٧ ق.م.) قواته البرية والبحرية، وكانت معركة قاسية جدا تغلب فيها المصريون، غير انهم لم يلحقوا بالفلسطينيين شمالا. وهكذا كانت سواحل فلسطين بداية استقرار الفلسطينيين (الايجيين) عليها.

لا شك في ان دخول الفلسطينيين ارض كنعان كان متزامنا مع دخول قوم موسى. ويشير بعض الكتابات الى سبق الفلسطينيين، [٧٠] وبعضها الآخر الى الموسويين. واستطاع الفلسطينيون، منذ بداية عهدهم، ان يتغلبوا على الكنعانيين ويستولوا على مدن الساحل من جنوبي الكرمل (حيث كانت حدودهم مع الفينيقيين) حتى غزة (حدودهم مع مصر). وكانت اهم مدنهم خمسا: غزة، وعسقلان، واسدود، وعقرون، وجت. وقد حكمت كلَّ مدينةٍ قبيلة من قبائلهم باستقلالية كاملة، غير انهم امتازوا بوحدة قوية نسبيا فيما بينهم، هي اشبه بالاتحاد الكونفدرالي. كما كانوا عند الخطوب يتوحّدون. ولم يختلط الفلسطينيون بغيرهم من الشعوب؛ وربما يعود ذلك الى عدم انتمائهم الى الشعوب السامية، فهم آريّون، وربما يعود ذلك أيضا الى كونهم قد جاؤوا بعائلاتهم معهم منذ البداية، فعاشوا في مجتمعهم الخاص في عزلة. [٧١]

في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، وصل الفلسطينيون الى قمة قوتهم الحربية. وهم، منذ البداية، تميّـزوا بالطابع الحربـي؛ فقد برعوا في صناعة الأسلحة الحديدية وفي استعمالها. وهم بنوا أول مصانع للحديد على ارض كنعان في الجنوب الغربـي. [٧٢]

ان ابرز ما يتميز به تاريخ الفلسطينيين هو سلسلة الحروب التي خاضوها مع بني اسرائيل. ولو كانت مصر في تلك المرحلة بعد قويّة، لما تمكن الفلسطينيون ولا بنو اسرائيل من الاستيلاء على قسم كبير من ارض الكنعانيين؛ فالحروب الكنعانية ــ المصرية كانت قد اضعفت كلا من الكنعانيين والمصريين، مما سهّل على الفريقين المهاجرين من الغرب والشرق ان يحتل كل منهما جزءا من البلاد.

ومن ابرز معاركهم: المعركة الاولى. وهي تعرف بمعركة افيق (رأس العين)، وقد انكسر فيها بنو

---

(٧٠) Paton, *op cit*, p 149

(٧١) Hitti, *History of Syria*, *op.cit*, pp 180-181

(٧٢) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣٨.

اسرائيل، وقتل فيها ثلاثون ألفا، كما استولى الفلسطينيون منهم على «تابوت العهد»، المقدّس لديهم والذي كانوا يتبركون به ويحرصون عليه كل الحرص في ترحالهم وحروبهم. وخبأ الفلسطينيون «تابوت العهد» في اسدود، غير انهم ردوه فيما بعد الى الملك داود، ثم وضع في هيكل سليمان، ولم يعرف مصيره بعد ذلك.

و «تابوت العهد» او «تابوت الشهادة» يعتبر الرمز لاله اليهود يَهْوه. وهو يتألف من خزانة خشبية مكسوة بالذهب من الداخل والخارج، ويحيط به اكليل من الذهب الخالص. واحتفظوا داخله بلوحي الشهادة، وهما اللوحان الحجريان اللذان نقشت عليهما الشريعة الموسوية، اي الوصايا العشر التي نزلت على النبي موسى في جبل سيناء.

وفي سفر صموئيل الأول (٤: ١ ــ ١١) وصف لاستيلاء الفلسطينيين على تابوت العهد: «وكانَ كلامُ صَموئِيلَ الى جميعِ اسرائيلَ وخرجَ اسرائيلُ للقاءِ الفِلِسطِينيينَ للحربِ ونَزَلوا عندَ حَجَرِ المعونةِ وأمَّا الفِلِسطينيونَ فَنَزَلوا في أفيقَ. واصطَفَّ الفِلِسطينيونَ للقاءِ إسرائيلَ واشتبكتِ الحربُ فانكسرَ اسرائيلُ أمامَ الفِلِسطينيينَ وَضَرَبوا من الصّفِّ في الحقلِ نحوَ اربعةِ آلافِ رَجُلٍ. فجاءَ الشعبُ الى المحلَّةِ. وقالَ شيوخُ اسرائيلَ لماذا كَسَّرَنا اليومَ الربُّ أمامَ الفِلِسطينيينَ. لنأخُذْ لأنفسِنا من شِيلُوهَ تابوتَ عهدِ الربِّ فيدخُلَ في وَسْطِنا ويخلِّصَنا من يدِ أعدائِنا. فأرسلَ الشعبُ الى شِيلُوهَ وحَمَلُوا من هناكَ تابوتَ عهدِ ربِّ الجنودِ الجالسِ على الكَرُوبِيمِ. وكانَ هناكَ ابْنَا عَالِي حِفْني وفِينْحاسُ مع تابوتِ عهدِ اللّـهِ. وكانَ عندَ دخولِ تابوتِ عهدِ الربِّ الى المَحَلَّةِ أنَّ جميعَ اسرائيلَ هَتَفوا هُتَافاً عَظيماً حتَّى ارْتَجَّتِ الأَرْضُ. فَسَمِعَ الفِلِسطينيونَ صوتَ الهُتَافِ فقالوا ما هُوَ صوتُ هذا الهُتَافِ العظيمِ في مَحَلَّةِ العِبْرانيينَ. وعَلِموا أنَّ تابوتَ الربِّ جاءَ الى المَحَلَّةِ. فخافَ الفِلِسْطينيونَ لأنهمْ قالوا قد جاءَ اللّـهُ الى المَحَلَّةِ. وقالوا وَيْلٌ لنا لأنهُ لم يكنْ مِثْلُ هذا منذُ أَمْسِ ولا ما قَبْلَهُ. وَيْلٌ لنا. مَنْ يُنقِذُنا من يَدِ هؤلاءِ الآلهةِ القادرينَ. هؤلاءِ هُمُ الآلهةُ الذينَ ضَرَبوا مِصْرَ بجميعِ الضَّرَباتِ في البَرِّيَّةِ. تَشَدَّدوا وكونوا رجالاً أيها الفِلِسطينيونَ لئلا تُسْتَعْبَدوا للعِبْرانِيينَ كما اسْتُعْبِدوا هُمْ لكم. فكونوا رجالاً وحارِبوا. فحارَبَ الفِلِسطينيونَ وانكسَرَ اسرائيلُ وهَرَبوا كُلُّ واحدٍ الى خَيْمَتِهِ. وكانتِ الضَّرْبَةُ عظيمةً جدًّا. وسقطَ من اسرائيلَ ثلاثونَ أَلْفَ راجلٍ. وأُخِذَ تابوتُ اللّـهِ وماتَ ابنَا عالي حِفْني وفِينْحاسُ.»

ومن ابرز ملوك الفلسطينيين كان الملك أخيش، وهو الذي كان داود قد لجأ اليه في اثناء هربه من شاول.[٧٣] وداود نفسه كان قد تحول من راعي غنم الى مصوّب شجاع ماهر لما تمكن من قتل

(٧٣) راجع: «ملوك اسرائيل» اعلاه، في الفقرة ب ــ البند رابعا ــ الفصل الثاني

جالوت او جُليات، القائد الفلسطيني الجبار. وكان كل من الجيشين، الاسرائيلي والفلسطيني، واقفا على جبل، طوال اربعين يوما، وكان جُليات ينزل الى الميدان يوميا بالدرع والخودة النحاسية والسلاح الكامل، يتحدى بني اسرائيل ويطلب منهم مبارزا، فلا ينزل منهم احد لشدة ما كانوا يخافونه. وكان داود يومذاك صغير اخوته، ويرعى غنم ابيه في بيت لحم. غير انه ذات يوم وصل الى صفوف بني قومه ليسأل عن اخوته، وشاهد خوف رجال شاول وهربهم وهم يسمعون صيحة الفلسطيني يدعوهم الى النزال، وسمع أيضا ان الملك شاول وعد بأن يزوج ابنته مَنْ يقتل جُليات. وحاول شاول، لما مثل داود بين يديه، ان يثنيه عن عزمه لكونه غلاما ما اعتاد الحرب. غير ان داود لم ينثنِ، ولم يرتد ثياب القتال، واكتفى بعصاه وخمسة حجارة وضعها في جرابه وتقدم نحو الفلسطيني ومقلاعه بيده. ونظر اليه جُليات فاحتقره لصغره، ولما تقدم اليه ما كان من داود إلا ان تناول حجرا ورماه بالمقلاع فأصاب جبهته، وسقط جُليات على وجهه الى الأرض. وبالمقلاع والحجر قتله، ثم ركض ووقف فوقه وأخذ منه سيفه وقطع به رأسه وهرب الفلسطينيون لما مات جبارهم.[٧٤]

ابتدأت العداوة بين شاول الملك وداود «الرجل المسكين الحقير»، كما كان يقول عن نفسه، فبنو اسرائيل هللوا لداود، وفكر شاول في التخلص منه، فطلب منه ان يقتل مائة فلسطيني قبل ان يزوجه ابنته. وفعل داود، فذهب وحاربهم وقتل مائتين، ثم تزوج ابنته، واشتدت العداوة بينهما حتى وفاة شاول.

بقيت الحرب سجالا بين الفلسطينيين وبني اسرائيل. غير ان النزاع الداخلي بين شاول وداود بقي مستمرا كذلك. وفي هذه المرحلة قرر داود ان يلجأ الى الفلسطينيين أعدائه، وأنجده الملك أخيش، ملك جت. وكان داود قد لجأ اليه مع ستمائة رجل وامرأتيه، واستقر في مدينة صقلغ التي أعطاه اياها أخيش

وفي احدى حروب الفلسطينيين ضد شاول، طلب الملك أخيش من داود ان ينزل هو ورجاله ليحارب في صفوف الفلسطينيين، ورضي داود لكن أقطاب الفلسطينيين لم يرضوا بذلك؛ فهم لم يطمئنوا الى داود، وطلبوا من ملكهم ان يعيد داود الى مكانه (وقد كان لاجئا سياسيا لدى أخيش بلغة اليوم).[٧٥] وقد ورد في سفر صموئيل الأول (٢٩ : ٦ ــ ١١) ان الملك أخيش قال عندئذ لداود: «حيٌّ هُوَ الربُّ إنَّكَ انتَ مستقيمٌ وخروجُكَ ودخولُكَ معي في الجيش صالحٌ في عَيْنَيَّ لأني لم أَجِدْ فيكَ شرًّا من يومِ جئتَ اليَّ الى اليومِ وأمّا في أَعْيُنِ الأقْطابِ فلستَ بصالحٍ. فالآنَ ارجِعْ واذهَبْ

---

(٧٤) «الكتاب المقدس ــ العهد القديم»، سفر صموئيل الاول، الاصحاح السابع عشر.

(٧٥) راجع: المصدر نفسه، سفر صموئيل الاول، الاصحاح الثامن عشر ــ الاصحاح الواحد والثلاثون

بسلامٍ ولا تفعَلْ سُوءًا في أعينِ أقطابِ الفِلِسطينيينَ. فقال داودُ لأخيشَ فماذا عَمِلْتُ وماذا وجدْتَ في عبدِكَ من يَوْمٍ صِرْتُ أمامَكَ الى اليومِ حتَّى لا آتيَ وأُحارِبَ أعداءَ سيّدي المَلِكِ. فأجابَ أحيشُ وقالَ لداودَ عَلِمْتُ أنَّكَ صالحٌ في عينيَّ كملاكِ اللّـهِ إلاَّ إنَّ رؤساءَ الفِلِسطينيينَ قالوا لا يَصْعَدْ مَعَنا الى الحربِ والآنَ فبكِّرْ صباحاً مَعَ عَبيدِ سيِّدِكَ الذينَ جاءوا مَعَكَ واذا بكَّرْتُمْ صباحاً وأضاءَ لكُمْ فاذهبوا. فَبَكَّرَ داودُ هُوَ ورجالُهُ لِكَيْ يذهبوا صباحاً ويَرْجِعُوا الى ارضِ الفِلِسطينيينَ. وأَمَّا الفِلِسطينيونَ فَصَعِدُوا الى يَزْرَعِيلَ.»

لو لم تكن التوراة نفسها مصدر هذه الحادثة، لما صدّق احد ان داود، أعظم ملوك بني اسرائيل، قد التجأ الى الملك أخيش الفلسطيي واستعد ليقاتل معه ضد أعداء «سيده الملك»، اي ضد بني قومه. ومن ناحية اخرى، تظهر هذه الحادثة ان الملك الفلسطيني لم يكن مستندا برأيه؛ فقد استمع الى نصيحة الأقطاب في قومه، ونزل عند رأيهم وأثبتت الأيام ان أقطاب الفلسطينيين كانوا على صواب؛ ذلك بأن شاول قد انتهى مع أبنائه الثلاثة في المعركة الأخيرة، معركة جبل جلبوع، مما جعل الفلسطينيين يسيطرون على الطريق التجارية الدولية المارة بسهل مرج ابن عامر والغور، والتي تصل بلادهم بدمشق وغيرها، غير انهم هزموا بعد ذلك أمام جيش الملك الجديد، الملك داود، الذي بقي يلاحقهم حتى خصعت لحكمه المدن الفلسطينية كلها.

وفي عهد الملك سليمان، خضع الفلسطينيون له طوال حكمه وفي مرحلة انقسام المملكة الى مملكتين، شمالية وجنوبية، حارب الفلسطينيون كلا منهما من وقت الى آخر، حتى القرن الثامن ق.م. غير انهم خضعوا نهائيا بعد ذلك أما في الحروب الخارجية، فقد اضطر الفلسطينيون، بحكم موقع بلادهم، الى ان يقاتلوا الآشوريين والمصريين، خصوصا عندما كان هذان الفريقان يتقاتلان على ارض الفلسطينيين. وقد صمدت «اسدود»، المدينة الفلسطينية الاولى، ثلاث سنوات أمام الجيش الآشوري في القرن الثامن ق.م.، لكن الآشوريين احتلوها أخيرا، وكذلك احتلت مصر غزة.

انقرضت مملكة الفلسطينيين الى حد بعيد قبيل السبي البابلي. ولم تعد لهم، في القرن الرابع ق.م.، اية قوة تذكر، وانتهت سيرتهم في تاريخ فلسطين بالاندماج التام والانصهار مع الساميين وهي نهاية متوقعة لشعب غريب كانت بلاده ممرا للشعوب والجيوش المجاورة.[٧٦]

ليس من شك في ان اكبر مساهمة للفلسطينيين في المدنية الكنعانية والاسرائيلية، كانت ادخال صناعة الحديد؛ فالملك داود تغلب عليهم لما اصبح قومه أيضا يعرفون الاسلحة الحديدية. وقد ورثها عنهم الفينيقيون أيضا، فاستعملوا الحديد في بناء السفن، وكذلك ورثوا عنهم الرغبة في ركوب البحر

---

(٧٦) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤٠ ــ ٥٤١.

البعيد. وتفوق الفينيقيون في هذا المضمار، فوصلوا الى المحيط الاطلسي عندما كان الفلسطييون قد نسوا ـ هم انفسهم ـ حب ركوب البحر، وفضلوا البقاء والاندماج في سكان الارض

وساهم الفلسطييون، كذلك، في صناعة الفخار، فعرف الكنعانيون منهم أدوات حديدة من الفخار، كما عرفوا من الحديد (٧٧)

وتأثر الفلسطييون بدورهم ـ وعلى الرغم من عزلتهم ـ بكثير من التقاليد الكنعانية، فأصبحت عبادتهم تتألف من ذكر وأنثى كما هي عبادة الساميين. ومن آلهتهم الاله داجون، إله الحبوب والعلات الغذائية. وقد عبدوه على صورة رأس انسان ويدي انسان وجسم سمكة مغطاة بالفلوس والزعانف، وربما صوروه على هذا الشكل تأثرا بنشأتهم بين الجزر، وبحبهم للبحر.(٧٨)

لم يبق شيء يذكر من اللغة الفلسطيية. ومن الكلمات القليلة الباقية كلمة «سيرين»، وهي تعني الحاكم أو السيد، فقد كان يقال سيرين اسدود مثلا، اي حاكم اسدود. وما زالت هناك قرية تدعى سيرين في شمال فلسطين.(٧٩) غير ان اهم ما بقي من تاريخ الفلسطييين القديم، هو الاسم الذي اطلق على معظم الأراضي التي عرفت في فجر الحضارة بأرض كنعان: فلسطين

سادسا: اسم فلسطين

ان وجود الفلسطينيين القدماء على الساحل الكنعاني، من الكرمل حتى غزة، حقيقة تاريخية لم تطرح مرة على صعيد الشك. فالعهد القديم تحدث مطولا عن الفلسطينيين، وأثبتت سائر المصادر المعروفة عن الألف الثاني قبل الميلاد وجود الفلسطينيين ومدنيتهم في مدن الساحل خاصة وقد ضاعت معالم هؤلاء الآريين ـ الايجيين الغرباء عن الشعوب السامية في المنطقة، فأصبحوا من الشعوب المنقرضة التي عاشت مئات من السنين في سؤدد وسيادة، لكنها لما انقرضت تركت بعض بصماتها. وأهم البصمات الخالدة التي خلفها الفلسطينيون، كانت الاسم؛ فالأرض الساحلية، التي كانت مدنها تعرف بالمدن الفلسطينية، اصبحت تعرف بأرض فلسطين.

في تاريخ ما قبل الميلاد، كانت طبيعة الحكم دولا مدينية مستقلة، مما جعل الملوك يُنسبون الى المدن التي يحكمونها لا الى الدولة الواحدة، لانعدام وجودها أصلا على الصعيد السياسي؛ فيقال مثلا الملك أخيش الفلسطيني ملك اسدود، وسواه ملك عسقلان... وهكذا.

---

(٧٧) Hitti, *History of Syria* ., *op cit*, p 184

(٧٨) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩٠.

(٧٩) المصدر نفسه، ص ٥٣٧.

وربما ادى انهيار الممالك المدينية هذه في عهد الفرس الى جعل نسبة الارض الى الشعب أمرا طبيعيا بل محتما، بعد ان كانت نسبة المدن الى هذا الشعب هي الأساس في عهود الملوك الأقوياء.

وقد ورد في معظم الكتب التاريخية الحديثة ان هيرودوتس كان اول من أطلق اسم فلسطين على الساحل العربي من البلاد. والحقيقة هي ان هذا المؤرخ اليوناني، المعروف بالمؤرخ الاول، قد سجل الاسم وكتبه كما سمعه متداولا في القرن الخامس قبل الميلاد؛ فهو لم يطلقه او يخترعه، والتاريخ الذي كتبه كان سجلا لما لاحظه وسمعه من الأقوام والشعوب عبر رحلاته المتواصلة في آسيا الصغرى والمدن والجزر اليونانية. ومن الاماكن التي زارها: صور، والساحل الفلسطيني كله حتى غزة، ومصر التي مكث فيها طويلا. ففي أثناء حديثه عن الحضارة المصرية القديمة وفن العمارة لدى المصريين القدماء، قال: «ان الأعمدة التي بناها ملك مصر، سيسوستريس، في البلاد التي احتلها قد اختفى معظمها. أما في الجزء من سوريا، المدعو فلسطين، فقد رأيتها بنفسي ما زالت منتصبة واقفة، تعلوها الكتابة والرمز.»[٨٠] (الكتابة احتوت اسم الملك المصري واسم بلده وكيفية احتلاله البلاد بقوة جيشه، والرمز يصور الشعب الذي اخضعه شعبا من النساء).

ويقول في موضع آخر عن انتشار العادات المصرية: «ان الفينيقيين والسوريين انفسهم من فلسطين يعترفون بأنهم تعلموا هذه العادة (عادة الختان) من المصريين.»[٨١]

وعن موقع مصر يقول: «والآن، فالمدخل الوحيد لمصر من هذه الصحراء: البلاد من فينيقيا حتى حدود مدينة قادش تخصّ الشعب السوري في فلسطين. . »[٨٢]

وفي العهد الروماني، أطلق الرومان اسم فلسطين على البلاد كلها، اي جريا على عادة اطلاق اسم الجزء على الكل؛ وبمعنى آخر: عندما كانت اللغة الفلسطينية تحتضر، وشعبها سائرا الى زوال، كرس الرومان هذا الاسم، ومن بعدهم العرب المسلمون. وفي القرن العشرين، لما اقر مؤتمر سان ريمو سياسة الانتدابات في هذه المنطقة، لم تستطع بريطانيا العظمى ان تحذف اسم فلسطين، وان تكن قد ابتدأت مؤامرة الحذف بأنها حذفت كلمتي «الشعب الفلسطيني»؛ فلم تستعمل هذا التعبير ولا مرة، لا في صك الانتداب ولا في الدستور، فالتشريعات كلها كانت من وحي وعد بلفور ذي الأسطر الثلاثة، وقد أشير فيه الى الشعب الفلسطيني بتعبير «الطوائف غير اليهودية».

ويتضح ان الحركة الصهيونية العنصرية قد اعتبرت الاستيلاء على الاسم أساسا من اسس

---

(٨٠) *The History of Herodotus.* Translated by George Rawlinson, 24th printing, Great Books of the Western World, No. 6 (Chicago: Encyclopaedia Britannica, 1982), Book II, Ch 106.

(٨١) *Ibid*, Book II, Ch 104.

(٨٢) *Ibid.*, Book III, Ch 5.

الاستيلاء على الأرض. وهي لم تقرر حذف الاسم لأنها لا تستطيع ذلك على الصعيد التاريخي، لذلك قررت ان تنسبه الى نفسها، فالأنسيكلوبيديا اليهودية تقول، في تعريفها لكلمة فلسطين: «احد **الأسماء** للبلاد المعروفة بأرض اسرائيل او الأرض المقدسة كلمة فلسطين كانت اساسا فعلا مشتقا من **العبريّة** (بيليشت)، وأول من ذكرها هيرودوتس . . . »[٨٣]

وللرد على ذلك، فان اللغة العبرية المعروفة اليوم لم تكن أساسا قد وجدت لما وجد الشعب الفلسطيني وقوم موسى او بنو اسرائيل على ارض الكنعانيين. فالفلسطينيون جاؤوا بلغتهم، وبنو اسرائيل جاؤوا باللغة المصرية القديمة، وسرعان ما اقتبسوا اللغة الكنعانية. أما اللغة العرية المعروفة، فقد ولدت في السبي البابلي. وحتى لو قبلنا بالتسمية الاسرائيلية للغة «المختلطة» لبني اسرائيل على ارض كنعان بأنها اللغة العبرية الاولى (المندثرة)، فهذه اللغة هي الأحدث تكوينا بين كل لغات المنطقة، فهي التي اخذت عن غيرها لا العكس.

ومن الناحية الجغرافية، فكلمة فلسطين في الأنسيكلوبيديا اليهودية تختلف عن كل ما جاء في كتب التاريخ؛ فهي تتجاوز حدودها المعروفة الى ما هو ابعد كثيرا. فالأنسيكلوبيديا تختصر الشروحات التلمودية لكلمة فلسطين بقولها: « . . . في كتب التلمود تستعمل فلسطين اسما لمقاطعة رومانية تجاور مقاطعتي فينيقيا وعروبيا. ومنذ القرن الرابع، كان يشار الى المقاطعات الثلاث التي تجزأت اليها ارض اسرائيل بفلسطين الاولى، والثانية، والثالثة، بالتتابع . . . »[٨٤]

فلسطين ــ تلموديا ــ إذاً، هي فلسطين وبلاد الفينيقيين وبلاد العرب. وهي، في لغة الصهيونية المعاصرة العنصرية، «إسرائيل الكبرى» ان هذه الادعاءات العنصرية ليست بحاجة الى تعليق، لو لم تكن أحابيلها قد اخترقت الموسوعات العلمية الأخرى؛ فالأنسيكلوبيديا البريطانية، في احدث اصدار لها، تساير الادعاءات الصهيونية؛ ولما كان العلم أساسا لا يقبل بالمسايرة، فقد جاء تعريف كلمة «فلسطين» خاليا من كل منطق تاريخي: «ان كلمة فلسطين مشتقة من اليونانية بلستينا، المشتقة بدورها من العبريّة بيليشت (ارض الفلسطينيين) . . . »[٨٥] وبتعبير آخر: فالأنسيكلوبيديا البريطانية تفترض ان الفلسطينيين، الذين قد عبروا البحر وقاتلوا المصريين وامتلكوا احدث الأسلحة في ذاك الزمان، قد جاؤوا بلا اسم ولا لغة ولا هويّة، وانتظروا حتى يمنحهم اعداؤهم «بنو اسرائيل» اسما ولقبا

والدليل القاطع على نفوذ الاخطبوط الصهيوني في العقل الغربي المعاصر، ان الانسيكلوبيديا

---

(٨٣) *Encyclopaedia Judaica*, 1st printing, Vol 13 (1971), p. 29

(٨٤) *Ibid*

(٨٥) *Encyclopaedia Britannica — Micropaedia*, 15 ed. (1974), Vol. VII, p. 693

البريطانية نفسها، وفي اول اصدار لها في القرن الثامن عشر، اي قبل ولادة الاخطبوط الصهيوني بأكثر من مائة سنة، كانت موضوعية في تعريفها لكلمة فلسطين؛ فقالت: «تدعى فلسطين من الفلسطينيين الذين سكنوا شاطىء البحر، وقد دعيت أيضا بيهودية من يهودا. والارض المقدسة من حياة مخلصنا عليها وآلامه فوقها. وتدعى كنعان وأرض الميعاد في الكتاب المقدس.»[٨٦]

* * *

ذكرنا بداية، ونذكر نهاية، بشأن الحق التاريخي الذي يدعيه الاسرائيليون اليوم في ارض فلسطين، ان ليس هنالك حقوق تاريخية، لا في الشرائع السماوية، ولا في الشرائع الدولية، ولا في شرائع الأمم الممارسة منذ اقدم الأزمان. فالحركة الصهيونية السياسية المعاصرة هي الحركة الوحيدة التي ادعت هكذا حقوق؛ ان لغة الاستعمار الاوروبـي، في القرن التاسع عشر، لم تجد ضرورة حتى لتبرير الأطماع التوسعية والاقتصادية في القارات الاخرى؛ ولغة الانتدابات، في القرن العشرين، وجدت ضرورة دنيا لاخفاء مطامعها، فادعت الرغبة في تمدين الشعوب الأخرى حبا بالمدنية والانسانية، وقالت انها موقتة. أما الحركة الصهيونية، فقد اخفت مطامعها جميعا، وتسترت وراء الحقوق الدينية والتاريخية لسببين: اولهما، انها لم تكن دولة. وثانيهما، انها كانت بحاجة الى اقناع اليهود انفسهم من شتى الجنسيات، وفي بلاد الارض، بالتجمع في فلسطين؛ وخصوصا ان «سيف الاضطهاد» ــ وهو الحجة الكبرى ــ لا تأثير له في الملايين من اليهود السعداء او المكتفين في مواطنهم. إذاً، فالرابط الأوحد هو اثارة المشاعر الدينية، والتشبث بأسطورة الحقوق الدينية والتاريخية.

ونجحت الحركة الصهيونية في هذه الاثارة داخل مجتمعاتها اليهودية. وان لم يكن لهذه الحقوق ادنى اهمية على الصعيد السياسي الدولي كما قال إلمر بيرغر، إلا ان الاثر لا ينكر فيما بين اليهود انفسهم.

ويطرح، مؤخرا، الدكتور كمال الصليبـي نظرية جديدة في قراءة التوراة وفهمها، من شأنها ــ ان صحّت ــ ان تنسف جذور الحقوق الدينية والتاريخية من أساسها. وموجز النظرية الجديدة ان فلسطين لم تكن ارض التوراة، اي ارض موسى وملوك بني اسرائيل، بل كانت البيئة التاريخية والأرض الحقيقية للتوراة هي الأرض المعروفة ببلاد السراة، وهي تقع غرب شبه الجزيرة العربية، من الطائف شمالا حتى مشارف اليمن جنوبا. والنهج الذي اعتمده المؤلف، في كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب»،[٨٧] للوصول الى هذه النتائج، هو نهج المقارنة اللغوية بين أسماء الأماكن التي وردت في

---

(٨٦) *Encyclopaedia Britannica A Dictionary of Arts and Sciences* (Edinburgh. Society of Gentlemen in Scotland, 1771), Vol III, p 451

(٨٧) راجع: كمال الصليبي، «التوراة جاءت من جزيرة العرب»، ترجمة عفيف الرزاز (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٥).

التوراة باللغة العبرية القديمة (وقد كتبت بالأحرف الساكتة من دون حركات)، وبين الأسماء العربية المتداولة حاليا في هذه المنطقة؛ وعلى الرغم من فارق ثلاثة آلاف سنة بين العبرية القديمة في القرن الخامس قبل الميلاد، وبين العربية اليوم، فان التمييز فوري ــ كما رآه المؤلف ــ بين اصل أسماء هذه الأماكن بالعبرية القديمة، وبين شكلها العربي الحاضر.[٨٨] وبمعنى آخر، فقد اتضح للمؤلف، عبر البحث في «الجغرافيا التاريخية للتوراة»، ان موطن معظم أسماء الأماكن الواردة في التوراة هو شبه الجزيرة العربية. أما بالنهج المقابل، فانه لم يثبت حتى الآن وجود هذه الأماكن كلها في فلسطين. وتعليل المؤلف لوجود البعض من هذه الأسماء في فلسطين، وخصوصا بين أسماء المدن، هـو ان اليهود (وكذلك غيرهم من فلسطينيين وكنعانيين) قد أطلقوا الأسماء القديمة نفسها التي ألفوها في شبه الجزيرة على أماكن سكناهم الجديدة في فلسطين، بدافع من الحنين.

ولما كانت المقارنة اللغوية وحدها لا يمكن الاكتفاء بها في معرفة التاريخ، فالمؤلف نفسه يشير الى ذلك، ويقترح اعادة النظر، عبر القيام بدراسات في العديد من الاتجاهات؛ فإما ان تتأكد نظريته ــ فيما بعد ــ وإما ان يثبت فشلها. وتشمل الدراسات المفترضة مستقبليا: إعادة قراءة نص التوراة العبري القديم بعيداً عن التصويت التقليدي؛ المقارنة مع النصوص القرآنية بشأن التاريخ القديم وبني اسرائيل؛ المقارنة مع الأسماء والمعلومات الواردة في مؤلفات القدماء من المؤرخين والجغرافيين؛ دراسة جغرافية مفصلة لطبيعة غرب شبه الجزيرة العربية اليوم؛ المقارنة بين الأسماء الحالية والأسماء التوراتية (اي القيام بعمل موسوعي شامل للتجربة التي قام بها المؤلف).[٨٩]

ان الحكم على صواب هذه النظرية او عدمه لن يكون سهلا، وهو بحاجة فعلا الى الدراسات المتعددة المشار اليها. غير ان هناك نقطة رئيسية تتعلق بالنهج اللغوي المقارن؛ فهذا النهج ــ على اهميته ــ لا يؤدي بحد ذاته الى أدلة قاطعة، ان لم نقل الى مؤشرات ثابتة، وخصوصا عندما تتناول الدراسة المقارنة اللغات السامية بالذات، والعربية والعبرية منها على وجه التحديد؛ فهي من منبع واحد، مما يسمح بالتمادي في استعمال النهج نفسه لاثبات الشيء ودحضه. فما قام به كمال الصليبي لهدف علمي محدد، ولاثبات نظرية ما، قام بمثيل له مجموعات من علماء اليهود والصهاينة ــ وعبر أجيال ــ لهدف علمي معلن، ولأهداف سياسية غير معلنة؛ فهم يردّون أسماء الأماكن في فلسطين الى أصول عبرية لغوية، حتى تلك التي ثبت وجودها قبل وجود العبرانيين أنفسهم. وباختصار، فان مقدار النجاح في هذا الاتجاه لدليل على القربى اللغوية اكثر من كونه دليلا على الجزم بلغة الأصل

---

(٨٨) المصدر نفسه، ص ٦١.

(٨٩) المصدر نفسه، ص ٧١.

وبالاضافة الى ما ذكرناه سابقا عن اصل كلمة «فلسطين»،[٩٠] نشير هنا الى مثل واحد من مئات الأمثلة، وهو قرية «شفاعمرو»، اكبر القرى في قضاء حيفا.

يقال ان الأصل في «شفاعمرو» كنعاني، وهو «عمعاد» بمعنى منزل. ويقال ان الأصل عبري وهو «شفر عام».[٩١] ويقال ان الأصل عربي وهو «شُفِيَ عمرو»، فالاسم أساسا يعود الى مرور عمرو بن العاص بالمكان، واضطراره الى البقاء بسبب مرض ألم به، ولما شفي وقام يكمل سيره مع جيشه، قيل هنا شُفِي عمرو، ثم اختصرت الى «شفاعمرو».[٩٢]

ولم يكن هذا المثال للتقليل من شأن الدليل اللغوي، وانما للاشارة الى مدى صعوبته، ولتأكيد الدعوة الى ضرورة القيام بالعديد من الدراسات والأبحاث لمعرفة المزيد عن تاريخ فلسطين وتاريخ الشرق الادنى القديم

---

(٩٠) راجع بشأن كلمة «فلسطين» و«الفلستيين»: المصدر نفسه، ص ٣٣ ـ ٣٦، ٢٥٠ ـ ٢٥١.
(٩١) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، الجزء السابع، القسم الثاني، رقم ٢، ص ٥٦٦.
(٩٢) هذا ما يردده سكان القرية ويعرفونه أبا عن جد.

القسم الثاني

العرب في فلسطين

الفصل الأول
الشعوب والقبائل العربية الأولى

أولا: عرب ام ساميّون؟

لو جمعنا مقتطفات من الأصول التاريخية للعرب في بلاد الشام والأردن وفلسطين وسيناء ومصر، لوجدنا ان كثيرا من هذه المقتطفات تؤدي الى اعتبار الساميين عربا. ومن هذه المقتطفات نضيف، الى ما اقتبسناه في القسم الاول، ما قاله الطبري، وهو من أوائل المؤرخين العرب، وما ايده فيه من بعده ابن خلدون؛ فقد قال عن العرب والعمالقة (العماليق):

فعمليق ابو العماليق. كلهم امم تفرقت في البلاد، وكان اهل المشرق وأهل عُمان وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل مصر منهم، ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون، ومنهم كانت الفراعنة بمصر، وكان اهل البحرين وأهل عُمان منهم امة يسمّون جاسم، وكان ساكني المدينة منهم، بنو هف وسعد بن هزان، وبنو مطر، وبنو الأزرق وأهل نجد منهم بديل وراحل وغِفار وأهل تيماء منهم.[1]

ويعود الطبري بالعرب الى سام بن نوح:

ان عمليق اول من تكلم بالعربية حين ظعنوا من بابل، فكان يقال لهم ولجرهم: العرب العاربة. وثمود وجديس ابنا عابر بن إرم بن نوح، وعاد وعبيل ابنا عَوْص بن إرم بن سام بن نوح.[2]

وذكر عدد من الكتّاب الغربيين، كذلك، الأصل العربي لأوائل الشعوب في المنطقة. فعلى

---

(١) ابو جعفر محمد بن جرير الطبري، «تاريخ الطبري. تاريخ الرسل والملوك»، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠)، الجزء الاول، ١/٢١٣ ــ ٢١٤، ص ٢٠٣.

(٢) المصدر نفسه، الجزء الاول، ١/٢١٩، ص ٢٠٧

سبيل المثال، قال كيللر عن الآراميين انهم قبائل عربية جاءت من الصحراء.[٣]

ولما كان الخوض في مقارنة القول الأكثر عمومية وهو ان هذه الشعوب كلها كانت سامية الأصل، بالقول الأكثر خصوصية وهو انها كانت عربية الأصل، لا يسمح به اطار هذه الدراسة العام، فاننا بالاضافة الى ما ذكرناه سابقا،[٤] نكتفي بالاشارة الى المفاهيم الثلاثة:

ــ المفهوم الاول، وهو المفهوم الغربي الشائع والمستند الى القربى اللغوية لا العرقية بين الشعوب السامية، ويصل هذا المفهوم الى افتراض وجود لغة سامية أُمّ للغات الأخرى.

ــ المفهوم الثاني، وهو المفهوم الذي لا يكتفي بالقربى اللغوية، بل يشدد على القربى القبلية الدموية، ويشير الى وجود شعب سامي هو الأصل لباقي الشعوب السامية.

ــ المفهوم الثالث يتعدى المفهومين السابقين، ويصل الى حد اعتبار العرب هم الشعب السامي الأول او الأصل. ويستند دعاة هذا المفهوم الى ان الشبه الأكبر لغويا هو بين اللغة العربية من دون سواها من اللغات السامية، وبين اللغة السامية الأم. هذا، فضلا عن استمرارية اللغة العربية من دون ان تتعثر او تندثر، واستمرارية العرب انفسهم في شبه الجزيرة العربية وخارجها؛ فمن الدول والممالك العربية ما اندثر، ومنها ما حافظ على الوجود العربي حتى اصبح العرب امّة لا قبائل.

ان الباحث العربي في القضية الفلسطينية بالذات يستهويه جدا، على الصعيد القومي، ان ينتمي الى فئة المفهوم الثالث. لكن الانتماء الاكاديمي لها، وبضمير اكاديمي ينتزع نفسه بمشقة من ضلالات الكتابات الصهيونية في تاريخ فلسطين؛ ان هذا الانتماء ما زال بحاجة الى دراسات معمقة من اجل تحديد معالم اللغة السامية المحكية الأولى والمندثرة، والى تحديد صفات الشعب السامي الأصل ومميزاته. وحتى تصل هذه الدراسات الى قناعة ما، فالحقيقة الراسخة حتى الآن هي ان العرب هم احد الشعوب السامية، وان العمالقة من اقدم العرب.

أما إن اختلف التفسير في كون الهجرات الأولى من الجزيرة العربية سامية ام عربية، فان التاريخ يثبت وجود قبائل وأقوام من العرب كانت على ارض فلسطين قبل مجيء بني اسرائيل او العبرانيين اليها، وأولها العمالقة.

---

(٣) Werner Keller, *The Bible as History: Archaeology Confirms the Book of Books.* Translated from the German by William Neil (London: Hodder & Stoughton, 1956), p. 187.

(٤) راجع: «الساميون» اعلاه، في البند ثانيا ــ الفصل الثاني ــ القسم الأول.

ثانيا: العمالقة

تشمل كلمة العرب في عصرنا العرب جميعا. وقد قيل قديما العرب البائدة، ومنهم ثمود وعاد وطسم وجديس، والعرب الباقية وهم العرب العاربة اي اهل اليمن من سلالة قحطان، والعرب المستعربة اي اهل الحجاز ونجد وتدمر والنترا من سلالة عدنان من نسل اسماعيل [٥]

والعمالقة هم اصل العرب القدماء، اي العرب البائدة. وقد سكنوا شمال الحجار، وامتد موطنهم من مصر الى سيناء ففلسطين. وكان لسانهم اللسان المضري، وهو لسان كل العرب البائدة التي تفرقت في شتى البلاد. وتنتسب كل القبائل التي بادت قبل الاسلام الى إرم بن سام إلا العمالقة، فينتسبون الى اخيه لاوذ بن سام.[٦]

عندما خرج موسى وقومه من مصر، كان العمالقة اول شعب تصادموا معه، وقد كانوا شعبا مقاتلا مما اوقع الرعب في نفوس بني اسرائيل. واستمرت الحرب سجالا بينهما حتى اوصى النبـي صموئيل الملك شاول، اول ملوك بني اسرائيل، بقتل العمالقة بنسائهم وأطفالهم: «فالآنَ اذهبْ واضرِبْ عماليقَ وَحَرِّمُوا كلَّ ما لَهُ ولا تعفُ عنهم بل اقتلْ رجلًا وامرأةً. طفلًا ورضيعًا بقرًا وغنمًا. جملًا وحمارًا.» (سفر صموئيل الاول ١٥:٣).

وحاربهم شـاول، غير انه لم يتمكن من تنفيذ وصية النبـي صموئيل بالقضاء عليهم قضاء مبرما، فأتم المهمة الملك داود، وقتل الكثيرين منهم وقد انتهى ذكر العمالقة باندماجهم في القبائل العربية الأخرى بعد القرن الثامن قبل الميلاد.[٧] غير ان اليهود لم ينسوا اسم العمالقة عبر ألفي سنة؛ ففي سنة ١٩٥٦، لما ابتدأ الفدائيون العرب من قطاع غزة يزرعون الرعب في الأرض المحتلة، ويباغتونها ليلا مما جعل اليهود يختبئون في منازلهم كل غروب، قال بن ـ غوريون في الكنيست الاسرائيلي: «هؤلاء أبناء العمالقة!! هؤلاء أبناء العمالقة!!»[٨]

يرجح ان مدينة العمالقة الرئيسية كانت في منطقة بئر السبع. ومن الثابت انهم امتلكوا العديد من المدن والقرى، وكانوا شعبا مزارعا. وفي منطقة نابلس اليوم جبل يدعى جبل العمالقة.[٩] ومما

---

(٥) فيليب حتي، وادوارد جرجي، وجبرائيل جبور، «تاريخ العرب (مطول)» (بيروت: دار الكشاف، الطبعة الثالثة، ١٩٦١)، الجزء الاول، ص ٣٩.

(٦) احمد سوسه، «العرب واليهود في التاريخ: حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الآثارية» (بغداد وزارة الاعلام ــ مديرية الثقافة العامة، ١٩٧٢)، ص ٤٨٥ ــ ٤٨٦.

(٧) مصطفى مراد الدباغ، «بلادنا فلسطين» (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٥)، الجزء الأول، القسم الأول، ص ٤٠١.

(٨) عجاج نويهض، «بروتوكولات حكماء صهيـون» (بيروت: مشورات فلسطين المحتلة، الطبعة الثانية، ١٩٨٠)، المجلد الثاني، ص ٢٧.

(٩) مصطفى الدباغ، مصدر سبق دكره، ص ٣٩٩

لا شك فيه ان الانتماء الى العمالقة كان انتماء عز ومجد، وكان ذكرهم ما زال حيا في الأذهان أيام الفتوحات العربية الاسلامية. وقد ذكر الواقدي، في كتابه «فتوح الشام»، ما قاله عمرو بن العاص لقسطنطين بن هرقل قبل فتح قيسارية عن أجداده العمالقة، وحق العرب في البلاد.(١٠)

ثالثا: المِدْيانيون

ينتسب المديانيون الى مِدْين او مديان، أحد أبناء ابراهيم من زوجته قطورة ويقول بعض المؤرخين انهم من بقايا الهكسوس، وانهم في الأصل قبيلة من المعينيين. وتمتد ارضهم من خليج العقبة الى مؤاب وطور سيناء. وسكن قسم منهم منطقة طبريا في الشمال. ولما خرج موسى من مصر سكن بينهم، وتزوج ابنة كاهن مديان. وقد آمن المديانيون بالإله الواحد باسم «يَهْوه»، وهو الاسم نفسه الذي عبد به بنو اسرائيل الله.(١١)

اختلط المديانيون بالكنعانيين واقتبسوا منهم، واشتهروا بالزراعة والري والتجارة، وكانوا أقوياء الى حد مكّنهم من فرض الخراج على المدن الخاضعة لهم. أما سيرتهم مع بني اسرائيل، فتنتقل من مصاهرة النبي موسى، وانقاذهم يوسف من البئر (فهم الذين سحبوه من البئر حيث ألقى به اخوته وباعوه الى قافلة تجارية من الاسماعيليين كانت في طريقها من عجلون الى مصر)،(١٢) الى سيرة من القتال والصدام المتواصل، وخصوصا لما عصي بنو اسرائيل أوامر ربهم ونبيِّهم، فذاقوا الذل سبع سنوات على يد المديانيين، فكانوا يلجأون الى الجبال والكهوف والحصون. وكان المديانيون، مع العمالقة وبني المشرق،(١٣) يغيرون بأعداد هائلة على أرضهم ويسومونهم الهوان.

وفي عهد القضاة، تمكن احدهم، جدعون، من كسر جيش المديانيين والعمالقة قرب بيت شان (بيسان)، واستمر في مطاردتهم وقتل أمرائهم. وامعانا في الانتقام، جمع سبعة وسبعين من الشيوخ وألقاهم فوق حزم الشوك وجعل النوارج تمر فوقهم. وبعد عهد القضاة، لم يعد للمديانيين ذكر في فلسطين.(١٤)

ان ابرز ما ساهم به المديانيون إدخال الجمل المدجّن الى فلسطين وسوريا، فكان له الفائدة الكبرى في المواصلات، وكذلك في الحروب.(١٥)

---

(١٠) راجع: «فتح قيسارية» أدناه، في البند تاسعا ــ الفصل الرابع ــ القسم الثاني.

(١١) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٦ ــ ٤٠٧.

(١٢) «الكتاب المقدس ــ العهد القديم»، سفر التكوين، الاصحاح السابع والثلاثون. ٢٥ ــ ٢٨.

(١٣) «بنو المشرق»: اسم عام للعرب في شمال الحجاز ومشارف الشام.

(١٤) راجع. «الكتاب المقدس ــ العهد القديم»، سفر القضاة، الاصحاحات· السادس والسابع والثامن

(١٥) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٨.

رابعا: الاسماعيليون

ينتسب الاسماعيليون الى اسماعيل بن ابراهيم. وقد اشتهروا بالتجارة عبر الصحراء ما بين كنعان ومصر. وكانت مساكنهم برية شور أمام مصر، وهم الدين اشتروا يوسف من المديابيين وأخذوه الى مصر، كما علمنا، وكانوا هم والمديانيون والعمالقة يسكنون ديارا واحدة وفي القرآن الكريم ارتبط بنو اسماعيل بالجزيرة العربية، كما اقترن اسم اسماعيل ببيت الله العتيق.(١٦)

وقد ورد اسم اسماعيل، في الكتابات البابلية، في وثيقة من عهد حمورابي (١٧٩٢ ق.م. — ١٧٥٠ ق م)، وفيها اسم أهوبا بن اسماعيل بصمته شاهدا على وثيقة تجارية؛ وهده الوثيقة دليل على ان التسمية سامية عربية، وترجع الى ما قبل عصر موسى على ارض فلسطين.(١٧)

خامسا: المعينيون

هم أصحاب الدولة المعينية، اقدم دولة عربية عاشت في اليمن مند الألف الثالث قبل الميلاد (١٣٠٠ ق.م. — ٦٣٠ ق.م.). ومن الثابت انها كانت دولة ذات حضارة.

امتدت دولة المعينيين، في عهد ازدهارها، الى شمال الحجاز وجنوب الأردن وفلسطين، فكانت مدينة معان في الداخل مركزا مهما للمواصلات والتجارة، ومحطة للقوافل ما بين جنوب الجزيرة العربية وشواطىء البحر المتوسط. ويعتقد ان الفضل يعود اليهم في بناء مدينة غزة. أما فضلهم في نمو المدنية وازدهارها فمؤكد. كما ان العديد من قبائلهم سكنت الجنوب في منطقة غزة، وحافظت على كيانها حتى عهد الاسكندر الكبير.(١٨)

سادسا: قيدار وجَشَم العربي

«قيدار» في التوراة، هي في التاريخ العربي (في كتب الطبري والمسعودي وابن خلدون) «قيذار» و«قيذر» و«قيدر» و«قاذر». وهي قبيلة عربية ورد اسمها أيضا في النصوص الآشورية والمؤلفات الكلاسيكية (في كتب المؤرخين اليونان والرومان)؛ فذكر بلينوس انها كانت تقيم على مقربة من النبط، وقد حاربها الملك آشور بنبال (٧٦٨ ق. م. — ٦٢٥ ق.م.). ويظهر من المصادر المذكورة

---

(١٦) «القرآن الكريم»، سورة البقرة، الآيات ١٢٥، ١٢٧ — ١٢٨

(١٧) احمد سوسه، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥٠

(١٨) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٩.

كلها، أعلاه، ان القيداريين كانوا شعبا قويا أعرابيا، ويعتنون بتربية المواشي. وقد وصفت التوراة خيامهم بأنها خيام سود. وبينهم من الحضر سكان المدن، وسكان المناطق الصخرية.

ويعرف من تاريخهم انهم كانوا، مع قبائل عربية اخرى، يهاجمون حدود المملكة الآشورية والقوافل الآشورية. ولم يكن من المتوقع ان يقبل ملوك الآشوريين بهذا الوضع فجردوا الحملات على القبائل العربية وانتقموا منها.[19]

وقد عرفنا، عبر المكتشفات الأثرية، من وثيقة آشورية (قرميدة من القرميد المكتشف في العراق) أخبار الملك سرجون الثاني الآشوري وفتوحاته، كالتالي:

> ان قبائل ثمود وعاديد مرسمان وخيابا من قبائل العرب سكان البادية الذين لم يصل حبرهم الى حكيم ولم يدفعوا الجزية لأحد قبلي، كل هذه الأمم غلبتها باسم آشور إلهي، ونقلت بقاياها الى سامريا.[20]

وبعد انتقال القبائل العربية من أعالي الحجاز او من قرب العقبة الى السامرة بثلاثة قرون، ظهر فيها أميرها جَشَم. وقد قيل عنه، في سفر نحميا، انه جشم العربي، وانه من أمراء السامرة. وفي هذه التسمية دليل على ان كلمة «عرب»، من دون سواها، كانت قد رسخت في معناها ومدلولها وشمولها، وغطت على التعابير السابقة في مرحلة كتابة التوراة (اي بعد السبي).[21]

وأضيف الى تعريف جشم، في «قاموس الكتاب المقدس»، انه كان ملكا على قبيلة قيدار:

> وقد اكتشفت مؤخرا نقوش في الجهة الشمالية الشرقية من مصر على وعاء فضي ويذكر ان جشم كان ملكا على قبيلة قيدار.[22]

ونستنتج مما تقدم، من التوراة ومن المكتشفات الأثرية في العراق وفي مصر، ان جشم الأمير او الملك هو وارث السلالة العربية منذ نقل سرجون الثاني القبائل العربية الى السامرة. وقد عاصر

---

(١٩) جواد علي، «تاريخ العرب قبل الاسلام» (بغداد: مطبعة التفيض، ١٩٥١)، الجزء الأول، ص ٢٩٠.

(٢٠) جرجي زيدان، «العرب قبل الإسلام» (القاهرة: مطبعة الهلال، الطبعة الثالثة ١٩٣٩)، الجزء الأول، ص ٩٢.

(٢١) في «العهد القديم» عندما يقال عن رجل انه عماليقي او مِدْياني او مِدّيَني او اسماعيلي او من بني المشرق، فذلك معناه بلغة اليوم عربي.

(٢٢) «قاموس الكتاب المقدس»، تحرير بطرس عبدالملك، وجون طمسن، وابراهيم مطر (بيروت المطبعة الانجيلية، ١٩٦٤)، المجلد الأول، ص ٢٦١.

جشم عودة نحميا الى اورشليم وعمله على اعادة بناء سور المدينة المهدّم، وكذلك عمله على اعادة اليهود للسكن داخل المدينة. وقد ورد في سفر نحميا (٢. ١٩ ـ ٢٠): «ولمّا سمعَ سَنْبَلَّطُ الحورونيُّ وطوبِيّا العبدُ العمّونيُّ وجَشَمُ العربيُّ هزأوا بنا واحتقرونا وقالوا ما هذا الأمرُ الذي أنتمْ عاملونَ أعلى المَلِك تتمردون. فأجبتُهُمْ وقلتُ لهمْ إنَّ إلهَ السماءِ يُعطينا النجاحَ ونحن عبيدُهُ نقومُ ونبني. وأمّا أنتمْ فليسَ لكمْ نصيبٌ ولا حقٌّ ولا ذِكرٌ في اورُشَليم.» وفي سفر نحميا أيضا (٤: ٧ ـ ١٠): «ولمّا سمعَ سَنْبَلَّطُ وطوبِيّا والعربُ والعمّونيونَ والآشدوديونَ أنَّ أسوارَ أورُشَليمَ قد رُمِّمَتْ والثُّغَرُ ابتدأتْ تُسَدُّ غَضِبوا جداً. وتآمروا جميعُهُمْ معاً أنْ يأتوا ويحاربوا اورُشَليمَ ويعملوا بها ضرراً. فَصَلَّيْنا الى إلهِنا وأَقَمْنا حُراساً ضدَّهُمْ نهاراً وليلاً بسببِهِم. وقال يهوذا قد ضَعُفَتْ قوّةُ الحمّالينَ والترابُ كثيرٌ ونحنُ لا نقدرُ أن نبني السّورَ.»

وتمكن اليهود على الرغم من معاداة السكان لهم، وبينهم العرب، من إعادة بناء السور باشراف نحميا في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد. والعبرة من وراء هذه الحادثة، ان اليهود على الرغم من تمكنهم من اعادة بناء السور والهيكل، فانهم عادوا فضعفوا فيما بعد وعلى الرغم من ثوراتهم أيام اليونان والرومان، فان دكرهم قد انتهى منذ مطلع القرن الثاني للميلاد. أما العرب، وقد كانوا بعضا من سكان فلسطين أيام العمالقة، كما كانوا بعضا من سكان فلسطين في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، فان قوتهم اطردت وازدادت، وتعززت بموجات الهجرة العربية قبيل الاسلام ثم توطدت بالفتح العربي الاسلامي. ولم تصبح اللغة العربية هي السائدة فحسب، وانما بقي العرب أيضا هم السادة وهم الأكثرية الساحقة حتى القرن العشرين، وحتى مؤامرة بلفور. فعن اي حق تاريخي تتحدث الصهيونية الاستعمارية؟

الفصل الثاني
فلسطين بين الأمبراطوريات الثلاث

أولا: الحكم الفارسي

تستوجب دراسة الحكم وبناء الدول او الممالك، دائما، العودة الى روح العصر وفلسفته وطبيعته. ومن اجل الوصول الى غايتنا، سنمر بايجاز شديد على التاريخ القديم لأرض فلسطين — ارض كنعان.

فقد كان اول حكم هو حكم الكنعانيين، وأول حضارة كانت لهم؛ إلا ان ارض كنعان، وهي همزة الوصل بين آسيا وافريقيا، كانت منذ البداية مسرحا لغزوات الحثيين من حهة، والمصريين من جهة اخرى، اي منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

ومنذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، اخذ بنو اسرائيل من جهة، والفلسطينيون من جهة اخرى، يبني كل منهما له حكما، وطالما امتدت الممالك المجاورة الى داخل البلاد جنوبا أو شمالا، لتتقلص من جديد؛ فسرعان ما كانت خرائط الممالك القديمة تتغير.

وفي القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، عادت فلسطين من جديد مسرحا للغزوات الخارجية؛ فتعرضت هذه المرة للآشوريين الذين خضعت لهم سنة ٧٣٢ق.م.، وللمصريين الذين خضعت لهم سنة ٦٠٨ق.م. وفي القرن السادس قبل الميلاد، كانت مملكة يهوذا (الجنوبية) قد انتهت على يد الكلدانيين، كما كانت المملكة الاسرائيلية (الشمالية) قد انتهت قبلها على يد الآشوريين.

وطوال هذه المرحلة، كان كل شعب يحاول القضاء قضاء مبرما على الشعب الآخر؛ فالحرب كانت تعني الابادة، والابادة كانت تستلزم الحرق والقتل بلا حساب. وبصورة عامة، كانت طبيعة الألف الثالث قبل الميلاد، وكذلك الألف الثاني قبل الميلاد، طبيعة المدن الحاكمة المتفرقة لا الحكم الموحّد القوي والحاكم الواحد؛ فالعصر كان عصر الملوك العدة من الشعب الواحد في الزمن الواحد. فعلى كل مدينة ملك، ولكل قبيلة أمير. وكانت الحروب الصغيرة والمتواصلة سمة العصر، والمملكة

لا تقوم إلا بالقضاء المبرم على المملكة المجاورة؛ فبنو اسرائيل أرادوا القضاء على الملسطينيين، وحاولوا القضاء على الكنعانيين. والمديانيون والفلسطينيون، حاول كل منهم القضاء على بني اسرائيل؛ فالحرب لا تنتهي إلا بالابادة، ابادة أحد الفريقين، أو «ابادة الغير لنحيا نحن»؛ وهكذا كانت الابادة تشمل الناس، والبيوت، والخيام، والنساء، والصغار، والمزروعات، والغلات، والبهائم، والأرض. وقد استمرت الحروب تنبع من روح الابادة، حتى شهد القسم الاخير من القرن السادس قبل الميلاد تحولا جذريا انتهى بعده عهد «الدول المدينية»، مستسلما لعهد الدولة المركزية الخارجية القوية. وكان أول الملوك الأقوياء في هذه المنطقة الملك كورش الثاني الفارسي. فحكمه بداية لمرحلة جديدة، انطلقت من توحيد أجزاء المملكة الفارسية، لتشمل الأراضي الشاسعة الممتدة من بلاد فارس حتى القوقاز، كما شملت كل بلاد الشام ومصر، ووصلت في طموحاتها وحروبها الى بلاد اليونان.

وكان شعار هذه المرحلة، التي امتدت احد عشر قرنا، من السادس قبل الميلاد حتى السابع بعده، يتلخص بحق الحاكم القوي في ان يحكم من الأرض والبشر والممالك والمدن كل ما تطاله أقدام جيوشه. وبعد استتباب الحكم، من الجائز ألا يتعارض الحكم مع تحقيق شيء من العدالة، ما دامت الضرائب تجبى. فهكذا افتتح الفرس هذه المرحلة التي اكملها اليونان فالرومان.

استعان الملك كورش الثاني باليهود على فتح بابل. وقد طلبوا منه، في المقابل، العودة الى فلسطين، فسمح لهم بذلك، وخصوصا ان زوجته استير كانت يهودية. وقد عاد منهم خمسون ألفا فقط، وفضل الاغنياء بالذات البقاء في بابل. وأراد كورش ان يكون اليهود جواسيس له وأعوانا على استتباب حكمه في فلسطين، وعلى فتح مصر وفي عهد ابنه قمبيز تم للفرس الاستيلاء على مصر، وقد ساعدهم العرب في جنوب فلسطين. وبفتح مصر اصبحت المنطقة المعروفة في عصرنا بـ «الشرق الاوسط» خاضعة، في القسم الاكبر منها، للفرس؛ فامتد ملكهم من دلتا النيل وشواطىء البوسفور غربا الى نهر السند شرقا.

وفي عهد داريوس الكبير (٥٢١ ق.م. ــ ٤٨٥ ق م.)، وصل الفرس الى أوروبا وأرادوا فتح اليونان، فكانت الحروب الفارسية اليونانية الشهيرة التي خسرها الفرس وربحها اليونان. وكانت نتيجة هذه المعركة الفاصلة بين الشرق والغرب، ان اليونان هم الذين عادوا الى الشرق فاتحين بعد وفاة داريوس وضعف الدولة.

حكم الفرس المنطقة مائتي سنة. وفي عهد داريوس، قسّمت اداريا الى عشرين ولاية، باستثناء بابل ومصر اللتين حكمت كل منهما حكما مباشرا. وكانت فلسطين جزءا من الولاية الخامسة، وتسمّى ولاية ما وراء النهر. وكانت دمشق غالبا، وأحيانا صيدا، مركزا للولاية الخامسة هذه، التي ضمت بلاد الشام وقبرص، والتي قسمت أيضا الى سبعة ألوية، كان منها لواء العربية الذي ضم فلسطين والأردن

وبادية الشام. وكذلك كان هناك لواءُ فينيقيا. وفي عهد الفرس كانت زيارة هيرودوتس، في القرن الخامس قبل الميلاد، للساحل الفينيقي والساحل الفلسطيني الكنعاني الأصل؛ فأطلق اسم فلسطين على الساحل كما علمنا. (٢٣)

كانت اللغة الآرامية، في هذه المرحلة، لغة الكلام والتجارة، وحتى في الدواوين. أما الفارسية، فلم يتجاوز نطاقها الرسائل والأوامر من الحكام الفرس الى ولاة الألوية؛ وداخل الألوية كان هناك شيء من الاستقلال الداخلي، فالفرس صرفوا اهتمامهم للمواصلات والادارة وتنظيم الصرائب، وقد سكّوا النقود الذهبية والفضية، فانتهى عهد المقايضة، وانصرف الناس الى التجارة وكذلك الى الزراعة. وعرفت فلسطين ــ كغيرها ــ هدوءا نسبيا، وخصوصا ان حكم داريوس اتصف بالعدل لا بالبطش والقسوة.

وانتهى العهد الفارسي بفتوحات الاسكندر المقدوني. غير ان الفرس عادوا مرتين لسنوات معدودة: الأولى في عهد الامبراطورية الرومانية وذلك سنة ٤٠ ق. م. ؛ والثانية في عهد الأمبراطورية الرومانية الشرقية، سنة ٦١٤ م. (٢٤)

ثانيا: الحكم اليوناني

وكما انطلق كورش الفارسي، بعد توحيد أجزاء بلاده فاتحا في اتجاه الغرب، تطلّع أيضا فيليب المقدوني بعد توحيد أجزاء بلاده نحو الترق، فبعد ان حارب المدن اليونانية وانتصر عليها، ووحد بلاد الاغريق كلها مع مقدونيا، موطنه الاصلي في شمال اليونان، صمم على قتال الفرس، وبالسبة الى فلسطين، فسواء انطلق الجيش الفارسي من بابل في اتجاه الأناضول وأرض الاغريق، او انطلق الجيش اليوناني في اتجاه بابل، فالنتيجة ان ارضها هي المسرح الحربي، وهي الممر الدولي، وهي ملتقى الجيوش.

توفي فيليب المقدوني فجأة، فتولى من بعده ابنه الاسكندر وهو ما زال في العشرين من عمره. واضطر الى اعادة احضاع المدن اليونانية، واحبارها على الاعتراف بسلطانه، ثم توجه بجيشه الجرار عبر الدردنيل لمحاربة الفرس. فابتدأ (٣٣٤ق. م.) بآسيا الصغرى فسوريا فلبنان ففلسطين. ومن الشاطىء الكنعاني الفينيقي استعصت عليه مدينتا صور وغزة؛ فقد قاومته صور سبعة اشهر، وقاومته غزة شهرين. وقد ساهم الأنباط العرب في الدفاع عن غزة طوال الحصار. وكانت المقاومة في كل من المدينتين عنيفة جدا وشجاعة جدا، الى الحد الذي جعل الاسكندر بعد دخولها يعاقبهما بالدمار والحرق والقتل. أما القدس، فقد فتحت له أبوابها بمساعدة اليهود من أبنائها، وهم الذين ما عادوا الى القدس

(٢٣) راجع «اسم فلسطين» أعلاه، في البند سادسا ــ الفصل الثاني ــ القسم الأول.
(٢٤) مصطفى الدباغ، مصدر سق ذكره، ص ٥٨٤ ــ ٥٩١.

إلا بمساعدة الفرس. وقد جاء دخول الاسكندر القدس ما بين معركتي صور وغزة بعد سقوط غزة (٣٣٢ ق. م.)، تم للاسكندر فتح بلاد الشام، فتوغل شرقا حتى استولى على بلاد الفرس والأفغان والتركستان، ثم وصل الى الهند. وبعد ان اشبع طموحه الى الفتوحات، استقر في مدينة بابل يشرف على تنظيم شؤون امبراطوريته الشاسعة.

لم يحكم الاسكندر طويلا، فقد توفي (٣٢٣ق.م.) وهو في الثالثة والثلاثين من عمره. ويختصر إيستن سر حلوده بقوله ان الاسكندر غيّر وجه العالم القديم ولم يخسر معركة واحدة.(٢٥) وقد احتل ذكره بين القادة والملوك عبر التاريخ المكانة الأولى، لا لقدراته العسكرية ومواهبه القيادية فحسب، بل أيضا لمحاولته التاريخية الفريدة في نوعها بدمج الشرق في الغرب. فقد كان يعتقد في قرارة نفسه القدرة على جمعهما تحت حكم واحد. وكي ينشأ المجتمع الموحد الجديد الذي كان يطمح اليه، تزوج فارسيةً، وتلاه عشرة آلاف من قادته وجنده في الزواج من آسيويات. ولم يقتصر الاختلاط على العسكر؛ فقد شجع التجار اليونان على القدوم الى الشرق بأعداد كبيرة.

ونظرية الاسكندر في دمج الشرق في الغرب تختلف عن نظرية الاستعمار في القرن التاسع عشر، وذلك في كونها قائمة على مبدأ المساواة بين الشعوب والبشر. فالاسكندر لم يؤمن بأن شعبه الاغريقي فوق كل الشعوب، لكنه آمن بضرورة انتشار الحضارة الهللينية الاغريقية. وهكذا ابتدأت اللغة اليونانية بالانتشار، وكذلك مظاهر الحضارة الاغريقية؛ أما سياسيا، فبعد وفاة الاسكندر اختلف القادة بشأن الحكم، فوقعت الحروب بينهم، وتقسمت الامبراطورية الى اربعة أقسام.

وكانت فلسطين واقعة في منطقة النزاع الشديد بين البطالمة والسلوقيين. وقد شدّد البطالمة، في عهد بطليموس الرابع في آخر القرن الثالث قبل الميلاد، على نشر المدنية اليونانية بين اليهود. كما ان السلوقيين، لما حكموا، لم يقلوا عن البطالمة تعصبا ليونانيتهم، فاستمروا في سياسة التشديد على اليهود ومعاقبتهم ان لم يتركوا تقاليدهم ويتبعوا التقاليد اليونانية. ومن اليهود من قبل وتبع، ومنهم من رفض، وأدى هذا الرفض الى الثورة المكابية (١٦٧ق.م.).(٢٦)

قسمت فلسطين، في عهد السلوقيين، الى ثلاثة ألوية: لواء الجليل، ولواء السامرة، ولواء القدس. أما عكا فكان لها نوع من الاستقلال والحق في سك النقود.

وكان الهم اليوناني الأكبر، في نشر الحضارة، يرتكز على بناء المدن الجديدة وترميم المدن القديمة، وانشاء المدارس، وبناء المسارح والمعابد والملاعب والساحات، فضلا عن نشر العادات والتقاليد. وقد

---

(٢٥) Stewart C Easton, *The Heritage of the Past. From the Earliest Times to the Close of the Middle Ages* (New York. Holt, Rinhart and Winston, 1963), p. 276

(٢٦) راجع: «المكابيون» اعلاه، في الفقرة د ــ البند رابعا ــ الفصل الثاني ــ القسم الأول.

بنوا وجدّدوا مدنا فلسطينية عديدة منها: يوبا (يافا)، ورفيا (رفح)، وبطوليمايس (عكا)، وآزوتوس (اسدود)، بالاضافة الى العديد من القرى.

دام حكم اليونان الاغريق نحو ثلاثة قرون (٣٣٢ ق م — ٦٣ ق. م) غير ان سياسة الاندماج التي سعى الاسكندر لها لم تتحقق، وخصوصا ان اليونان سكنوا المدن. أما القرى، فسكانها ابتعدوا عنهم وعن تقاليدهم، وحافظوا على تراثهم وطابعهم. ومن الأدلة على ذلك انه على الرغم من ان اللغة اليونانية اصبحت اللغة الرسمية، فان اللغة الآرامية بقيت اللغة المحكية والمتداولة، وهي اللغة التي تكلم بها السيد المسيح، وهي اللغة التي تطورت منها السريانية، فالسريانية تعتبر احدى اللهجات المحكية للغة الآرامية.

وفي العهد اليوناني، كان سكان فلسطين ــ باستثناء اليونان الحكام ــ يتألفون من الكنعانيين، ومن العرب (القبائل العربية)، ومن خليط من السامريين والآراميين واليهود والفلسطيين، وكذلك من مجموعات من بقايا الأمم الفاتحة السابقة، كالآشوريين والمصريين والبابليين والحثيين والفرس.[٢٧]

ثالثا: الحكم الروماني

الرومان هم الشعب الثالث بعد الفرس واليونان في حكم الامبراطورية الكبرى والاستيلاء على المنطقة. وقد كانت البداية واحدة بين هذه الأمم الثلاث، وهي بداية الوحدة الداخلية، ومن ثم الانطلاق للحروب والفتوحات؛ غير ان الرومان قد حققوا مدى اوسع من الحلم بالسيطرة على العالم القديم، فضموا الشمال الافريقي الى سيادتهم.

في القرن الثالث قبل الميلاد، وبعد ان أمّنت روما سيادتها على ايطاليا كلها، تطلعت الى خارج حدودها وعبر البحر؛ وكانت لقرطاجنة التي بناها الفينيقيون في تونس السيادة على البحر المتوسط، فأخذت روما تنازعها في ذلك. واستمرت الحروب بينهما اكثر من مائة عام، ولما انتهت في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، كانت السيادة لروما قد تأمنت، وقرطاجنة كانت قد أُحرقت. ومن تونس استولت روما غربا على بقية شمال افريقيا. ولما حقق الرومان طموحهم غربا، توجهوا شرقا ففتحوا مقدونيا، بلد الاسكندر، وبلاد اليونان كلها، وابتدأوا بآسيا الصغرى؛ ولما كان السلوقيون قد أصبحوا ضعفاء فتح القائد الروماني بومبي سوريا من دون عناء يذكر. أما جنوب سوريا (فلسطين)، فقد كانت السيادة عليه تنقسم حينها بين المكابيين والأنباط والمدن اليونانية؛ وبالتعبير «القومي» في عصرنا: بين اليهود والعرب واليونان.

---

(٢٧) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩٢ ــ ٦٠٩.

قضى الرومان على المكابيين في مطلع عهدهم كما علمنا سابقا، وسعوا لاعادة تعمير المدن التي هدمها المكابيون، ومنها سبسطية (السامرة) وبيسان وغزة، وجردوا كاهنهم هركانوس الثاني من لقب الملك غير انهم تركوا لهم حرية ممارسة طقوسهم وشعائرهم الدينية. ومن ناحية ثانية، أعادوا الحرية للمدن اليونانية التي كان المكابيون قد ضموها اليهم.

في عهد يوليوس قيصر، لمّا قامت ضده ثورة في مصر، أنجده انتيباتر، مستشار هركانوس وكان انتيباتر هذا من الذين اجبرهم المكابيون على التهود، غير انه تمكن من ان يصبح الحاكم الفعلي، فسار على رأس جيش من ثلاثة آلاف جندي لمساعدة يوليوس قيصر. كما ساعد القيصر أيضا مشايخ القبائل العربية في جنوب فلسطين وسيناء؛ ونال انتيباتر مكافأته بأن اعطي المواطنية الرومانية وأصبح نائبا للقيصر، فأصبح مركزه في الحكم كما هو في الواقع اقوى من مركز هركانوس، رئيس الكهنة للمكابيين. ولذلك انتقم منه هركانوس في اثر مقتل يوليوس قيصر، فأوعز بقتله.

وكانت فلسطين، بعد اقتسام الأمبراطورية بين القادة الرومان، من نصيب انطوني الذي تمكن من استعادة البلاد السورية وفلسطين من الفرس؛ فهؤلاء احتلوها لسنتين خلال الاضطرابات والفوضى التي اعقبت مقتل يوليوس قيصر ودخل انطوني القدس(٣٧ق.م.) وعيّن هيرودوس، ابن انتيباتر، ملكا على اليهود؛ فانتقم هيرودوس لأبيه، وقضى على عهد المكابيين الذين كرههم العديد من اليهود أنفسهم لفساد ملوكهم أما هيرودوس نفسه، وهو الآدومي الأصل، فقد ولد في عسقلان من ام عربية من الأنباط، وقد اعتنق اليهودية. غير ان اليهود ما احبوه يوما، بل كرهوه على الرغم من قيامه بتجديد بناء هيكل سليمان، وباغداقه عليهم أيام القحط والبؤس. أما كراهيتهم له، فكانت لقناعتهم بأن هيرودوس اعتنق اليهودية لأسباب سياسية فقط، كما انه ساهم في نشر الحضارة اليونانية والرومانية.

وفي تاريخ فلسطين ما قبل الميلاد، يعرف هيرودوس بأنه اكثر من شاد وبنى؛ فقد بنى المدن، والقلاع، والحصون، والمسارح، والملاعب، والمدارج، والساحات العامة، والأسوار، والقصور. وقد بنى من المدن الجديدة قيصرية (قيسارية)، وانتيباتريس (خربة رأس العين) نسبة الى ابيه. كما اعاد بناء العديد من المدن والقلاع والأبراج. ومن الآثار التي اكتشفت في أريحا سنة ١٩٥١، قصر هيرودوس الشتوي الكبير. وقد امتد الزمن بدولة الهرادسة الأدوميين (نسبة الى هيرودوس الكبير) حتى مائة سنة بعد الميلاد.

أما المدن اليونانية، فالمقصود بها مجموعة المدن التي انتشر فيها السكان اليونان. ولما انكسرت دولتهم لم يعودوا الى موطنهم الأصلي، مفضلين البقاء حيث هم؛ ومن ابرز مدنهم مجموعة المدن العشر التي عرفت بمدن الاتحاد اليوناني، اي الديكابوليس، ومنها. جرش، وعمّان، وبيسان، ودمشق. وكانت هذه المدن مراكز تجارية وعمرانية بارزة، وكان بومبي القائد الروماني ذكيا لما منح هذه المدن

استقلالا ذاتيا، شمل قوانينها وحكمها الداخلي. أما بالنسبة الى القضاء والضرائب والجندية والقضايا الخارجية، فكانت السلطة للرومان الذين استفادوا ــ من ناحيتهم ــ من المدن اليونانية، فسكنوها وباشروا ينشرون لغتهم اللاتينية وتقاليدهم.

في آخر القرن الرابع للميلاد، انقسمت الامبراطورية الرومانية الى امبراطوريتين غربية وشرقية، وكانت فلسطين وسوريا من أراضي الأمبراطورية الرومانية الشرقية (٣٩٥م ــ ٦٣٦م). وفي العهد الروماني الشرقي البيزنطي هذا، تكرس اسم «فلسطين» التاريخي اداريا وسياسيا. وقسمت البلاد الى ثلاث مناطق:

١ ــ فلسطين الاولى: وتشمل نابلس والقدس والخليل والسهل الساحلي حتى رفح، وعاصمتها قيسارية.

٢ ــ فلسطين الثانية: وتشمل الجليل وأم قيس وقلعة الحصن وطبريا، وعاصمتها بيسان.

٣ ــ فلسطين الثالثة: وهي بلاد الأنباط، وتشمل منطقة جنوب فلسطين وبئر السبع، وكانت البتراء (في الاردن) عاصمتها

وهكذا ترك هذا التقسيم لمملكة الأنباط وللقبائل العربية وحدة ادارية وجغرافية.

أما حيفا وعكا من الشمال فقد كانتا ضمن فينيقيا الاولى، وعاصمتها صور. كذلك كانت هناك فينيقيا الثانية، وسوريا الاولى والثانية.

وعاشت الأمبراطورية في رخاء اقتصادي كبير طوال العهد الروماني الثاني، المعروف بالعهد البيزنطي نسبة الى بيزنطة التي اقيمت مكانها القسطنطينية في آسيا الصغرى. وكان آخر الأباطرة الرومان في فلسطين وسوريا، الأمبراطور هرقل. وقد كان قويا وقديرا؛ فقد تمكن من استعادة القدس وفلسطين وسوريا بعد ان احتلها جيش كسرى، لكن قدرته لم تصمد أمام الفتح العربي الاسلامي

من ابرز المدن التي جدد الرومان بناءها: ايليّا كابيتولينا (القدس)، ونيابوليس (نابلس)، وفصايلس (خربة فصايل)، ويامنيا (يبْنا)، وطيبارية (طبريا)، وديسوبوليس (اللد)، واليثروبوليس (بيت جبرين)، وقيصرية (قيسارية)، وغيرها.

وقد وجد في القرن الرابع للميلاد في فلسطين ٣١ مدينة، و٤٤٢ قرية. وقد بنى الرومان المعابد والهياكل والحصون والقلاع والقصور والمدارس والحمامات والأسواق، كما فعل اليونان؛ وقد محيت معظم آثار الرومان في فلسطين، غير انها بقيت في الاردن: في عمّان وجرش.

كان الزي اليوناني ما زال سائدا في المدن خاصة. وكانت طبيعة الحياة فيها قد اخذت الكثير عن طبيعة الحياة اليونانية والرومانية؛ فانتشرت في المدن ألعاب المصارعة، وسباق العربات، والصيد، وكذلك المباريات الموسيقية، والتمثيليات المسرحية. ومن اشهر المدن حضارة، في العهد الروماني،

كانت قيسارية وعسقلان وغزة.

في الريف، ازدهرت الزراعة الى حد بعيد، واستقرت معظم القبائل في بيوت حجرية. وقد اتجه الرومان الى بناء السدود والقنوات وصيانة الغابات. ومن قوانينهم، ان يقوم المزارع بزرع شجرة بدلا من كل شجرة يقطعها.

وفي الصناعة، استعمل الفلسطينيون أوراق البرديّ للكتابة، كما لصناعة الحبال. واشتهرت البلاد بصناعة الخمور، والكتان، والنسيج، والصباغة، والزجاج وساهمت الطرق الرومانية الشهيرة في تشجيع التجارة؛ فمن العناصر التي قام عليها حكم الرومان وحضارتهم، اهتمامهم بانشاء شبكات من الطرق على درجة عالية من الصلابة والمتانة، مع انشاء القلاع والخانات للمسافرين، والمرابط للخيل، والمحطات للبريد.[٢٨]

على صعيد اللغة، لم تصبح اللاتينية لغة التخاطب والناس، بل كانت اللغة الرسمية فقط مع ترجمة يونانية مرفقة بها. ولم يتكلم اللاتينية من السكان إلا السوريون الذين انضموا الى الجيش وحاربوا في المقاطعات الغربية.[٢٩] وبقيت في عهدهم اللغة اليونانية لغة الأدب والتعليم، والآرامية اللغة المحكية الدارجة. هذا، بالاضافة الى اللغات الخاصة للشعوب المتعددة؛ فكانت العربية لغة الانباط، والعبرية لغة اليهود.

رابعا: ميلاد المسيحية

يمتاز العهد الروماني بحدثين تاريخيين، كان لهما اكبر الأثر في تاريخ فلسطين: أولهما، ولادة المسيحية على ارض فلسطين؛ وثانيهما، نهاية اليهودية على ارض فلسطين. فاليهود ثاروا مرات عديدة في عهد الرومان، وأخضعهم الرومان مرات عديدة بقوة السلاح من ناحية، وبسبب انقسامات اليهود ومنازعاتهم فيما بينهم من ناحية ثانية. ومنذ سنة ١٣٥ م في عهد هدريان، لم يعد لهم من وجود يذكر.[٣٠]

وشاء القدر الالهي ان تكون بيت لحم، من مدن فلسطين، الشاهد الاول على مولد السيد المسيح، رسول المحبة والسلام الى ارجاء المعمورة. فقد ولد يسوع الناصري، عيسى ابن مريم، في بيت لحم، ونشأ في الناصرة، وهو آخر الانبياء من بني اسرائيل، ولما اصبح في الثلاثين من عمره اخذ يبشر بالمحبة والسلام، ومن حواليه تلاميذه وحواريوه الاثنا عشر.

وجاءت تعاليمه بداية لعهد جديد، مناقض كل التناقض لطبيعة عصر بني اسرائيل منذ يوشع بن

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٦١٩ ــ ٦٣٦، ٦٦٥ ــ ٦٨٢

(٢٩) Philip K. Hitti, *History of Syria: Including Lebanon and Palestine* (London. Macmillan, 1951), p. 338

(٣٠) راجع: «نهاية اليهود على يد الرومان» اعلاه، في الفقرة هـ ــ البند رابعا ــ الفصل الثاني ــ القسم الأول

نون في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وتدميره أريحا وحرقها، حتى باركوحبا في القرن الثاني بعد الميلاد، الذي ادعى أنه المسيح المنتظر. وقد قضى عليه هدريان وعلى من معه.

ومن صفحات التاريخ القديم، ان بني اسرائيل ما تعاملوا مع شعب مجاور لهم إلا بسلاح القتل والتنكيل والافناء والهلاك؛ وكان ــ حقا ــ هذا هو السلاح الذي تستعمله أيضا الشعوب المجاورة ضدهم؛ لكن مع فارق اساسي، وهو ان نظرية ضرورة قتل الآخرين وافنائهم حتى يعيش المنتصرون وحدهم، لم تكن من الثوابت إلا عند بني اسرائيل فالعلاقات بين الشعوب والقبائل المتجاورة كانت تتغير من قتال شرس الى حسن جوار، او الى هدنة طبيعية؛ فالمصريون قاتلوا الفلسطينيين في البحر اشرس قتال، غير انهم ما لحقوا بهم لافنائهم على الساحل، فتركوهم يستقرون.

والفلسطينيون، بدورهم، قاتلوا الكنعانيين واستولوا على ساحلهم ومدنهم، لكن الشعبين عادا الى تعايش متجاور.

وفي العهود المتتالية، من الفرس الى اليونان الى الرومان، كان اليهود هم اول من يتراكض لارضاء الحكام الجدد ولتسهيل مهماتهم، ثم يبدأون بالمكائد والدسائس والانقلابات. وقد قال المؤرخ اليهودي يوسيفوس، في القرن الميلادي الاول:

> لا امّة في الأرض، في كل أجيال التاريخ منذ بدء الخليقة الى الآن، تحملت ما تحمل اليهود من الكوارث والويلات وأما عن الكوارث التي أصابتنا نحن، فلا نلومنّ إلا أنفسنا [٣١]

وفي هذا المستنقع من التاريخ، وفي عهد سادته القوة، قال يسوع الناصري:

«طوبَى للرُّحَماءِ. لأنهمْ يُرْحمون. طوبَى للأنقياءِ القلبِ. لأنهمْ يعاينونَ اللّـهَ. طوبَى لصانعي السّلامِ. لأنهمْ أبناءَ اللّـهِ يُدْعَوْن.»

«سَمِعْتُمْ انَّهُ قيلَ عَيْنٌ بِعَيْنٍ وسِنٌّ بِسِنٍّ. وأمّا أنا فأقولُ لكمْ لا تقاوموا الشَّرَّ. بلْ مَنْ لَطَمَكَ على خدِّكَ الأيمنِ فَحَوِّلْ لهُ الآخَرَ أيضاً. ومن أرادَ ان يخاصمَكَ ويأخذَ ثوبَكَ فاترُكْ لهُ الرِّداءَ أيضاً. ومنْ سَخَّرَكَ ميلاً واحداً فاذهبْ معهُ اثنَيْنِ. من سألَكَ فَأَعطِهِ. ومن أرادَ انْ يقترضَ منكَ فلا تَرُدَّهُ.»[٣٢]

وكفر اليهود برسالة السيد المسيح، وباعه يهوذا الاسخريوطي بثلاثين من الفضة. ويهوذا ما كان خارج سربه لما باع المسيح؛ فاليهود كانوا في ضلال، وعنهم قال بولس الرسول، وهو اليهودي أصلاً.

---

(٣١) Josephus, *The Jewish War*. Translated by G A. Williamson. Revised edition of the 1959 translation (Great Britain: Penguin Books, 1984), p. 28

(٣٢) «الكتاب المقدس ــ العهد الجديد»، انجيل متّى، الاصحاح الخامس ٧ ــ ٩، ٣٨ ــ ٤٢

«الجميعُ زاغُوا وفَسَدُوا معاً. ليسَ مَنْ يعملُ صَلاحاً ليسَ ولا واحدٌ. حَنْجَرَتُهُمْ قبرٌ مفتوحٌ. بألْسِنتهِمْ قد مَكَرُوا. سِمُّ الأصْلالِ تحتَ شِفاهِهِمْ. وَفَمُهُمْ مملوءٌ لعنةً ومرارةً. ارجُلُهُمْ سريعةٌ الى سفكِ الدمِ. في طُرُقِهِمِ اغتصابٌ وسُحْقٌ. وطريقُ السلامِ لم يعرفوه. ليسَ خَوْفُ اللّـهِ قُدَّامَ عيونِهِمْ.»(٣٣)

ومن فلسطين، انطلق تلاميذ السيد المسيح يبشرون بالديانة الجديدة؛ وفي فلسطين، وعلى الرغم من مقاومة اليهود لانتشار المسيحية من جهة، وعلى الرغم من التعصب الوثني لدى الآخرين من جهة اخرى، وكذلك على الرغم من اضطهاد الرومان العام للمسيحيين، فقد اخذت المسيحية تنتشر في الضواحي والقرى، ثم بنيت الكنائس ورفعت الصلوات في عهد الأمبراطور قسطنطين، وهو اول من تنصّر من أباطرة الرومان (٣٠٦ م ــ ٣٣٧ م)؛ أما الملكة هيلانة فقد امرت ببناء كنيسة القيامة في القدس، وكنيسة المهد في بيت لحم. وهكذا، انتشرت المسيحية على ارض فلسطين كلها بعد ميلاد السيد المسيح بثلاثة قرون.

لم يسلم اليهود، من ناحيتهم، بانتشار المسيحية، فاغتنموا قدوم جيش كسرى ابرويز لهدم الصرح المسيحي، وأرسلوا رجالهم بالآلاف لمساعدة الجيش الفارسي في احتلال القدس؛ فاحتلت القدس، وأحرقت كنيسة القيامة، ونقل الصليب الى فارس؛ وكذلك هدم الكثير من الأديرة والكنائس، كما نهبت المدن، وقتل من المسيحيين تسعون ألفا، واشترى اليهود من نصارى فلسطين الذين سباهم الفرس من ثمانين ألفا الى تسعين ألفا وذبحوهم.(٣٤) غير ان هرقل عاد الى البلاد بعد ان تغلب على الفرس في نينوى (٦٢٧ م)، ورفع الصليب في القدس من جديد بعد استرداده من الفرس في ١٤ أيلول / سبتمبر ٦٢٨ م. وما زال هذا اليوم عيدا لدى المسيحيين، ويعرف بعيد الصليب. وأعيد بناء كنيسة القيامة، لكن معظم الأديرة المهدمة لم تُبْـنَ من جديد. ولعل الكنيسة الوحيدة التي سلمت كانت كنيسة المهد، ويقال ان الفرس لما دخلوها وجدوا على بابها صورة لثلاثة رجال باللباس الفارسي، فتركوا الكنيسة على حالها.

ولما انتهى العهد الروماني في القرن السابع، وأصبحت فلسطين جزءا من الدولة العربية الاسلامية، استمرت الكنائس تعمل بحرية تامة؛ فالاسلام جاء متمما للديانات السماوية، لا مناقضا لها

ولدى دراسة الفكر المسيحي والحضارة في عهد الرومان عامة، تحتل فلسطين مكانة بارزة. فقد اشتهر فيها عدد من المدارس اللاهوتية والمكتبات. وقبل اعتناق الدولة الدين المسيحي، لاقى رجال

---

(٣٣) المصدر نفسه، رسالة بولس الرسول الى اهل رومية، الاصحاح الثالث: ١٢ ــ ١٨

(٣٤) المطران يوسف الدبس، «من تاريخ سورية الدنيوي والديني» (بيروت. المطبعة العمومية، [١٩٠٠؟])، الجزء الثاني، المجلد الرابع، ص ٥٤٧.

الدين اضطهادا وتعسفا وسجنا وقتلا.

في قيسارية أسس اوريجينس، في اول القرن الثالث، مدرسة للاهوت كانت تدرس اللاهوت والفلسفة والمنطق والهندسة، وتحتوي على مكتبة ضخمة يأتيها طلاب العلم من خارج فلسطين. وكانت نهاية اوريجينس التعذيب الشديد حتى الموت (٢٥٣م) بسبب الاضطهاد الديني في عهد ديسيوس، وكان قد بلغ التاسعة والستين.

وفي قيسارية أيضا، انشأ بمفيليوس البيروتي مدرسة ثانية، مواصلا عمل اوريجينس. وقد ضمت المكتبة في مدرسته ثلاثين ألف كتاب. وفي القدس أيضا، وجدت المدارس، ووجدت مكتبة ضخمة أنشأها الاسقف اسكندر.

وكانت مدارس غزة من اهم المدارس العامة منذ القرن الثاني للميلاد، فاشتهرت بتدريس الفلسفة والبلاغة. واشتهرت أيضا مدرسة الحقوق في قيسارية، وقد استمرت حتى عهد جوستنيان.

ومن المؤرخين والكتّاب عُرف الكثيرون، ومن أوائلهم القديس يوستينُوس (١٠٠م ــ ١٦٥م) من نابلس، ويوليوس الافريقي، والقديس هيلاريون (٢٧٨م ــ ٣٧١م) وهو الذي اسس الحياة الرهبانية في فلسطين، وكان مشهورا بالزهد والتقشف، وقد احبه الناس كثيرا، واعتنقوا المسيحية في زمنه، وخصوصا القبائل العربية في الجنوب. وعندما توفي دفن في دير البلح.

والقديس جاورجيوس من اللد، وقد ولد على الارجح سنة ٢٨٠م، وقد دافع عن المضطهدين من المسيحيين حتى امر الأمبراطور ديوكلتيان بقتله سنة ٣٠٣م، وقد شاع تقديسه لدى العرب والأوروبيين أيضا. ولما حكم جوستنيان امر ببناء كنيسة فوق قبره في اللد.

والمطران يوسابيوس (٢٦٠م ــ ٣٤٠م) من قيسارية، كان مؤرخا في الفلسفة وتاريخ الكنيسة. وقد ترك كتبا عن فلسطين، وعن سيرة الأمبراطور قسطنطين الذي كان صديقا له.

وفي العهد البيزنطي المسيحي، كان من الطبيعي ان تزدهر الكنائس والمدارس والمكتبات والمؤلفات، واشتهرت من المدن قيسارية وعسقلان وغزة. ومن اكثر المدارس شهرة مدرسة الخطابة المسيحية في غزة. وكانت المدارس عامة تستقطب طلاب العلم من داخل البلاد وخارجها. والتدريس في هذا العصر البيزنطي كان باللغة اليونانية، فالبيزنطيون اتخذوا اليونانية لغتهم بمرور الزمن، وقد اطلق العرب على اللغة اليونانية البيزنطية، اللغة الرومية.

واشتهر العديد في العهد البيزنطي من كتاب اللاهوت والفلسفة والتاريخ، وجلهم من غزة وقيسارية وبيسان، ومنهم: الأسقف زخريا، والشاعر ايناس، والمؤرخ الخطيب سورومانس، وهرمياس من غزة وقد ترك تسعة مجلدات تاريخية، والقديس يوحنا موسخوس وقد دوّن تاريخ الأديرة. أما القديس كيرلس، وهو من بيسان، فقد توفي في دير مار سابا قبل ان ينجز كتابه عن سير القديسين.

أما اعظم المؤرخين في العهد البيزنطي، فهو بروكوبيوس من قيسارية (٤٩٠م ــ ٥٧٠ م)، فقد درس القانون وأصبح مستشارا للقائد جوستنيان في القرن السادس وقد رافقه في حروبه كلها، في سوريا وايطاليا وافريقيا، ولما عاد ألّف كتابـي «الحروب»، و «الصروح». [٣٥]

* * *

ان أجواء الحرية الفكرية التي اضطُهد العديد من رجال الكنيسة في سبيل الحصول عليها، فعُذّبوا وقُتلوا في العهد الروماني الاول، وبالتالي أجواء العلم والمعرفة في الفلسفة واللاهوت والقانون والتاريخ والهندسة والخطابة؛ ان أجواء الحرية الفكرية هذه كانت مرحلة مهمة من تاريخ فلسطين، إذ مهما يكن طابعها الفكري العام مستقى من الفكر الهلليني والروماني، فروحها كانت الروح المسيحية. وبصرف النظر عن أصل هؤلاء المفكرين، سواء أكان أجدادهم من مقدونيا ام اثينا ام روما، فهم قد ولدوا في فلسطين وعاشوا على ارضها، ومنهم من كانوا عربا، ومنهم من ساهموا في تنصير العرب في جنوب فلسطين. لكن الأثر الأكبر لهؤلاء المفكرين والمبدعين هو ان عطاءهم الفكري كان تفاعلا مستمرا مع تاريخ الأرض، ومع تاريخ الشعب الذي استقر على هذه الأرض.

وفلسطين، منذ القرن السابع، ومنذ انتمائها الى العهد العربـي الاسلامي، كان من طبيعة التطور ان يهاجر اليها المزيد من العرب، وأن يصبح الاسلام دين الاكثرية من سكانها غير ان التعايش الحقيقي بين الأديان كان سمة العهد العربـي الاسلامي، والسمة الاولى؛ وقد استمرت الكنيسة ورجالها مشعلا فكريا في العهد العربـي، كما كانوا في العهد الروماني.

---

(٣٥) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨٢ ــ ٦٨٨.

الفصل الثالث

الممالك والقبائل العربيّة قبيل المسيحيّة والاسلام

أولا: الأنباط

في الموجة العربية الرابعة، اي نحو خمسمائة عام قبل الميلاد، جاء الأنباط الى مشارف الجزيرة العربية، وهم من العرب العدنانية. وسرعان ما تطوروا في حياتهم من الرعي الى الزراعة فالتجارة، حتى برعوا فيها وأضحت عاصمتهم البتراء (في الأردن اليوم) ملتقى القوافل. وقد امتدت ارضهم غربا حتى شملت جنوب فلسطين وغربها، ووصلت حتى شرقي الدلتا. وفي القرن الأول للمسيح، سكنوا منطقة واسعة تمتد شرقا من الفرات وحدود بلاد الشام حتى البحر الأحمر جنوبا.

ترك الأنباط أثرين خالدين لحضارتهم هما: بناؤهم المنحوت من الصخر، وذلك في مدينتهم البتراء في وادي موسى، وفيها بقايا معبد يسمى خزنة فرعون، وفيها الدير وبقايا مسرح؛ ولغتهم العربية. فهم تكلموا اللغة العربية، بينما كتبوا بالآرامية الشائعة آنذاك. وبالتدريج، انفصلت الحروف النبْطية عن الآرامية، وأصبحت كتابة مميزة في القرن الأول قبل الميلاد. ومن الحروف النبْطية انحدرت الحروف الابجدية العربية مباشرة

آمن الأنباط كغيرهم من العرب، في عهدهم، بالآلهة المتعددة، فكان ذو الشرى إله الشمس من آلهتهم، وكذلك العزى ومِناة وهُبَل.

وفي اوج مدنيتهم، عرفوا بالبراعة في التجارة والزراعة والعمارة والصناعة؛ فقد وجدوا النحاس والحديد في وادي عربة، كما استغلوا القطران من البحر الميت بعد ان استأجروا حق استغلاله من كليوباترا. وقد وصف فيليب حتي حضارة الأنباط بقوله:

> كانت حضارة الأنباط عربية في لغتها، آرامية في كتابتها، ساميّة في ديانتها، ويونانية رومانية في فنها

وهندستها المعمارية، وهي لذلك حضارة مركبة، سطحية في مظهرها الهلليي، ولكنها عربية في أساسها وبقيت كذلك.[٣٦]

كان الأنباط في الحروب مقاتلين أشداء؛ ففي غزة قاوموا جيوش الاسكندر (٣٣٢ ق.م.)، كما قاتلوا اليهود مرات عديدة، فقد حاربوا المكابيين اليهود بقيادة الحارث الثاني (١١٠ ق.م. ـ ٩٦ ق.م.)، وانتصروا (٩٠ ق.م.) على اليهود في معركة على شاطىء بحيرة طبريا الشرقي. أما ملكهم الحارث الثالث (٨٧ ق.م ـ ٦٢ ق.م.)، وهو الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لمملكة الأنباط، فقد هزم اليهود مرارا وحاصرهم في القدس ولما حكم الرومان، كان الأنباط حلفاء لهم، ولذلك حينما هاجم تيطُس الروماني اليهود في القدس (٧٠ م)، انجده مالك الثاني.

وكانت نهاية مجد الأنباط بالتدريج؛ فعندما تحولت طرق التجارة عن البتراء الى تدمر، فقدت البتراء اهميتها التجارية البارزة. هذا، بالاضافة الى ان الرومان، في نهاية القرن الاول للميلاد، أخذوا يعملون على تصفية الممالك العديدة المنتشرة في بلاد الشام تأهبا للقتال مع الدولة الفارسية. وفي سنة ١٠٦م انتهت سيادتهم، وضم الرومان ملكهم الى **الولاية العربية الرومانية** [٣٧]

ومرة ثانية، خضعت فلسطين لحكم عربي، وذلك في عهد الأمبراطورية الرومانية أيضا، عندما وسعت زنوبيا ملكة تدمر ملكها، فاستولت على سائر سوريا وفلسطين وقسم من آسيا الصغرى. وقد حكمت فلسطين خمس سنوات (٢٦٧م ـ ٢٧٢م) انتهت عندما قابل الأمراطور اورليان تحدي زنوبيا بجيش لجب، فدمّر تدمر وأسر ملكتها.

ثانيا: الغساسنة

يعود الغساسنة بنسبهم الى القبائل اليمنية. وقد هاجروا من اليمن في أواخر القرن الثالث للميلاد، وسكنوا حوران والبلقاء، فكانت ارضهم ارض القوافل والتجارة المتبادلة بين الجزيرة والشام. وقد اعتنق الغساسنة النصرانية.

سياسيا، ساعد الغساسنة الروم البيزنطيين في صد هجمات البدو على سوريا، كما حاربوا اللخميين عمال الفرس في العراق. وفي القرن السادس، اخمد ملكهم الحارث الثاني بن جبلة ثورة السامريين (٥٢٩م)، فكافأه الأمبراطور جوستنيان بتعيينه سيدا على جميع القبائل العربية في سوريا، كما عين شقيقه أبـوكرب بن جبلة عاملا على عرب فلسطين، وقد عرف عنه الحزم والارادة.

---

(٣٦) Hitti, *op cit.*, p 383.

(٣٧) راجع: مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٦٣٧ ـ ٦٤٩

استمر ملك الغساسنة يتوسّع ويتقلّص. ولما كانت الفتوحات العربية الاسلامية لم يكن لأمراء غسان ذلك النفوذ المعروف، فقد نازعتهم السيادة المطلقة قبائل عربية اخرى، وكل هؤلاء بقوا في ظل الحكم العربي. (٣٨)

واليوم، تعود بعض الأسر المسيحية في سوريا ولبنان والأردن وفلسطين الى الغساسنة. وفي مدينة الناصرة، يرجع معظم الروم والكاثوليك من سكانها الى الغساسنة. (٣٩)

ثالثا: القبائل العربية

هناك العديد من القبائل العربية التي سكنت البلاد التي عرفت تاريخيا ببلاد الشام، ومنها فلسطين. وما يعنينا من ذكرها، تحديدا، هو ابرز القبائل التي جاءت فلسطين قبل المسيحية، وكذلك قبل الاسلام، ثم عاصرت العهدين، او اولهما. وأبرز هذه القبائل:

ــ عامِلة: وهي من القبائل القحطانية التي نزلت جنوبي البحر الميت، وما زال أحفادها يسكنون جبل عاملة (عامل)، في الجنوب اللبناني حتى اليوم.

ــ سليح: وهي من القبائل القحطانية أيضا، وقد نزلت بداية على بني عامِلة، ومنها الضجاعمة الذين كانوا سادة في المنطقة، حتى حل مكانهم في السيادة أمراء غسان.

ــ جُذام: وهي من القحطانيين الذين سكنوا في شمال فلسطين بالقرب من طبريا، وفي قريتي اللجّون ويامون قرب عكا. وكذلك سكنوا الجنوب في قرية عبسان قرب غزة.

ومن قبيلة جُذام من سكن مصر والسودان. وتنتسب اليوم عدة قبائل وعائلات عربية الى جُذام، فمنها عرب بني صخر في الأردن، وعرب البواسل في مصر، وعرب العائذ في سيناء الذين تفرع منهم آل هيكل في يافا. ومنها، في فلسطين كذلك: آل الحاج محمد في نابلس، وقبيلة الجُبارات التي سكنت منطقة بئر السبع، وتفرع منها عائلات بيدس والبطّه والسّعيد منتشرين في مدن الجنوب ويافا.

وتعود بعض الكتب التاريخية بقبيلة جُذام الى المديانيين، من أوائل القبائل العربية في جنوب فلسطين.

ــ لَخْم (اخو جُذام وعاملة): وقد سكن بنو لخم في عدة أماكن من فلسطين، كما سكنوا الشام والعراق. وقد حاربوا في صفوف زنوبيا، ملكة تدمر، في أواسط القرن الثالث للميلاد. ومن بني لخم: ملوك الحيرة في العراق، ودولة بني عبّاد في اشبيلية في الأندلس.

---

(٣٨) راجع: المصدر نفسه، ص ٧٠٢ ــ ٧٠٦.

(٣٩) القس اسعد منصور، «تاريخ الناصرة» (مصر: مطبعة الهلال)، ص ٢٠٥ ــ كما ورد في: المصدر نفسه، ص ٧٠٦.

وتعود اليوم مجموعة من العائلات العربية الى اللخميين، ومنها، في فلسطين: بنو نبهان في بئر السبع، والمساعيد في الغور، وبنو تميم «التميميون» في الخليل وسواها. وينتسب الى لخم في الأردن اليوم آل الغنيمات، وفي لبنان آل ارسلان، وفي مصر بنو مُرّ.

ـ بنو كلب: من القحطانيين أيضا وقد سكنوا منذ ألفي سنة سوريا ولبنان وفلسطين (بلغة اليوم). ومنهم بنو عامر الذين أطلق اسمهم على مكان اقامتهم في فلسطين، وأصبح يعرف ببرج ابن عامر وتعود اليوم اليهم عشيرة السراحين في قضاء بئر السبع، والهديبات في الخليل.

ـ جَرْم بن ربّان، من قُضاعة، سكنت جنوب فلسطين وفي الجنوب الشرقي من يافا، حيث ما زال وادي حنين الذي سكنته وأطلقت عليه الاسم الذي حملته من موطنها الأصلي من حضرموت.

ومن أحفاد جَرْم: العزازمة من قبائل بئر السبع، ومنهم أيضا اليوم في مصر وفي حوران. وهم من أكثر القبائل عددا؛ ففي احصاء سنة ١٩٤٦، بلغ تعداد العزازمة في فلسطين ١٦,٣٧٠ نسمة.

ـ قبائل اخرى متعددة منها: ذُبيان، وبنو عذرة، وبنو ضبّة، وبنو بهراء، وقد سكنوا الغور والعقبة.

من هذه القبائل من اعتنق النصرانية: بنو بهراء وغسّان وسَليح ولخم وجُذام وعامِلة.[٤٠]

دينيا، كانت المسيحية قد انتشرت بين السكان. وكانت فلسطين، بمدنها القدس والناصرة وبيت لحم، وبجليلها الأعلى، وبكنائسها العديدة، قد أخذت تحتل المكانة الأولى في قلوب المسيحيين عامة؛ وباقبال العديد من القبائل العربية على اعتناق المسيحية، اصبح لفلسطين في تاريخ الكنيسة الشرقية فضل كبير في بنيان دعائمها. وقد ساعد العديد من هؤلاء العرب المسلمين في حروب الفتح على ارض فلسطين.

ان الفتح العربي الاسلامي لفلسطين ما جاء في صيغة احتلال اجنبي للأرض والشعب (بلغة اليوم)، ولا حتى في صيغة الحكم والهيمنة وابتلاع المنطقة (بمفهوم الأمس البعيد، كالحكم الروماني او اليوناني)، انما كان الفتح حلقة من حلقات الهجرة العربية؛ فالتواصل العربي ما بين الجزيرة العربية ومشارفها وما جاورها من العراق والشام وفلسطين ومصر والسودان، وحتى شمال افريقيا لاحقا، لم ينقطع منذ القبائل العربية الاولى، اي منذ العمالقة. ويمكن القول، تحديدا، ان هذا الفتح العربي السامي في القرن السابع، تحت راية الاسلام، كان يشكل بداية للهجرة السامية الأخيرة من الجزيرة

(٤٠) راجع بشأن القبائل العربية في فلسطين:
ـ المصدر نفسه، ص ٧٠٧ ـ ٧١٥؛
ـ مصطفى مراد الدباغ، «القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ١ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩)

العربية الى خارجها. ولذلك، فنحن لن نتعرض في بحثنا هذا للعديد من القبائل التي استمرت في تدفقها وفي استقرارها على ارض فلسطين خلال العهود العربية المتلاحقة ــ إلا حين الضرورة ــ لأنها حقيقة ليست بحاجة الى براهين، وهي ان السكان العرب استمروا في تزايد حتى أصبحوا الأكثرية بمرور الزمن؛ والاحصاءات الرسمية، من عثمانية وبريطانية، تثبت ذلك على حد سواء.

وما لا يقل عن النسبة العددية اهمية، ان السكان العرب لم يغادروا ارض فلسطين قط منذ سكنوها. فصحيح ان القبائل العربية لم تحكم فلسطين كلها قبل القرن السابع، لكن كلا منها كانت في معظم الحالات سيدة على أرضها. فهكذا كان العمالقة والمديانيون والأنباط والغساسنة وغيرهم، كما انها ــ في معظمها ــ بقيت على ارضها ولم تهاجر الى مكان آخر.

أما منذ القرن السابع حتى القرن العشرين، فقضية واضحة ان السكان العرب تزايدوا ولم ينقصوا، واستقروا ولم يهاجروا.

الفصل الرابع
الفتح العربي الإسلامي

أولا: الحكم قبل الاسلام

قبيل فجر الاسلام، كانت المنطقة المعروفة في يومنا بـ «الشرق الاوسط»، في صراع بين المسيحية والمجوسية؛ وقد حمل الروم، حكام الأمبراطورية البيزنطية، لواء المسيحية، فعمّت في مصر والشام، وورثت الحضارتين المصرية والفينيقية وقد ادى هذا التحول الى وقوف مسيحية الغرب وجها لوجه أمام مجوسية الشرق، متمثلة في بلاد فارس وما وراءها من قوى ما يعرف بالشرق الأقصى والهند.

وعلى الرغم من استمرار الحروب الطاحنة بين الفرس والروم، وعلى الرغم من نقل الفرس للصليب الأعظم الى فارس لما احتلوا القدس، ومن هدمهم للكنائس، فان الفرس لم يلجأوا الى القوة للقضاء على المسيحية، بل تركوا للناس حرية العبادة. وبمعنى آخر، كان التكافؤ بين الدولتين (الفارسية والبيزنطية) سببا رئيسيا لمنع التصادم بينهما في الناحية الروحية.

انقسمت المسيحية الى فرق وطوائف، وكذلك المجوسية؛ فقد انقسم المجوس الى فرق متعددة، وان بقيت عبادة النار هي القاسم المشترك. وكانت الفرق الدينية المختلفة تلجأ الى الرأس الأعلى، الى كسرى، تحتكم اليه. فكان يظللها كلها بحمايته، وفي الوقت نفسه يضرب بعضها ببعض لكسب المزيد من المنعة لحكمه.

هاتان القوتان، قوة المسيحية وقوة المجوسية، اي قوة الغرب وقوة الشرق، كانتا في مطلع القرن السابع للميلاد على أطراف شبه الجزيرة العربية، ولكل منهما مطامعها التوسعية. غير ان شبه الجزيرة بقيت في حمى من توسع فعلي او تبعية ما، باستثناء بعض القبائل العربية على التخوم، كالمناذرة الذين آزروا الفرس، والغساسنة الذين آزروا الروم. وقد قامت الطبيعة الجغرافية بدور بارز في حماية شبه الجزيرة. فمعدل طولها يبلغ اكثر من ألف كيلومتر، ومعدل عرضها نحو الألف كيلومتر؛ فهي ارض صحراوية شاسعة لا يغري جدبها الغزاة لاقتحامها. هذا، ولأنها شبه جزيرة (تتصل في شمالها بالشام

وفلسطين) فالماء يحيط بها من كل جانب: من الشرق «خليج فارس»، ومن الجنوب المحيط الهندي وخليج عدن، ومن الغرب البحر الاحمر.

وعلى الرغم من اتصال الممالك والقبائل بالعالم بواسطة طرق القوافل البرية والبحرية، فانه يمكن القول ان شبه الجزيرة العربية كانت في شبه عزلة حتى ظهور الاسلام.[٤١]

هناك إجماع بين المؤرخين على تسمية العهد السابق للاسلام بعهد الجاهلية. وليس من جدل في انه يمكن نعت اي عهد سابق للاسلام بالجاهلية نسبيا؛ إلا ان عهد الجاهلية لم يكن ظلاما وجهالة كما توحي بعض الكتابات. اذ انه من اجل كشف الضلال والعمى في عبادة الأصنام، وإظهار نور الاسلام، غالى البعض في إسباغ أثواب الجهالة على كل مناحي الحياة، في شبه الجزيرة، وفي هذه المغالاة جور.

هناك عدد من الدول والممالك القديمة كانت ذات مدنية وحضارة، وخصوصا في اليمن وفي كِندة وفي الحيرة وفي غسان. وهذه الممالك كانت كلها على أطراف شبه الجزيرة، اي في أراض خصبة نسبيا. وكان الحكم ملكيا وراثيا لدى بعضها؛ وقد نقلوا هذا النظام عن الأعاجم، وخصوصا في أطراف شبه الجزيرة. كما كان الحكم، في البعض الآخر، انتخابيا بين المشايخ وفقا للأعراف البدوية.

وعُرفت هذه الدول بالتجارة والعمارة وحفر القنوات وبناء السدود، كما عرفت بجباية الضرائب وانشاء نظام للدفاع عن نفسها.

أما في الداخل، فكان الحكم حكم القبائل المتعددة. وفي مكة نشأت نواة الحكومة، وكان آل قريش سادة مكة؛ فَلَهُم عقد اللواء في الحرب، وسدانة الكعبة، ورفادة الحج وسقايته. وارتفعت مكانة قريش بحلف الفضول، وهو الحلف الذي التزمت فيه قريش رد المظالم الى اهلها من دون تفرقة بين قرشي او غير قرشي.

ومهما اختلف نظام الحكم، اذ كان لدى الغساسنة والمناذرة حكم ملكي صرف، وفي اليمن حكم ملكي قبلي، وفي قريش حكم «جمهوري» قبلي، وفي سائر المناطق من شبه الجزيرة ــ وخصوصا في الداخل ــ حكم قبلي صرف، فان هذه الانظمة كلها تشترك في ان نظام القبيلة كان الأساس لدى كل منها.[٤٢] كما انها تشترك في الصفات العربية الواحدة لدى قبائلها وأفرادها، وهي صفات الشجاعة والنخوة والإباء والكرم والعصبية القبلية.

(٤١) محمد حسين هيكل، «حياة محمد» (القاهرة. مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة عشرة، ١٩٦٨)، ص ٦٦ ــ ٧٤.

(٤٢) عبد اللطيف الطيباوي، «محاضرات في تاريخ العرب والاسلام» (بيروت: دار الاندلس، ١٩٦٣)، الجزء الأول، ص ١١٧ ــ ١٢١.

ثانيا: العرب في عهد الرسول

بينما كان اهل الجزيرة قانعين بحياتهم؛ ومكة تأتيها قوافل التجار من كل حدب وصوب؛ واللات والعزى ومناة وهُبل يتعبّد لها الكبير والصغير ابتغاء مرضاتها؛ فرضاء الآلهة ـ تلك الأصنام الحجرية ـ كان وحده الضمانة لاستمرار الرخاء وتدفق التجار والبضائع على الأسواق، وتصفيق المستمعين لقصائد المديح في سوق عكاظ.

وبينما هم في ضلالهم سائرون، وفي لهوهم ينعمون، كان رجل منهم يعرف بمحمد الأمين يخرج الى غار حراء يتعبد ويتأمل الكون وما وراء الكون؛ وفي الليلة التي اكرمه الله فيها برسالته، وجاءه فيها جبريل ـ عليه السلام ـ يروى عن محمد الأمين قوله:

> قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجاءني جبريل، وأنا نائم، بنَمَط من ديباج فيه كتاب، فقال اقرأ؛ . . . . «اقرأ باسم ربِّك الذي خَلَقَ خَلَق الانسان من علق اقرأ وربّك الأكرم الذي علّم بالقلم. علّم الانسان ما لم يعلم» قال: فقرأتها، ثم انتهى فانصرف عني وهبت من نومي، فكأنما كتبت في قلبي كتابا قال: فخرجت حتى اذا كنتُ في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول: يا محمد، انت رسول الله وأنا جبريل.(٤٣)

وأُنزل القرآن الكريم هدىً للناس، ودعا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، وكان في الأربعين من عمره (٦١٠م)، بني قومه الى قول لا إله إلاّ الله، والى ترك عبادة الأصنام، فخذله سادة قريش وحماه عمه الشيخ ابو طالب. أما اول من آمن برسالته فكانت زوجته خديجة بنت خويلد، وابن عمه علي بن ابـي طالب، وابنه بالتبني زيد بن حارثة. ولما انطلقت خديجة الى ابن عمها ورقة بن نوفل لتبشره بالرسالة، وكان ورقة قد تنصّر وقرأ الكتب، ولتخبره بما كان من امر الوحي حتى هتف: «قُدّوس قُدّوس، والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صَدَقْتِيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وانه لِنبـيّ هذه الأمة، فقولي له: فليثبت.»(٤٤)

وكما عرف ورقة بن نوفل، وعرفت مكة والمدينة، عرفت الدنيا فيما بعد برسالة محمد بن عبدالله، رسالة الهدى والايمان بالله الواحد العلي القدير، وتتمة الرسالات السابقة: «قولوا آمنّا باللّـهِ وما أُنزِلَ إلينا وما أُنزِلَ الى ابراهيمَ واسمْعيلَ واسحْقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتيَ موسى وعيسى

---

(٤٣) ابن هشام (عبدالملك بن هشام المعافري)، «السيرة النبوية»، من اصلها لمحمد بن اسحاق المطلبي، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبدالحفيظ شلبي (القاهرة: مطبعة الحلبي، الطبعة الثانية، ١٩٥٥)، القسم الاول، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٨.

وما أُوتيَ النبيّونَ من ربّهم لا نفرِّقُ بينَ احدٍ منهم ونحنُ لهُ مسلمون» (سورة البقرة ٢ : ١٣٦).

في السنة الثالثة للدعوة، جهر الرسول الكريم والمؤمنون من حوله بالدعوة. لكن سادة قريش ازدادوا، من ناحيتهم، في اضطهادهم للمؤمنين وفي محاربتهم، مما اضطر الرسول والمؤمنين الى الهجرة نحو المدينة المنورة؛ وهناك أقام الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ اول دولة في الجزيرة العربية يسودها العدل والمساواة، حيث «لا فضل لعربي على عجمي ولا لقرشي على حبشي إلاّ بالتقوى» (حديث شريف). أما التفاوت بين الناس فهو تفاوت في العلم، والعمل، والرزق، والأخلاق.

ومع العدل والمساواة كان الشمول في العقيدة الاسلامية؛ فنواة الدولة الاسلامية كانت في المدينة المنورة، غير ان العقيدة الاسلامية تشمل الأمم والشعوب جميعها، كما تشمل النفس الانسانية بجملتها من عقل وروح وضمير. فقد جاءت رسالة الاسلام لتشمل بني الانسان من كل جنس وملة وقبيل.

وتطلعت العقيدة الاسلامية الى الشخصية الانسانية في شخصية واحدة تجمع بين نوازع الجسد ونوازع الروح، وبين سلطان الأرض وسلطان السماء، وبين فرائض السعي وفرائض العبادة؛ وبهذه النظرة الموحدة الجامعة الى الشخصية الانسانية، حمت العقيدة الاسلامية الانسان من التمزق في ضميره الحائر بين الروح والجسد.[٤٥] «وما كان الشمول في العقيدة ليذهب فيها مذهبا ابعد وأوسع من خطاب الانسان روحا وجسدا وعقلا وضميرا بغير بخس ولا إفراط في ملكة من هذه الملكات.»[٤٦]

اتبعت الدولة، التي أقام الرسول نواتها في المدينة، الديمقراطية الانسانية القائمة على المساواة والمسؤولية الفردية، وقيام الحكم على الشورى، وعلى دستور معلوم من الحدود والتبعات؛ وهذه هي العناصر الثلاثة التي نادى بها الاسلام أول مرة في تاريخ الانسان.[٤٧]

وكيف لا تكون الديمقراطية ولا تكون الشورى، والآيات البينات لا تشير الى محمد بن عبدالله إلا اشارتها الى رسول من بني البشر: «قلْ إنَّما أنا بشرٌ مثلُكُمْ يوحىٰ اليّ أنّما إلهكُمْ إلهٌ واحدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُواْ لقاءَ ربِّهِ فليعملْ عملاً صالحاً ولا يُشْرِكْ بعبادةِ ربِّهِ أحداً» (سورة الكهف ١٨ : ١١٠).

«إنّا نحنُ نُحيـي ونُميتُ وإلينا المصيرُ. يومَ تَشَقَّقُ الأرضُ عنهمْ سِرَاعاً ذلكَ حَشْرٌ علينا يسيرٌ. نحنُ أعلمُ بمـا يقولـونَ وما أنتَ عليهم بجبّـارٍ فذكِّـر بالقـرآنِ من يخافُ وَعِيـد» (سورة ق ٥٠ : ٤٣ ــ ٤٥).

«أفلا يَنْظُرُونَ الى الإبلِ كيفَ خُلِقَتْ. والى السَّماءِ كيفَ رُفِعَتْ. والى الجِبَالِ كيفَ نُصِبَتْ.

---

(٤٥) عباس محمود العقاد، «حقائق الاسلام وأباطيل خصومه» (القاهرة: دار الاسلام، ١٩٥٧)، ص ٢٢ ــ ٢٣.
(٤٦) المصدر نفسه، ص ٣٠
(٤٧) المصدر نفسه، ص ١٤٠.

والى الأرضِ كيفَ سُطِّحَتْ. فذكِّر إنما انتَ مذكِّرٌ. لسْتَ عليهِم بمصيطر» (سورة الغاشية ٨٨. ١٧ ــ ٢٢).

أما بين الانسان وربّه، فليس هناك من وسيط، ولا تتوقف للانسان نجاة على مشيئة كاهن او رجل دين؛ فالمسلم مع الله في كل مكان، وهو يصلي حيثما يشاء. ويوضح علي عثمان العلاقة بين الانسان وربه في الاسلام:

> فلقد انفرد الاسلام، أولاً، بالاعتراف بالانسان كما هو في فطرته وفي حقيقته، وبالاعتراف بالتالي بكفاءة قدرات الانسان العقلية وارادته الاخلاقية في التوصل الى معرفة الله والى التوحيد، وبالاعتراف بأن هذه القدرات وهذه الارادة موجودة في كل انسان، وان كل انسان مرشح بالتالي الى التوصل الى معرفة الله والى التوحيد بمفرده وبوسائله هو، وليس بفعل «أسرار إلهية» في مؤسسة كهنوتية او في شعب معيّن، كما هو الأمر في التراث اليهودي / المسيحي.[٤٨]

قبل مجيء الاسلام، لم يحاول ملك او شيخ في شبه الجزيرة ان يوحّد فيما بين القبائل، وأن يرفع للعرب راية واحدة، حتى كان عهد محمد بن عبدالله؛ فكانت اول وحدة بين العرب على يديه. ولا يقل فضل الرسول العظيم في توحيد العرب عن فضله في تحويلهم من الشرك وعبادة الأصنام الى عبادة الله الواحد الصمد؛ فالرسول قد نشر دينا، وأسس دولة، وهو في هذا يختلف عن سائر الأنبياء والمرسلين.

ولم يكن تحقيق الوحدة في شبه الجزيرة مهمة سهلة قط. لقد كانت الدعوة الى الايمان بالاقناع والموعظة مرحلة اولية مهمة، يضاف اليها مرحلة المعاهدات والأحلاف التي حققها الرسول في عهده، وابتدأها بمعاهدة المدينة مع جميع سكان المدينة من المسلمين وأهل الكتاب والمشركين، في امور الغزو والفداء والدية والجار والمولى. وقد جاء في سيرة ابن هشام:

> قال ابن اسحاق: وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادَعَ فيه يهودَ وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم.
>
> بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، انهم امة واحدة من دون الناس . .[٤٩]

هكذا خاطب الرسول اهل المدينة، فهم بكل قبائلهم ومذاهبهم الدينية امة من دون الناس.

وبعد المعارك مع المشركين في بدر وأُحد والخندق، أقام الرسول صلح الحديبيّة، وبموجبه تتوقف

(٤٨) علي عثمان، «الاسلام والانسان»، «مجلة الآداب»، العدد ٤ ــ ٦ (نيسان ــ حزيران ١٩٨٤)، ص ١٠.
(٤٩) ابن هشام، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠١.

الحرب عشر سنوات ويحق للمسلمين زيارة مكة من اجل الزيارة والتجارة، كما يحق لقريش المرور الى الشام للتجارة وقد تجلت رغبة الرسول في تحقيق الوحدة بين القبائل، ورغبته في تفضيل هذه الوحدة على ما عداها، من خلال رضائه بأن يكتب في بدء الصلح «باسمك الله» عوضا من بسم الله الرحمن الرحيم، كما رضي بأن يشار اليه باسمه واسم ابيه لا بصفته رسول الله.(٥٠)

وفي عهد الحديبيّة، لم يشمل الحج المسلمين وحدهم، بل أراد الرسول ان يشمل أيضا أبناء القبائل العربية الذين يشاركون المسلمين في تعظيم البيت الحرام والسعي اليه. وهكذا جعل للعرب اجمعين قضية واحدة في وجه قريش، وقضى على ادعاء قريش ان محمدا وأصحابه معزولون عن القبائل العربية وعن النخوة العربية والاخوة العربية؛ فهم عرب، ينتصر بهم العرب. أما خلافهم مع قريش، فهو شأن المخالفين من قريش وحدهم، والمنتفعين من قريش باستمرار السيطرة على مكة اقتصاديا واجتماعيا.(٥١)

ولما نكث المشركون العهد، قرر الرسول دخول مكة سلما، فدخلتها أفواج المسلمين بالتهليل والتكبير، وحطمت الأصنام والتماثيل في الكعبة. وبفضل سياسة التسامح وسعة الصدر لدى الرسول العظيم، تحول ألدّ أعدائه الى مقاتلين تحت رايته؛ فأبو سفيان، زعيم قريش في الجاهلية، تحول الى زعيم في العهد الاسلامي، وحارب بعد اسبوعين من فتح مكة في صفوف المسلمين، وكان من أبطال اليرموك.

واستمر الرسول في محالفة القبائل ونشر الاسلام، وكثيرا ما أبقى لزعماء القبائل على امتيازات معينة. ولما دان له الجنوب حتى اليمن، توجه شمالا لنشر الدعوة، فكانت غزوتا مؤتة وتبوك، وكان تجهيز الجيوش لفتح الشام.

في السنة العاشرة للهجرة، كانت الجزيرة دانت في معظمها بالاسلام، وتغلّب الايمان الجديد على نزعات الأخذ بالثأر والعصبية القبلية؛ وسياسيا، اصبحت الجزيرة امة واحدة ودولة واحدة.(٥٢)

وكان توحيد العرب. وهذه معجزة من معجزات الرسول؛ فهو مؤسس الوحدة الاولى في تاريخ العرب. وقد تجلت حكمته وعظمته في تحقيق هذه الوحدة التي انطلق العرب المسلمون من بعدها بأنظارهم الى خارج الجزيرة، لنشر الاسلام.

وعن محمد العربي الانسان قال عباس محمود العقاد:

---

(٥٠) عبداللطيف الطيباوي، مصدر سبق ذكره، ص ١٢ ــ ١٥

(٥١) عباس محمود العقاد، «عبقرية محمد» (القاهرة: دار الهلال، ١٩٦٦)، ص ٥٩ ــ ٦٠.

(٥٢) عبداللطيف الطيباوي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥ ــ ١٧

قبل ألف وأربعمائة سنة، وجد في العالم الأرصي رحل كان إماما للقومية في مثلها الأعلى، ورسولا للانسانية في قدوتها الحسنى

دلك هو محمد بن عبدالله، النبي العربي، رسول رب العالمين، الى جميع خلقه، من عرب وعجم، ومن بيض وسود، ومن سادة ومستعبدين

نبي عربي مبين

ولكنه رسول رب العالمين الى جميع بني الانسان، ودلك هو مثال القومية الفاضلة، وقوام الانسانية، كما يتمثل فيها جميع بني الانسان.

كان محمد بن عبدالله ــ عليه السلام ــ راضي النفس بعروبته، يحمد الله لأنه ولد يوم اعزّ الله العرب، ونصرهم على دولة الأكاسرة التي طغت على حوزتهم واستباحت ما ملكت من جوارهم، وكان يحب قومه ولا يحب من يبغضهم، فلا يكره العرب إلا منافق، ولا يخلص في عقيدته من لا يخلص في رعايتهم وعرفان حقهم.[٥٣]

ثالثا: سياسة الفتح

منذ السنة الثانية للهجرة (٦٢٢م) أُمر المسلمون بالجهاد، وَوُعِد الشهداء الابرار منهم بالجنة، فكان الجهاد طاعة لأمر الله، اي انه كان تعبّدا، وكان أيضا حربا للدفاع عن الذات: «وقاتِلُوا في سبيلِ اللّـهِ الذينَ يُقاتِلونَكُمْ ولا تَعْتَدُوا إنَّ اللّـهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ» (سورة البقرة ٢: ١٩٠).

وأعظم ما اتصف به الجهاد في الاسلام انه لم يكن حرب ابادة واستئصال؛ فقد أمر الاسلام المجاهدين ألا يتبعوا الفارَّ وألا يجهزوا على جريح او يقتلوا الأسرى.[٥٤]

ومن بادية العرب، ومن النبـي العربـي الأمـي حمل الرسل الى الملوك والأباطرة رسائل يدعوهم فيها الى الايمان بالاسلام، او دفع الجزية، او الحرب. وكانت هذه الرسائل الى قيصر الروم، وكسرى الفرس، والمقوقس في مصر، والنجاشي في الحبشة، وكذلك الى الحارث بن ابـي شُمَّـر ملك الغساسنة، وهوذة بن علي الحنفي رئيس المناذرة،[٥٥] ولقبه: «دو التاج».

وفي عهد الرسول أيضا، اخذت الطلائع والسرايا تخرج من الحجاز الى الشام، فالرسول ــ عليه السلام ــ كان قد رأى في رحلتيه الى الشام (قبل الرسالة) العديد من القبائل العربية، وخصوصا قبائل كلب وغسّان ولخم وجذام، ورأى ان يكون هؤلاء العرب عونا لاخوانهم عرب الجزيرة في إعلاء كلمة الله.

---

(٥٣) عباس محمود العقاد، «الاسلام دعوة عالمية» (بيروت / صيدا منشورات المكتبة العصرية، [١٩٦٢])، ص ١١ ــ ١٢.

(٥٤) عمر فروخ، «العرب في حضارتهم وثقافتهم» (بيروت· دار العلم للملايين، ١٩٦٦)، ص ١٤٧ ــ ١٤٨

(٥٥) الطبري، مصدر سبق ذكره، الجزء الثاني، ١٥٦٠/١، ص ٦٤٤

وفي عهده كانت غزوة ذات السلاسل ومؤتة وتبوك؛ وقد مكنت غزوة تبوك ــ وهي الغروة الأخيرة التي شارك فيها الرسول ــ المسلمين من بسط نفوذهم على تخوم الشام. وسرعان ما أمر بعدها بتجهيز حملة قوية يشارك فيها كبار الصحابة، والمهاجرون الأوائل، كأبـي بكر الصديق وعمر بن الخطاب؛ وتكون الحملة بقيادة أسامة بن زيد.

وبينما كان الاستعداد للحملة قائما اشتد المرض على الرسول الكريم، فلاقى وجه ربه في ١٢ ربيع الاول سنة ١١هـ، الموافقة سنة ٦٣٢ م وبينما كان الناس في ذهول من هول الفجيعة وفداحة الخطب، وقف ابو بكر الصديق بينهم وقال: «أيها الناس، ان من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فان الله حيٌّ لا يموت.»(٥٦)

وحال موت الرسول ــ عليه السلام ــ دون مسيرة جيش أسامة. ولما جابه خليفة الرسول، ابو بكر الصديق، المرتدّين عن الاسلام ومدّعي النبوة، توجه خالد بن الوليد الى الداخل لمحاربة المرتدين، وتوجه أسامة بجيشه الى مشارف الشام تنفيذا لوصية الرسول؛ وابتدأت الفتوح في عهد الخليفة الأول ابـي بكر، وكان اوجها في عهد امير المؤمنين عمر بن الخطاب. ولم تتوقف الفتوح، فاستمرت في عهد بني أميّة حتى دانت للعرب المسلمين البلاد من بخارى وسمرقند في شرق آسيا حتى اسبانيا في غرب اوروبا، ومن أعالي جبال الأناضول، مرورا بسوريا وفلسطين الى شواطىء مصر والساحل الافريقي على البحر المتوسط؛ اي المغرب العربـي الكبير.

* * *

من المغالطات التاريخية المنتشرة ان الاسلام، في صدر الدعوة، استند الى قوة السيف، ولم ينتشر إلا بالسيف؛ وفي هذه المقولة إجحاف كبير للأسباب التالية:

١ ــ كانت الحرب هي الخطوة الثالثة لا الأولى؛ فالاسلام والسلام أولا، والجزية ثانيا، والحرب ثالثا.

٢ ــ كان الفارق واضحا بين التعامل مع الشعوب والأقوام من اهل الكتاب، وبين المشركين بالله؛ فمع اهل الكتاب عهد وحرية تامة في البقاء على معتقداتهم، وما كان نشر الاسلام واجبا دينيا إلا بين المشركين.

٣ ــ من الظلم الفادح ان يُحكم على التاريخ من دون التمعّن في طبيعة العصر الذي جرت فيه الأحداث. فعصر الفتوح العربية الاسلامية جاء في أعقاب فتوحات الفرس واليونان والرومان، وأيٌّ مِنْ هؤلاء لم يستول على البلاد نفسها، والمدن نفسها، بقوّة السيف؟ فان كان يجوز لداريوس الكبير

(٥٦) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ١٨١٨/١، ص ٢٠١.

او الاسكندر الكبير ان يتوسع الأول غربا، والثاني شرقا الى المدى الذي تطؤه أقدام جنوده، فَلِمَ لا يجوز ذلك لخالد بن الوليد او طارق بن زياد؟ لِـمَ لا يجوز ذلك لجيوش العرب المسلمين التي خرجت من بلادها، لا تلبية لدوافـع اقتصادية او سياسية فحسب، وانما تلبية لنشر راية العقيدة أيضا. ولا ندري كيف ان العقلية الغربية الاستعمارية التي تدرك أبعاد فتوحات الاسكندر لنشر الحضارة الهللينية، تعجز عن ادراك أبعاد فتوحات العرب لنشر العقيدة الاسلامية واللغة العربية والحضارة العربية.

٤ ــ بالمقارنة مع الفتوحات السابقة، اي الفارسية واليونانية والرومانية، فالفتوحات العربية الاسلامية هي الوحيدة التي يحق لها الاستناد الى وجود سابق لأمتها، عبر الموجات المهاجرة، من قرون وقرون، من الجزيرة الى العراق والشام وفلسطين وأفريقيا.

٥ ــ كانت اللغة العربية مألوفة في سواحل الشام كلها، ليس بسبب الهجرات العربية المعروفة فحسب، وانما أيضا بسبب القوافل التجارية التي لم تنقطع يوما. وكذلك، كانت العربية تسمع من ديار الغساسنة والمناذرة والأنباط حتى تنتهي الى البحر المتوسط والى صحراء سيناء.

٦ ــ لو عرضنا التوزيع الديموغرافي للأقطار التي يدين قسم كبير من سكانها بالاسلام اليوم، وهم فوق المليار نسمة، لاكتشفنا ان القسم الأكبر من هؤلاء يقطن بلادا «لم تفتح بالسيف»، وهذا هو التعبير الذي تردده اغلبية الكتاب الغربيين. فالباكستان وأندونيسيا وبنغلادش والصين والاتحاد السوفياتـي «لم تفتح بالسيف»، والمسلمون من اهلها قد اعتنقوا الاسلام ايمانا منهم واقتداء بالآخرين.

ونقتبس من المؤرخ عجاج نويهض فيما يتعلق بالجوهر والغاية من الفتح العربـي الاسلامي:

> بالفتح العربـي في القرن السابع استرد الشرق الأدنى عن طريق العرب سيادته التي فقدها الفراعنة في مصر، والآشوريون والبابليون والكلدانيون في العراق، والفينيقيون في لسان، منذ عهد الاسكندر. الدنيا قروض ووفاء وقد عاد الشيء الى مستقـره، وبالعـروبة والاسـلام تحررت مـواطن الأديان السماوية.[٥٧]

رابعا: فلسطين اول البلدان

شاءت الأقدار الالهية ان يكون الشرق مهدا للأديان السماوية الثلاثة، وأن تكون فلسطين ــ من دون سائر بلدان هذا الشرق ــ الوطن لهذه الديانات.

وقف موسى في مصر ازاء جبروت الفرعون يفكّر في وحدانية الله، وفي خلاص شعبه، ومن مصر سار نحو فلسطين؛ ولما شاءت القدرة الالهية ان تبشر الانسان بخلاصه، ولد عيسى على ارض

(٥٧) عجاج نويهض، «ابو جعفر المنصور وعروبة لبنان. لخم والمردة» (بيروت: دار الصحافة، ١٩٦٢)، ص ١٤.

فلسطين، ولما اكتملت رسالات السماء بالكتاب المنزل في ارض الحجاز قرآنا عربيا على محمد، اسرى محمد من ارض الحجاز الى فلسطين، «سُبْحانَ الذي أَسْرَى بعبدِهِ ليلاً منَ المَسْجِدِ الحرامِ الى المَسْجِدِ الأقصىا الذي بارَكْنا حولَهُ لنُرِيَهُ من آياتنا إنَّهُ هُوَ السَّميعُ البصيرُ» (سورة الاسراء ١٧ : ١).

كانت اول صلة بين الاسلام وفلسطين هي الاسراء، والثانية الفتح العربي الاسلامي في القرن السابع للميلاد.

عندما امر الرسول ــ عليه السلام ــ باعداد الجيش وارساله الى التخوم، امر قائده أسامة بن زيد بأن ينزل في تخوم البلقاء من الأردن والداروم من جنوب فلسطين.[٥٨] غير انه بسبب انشغال المسلمين بحروب الردة، فقد طلب بعض الصحابة من الخليفة ابي بكر إرجاء ارسال جيش أسامة، لكنه قال: «والذي نفسي بيده، لو ظننت ان السباع تختطفني لأنفذت جيش أسامة كما امر النبي.»[٥٩] ونزل جيش أسامة حيث أراد له الرسول، وامتدت غزوته بين القبائل أربعين يوما، وقيل سبعين يوما.[٦٠]

وفي العام الثالث عشر للهجرة، توجه العرب لفتح الشام في عدة جيوش؛ وقد توجه الجيش الاول منها نحو فلسطين بقيادة عمرو بن العاص، كما توجه جيش الى الشام بقيادة ابي عبيدة بن الجراح، وجيش الى العراق بقيادة خالد بن الوليد.

ومن وصية ابي بكر وهو يودّع ابن العاص:

> . . واذا سرت بجيشك فلا تسر في الطريق التي سار فيها يزيد وربيعة وشرحبيل، بل اسلك طريق إيليا حتى تنتهي الى ارض فلسطين، وابعث عيونك يأتونك بأخبار ابي عبيدة فان كان ظافرا بعدوه فكن أنت لقتال من في فلسطين. .
>
> واعلم يا عمرو ان معك المهاجرين والأنصار من اهل بدر، فأكرمهم واعرف حقهم ولا تتطاول عليهم بسلطانك ولا تداخلك نجدة الشيطان فتقول: انما ولاّني ابو بكر لأني خيرهم، واياك وخداع النفس وكن كأحدهم، وشاورهم فيما تريد من امرك، والصلاة ثم الصلاة. . .
>
> واتق الله اذا لاقيت العدو، واذا وعظت أصحابك فأوجز وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك فالإمام ينفرد الى الله تعالى فيما يعلمه وما يفعله في رعيته واني قد ولّيتك على من قد مررت من العرب فاجعل كل قبيلة على حميتها، وكن عليهم كالوالد الشفيق الرفيق . وخلف على الناس من ترضاه [٦١]

---

(٥٨) شملت الداروم في العهد البيزنطي منطقة جنوبي فلسطين حتى البحر الميت.

(٥٩) ابن الأثير، «الكامل في التاريخ» (بيروت: دار صادر ــ دار بيروت، ١٩٦٥)، المجلد الثاني، ص ٣٣٤.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٣٣٥ ــ ٣٣٦.

(٦١) ابو عبد الله محمد بن عمر الواقدي، «من فتوح الشام» (مصر: المطبعة العثمانية المصرية، الطبعة الأولى، =

في اليوم التالي، لم يكرر ابو بكر الوصية لأبـي عبيدة، بل قال له: «يا أمين الأمة قد سمعت ما وصّيت به عمرو بن العاص.»[٦٢]

وبينما كان عمرو وجيشه متجهين نحو فلسطين، وكان الجيش من تسعة آلاف رجل من اهل مكة وثقيف وطيء والطائف وهوزان وبني كلاب، كان هرقل، ملك الروم، قد سمع بواسطة عيونه وجواسيسه بتحرك الجيش وبوصايا ابـي بكر لعمرو: «عليك بفلسطين وايليا» وسمع كذلك وصف احدهم لأبـي بكر: «وهو كواحد منهم (من رعيته)، وهو يمشي في ثوبين ويطوف بالأسواق ويدور على الناس يأخذ الحق من القوي للضعيف.» وقد ذكر هذا الرجل لملك الروم ان أبا بكر قد ابتاع منه شملة بأربعة دراهم وجعلها على كتفه.

استمع هرقل بأسى، ثم قال: «هذا الامر والله قد صح وقد دعوت الروم الى الرشد والصلاح، فأبوا ان يطيعوني، وان ملكي سوف ينهدم.» ثم عقد صليبا من الجوهر وأعطاه الى القائد روبيس، وقال له: «لقد وليتك على الجيوش فسيروا لمنع العرب من فلسطين فانها بلد خصب كثير الخير وهي عزنا وجاهنا وتاجنا.» وهكذا توجه روبيس بحيشه نحو أجادين.[٦٣]

خامسا: يوم فلسطين

بعد ان نزل العرب المسلمون بفلسطين علموا ان الروم يستعدون لهم بنحو من مائة ألف مقاتل. واستشار عمرو بن العاص رجاله فأشار البعض منهم بالرجوع الى البرية لأن الروم لا يفارقون القرى والحصون، فاذا جاءهم الخبر بعودة المسلمين الى البرية يتفرقون، فيسهل على المسلمين الانعطاف عليهم على غفلة من امرهم. ورأى البعض الآخر ضرورة النهوض للقتال، فقال سهل بن عمرو:

= ١٩٣٥)، الجزء الأول، ص ٨.

توفي الواقدي سنة ٢٠٧هـ. وهو اقدم المؤرخين العرب في الفتوح، وقد اعتمد في تدوين أخبار الفتوح على الثقات الذين تناقلوا سيرة الفتوح عن شهود العيان وأبطال المعارك؛ فكتابه منذ اكثر من اثني عشر قرنا يعتبر، في المدارس الحديثة المعاصرة لكتابة التاريخ، نموذجا عن التاريخ الشفهي ومن اشهر المؤرخين العرب بعده في أخبار الفتوح: البلاذري (توفي سنة ٢٧٩هـ)، والطبري (توفي سنة ٣١٠هـ)، والمسعودي (توفي سنة ٣٣٢هـ) وبعد هؤلاء كان ابن الأثير (توفي سنة ٦٣٠هـ)، وأبو الفداء (توفي سنة ٧٢١هـ)، وابن خلدون (توفي سنة ٨٠٨هـ) وغيرهم.

(٦٢) المصدر نفسه، ص ٩

(٦٣) المصدر نفسه، ص ٩ — ١٠.

«فمن شاء فلينهض، ومن شاء فليرجع، ومن نكص على عقبيه فأنا وراءه بالمرصاد.» ولما قام، قام معه عبدالله بن عمر بن الخطاب، فعقد له ابن العاص راية وضم اليه ألف رجل.

في اليوم التالي لاقت هذه الطليعة عشرة آلاف من الروم، وصاح عبدالله بن عمر بن الخطاب: «لا تمهلوهم لأنهم لا بدّ لهم منكم، والله ينصركم عليهم... واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف.»[٦٤]

واشتد القتال. وفي نهاية اليوم تمكن العرب من اسر ستمائة اسير من الروم، فأخذوهم مع الغنائم والأموال والخيول، وقد استشهد منهم سبعة. ولدى استنطاق الأسرى تبين ان ثلاثة بينهم من أنباط الشام، وقد قالوا: «يا معشر العرب: ان هذا روبيس قد اقبل في مائة ألف فارس، وقد امره الملك ألا يَدْعُ أحدا من العرب الى إيلياء، وبعث هذا البطريق طليعة.»[٦٥]

وفي الصباح وصل جيش الروم وكان معه عشرة صلبان، تحت كل صليب عشرة آلاف فارس. وكان ابن العاص قد رتب جيشه ميمنة وميسرة والساقة والقلب، ووقف هو في القلب. والتقى الجمعان في السهل.[٦٦]

اول من خرج للقتال كان سعيد بن خالد، وقاتل ببطولة حتى اجتمعوا عليه وقتلوه، فقام سبعون من الأبطال في هجمة واحدة بعد مقتله، إلا ان الروم كانوا كالجبال؛ فعاد العرب في هجمة ثانية وبعجوا دوابهّم بالأسنة، فتنكسوا وتفرقوا. واشتد القتال حتى الزوال، وقد اطلق الواقدي على هذا اليوم الأول من لقاء الجيشين بكامل قوتهما «يوم فلسطين». وانتهى «يوم فلسطين» بمقتل خمسة عشر ألفا من الروم كما ذكر الواقدي، ومائة وثلاثين من العرب، اخرجوهم من بين الروم في اليوم التالي ودفنوهم.[٦٧]

وبعث عمرو بن العاص الى ابـي عبيدة في ارض الشام بشأن المعركة، وكان والد سعيد بن خالد جالسا لما وصلت الرسالة؛ فعرف بمقتل ولده، وأسرع الى فرسه وعزم الى ارض فلسطين لينظر الى قبر ولده، كما حمل معه رسالة ابـي عبيدة الى ابن العاص. وقد كان ابو عبيدة، «امين الأمة»، قائدا للجيوش العربية، وقد ورد في الرسالة: «... فان كان ابو بكر أمرك ان تكون معنا فسر الينا، وان كان أمرك بالثبات في موضعك فاثبت.» وما كان من ابن العاص إلا ان يثبت؛ فوصية الرسول كانت فلسطين، ووصية خليفته الصديق كذلك.[٦٨]

---

(٦٤) المصدر نفسه، ص ١٠.
(٦٥) المصدر نفسه، ص ١١.
(٦٦) الطبري، مصدر سبق ذكره، الجزء الثالث، ٢١٠٨/١، ص ٤٠٦.
(٦٧) الواقدي، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١١ ــ ١٢.
(٦٨) المصدر نفسه، ص ١٢

وأعطى ابن العاص خالد بن سعيد ثلاثمائة فارس كي يتتبعوا فلول الروم. ورأى هؤلاء ليلا أشباحا على رأس الجبل، فداروا حتى فاجأوهم، فاذا بهم فلاحون من أنباط الشام، خافوا من التحام المعارك، فالتجأوا الى الجبل. وأكد هؤلاء الفلاحون الأنباط البسطاء ان الروم يتجمعون في أجنادين، كما قالوا ان البطريق قادم ليأخذ منهم الميرة والعلوفة، فهم مسيحيون، وعليهم دفع الميرة. ثم قام بعض منهم ودلّوا خالدا ومن معه على الطريق؛ وهناك كمن العرب للروم، فقاتلوهم وقتلوا بطريقهم واستولوا على الميرة كلها، ثم أطلقوا الفلاحين الأنباط.(٦٩)

وتبقى هذه الحادثة من الأمثلة للأواصر الانسانية بين السكان المسيحيين وعرب الجزيرة الفاتحين المسلمين؛ فخالد بن سعيد وهو الأب المفجوع بولده، استمع الى نصيحة أصحابه، ولم يتعرض بأي سوء لهؤلاء، كما انه احترم تمسكهم بدينهم اذ قالوا: «ما نعرف إلا دين الصليب»، وراعى أحوالهم؛ فهم مواطنون بسطاء، وما كانوا بمقاتلين في جيش الروم.

وكتب عمرو بن العاص الى الخليفة ابي بكر يعلمه بكل ما جرى. وكتب الخليفة، ادراكا منه لخطورة المعركة القادمة وأهميتها، الى خالد بن الوليد في العراق يستدعيه لقيادة الجيش. وابتدأ الاستعداد لمعركة أجنادين.(٧٠)

سادسا: معركة أجنادين

اتفق خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح على التوجه نحو أجنادين وحشد الجيوش لها. فكتب ابن الوليد الى شرحبيل بن حسنة في بصرى، ومعاذ بن جبل في حوران، ويزيد بن ابي سفيان في البلقاء، والنعمان بن المغيرة في تدمر، وعمرو بن العاص في فلسطين، يطلب منهم جميعا التوجه نحو أجنادين.(٧١)

وحشد الروم من ناحيتهم لأجنادين. فبينما كانت دمشق ما زالت محاصرة والمعارك من حولها، وبعد ان هزم وردان صاحب حمص، كتب هرقل الى وردان:

> أما بعد فاني قد بلغني جياع الأكباد عراة الأجساد قد هزموك وقتلوا ولدك (همدان) رحمه المسيح ورحمك، ولولا أعلم انك فارس الحرب وجيد الطعن والضرب وليس النصر آتيك لحلّ عليك سخطي والآن مضى ما مضى، وقد بعثت الى أجنادين تسعين ألفا، وقد امّرتك عليهم فسر نحوهم وأنجد اهل

(٦٩) المصدر نفسه، ص ١٣ ــ ١٤.

(٧٠) روى الطبري انه جرت معركة في العربة قبل أجنادين ــ راجع: البند سابعا من هذا الفصل.

(٧١) الواقدي، مصدر سبق دكره، الجزء الأول، ص ٢٩.

دمشق وأنفذ بعضهم ليمعوا من في فلسطين من العرب وحل بينهم وبين أصحابهم وانصر دينك وصاحبك (٧٢)

وفي أواخر تموز / يوليو من سنة ٦٣٦ م، التقى الجمعان في أجادين، وهي تقع في منطقة الخليل. (٧٣) ولما اشرف العرب على السهل شاهدوا الروم وقد اصطفوا مواكب وكتائب، فكانوا ستين صفا في كل صف منها ألف فارس. ورتب خالد بن الوليد الجيش كعادته ميمنة وميسرة وقلبا وجناحين؛ فجعل في القلب معاذ بن جبل، وفي الميمنة عبدالرحمن بن ابي بكر الصديق، وفي الميسرة سعيد بن عامر، وفي الجناح الأيسر شرحبيل بن حسنة، وفي الساقة يزيد بن ابي سفيان، ووقف هو في القلب ومعه عمرو بن العاص، ومع النساء كانت خولة بنت الأزور. وكان دور النساء في المعارك القتال والدفاع عن أنفسهن، وردّ الهاربين او الضعفاء الى ارض المعركة. (٧٤) ومما يروى عن معركة اليرموك قول المسلمين ان نساءهم كنّ اشد هولا عليهم من جنود الروم.

واقترب الجيشان، وقبل بدء القتال خرج شيخ من الروم يتكلم العربية وخاطب خالد بن الوليد: «أأنت امير القوم؟» فقال خالد: «كذلك يزعمون ما دمت على طاعة الله وسنّة رسوله، وان أنا غيّرت او بدّلت فلا امارة لي عليهم ولا طاعة.» وعندها قال الروميّ بدهاء وحنكة:

بهذا نصرتم علينا. اعلم انك توسطت بلادا ما جسر ملك من الملوك ان يتعرض لها ولا يدخلها، وان الفرس دخلوها ورجعوا خائبين . ولكنكم انتم نصرتم علينا وان النصر لا يدوم لكم، وصاحبي وردان قد اشفق عليكم وقد بعثني اليكم وقال: انه يعطي كل واحد منكم دينارا وثوبا وعمامة ولك انت مائة دينار ومائة ثوب ومائة عمامة وارحل عنا بجيشكم فان جيشنا على عدد الذر ولا تظن ان هؤلاء مثل من لقيت من جموعنا، فان الملك ما انفذ في هذا الجيش إلا عظماء البطارقة والأساقفة.

[وقال خالد:] والله ما نرجع إلا باحدى ثلاث خصال إما ان تدخلوا في ديننا، او تؤدوا الجزية، او القتال. وأما ما ذكرت من انكم عدد الذر فان الله تعالى قد وعدنا النصر على لسان محمد (ص) وأنزل ذلك في كتابه العزيز وأما ما ذكرت من ان صاحبكم يعطي كل واحد منا دينارا وعمامة وثوبا فعن قريب ان شاء الله نرى ثيابكم وبلادكم وعمائمكم كل ذلك في ملكنا وبأيدينا (٧٥)

---

(٧٢) المصدر نفسه، ص ٢٨

(٧٣) تقع أجادين، بالتحديد، في جوار قرية عجّور من أعمال الخليل؛ ففي جوار عجّور خربتان هما خربة جنّابة العربية وخربة جنابة الشرقية، وأجادين تحريف لتثنية الخربتين المذكورتين اي جنابتين وتحتوي الجنابة الغربية اليوم على جدران متهدمة وبقايا معصرة وصهاريج. وتحتوي الشرقية على مغاور وأحواض (راجع: مصطفى الدباغ، «بلادنا فلسطين»، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٩ ــ ٢٧٠).

(٧٤) الواقدي، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ٣٤.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ٣٥.

وما كان هذا الحوار إلا كسبا لبعض الوقت، فالروم كانوا مستخفّين بالخصم أمامهم، والعرب المسلمون كانوا واثقين بإيمانهم وبتحقيق النصر. وقد ابتدأ الروم باطلاق السهام رمية واحدة، فقتلوا وجرحوا الكثيرين. ولما حمل العرب عليهم كان ضرار بن الأزور، وهو من اشجع الفرسان العرب، في المقدمة، وبعد عدة حولات عرفه الروم فهو قاتل همدان ابن قائدهم وقد نقل عن عناف بن عوف النجبي قوله: «كنت ممن يعد قتلى ضرار بن الأزور، وكنت كلما قتل فارسا من الروم اعدّه، فكان جملة قتل ضرار في حملته هذه فرسانا ورجالا ثلاثين فارسا.»[٧٦]

ويتضح من وصف المعركة باسهاب ودقة، لدى الواقدي، انها كانت لا تخلو من روح المبارزة وأصولها؛ فتبدو المعركة انها مبارزات فردية بين القادة والبطارقة، وحرب ضروس بين الفرسان والجنود. وبينما كانت الحرب دائرة على اشدها، نظر العرب فرأوا عشرة بطارقة، بينهم وردان القائد، يخرجون للقتال، فقال خالد لأصحابه: «لا يخرج إلا عشرة حتى نساوي القوم.» وهكذا خرج تسعة من الأبطال مع خالد، والتحموا مع البطارقة؛ فلم يكن من الشرف العسكري ان يجتمع اثنان أو ثلاثة على بطريق واحد. ولما جاء العصر تفرق الروم. وكان قد قتل منهم ثلاثة آلاف، كما قتل عشرة من ملوكهم، وأما قائدهم وردان فقد نجا ومن ملوكهم الذين قتلوا كوكب صاحب ارض البلقاء، ولاوي بن حنا صاحب غزة.[٧٧]

جمع وردان بطارقته، بعد اليوم الاول، فقال بعضهم باستمرار القتال بالرماح، وفضلوا الموت جميعا على الهزيمة؛ لكن واحدا منهم قال لوردان: «اعلم انك قد بليت بقوم لا تقوم لقتالهم، وقد رأيت الواحد منهم يحمل على عسكرنا ولا يبالي من احد ولا يرجع حتى يقتل منهم، وقد قال لهم نبيّهم ان من قتل منكم صار الى الجنة.» وانتهى النقاش باتفاق البطارقة على مكيدة تمكنهم من قتل خالد بن الوليد، ذلك بأن يطلبوا الصلح في اليوم التالي، وعندما يتقدم خالد ينقضّ عليه كمين فيفتك به، إلا ان المكيدة كشف امرها الرسول نفسه، فقد كان من متنصّرة العرب. وهكذا انقلبت المكيدة على مدبريها. وفي مطلع اليوم التالي قتل قائدهم وردان، وحمل ابو عبيدة وخالد على رأس المجاهدين. وقد استمر القتال، كاليوم الأول، قتالا عنيفا حتى الغروب. وكانت جموع المنهزمين تتجه الى طريق غزة، ومنها من انهزم الى دمشق او قيسارية.

وانتهت معركة أجنادين، وقد كانت في ليلة سبت خلت من جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة من الهجرة النبوية (٣٠ تموز / يوليو ٦٣٦ م).

---

(٧٦) المصدر نفسه

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٣٦ ـ ٣٧

وفي رسالة من خالد بن الوليد الى الخليفة الصديق، انه قد قتل من المسلمين في اليومين الاول والثاني أربعمائة وخمسون رحلا. وكانت الغنائم من هده المعركة لا تحصى، غير ان خالدا قد رفض تقسيمها حتى يتم فتح دمشق.[٧٨] وليس من شك في ان معركة أجنادين كانت المعركة الكبرى على ارض فلسطين، لكنها لم تكن الأخيرة

سابعا: الفتوح من بيسان الى غزة

بعد أجنادين، وهي تقع في القلب والوسط من فلسطين، سار العرب شمالا حتى وصلوا الى منطقة بيسان بالقرب من نهر الاردن. وكان الروم قد بثقوا مياه النهر؛ ولما كانت الأرض سبخة، فقد غاصت حوافر الخيل في الوحل، ولاقى المسلمون عناء شديدا حتى تخلصوا من الوحل وعبروا في اتجاه فحل من ارض الاردن،[٧٩] وهي تقع على تلة شرقي النهر قبالة بيسان، وجنوبي جسر المجامع.

وفاجأ العرب الروم على حين غرّة، وكان القتال في فحل شديدا قاسيا، وقد اصيب قائد الروم سقلّار بن مخراق. وفي اليوم التالي، اصبح الروم حيارى، فأسلمتهم هزيمتهم للوحل الذي صنعوه مقبرة لخيول العرب، وكان أن غاصوا هم في الوحل. ولما لحق بهم العرب وخزوهم بالرماح، وتمكنوا من قتل الألوف منهم. وتعرف معركة فحل هذه أيضا بيوم الردغة؛ فهزيمة الروم كانت في فحل، أما مقتلهم فكان في الرداغ، اي ارض الوحل.

بعد معركة فحل توجه ابو عبيدة وخالد بن الوليد الى حمص، بينما عاد عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة الى بيسان، فحاصروها أياما، ثم خرج الروم اليهم فقاتلوهم. أما اهل بيسان، فقد رغب معظمهم في الصلح.[٨٠]

في هذه الاثناء، كان ابو الأعور السلمي يحاصر مدينة طبريا، وهي تقع في الشمال الشرقي لفلسطين على ضفة بحيرة طبريا الغربية. فلما سمع اهلها بالصلح مع بيسان طلبوا الصلح، فصالحهم العرب، وكذلك شرقي الأردن، فقد اكتمل فتحه صلحا، ونزل القادة في المدائن والقرى وكتبوا الى الخليفة بالفتح.[٨١]

---

(٧٨) راجع بشأن أجنادين: المصدر نفسه، ص ٣٣ ــ ٤١.

(٧٩) الطبري، مصدر سبق ذكره، الجزء الثالث، ٢١٤٦/١، ص ٤٣٥.

(٨٠) المصدر نفسه، ٢١٥٥/١ ــ ٢١٥٨/١، ص ٤٤١ ــ ٤٤٣.

(٨١) عبدالرحمن ابن خلدون، «تاريخ العلامة ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر» (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦)، القسم الاول، المجلد الثاني، ص ٩٠٥.

في هذه الاثناء، كان امير المؤمنين عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء الراشدين، قد تولّى بعد وفاة ابـي بكر وكان حصار دمشق قد انتهى بالفتح وعهد الصلح. وقد اصبح هذا العهد نموذجا يحتذى به؛ فهكذا كان الصلح في بيسان وطبريا على غرار صلح اهل دمشق، وقد اصر اهل طبريا على مجيء شرحبيل بن حسنة اليهم لتوقيع الصلح، ففعل. وقد قضى هذا الصلح بأن يشاطر السكان المحليون العرب المسلمين منازلهم في المدائن. أما ما أحاط بها، فيدعون لهم نصفا ويجتمعون في النصف الآخر. ويُجبى عن كل رأس دينار كل سنة.(٨٢)

ولم يسلّم الروم، من ناحيتهم، فعادوا يجمعون جيوشهم. وكان ملكهم الارطبون قد انزل بالرملة جندا عظيما، وكذلك في بيت المقدس، وبعث بن العاص علقمة بن حكيم الفِراسي ومسروق بن العكيّ لقتال بيت المقدس، وبعث أيوب المالكي لقتال اهل الرملة، ثم زحف هو بنفسه للقاء الارطبون، وتقاتلا كيوم اليرموك او اشد. وقد انهزم الارطبون، وانسحب نحو بيت المقدس. وعادت جيوش المسلمين تجتمع في أجنادين جنوبـيّ بيت المقدس، ومن هناك توجه عمرو بن العاص لفتح الساحل الجنوبـي وباقي المدن؛ ففتح غزة، وسبسطية، ونابلس، واللد، وعمواس، وبيت جبرين، ويافا، ورفح.(٨٣)

يقول بعض المؤرخين ان فتح غزة كان اول الفتوح في فلسطين زمنيا؛ منهم من يقول ان ابن العاص فتحها، ومنهم من يقول انه ابو امامة الباهليّ، وقد حارب الروم في وادي العربة بأمر من يزيد بن ابـي سفيان، ثم لحق بهم الى الـدبّيـة بالقرب من رفح، ومنها الى داثن بالقرب من غزة.(٨٤)

وبصرف النظر هل كان فتح غزة قبل أجنادين او بعدها، ففي مطلع السنة الخامسة عشرة للهجرة (٦٣٦م) كانت فلسطين في معظمها قد دانت لجيوش العرب المسلمين، باستثناء الساحل الشمالي وأهم مدنه قيسارية، وباستثناء بيت المقدس.

ثامنا: فتح بيت المقدس

بعد ان استتب الامر في سوريا بفتح دمشق، كتب ابو عبيدة الى امير المؤمنين يستشيره في التوجه الى قيسارية او الى بيت المقدس. ولما قرأ امير المؤمنين الكتاب على قومه واستشارهم كعادته، قال له علي بن ابـي طالب:

---

(٨٢) الطبري، مصدر سق ذكره، الجزء الثالث، ٢١٥٩/١، ص ٤٤٤.

(٨٣) ابن خلدون، مصدر سق ذكره، القسم الاول، المجلد الثاني، ص ٩٤٨ ــ ٩٤٩.

(٨٤) الطبري، مصدر سبق ذكره، الجرء الثالث، ٢١٠٨/١، ص ٤٠٦.

يا أمير المؤمنين مُرْ صاحبك ان يصير الى بيت المقدس فيحدقوا بها ويقاتلوا أهلها فهو حير الرأي وأكبره، واذا فتحت بيت المقدس فاصرف جيشه الى قيسارية فانها تفتح بعد ان شاء الله كذا أخبرني رسول الله (٨٥)

فأرسل امير المؤمنين الى ابـي عبيدة يأمره بالقتال ويعلن قدومه.

كانت مدينة بيت المقدس، وهو الاسم الذي أطلقه عليها العرب، تدعى في العهد الروماني «ايليّا كابيتولينا»، وهو الاسم الذي اطلقه عليها الأمبراطور ايليّوس هدريان؛ فايليا اسم الأمبراطور، وكابيتولينا تعني معبد جوبيتر الكبير. والأمبراطور ايليّوس هدريان هو الذي منع اليهود من دخول القدس نهائيا في عهده في القرن الثاني للميلاد، وكان ذلك بعد ان حاصر المدينة ولم يترك فيها يهوديا واحدا، وأقام فيها معبدا لجوبيتر إله الرومان الكبير.(٨٦) وكان العرب، في مراسلاتهم وأدبياتهم القديمة، يقولون أيضا انها مدينة ايليّا.

وفي كتابات هيرودوتس ورد الاسم «قديتس»، ويقول المستشرق اليهودي الفرنسي سالومون مونك، في كتابه «فلسطين»، ان هذا الاسم هو على الأرجح «القدس» محرفا في اليونانية عن النطق الآرامي «قديشتا».

أما تسمية أورشليم فقد عرفت قبل العبريين؛ فهي، في لوحات تل العمارنة التي تعود الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، تسمى «اوروسالم». أما في النقوش الآشورية، التي تعود الى عهد القرن الثامن قبل الميلاد، فتسمى «اوروسليمو». وفي النقوش اليونانية من عهد الاسكندر، اي من القرن الرابع قبل الميلاد، تسمّى «هيروسوليما» او «سوليما». أما التسمية العبرية «يروشولايام» ومن ثم «اورشليم»، فأصل المعنى بالسامية «مدينة السلام». (٨٧)

وهكذا، عرفت مدينة القدس عبر التاريخ منذ عهد اليبوسيين، بُناتها الأوائل، بمدينة «يبوس»، ثم «اورشليم»، ثم «قديتس»، ثم «ايليّا كابيتولينا»، ثم بيت المقدس او القدس.

وما ان تسلم ابو عبيدة الكتاب بالتوجه الى مدينة بيت المقدس، حتى امر بأن يتوجه خمسة وثلاثون ألف مجاهد في سبعة جيوش، نحو أسوار المدينة، على ان ينطلقوا من دمشق في سبعة أيام متلاحقة، وكل جيش يتألف من خمسة آلاف رجل.

في اليوم الاول، انطلق خالد بن الوليد بخمسة آلاف فارس، وفي اليوم الثاني يزيد بن ابـي سفيان، وفي الثالث شرحبيل بن حسنة، وهكذا حتى اكتمل وصول الجيوش السبعة، ونزولها بازاء

---

(٨٥) الواقدي، مصدر سبق ذكره، الجزء الاول، ص ١٥١ ــ ١٥٢.

(٨٦) حسن ظاظا، «القدس مدينة الله ام مدينة داود» (الاسكندرية. جامعة الاسكندرية، ١٩٧٠)، ص ٢٧ ــ ٢٨

(٨٧) راجع بشأن تسمية القدس: المصدر نفسه، ص ٧ ــ ٩.

المدينة؛ وقد مرّت الأيام الأولى من الحصار من دون حرب ولا مفاوضات وفي اليوم الخامس تقدم يزيد بن ابي سفيان يعرض الشروط الثلاثة على الروم، ولما رفضوها كتب يزيد لأبي عبيدة يعلمه بما جرى، فردّ عليه ابو عبيدة يأمره بالقتال ويعلن قدومه.

وابتدأ القتال، وكان ضاريا منذ بدايته، وقد رمى الروم العرب من أعالي الأسوار بالنشاب كالجراد. واستمر القتال حتى اليوم الحادي عشر اذ وصل ابو عبيدة، وظن الروم انه امير القوم اي امير المؤمنين، وقد وصل للتفاوض، وكان البطريرك على استعداد لتسليمه المدينة، لايمانه بأن صاحب محمد المسمى بعمر هو الذي ستفتح المدينة على يديه. فلما اكتشف ان محدّثه من وراء الأسوار ليس بعمر، عاد من غير ان يخاطب أبا عبيدة بكلمة واحدة، وأمر باستئناف القتال [٨٨]

وعادت الحرب بين الفريقين، وكان الجو شتاء باردا، والعرب ما اعتادوا القتال في البرد، لكنهم صمدوا، كما ان المدينة صمدت في وجههم. وقد لجأ العرب الى النبال فكانت تسعفهم، وخصوصا ان الروم لم يكترثوا لأهمية النبال في الحروب، فكانت رشقاته تنهال عليهم، وخصوصا من أهل اليمن البارعين في رشقه كالابر بمهارة وغزارة. وهكذا استمر القتال اربعة اشهر من غير احراز نصر او تقدم او ثغرة في الأسوار فالفريقان كانا يعلمان مكانة هذه المدينة وأهميتها وقدسيتها لكن في نهاية الشهر الرابع، اجتمع اهل المدينة الى البطريرك، وطلبوا منه التفاوض مع العرب ليعرفوا ما يريدونه، فإما أنْ يلبّوا مطالبهم وإما ان يفتحوا الأبواب ويخرجوا جميعا للقتال، فينتصرون او يهزمون

وجرت المفاوضات. وأوضح ابو عبيدة للبطريرك مكانة المدينة واسراء الرسول الكريم اليها، وانهم لن يعودوا من دون فتحها. غير ان البطريرك رفض شروط ابي عبيدة، وهي شروط الفتح الثلاثة، وقال انهم سيقاومون عن آخرهم. كما قال: «ولسنا كمن لاقيتم من أهل المدن الذين أذعنوا لكم بالجزية فانهم قوم غضب عليهم المسيح فأدخلهم تحت طاعتكم ونحن في بلد من اذا سأل المسيح ودعاه اجاب دعوته. .» وكرّر البطريرك انه لن يسلم المدينة إلا الى أمير القوم، فهو رجل شديد لا تأخذه في الله لومة لائم. [٨٩]

ولما تسلم امير المؤمنين رسالة من ابي عبيدة يطلب منه المجيء حقنا للدماء، استشار أصحابه كعادته؛ فكان رأي عثمان بن عفان عدم التوجه الى ايلياء، حتى يشعر الروم باستخفاف العرب في قتالهم، فيعطوا الجزية. وكان رأي ابي الحسن علي بن ابي طالب مغايرا، فقد أشار بأن يتوجه امير المؤمنين حالا الى بيت المقدس ليكفي المسلمين مؤونة المشقة مما أصابهم من البرد والقتال، وهذا مع

---

(٨٨) الواقدي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٢ ـ ١٥٤.

(٨٩) المصدر نفسه، ص ١٥٤ ـ ١٥٦.

حسبان المدد والمؤونة التي قد تصل الى الروم. وعندها قال عمر بن الخطاب: «لقد أحسن عثمان النظر في المكيدة للعدو، وأحسن علي المشورة للمسلمين فجزاهما الله خيـرا ولست آخذا إلا بمشورة علي.»(٩٠)

وخرج مع امير المؤمنين جماعة من الصحابة وأبطال اليرموك، وكان التمر طعامهم طوال الطريق، وقد ركبوا أياما وليالي حتى أشرفوا على أسوار المدينة. ولما حانت صلاة الظهر أَذَّن فيهم بلال، مؤذن الرسول، وقد كان بعد وفاة الرسول لا يؤذن إلاّ في المناسبات العظيمة، وقد أَذَّن يوم اليرموك، كما أَذَّن يوم فتح بيت المقدس.(٩١)

في اليوم التالي، خرج عمر على بعيره وهو يرتدي مرقعته الشهيرة، ولم يتقدم معه سوى ابـي عبيدة. وكان البطريرك صفرونيوس، وهو البطريرك الرابع والخمسون في مدينة ايلياء، قد خرج وبين يديه الأساقفة والرهبان والصليب الذي لا يحمله الروم عادة إلا في المناسبات الكبيرة. ولما وقع نطر البطريرك على عمر بن الخطاب وعرفه، اعلن تسليم المدينة، فأسرع الروم يفتحون الأبواب ويخرجون الى الفاتح العادل يسألونه العهد والميثاق. وسجد عمر لله تعالى، وقال لهم: «ارجعوا الى بلادكم ولكم الذمة والعهد.»(٩٢) وفي يوم الغد، دخل القدس وأقام فيها عشرة أيام. وفي القدس، مدينة التاريخ، كشف عن الصخرة وأمر ببناء المسجد عليها. وكان ذلك في السة الخامسة عشـرة للهجرة.(٩٣)

وأعطى امير المؤمنين المدينة عهد الأمان، وفيه طمأن أهلها الى الحرية التامة في ممارسة شعائرهم الدينية، والحرية التامة في البقاء او الانتقال:

> بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما اعطى عبدالله عمر امير المؤمنين اهلَ ايلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها، انّه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيِّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضارّ احد منهم، ولا يسكن بايلياء معهم احد من اليهود، وعلى اهل ايلياء ان يعطوا الجزية كما يُعطي اهل المدائن، وعليهم ان يخرجوا منها الروم واللصوت (اللصوص)؛ فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن؛ وعليه مثل ما على اهل ايلياء من الجزية، ومن احب من اهل ايلياء ان يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بِيَعهم وصُلُبهم فانهم آمنون على انفسهم وعلى بِيَعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهـم؛ .. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمّة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص،

---

(٩٠) المصدر نفسه، ص ١٥٦ ــ ١٥٧.

(٩١) عجاج نويهص، «فتح القدس» (بيروت. منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨٠)، ص ٨٤ ــ ٨٥.

(٩٢) الواقدي، مصدر سبق ذكره، الجزء الاول، ص ١٦٠ ــ ١٦١

(٩٣) ابن خلدون، مصدر سبق ذكره، القسم الاول، المجلد الثاني، ص ٩٤٩.

وعبدالرحمن بن عوف، ومعاوية بن ابـي سفيان. وكتب وحضر سنة خمس عشرة [٩٤]

وأعطى عمر كتب الأمان لسائر المدن في عهود متشابهة نصا ومعنى، باستثناء عدم السماح لليهود بالسكن في المدن؛ فهذا قد اقتصر على مدينة ايلياء بناء على طلب من البطريرك.

وبعد فتح ايلياء، أعطى امير المؤمنين ارض فلسطين وأرض القدس والساحل ليزيد بن ابـي سفيان، كما أعطى أبا عبيدة من حوران الى حلب، وجعله واليا على القسمين، اي على بلاد الشام كلها. أما بشأن الادارة، فقد قسم فلسطين الى قسمين، فجعل علقمة بن مجزّر على قسمها الجنوبـي ومركزه ايلياء، وعلقمة بن حكيم على القسم الآخر ومركزه الرملة. [٩٥]

تاسعا: فتح قيسارية

تأخر فتح قيسارية سنوات بعد ايلياء، وكانت آخر مدينة تفتح في فلسطين. وهي تقع على الساحل الشمالي بين يافا وحيفا، وقد كانت تعتبر العاصمة السياسية للبلاد، إذ كانت مواصلاتها البحرية مع القسطنطينية وقبرص منتظمة، كما كانت مقرّ الحكم. أما ايلياء فكانت «العاصمة» الدينية، كما كانت غزة «العاصمة» التجارية، تمرّ بها طرق القوافل من الجزيرة والعراق، اي من الشرق الى مصر. [٩٦]

في السنة الثامنة عشرة للهجرة، كان قحط شديد وجدب في فلسطين أعقبهما مجاعة وطاعون. وقد اهلك الطاعون، الشهير بطاعون عمواس، العديد من الناس، ومنهم ابو عبيدة بن الجراح ويزيد بن ابـي سفيان. وتولى مكان يزيد في القيادة اخوه معاوية. [٩٧] وقد ادت كارثة الطاعون، بالاضافة الى المدد البحري المتواصل الذي كانت تلقاه قيسارية، الى التأخر في فتحها، فلم تفتح قبل السنة التاسعة عشرة للهجرة، وقيل العشرين.

يروي العديد من المؤرخين القدماء، ومنهم الطبري وابن خلدون، ان فتح قيسارية كان على يد معاوية بن ابـي سفيان. [٩٨] أما الواقدي فيروي ان فتحها كان على يد عمرو بن

---

(٩٤) الطبري، مصدر سبق ذكره، الجزء الثالث، ٢٤٠٦/١ ـ ٢٤٠٧/١، ص ٦٠٩.

(٩٥) عجاج نويهض، «فتح القدس»، مصدر سبق ذكره، ص ٨٣.

(٩٦) المصدر نفسه، ص ٤٩.

(٩٧) ابن خلدون، مصدر سبق ذكره، القسم الاول، المجلد الثاني، ص ٩٦٩.

(٩٨) الطبري، مصدر سبق ذكره، الجزء الثالث، ٢٣٩٨/١ ـ ٢٣٩٩/١، ص ٦٠٤؛ ابن خلدون، مصدر سبق ذكره، القسم الاول، المجلد الثاني، ص ٩٤٧.

العاص.[٩٩] وأما البلاذري فقد ذكر انه قيل فتحها معاوية وقيل فتحها عمرو، وقد اجمع الكل على ان عمرو كان أول من حاصرها، فكان يقيم عليها ما أقام في فلسطين منذ السنة الثالثة عشرة للهجرة؛ فاذا كانت هناك حرب مع الروم كان هناك، فقد شهد أجادين وفحل والمرج ودمشق واليرموك وايلياء وقيسارية، ومن قيسارية توجه الى مصر

ثم يجزم البلاذري ان يزيد بن ابي سفيان توجه اليها في سبعة عشر ألفا، وكانت قد حوصرت، فقاتله أهلها، وفي آخر السنة الثامنة عشرة توفي، واستخلفه اخوه معاوية الذي فتحها قسرا بعد ان كانت قد حوصرت سبع سنوات (في شوال ١٩هـ).[١٠٠]

من المؤرخين المعاصرين من يجزم فتحها على يد معاوية كفيليب حتي؛ فهو يقول ان المساعدات التي كانت تصل اليها بحرا اخرت فتحها حتى سنة ٦٤٠م.[١٠١] ومنهم من يجزم لعمرو بن العاص. كما ذكر حسن ابراهيم حسن ان عمرو بن العاص قد بقي في فلسطين مع جيشه للقضاء على قوة الروم، وكان قسطنطين ابن هرقل قد عسكر في قيسارية بجيش كثيف، لكنه لما علم بسقوط القدس وسقوط صور، انسلّ من قصره خفية ورحل الى القسطنطينية كما فعل ابوه من قبله، ولمّا علم الأهلون بهرب قسطنطين سلموا صلحا لعمرو.[١٠٢]

وفي رواية الواقدي ان جيش قسطنطين وجيش عمرو بن العاص تلاقيا في موضع قرب المدينة يقال له محلّ. وكان جيش الروم اربعة أضعاف العرب. وصمد العرب في هذه المعركة، وقد شاهد قسطنطين هذه المعركة بنفسه، وبعدها طلب التفاوض مع افصح العرب لسانا. ولما ذهب اليه بلال بن حمامة، مؤذن الرسول، رفض مخاطبته لأن الملوك لا يخاطبون العبيد؛ فذهب اليه عمرو بن العاص، وجرى بينهما حوار تاريخي حاول خلاله قسطنطين استمالة عمرو بذكر أواصر القربى مع آدم ونوح وابراهيم، ومما قاله عمرو:

> . وهذه الأرض التي انتم فيها ليست لكم وهي ارض العمالقة من قبلكم... والعرب كلهم ولد سام وهم قحطان وطسم وجديس وعملاق وهو ابو العمالقة حيث كانوا من البلاد وهم الجبابرة الذين كانوا بالشام فهذه العرب العاربة لأن لسانهم الذي جبلوا عليه العربية ..[١٠٣]

---

(٩٩) الواقدي، مصدر سبق ذكره، الجزء الثاني، ص ١٧ ــ ١٨.

(١٠٠) احمد بن يحيى بن جابر البلاذري، «فتوح البلدان»، تحقيق عبدالله وعمر أنيس الطباع (بيروت: دار النشر للجامعيين، ١٩٥٧)، ص ١٩١ ــ ١٩٢.

(١٠١) Hitti, *op cit*, pp 416-417.

(١٠٢) حسن إبراهيم حسن، «تاريخ الاسلام: السياسي والديني والثقافي والاجتماعي» (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السادسة، ١٩٦١)، الجزء الاول، ص ٢٣١.

(١٠٣) الواقدي، مصدر سبق ذكره، الجزء الثاني، ص ١٣.

وعادوا الى القتال. وقد ظن الروم انهم يقتلون قادة العرب بالمبارزات، فينهار جيشهم. وقد قتل من الفريقين الكثير، إلا ان خسارة الروم كانت اكبر بخسارة البطريق قيدمون، خال قسطنطين، فهو من اعظم قادة الروم. وقد اشتد المطر في أثناء القتال، وعاصت الأقدام والخيل في الوحل، وعاد قسطنطين الى قيسارية، وقد سقطت صور خلال ذلك، فجمع قسطنطين أمواله وخزائنه وحدمه، ورحلوا جميعا بالمراكب نحو القسطنطينية، فخرج اهل قيسارية الى عمرو يصالحوه ويسلموا المدينة، فصالحهم على مائة ألف درهم وما ترك قسطنطين من حرائنه. وقد دخلها يوم الاربعاء في العشر الأول من رجب الفرد سنة ١٩هـ.(١٠٤)

لم تكن قيسارية اهم المدن الساحلية فحسب، وانما أيضا الحصن الأخير للروم بعد انهيار مدنهم وقلاعهم في سوريا كلها. وليس ادل على أهميتها، وعلى تمسّك الروم بالبقاء في آن واحد، من ان هرقل، الأمبراطور الذي ودّع سوريا وهو هارب منها بجملته المشهورة: «عليك السلام يا سوريا، سلاما لا اجتماع بعده»،(١٠٥) هذا الأمبراطور ترك ابنه قسطنطين في قيسارية، وكان يمده بالرجال والمراكب والمعدات بصورة لا تنقطع. إلا انه بسقوط قيسارية، سقطت أحلام الروم نهائيا بحكم سوريا.

عاشرا: خلاصة

ان مطالعة سيرة الفتح تتكشف لنا عن الملاحظات التالية:

١ ــ استغرق الفتح ما يقرب من سبع سنوات، تخلّلتها حروب متعددة، كان من ابرزها لقاء عمرو والروم في السهل، ومعارك أجنادين وبيسان وغزة وبيت المقدس وقيسارية. وقد كانت الحروب في السهول وحول أسوار المدن قاسية طاحنة، ولم تكن بالسهولة التي يتعمد البعض تصويرها، وهي ترتكز على ضعف الروم وهم في انهيار متواصل، مما سهل على العرب الفتح. فالروم كانوا فعلا في انهيار، لكن أحداث المعارك وتطوراتها تثبت انهم كانوا بعد خسارة كل معركة يجمعون كل قواهم لما بعدها وابراز هده الحقيقة كان الهدف وراء سردنا للعديد من التفاصيل في بعض المعارك.

٢ ــ ليس من شك في ان قوة الايمان واعتقاد العرب المسلمين اعتقادا راسخا بالنصر والجنة، كانا العنصر الأهم؛ فالشعارات الدينية التي اطلقتها الفتوحات العربية الاسلامية، هي كشعارات الديمقراطية التي أطلقتها الحربان العالميتان الاولى والثانية، ومؤداها الحث على القتال من اجل مبادىء عليا

(١٠٤) المصدر نفسه، ص ٩ ــ ٢٢.

(١٠٥) الطبري، مصدر سق ذكره، الجزء الثالث، ١/٢٣٩٥، ص ٦٠٣.

٣ ــ كان للعامل الاقتصادي اهميته أيضا، بضرورة النزوح عن الجزيرة والصحراء ومن هذه الزاوية، فالفتوحات هي موجة من موجات الهجرة السامية، وهي تمتاز بأنها آخر الموجات الكبرى عبر التاريخ.

وهكذا، بائتلاف العاملين الديني والاقتصادي، وبفتح ارض الشام كلها، اصبحت الشام مقرا لارسال الجيوش لاستكمال الفتوحات شرقا وغربا.(١٠٦)

٤ ــ ارتبطت بعض الفتوحات بأسماء قادتها ارتباطا وثيقا، كموسى بن نصير وطارق بن زياد بالأندلس، وعمرو بن العاص بمصر. كما ارتبطت بعض المعارك بقادتها أيضا، كسعد بن ابـي الوقاص بالقادسية، وخالد بن الوليد باليرموك، إلا انه مما يميز الفتوح في فلسطين انها لم ترتبط باسم قائد او فاتح: فخالد بن الوليد بطل اليرموك هو أيضا بطل أجنادين، وعمرو بن العاص فاتح مصر هو أيضا فاتح فلسطين. ومع ذلك، فلم يرتبط اسم ابن العاص بفلسطين كما ارتبط بمصر، وهو الذي خاض جميع المعارك على ارضها، وطوال السنوات السبع. ولعل من الأسباب وراء ذلك، ان صفوة القادة والأبطال قد شاركت في حروب فلسطين. ومع العديد من الامدادات التي ارسلت، فقد توجهت الجيوش بكل قواها وبامرة ابـي عبيدة مرتين الى فلسطين: فكانت الاولى في أجنادين، والثانية في بيت المقدس. فالفتح لم يكن سهلا، وأرض فلسطين كانت عليها اول المعارك وآخرها في فتوح الشام.

ومن الأسباب أيضا: الأهمية الكبرى لبيت المقدس ومكانتها الدينية لدى المسلمين؛ فهي المدينة الوحيدة التي سار لفتحها امير المؤمنين، ولا يعقل ان يعلو اسم على اسم امير المؤمنين. وكذلك، لا يعقل ان يرتبط اسم امير المؤمنين بفتح بلد ما او مدينة ما، وهو الذي بأمره وارادته كانت الفتوحات كلها.

---

(١٠٦) Hitti, *op.cit*, pp 418-421

الفصل الخامس
الحكم العربي والإسلامي

خلال العهود العربية والاسلامية المتتابعة، كانت فلسطين جزءا لا يتجزأ من الدولة الكبرى، وكانت لها اهميتها الخاصة في عواصم الخلافة، وخصوصا في عهود الخلفاء الراشدين، والأمويين، والعباسيين. وفي مرحلة تضعضع الدولة العباسية في بغداد، تبعت فلسطين الطولونيين، فالأخشيديين، فالفاطميين، فالسلاجقة، ومن بعد هؤلاء الأيوبيين، فالمماليك. وكان العهد العثماني هو العهد الأخير حتى القرن العشرين.

ليس الهدف من هذا الفصل ان نسرد تاريخ فلسطين خلال ثلاثة عشر قرنا من الزمن، وانما ان نلقي الأضواء على هذه العهود كلها لاستخراج السمات الواضحة والحقيقية لهؤلاء السكان على ارض فلسطين، في مطلع القرن العشرين.

أولا: التطور السياسي

بانتهاء فتوح الشام ومصر، وبانتقال الحكم من عهد الخلفاء الراشدين الى عهد الخلفاء الأمويين، لم تتوقف الفتوحات؛ لقد كانت سمة العهد الأموي اتساع الأرض الخاضعة لسلطان العرب في القارات الثلاث، آسيا وأفريقيا وأوروبا. وقد سمي عهد الوليد بن عبدالملك (٨٦هـ ــ ٩٦هـ / ٧٠٥م ــ ٧١٥م) عهد الفتوحات؛ اذ تم فتح البلاد شرقا بقيادة قتيبة بن مسلم حتى بخارى وسمرقند (حاليا اوزبكستان في الاتحاد السوفياتي)، وبقيادة محمد بن قاسم الثقفي حتى ايران والهند وأفغانستان. وغربا، تم فتح الأندلس (اسبانيا) بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد.

في عهد سليمان بن عبدالملك (٩٦هـ ــ ٩٩هـ / ٧١٥م ــ ٧١٧م)، فتحت بلاد جرجان وطبرستان جنوبي بحر قزوين. وفي عهد هشام بن عبدالملك (١٠٥هـ ــ ١٢٥هـ / ٧٢٤م ــ ٧٤٣م)، وصلت الفتوحات الى اقصاها؛ فقد تمكن عبدالرحمن الغافقي من اخماد الفتنة في شمال

افريقيا، وبعد ان ولّاه هشام الأندلس سار الى الشمال (عبر الحدود الاسبانية ـ الفرنسية) حتى وصل الى بوردو فاستولى عليها، وتوجّه الى ليون. وفي سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م، كانت المعركة الفاصلة في السهول بين تور وبواتييه في غرب فرنسا، وهي المعركة التاريخية المعروفة ببلاط الشهداء، لكثرة ما سقط فيها من شهداء، وبينهم القائد الغافقي. وقد ادى استشهاده الى هلع الجنود فتفرقوا في السهول، وكسب المعركة شارل مارتل، القائد الفرنسي. وحتى كانت معركة بلاط الشهداء، كانت فرنسا بنصفها الجنوبي قد دانت للغافقي، كما كانت الأندلس او شبه جزيرة ايبيريا كلها مع العرب، كذلك كان من افريقيا الساحل الشمالي بأسره ـ اي من صحراء سيناء حتى المحيط الاطلسي. ومن آسيا، امتد حكم العرب المسلمين من شواطىء المتوسط والبحر الاحمر شرقا حتى حدود الصين ومرتفعات المغول.

تم في العهد الاموي الاستيلاء على العديد من جزر البحر المتوسط، حتى اصبح العرب فعلا سادة البر والبحر، فأخذوا جزءا من الأرخبيل اليوناني وقبرص ورودس، وبعض الجزر من صقلية والبليار وكريت وكورسيكا وسردينيا. وهذا ما دعا ول ديورانت الى القول في كتابه الموسوعي «قصة الحضارة»:

> لم يكن احد في ذلك الوقت يحلم انه لن يمضي قرن من الزمن حتى يكون أولئك البدو قد فتحوا نصف أملاك الدولة البيزنطية في آسيا وجميع بلاد الفرس ومصر ومعظم شمالي افريقيا وساروا في طريقهم الى اسبانيا. والحق ان ذلك الحادث الجلل الذي تمخضت عنه جزيرة العرب والذي اعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المتوسط ونشر دينها الجديد في ربوعه، لهو اعجب الظواهر الاجتماعية في العصور الوسطى [(١٠٧)]

واكبت عملية الفتوحات عملية نزول القبائل وسكناها في ارجاء «الأمبراطورية». وكان عثمان بن عفان أول من أطلق للقبائل العربية المتعددة ان تخرج من الجزيرة وتنتشر في أنحاء «الامبراطورية». [(١٠٨)] ولم تتوقف عملية الانتقال من الجزيرة الى خارجها يوما، وان تكن قد اشتدت في بعض العهود، كما حدث في عهد هشام. وقد شجع الامويون سكان الجزيرة على السكن في السواحل باقطاعهم الأراضي، وكان الهدف من وراء ذلك تعريب المدن اليونانية. [(١٠٩)]

اهتم العرب، كذلك، بتحصين المدن الساحلية لرد هجمات الروم البيزنطيين. وقد قام

---

(١٠٧) ولْ ديورانت، «قصة الحضارة»، ترجمة محمد بدران (القاهرة: جامعة الدول العربية، الادارة الثقافية، لا تاريخ)، الجزء الثاني، المجلد الرابع، رقم ١٣، ص ٧

(١٠٨) مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠.

(١٠٩) لمراجعة أسماء القبائل والعائلات راجع. مصطفى الدباغ، سلسلة فلسطينيات، مصدر سبق ذكره، في نهاية كل فصل من الجزأين الثاني والثالث.

معاوية بن ابـي سفيان، مؤسس الدولة الاموية، بتوسيع دار صناعة السفن الحربية في عكا.

في عهد عبدالملك بن مروان (٦٥هـ ــ ٨٦هـ / ٦٨٥م ــ ٧٠٥م)، الذي يعتبر المؤسس الثاني للدولة الاموية، تم تعريب الدواوين؛ فقد كانت السجلات باليونانية في بلاد الشام، وبالفارسية في فارس، وبالقبطية في مصر. ومنذ ذلك الوقت، اصبحت اللغة العربية لغة الدولة الرسمية، وأصبحت في فلسطين اللغة المحكية الثالثة بعد الكنعانية والآرامية.

لم يكن انتشار العربية صعبا في فلسطين؛ فهي، منذ عهد الفتح حتى عهد عبدالملك، قد اصبحت لغة السكان جميعهم، باستثناء البيزنطيين. وقد أجبر عبدالملك هؤلاء على التحدث بها ليسهل على عيونه من العرب الاحتكاك بهم ومعرفة أخبارهم. وفي الكنائس أيضا، اصبحت الصلوات في عهده تتلى بالعربية في بيت المقدس بعيد الفتح، بينما بقيت الصلوات في لبنان وغيره من بلاد الشام تتلى بالآرامية او اليونانية.

أما القمة في أعمال عبدالملك لتعريب بيت المقدس والتركيز على اهمية المدينة، فقد كانت بناء المسجد الأقصى. والهدف الأساسي من بنائه ان تصبح بيت المقدس مدينة يؤمها العرب والمسلمون للصلاة، كما للطواف والاقامة ولو الى حين، وكما للتجارة؛ وفي ذلك كله تأكيد للوجه العربـي الاسلامي ــ دينيا وحضاريا ــ في مقابل الوجه البيزنطي السابق للمدينة وقد كانت المدينة، أيام عبدالملك، مملوءة بالمباني البيزنطية الرائعة الهندسة، فكان لا بدّ من ان يضاهيها الأقصى، بل يتفوق عليها عمارة وابداعا.[١١٠]

وجاء عبدالملك الى بيت المقدس من دمشق، وأرسل الكتب الى الامصار جميعا، مستشيرا الولاة والرعية في عزمه على بناء صخرة بيت المقدس والمسجد الأقصى، فوردت عليه الكتب بالموافقة والدعاء.[١١١] وما زالت حكمة عبدالملك في هذا الاختيار بادية في تاريخ المدينة لدرء الخطر عنها منذ القرن السابع حتى اليوم؛ فقد حماها من الخطر البيزنطي يومذاك، كما يحميها من الخطر الصهيوني في القرن العشرين؛ «فتهويد القدس» عملية لم يقف ضدها العالم العربـي والاسلامي فحسب، بل ايضا العالم بأسره، إن لم يكن احتراما لمشاعر العرب والمسلمين فحشية منهم.

بانتقال مركز الحكم من دمشق الى بغداد، لم تتغير سياسة العباسيين في تعريب المدن والأمصار؛ فكان لأبـي جعفر المنصور الفضل الأكبر في تعريب لبنان والساحل، اذ قضى على عصابات الروم الوافدة الى جبال لبنان الشمالية والوسطى من وراء انطاكية، او القادمة من البحر، لتحدث الاضطراب

(١١٠) عجاج نويهض، «ابو جعفر المنصور وعروبة لبنان: لخم والمردة»، مصدر سبق ذكره، ص ٢١ ــ ٢٢

(١١١) محمود العابدي، «محنة بيت المقدس» (عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، الطبعة الثانية، ١٩٧٠)، ص ٦٠ ــ ٦١.

في طول البلاد الساحلية، من اللاذقية شمالا حتى عسقلان وغزة جنوبا. وقد اتجه المنصور نحو تقوية العنصر العربي في هذه المناطق كلها بالسكان من العرب المقاتلين.[112]

* * *

على الصعيد العلمي، كان لترجمة امهات الكتب في شتى العلوم وفي الفلسفة عن اليونانية والفارسية والهندية في العصر العباسي، وخصوصا في عهد المأمون، الأثر الأكبر ليس في بناء حضارة مزدهرة فحسب، وانما أيضا في بناء حضارة مميزة حقا استوعبت ما قبلها، فأحسنت الاستيعاب والنقل، وقدمته لما بعدها تراثا انسانيا خالدا؛ فلولا الترجمات العربية لاستمرت اوروبا في غياهب القرون الوسطى، ولاندثرت عبقريات المدنيات الاولى التي ما زلنا نصنفها في عصرنا الحاضر من الكلاسيكيات.

* * *

على الصعيد الديني، كان لانتشار علم الحديث وأصول الفقه والتفسير وسائر العلوم الدينية، منذ بداية العصر العباسي، كما كان لتأثير الأئمة الكبار، ولانتشار المساجد في كل البلاد دورا للعبادة كما دورا للعلم، الدليل الواضح على جوهر الفكر الاسلامي، وهو الجوهر القائم على التوازن بين العقل والنقل والحكمة والشريعة.[113]

* * *

ونوجز في موضوع التطور السياسي لهذه العهود على ارض فلسطين، فنقول انه بصرف النظر عن شكل الحكم، أخلافة كان ام إمارة؛ وبصرف النظر عن ماهية الدول، سواء أكانت مركزية ام دويلات شبه مستقلة، فان هذه العهود قد قامت، في معظم الحالات، على اسس شبيهة بالدول المعاصرة، من حيث الحكم بمشورة اهل الرأي، والقضاء المستقل، وحقوق الرعية الاجتماعية؛ ومن حيث الأركان — او ما ندعوه في يومنا بالهوية او الانتماء — فقد كانت العروبة والاسلام ركنيها.

ليس هنا المجال لبحث نظري في المفاهيم القومية، قديمها وحديثها. لكن يجدر القول، باختصار، ان العروبة بمفهوم الأمس تعني لغة القرآن الكريم، وتعني البلاغة والشعر، وتعني تاريخ الجزيرة موطن الرسول الأمين وآل الرسول، وتعني رجال الصحابة، وتعني رجال الفتح. وما من مرة نشأ التناقض بين العروبة والاسلام في عهود الخلفاء والسلاطين العظام والأقوياء، حتى لو لم يكن هؤلاء من اصل عربي، وذلك لأنهم عرفوا العروبة أرضا للوحي، وعرفوا رجالها واسطة لنشر الدين

(١١٢) عجاج نويهض، «ابو جعفر المنصور وعروبة لبنان: لحم والمردة»، مصدر سبق ذكره، ص ٤ — ٥.
(١١٣) راجع بشأن مميزات الحضارة العربية: محمد عمارة، «العرب والتحدي»، سلسلة عالم المعرفة — رقم ٢٩ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٠)، ص ١٤ — ٢١.

الحنيف. فما من حاكم احيى ذكرى الصحابة الأوائل ورجال الفتح، فشيد المقامات لهم على ارض فلسطين كالظاهر بيبرس التركي الأصل؛ ولم يكن العرب المسلمون، في عهد عمر بن عبدالعزيز او هارون الرشيد، اكثر اطمئنانا على أمنهم وبقائهم وعروبتهم مما كانوا عليه في عهد احمد بن طولون التركي الاصل، او صلاح الدين الكردي الأصل؛ وذلك لأن القادة العظام، كابن طولون وصلاح الدين، كان حكمهم بالعدل والايمان، وكان لسانهم العربية، وكانت مجالسهم مشرعة للعلماء والأدباء والفقهاء، وكان همهم الاكبر المحافظة على شعائر الدين الحنيف والمحافظة على حقوق الانسان، وإن لم يكن مصطلح «حقوق الانسان» شائعا يومذاك إلا انه كان ممارسا وتاريخ صلاح الدين يشهد على انه كان من اكثر الحكام احتراما لحقوق الانسان

أما الحديث عن التيارات الشعوبية، وعن محاولات الفرس للسيطرة على الحكم تارة، ومحاولات الأتراك تارة اخرى، فقد كان هذا يحدث في عهود الخلفاء الضعاف، فتنشأ في اثره الانقسامات والدويلات، ولا يعقل، أساسا، ان يستمر حكم مركزي واحد في حكم «امبراطورية» كهذه شاسعة الأطراف طوال ثلاثة عشر قرنا.

وصفوة القول، انه على الرغم من الانقسامات والدويلات والخلافات، فان استمرارية اللغة العربية، واستمرارية بناء المجتمع مجتمعا عربي الانتماء والحضارة والثقافة، كانت عملية مستمرة، وإن قويت أحيانا وضعفت أحيانا اخرى.

وفلسطين بالذات، كانت اسرع من سائر الأمصار في الانتقال من العهد البيزنطي الى العهد العربي، اي في تقبل الاسلام والتعريب على حد سواء، وذلك لكثرة القبائل التي هاجرت اليها قبل الاسلام، ثم استمرت بعد الاسلام، وأيضا للاهتمام الخاص الذي أولاها اياه العديد من الخلفاء نظرا الى اهميتها وأهمية بيت المقدس.

ثانيا: مكانة فلسطين وبيت المقدس

بالاضافة الى ان بيت المقدس هي المدينة الوحيدة التي سار لفتحها امير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقد حرص اثنان من الخلفاء الامويين على اخذ البيعة في بيت المقدس: اولهما كان معاوية بن ابي سفيان. فبعد ان تم الصلح بينه وبين الحسن بن علي، أخذ معاوية البيعة لنفسه في الكوفة ثم في «ايلياء»، حيث بويع له بالخلافة في سنة ٤٠هـ.[١١٤] وثانيهما سليمان بن عبدالملك؛ فقد توجه بعد

(١١٤) الطبري، مصدر سبق ذكره، الجزء السادس، ص ٩٢ ـ ٩٣.

وفاة أخيه الوليد الى بيت المقدس وبويع فيها، وقد كان يتقبل البيعة في مسجد الصخرة، «وقد همّ بالاقامة ببيت المقدس واتخاذها منزلا وجمع الأموال والناس بها.»(١١٥)

استهوت فلسطين الكثير من الخلفاء الذين كانوا يمضون فصولا كاملة فيها. فكان معاوية وابنه يزيد، من بعده، يمضيان فصل الشتاء بجانب بحيرة طبريا، وكذلك سليمان في الرملة، ومروان بن الحكم في الصنبرة من أجمل بقاع الغور، وقد توفيّ في طبريا، ومن بعده ابنه عبدالملك الذي كان يشتو في الصنبرة أيضا،(١١٦) وقد توفي حفيده هشام قبل تحقيق امنيته في سكنى أريحا.

أما عمر بن عبدالعزيز، فقد طلب من جميع ولاته ان يزوروا بيت المقدس ويقسموا يمين الطاعة والعدل بين الناس في مسجدها.(١١٧)

وفي عهد ابـي جعفر المنصور، لما ثار الخوارج عليه في افريقيا، سار على رأس الحملة حتى بيت المقدس، وهناك ودّع الحملة وأقام أياما.(١١٨) وكان الكثيرون من الخلفاء يمرون بالمدينة في اثر قيامهم بفريضة الحـج المباركة، ومنهم المنصور والمهدي وسواهما.(١١٩)

أما سيرة الناصر صلاح الدين في فلسطين، وقيادته الجيش في معركة حطين، واسترداده بيت المقدس من الصليبيين، فهي الدليل لا على اهمية بيت المقدس عمارة وحجارة فقط، وانما أيضا على كونها المقياس والمعيار لسلطة الدولة، وعلى كونها احد الرموز الخالدة في التراث العربـي الاسلامي. وليس هناك من تاريخ مدينة يظهر من خلاله الترابط الوثيق بين الاسلام والعروبة وجهين لعملة واحدة كتاريخ بيت المقدس؛ هذا التاريخ الذي ما كان «شوفينيا» قط، فلم يستمر أبناء الأديان السماوية الاخرى في ممارسة طقوسهم فحسب، وانما ساهموا أيضا في بناء الحضارة العربية الاسلامية بمفهومها الشامل.(١٢٠)

---

(١١٥) مجير الدين الحنبلي، «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل»، نسخة مخطوطة عن الأصل (٩٠١هـ)، ص ١٨٠

(١١٦) مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٧٦، ٨٥.

(١١٧) محمود العابدي، «قدسنا» ([القاهرة]: جامعة الدول العربية ــ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية ــ قسم البحوث والدراسات الفلسطينية، ١٩٧٢)، ص ٦٥

(١١٨) مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٥

(١١٩) الطبري، مصدر سبق ذكره، الجزء التاسع، ص ٣٤٥.

(١٢٠) راجع بشأن المفهوم الشامل للحضارة العربية الاسلامية: نهاية البند سادسا، والبند سابعا، من هذا الفصل.

ثالثا: التطور الاداري

على الصعيد الاداري، كانت فلسطين في جميع العهود السابقة حتى العهد العثماني، تذكر بالاسم كما ذكرت في أخبار الفتوحات بأرض فلسطين او فلسطين وعن البلاذري:

> لما افتتح ابو عبيدة بن الجراح دمشق استخلف يزيد بن ابي سفيان على دمشق، وعمرو بن العاص على فلسطين وشرحبيل على الأردن.(١٢١)

ولما اتسعت الدولة في عهد عمر، قسّم البلاد أقساما ادارية كبيرة ليسهل حكمها، وجعل فلسطين قسما قائما بذاته. وكان يعين على الأقسام او الأقاليم عمالا يستمدون سلطتهم من الخليفة الذي كان يجمع بين السلطتين التنفيذية والقضائية؛ ومعنى «عامِل» ان صاحبه ليس مطلق السلطة. وقد استعملت كلمة والي فيما بعد.(١٢٢)

وكان الخلفاء يحرصون على تعيين العمال او الولاة على فلسطين من اهل الثقة: فكان عامل عثمان بن عفان عليها علقمة بن حكيم الكِناني. وكان عامل الوليد بن عبدالملك أخاه سليمان، وبعد وفاة الوليد تسلّم الخلافة غير انه ابقى على مدينة الرملة مقرا له. وقد ذكر اليعقوبي في مؤلفاته الجغرافية التي اعتمد فيها على ملاحظاته ورحلاته الطويلة، التي قام بها في القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد، ان اللد كانت عاصمة «جند فلسطين» حتى جاء سليمان بن عبد الملك فجعل العاصمة مدينته الرملة.(١٢٣) وقد بقيت العاصمة حتى الحروب الصليبية.

وعيّـن ابو جعفر المنصور على فلسطين ابن اخيه عبدالوهاب بن ابراهيم، ولما علم انه يتجبّـر في حكمه امر بعزله وتنكّر له.

في العهد المملوكي قسمت البلاد داخليا الى مناطق دعيت بالممالك، فكانت منها المملكة الغزّية من حيفا حتى رفح، ومملكة صفد الى الشمال من حيفا.(١٢٤)

في العهد العثماني، اصبحت فلسطين تعرف بسوريا الجنوبية، وتقسم داخليا الى ثلاث متصرفيات: متصرفية(١٢٥) القدس المستقلة التي اصبحت تتبع الباب العالي مباشرة في الآستانة منذ

---

(١٢١) البلاذري، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٩.

(١٢٢) حسن ابراهيم حسن، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥٣.

(١٢٣) كما ورد في: مصطفى الدباغ، «بلادنا فلسطين»، مصدر سبق ذكره، الجزء الرابع، القسم الثاني، ص ١١.

(١٢٤) مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول الاسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٣، رقم ١، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٢ ــ ١٨٧.

(١٢٥) «متصرفية» مرادفها بالتركية «سنجق».

سنة ١٨٧٤، وذلك لمكانتها الدينية، ومتصرفية عكا، ومتصرفية نابلس. وقد أُلحقت هاتان الاخيرتان بولاية الشام حتى سنة ١٨٨٣، حين جرى آخر تقسيم اداري، فأُلحقتا بولاية بيروت

لم يكن للتقسيمات الادارية الأخيرة هذه اي اثر في طبيعة المجتمع والسكان، أو في تاريخ فلسطين كجزء من هذه المنطقة. غير ان الصهيونية استغلتها للادعاء ان فلسطين قد اندثرت اسما ومجتمعا. والمنطق يشير الى ان العكس هو الصحيح؛ فهذه التقسيمات برهان على وحدة المجتمع في الشام ولبنان وفلسطين، وإلا لما كان سهلا او ممكنا ان تلحق عكا ونابلس بالشام تارة، وببيروت تارة اخرى.

ومن ناحية ثانية، لا علاقة للتقسيمات الادارية هذه بضياع اسم فلسطين او طمسه، كما يحلو للصهاينة ان يدّعوا؛ فالاشارة الى البلاد، في الأوامر والرسائل الرسمية من قبل الباب العالي، كانت دوما بتحديد الاسم «فلسطين».

وقد جاء في القانون الذي اصدره السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٠ لمنع اليهود من الاقامة الدائمة:

> كنا شدّدنا على منع دخول الاسرائيليين الى ارض فلسطين. الموظفون تراخوا في تطبيق الأوامر وأساؤوا الى تأويله، والاسرائيليون يأتون بحجة الزيارة ويستوطنون، كما اشعرنا متصرف القدس. (١٢٦)

وكذلك ذُكر اسم فلسطين بوضوح في رد السلطان الشهير على هيرتسل برفض المال اليهودي في مقابل الامتيازات لهم في البلاد.

فلسطين إذاً، وان قسمت الى متصرفيات في العهد العثماني، ولم تكوّن وحدة ادارية، فقد كانت تؤلف وحدة سكانية، وحقيقة جغرافية، لم تتغيرا في أذهان العثمانيين، ولا على ألسنتهم.

رابعا: التطور العمراني والحضاري حتى نهاية القرن الحادي عشر

أ ــ عهد الخلفاء الراشدين (١١هـ ــ ٤٠هـ / ٦٣٢م ــ ٦٦٠م)

ما ان استتبت فتوحات الشام في عهد الخلفاء الراشدين، حتى ابتدأت هيكلية الدولة المنظمة تظهر في عهد عمر بن الخطاب؛ فهو أول من نظم الدواوين (الوزارات)، وأول من وضع نظاما للبريد، وأول من عيّن القضاة، وأول من أنشأ الكتاتيب (المدارس). وقد ارسل الى فلسطين بعثة من العلماء كان على رأسها معاذ بن جبل وعبدالرحمن بن غنم وعُبادة بن الصامت اول القضاة في بيت

---

(١٢٦) احمد صدقي الدجاني، «عبدالحميد في التاريخ» (مخطوطة)، ص ٩٨ ــ ٩٩ (نقلا عن وثيقة بالتركية في دار المحفوظات التاريخية بطرابلس الغرب)

المقدس، وقد بقوا في البلاد حتى وفاتهم. وعن القضاء الذي أنشأه بن الخطاب، انه كان يتمتع باستقلالية تامة، ولا يحق للولاة ان يتدخلوا في أحكامه.

عمرانيا، ابتدأ بن الخطاب باقامة المساجد في فلسطين وغيرها، وفي بيت المقدس كان المسجد المعروف باسمه، مسجد عمر. وكذلك قام بتشييد المدن، فكانت الكوفة والبصرة والفسطاط (القاهرة فيما بعد). ثم جمع القرآن الكريم في عهد عثمان بن عفان، وكانت تلك مأثرته الكبرى. وكانت طبريا احدى المدن التي ارسلت اليها احدى النسخ الأولى

في عهد علي بن ابي طالب، كثرت المناوآت السياسية الداخلية، وتلاحقت الأحداث من معركة صفين، الى مسألة التحكيم، الى قيام الخوارج، الى استشهاد امير المؤمنين بعد خمس سنوات من حكمه. غير ان الأثر الخالد لعهده القصير، كما لسيرة حياته كلها رفيقا مجاهدا مع الرسول الكريم، وصاحب رأي ما أقدم بن الخطاب على عمل إلا واستشاره، يبقى في حكمته وفلسفته وبلاغته، وفي خطبه ورسائله ومواعظه؛ وقد جمعها، في القرن الخامس للهجرة، السيد الشريف الرضي وأطلق على المختار منها: «نهج البلاغة»؛ وفي المقدمة قال:

> ... كان امير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة ومواردها ومنشأ البلاغة ومولدها. ومنه عليه السلام ظهر مكنونها وعنه اخذت قوانينها. وعلى امثلته حذا كل قائل خطيب وبكلامه استعان كل واعظ بليغ. ومع ذلك فقد سبق وقصروا. وتقدم وتأخروا.[١٢٧]

علميا وتربويا، لا يمكن لعصر نرث عنه «نهج البلاغة»، ويكون التعليم فيه مجرد حفظ غيبي من دون فلسفة وإبداع ومن أقوال علي بن أبي طالب ووصاياه: «لا تجبروا أولادكم على أخلاقكم، فانهم خلقوا لزمان غير زمانكم.» ومن أقوال عمر بن الخطاب ووصاياه. «علموا أولادكم السباحة والرَمْي والفروسيّة.» وفي قول عمرو بن عتبة بن ابي سفيان لمعلّم ولده، خلاصة للتربية ومفهومها عند العرب المسلمين:

> ليكن اول اصلاحك لولدي اصلاحك لنفسك، فان عيوبهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما صنعت، والقبيح عندهم ما تركت. علِّمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملّوه، ولا تتركهم منه فيهجروه. روِّهم من الحديث اشرفه، ومن الشعر اعفّه، ولا تنقلهم من علم الى علم حتى يحكموه، فان ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم، وعلِّمهم سنن الحكماء..[١٢٨]

---

(١٢٧) الإمام علي بن أبي طالب، «نهج البلاغة»، جمع الشريف أبو الحسن محمد الرضي، وشرح الشيخ محمد عبده (بيروت: دار الاندلس، ١٩٦٣)، ص ١٨ ــ ١٩.

(١٢٨) ابن عبد ربه، «العقد الفريد»، شرحه ورتّب فهارسه احمد امين، احمد الزين وابراهيم الابياري (القاهرة. لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠)، الجزء الثاني، ص ٤٣٦ ــ ٤٣٧

وليست هناك ضرورة للتعليق بأن هذه الفلسفة في التربية قد سبقت فلسفة جان جاك روسّو بعشرة قرون.

ب ــ عهد الامويين (٤١هـ ــ ١٣٢هـ / ٦٦١م ــ ٧٥٠م)

كان عبدالملك بن مروان أول الخلفاء الذين صرفوا للعمران اهتماما بالغا؛ فقد أعاد بناء عسقلان التي دمرها البيزنطيون، ورمم المساجد والأحياء في قيسارية وعكا. وكانت قمة الأعمال العمرانية في عهده بناء مسجد الصخرة المشرفة، والمسجد الأقصى المبارك الذي أتّمه من بعده ابنه الوليد. ويعرف المسجدان بالحرم الشريف الذي يعتبر، بما فيه من المباني الفخمة المتنوعة بتناسب تام، وبما يحتويه من القبب العظيمة، والأساطين الشاهقة والأعمدة الرخامية المنقوشة، آية في الهندسة والروعة. وقد أضاف العديد من الخلفاء والسلاطين الى الحرم الشريف من الكنوز الفنية القديمة النادرة المثال ما يعجز عنه الوصف حقا.(١٢٩)

وقد وصف عدد من المؤرخين الأجانب الحرم الشريف ــ اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ــ(١٣٠) اروع الوصف؛ فقد قال غوستاف لوبون: «انه اعظم بناء يستوقف النظر، ان جماله وروعته مما لا يصل اليه خيال الانسان.» وقال فان برشيم: «لعل عظمتها وجمالها في تخطيطها وتصميمها من بساطة وتناسق. حقا انها مفخرة العمارة الاسلامية.» وقال هايتر لويس: «انها اجمل الآثار التي خلدها التاريخ.»(١٣١)

وفي عهد الوليد بن عبدالملك، كان الناس يتحدثون عن الفتوحات والعمران والزراعة؛ فقد شيد المساجد الكبيرة والباقية الى يومنا هذا: بنى مسجد دمشق، وأكمل الحرم الشريف في بيت

---

(١٢٩) راجع وصفا دقيقا للحرم الشريف في:
ــ «دعوة عامة من المجلس الشرعي الاسلامي الأعلى في فلسطين لعمارة الحرم القدسي الشريف»، مجلة «المنار»، الجزء السادس، المجلد الرابع والعشرون، ١٥ يونيه (حزيران) ١٩٢٣، ص ٤٤٨ ــ ٤٥٨؛
ــ محمود العابدي، «محنة بيت المقدس»، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠ ــ ٧٠؛
ــ عبدالحميد زايد، «القدس الخالدة» (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤)، ص ١٨٢ ــ ٢٠٨.

(١٣٠) «اولى القبلتين» تعني ان بيت المقدس كانت قبلة المسلمين حين فرضت عليهم الصلاة وهم في مكة الى جوار الكعبة المكرّمة؛ وبعد الهجرة الى المدينة بستة عشر شهرا امر الرسول بالتوجه في الصلاة نحو الكعبة؛ و«ثالث الحرمين الشريفين» تعود الى قول الرسول عليه السلام: «لا تشدّ الرِحال إلاّ الى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الاقصى.»

(١٣١) كما ورد في: محمود العابدي، «محنة بيت المقدس»، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥.

المقدس، وشيد المصانع والمستشفيات والآبار، وأصلح الطرق. كما بنى مدينة على ضفاف بحيرة طبريا الشمالية. وكان الوليد اول من وضع اشارات الأميال على الطرق لارشاد المسافرين، وأول من جعل لكل اعمى مرشدا ولكل مقعد مساعدا.[١٣٢]

وكما بنى سليمان بن عبدالملك مدينة الرملة وجعلها من اهم المدن عمرانا وحضارة، بنى هشام بن عبدالملك كفرلام (في قضاء حيفا)، وبنى العديد من القصور التي اكتشفت منها في القرن العشرين آثار قصره في أريحا، المعروف بقصر هشام.

في عهد عمر بن عبدالعزيز، وهو الملقب بخامس الخلفاء الراشدين ــ لزهده وتقواه وعدله ــ كان الناس يتحدثون عن الايمان والتقوى والعدل، وكان من المقربين اليه رجاء بن حَيْوَة الذي اشتهر بالحكمة والأمانة، وهو من اهل بيسان.[١٣٣]

ابتدأ عمر بن عبدالعزيز أعماله بعزل العمال والولاة الظالمين، وأمر بوقف التعرض للامام علي من على المنابر كعادة بني امية، وأمر باعادة الكنائس والأراضي الى أصحابها، ورفع الجزية عن اهل الذمة الذين اعتنقوا الاسلام. وقال، ردا على نقص الواردات بسبب رفع الجزية: «ان الله بعث محمدا هاديا، ولم يبعثه جابيا.»

وفي عهده اعتنق الألوف الاسلام، وخصوصا في الهند والأناضول وغيرهما. وما كان ذلك عن حرب او بواسطة السيف حتما، وانما رغبة من الناس الذين رأوا في الاسلام وفي الحاكم بشريعته عدلا وحلا للمشكلات الاجتماعية والاقتصادية.

وصلّى عمر بن عبدالعزيز، مرارا، في الحرم الشريف. وقبل ان يتسلم الخلافة كان يمشي في بيت المقدس، فلا يعرفه إلا القلة، لابتعاده عن المظاهر.

اشتهر في فلسطين في العهد الاموي، من المعلمين والكتاب، عبدالحميد الكاتب ومعاوية بن عبيدالله الاشعري. وبين النساء كانت الكثيرات من المدرّسات والمحدّثات، وأكثرهن شهرة وعلما في هذا العهد رابعة العدوية الصوفية، وقد دفنت في بيت المقدس (١٣٥هـ / ٧٥٢م).

ويمكن القول، اجمالا، ان السمات البارزة لعهد بني امية، الذي امتد تسعين عاما، كانت ثلاثا: الفتوحات، والعمران، والتعريب.[١٣٤]

---

(١٣٢) راجع. «أسباب سقوط الدولة الاموية»، مجلة «المنار»، الجزء الثاني عشر، المجلد الثاني عشر، ١١ يناير (كانون الثاني) ١٩١٠، ص ٩٣٣ ــ ٩٤٧.

(١٣٣) «بيسان» في الخريطة الاسرائيلية «معالوت».

(١٣٤) راجع فيما يتعلق بالعهد الاموي: مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠ ــ ١٦٢.

ج ـ عهد العباسيين (١٣٢هـ ـ ٦٥٦هـ / ٧٥٠م ـ ١٢٥٨م)

لم يكن عهد العباسيين بأقل من العهد الاموي شأنا من حيث العمران؛ فقد كان من مآثر العباسيين: الاهتمام ببيت المقدس، والمحافظة على الحرم الشريف، وقد قاموا بعمارته وترميمه والاضافة اليه بصورة مستمرة.

جاء ابو جعفر المنصور، باني بغداد، بيت المقدس على رأس الحملة الذاهبة لاخضاع ثورة الخوارج في افريقيا. وفي القدس ودع الحملة، ثم أقام أياما امر خلالها بترميم العديد من الأبنية، ومنها الحرم الشريف.

ومن مآثر المنصور الكبرى تشجيعه العلماء على تدوين الحديث والسيرة النبوية والفقه والتفسير؛ وقد ابتدأت في عهده نهضة فكرية اسلامية لم يسبق لها مثيل، وكذلك نهضة علمية كان من اسسها ترجمة العلوم والفلسفة عن الحضارات واللغات القديمة المتعددة.

اجتماعيا وانسانيا، أنشأ المنصور المستشفيات للعميان وللعجزة وللمختلين عقليا. واقتصاديا وزراعيا، شجع الصناعة والتجارة والزراعة والري والقنوات. واداريا، أعاد توزيع الدواوين.

في بيت المقدس، كان يقام في عهده سوق كبيرة في منتصف تشرين الاول / اكتوبر من كل سنة، يؤمها التجار من الأمم المختلفة. وما انقطع مجيء الحجاج المسيحيين لزيارة الأماكن المقدسة سنة واحدة. وكذلك كان حجاج المسلمين يزورون بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج. ومنذ عهد المنصور، حرص معظم الخلفاء العباسيين على زيارة بيت المقدس.

استمرت الترجمة في عهد هارون الرشيد، وازدهرت العلوم واللغة، وكانت عاصمته أرقى العواصم في عهدها. وكانت حضارة العرب قد وصلت الى الأوج، بينما ترزح اوروبا في غياهب القرون الوسطى؛ فشارلمان، اقوى ملوك اوروبا، كان يتصل بالرشيد ناشدا صداقته.

اقتصاديا، لم تكن الدولة يوما اكثر ثراء مما كانت عليه في عهده، وهو الذي كان يقول للسحابة: «اذهبي حيث شئت يأتني خراجك.»

علميا وأدبيا، قيل انه لم يجتمع على باب خليفة، من العلماء والشعراء والفقهاء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين، ما اجتمع على باب الرشيد. وقد امضى الرشيد حكمه غازيا الروم سنة، وحاجا الى بيت الله الحرام سنة اخرى. وفي عهده، اشتد الصراع بين التيار العربي والتيار الفارسي، وانتهى بنكبة البرامكة وتغلب التيار العربي؛ وقد كان على رأسه الفضل بن الربيع الذي تعود عائلته الى مدينة الخليل.

كان عهد المأمون عامرا بذكر العلماء والفقهاء والأئمة والشعراء الكبار، وهو عصر العلم الذهبي في تاريخ العرب. وكانت اهم انجازاته «بيت الحكمة»، حيث كان طلاب العلم يجتمعون للاطلاع

والدراسة والمناقشة والكتابة والنسخ والترجمة، عن اليونانية والرومانية والهندية والفارسية والسريانية ولولا «بيت الحكمة»، والترجمات العربية التي انطلقت من رحابه، لضاع التراث العلمي الانساني. ومن ناحية اخرى، لم تكن هذه المؤسسة العلمية (بلغة اليوم) دارا للترجمة فقط؛ فقد كانت تحتوي أيضا على مرصد فلكي، ومجمع علمي، ومكتبة عامة.

وفي عهد المأمون عاش ثالث الأئمة الأربعة[١٣٥] وتوفي فيه، وهو الامام الشافعي محمد بن ادريس؛ وقد ولد في غزة (١٥٠هـ - ٢٠٤هـ/٧٦٧م - ٨٢٠م)، وكان من اشعر الناس وآدبهم وأعلمهم بالفقه. قال عنه الإمام ابن حنبل: «ما أحد ممن بيده محبرة او ورق إلا وللشافعي في رقبته منّة.»

أفتى الشافعي، وهو في العشرين من عمره، وخلف على رفوف المكتبات مجموعة من المؤلفات في الفقه والحديث.[١٣٦] واليه ينسب المذهب الشافعي، وقد اعتنقته الأغلبية من سكان فلسطين احتراما ومحبة للامام العبقري من أبنائها وهو بدوره ما نسي موطنه غزة قط؛ فقد قصد مصر (١٩٩هـ) وتوفي فيها بعد خمسة أعوام. والشافعي هو القائل:

وإني لمشتاق الى ارض غـزةٍ وان خانني بعد التفرق كتماني
سقى الله ارضا لو ظفرت بتربها كحلت من شدة الشوق أجفاني

ومن الفقهاء المعاصرين للشافعي في فلسطين، اشتهر ضمرة بن ربيعة من الرملة، وأبو عبدالله محمد بن يوسف الحافظ من قيسارية.[١٣٧]

وفي عهد المأمون، أصاب الزلزال فلسطين، وأصيبت مباني الحرم المقدسي بأضرار بالغة، فجاء المأمون من بغداد ليتولى الاشراف على عمارة الصخرة.[١٣٨] وكما كان عهده عهد العلم والعمران، كان أيضا عهد الغزوات ضد الروم. وكان يقود بنفسه الحملات للغزو، وقد توفي وهو عائد من احداها في شمالي طرطوس (٢١٨ هـ / ٨٣٣ م).

في عهد المعتصم، وهو الخليفة الشجاع وصاحب معركة عمورية التي انتصر فيها العرب على

---

(١٣٥) الأئمة الاربعة هم: الامام ابو حنيفة، وقد توفي في عهد المنصور؛ والامام مالك، وقد توفي في عهد الرشيد؛ والامام الشافعي، وقد توفي في عهد المأمون، والامام احمد بن حنبل، وقد توفي في عهد المتوكل بن المعتصم.

(١٣٦) من مؤلفات الامام الشافعي محمد بن ادريس بن العباس: «الأم» في الفقه من سبعة مجلدات، و«المسند» في الحديث، و«أحكام القرآن» و«السنن» و«الرسالة» في أصول الفقه، وغيرها (راجع: خير الدين الزركلي، «الاعلام»، الجزء السادس، ص ٢٥٠).

(١٣٧) مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(١٣٨) محمود العابدي، «محنة بيت المقدس»، مصدر سبق ذكره، ص ٦١.

الروم انتصارا ساحقا، ابتدأ العد العكسي في حكم العباسيين. وحاول الأتراك هذه المرة ــ لا الفرس ــ السيطرة على الحكم واقصاء العرب. وبضعف مركز الخلافة، تمكن احمد بن طولون في مصر من تولي الحكم، فانتقلت فلسطين الى حكم الطولونيين.[١٣٩]

ان انجازات العهد العباسي واضحة في العمران، وصدّ الخطر البيزنطي المتواصل على الثغور، والتقدم العلمي؛ فمساجدهم معاهد، وفي كل منها مكتبة لطلاب العلم. وعندما كان هؤلاء يرغبون في الاستزادة من الدراسة والتعمق كانوا يتوجهون الى بغداد، او دمشق، او مكة، او المدينة، او بيت المقدس، او الكوفة، او البصرة، او القاهرة. وكان العرب يسمّون الرجل إذا كان يكتب ويحسن الرمي والسباحة ويقول الشعر: الكامل.

داخليا، كان للصراع بشأن الحكم بين العرب من جهة، وبين الفرس ثم الأتراك من جهة اخرى، الأثر في فقدان هيبة الحكم ومركز الخلافة. وقد اتصف هذا العهد بالعدل الشامل الذي لا مثيل له تارة، وبالظلم والقسوة تارة اخرى. وحتى نهاية القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد، اي نهاية مرحلة الحكم العباسي المركزي، كانت فلسطين بلدا يسوده الاستقرار والأمن. ومن ابرز الشهادات على ذلك قول برنارد الحكيم، الذي زار فلسطين بعد استئذانه البابا (نحو ٨٦٧م):

> ان المسلمين والمسيحيين في القدس ومصر هم على تفاهم تام. حتى انني اذا سافرت، ونفق في الطريق جملي او حماري، وتركت امتعتي مكانها وذهبت لاكتراء دابة من البلدة المجاورة عدت فوجدت كل شيء لم تمسه يد.[١٤٠]

ومن شهادة برنارد الحكيم وغيرها نعلم ان انتشار العدل والأمن، في ذلك العهد، قد بلغ حدا لم تعرف مثيلا له شعوب الارض في ذلك الزمن؛ وكذلك، لم يعرفه العرب في أزمان اخرى.

د ــ عهد الطولونيين والأخشيديين (٢٦٤هـ ــ ٢٩٢هـ / ٨٧٨م ــ ٩٠٥م؛ ٣٢٤هـ ــ ٣٥٨هـ/ ٩٣٥م ــ ٩٦٩م)

أعاد احمد بن طولون ــ وأصله من أتراك منغوليا ــ سيرة الخلفاء العظام عدلا وعمرانا. وفي عهده، تم بناء قلعة يافا، وانشاء القاعدة البحرية في عكا وتقوية حصونها. وقد صرف اهتمامه الى انشاء حلبات السباق. كما اهتم خمارويه، من بعده، باقامة حدائق للحيوانات.

---

(١٣٩) راجع فيما يتعلق بالعهد العباسي: مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٤ ــ ٢٤١

(١٤٠) كما ورد في: مصطفى الدباغ، «بلادنا فلسطين»، مصدر سبق ذكره، الجزء الرابع، القسم الثاني، ص ١٢.

عادت فلسطين الى حكم الدولة العباسية المركزية لثلاثين عاما، انتقلت بعدها للأخشيديين؛ وذلك بعد حربين طاحنتين على ارض فلسطين بين جيش محمد بن رائق، والي الخليفة العباسي، وبين الأخشيديين وقد اتفق الفريقان، أخيرا، على اقتسام البلاد: فالرملة وما وراءها جنوبا للأخشيد حاكم مصر؛ ومن الرملة شمالا لابن رائق. غير ان البلاد اصبحت كلها للأخشيديين بعد موت الأخير. وقد دفن اثنان من ملوكهم في بيت المقدس: محمد بن الأخشيد، وكافور. وقد اهتم الأخشيديون بسك العملة في مدينتي الرملة وطبريا.

بقيت السيادة في هذه العهود للعباسيين، وان تكن سيادة اسمية. وظهر في فلسطين، في هذه المرحلة، الكثيرون من رجال العلم، منهم: سليمان بن احمد اللخمي من طبريا، وكان محدّثا شهيرا ورحالة؛ والعباس بن محمد بن الحسن من عسقلان، وكان من المحدّثين؛ ومحمد بن احمد من بيت دجن، ومطهّر بن طاهر من بيت المقدس، وكلاهما من الرحّالة والمؤرخين؛ وغيرهم.[١٤١]

هـ ـ عهد الفاطميين (٣٥٨هـ ـ ٥٦٧هـ / ٩٦٩م ـ ١١٧١م)

لما توفي كافور الأخشيدي، ارسل المعز لدين الله الفاطمي قائده جوهرا الى مصر، فدخلها فاتحا، واختطّ مدينة القاهرة بعد سنة **٣٥٩هـ / ٩٧٠م**. ولما دخلها المعز لدين الله بعد ثلاث سنوات، كان الشمال الافريقي قد دان له، وأصبحت القاهرة مقر الحكم للفاطميين.[١٤٢]

توجه الفاطميون من مصر نحو الشرق وكانوا يعتبرون فلسطين، بالذات، الخط الدفاعي عن مصر. وفي عهدهم، عادت للعلم مكانته، وكانت اهم إنجازات المعزّ لدين الله بناء الأزهر الشريف. أما ابنه العزيز، فقد حوّل الجامع الى جامعة، وقيل ان مكتبته كانت تحتوي على مائتي ألف كتاب. ولما حكم ابنه ابو علي المنصور، الحاكم بأمر الله، انشأ دار الحكمة، وكانت الأولى في بغداد، والثانية في قرطبة.

في عهد ابنه علي بن الحاكم، ابتدأ الحكم يضعف. أما في بيت المقدس، فهو الذي شرع في بناء سور القدس الشهير، كما بنى سورا للرملة.

نكبت فلسطين بالزلازل مرات عديدة، كان منها اثنان في عهد الفاطميين. ولما انتشرت المجاعة في اثر وباء عظيم في مصر، دعا الخليفة المستنصر بالله الحسن بن علي اليازوري (من أبناء قرية يازور قرب يافا)، وكان من الفقهاء الحكماء، فأبعد شبح المجاعة بحسن ادارته وحكم بالعدل. وبعد وفاته

---

(١٤١) مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(١٤٢) خيرالدين الزركلي، «الاعلام»، الجزء الثامن، ص ١٧٩.

استدعى الخليفة بدر الجمالي حاكم عكا، فكان عونا له في الحكم طوال عشرين عاما.

اهتم الفاطميون بنشر المذهب الشيعي من جهة، ومن جهة اخرى اعتمدوا كثيرا على أهل الذمة في مناصب الدولة العليا. ومن مآثرهم الاهتمام بالمستشفيات، فقد بنوا مستشفى كبيرا في بيت المقدس. واهتموا، كذلك، ببناء الخانات لتسهيل امور التجار. وفي الكتاتيب (المدارس) كانوا يمنعون ضرب الصغار بشدة. ويعود اليهم عدد من التقاليد والأعياد، كالاحتفال برأس السنة الهجرية، ومولد الرسول، وذكرى عاشوراء.[١٤٣]

خلال العهد الفاطمي، حكم السلاجقة فلسطين نحو ربع قرن (٤٦٣هـ ــ ٤٨٩هـ / ١٠٧٠م ــ ١٠٩٦م)، وكانوا من الأتراك الذين أعادوا الدعوة للخليفة العباسي. واتصف عهدهم بالحروب الداخلية وعدم الاستقرار، مما مكن الفاطميين من استرداد البلاد. ولما ابتدأت الحملة الصليبية الأولى، كان العامل من قبل الخليفة الفاطمي المستعلي بالله على مدينة بيت المقدس، هـو افتخار الدولة.[١٤٤]

خامسا: حكم الافرنج الصليبيين

أ ــ نظرة عامة

يحرص بعض المؤرخين العرب، انطلاقا من الحساسيات الدينية والطائفية في الزمن الراهن، على حذف كلمة «الصليبيين» أو «الحروب الصليبية» ما امكن لدى الكتابة عن هذه المرحلة، والاكتفاء بالاشارة الى هؤلاء المحاربين بـ «الافرنج».

ان مبدأنا نحن هو ان نكتب عن كل عصر ــ ما امكننا ــ بروح العصر وفكر العصر السائد في حينه، وإلا افتقدنا عنصر الأمانة في النقل، وبالتالي الصدق في التحليل. ان اي تحليل، او مقارنة بين عصرين او اكثر، لا يجوز أصلا من دون اعتبار للمثل والمقاييس والذهنيات والنفسيات التي سادت كل عصر. ومن هذا المنطلق، فان لا بديل من تعبير «الحروب الصليبية» او «الصليبيين». وأوروبا التي ترفع اليوم لواء العلمانية ولواء الماركسية، هي نفسها التي رفعت لواء الحملات الصليبية في القرون الوسطى. وهذا التحول الكبير كان أصلا من اهم نتائج تلك الحملات؛ فقبل ذلك ــ اي في القرن الحادي عشر ــ كانت اهم مراكز الحضارة العالمية تقع في الشرق، اي في الدولة العربية الاسلامية، بينما

---

(١٤٣) راجع فيما يتعلق بعهد الفاطميين: مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٠ ــ ٣٣١.

(١٤٤) المصدر نفسه، ص ٣٣٢ ــ ٣٣٥

كانت اوروبا لا تزال ترزح تحت الأنظمة الاقطاعية المتحلفة. ولما ركدت ريح الحروب الصليبية نهائيا في القرن الرابع عشر، واحتفت امارات التعصب الديني، برزت العلمانية، وانصرفت اوروبا الى الشؤون الدنيوية، والى القانون والفلسفة.[١٤٥]

تعود الشرارة الأولى للحملات الصليبية الى اليوم السادس والعشرين من تشرين الثاني / نوفمبر ١٠٩٥؛ ففي ذلك اليوم الخريفي، ألقى البابا أوربان الثاني ـ الفرنسي الأصل ـ خطابا ناريا في كليرمونت، التي تقع في الجنوب الشرقي من فرنسا، داعيا المسيحيين المؤمنين جميعا الى تحرير المقدسات المسيحية من ايدي المسلمين. وقد اعتبر خطابه هذا ـ بحكم النتائج التي آل اليها ـ من اقوى الخطب أثرا عبر التاريخ.

لم يكن احتيار البابا للجنوب الفرنسي مصادفة، وانما لكونه ارض المعركة الفاصلة (معركة بلاط الشهداء أو بواتييه)، التي حاول المسلمون فيها احتلال فرنسا كلها، فكانت آخر معاركهم؛ ولذلك، فما كان اسهل من استنفار مشاعر الفرسيين قبل سواهم.[١٤٦]

سيطر على العالم المسيحي، في هذه المرحلة، مظهران دينيان أساسيان: الأول أداء الحج الى الأماكن المقدسة؛ والثاني الحرب المقدسة. وبالدافع الديني قاد بطرس الناسك ووالتر المفلس[١٤٧] الألوف من الفقراء في ظل موجة عارمة من المشاعر الدينية، وخصوصا ان الحرب مقدسة، وبالتالي فالمحارب الذي يقاتل المسلمين ينال التطهير من ذنوبه.

وتعددت الدوافع الى هذه الحملات الصليبية المتعاقبة: فمنها العقائدية الدينية؛ ومنها رغبة القادة العسكريين في التوسع والحكم؛ ومنها البحث عن حل للنمو السكاني المتزايد في اوروبا؛ ومنها توجيه القوى نحو حروب خارجية للحد من الحروب الداخلية في اوروبا؛ ومنها تعطش التجار الى الربح، وخصوصا التجار من جنوب ايطاليا؛ ومنها اندفاع المجرمين والخاطئين للتكفير عن خطاياهم، فكانت مشاركتهم راحة لأنفسهم؛ ومنها اندفاع المؤمنين الى مؤازرة اخوانهم من مسيحيي الشرق. وهكذا تفاعلت هذه العوامل بمجموعها لتأليف الحملة تلو الحملة من النبلاء والفلاحين والمعدمين.

وتوّجت الدوافع هذه بطلب الأمبراطور ألكسيوس، أمبراطور بيزنطة، من البابا معونته لابعاد

---

(١٤٥) راجع: ستيفن رنسيمان، «تاريخ الحروب الصليبية»، ترجمة السيد الباز العريني (بيروت. دار الثقافة، ١٩٦٧)، الجزء الاول، ص ٩ ـ ١٤.

(١٤٦) Hitti, *op.cit*, pp 590-591.

(١٤٧) زار بطرس الناسك الأماكن المقدسة، وقد اسيئت معاملته، فعاد الى روما ودعا البابا اوربان الثاني الى انقاذ الاماكن المقدسة، وأخذ يطوف في اوروبا يحرض الجماهير على الزحف الى قبر المسيح، وكذلك كان يفعل والتر المفلس الذي تجمع حوله الفقراء.

خطر السلاجقة، فاستجاب البابا لنداء الأمبراطور، وهو يرى في هذه الاستجابة مناسبة لتوحيد زعامة الكنيستين ــ الغربية والشرقية ــ تحت رايته (١٤٨)

رمبا، امتدت الحملات الصليبية عبر مائتي سنة تقريبا. وقد ساهمت في ادكائها ثماني حملات رئيسية، بالاضافة الى حملات ثانوية. وحتى بعد سنة ١٢٩١ وخروج الصليبيين نهائيا من البلاد، فقد جرى عدد مں الحملات لاسترجاع ما صاع، لكنها لم تصل الى أهدافها. (١٤٩)

تقسم الحملات الصليبية، من حيث المراحل الزمنية، الى ثلاث مراحل أساسية. المرحلة الاولى التي استولى فيها الصليبيون على القدس وأسسوا المملكة اللاتينية، وتستمر هذه المرحلة حتى سنة ١١٤٤م؛ والمرحلة الثانية التي ابتدأت بردة الفعل الاسلامية التي بدأها عمادالدين زنكي، وانتهت بانتصارات صلاح الدين؛ والمرحلة الثالثة هي مرحلة المناوشات والحروب الصغيرة في القرن الثالث عشر، وقد انتهت باخراج الصليبيين نهائيا من البلاد. (١٥٠)

* * *

أبرز ما يعنينا في هذا البحث، عبر المراحل الثلاث أعلاه، المفارقة الحضارية بين العرب والافرنج؛ وتتجسد هذه المفارقة في مثل سقوط بيت المقدس بأيدي الافرنج الصليبيين، ومثل استردادها على يد صلاح الدين. وكي تتضح أبعاد المفارقة اكثر، يجدر إلقاء الضوء على بعض المعالم.

ــ لم يتمكن الصليبيون من احتلال فلسطين والشام ومصر كما كان مبتغاهم؛ فقد تمكنوا من احتلال أجزاء ومدن كانت عرضة للتقلص والتمدد طوال مائتي سنة، وقد انتقل الحكم في بعض المدن من جهة الى اخرى اكثر من مرة

ــ كانت العلاقات بالسكان تختلف وفقا لعوامل متعددة: فقد أقام الصليبيون علاقات ودية مع الموارنة خلال الحملة الاولى؛ وكذلك كانت بعض المدن الداخلية المسلمة تطلب مساعدة المملكة اللاتينية ضد مسلمين آخرين، وهذا ما جعل نجاح الصليبيين في المرحلة الاولى لا يستند الى أعدادهم الضخمة، او الى مدى الدعم الاوروبي او البيزنطي لهم، بمقدار ما يرجع الى حالة الضعف والتفكك التي كان عليها سكان البلاد المسلمون والمسيحيون، في تلك الحقبة.

ــ قام الصليبيون بعدد من عمليات الابادة الشاملة والمذابح، مما أدخل الرعب في نفوس السكان؛ فهم خلال الحملة الاولى، وبعد ان استولوا على انطاكية بعد حصار أشهر، قتلوا وأسروا من

---

(١٤٨) Hitti, *op.cit.*, p. 591.

(١٤٩) راجع فيما يتعلق بالحملات الصليبية:

Marshall W. Baldwin, «Crusades,» *Encyclopaedia Britannica — Macropaedia*, No. 5, pp 297-310.

(١٥٠) Hitti, *op.cit.*, p. 599.

الرجال والنساء ما لا يمكن حصره [151] وبعدها تعرضت معرّة النعمان، وهي من أوائل المدن التي احتلوها بعد انطاكية (١٠٩٧م) للدمار التام والفناء. وعندما احتلوا طرابلس (١١٠٩م)، تعرضت لدمار مماثل، كما دمّرت مكتبتها النادرة. [152] أما الابادة التي تعرض لها اهل القدس، فقد اصبحت مثلا في التاريخ. وكانوا لا يتورعون عن هدم كل مدينة يخشون ان يتحصّن فيها المسلمون.

ـ عندما انقسمت المملكة اللاتينية بعد وفاة بولدوين الى ثلاث ممالك، وعندما انتشرت فكرة الجهاد بين المسلمين، فاتّحدوا في عهد الأيوبيين، ابتدأ العدّ العكسي في تاريخ الصليبيين في المنطقة، وأصبحت الانقسامات في ساحتهم سببا أساسيا في نهايتهم.

ـ في فترات السلم، كان الفريقان ينصرفان الى الزراعة، ويتبادلان التجارة والعلاقات فيما بينهما.

ـ اثبتت الحروب الصليبية غلبة المطامع التجارية والدنيوية على الدوافع الدينية، مما ادى الى تبديد حلم البابوية باقامة حكومة تيوقراطية في الشرق، تجمع بين السلطتين الزمنية والروحية.

ـ اثبتت هذه الحروب ان الهلع الذي انتشر في الغرب بسبب التعرض لبعض الحجاج المسيحيين الى الأماكن المقدسة، والذي قيل ان هذه الحروب كانت أساسا لتأمين سلامة الحج والاشراف على الطرق والأماكن المقدسة، لم تؤيده الأحداث؛ فالحجاج المسيحيون تمتعوا في كل العهود بحرية تامة في أداء فريضة الحج، باستثناء بعض الأحداث التي جرت في عهد السلاجقة الفوضوي القصير، او كما حدث للراهب بطرس الناسك عندما أُسيئت معاملته مع بعض الحجاج. فتلك الحالات، بمجموعها، لا تتعدى اطار العارض والشاذ. أما الأصل والدائم، فقد كان حسن المعاملة، وقد أعاد صلاح الدين سيرة السلف، وكان يسمح للحجاج بالزيارة، بينما بعض المدن والقلاع كانت ما زالت محتلة من قبل الصليبيين.

ـ لم يتم تبادل حضاري يذكر بين الفريقين طوال المائتي سنة، وذلك لأن الحضارة الاسلامية كانت في انحدار. ولولا ذلك لما نجحت الحملات الصليبية أصلا. وكان الافرنج، هم انفسهم، اقل حضارة من المسلمين في حالتهم تلك، لكن العداء «القومي» والتعصب الديني حالا دون اقدام الافرنج على الاقتباس كما يجب. [153]

ـ ان الاختلاف الحضاري بين الفريقين لمصلحة الدولة الاسلامية بداية، تبدّل كليا مع نهاية

---

(١٥١) مصطفى الدباغ، «بلادنا فلسطين»، مصدر سبق دكره، الجزء التاسع، القسم الثاني، ص ١٦١

(١٥٢) Hitti, *op.cit.*, p. 597.

(١٥٣) راجع بشأن التبادل الحضاري:

Hitti, *op.cit.*, pp. 614-624

الحروب الصليبية؛ فقد هزت هذه الحروب جذور الحياة في اوروبا كما يقول ستيفن رنسيمان، الاستاذ في كمبردج واكسفورد ومؤلف «تاريخ الحروب الصليبية». ويعتبر كتابه من اهم ما صدر للأمانة والعمق والبحث الطويل، الذي صرفه المؤلف في دراسة العلاقات بين الشرق والغرب:

> وسواء اعتبرنا الحروب الصليبية أعنف وأروع ما قام به المسيحيون من مغامرات، ام آخر ما قام به المتبربرون من غارات، فانها تؤلف حقيقة أساسية في تاريخ العصور الوسطى فالمعروف ان مركز المدنية الاوروبية كان قبل نشوب الحروب الصليبية يقع في بيزنطة، وفي بلاد الخلافة الاسلامية غير ان التفوق في المدنية انتقل الى الغرب، قبل ان ينتهي عصر الحروب الصليبية، ومن ثنايا هذا الانتقال، نبت التاريخ الحديث (١٥٤)

ب ـ احتلال بيت المقدس

دخل الصليبيون فلسطين عن طريق الساحل، فمرّوا بعكا وقيسارية من دون قتال بسبب عدم تعرض هاتين المدينتين لهم، وهرب سكان الرملة فدخلها الصليبيون وهي خالية منهم أما بيت لحم، فقد استقبلهم سكانها المسيحيون بالترحاب واستمر الصليبيون في سيرهم نحو بيت المقدس، ووقفوا أمام أسوار المدينة المقدسة مساء السابع من تموز / يوليو ١٠٩٩م.

استعد افتخار الدولة، حاكم المدينة من قبل الفاطميين، للقتال بكل الوسائل الممكنة؛ فطمر الآبار خارج المدينة، وكانت الأسوار بحالة جيدة إلا انه دعمها بأكياس القطن والدريس، وقد وزع عليها حامية المدينة من الجند العرب والسودانيين، وأبقى على اليهود داخل المدينة وأخرج المسيحيين منها. وكان ذلك اجراء حكيما كما يقول رنسيمان؛ فالمسيحيون ما كانوا يحملون السلاح، فضلا عن ضرورة توفير المؤن للمقاتلين وأحاط الصليبيون بأقرب القطاعات والبوابات، وكان على رأس كل جماعة امير بقيادة غودفري دي بويون، امير مقاطعة اللورين.

كان واضحا ان الزمن في مصلحة العرب المسلمين، وذلك لوفرة المؤن والماء لديهم، ولإمكان وصول جيش من مصر لنجدتهم. أما الصليبيون، فكانوا يفتقرون الى الظل والغذاء والماء، اذ كان عليهم المشي ستة أميال للحصول على الماء، وهذا بالاضافة الى عدم توفر المنجنيق والسلاح الكافي لديهم.

كان الهجوم الاول في ١٢ حزيران / يونيو فاشلا وفي ١٧ حزيران / يونيو، جاءتهم نجدة بحرية رست في مدينة يافا المهجورة، تحمل مؤنا وأسلحة وحبالا ومسامير وأدوات للحصار. ووصل المدد بعد مشقة، لكنهم كانوا بحاجة الى الخشب كي يصنعوا السلالم، فأوغلوا في البلاد حتى تمكنوا من الحصول عليه، وباشروا العمل في مناخ حار لم يألفوه قط.

---

(١٥٤) ستيفن رنسيمان، مصدر سبق ذكره، الجزء الاول، ص ٩.

ابتدأ الخلاف بين أمراء الصليبيين على حكم بيت لحم وعلى حكم القدس. وزادت البلبلة في صفوفهم عندما شاع الخبر عن قدوم جيش ضخم من مصر لانقاذ المدينة، فما كان من القسيس بطرس ديزيدريوس إلا ان أقنعهم بأن الأسقف ادهيمر قد ظهر له بعد وفاته، وأنه يأمرهم بأن يسيروا حفاة حول أسوار القدس بقلوب طاهرة نقية، فإن فعلوا فسوف يستولون عليها في تسعة أيام. وكان المحاصِرون في وضع نفسي يقودهم الى التصديق، فسار موكبهم يطوف حول المدينة، وساهم بطرس الناسك بخطبه في اذكاء المشاعر الدينية. ونظر المسلمون من وراء الأسوار الى مسيرة الحفاة مستهزئين بها، لكنهم لم يغدروا بهم او يقذفوهم بالنار.

تقرر الهجوم في ليلة ١٣ ــ ١٤ حزيران / يونيو، وكان الصليبيون قد فرغوا من بناء الأبراج من دون ان تشعر بهم حامية المدينة وكان القتال ضاريا، ونجحت عملية الهجوم من بعض المواقع، على الرغم من القذائف والقوارير الملتهبة لمنع الاقتراب من السور. ولما تأكد للمدافعين انهيارهم، لجأوا الى الحرم الشريف، المعقل الأخير [١٥٥] وكان افتخار الدولة ما زال يقاوم من الناحية الأخرى بضراوة، ولما تأكد من حتمية الهزيمة طلب الصلح والخروج من المدينة مع حرسه، وقبل ريموند ذلك لقاء مبلغ كبير من المال؛ وفعلا، رافقوهم الى خارج المدينة، وقد توجهوا الى عسقلان.[١٥٦] ويقدر عدد الناجين هؤلاء بثلاثمائة فقط.[١٥٧]

احذ الصليبيون يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء والأطفال، ولم يُبقوا على أحد. وفي صباح اليوم التالي، اقتحموا المسجد الأقصى، وأجهزوا على جميع الذين لجأوا اليه. ويجمع المؤرخون من شرقيين وغربيين، مسلمين ومسيحيين، اجماعا لا يضاهيه اجماع في كتب التاريخ على المذبحة الوحشية التي تعرض لها سكان المدينة، فقد هلكوا جميعهم مسلمين ويهودا. ومن أسباب الاجماع هذا، ان لا سبيل الى التخفيف من هول ما جرى، بسبب الفخر والاعتزاز بما حدث، على ألسنة قادة الصليبيين وكتّابهم، والذين نقل عنهم الكتّاب المنصفون المعاصرون؛ وفي هذا يقول رنسيمان:

> على انه لم ينج من المسلمين بحياتهم إلا هذه الفئة القليلة (يقصد افتخار الدولة وحرسه) اذ ان الصليبيين، وقد زاد في جنونهم ما احرزوه من نصر كبير بعد شقاء وعناء شديد، انطلقوا في شوارع المدينة، والى الدور والمساجد، يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والأطفال دون تمييز. استمرت المذبحة طوال مساء ذلك اليوم، وطوال الليل. ولم يكن علم تانكرد عاصما للاجئين الى المسجد الاقصى من القتل. ففي الصباح الباكر من اليوم التالي، اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين، فأجهزت على جميع اللاجئين.

---

(١٥٥) المصدر نفسه، ص ٣٩٠ ــ ٤٠٣.

(١٥٦) Baldwin, *op cit.*, p 300.

(١٥٧) مصطفى الدباغ، «بلادنا فلسطين»، مصدر سبق ذكره، الجزء التاسع، القسم الثاني، رقم ١، ص ١٦٦

وحينما توجه ريموند آجيل في الضحى، لزيارة ساحة المعبد، اخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه

وفرّ يهود بيت المقدس جميعا الى معبدهم الكبير، غير انه تقرر إلقاء القبض عليهم، بحجة انهم ساعدوا المسلمين، فلم تأخذهم بهم الرحمة والرأفة، فأشعلوا النار في المعبد، ولقي اليهود بداخله مصرعهم محترقين

وتركت مذبحة بيت المقدس أثرا عميقا في جميع العالم ليس معروفا بالضبط عدد ضحاياها، غير انها ادت الى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود. بل ان كثيرا من المسيحيين اشتد حرجهم لما حدث. أما المسلمون الذين كانوا حتى وقتذاك مستعدين لأن يقبلوا الفرنج، على انهم عامل جديد فيما ساد ذلك العصر من سياسات معقدة، فانهم وطدوا العزم على ضرورة طرد الفرنج، فلم يثر التعصب الاسلامي من جديد، إلا التعصب المسيحي، الذي دل عليه ما لجأ اليه الصليبيون من سفك الدماء فلما حدث فيما بعد، ان سعى بعض عقلاء اللاتين لأن يجدوا أساسا، يستطيع ان يقوم عليه التعاون بين المسلمين والمسيحيين، كانت ذكرى هذه المذبحة تعترض دائما الوصول الى الاتفاق.(١٥٨)

ويحدد المؤرخون ضحايا المذبحة بسبعين ألفا او خمسة وسبعين ألفا، ومنهم ابن الأثير الذي يقول:

وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم، وعبّادهم، وزهّادهم، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف (١٥٩)

ويروي غوستاف لوبون عن ريموند آجيل، كاهن لوبوي:

لقد حدث ما هو عجيب عندما استولى قومنا الصليبيون على أسوار القدس وبروجها، فقد قُطعت رؤوس بعض العرب وبُقرت بطون بعضهم وقُذف بعضهم من أعلى الأسوار وحُرق بعضهم في النار، وكان لا يُرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم . ولم يكتف قومنا الصليبيون الأتقياء بذلك، فعقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى الذين كان عددهم ستين ألفا، فأفنوهم على بكرة ابيهم في ثمانية أيام، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدا ولا شيخا.(١٦٠)

---

(١٥٨) ستيفن رنسيمان، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٤ ــ ٤٠٥

(١٥٩) ابن الأثير، «الكامل في التاريخ»، مصدر سبق ذكره، المجلد العاشر، ص ٢٨٣ ــ ٢٨٤

كان سكان بيت المقدس وحاميتها يزيدون على السبعين ألفا وفق العديد من المؤرخين، وكل من استطاع اللجوء الى المسجد الاقصى فعل ذلك وليس من شك في ان المقصود هنا هو الحرم الشريف بكل مبانيه وساحاته.

(١٦٠) غوستاف لوبون، «حضارة العرب»، ترجمة محمد عادل زعيتر (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، ١٩٤٥)، ص ٣٥٣ ــ ٣٥٤

ويختصر امين الريحاني أساليب الافرنج الهمجية بقوله:

> وأولئك الافرنج قد فتحوا القدس «يكرهون العرب على القاء انفسهم من أعالي البروج والبيوت ـ الكلام للمؤرخ الفرنسي ميشو ـ ويجعلونهم طعما للنار ويحرجونهم من الأقبية، ويجرّونهم في الساحات، ثم يقتلونهم فوق جثث الآدميين وكانوا في كل بلد يدخلونه يقتلون أهله ويخربون عمرانه، ويحرقون كتبه ومتاعه وآثاره». (١٦١)

لم يكن ممكنا، في حالة الضعف والانهيار التي كانت عليها الخلافة العباسية في بغداد، ان يحدث رد على احتلال القدس، المدينة المدمّرة المحترقة. واتفق الصليبيون، من ناحيتهم، على تعيين غودفري دي بويون على المدينة، وكان لقبه حامي القبر المقدس ولما جاء اخوه بولدوين، بعد عام، كان اول الملوك الافرنج.

ج ـ المملكة اللاتينية

يعتبر الملك بولدوين (١١٠٠م ـ١١١٨م) المؤسس الفعلي للمملكة اللاتينية التي كان مقرها مدينة القدس؛ فقد احتل عددا من المدن الساحلية، منها أرسوف وقيسارية وعكا وبيروت، وبنى قلعة الشوبك في محاولة منه للسيطرة على تجارة البحر الاحمر. وعندما توفي كانت حدود مملكته من العقبة حتى بيروت، وكانت في اوج قوتها. غير انه لم يتمكن، مع ذلك، من احتلال صور مثلا او عسقلان (وقد احتُلّتا فيما بعد)؛ فقد كان اتساع ملكه الى الداخل برا من جهة شرقي الاردن.

أما بعض المدن الداخلية، فلم تُحتل قط من قبل الصليبيين، وان دفعت الضرائب أحيانا، ومنها: دمشق، وحماه، وحلب، وحمص، وبعلبك.

امتاز بولدوين بأنه حاول جاهدا نبذ سياسة الحقد الأعمى، فحاول كسب المسيحيين من سكان البلاد، كما تقرب من المسلمين واليهود بعد ان أذن لهم في عدد محدود من المساجد والمعابد، وأعاد للمدينة مكانة مرموقة، وقوّى صلات مملكته بأوروبا. (١٦٢)

بقيت عسقلان في هذه المرحلة مع الفاطميين، وكانت لها اهمية استراتيجية كبيرة لكونها ميناء تصل اليه الامدادات من مصر. ودينيا، كانت لها اهمية كبرى للمشهد الفخم الذي دفن فيه رأس الشهيد الحسين بن علي. وقد اختلف المؤرخون في مكان دفن رأس الحسين بعد استشهاده في كربلاء؛ فمنهم من قال بدفنه في دمشق، ومنهم من قال بنقله منها الى عسقلان. ومما يؤيد الرواية الثانية ان اهل

---

(١٦١) امين الريحاني، «النكبات» (بيروت: مؤسسة دار الريحاني، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦)، ص ٨٦ ـ ٨٧.

(١٦٢) اعتبر بولدوين الملك الأول على القدس منذ عهد هيرودوس، وقد أطلق العرب عليه اسم بردويل.

قرية زرنوقة، القريبة من الرملة، قد توارثوا عن الآباء والأجداد أنباء مسيرة القافلة التي حملته الى عسقلان؛ فهم يشيرون الى بقعة محددة من قريتهم، ويقولون ان القافلة قد استراحت هنا، وهي في طريقها الى عسقلان. ولما خشي الفاطميون ان تسقط المدينة بأيدي الصليبيين عملوا على نقل رأس الحسين من عسقلان الى القاهرة، وبنوا له مشهدا فخما في قلب العاصمة، وهو المعروف اليوم بمسجد سيدنا الحسين.(١٦٣)

وفي عهد بولدوين الثالث (١١٤٣م ـ ١١٦٢م) سقطت عسقلان المعقل الفاطمي الاخير، فاعتبر الصليبيون ذلك النصر الكبير دلالة على ثبات أقدامهم. والواقع ان جذور المملكة اللاتينية كانت قد اخذت تهتز بسبب ظهور شرارة الجهاد الاسلامي التي رفعها عمادالدين زنكي؛ وهو تركي حكم أولا باسم السلجوقيين على الموصل، وقد صمم على توحيد سوريا تحت حكمه وتطهيرها من الافرنج. وكان استرداده للرها بداية للمرحلة الصليبية الثانية؛ فقد تحمس الصليبيون من ناحيتهم وأرسلوا الحملة الثانية، فساهموا من حيث لا يدرون في انتشار حالة الجهاد بين المسلمين.

د ـ استرداد بيت المقدس

ارتبط اسم الملك الناصر السلطان صلاح الدين الأيوبي بفلسطين، كما لم يرتبط اسم آخر؛ فهو الذي خاض سلسلة من الحروب لتحرير فلسطين؛ وهو الذي عادت في عهده فلسطين الى ابنائها والى العرب والى المسلمين؛ وهو الذي عاش على أرضها فحكم بالعدل والحكمة، وجاءت سيرته مناقضة كل التناقض لسيرة الافرنج الصليبيين في تاريخ مدينة القدس. وفي تاريخ العرب والمسلمين يُذكر صلاح الدين مع الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز.

ولد صلاح الدين الأيوبي في تكريت من عائلة كردية (١١٣٨م)، وانتقلت عائلته وهو طفل الى الشام. وكانت اهتماماته الاولى دينية اكثر منها عسكرية.(١٦٤)

ابتدأت حروبه في فلسطين في أواخر سنة ١١٧٧ م، فاسترد دير البلح وغزة وعسقلان، ووصل

---

(١٦٣) المقريزي، «الخطط المقريزية» (لسان ـ الشيّاح: منشورات مكتبة العرفان، لا تاريخ)، المجلد الثاني، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

انشىء المشهد الحسيني سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤ ـ ١١٥٥م، لينقل اليه رأس الحسين بن علي بن أبي طالب. ولم يبق منه الآن غير الباب المعروف بالباب الأخضر ولما تولّى الخديوي اسماعيل سنة ١٢٧٩هـ / ١٨٦٣م، أمر بتحديد المسجد وتوسيعه، وقد استغرق العمل عشر سنوات، وتم البناء في ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣ م ـ نقلا عن: «مساجد مصر: ٢١هـ ـ ١٣٦٥هـ / ٦٤١م ـ ١٩٤٦م» (المملكة المصرية: ورارة الأوقاف، ١٩٤٨)، الجزء الاول، ص ٣٣

(١٦٤) Hitti, *op.cit*, p 600

بجيشه الى مقربة من نابلس. وطلب منه الملك بولدوين الرابع عقد الهدنة، فوافق صلاح الدين، وكانت الهدنة في ايار / مايو ١١٨٠م. غير ان الجيش الأيوسي هزم بعد ذلك في تل الصافي؛ فقد باغته جيش الافرنج وتمكن من هزيمته، مما اضطر صلاح الدين الى العودة الى مصر مع فلول جيشه، وقد هلك منهم الكثير في الصحارى جوعا وعطشا.

كان من شروط الهدنة بين الفريقين حرية التجارة ومرور القوافل. غير ان رينالد، حاكم الشوبك والكرك (في شرق الاردن)، نقض الهدنة لما انقضّ على قافلة عربية في تيماء. وأرسل صلاح الدين الى الملك بولدوين الرابع في القدس يذكره بالهدنة، ويطلب التعويض، فرفض الملك الطلب. وكرر رفضه ثانية بردّ البضائع والتعويض في مقابل الأسرى من الحجاج لدى صلاح الدين؛ وكان هؤلاء في طريقهم الى فلسطين، فقذفت بهم أنواء البحر الى شواطىء مصر. ولما لم يبق إلا الحرب حلا، توجه صلاح الدين الى دمشق، وأخذ يستعد للتحرير الشامل.

خلال الاستعداد للحرب، كان صلاح الدين يرسل الغارات على العديد من مدن فلسطين. بينما كان رينالد، من ناحيته، يتعرض للقوافل العربية، واستبد به الغرور حتى حاول التقدم نحو المدينة المنورة، ورفض استقبال مبعوثي صلاح الدين. ولما توجه صلاح الدين نحو فلسطين للمرة الثانية، كان قد اتم إعداد جيشه على اكمل وجه.(١٦٥)

كانت المعركة الاولى على أبواب طبريا، وقد استردها بعد حصار ستة أيام وكان استرداد هذه المدينة ايذانا بهول المعركة القادمة.

تقابل الجيشان في سهل حطين، والتحما في الثالث والرابع من تموز / يوليو ١١٨٧م. ولما كان الحر شديدا، فقد تغلب على جيش الافرنج العطشُ والارهاقُ من أسلحته الثقيلة. ولما أُحرقت أمامه الحشائش، زاد لهيب النار في قسوة المعركة.(١٦٦)

في المقابل، كان جيش صلاح الدين خفيف السلاح، وما برح يمطر عدوّه بوابل من السهام حتى تحقق له النصر، وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للافرنج. ومن نجا منهم وقع في الأسر. وكان في مقدمة الأسرى ملك القدس غي دي لوزينيان؛ وقد عامله صلاح الدين بنبل، وكما يعامل الملوك قائلا له: «الملك لا يقتل ملكا». أما معاملته لرينالد، فقد اختلفت تماما؛ فهذا ما كان ملكا، ولا راعى حرمة العهود، وقد قتله صلاح الدين بنفسه جزاء صلفه ورعونته.(١٦٧)

---

(١٦٥) مصطفى الدباغ، «بلادنا فلسطين»، مصدر سبق ذكره، الجزء التاسع، القسم الثاني، رقم ١، ص ١٨٤ ـ ١٨٩.

(١٦٦) Baldwin, *op.cit.*, p. 303

(١٦٧) Hitti, *op.cit.*, pp. 601-602.

وكانت حطين هي المعركة الفاصلة، وهي بداية النهاية في حكم الافرنج الصليبيين.

رفض الافرنج شروط صلاح الدين لتسليم مدينة القدس؛ وقد عرض عليهم ان يؤمّنهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم، ويسمح لمن يشاء منهم بالخروج سالما وكان ردهم بأن الموت أيسر عليهم من تسليم المدينة للمسلمين لكن هذا الموقف لم يكن موقف المسيحيين الأورثودكس الشرقيين، اذ انهم كانوا يشعرون بالحنين الى ممارسة شعائرهم الدينية بحرية تامة، ويلغتهم؛ فهم ما برحوا، منذ قدوم الافرنج الصليبيين، يتسهدون طقوسا لاتيية لا يفقهونها. ولما وثق صلاح الدين بالعالِم الأورثوذكسي يوسف بابيط اتخذه مستشارا، وقد نقل له ترحيب الأورثوذكس العرب بقدومه، واستعدادهم للمساعدة.

في خريف سنة ١١٨٧م، وقف صلاح الدين عند أسوار القدس، وكان ملكها قد أسر في حطين ــ كما دكرنا ــ فحل مكانه في قيادة المدينة باليان بن بيرزان، وهو احد الأمراء الناجين بعد حطين. وقد استأذن صلاح الدين في زيارة القدس ليلة واحدة ليعود بأهله، فأذن له. لكن سكان المدينة الافرنج اجبروه على البقاء لتسلم القيادة. وقد تفهم صلاح الدين موقفه هذا فيما بعد، ولم ينتقم منه.

بعد خمسة أيام من الحصار، أمضاها صلاح الدين في دراسة أوضاع السور المنيع، ابتدأ الهجوم بالمجنيق من جهة باب العامود، وكان قتالا غاية في الضراوة؛ فكل فريق يرى في القتال واجبا دينيا مقدسا. واستمر القتال أسبوعا كان خلاله خيالة الافرنج يخرجون للمبارزة، وكان المجاهدون يقتربون من السور يثقبونه لفتح الثغرات. ولما ايقن الافرنج بقرب الهزيمة أرسلوا يطلبون الأمان وتسليم المدينة. فرفض صلاح الدين، وكان ردهم بأنهم سيبادرون الى قتل أبنائهم ونسائهم وأسراهم، وكذلك الى حرق الأموال وهدم الأقصى، وبعدها سوف يقاتلون عن آخرهم.

استشار صلاح الدين من معه، فاتفقوا على وقف الحرب واعطاء الأمان، كما اتفقوا على فدية الرجل بعشرة دنانير، والمرأة بخمسة، والطفل بدينارين؛ فمن ادّى ذلك خلال اربعين يوما نجا، وإلا صار مملوكا.

دخل صلاح الدين الايوبي وجيشه بيت المقدس في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ / ٢ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١١٨٧م. والحكايات التي تروى عن رأفته ورحمته وإبائه لا حصر لها؛ فقد سمح للافرنج بأن يأخذوا ما يشاؤون من الأموال، وأرسل ملكة القدس الى زوجها لوزينيان، الملك الأسير في قلعة نابلس، مع مالها وحشمها. ولما خرج البطريرك ومعه من الأموال ما لا حصر له، لم يأخذ منه سوى الدنانير العشرة، الفدية المطلوبة.

وابتدأ الاصلاح والعمران، وكان المسجد الأقصى مملوءا بالأقذار؛ فقد كان يستعمل اسطبلات

للخيول، ومستودعات للأسلحة، ومساكن. وبعد اسبوع من العمل، تمكن صلاح الدين من الصلاة في المسجد.(١٦٨)

ان المفارقة مذهلة بين صلاح الدين في القدس، والافرنج الصليبيين في القدس قبل ثماني وثمانين سنة. ولننقل عن رنسيمان، لا عن مؤلف عربي، ما قاله في هذا الشأن:

> الواقع ان المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والانسانية، فبينما الفرنج منذ ثماني وثمانين سنة يخوضون دماء ضحاياهم، لم تتعرض دار من الدور للنهب، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه اذ صار رجال الشرطة بناء على أوامر صلاح الدين يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين، وفي تلك الأثناء حرص كل مسيحي على ان يلتمس المال لافتدائه وأخذ باليان كل ما في بيت المال من الأموال لدفع ما وعد به من أموال الافتداء، وقدرها ثلاثون ألف دينار.
>
> . . . ومن المناظر التي تدعو للأسى والحزن، ما حدث من التفات «العادل» الى اخيه صلاح الدين يطلب منه اطلاق سراح ألف اسير، على سبيل المكافأة عن خدماته له، فوهبهم له صلاح الدين، فأطلق على الفور سراحهم واذ انتهج البطريرك هرقل لأن يلتمس هذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير، لم يسعه إلا ان يطلب من صلاح الدين ان يهبه بعض الأرقّاء ليعتقهم، فبذل له صلاح الدين سبعمائة اسير، كما جعل صلاح الدين لباليان خمسمائة اسير ثم أعلن صلاح الدين انه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز فلما أقبل نساء الافرنج اللائي افتدين أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن، بعد ان لقي أزواجهن او آباؤهن مصرعهم، او وقعوا في الأسر، أجاب بأن وعد باطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كل بحسب حالته. والواقع ان رحمته وعطفه كانا على نقيض أفعال الغزاة في الحملة الصليبية الأولى (١٦٩)

وبقي في المدينة الأورثوذكس واليعاقبة، فابتاع اغنياؤهم قسما كبيرا من الأملاك الخالية، وأعفي فقراؤهم من دفع الجزية.

تلاحقت الانتصارات بعد استرداد القدس من حصون الشوبك (في الأردن) جنوبا حتى قلعة الشقيف (في لبنان) شمالا. ومن ناحية ثانية، ادى استرداد صلاح الدين للمدينة المقدسة الى الحملة الصليبية الشهيرة الثالثة بقيادة الملوك الثلاثة،(١٧٠) الذين لم يصل منهم سوى ريتشارد قلب الاسد، ملك انكلترا.

لم يتقابل الملكان ــ صلاح الدين وريتشارد ــ قط، غير انهما تبادلا الهدايا. ولما مرض ريتشارد ارسل له صلاح الدين طبيبه الخاص. وفي سنة ١١٩٢م وقعا صلحا اعترف فيه بسيادة الافرنج على قسم من الساحل، وبحرية الحج.

---

(١٦٨) مصطفى الدباغ، «بلادنا فلسطين»، مصدر سبق ذكره، الجزء التاسع، القسم الثاني، رقم ١، ص ١٩٠ ــ ٢٠٠

(١٦٩) ستيفن رنسيمان، مصدر سبق ذكره، الجزء الثاني، ص ٧٥٢ ــ ٧٥٣.

(١٧٠) هم: فردريك بربروسّا الألماني وأوغسطس الفرنسي وريتشارد قلب الأسد الانكليزي.

استمرّ وجود الافرنج قرنا من الزمن بعد صلاح الدين، وتلك هي المرحلة الثالثة التي اتسمت بتقلّص نفوذهم في شريط ساحلي ضيق، وبالحروب الصغيرة المتواصلة وقد انتهت هذه المرحلة نهائيا بخروجهم في عهد المماليك. غير انهم لم يفقدوا الأمل او المحاولة لاسترداد القدس، ففي عهد أبناء صلاح الدين خططوا لاحتلال الاسكندرية، لمبادلتها بالقدس وفي عهد الكامل بن العادل، تم بينه وبين فردريك الثاني اتفاقية تنص على اعطائه الأماكن المقدسة (القدس، وبيت لحم، والناصرة) مع صيدا من لبنان لمدة عشر سنوات (١٢٢٩ م ــ ١٢٣٩م)، وهذا مع بقاء الحرم الشريف مع المسلمين. وقد تنازل الكامل لفردريك في مقابل مساعدته ضد أعدائه من الأيوبيين!! لكن المسلمين عادوا فاستردوا الأماكن المقدسة بعد ثماني سنوات فقط. وللمرة الثالثة، حكم الافرنج القدس (١٢٤٤م) لمدة سنة واحدة، وقد استردها نهائيا الملك الصالح نجم الدين بالتعاون مع الخوارزميين الأتراك.[١٧١] وتثبت هذه المرحلة ان الانقسامات الداخلية كانت صفة مشتركة بين الفريقين.

ساهم وجود الصليبيين في فن العمران في فلسطين، وقد تأثرت به البلاد الى مرحلة ما حتى بعد خروجهم، فقد اشتهروا ببناء الكنائس وترميم ما تهدم منها، وببناء القلاع والمستشفيات وبنوا في القدس أسواقا تجارية وبيوتا واسعة من الحجر، غير انهم لابتعادهم عن الاختلاط بالسكان لم يبنوا بيوتا صغيرة داخل الأحياء الآهلة في المدن. لذا كان عمرانهم، في الدرجة الاولى، من نوع المباني العامة، والتي كانوا يستعملونها للسكن، كذلك. أما قلاعهم فكانت على نمط قلاع القرون الوسطى في اوروبا؛ ومن اهمها في عتليت، وأرسوف، والقسطل، وعسقلان، وغيرها.[١٧٢]

سادسا: التطور العمراني والحضاري حتى القرن العشرين

أ ــ عهد الايوبيين (٥٦٧هـ ــ ٦٤٨هـ / ١١٧١م ــ ١٢٥٠م)

بعد ان استتبت امور الدولة لصلاح الدين في دمشق، عاد الى بيت المقدس، ومكث فيها يشرف بنفسه على بناء السور وعمارة الحرم الشريف وانشاء المدارس، ومن اهمها المدرسة الصلاحية التي كان السلطان يعين شيخها (عميدها) من بين أشهر العلماء. وفي عهد صلاح الدين، أيضا، انشىء البيمارستان (المستشفى) في قلب المدينة. ومن اشهر وزرائه، كان القاضي الفاضل من أبناء فلسطين، الذي قيل ان رسائله وانشاءه لو جمعت كلها لبلغت مائة مجلد؛ وقد كان، لبلاغته، يملي على كاتبين في آن واحد. وعنه قال صلاح الدين: «لا تظنّوا اني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم القاضي

---

(١٧١) Hitti, *op cit.*, pp 604, 606-607

(١٧٢) Dimitri C. Baramki, *The Art and Architecture of Ancient Palestine* (Beirut. Palestine Liberation Organization — Research Center, 1969), pp 221-222, 224-225.

الفاضل.»[١٧٣] وقال القلقشندي في صبح الأعشى: «يضرب المثل بأبي القاسم الطبراني في عوالي الحديث، وعبدالحميد الكاتب في الكتابة والوفاء، والقاضي الفاضل في الترسل.» والأول من طبريا، والثاني من قيسارية، والثالث من عسقلان.

كان التدريس، قبل عهد الأيوبيين، وقفا على الكتاتيب والجوامع أما في عهدهم، فقد عرفت فلسطين المدارس العلمية، وبلغ عددها سبعا في القدس وسواها من المدن، وقد احتوت كل منها على مكتبة ضخمة.

عمرانيا، أضاف الايوبيون الى الحرم الشريف والى حرم الخليل المنابر والأروقة، وانشأوا العديد من المساجد والمباني، وقاموا بترميم سور القدس مرتين، وبناء القلاع في اكثر من مكان للحماية. وأقاموا في خليج العقبة حصن فرعون لحماية المقدسات في الحجاز.[١٧٤]

لم تتصف المباني الأيوبية، وخصوصا البيوت، بأي نوع من أنواع النقش والابداع في هذا العهد الذي كان همه الأول مقارعة الافرنج وبناء القلاع الحصينة. ومن آثارهم حتى اليوم في القدس: الخانقاه الصلاحية (الرباط الصلاحي) في المدينة القديمة، والبناء ــ في الأصل ــ صليبي، إلا أنهم أضافوا اليه، وتحول فيما بعد الى دار للمجاهدين.[١٧٥]

ب ــ عهد المماليك (٦٤٨هـ ــ ٩٢٢هـ / ١٢٥٠م ــ ١٥١٧م)

عُرفت المرحلة الاولى من عهد المماليك بالمماليك البحرية، وقد بلغ عدد سلاطينها اربعة وعشرين، معظمهم من الأتراك. وكان الحدث البارز والأول في عهدهم هجوم المغول التتار بقيادة هولاكو، حفيد جنكيزخان. وكانت أعمال هولاكو وجيش المغول التتار في بغداد (١٢٥٨م) قد انتشرت في فلسطين؛ فقد أعاثوا بعاصمة الحضارة العربية خرابا وسلبا وقتلا، في المساجد والمكتبات والدور والقصور لأربعين يوما. وكان عدد القتلى من سكان المدينة مئات الألوف، بمن فيهم الخليفة العباسي وأهل بيته.[١٧٦] وقد ذهبت أعمال التتار في بغداد مثلا في تاريخ العرب، حتى امتلأ الشعر الحديث في عصرنا بتعبير «وهجم التتار»، كناية عن القمة في الوحشية.

(١٧٣) يوسف بن تغري بردي، «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» (القاهرة. وزارة الثقافة والارشاد القومي ــ المؤسسة المصرية العامة، لا تاريخ)، الجزء السادس، ص ١٥٧.

(١٧٤) راجع فيما يتعلق بالعهد الأيوبي: مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول الاسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٣، رقم ١، مصدر سبق ذكره، ص ٧ ــ ٣٣.

(١٧٥) Baramkı, *op.cit.*, pp. 228-229.

(١٧٦) محمد عمارة، «معارك العرب ضد الغزاة: حطين، تحرير القدس، المنصورة، عين جالوت، رشيد» (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢)، ص ١٢٣

وكانت حلب ودمشق، بعد بغداد، مسرحا لغزوات التتار. وتكررت مشاهد القتل والدمار. واستمر التتار في زحفهم حتى وصلوا الى غزة على أبواب مصر، يهدّدون المماليك في عقر دارهم. ولم يكن أمام الملك المظفر قطز إلا ان يجمع حوله ما امكن من الجيوش، مستثيرا حماسة الجميع لكسر شوكة المغول.

سار الملك قطز بنفسه على رأس الجيش، وجعل الأمير الظاهر بيبرس قائدا له. وفي قرية عين جالوت، بالقرب من الناصرة، التقى الجيشان في سنة ١٢٦٠م، وكانت احدى المعارك الفاصلة الكبرى في تاريخ فلسطين والعرب. وقد اقتحم فيها الصفوف الملك بنفسه حين رأى شيئا من الاضطراب بين الجند، وكانت صيحته «وا إسلاماه» كافية لجمع الصفوف والقضاء على جيش التتار وقهره. وهكذا هزم المغول، وارتدوا نهائيا عن البلاد المقدسة؛ وهكذا تكرست النظرية الاستراتيجية بأن بلاد الشام بوابة مصر.(١٧٧)

وفيما بعد، تمكن الظاهر بيبرس من دحر المغول نهائيا من سوريا كلها، كما تمكن من تسلّم الحكم؛ وهو يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة المماليك.

وكان الحدث الثاني البارز اعلان السلطان الظاهر بيبرس البندقداري الحرب المقدسة، فكان يقود الحملات سنويا ضد الافرنج الصليبيين، وخصوصا منذ سنة ١٢٦٣م؛ وقد تمكن من اخراجهم من الناصرة، وقيسارية، وأرسوف، وصفد، ويافا. وكذلك اخرجهم من الكرك والشقيف، ومن انطاكية وحصن الأكراد. ومن بعده لم يمكث ولداه في الحكم طويلا، فتولى المُلك السلطان قلاوون (ولقبه الملك المنصور) وأكمل سلسلة الحروب. وعندما تسلم ابنه السلطان الأشرف، كانت عكا وحدها ما زالت مستعصية من فلسطين، فاستردها في ٢٨ أيار/مايو ١٢٩١م، ثم لاحق الصليبيين عبر الساحل. وكانت أرواد آخر بقعة يستردها الأشرف خليل بن قلاوون (١٧٨)

ومنذ عهد السلطان بيبرس، كان التقدم في العلم والعمران يسيران على خطين متوازيين مع صدّ المغول واخراج الصليبيين. وقد قام بيبرس بالاصلاحات العديدة في الزراعة والري، وانتظم البريد في عهده الى حد لا مثيل له؛ وقد قيل ان الرسائل الخاصة كانت تنقل مع رسائل الدولة، ويستغرق البريد من القاهرة الى دمشق ثلاثة ايام.

في تاريخ فلسطين، كان بيبرس بين الخلفاء والسلاطين اعظم من بنى؛ فقد جدّد ما تهدم من قبة الصخرة، كما جدّد في حرم الخليل، وأقام العديد من الجوامع والمشاهد للأنبياء والصحابة الأوائل؛ فقد بنى على مقام النبي موسى قبة ومسجدا، وجدّد سماط ابراهيم الخليل. ومن الصحابة الذين بنى

---

(١٧٧) المصدر نفسه، ص ١٢٤ — ١٣٧

(١٧٨) Hitti, *op.cit* , pp 607, 610-613

لهم الأضرحة: أبـو عبيدة بن الجراح في الغور، وجعفر الطيار في مؤتة. وكانت حكمة السلطان بيبرس في بناء المشاهد للأنبياء والصحابة، تكمن في إحياء المشاعر الدينية وسير الصحابة الأوائل ورجال الفتح؛ وبذلك يتكرس حق العرب المسلمين في البلاد المقدسة (١٧٩)

اشتُهر عنه في العمران، كذلك، بناء الطرق والجسور والأبراج، وتحصين المدن والمدارس. وقد انشأ في غزة مكتبة ضمت الآلاف من الكتب.(١٨٠)

وقد استمر من جاء بعد بيبرس في انشاء المدارس والاصلاح والبناء، وخصوصا سور القدس ومن مميزات المماليك انهم، كالأيوبيين، اعتنوا بانشاء مجلس للشورى، وكان عندهم محكمة للمظالم برئاسة السلطان وعضوية المذاهب الأربعة، وهي تقابل محكمة العدل العليا في عصرنا.

في المرحلة الثانية من عهد المماليك، وهي المعروفة بالمماليك البرجية (٧٨٤هـ ــ ٩٢٢هـ / ١٣٨٢م ــ ١٥١٦م)، انتقل الحكم الى الشركس، فحكم منهم واحد وعشرون سلطانا. ومرة ثانية، هجم المغول بقيادة تيمورلنك، وهو الذي ترك دمشق خرابا أما الخطر الثاني، فكان الخوف من تجدد الحملات الصليبية؛ وقد ظهـر هذا الخوف في إقدام المماليك على هدم العديد من القلاع كي لا يعود اليها الافرنج؛ وقد ادّى ذلك الى اختفاء مدن الساحل الفلسطيني ذات الأمجاد القديمة، وهي: عسقلان، وأرسوف، وقيسارية أما عكا فقد كانت شبه خراب، وقد جُدد بناؤها فيما بعد في القرن الثامن عشر، كذلك احتاجت بقية المدن الساحلية الى فترة من الزمن حتى يعود اليها العمران والحياة.(١٨١)

تطور فن العمران في عهد المماليك تطورا مميزا من سابق العهود، حتى ان بناء البيوت تطور لديهم من ضرورة للعيش الى فنّ جمالي، فاستعملوا النقش والزخارف والحجارة المتعددة الألوان. وقد عرف عنهم استعمال لون محدد لكل صف من الحجارة، فيكون الصف الاول من حجر الجير الأصفر الباهت، يليه الحجر الزهري، فالأسود، فالأبيض، وتتكرر الألوان حتى السقف. وكذلك تُستعمل في

---

(١٧٩) بالاضافة الى هؤلاء الذين بنى لهم الظاهر بيبرس المشاهد، فالمعروف ان العديد من رجال الصحابة ومن رجال الفتح استشهدوا في فلسطين او توفوا فيها، وأضرحة معظمهم معروفة، منهم: شرحبيل بن حسنة، ومعاذ بن جبل، ويزيد بن ابي سفيان، وعبادة بن الصامت، وعبدالله بن ابي سرح، ومحمد بن ابي حذيفة، ودحيّة الكلبي، وعبدالله بن عمرو بن العاص، والفضل بن العباس، وغيرهم

(١٨٠) مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول الاسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٣، رقم ١، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢ ــ ٥٥.

(١٨١) راجع فيما يتعلق بعهد المماليك:

ــ المصدر نفسه، ص ٣٤ ــ ٢٠١؛

ــ مصطفى الدباغ، «بلادنا فلسطين»، مصدر سبق ذكره، الجزء التاسع، القسم الثاني، رقم ١، ص ٢٥٧ ــ ٣٠٠.

بناء السور الخارجي الحجارة الملونة، وبالترتيب نفسه. أما المباني العامة، فكانت لا تقل جمالا عن الدور الخاصة. وفي الداخل، كان المماليك يكثرون من استعمال السيراميك بفن وإبداع. وفي مدينة القدس وحدها، وجد حتى حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧ وضم المدينة الى «دولة اسرائيل» ثمانية وتسعون بيتا من العهد المملوكي؛[١٨٢] ولعل اجمل مبانيهم قصر المظفرية.

وانتقلت عدوى الفن لدى المماليك من البناء الى السلاح؛ فهم اول من اعتنى بصناعة النقش الجميل والكتابة العربية على السلاح وعلى الخوذ الحديدية.[١٨٣]

ومن العادات والتقاليد التي توارثها الفلسطينيون عن المماليك حتى يومنا هذا، اطلاق المدافع في الأعياد، والاحتفال بختم القرآن الكريم، والاحتفال بأول رمضان المبارك وليلة القدر.

وصل التعليم في عهد المماليك الى مرحلة التخصص والدراسة العالية. وكان الطالب بعدها يعطى اجازة في التدريس او الفتوى او الحديث او الفقه. وفي العلوم كانت دراسة الطب، او الفلك، او الهندسة، او التاريخ، او الجغرافيا، او الرياضيات. ويصف المؤرخ مصطفى الدباغ أجواء الحياة العلمية في تلك المرحلة كما يلي:

> واذا تم انشاء المدرسة يحتفل في افتتاحها احتفالا شائقا فيحضر الاحتفال السلطان والقضاة الأربعة والأمراء وتمدّ الأسمطة وتملأ الأحواص بالسكر المذاب بالماء. كما توزع الهات على الدين راقوا او عملوا في البناء من مهندسين ومراقبين وعمال وغيرهم ويخصص مكان لمكتبة المدرسة ليرجع اليها الشيوخ والطلاب. وأوقفوا على هذه المدارس الأوقاف الواسعة والغنية في الشام ومصر لتضمن للطلاب ولأساتذتهم الانصراف انصرافا كليا الى الاشتغال بالعلم.
>
> . . . لقد ازدهرت الحياة العلمية في عهد المماليك ازدهارا عظيما فان الموسوعات والكتب التي ألفت في هذا العهد كثيرة وقد شملت التاريخ والجغرافيا والطب والفلسفة والأدب والزراعة وغيرها فآثار القلقشندي المتوفى عام ٨٢١هـ وخاصة موسوعته صبح الأعشى، وآثار ابن حجر والسخاوي والمقريزي في كتابه «السلوك» ويوسف بن تغري بردي في «النجوم الزاهرة» والدميري المتوفى عام ٦٠٨هـ في كتابه «حياة الحيوان الكبرى» وغيرها، تدل على ما وصلت اليه هذه الحياة العلمية من تقدم.[١٨٤]

ج ـ عهد العثمانيين (٩٢٢هـ ـ ١٣٣٥هـ / ١٥١٦م ـ ١٩١٧م)

حكم سلاطين آل عثمان بلادهم قبل الاستيلاء على بلاد العرب اكثر من مائتين وخمسين عاما.

---

(١٨٢) أقدمت الحكومة الاسرائيلية في السنوات الاخيرة على هدم العديد من الأبنية القديمة، بدلا من المحافظة عليها.

(١٨٣) Baramki, *op.cit.*, pp 232-238

(١٨٤) مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول الاسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٣، رقم ١، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

كانت بداية حكم العثمانيين منذ زمن السلطان سليم خرابا، سبب الثورات التي قامت ضدهم. ولما تمكنوا نهائيا من القضاء على ثورة الغزالي ــ وهي الأخيرة ــ انتقموا بنهب المحاصيل وايذاء الناس وقطع الأشجار.

كان السلطان سليم الفاتح، اول من حكم بلاد العرب من الأتراك العثمانيين، يعرف العربية والفارسية الى جانب التركية. وقيل انه أراد ان يجعل اللغة العربية اللغة الرسمية، إلا انه توفي قبل تنفيذ ذلك.

في عهد ابنه السلطان سليمان القانوني، وصلت جيوش العثمانيين الى فيينا. وقد تحالف السلطان مع ملك فرنسا (١٥٣١م) ضد آل هابسبورغ، حكام النمسا، تحالفا امتد ثلاثة قرون وفي عهده امتدت حدود الدولة الى بلاد البلقان وأجزاء من اليونان والمجر (هنغاريا) والقرم (على البحر الاسود)، بالاضافة الى البلاد العربية باستثناء المغرب؛ ونظرا الى تحالفه مع فرنسا، فقد سمح للفرنسيين بأن يؤسسوا مراكز تجارية (١٥٣٠م) في عكا ومدن الساحل. وكانت هذه بداية ما عرف بـ «الكابيتولاسيون»، اي مبدأ الامتيازات الاجنبية التي منحها العثمانيون للأوروبيين. وبعد خمسين عاما (١٥٨٠م)، منح الانكليز الامتيازات نفسها.

عمرانيا، انشأ السلطان سليم في فلسطين قلاعا ومنشآت متعددة في القدس من مدارس وجوامع وعمرت في عهده قرية دير الأسد من أعمال عكا.

وفي عهد السلطان محمود الاول وقعت معاهدة (١٧٤٠م) بينه وبين لويس الخامس عشر الفرنسي، فتحت بموجبها فلسطين لجميع المسيحيين الوافدين تحت حماية العلم الفرنسي؛ وفي هذه المعاهدة أساس الحماية الفرنسية للكاثوليك في الأمبراطورية العثمانية. وكان من اثر هذه المعاهدة ان اسس اللاتين في كل من بيت جالا وغزة (١٧٥٦م ــ ١٧٥٧م) مدرسة للبنات؛ وكانت تلك اول تجربة من نوعها في البلاد. وأول مدرسة بعد هذه التجربة، أسست في بيروت (١٨٣٤م)، ثم في استانبول (١٨٦١م).[١٨٥]

في الربع الاخير من القرن الثامن عشر، دخلت روسيا مع العثمانيين حربا طويلة انتهت بهزيمة العثمانيين، ووضع روسيا أقدامها في البلاد عبر معاهدة كوجوك قينارجه (١٧٧٤م)؛ فقد ضمنت حقها في رعاية المسيحيين الأورثوذكس، وفي التدخل في شؤون الدولة كلما رأت ذلك في مصلحتها. ويمكن القول ان العد العكسي في الحكم العثماني وانهياره قد ابتدأ في هذه المرحلة؛ فقد باتت واضحة مطامع الشرق الروسي والغرب الاوروبي في الدولة العثمانية.

---

(١٨٥) مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول الاسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٤، رقم ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠.

اهتم الحكام المحليون بالعمران؛ فالسلاطين، وخصوصا بعد ان اتخذوا لقب الخليفة منذ المعاهدة العثمانية ـــ الروسية المذكورة، كانت همومهم حماية أطراف الدولة، والحد من النفوذ الاجنبي

وقد حكم آل الظواهرة البلاد ثمانين سنة، وامتد نفوذهم من جبل عامل الى أطراف جبال القدس، ومن البحر المتوسط حتى جبال عجلون. وقد صرفوا اهتمامهم لترميم واعادة بناء القلاع والأسوار والمدن المهدمة نتيجة الحروب الصليبية. وكان ان جددوا قلعة صفد، وقلعة طبريا وسورها وجامعها، وكذلك سور عكا وحصونها وأبراجها، ومدينة حيفا وحصنها.[١٨٦]

واشتهر عهد احمد الجزار، والي عكا، بظلم الرعية؛ فقد كان يفتك بكل ثري من غير جماعة الأشراف غير انه ـــ عمرانيا ـــ كانت له آثار ظاهرة الى يومنا في عكا؛ فقد بنى لها سورين، الواحد ضمن الآخر، وثكنة عسكرية وسوقا تجارية وحمامات وخانات، كما بنى الجامع الشهير باسم جامع الجزّار.[١٨٧]

وكان العمل الخالد الذي قام به انه صدّ نابليون عن أسوار عكا، فمن أسرار قوته وبطشه انه ارتد الى عكا وتحصّن فيها بعد ان هزمه نابليون بونابرت (١٧٩٩م). واستمر حصار القائد الفرنسي للمدينة شهرين، وتدخل الأسطول الانكليزي لمساعدة الجزار بالمهندسين والمدفعيين والذخائر، وأخيرا ارتد نابليون عن أسوار عكا ذلك الارتداد الشهير في التاريخ.[١٨٨]

في عهد السلطان محمود الثاني كانت فتوحات ابراهيم باشا، ابن محمد علي باشا والي مصر، في بلاد الشام والجزيرة. وقد كان من ابرز آثار هذه الفتوحات: على الصعيد السياسي، احتدام التنافس بين العنصرين العربي والتركي. وقد انتهى بانسحاب ابراهيم باشا من سوريا (١٨٤٠م)؛ وعلى الصعيد الثقافي، انتشار نظام التعليم الذي ادخله ابراهيم باشا. فقد كان نظاما هادفا الى ايقاظ الوعي القومي العربي.

عمرانيا، جدد حاكم يافا، محمد ابو نبّوت، مباني المدينة وأقام فيها سدا ضخما، وجامعا وسبيلا يعرفان باسمه. وفي عدة اماكن من فلسطين، جرت اصلاحات عمرانية في عهد محمود الثاني (١٨٠٨م ـــ ١٨٣١م)، منها تعمير قرى مهدمة، وكذلك الأبنية والقنوات في عكا بعد حرب نابليون، ومنها اصلاح الطرق عامة والمسجد الأقصى الذي أُضيفت اليه النقوش. أما قبة مسجد الصخرة، فقد دعمت في عهد ابنه السلطان عبدالمجيد، مع اضافة عمارات جديدة الى الحرم الشريف لم يبن مثلها منذ عهد عبدالملك بن مروان.

---

(١٨٦) المصدر نفسه، ص ٤٢ ـــ ٤٣.

(١٨٧) المصدر نفسه، ص ٤٦ ـــ ٤٧.

(١٨٨) «دائرة المعارف الاسلامية»، لجنة الترجمة (القاهرة: لا ناشر، ١٩٣٣)، المجلد السادس، ص ٣٧٢ ـــ ٣٧٣.

وفي الوقت نفسه، الذي بنى فيه هؤلاء السلاطين وشادوا، سمحوا للآخرين بأن يبنوا هم أيضا. ففي سنة ١٨٥٤م، امتلك اليهود اول قطعة ارض في مدينة القدس، وقد اطلق عليها حي «مونتفيوري» نسبة الى موسى مونتفيوري الثري البريطاني. وفي سنة ١٨٧٠م، منحت الحكومة اليهود ارضا أقاموا عليها اول مدرسة زراعية عرفت بمدرسة «نيتر» قرب يافا. وعندما زار ولي عهد بروسيا القدس، أهداه السلطان عبدالعزيز أرضا من المستشفى الصلاحي، وقد بنيت عليها فيما بعد كنيسة الدباغة. وفي سنة ١٨٦٩م، نزلت اول جالية ألمانية في مدينة حيفا واستقرت فيها.

في عهد آخر السلاطين الكبار، عبدالحميد الثاني (١٨٧٦م ــ ١٩٠٩م)، كبرت المسألة الشرقية وتعقدت، وناء بالدولة عبء الدين مما جعلها عرضة لأطماع الشرق والغرب معا، ولأطماع الصهيونية في آن واحد (نعالجها في القسم الرابع). غير انه على الرغم من هذه القضايا الرئيسية كلها، فقد تطورت استانبول الى مدينة مزدهرة بالكليات في الطب والادارة، ودار الفنون، وأصبحت قبلة العرب الموسرين لتعليم أبنائهم التعليم العالي. غير ان ذلك لا يعني ان التعليم في المرحلتين الابتدائية والاعدادية كان مرضيا في البلاد العربية عامة. وفي فلسطين خاصة، لا وجه للمقارنة بين المدارس في عهد المماليك والعهد العثماني في مرحلته الاخيرة.[١٨٩]

كان مستوى التعليم في المدارس الحكومية الرسمية متأخرا جدا، وذلك لأن المدارس نفسها كانت على غاية من الضعف، ولأن الطلاب من ناحيتهم أخذوا ينفرون من سياسة التتريك. وبعيد صدور الدستور (١٩٠٨م)، انشئت اول مدرسة وطنية في البلاد. أما المدارس الأجنبية فكانت متعددة، منها مدارس للألمان وللانكليز وللمسكوب (الروس) وللأميركان وللفرنسيين؛ ومن حيث التوزيع الطائفي كانت هذه المدارس والارساليات موزعة بين الانجيليين واللاتين والاورثوذكس والكاثوليك.

اتصف العهد العثماني، وخصوصا في مرحلته الأخيرة، بالقوة والبطش. وقد ازداد هذا البطش بعد فشل التجربة الدستورية مرتين (١٨٧٦م، و١٩٠٨م)، وبعد احتدام الصراع بين السياسة العربية والسياسة الطورانية. أما الصلات بين فلسطين والآستانة، فقد بقي الأبرز منها حتى نهاية عبدالحميد، الصلات الادارية والعمرانية والدينية؛ ففي عهده أُنشئت سكة الحديد (١٨٩٢م) بين القدس ويافا، كما اعيد بناء مدينة بئر السبع في الجنوب، وقرية الحميدية بالقرب من بيسان. وقد اضيف الى الحرم الشريف من الثريات الثمينة والسجاد الثمين ما قيمته ثلاثون ألف ليرة عثمانية ذهبا. وهذا بينما الدولة ترزح تحت الدين؛ فإن دل هذا على شيء، فعلى اهتمام العثمانيين بالمقدسات الدينية اهتماما يعلو كل شيء.

(١٨٩) راجع فيما يتعلق بالعهد العثماني: مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول الاسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٤، رقم ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٧ ــ ١٥٥.

ان اهتمام العثمانيين بالوجه العمراني كان أفضل الوجوه الحضارية ــ نسبيا ــ وإن لم يكن وجها مبدعا.

* * *

أما بصورة عامة، فان اية محاولة لفهم طبيعة التطور من العهود العربية الاسلامية السابقة انتهاء بالعهد العثماني، تؤول الى الفشل ما لم تأخذ بعين الاعتبار النقاط التالية.

١ ــ كانت السلطة المركزية مركزية الى ابعد الحدود، والى الحد الذي جعل من الآستانة الكل بالكل؛ فالأقاليم تأتي اليها، والناس تأتي اليها، والأموال ترسل اليها، وكل الفرمانات والأوامر تصدر عنها، والسلاطين الحكام فيها باقون، ولم يُعرف انهم صرفوا اهتماما لزيارة البلاد الشاسعة التي يحكمونها. وهذا الفارق يتضح جدا بين الأيوبيين والمماليك من جهة وبين العثمانيين من جهة أخرى، وخصوصا بالنسبة الى القدس وفلسطين؛ فقد كان اهتمام الأيوبيين والمماليك، الذي يتعدى زيارة البلاد المقدسة الى الاقامة فيها فترات طويلة، أمرا لافتا للنظر. أما العثمانيون، فكان تغاضيهم عن هذا الأمر كليا هو اللافت للنظر ولا علاقة لهذه الملاحظة باستعداد العثمانيين للدفاع عن فلسطين وحمايتها من الخطر؛ وهذا ما حدث في عهد عبدالحميد ومن تلاه لما تعرضت الدولة للاغراء الصهيوني المالي أولا، وللجيش البريطاني الزاحف من غزة نحو القدس ثانيا.

٢ ــ اختلف العثمانيون عن الحكام السابقين بأنهم لم يصعدوا الى الحكم من داخل المجتمع العربي الاسلامي؛ فقد كانوا حكاما لبلادهم لمائتين وخمسين سنة، ولما جاؤوا لحكم هذه البلاد الشاسعة، حكموا حكما مستبدا، وخصوصا في المراحل الاخيرة.

٣ ــ تخلى العثمانيون عن اللغة العربية، لغة العرب ولغة القرآن الكريم، وجعلوا اللغة التركية اللغة الرسمية للبلاد هذا، بينما كانوا هم الأقلية عددا بالنسبة الى العرب. لكن المشكلة لم تكن مشكلة لغوية فحسب، بل تعدتها الى المشكلة الحضارية، وهي الأكثر اهمية؛ فالحضارة العربية الاسلامية التي استمرت من دون انقطاع منذ عهد الرسول عليه السلام، كانت بمنأى عن ذهنية الكثيرين من الحكام العثمانيين ونفسيتهم، وخصوصا في العهد الأخير، عهد السيطرة الطورانية للقضاء على كل ما هو عربي

وهكذا، من خلال التجربة العثمانية التي طالت اربعة قرون وانتهت بانفصال العرب عن الأتراك، يتضح البرهان على ان الدين وحده لم يكن الجامع الأوحد خلال العهود السابقة جميعها؛ فقد كانت الروابط الجامعة هي: الدين، واللغة، والحضارة. وفي هذا المفهوم الرحب للحضارة العربية الاسلامية، لا يقولنّ احد ان بناءها كان وقفا على العرب المسلمين وحدهم، وهم الذين أصبحوا ــ بمرور الزمن ــ الأكثرية بين السكان. فبالاضافة الى هؤلاء، ساهم المسيحيون العرب في البناء، وساهم المسلمون من غير العرب. وبمعنى آخر، ساهم كل الذين عاشوا على هذه الأرض، تجمعهم

آفاق الحضارة العربية الاسلامية. ان هؤلاء جميعا، من لم يكن منهم عربيا بالنسب والقبيلة، اصبح عربيا باللسان، او الفكر، او الخيار؛ ومن لم يكن منهم مسلما بالوراثة، وكان مسيحيا في عقيدته، او كان يهوديا، ساهم في مسيرة الحضارة العربية الاسلامية بعطائه الفكري والانساني.

وتبدأ الأمثلة، لكن لا تنتهي: سرجون بن منصور كان نصرانيا من فلسطين وكان مستشارا لمعاوية بن ابي سفيان، والبطريق بن النقاء كان نصرانيا من فلسطين ووزيرا مقربا لسليمان بن عبدالملك. وأسماء العلماء والمترجمين لا حصر لها في عهد المأمون. وفي عهد صلاح الدين، هذا الذي قاتل الصليبيين المعتدين، رحّب به المسيحيون العرب، وهو بدوره حافظ على كنيسة القيامة كما حافظ على المسجد الأقصى ذاك ما كان يجري في مراحل البناء الحضاري. أما في مراحل التقهقر والضعف، فقد كانت الخلافات بين المسلمين لا تقل سوءا عن الخلافات مع غير المسلمين.

ان الحضارة بالمفهوم الشامل لا تلغي الخصوصية التي تتمتع بها الأقليات الدينية او الأقليات القومية، وان هي ألغتها يوما، يكن ذلك اليوم بداية النهاية في مسيرتها.(١٩٠)

سابعا: خلاصة

ان البوصلة التي اتجهت نحوها المقتطفات واللمحات السابقة عبر هذه الفصول تشير الى ان تاريخ هذه البلاد ــ المعروفة بفلسطين ــ كان جزءا لا يتجزأ من تاريخ المنطقة العربية الاسلامية.

وكان ممكنا الاكتفاء بهذا الايجاز لو لم تكن فلسطين هدفا دائما للطعن والتجريح في تاريخها وعروبتها

ان المفهوم الاسلامي للتاريخ، هو ان الاسلام جاء مكملا الرسالات السماوية، ومعترفا بجميع الأنبياء السابقين الذين انتموا دينا ومولدا وتراثا الى هذا المشرق. أما المفهوم المسيحي الغربي، فقد بدا خلافه الحاد مع الاسلام واضحا منذ انتهاء الحكم البيزنطي المسيحي على فلسطين وسوريا، ومنذ اعتناق اوروبا بأسرها للمسيحية، واعتناق المسيحية لأوروبا موطنا جديدا، ومدنية جديدة لا تمت الى مدنيات المشرق بصلة؛ وهكذا، كانت فكرة الصراع التي ادت الى الحملات الصليبية، والهدف منها ان تحكم اوروبا المسيحية فلسطين، بلد المسيح. لكن فشل الحملات الصليبية وعودة فلسطين الى الحكم العربي الاسلامي، والى التراث الشرقي عامة، أديا الى نشوء البديل من العقلية «الصليبية» في حكم فلسطين، وهو ان تنقل فلسطين، تاريخا ووجودا وحضارة، الى الغرب؛ وهذا الانتقال يستدعي النكران التام والتجاهل التام لسكان فلسطين.

---

(١٩٠) راجع بشأن دور المسيحيين في الحضارة العربية: جورج شحاته قنواتي (الأب)، «المسيحية والحضارة العربية» (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لا تاريخ)

وهكذا، يظهر من خلال كتابات الرحالة الأجانب الذين زاروا بلاد المشرق العربي، التمييز الواضح لسكان فلسطين من باقي البلاد المجاورة؛ فكتاباتهم عن بيروت او القاهرة، مثلا، تختلف عن كتاباتهم عن الناصرة او بيت لحم او القدس: في الاولى انطباعات عن المدن والسكان والعادات، وفي الثانية وصف للحجر وللطرقات الجبلية الترابية وللكنائس؛ فهذه المدن أماكن اثرية مشدودة الى الماضي بنصوص التوراة، وليس هناك بين الماضي والحاضر ما يستحق الذكر. أما البشر، هؤلاء الأحياء في هذه المدن والبلاد، فهم اشباح لا تكاد تستحق الذكر أيضا، او هم حراس موقتون؛ والمهم ألّا يشار اليهم بـ «الشعب»، ولا حتى بـ «السكان». انهم مجموعات وشراذم من السكان، من بدو وفلاحين وسكان مدن لا يشعرون بأي انتماء الى المجتمع او الى الارض. والفئة التي تخرج عن هذه التسميات يقال عنها مسيحيون ويقال مسلمون، وقد يقال ــ في حالات معينة ــ عرب، وخصوصا عندما يكون القصد هو التجريح، او التهرب من استعمال كلمة «فلسطينيين». [(١٩١)]

لم تختلف اليهودية قط عن المسيحية في هذا التحول، وخصوصا مع النمو البشري والاقتصادي لليهود في اوروبا؛ فانتماء اليهود الأوروبيين، من حيث الحضارة واللسان، اصبح انتماء غربيا محضا، وبقوا بمشاعرهم وذكرياتهم يتوجهون الى مملكة سليمان. وفي هذا التناقض الصارخ بين ماضيهم وحاضرهم، ولدت أحلام المستقبل، وأصبح من الطبيعي جدا ان تصبح العقلية الغربية الاستشراقية، المعادية للاسلام والمعادية للعروبة، هي البذرة الخصبة لولادة الفكر الصهيوني، القائم على حتمية استرداد فلسطين عبر البوابة «الغربية».

من هنا، جاء وعد بلفور نفسه نتيجة لعقلية ونفسية غربية استعلائية استعمارية، تتبادل في أجوائها دول الغرب والصهيونية الخدمات؛ والهدف المشترك ان تصبح فلسطين بلدا غربيا، تماما كما «تغرّب» موسى وداود وسليمان والمسيح في فكر هؤلاء. [(١٩٢)]

---

(١٩١) ان المؤلفات الأجنبية بشأن تجاهل وجود الشعب العربي الفلسطيني، ونكرانه أحيانا، اكثر من أن تحصى؛ ويمتدّ هذا التجاهل عبر كل أدوار التاريخ في فلسطين بشكل او بآخر، لابراز المرحلة «الاسرائيلية» وحدها؛ فالعهد الكنعاني ما كان عهد الحضارة الاولى بل مجرّد توطئة وتمهيد للعهد «الاسرائيلي» القديم، وكل العهود التي اعقبت ذلك العهد «الاسرائيلي» كانت عهودا معترضة، وفي غير موقعها، وحتى لو استمرت ثلاثة عشر قرنا متواصلا كالعهد العربي. ونشير هنا الى مصدر واحد تكمن ميزته في انه من احدث المصادر عمرا، ومن أعمقها في نظرية التجاهل العمياء للعرب في فلسطين:

Joan Peters, *From Time Immemorial: The Origins of the Arab-Jewish Conflict over Palestine* (New York: Harper & Row, 1984).

(١٩٢) راجع بشأن أعلام المستشرقين: نجيب العقيقي، «المستشرقون» (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤)، جزآن. وراجع بشأن مفهوم الاستشراق:

Edward W. Said, *Orientalism* (New York: Pantheon Books, 1978).

ومن هنا، كان الغاء الوجود العربي الفلسطيني ضرورة لولادة الوجود الصهيوني، وقد سمي بالاسرائيلي سنة ١٩٤٨. وتتلخص التهم الرئيسية ضد هذا الشعب كالتالي

التهمة الاولى: لم توجد فلسطين عبر التاريخ قط، بل كانت هناك دائما اسرائيل. والرد على هذه التهمة التي ما زالت تتردد على ألسنة الغربيين عن جهل او تجاهل عبر ما تقدم من فصول، اوفر من ان يشار اليه. أما القلة من الكتاب الغربيين المعاصرين المصفين، فقد ابتدأت تردّ بدورها. يقول ديفيد غيلمور:

> ان تجاهل العصر الذي نعيش فيه (لفلسطين كبلد عربي مسلم في أغلبيته) لا يقل سوءا عن تجاهل أجدادنا. فعلى الرغم من كل الاعتداءات والتغيّرات في حكّامها، فقد بقي الأساس ــ عِرقيا ــ لسكان فلسطين ثابتا لألف سنة. وطوال الثلاثة عشر قرنا الماضية، كان هؤلاء يمتلكون حضارة كانت، من دون اي ابهام، حضارة عربيّة. ومع ذلك، فنحن في زمننا هذا تمكنّا من نسيانها وتجاهلها، وحتى من الادعاء أحيانا انها لم توجد أصلا (١٩٣)

التهمة الثانية: ان القدس كانت بمنأى عن عواصم الخلافة، مما ادى الى اهمالها واهمال فلسطين. والرد على ذلك ان العكس هو الصحيح؛ فالقدس كانت اوفر المدن العربية حظا برعاية الخلفاء وعواصم الخلافة. وكان من سكان فلسطين العديد من الوزراء والعلماء الذين قاموا بدور كبير في تطور الدولة بأسرها، كما علمنا.

التهمة الثالثة: ان الحكام المسلمين كانوا يسيئون معاملة اليهود والمسيحيين، مما استوجب الاهتمام الدائم من الغرب للتوجه نحو فلسطين منعا لهذا الظلم. وهنا نضيف الى ما ذكرناه سابقا، نقلا عن بعض كتّابهم المنصفين او شبه المنصفين: فيقول ألبرت هيامسون ان المسيحيين أخذوا ضمانات على أملاكهم، ونالوا حماية لكنائسهم، وقد كانت قضية واضحة ان عمر بن الخطاب أراد بقاء كنيسة القيامة للمسيحيين الى الأبد، وقد رفض الصلاة فيها حفاظا عليها، وكي لا يحولها المسلمون الى مسجد من بعده (قائلين هنا صلى عمر). وقد انتشر السلام في البلاد في عهد عمر ومن تلاه، وتمتع السكان جميعا ــ ومن دون اي تمييز ديني ــ بالطمأنينة والراحة اللتين لم يجدوهما من زمن. (١٩٤)

ويقرّ جيمس باركس، بالنسبة الى الحجاج المسيحيين، بأنهم جاؤوا فلسطين من كل البلدان، ولم يتدخل المسلمون معهم إلا خلال مرحلتين قصيرتين في القرن الحادي عشر. أما منذ عهد ابي بكر، فالمسلمون لم يتدخلوا في شؤون الرهبانيات؛ فقد كانت تعليماته واضحة في اعطائها الحرية

(١٩٣) David Gilmour, *Dispossessed The Ordeal of the Palestinians* (London: Sphere Books, Reprinted, 1984), p. 12.

(١٩٤) Albert M Hyamson, *Palestine. The Rebirth of an Ancient People* (London: Sidwick & Jackson, 1917), pp 14-15

والأمان. وفي العهد الاموي والعباسي وصل المسيحيون الى أعلى المراكز، ولم يضطروا الى اخفاء عقيدتهم.

بالنسبة الى اليهود، يقول باركس أيضا انهم رحبوا بالعهد الاسلامي كثيرا، وكان ذلك متوقعا بسبب الاضطهاد الذي لاقوه في العهد الروماني. وقد ادى ارتفاع منزلة الفكر الديني وقوته، في العهدين الاموي والعباسي، الى انبعاث مقابل لدى اليهود في فلسطين؛ فكانت النتائج استكمال التلمود (المدراش)، بالاضافة الى العمل على لغة التوراة نفسها، مما ادى الى احياء اللغة العبرية وتطويرها، والى القيام بدراسات في النصوص التوراتية.(١٩٥)

ويؤكد غرايزل، في كتابه «تاريخ اليهود»، هذه الحقيقة بقوله:

> اننا مدينون ليهود فلسطين في الفترة بين القرن السادس والقرن العاشر. فاذا كنا نقرأ التوراة بسهولة هذه الأيام ونصبّ في قلوبنا اجمل الصلوات فإن الفضل لهم. وقد أعطاهم مجيء «المحمديين» دفعة جديدة من الحياة.(١٩٦)

وبين الكتّاب العرب، يقول عبداللطيف الطيباوي ان الحقائق في صفحات التاريخ تتحدث عن نفسها، وليس في وسع اي مؤرخ منصف إلا ان يلاحظ استضافة العهود الاسلامية المتعاقبة لليهود المضطهدين في اماكن اخرى، وحتى عندما أساء اليهود استعمال الضيافة لم يقابلوا بالشدة، بل بالصبر.(١٩٧)

ويشير اسحق موسى الحسيني الى تركيز بعض الكتابات الصهيونية الحديثة على الاضطهاد الذي لاقاه اليهود في بعض الحالات، فيرجعون الى الحاكم بأمر الله كمثل دائم لاضطهاد اليهود والمسيحيين، ويتجاهلون جميع المراحل التي كان التسامح شعارها. ولما كان التاريخ، بالمفهوم الحقيقي الشامل، لا يمكن ان يقوم على مجموعة من سلوك الأشخاص، فالنظرة الدينية والجوهرية في الاسلام تجاه اليهودية والمسيحية هي كما وردت في القرآن الكريم، وكما سار عليها الحكام المؤمنون والمؤرخون الكبار أمثال ابن قتيبة والطبري؛ فالمسلمون لم يفعلوا يوما مع اليهود شيئا مما جرى لهم من تعذيب في عهد محاكم التفتيش في اسبانيا، او من مذابح في عهد القياصرة او المعسكرات النازية.(١٩٨)

---

(١٩٥) James Parkes, *A History of Palestine from 135 A.D. to Modern Times* (London Victor Gollancz, 1949), pp 92-94.

(١٩٦) Solomon Grayzel, *A History of the Jews*, p. 243 —

كما ورد في: «وثيقة القدس» (عمان: منظمة المؤتمر الاسلامي ــ لجنة القدس، ١٩٨٤)، ص ٣٧.

(١٩٧) A L Tibawi, *Jerusalem: Its Place in Islam and Arab History*, Monograph Series No. 19 (Beirut: Institute for Palestine Studies, 1969), p. 29

(١٩٨) Ishaq Musa Husaini, «Jerusalem in Islamic Perspective,» in *Jerusalem: Key to Peace in the Middle East*, ed. O. Kelly Ingram (Durham: Triangle Friends of the Middle East, 1978), p 40.

التهمة الرابعة: انه لم يوجد عرب في فلسطين، بل مجموعة من الشعوب او الجماعات المختلفة. والحق ان هذه «التهمة» صحيحة، لكنها تصدق على جميع شعوب الدنيا عبر آلاف السنين، اذا كان المقصود ان العديد من الشعوب قد مرت او استقرت في هذا البلد او ذاك (سوف نعالج الهوية القومية في القسم اللاحق).

التهمة الخامسة: ان الفلسطينيين لم يؤلفوا يوما شعبا مستقلا بذاته. وهذه التهمة أيضا صحيحة، لكن مع فارق أساسي هو ان الفلسطينيين، من ناحيتهم، لا يجدونها تهمة بل حقيقة تاريخية يعتزون بها، وهي انتماؤهم الى المحيط العربي؛ فهم شعب من الشعوب العربية، شأنهم في ذلك شأن جميع الشعوب العربية التي تقيم على الأرض العربية ما بين الخليج العربي والمحيط الاطلسي.

القسم الثالث

الحركة العربية وفلسطين

الفصل الأول
جذور القومية العربية

أولا: النظرية القومية

لم تعرف القومية، نظريا، بمعناها الحديث إلا في نهاية القرن الثامن عشر. وقد تطورت في القرن الماضي الى حدّ اصبحت تعرف معه، في السياسة الدولية، بأنها تطابق الدولة والأمة في قومية واحدة، وانتماؤهما الى حضارة واحدة.

قامت كل من الثورتين الأميركية والفرنسية بدور في تأكيد الهوية القومية في بناء الأمم. ثم غزت الفكرة القومية أميركا الجنوبية قبل عودتها الى أوروبا. وإنْ يكن القرن التاسع عشر عصر القوميات في أوروبا، فالقرن العشرون هو عصر القوميات بالنسبة الى آسيا وأفريقيا. وقد كانت الحركة العربية من الحركات السياسية الأولى التي ولدت في مطلع هذا القرن.

قبل ولادة عصر القوميات، بنيت الحضارة على الأسس الدينية لا القومية، فكانت الشعوب الأوروبية كلها تنضوي تحت لواء الحضارة المسيحية الغربية. وفي المقابل، كانت الشعوب في الشرقين الأدنى والأوسط، تنضوي تحت لواء الحضارة الاسلامية العرّبية، فالاسلامية العثمانية. وكانت اللغة السائدة في الغرب ـــ اي أوروبا ـــ هي اللغة اللاتينية او اليونانية، وفي الشرق كانت العربية.

في عصر النهضة، تبنت أوروبا اللغة اليونانية القديمة والحضارة الرومانية. وبعد ذلك، احتلت الحضارة الفرنسية المكان الأول لدى الطبقة المثقفة. ومنذ نهاية القرن الثامن عشر فقط، اصبح المنظار الى الحضارة هو المنظار القومي، وأصبحت اللغة القومية وحدها هي لغة الحضارة للأمة لا سواها من اللغات الكلاسيكية، او من لغات الشعوب الأكثر حضارة.[1]

---

(١) راجع:

Hans Kohn, «Nationalism,» *Encyclopaedia Britannica-Macropaedia,* 15 ed. (1974), Vol 12, pp. 851-853.

سبقت عملية انبثاق الحركات القومية دعوات فكرية متعددة، يتعدى شرحها نطاق هذا التمهيد. لكن تجدر الاشارة الى ان ما من تعريف موحّد لمفهوم القومية؛ فهناك العديد من التعريفات، ولكل تعريف أنصار ومؤيدون، ولكل تعريف ما له وما عليه. ولا يعنينا، في عرضنا الموجز لأبرز هذه النظريات، الجدل النظري بل يهمنا ان نتوصل، في نهاية هذا العرض، الى مفهوم القومية العربية، ومطابقته لأي من هذه النظريات.

يلخص الكاتب الرائد في الفكر العربي القومي، ساطع الحصري،(٢) العناصر الأساسية والمتعددة في تكوين القومية بأنها:

> وحدة اللغة ووحدة التاريخ، وما ينتج عن ذلك من مشاركة في المشاعر والمنازع، وفي الآلام والآمال...(٣)

وأما أول تعريف علمي لمفهوم الأمة ومفهوم القومية، فقد قدمه مانتشيني في منتصف القرن الماضي في جامعة تورينو، معرِّفا الأمة كما يلي:

> الأمة مجتمع طبيعي من البشر، يرتبط بعضها ببعض بوحدة الأرض والأصل، والعادات واللغة.. من جراء الاشتراك في الحياة وفي الشعور الاجتماعي (٤)

وإنْ يكن مانتشيني قد أخطأ باشتراط الأصل اي العرق، اذ ما من امة حديثة يمكن ردّها الى أصل واحد، غير انه قد أصاب فيما عداه، والى الحد الذي أثار نقمة الملوك عليه؛ فأمر ملك الصقليتين بمصادرة أملاكه ومنع كتابه، واحتج أمبراطور النمسا على حكومة سردينيا مطالبا بمنع تدريس الكتاب.(٥) وهذا الغضب يعني ان ملوك أوروبا كانوا على وعي تام بأن انتشار الفكرة القومية يهزّ عروشهم.

---

(٢) اصدر ساطع الحصري (ابو خلدون) كتابه الأول في القومية العربية (١٩٤٤)، وكان من الرواد ـ إنْ لم يكن الأول بينهم ـ واستمرت مؤلفاته في الأربعينات والخمسينات ـ خاصة ـ مشعلا قوميا في مختلف العواصم العربية. أعاد «مركز دراسات الوحدة العربية» في بيروت طباعة المجموعة كاملة بدءا من سنة ١٩٨٤، في شؤون القومية والتربية والاجتماع. أكثر مؤلفاته انتشارا وأثرا عبر الأجيال: «آراء وأحاديث في الوطنية والقومية»؛ «ما هي القومية؟»؛ «دفاع عن العروبة»، «العروبة أولا»؛ «العروبة بين دعاتها ومعارضيها».

(٣) ساطع الحصري، «في اللغة والأدب وعلاقتها بالقومية»، سلسلة التراث القومي· الأعمال القومية لساطع الحصري رقم (١١)، إعادة لطبعة ١٩٥٨ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ١٤٥

(٤) كما وردت في: ساطع الحصري، «ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات»، سلسلة التراث القومي· الأعمال القومية لساطع الحصري رقم (١٣)، إعادة لطبعة ١٩٥٩ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ٣٥.

(٥) كانت توريبو، حيث كان مانتشيني أستاذا في جامعتها، عاصمة لمملكة سردينيا (قبل الوحدة الايطالية)، وكان عنوان المحاضرة التي أثارت الضجة: «الأمة كأساس لحقوق الدول»، وقد أُلقيت في ٢٢ كانون الثاني/يناير ١٨٥١.

واليوم، تتعدّد النظريات الغربية بشأن القومية، غير ان أبرزها في الفكر القومي ثلاث نظريات، وهي تلك القائمة على وحدة اللغة، ووحدة الارادة، ووحدة الحياة الاقتصادية

أ ـ نظرية وحدة اللغة

وتعرف بالنظرية الألمانية بسبب المفكرين الألمان الذين كانوا أول من أشار اليها، مثل يوهان هيرْدِر (١٧٤٤ ـ ١٨٠٣)، الذي أشار الى علاقة اللغة بنفسية الأمة وشخصيتها، ومن أقواله:

> ان اللغة القومية بمنزلة الوعاء الذي تتشكل به، وتحفظ فيه، وتنتقل بواسطته أفكار الشعب. . .
> ان لغة الآباء والأجداد مخزن لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد، والتاريخ والفلسفة والدين.
> ان قلب الشعب ينبض في لغته.(٦)

ومن معاصري هيردر كان يوهان فيخته (١٧٦٢ ـ ١٨١٤)، وهو من الفلاسفة الذين نزعوا الى العالمية، ثم تحوّل الى الشؤون القومية بتأثير الفواجع التي نتجت من تسلّط نابليون على الأراضي الألمانية، فأخذ منذ سنة ١٨٠٧ يدعو الى وحدة الشعب الألماني بناء على وحدة لغته. وقد كان الألمان، في إبان هذه الدعوة، يتوزعون على مئات من الدويلات والامارات والدوقيات.

يستند أنصار الوحدة اللغوية الى مَثَل الوحدة الألمانية ومَثَل الوحدة الايطالية، وكذلك الى مَثَل استقلال بولونيا ووحدتها. وفي الربع الثاني من القرن التاسع عشر، تكونت في أوروبا الدول التالية على الأساس القومي: اليونان، وبلغاريا، ورومانيا، وألبانيا، ويوغسلافيا، وهنغاريا، وتشيكوسلوفاكيا. وفي كل من السلطنة العثمانية والأمبراطورية النمساوية، قامت اللغة بدور أساسي في انحلالها، فانفصلت عن الأولى كل الشعوب التي لا تتكلم التركية، كما انفصلت عن الثانية كل الشعوب التي لا تتكلم الألمانية.

ب ـ نظرية وحدة الارادة (او مشيئة العيش المشترك)

وقد كان الداعي الأول الى هذه النظرية، إرْنِسْت رينان في محاضرته الشهيرة في السوربون سنة ١٨٨٢، بعنوان «ما هي الأمة؟» فهو يقول ان الأساس في تكوين الأمة هو المشيئة او الارادة، الى جانب التراث والتاريخ والرغبة في العيش المشترك، مع الاحتفاظ بالتراث والعمل لإعلاء شأنه.

---

(٦) كما وردت في: ساطع الحصري، «ما هي القومية. . .»، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧.

وهو يرى ان رغبة الشعوب ومشيئتها هما المعيار الصحيح الوحيد الذي يجب ان يرجع اليه ويعتمد عليه ــ في آخر الأمر ــ في تقرير المصير.

ج ــ نظرية الوحدة الاقتصادية

ويرى أصحاب هذه النظرية ان المصالح الاقتصادية تكوّن اقوى الأسس في بناء الوحدة، فلا امة من دون حياة اقتصادية مشتركة ــ والماركسيون على رأس هذا الاتجاه. وقد أكد ستالين، في مقال له سنة ١٩١٣ بعنوان «الماركسية والمسألة القومية»، ان «وحدة الحياة الاقتصادية، او التماسك الاقتصادي، تكون احدى الخصائص المميزة للأمة»؛ إلا ان الوحدة الاقتصادية، على أهميتها الكبرى، بقيت لديه جزءا من الصورة الشاملة، اد قال:

«الأمة، اذن، هي جماعة مستقرة من البشر، تكوّنت تاريخيا، من جرّاء وحدة اللغة والأرض والحياة الاقتصادية، ووحدة التكوين النفسي، التي تتجلى في وحدة الثقافة.

وغنيّ عن البيان ان الأمة، مثل كلّ حادث تاريخي: تخضع لقوانين التطور، لها تاريخ، ولها بداية، ولها نهاية.

ومما تجدر الاشارة اليه. ان اية واحدة من العلائم الأربع الأساسية المذكورة آنفا، لا تكفي بمفردها، لتعريف الأمة بل أكثر من ذلك. ان فقدان ولو واحدة من هذه العلائم والمقومات يكفي لانتفاء صفة «الأمة» عن الجماعة.[7]

تلك هي ابرز النظريات الشائعة في مفهوم القومية.[8] وإنْ تكن القومية، على الصعيد السياسي، قد اصبحت جزءا من تاريخ القرن الماضي في أوروبا، فهي على الصعيد الفكري ما زالت مادة حية. وقد ناقش إرنست غيلنر، أستاذ الفلسفة في جامعة لندن، في كتاب حديث له، القومية من منطلقين: المنطلق الحضاري، والمنطلق الطوعي الارادي؛ فعبّر عن المنطلق الأول في الصيغة التالية: ينتمي رجلان الى قومية واحدة، وذلك عندما يتشاركان في الحضارة نفسها فقط. والحضارة، كما يشرحها، منظومة من الآراء والروابط وطرق السلوك والاتصال. وعبّر عن المنطلق الثاني كما يلي: ينتمي رجلان الى امة واحدة، وذلك عندما ينظر كلّ منهما الى الآخر على انه ينتمي الى هذه القومية. وبكلمات اخرى، فالقومية من صنع مجموعة من البشر، من صنع معتقداتهم وولاءاتهم وتضامنهم فيما بينهم. ومن ثم يؤكد غيلنر ان كلا من الصيغتين تلقي ضوءا على مفهوم القومية، إلاّ ان اية منهما لا تكفي بمفردها. وهو يضيف ان الأمم كالدول، طارئة لا أزلية دائمة.

---

(٧) المصدر نفسه، ص ١٤٣ ــ ١٤٤.

(٨) راجع بشأن النظريات المذكورة أعلاه: المصدر نفسه، ص ٢٧ ــ ١٥٨.

فلا الأمم تبقى، ولا الدول تبقى في العصور كلها، وفي الأوضاع كافة. وأكثر من ذلك، فقد لا يتوافق وجودهما معا في زمن واحد؛ فالقومية مؤداها حدوث التطابق بين الأمة والدولة، اي ان كلا منهما ناقصة من دون الأخرى. لكن يجدر الانتباه الى انه قبل ان تتم عملية التطابق، كان على كلّ منهما ان تنبثق وأن توجد، وانبثاق كل منهما يأتي مستقلا عن انبثاق الأخرى. فالدولة ــ تاريخيا ــ قد ولدت من دون مساهمة الأمة، وبعض الأمم قد وُجدت عبر التاريخ، من غير ان تحل عليها بركات الدول.(٩)

ثانيا: القومية العربية:
تراث وحضارة

لعل عرض النظريات السابقة ــ ولو بإيجاز ــ يساهم في استيعاب القومية العربية وجذورها؛ هذه القومية التي انطلقت في مطلع هذا القرن في حركة سياسية انتهت بثورة مسلّحة تنادي باستقلال العرب ووحدتهم على أساس قومي.

كان أنصار كل من النظريات القومية المذكورة أعلاه، يعتقدون ان نظريتهم هي الصواب. ومنهم من كان يعتقد ان العنصر، او العناصر الأساسية في نظريته هي الأساسية، وربّما الوحيدة في بناء القومية، كعنصر اللغة مثلا، او التاريخ، او الارادة المشتركة.

ان ابرز ما يجدر ذكره، في هذا المجال، ان جميع العناصر الواردة في النظريات القومية المعترف بها هي من العناصر الواردة في تكوين الأمة العربية، فليس من سبب لانتقاص عنصر ما، بل من الضرورة إضافة عنصر بالغ الأهمية، وهو الإسلام؛ فهو عنصر جامع للأكثرية من السكان دينا، كما انه عنصر جامع لجميع العرب، تراثا وحضارة.

قامت اللغة العربية الفصحى بدور موحد قوي في تاريخ العرب؛ فهي لغة العرب جميعا. والعرب من أكثر امم الأرض اعتزازا بلغتهم لأنها لغة القرآن الكريم، وقد جاء فيه: «وما أرسلنا من رسولٍ إلاّ بلسانِ قومِه ليبيّنَ لهم....» (سورة ابراهيم ١٤: ٤). والدين الاسلامي قاعدة متينة للقومية العربية الصحيحة، ذلك بأنه يزودها بركيزة حضارية قوية جدا. ومن الأحاديث الصحيحة قول الرسول (صلعم): «من احب اللهَ ورسولَه احبَّ العربَ ولغتَهم العربية.»

ولو عدنا الى بدايات تكوين الأمة العربية، فكرة ووجدانا، لعدنا الى الفتوحات العربية

(٩) Ernest Gellner, *Nations and Nationalism* (Ithaca & London: Cornell University Press, 1983), pp. 6-7.

الاسلامية التي جعلت العرب يشعرون بدورهم التاريخي؛ ومن نتائج الفتوحات انتشار العربية التي اصبحت لغة الثقافة، ووعاء الحضارة العربية الاسلامية الشاملة.(١٠)

أما نظرية التطابق بين الأمة والدولة التي أشار غيلنر اليها في احدث الدراسات، وهي النظرية التي لم تمارسها أوروبا عمليا إلا في القرن الماضي، فهي النظرية التي يراها محمد احمد خلف الله، المفكر القومي العربي، قائمة في تاريخ العرب منذ اربعة عشر قرنا، وذلك حين يبحث في العلاقة بين الدولة وكل من القومية والوطنية والأمة في عهد محمد بن عبد الله الرسول العربي، فيقول:

(أ) ان حدود الدولة كانت هي الحدود القومية، من حيث ان هذه الدولة لم تكن قد بسطت سلطانها خارج حدود الأرض العربية، اذ لم تكن هناك فتوحات خارج ارض الجزيرة

(ب) ان هذه الدولة قد ركزت اهتمامها كله في إنجاح الدعوة الجديدة، على أساس أنها دعوة الى تغيرات جذرية في المجتمع العربي، وفي نطاق الوطن العربي.

(ج) ان الدعوة الى التعبير وهي الاسلام، إنما كانت تعالج مشكلات الحياة في المجتمع العربي وأسباب نزول الآيات القرآنية، هي الدليل الذي نقدمه في هذا المقام.

(د) ان عناصر او مقومات هذه الدعوة الجديدة، كانت عربية صرفة فالنبي الذي قاد حركة التغير كان عربيا، والوحي القرآني الذي يعالج قضية المتغيرات والبدائل كان بلسان عربي مبين، اي بلسان القوم الذين بعث اليهم محمد بن عبد الله عليه السلام

(هـ) ان تجربة التغير هذه كانت تجربة عربية تقوم في المجتمع العربي، ولم تخرج خارج هذا المجتمع إلا بعد ان نجحت ووصفت بأنها قد كملت.

وان الذين حملوها الى خارج هذا المجتمع كانوا هم العرب

انه في مرحلة محمد عليه السلام كان التطابق التام بين الدولة القومية والأمة والوطنية ثم تغير الأمر بعد الفتح واتساع نطاق الدولة.(١١)

لكن، عندما امتد سلطان الدولة الى أكثر من قوم ممن يختلفون في اللغة والثقافة، لم يعد التطابق قائما بين القومية والدولة. أما الوطنية والدولة فقد أصابها التطابق، والوطن هنا هو الأرض التي تحكمها الدولة.(١٢)

ولسنا هنا في مجال الحديث عن التعددية القومية التي احتوتها العهود المتعاقبة، ولسنا كذلك في مجال الحديث عن الحركة الشعوبية وتاريخها. إلا انه تجدر الاشارة الى اثر الصراع بين العروبة

---

(١٠) عبد العزيز الدوري، «التكوين التاريخي للأمة العربية: دراسة في الهوية والوعي» (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤)، ص ٩٦

(١١) محمد احمد خلف الله، «التكوين التاريخي لمفاهيم الأمة، القومية، الوطنية، الدولة، والعلاقة فيما بينها»، كما وردت في: «القومية العربية والاسلام: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية» (بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨١)، ص ٢٦ ــ ٢٧.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٢٧.

والشعوبية، لما كان من اثر لذاك الصراع في تكوين التراث العربي، فنقتبس للمؤرخ عبد العزيز الدوري:

> لقد ادت هجمات الشعوبية على التراث العربي الى تكوين نظرة أشمل لهذا التراث عند العرب. فقد بدأوا بالتأكيد على ان الدراسات العربية الاسلامية هي صلب هذه الثقافة، ابتداء بدراسة القرآن وتفسيره، والفقه، وحفظ السنن ونقل الآثار، والعناية بالأخبار واللغات والأنساب. وأدت الهجمات على التراث العربي الى العودة الى هذا التراث من شعر وأمثال وحكم، والى العناية به بجمعه وتيسيره ليكون عنصرا في الثقافة العربية، وزالت النظرة التي تريد تجزئة الثقافة العربية فلا ترى شيئا قبل الاسلام وتهمل تراث العرب القديم. ويتمثل هذا في كتاب مثل «البيان والتبيين» للجاحظ الذي يقدم صورة حية للتراث الثقافي العربي قبل الاسلام وبعده، وفي كتب «الحماسة» مثل حماسة البحتري وحماسة ابي تمّام، وفي الأصمعيات، والمفضليات للضبّي، وهي تقدم مختارات شعرية وأدبية تظهر روعة الأدب والشعر وتقدمها للناشئين والمتأدبين لتعرفهم به.
>
> وهكذا ثبتت لأول مرة، وبصورة واضحة، فكرة الاستمرار الثقافي في حياة العرب، والوحدة الثقافية عندهم، او التكامل الثقافي في حياة العرب قبل الاسلام وبعده. وهذا بدوره يؤكد ان العرب لهم أصول ثقافية عريقة، وأنهم أصحاب تراث قديم لا كما تزعم الشعوبية.[١٣]

وساد الاتجاه، كذلك، بين المؤرخين ورجال الفكر بأن العرب امة واحدة، لا من حيث اللغة فقط بل من حيث الخصائص والصفات المشتركة والروابط البشرية أيضا. والأمثلة لذلك عديدة في كتابات الجاحظ، وابن المقفع، والفارابي، والمسعودي، وابن خلدون، والهمذاني، والزمخشري، والبيروني وسواهم؛ كما في أشعار المتنبي، وأبي تمام، وصفي الدين الحلّي، وسواهم.

وهكذا تحدد مفهوم العروبة على أساس ثقافي لا عنصري، واكتسب دينامية تتحدى التجزئة، سياسية كانت او جغرافية. ومع ان إطار الثقافة العربية قد وضع في صدر الاسلام، إلا ان مرحلة تكوين الثقافة العربية الاسلامية تجاوزت فترة الوحدة السياسية لبلاد الخلافة. وهذا يعني ان تكوين الأمة العربية ــ تاريخيا ــ وفي الاطار اللغوي الثقافي، لم يقترن إلا جزئيا بفترة وحدة الأمة السياسية.

بالنسبة الى تطور الوعي العربي، فقد بدأت تظهر ملامح هذا الوعي منذ أواخر العصر الجاهلي، ثم بدا واضحا متوثبا خلال وحدة العرب السياسية الاسلامية الأولى، وفيما بعد خلال الفتوحات ونشر الرسالة. وقد توازت الرسالة مع العروبة فترة طويلة، ارتفع خلالها شأن العربية، وتكونت خلالها الثقافة العربية الاسلامية الشاملة. ولا ريب ان فترات الصراع السياسي المتعددة، عبر التاريخ العربي الاسلامي، قد أربكت مفاهيم الوعي، وألجمت توثبه، إلا ان مقوماته بقيت في التراث الثقافي وفي اللغة العربية قاعدة للعروبة؛ ومن هذه الجذور انطلقت حركة النهضة في

---

(١٣) عبد العزيز الدوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٠١.

العصر الحديث. لقد ساهمت التحديات الداخلية (سياسة التتريك)، كما ساهمت الأفكار القومية الغربية في عملية ظهور الوعي الحديث ليتجه من العروبة بمفهومها الثقافي الاجتماعي التراثي، الى العروبة بمفهومها السياسي القومي الحديث.(١٤)

وقد تم هذا التوجّه والتحوّل بشكل متدرج، ساهمت في نضوج خميرته الفكرية والعملية معا مجموعة من العوامل والأفكار والأحداث لا مجال للإتيان الى ذكرها جميعا، وإنما يمكن تلخيص أبرزها ضمن الموضوعات الرئيسية الثلاثة: الحركات التجديدية، والدعوة الى الاصلاح الديني، واليقظة الفكرية.

ثالثا: الحركات التجديدية

كانت الحركات التجديدية حركات دينية ذات أهداف سياسية واضحة في مناوأة السياسة العثمانية. غير ان من طبيعة الأمور ان تقوم هذه الحركات الدينية، الداعية الى الاصلاح والتجديد، بإيقاظ المشاعر القومية؛ فالقاعدة المستوحاة من تاريخ العرب هي انه ما من فترة علا فيها شأنهم إلا وعلا فيها شأن الاسلام؛ وما من فترة انحط فيها شأنهم، فعاشوا في قهر سياسي او انحسار حضاري، إلا وأشارت الأصابع الى الاسلام متهمة إياه بالتخلف. فالقضية الأساسية إذاً ــ وهي القضية التي لازمت تاريخ العرب منذ ظهور الاسلام ــ هي التآخي بين العروبة والاسلام في فترات القوة والمجد، والانفكاك بينهما في مراحل الضعف والتقهقر.

ولا تعني هذه المقدمة، تحديدا، ان الحركات التجديدية (السلفية) يمكن اعتبارها في عداد تيارات المد القومي العربي، بالمعنى الدقيق لمصطلح القومية، وإنما تعني وجود «البعد القومي العربي» في الفكر الباعث لهذه الحركات وفي ممارساتها (١٥)

أ ــ الحركة الوهابية

دعا محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ ــ ١٢٠٦هـ / ١٧٠٣ ــ ١٧٩٢م) الى التوحيد الخالص، والى الاهتداء بالقرآن المنزل وحده، والى نبذ البدع والأوهام العالقة بالاسلام منذ عصور الاسلام

(١٤) راجع: المصدر نفسه، ص ١٠١ ــ ١٢٠.

(١٥) راجع. محمد عمارة، «الجامعة العربية والجامعة الاسلامية»، كما وردت في «القومية العربية والاسلام. .»، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٨.

الوسطى. وقد ناصره أكبر أمراء نجد محمد بن سعود، ومن بعده ابنه عبد العزيز وأولاده من بعده. وقد قاتلوا في سبيل الدعوة الجديدة، وتمكنوا من حكم شرق شبه الجزيرة، بالاضافة الى قسم كبير من اليمن، ومكة، والعديد من قبائل الحجاز. وكوّنوا بذلك وحدة دينية سياسية في شبه الجزيرة العربية، شبيهة بوحدة العرب الاسلامية الأولى. وبينما كان ابن السعود يستعد سنة ١٨١٤ لفتح سوريا، استنجد السلطان العثماني بمحمد علي الكبير لمحاربة الوهابيين، فأنجده. ولّما كان جيش محمد علي مدربا تدريبا جيدا ومجهزا بمعدات حديثة، فقد تمكن من القضاء على الدولة الوهابية الحديثة. غير ان نهاية الدور السياسي كانت فاتحة الدور الديني، فأخذ الوهابيون في مواسم الحج يبثون دعوتهم الى الاصلاح، وهم الذين أطلق عليهم خصومهم لقب «الوهابيين». وأما حين جهر محمد بن عبد الوهاب بدعوته سنة ١٧٣٠، فقد كانوا يعرفون بـ «أهل التوحيد» و «إخوان من أطاع الله.»[١٦] وقد ترك ابن الوهاب رسائل عديدة في الفقه وأصول الدين.[١٧] وزمنيا، تعتبر الوهابية بداية اليقظة الاسلامية الحديثة

يتضح البعد القومي في الحركة الوهابية في كونها لم تقف عند التجديد السلفي لعقائد الاسلام، بل أقامت «دولة عربية» تصدت للعثمانيين، وتبنت شرط «قرشيّة» الخليفة، اي «عروبة الدولة». وبذلك أسقطت سلطنة العثمانيين عن الأمة العربية.[١٨]

ب ـ الحركة السنوسيّة

كان محمد بن علي السنوسي الخطابي (١٢٠٢ ـ ١٢٧٦هـ / ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩م)، مؤسس الحركة السنوسية، عالما مجتهدا، حج الى مكة المكرمة سنة ١٨٢٩، ودخل في عدة طرق، ثم استقر في القاهرة سنة ١٨٣٩، وأخذ يقرأ في الأزهر الشريف، فراعَهم فكره المستنير، وأفتى احد المشايخ

(١٦) راجع: لوثروب ستودارد، «حاضر العالم الاسلامي»، ترجمة عجاج نويهض، تعليق شكيب أرسلان (بيروت: دار الفكر، الطبعة الرابعة، ١٩٧٣)، الجزء الأول، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٥.

(١٧) من أهم رسائله: «كتاب التوحيد»؛ «كشف الشبهات»؛ «أصول الايمان»؛ «المسائل التي خالف فيها رسول الله ـ ص ـ أهل الجاهلية»، وهي أكثر من مائة مسألة. راجع:
خير الدين الزركلي، «الأعلام. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين» (بيروت: لا ناشر، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩)، الجزء السابع، ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

(١٨) لم يتردد، في تراث «الفقه السياسي»، اشتراط قرشية الخليفة، وبالتالي شرط الانتماء العربي إلّا منذ العصر العباسي الثاني، وبسبب سيطرة العسكر التُرك المماليك في منتصف القرن التاسع؛ فكان هذا الشرط موقفا قوميا مع عروبة الدولة وضد خضوع العرب لسلطان اعجمي ولودان بالاسلام (محمد عمارة، «الجامعة العربية والجامعة الاسلامية»، كما وردت في: «القومية العربية والاسلام...»، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٨ ـ ١٤٩).

بمخالفته للشرع بسبب نزوعه الى الاجتهاد. ولمّا كانت الجزائر ــ وهي موطنه الأصلي ــ محتلة من قبل فرنسا منذ سنة ١٨٣٠، فقد توجه الى طرابلس الغرب، حيث نشر دعوته الى العمل بالكتاب والسنة والاقتداء بسلف الأمة.

أقام محمد بن علي السنوسي الزوايا العديدة، وأولها الزاوية البيضاء. ولمّا شعر بقرب استيلاء الايطاليين على ليبيا، أوغل في الصحراء، وعمّر فيها زاوية جغبوب، وهناك توفي تاركا ما يقرب من اربعين كتابا ورسالة.[١٩]

استخلف السنوسي ولده المهدي الذي أكمل دعوة والده الى إيقاظ الأمة، حتى ارتابت السلطة العثمانية بأمره، فأرسلت اليه الرسل مرتين تستشف نياته، فلم يعلن سوى قصده في خدمة الاسلام، واستمر في وسط الصحراء يدرّب أتباعه على طرق الجهاد لمقاومة الايطاليين. وكان المهدي يعمل بيديه في تنظيف السلاح، وفي شتى المهارات اليدوية من نجارة وبناء وحدادة وزراعة. وكان دائما يشجع العمال والمزارعين وأصحاب الحرف، ويؤكد لهم ان العلماء والمتعبّدين ليسوا بأفضل منهم. وهكذا كانت جماعته تؤلف فرقة عملية تسعى للاكتفاء الذاتي في أسباب معيشتها، ولا تعتمد على التلاوة والذكر فقط. فالسنوسية، كفكر ونظام حياة، قد جمعت بين العمل الشرعي بحذافيره، والتجرد الصوفي الى اقصى درجاته. فهي دعوة امتزجت فيها السلفية بالصوفية باحترام البشر، من عمال وصناع ومزارعين، على قدم المساواة. ويروي احمد الشريف قول عمّه المهدي له:

> لا تُحَقِّرَنَّ أحدا، لا مسلما ولا نصرانيا ولا يهوديا ولا كافرا، لعلّه يكون في نفسه عند الله أفضل منك اذ انت لا تدري ماذا تكون خاتمته.[٢٠]

وكان من اهم أعمال الحركة السنوسية أنها خاضت الحروب المريرة ضد الزحف الاستعماري على الشمال الافريقي. فقد تعدت السنوسية، بالجهاد الذي خاضته، نطاق التجديد الديني الى موقف واضح في رفضه للاستعمار، وبالتالي الى موقف واضح في انتمائه العربي المسلم.

---

(١٩) من أبرز آثاره: «إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن»؛ «بغية القاصد»؛ «الشموس الشارقة فيما لنا من أسانيد المغاربة والمشارقة»؛ «التحفة في أوائل الكتب الشريفة». راجع:
خير الدين الزركلي، مصدر سبق ذكره، الجزء السابع، ص ١٩٢.

(٢٠) راجع: شكيب أرسلان، «السنوسية»، كما وردت في: «حاضر العالم الإسلامي»، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، الجزء الأول، ص ١٤٠ ــ ١٦٥.
روى الأمير شكيب أرسلان القول أعلاه كما رواه له احمد الشريف (المصدر نفسه، ص ١٦٤).

ج ــ الحركة المهدية

كان لحركة محمد احمد بن عبد الله المهدي (١٢٥٩ ــ ١٣٠٢هـ / ١٨٤٣ ــ ١٨٨٥م) الأثر الكبير في حياة السودان السياسية، وفي مسيرة النضال العربي ضد الاستعمار البريطاني. كان ابوه فقيها، وكان أول من علّمه الفقه. انتقل المهدي الى الخرطوم حيث درس العلوم الدينية. وفي جزيرة آبا في النيل الأبيض تصوّف مدة خمسة عشر عاما، انصرف خلالها الى العبادة والدرس والتدريس، وتكاثر من حوله الأتباع، واشتهر بالصلاح.

نشر المهدي في كردفان رسالة من تأليفه، يدعو فيها الى تطهير البلاد من مفاسد الحكام، وبايعه عبد الله بن محمد التعايشي، وهو الذي جعله المهدي خليفة من بعده. وفي سنة ١٨٨١، لُقِّب بـ«المهدي المنتظر»، وكتب الى فقهاء السودان يدعوهم الى نصرته. وخاض المهدي معارك طاحنة لتحرير السودان، وقد هاجم أتباعه الخرطوم سنة ١٨٨٥، وقتلوا فيها غوردون باشا، حاكم السودان البريطاني،[٢١] وبمقتله انقاد السودان كله للمهدي. غير ان حكم المهدي هذا لم يطل، فقد توفي في السنة نفسها للاستيلاء على الخرطوم.

وتعتبر المهديّة ــ بالاضافة الى طابعها الديني ــ ثورة سياسية ضد الاستعمار الأجنبي، وضد الهيمنة العثمانية. وهي، من هذا المنطلق، تمثل رافدا من روافد حركة اليقظة العربية الاسلامية الحديثة.[٢٢]

* * *

ان اية من الحركات التجديدية الثلاث لم تمتد الى ابعد من المنطقة التي ولدت فيها (في الجزيرة العربية، وطرابلس الغرب وبرقة، والسودان)، اي في أطراف «الأمبراطورية العثمانية»، إلا أنها تركت أثرا بارزا في موقف التحدي للسلطات الحاكمة، وفي فرض الجهاد، وفي الاصلاح الديني سبيلا لبعث الأمة.

وهناك بين العرب من رأى في الحركة المهدية جانبها العربي أولا.[٢٣]

---

(٢١) كان الجنرال تشارلز غوردون من كبار الجنرالات البريطانيين قبل تعيينه حاكما عاما للسودان مرتين؛ فهو قد استقال أول مرة في سنة ١٨٨٠ بسبب المرض، وعُيِّن ثاني مرة في سنة ١٨٨٤ بسبب مهارته الحربية، ولمّا اشتد حصار أنصار المهدي للخرطوم صدرت الأوامر اليه بالانسحاب من حكومته؛ ويقال انه لم يمتثل، فلاقى حتفه.

(٢٢) راجع: محمد عمارة، «الجامعة العربية والجامعة الاسلامية»، كما وردت في: «القومية العربية والاسلام. . .»، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٩؛ خير الدين الزركلي، مصدر سبق ذكره، الجزء السادس، ص ٢٤٥ ــ ٢٤٦.

(٢٣) راجع بشأن اثر الثورة المهدية في فلسطين ما سيرد لاحقا في: البند أولا ــ الفصل الثالث ــ القسم الخامس.

رابعا: الاصلاح الديني والقومية

على الصعيد الفكري المحض، يمكن وصف القرن التاسع عشر، في تاريخ العرب والمسلمين، بأنه عصر الدعوة الى الاصلاح الديني، وعصر الأئمة والعلماء الكبار الذين قامت دعوتهم على الأسس التالية:

أ ــ السلفية الدينية بالعودة الى منابع الاسلام الأولى وأصوله، وبإسقاط الخرافات والبدع التي أثقلت عقل الانسان وروحه بالأغلال.

ب ــ العقلانية الاسلامية باستخدام العقل وبراهينه في فهم الدين وأصوله وغاياته.

ج ــ التجدد الذّاتي ببعث التراث الحضاري للأمة.

د ــ النظر الى الحضارة الغربية المعاصرة من موقع مستقل غير تابع، ومتميّز لا تتحكم فيه عقد النقص؛ والتعامل مع الحضارة الغربية في كل ما يتوافق وأصول التراث والحضارة الاسلامية.[٢٤]

ما يهمنا في هذا المجال هو الاشارة الى بعض المحطات من أفكار العلماء المصلحين، دليلا على دور الفكر الاصلاحي الديني في إيقاظ الحس العربي القومي. وقد جاء هذا الإيقاظ نتيجة طبيعية لإيقاظ الإيمان الصادق، والفكر الحر؛ فقد كان مصدر مباهاة لأجيال القرن الماضي ومطلع القرن العشرين، ان يقول الفرد منهم: «أنا استمعت الى الأفغاني»، او «أنا عرفت الشيخ محمد عبده»، او «أنا من جيل الكواكبي». وفي هذه الأقوال، على بساطتها، دليل على ان الأسماء المشار اليها لم تجسّد ناحية واحدة من نواحي الحياة، كالناحية الدينية مثلا، بل جسّدت كل معاني الحياة والفكر والتجدّد، ومثلت إرادة الانسان ببعث غد أفضل. وعلى طريق هذا البعث تلاقت المشاعر الدينية والوطنية. أما المقولة بوجود التناقض بين العروبة والاسلام ــ وخصوصا في تلك المرحلة ــ فالملاحظ ان مقولة كهذه لا يحتدم الجدل بشأنها إلا في مراحل ضعف العرب والمسلمين؛ فيتجه المفكرون والساسة الى البحث عن العلة: أهي في العروبة ام في الاسلام؟ ولو تتبعنا هذه المقولة، في عصر النهضة الفكرية الاسلامية الحديثة، لوجدنا ان مصدرها كان دوما أعداء العروبة والاسلام؛ ولوجدنا أيضا ان رجال الحركة الاصلاحية كلما ازداد فكرهم قوة وانتشارا بين المسلمين، ازدادت من حولهم التهم وملاحقة السلطات لهم من دولة إسلامية الى دولة اخرى.

---

(٢٤) محمد عمارة، «الجامعة العربية والجامعة الاسلامية»، كما وردت في: «القومية العربية والاسلام...»، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٠.

وما ينطبق على العلاقة بين القومية والدين عند العرب، ينطبق أيضا على سائر الشعوب المسلمة بأغلبية سكانها.[٢٥] ويتضح ذلك من سؤال عن العلاقة بين الوطنية والقومية والدين، وجّهه اندونيسي الى السيد رشيد رضا في إبّان الحركة الاستقلالية في أندونيسيا، وذكر السائل في رسالته، عبر مجلة «المنار»، ان الوطنيين في بلده يحاربون باسم الدين الاسلامي وتعاليمه، ويُرمون بالمروق. وقد جاء في ردّ السيد رشيد رضا:

وأمّا فكرة الوطنية العصريّة فهي عبارة عن اتحاد أهل الوطن المختلفي الأديان وتعاونهم على الدفاع عن وطنهم المشترك وحفظ استقلاله، او إعادته إنْ فقد، وعلى عمرانه، فهي لا تظهر في جزائر اندونيسية كظهورها في مصر، ونظر الاسلام فيها انه يوجب على المسلمين الدفاع عمّن يدخل في حكمهم من غيرهم ومساواته بهم في الأحكام الشرعية العادلة، فكيف لا يجيز اشتراكهم معهم في الدفاع عن البلاد وحفظ استقلالها والعناية بعمرانها؟ وقد رفع الصحابة (رضي) الجزية عمن شاركهم من أهل الذمة في الحرب في خلافة عمر (رضي)...

وأما نوع الوطنية التي يجب ان يتحلّى بها الشاب المسلم فهو ان يكون اسوة حسنة لأهل وطنه على اختلاف مللهم ونحلهم ومشاركا لهم في كل عمل مشروع لاستقلاله وترقيته بالعلم والفضيلة والقوة والثروة على قاعدة الشرع الاسلامي في تقديم الأقرب فالأقرب في الحقوق والواجبات وأن لا يغفل في خدمته لوطنه وقومه عن كون الاسلام قد كرّمه ورفع قدره بجعله أخا لمئات الملايين من المسلمين في العالم فهو عضو لجسم أكبر من قومه، ووطنه الشخصي جزء من وطنه الملي وأنه يجب عليه ان يتحرى جعل ترقّي الجزء وسيلة لترقّي الكل [٢٦]

وقد جاءت الفتوى في «المنار»، قرنا كاملا من الزمن بعد الدعوة التي أطلقها رفاعة الطهطاوي الى حب الوطن منذ العقد الرابع من القرن الماضي، وهذه إشارة الى تواصل الفكر الوطني من جيل الى جيل.

أ ـ رفاعة الطهطاوي (١٢١٦ ـ ١٢٩٠هـ / ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م)

كان الطهطاوي أول من ترددت في كتاباته كلمات «الوطن» و«الوطنية» و«حب الوطن من الايمان». ويقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعي انه كان أول من استعمل كلمة الوطنية بالمفهوم الغربي الحديث. وقد كانت الرغبة في التحديث لديه تنبع من حب الانسان لوطنه. وفي نثر الطهطاوي

---

(٢٥) يوجد اليوم في العالم أكثر من مليار مسلم، منهم ما يربو على مائتي مليون في مجموعة الدول العربية. أمّا سائر الدول التي تنتمي في أكثريتها الى الاسلام، فأهمها: أفغانستان، وألبانيا، وأندونيسيا، وإيران، وباكستان، وبنغلادش، وتركيا، وتشاد، والسنغال، وماليزيا، وملاوي، والنيجر وأمّا في الاتحاد السوفياتي فيوجد أكثر من ثلاثين مليون مسلم.

(٢٦) مجلة «المنار»، الجزء الثالث، المجلد الثالث والثلاثون، أيار/مايو ١٩٣٣، ص ١٩٢.

وشعره تعود كبرياؤه الوطنية الى مصر، وحتى الى المرحلة التي سبقت ظهور الاسلام. وقد رأى ان حب المسلمين لإسلامهم يعادل حب الغربيين لوطنهم، لكنه كان يضيف الى هذا الشرح ان حب الوطن لدى المسلمين هو فرع من فروع الايمان.

نشأ إعجاب الطهطاوي بالحضارة الغربية خلال إقامته في باريس سنة ١٨٢٦، إماما لأول بعثة علمية دينية من اربعين عالما، أرسلها محمّد علي الى أوروبا. وكانت أُولى طلبات الإمام من باريس ان يسمح لأعضاء البعثة بدراسة الفرنسية. وهكذا ابتدأت المرحلة الثانية من ثقافة العالم الأزهري؛ فقد انكب على دراسة راسين وروسو وفولتير ومونتسكيو، كما كان شاهد عيان على ثورة سنة ١٨٣٠. وبعد عودته الى مصر كانت اهم أعماله الترجمة والاشراف على ترجمة ألفي كتاب من أمهات الكتب الغربية. وقد توصّل الطهطاوي الى ان القوانين الوضعية لدى الفرنسيين تقابل «الشريعة» لدى المسلمين وقد كان من همومه البحث في «عصرنة» مصر من خلال المناهج التعليمية.(٢٧) ويبرز الطهطاوي، من خلال آثاره ومؤلفاته،(٢٨) رسول حضارة بين الأمم؛ فقد كان نافذة للشرق على الغرب، إلا انه لم يقف مشدوها او مقلّدا أمام حضارة الغرب العملاقة، بل وقف عالما رصينا مؤمنا بتراثه الحضاري، ومستوعبا الحضارات الأخرى المعاصرة والأكثر تقدما، فعرف كيف يختار منها، وماذا يختار. ومن هنا سلّط الأضواء على الديمقراطية، والدستور، والمؤسسات النيابية، وسيادة القانون، وأبرز دور الجماهير في الثورة على الملوك والحكام المستبدين.(٢٩)

ب ــ خير الدين التونسي (١٢٢٥ ــ ١٣٠٨هـ / ١٨١٠ ــ ١٨٩٠م)

على نهج مماثل للطهطاوي، وربّما أكثر وضوحا، سار خير الدين التونسي في نهجه الاصلاحي. وقد مارسه من خلال المناصب العليا التي تقلّدها في تونس، ومنها الحكومة. واليه يعود الفضل في إعلان الدستور ــ أول دستور في بلد عربي ــ فهذا الدستور وإنْ بقي حبرا على ورق

---

(٢٧) راجع:

Khaldun S al-Husry, *Origins of Modern Arab Political Thought* Reprinted of the 1966 ed (Delmar, New York: Caravan, 1980), pp. 11-31.

(٢٨) من ابرز آثاره الفكرية، بالاضافة الى الترجمة، انه منشيء جريدة «الوقائع المصرية» ومؤسس مدرسة الألسن. ومن ابرز كتبه: «نهاية الايجاز» في السيرة النبوية، «أنوار توفيق الجليل» في تاريخ مصر؛ «تخليص الإبريز» في وصف رحلته الى باريس (خير الدين الزركلي، مصدر سبق ذكره، الجزء الثالث، ص ٥٥ ــ ٥٦).

(٢٩) محمّد عمارة، تحقيق، «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: الكتابات السياسية» (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٧٩)، ص ٩.

إلا انه كان المقدمة للنهج الذي قاده خير الدين، وهو الاصلاح عن طريق التطور الذاتي، والاقتباس من الغرب ما دام هذا الاقتباس لا يخالف الشريعة الاسلامية. وهو يستشهد في أصول هذا الاقتباس بمعركة الأحزاب، عندما اقدم رسول الله (صلعم) على اتباع مشورة سلمان الفارسي بحفر نفق حول المدينة كما كانت عادة الفرس لمّا يحيط الأعداء بهم ويستشهد كذلك بالسلف الصالح، برجاله الذين سمح لهم بأن يأخذوا من علوم اليونانيين ومنطقهم ما رأوا فيه فائدة لهم. إذاً، أفلا يجوز لعلماء اليوم ما كان يجوز للعلماء في عصر الرشيد والأمين والمأمون؟

ويرى خير الدين التونسي ان اندفاع المسلمين في تقليد الغرب بوسائل الحياة اليومية، من ثياب وأدوات منزلية، لا يؤدي في النهاية إلّا الى التحلف بهذا المجتمع، ما دام غير قادر على إنتاج حاجاته، وما دام معتمدا في حاجاته على سواه.

أما ضرورة الاقتباس من الغرب، فيراها خير الدين من زاوية محاكاة المؤسسات والتنظيمات السياسية الحديثة القائمة على العدل والحرية؛ والحرية التي دعا اليها بقوة، هي الحرية السياسية والحرية المدنية. وهو، بالاضافة الى شرحه أصول الحريات والشورى في تاريخ الاسلام، يستند في إلحاحه في عملية الاقتباس الحديثة، الى كونها عملية استرداد أكثر منها عملية اقتباس؛ فالصليبيون أخذوا منا، فكان عصرُ النهضة في أوروبا. واليوم، على المسلمين أن يستردّوا ما أُخذ منهم.

سجل التونسي آراءه في كتابه الوحيد «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك»، وقد كتبه بعد الزيارات التي قام بها مطوّلا لمعظم الدول الأوروبية، وقد كان يتقن الفرنسية. وعمليا، حاول نشر أفكاره الاصلاحية عن طريق نشر الثقافة عامة، والتعديل في المناهج والأساليب التربوية؛ فقد كان أول من اسس مكتبة عامة في تونس. كما اسس المدرسة الصادقية، وكانت المدرسة الأولى في البلاد تدرس اللغات الأجنبية والعلوم الحديثة، بالاضافة الى اللغة العربية والحضارة الاسلامية وعلومها. وكذلك أصلح المنهاج الثقافي لجامع الزيتونة.[٣٠]

ج ــ جمال الدين الأفغاني (محمّد بن صفدر) (١٢٥٤ ــ ١٣١٥هـ / ١٨٣٨ ــ ١٨٩٧م)

من المسلّم به ان جمال الدين الأفغاني هو الباعث الحقيقي للنهضة الاصلاحية الحديثة في الدين والسياسة. وقد تطور فكر الأفغاني في مراحل متعددة؛ فهو الرجل الذي ناضل تحت شعارات الجامعة الاسلامية في عصر ازدهار القوميات.

---

(٣٠) راجع:
al-Husry, *op cit.*, pp 33-53.

في المرحلة الأولى، رفض الأفغاني إعطاء الفكر القومي اي وزن، مكتفيا بوحدة العقيدة الدينية وفي المرحلة الثانية، كان اعترافه بالخصائص القومية، الى جوار الوحدة الدينية. وفي المرحلة الثالثة، اعترف بتفوق الخصائص القومية ــ وأهمها اللغة «جامعة اللسان» ــ على وحدة الاعتقاد الديني.

حاول البعض تصوير فكر الأفغاني فكرا معاديا للعروبة. ومن الأدلة على خطأ هذا التصوّر ردّه على رينان لمّا اقدم على مهاجمة العرب وحضارتهم هجوما بالغا. وقد انطلق رينان في محاضرته الشهيرة تلك، من خطأ المؤرخين عندما يتحدثون عن علوم العرب وحضارتهم وفلسفتهم؛ فهذه الأمور كانت من نتاج الأمم غير العربية وفلسفتها، أكثر منها نتاجا للأمة العربية. أما عن الاسلام، فهو ــ كما يراه رينان ــ لا يشجع على العلم والفلسفة، فضلا عن كونه عائقا لهما. وبين الأمم المسلمة، اتّهم العنصر العربي بالذات بأنه ابعد العقول عن الفلسفة. وجاء رد الأفغاني على رينان مملوءا فكرا قوميا واضحا، كما جاء دفاعا عن العرب والعروبة:

> الكل يعلم ان الشعب العربي خرج من حال الهمجية التي كان عليها، وأخذ يسير في طريق التقدم الذهني والعلمي، ويغذّ السير بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية، وقد تمكن في خلال قرن من التكيّف بالعلوم اليونانية والفارسية... فتقدمت العلوم تقدما مدهشا بين العرب وفي كل البلدان التي خضعت لسيادتهم، وقد كانت روما وبيزنطة المدينتين الرئيسيتين لعلوم اللاهوت والفلسفة بل مبعث أنوار المعارف الانسانية كلها... ثم جاء الوقت الذي وقف فيه علماء هاتين المدينتين عن البحث، وتهدّمت فيه نصبهم التي أقاموها للعلم، ودرجت كتبهم القيّمة في طي النسيان، وقد كان العرب في ذلك الجهل حين شرعوا يتناولون ما تركته الأمم المتمدنة، فأحيوا تلك العلوم المندثرة ورقّوها وخلعوا عليها بهجة لم تكن لها من قبل. أوَليس هذا دلالة بل برهانا على حبهم الطبيعي للعلوم؟
>
> صحيح ان العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به، بيْد ان هذه العلوم التي أخذوها بحق الفتح قد رقّوها ووسعوا نطاقها، ووضّحوها ونسّقوها تنسيقا منطقيا، وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدل على سلامة الذوق، وتنطوي على التثبت والدقة النادرين، وقد كان الفرنسيون والانكليز والألمان لا يبعدون عن روما وبيزنطة بُعد العرب عنهما، وقد كان من السهل عليهم ان يستغلوا كنوز علوم تلك المدينتين، ولكنهم لم يفعلوا، حتى جاء اليوم الذي ظهر فيه منار المدنية العربية على قمة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب، فأحسن الأوروبيون اذ ذاك استقبال أرسطو بعد ان تقمّص الصورة العربية، ولم يكونوا يفكرون فيه وهو في ثوبه اليوناني على مقربة منهم أوَليس هذا برهانا آخر ناصعا على مزايا العرب الذهنية وحبهم الطبيعي للعلوم؟[٣١]

---

(٣١) «زعماء الاصلاح في العصر الحديث»، خلاصة المحاضرة في ردّ الأفغاني على رينان، كما وردت في: محمد عمارة، تحقيق، «جمال الدين الأفغاني: الأعمال الكاملة: الكتابات السياسية» (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١)، الجزء الثاني، ص ٣٢٢ ــ ٣٢٣.

وفي شأن ادّعاء رينان ان أكثر الفلاسفة في القرون الأولى للاسلام لم يكونوا من أصل عربـي، يردّ الافغاني:

. . ان الحرّانيين كانوا عربا، وان العرب لما احتلوا إسبانيا لم يفقدوا حسيتهم، بل ظلوا عربا وان اللغة العربية كانت الى ما قبل الاسلام بعدة قرون لغة الحرّانيين، وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة وهي الصائبة، ليس معناه انهم لم ينتموا الى الحسية العربية. وقد كانت أكثرية نصارى الشام عربا غسّانيين اهتدوا بهدي النصرانية. أما ابن باجة وابن رشد وابن طفيل، فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندي بدعوى انهم لم يولدوا في جزيرة العرب، وخصوصا إذا اعتبرنا ان لا سبيل الى تمييز امة عن اخرى إلاّ بلغتها.[٣٢]

وكتب الأفغاني عن «العروبة والتعرب» في «الخاطرات»:

نعم ان زحف العرب ووفودهم على البلاد، إنما كان لتعميم الدعوة الدينية أولا، وإلا فأداء الجزيـة للدخول مـع القوم في حقيقة المساواة، وللقيام في حفظ كيان المجموع. وكان من يقبل الاسلام لا إكراه عليه في قبول العادات وتعليم اللسان. كذلك من ادى الجزية فلا إكراه عليه في دينه وباقي مميزاته، بل يبقى على مألوفه ومؤثرات إقليمه وخواصه. ولا خطر على قلب فاتـح إسلامي ان يعمم آداب قومه ولسانهم، او ان يتخذ لذلك أقلّ الوسائل. ومـع ذلك نرى ان كل من دان بالاسلام، او رضي بدفـع الجزية قد سارع عن طيب خاطر وارتياح عظيم للتعرب.

والسبب في ذلك ان وفود العرب حملت معها أخلاقا فاضلة ظهرت أفضليتها بأجلى المظاهر، مثل الانفة من الكذب، والوفاء بالعهد، ومطلق العدل، وكمال الحرية والمساواة الحقيقية بين الملك والسوقة، وإغاثة الملهوف، والكرم، والشجاعة. .

نعم ان أكبر حامل، وأفعل عامل، على تعرّب أولئك الأقوام هو الفضائل الأخلاقية والصفات العالية التي كانت تأتي بها العرب، مـع بأسهم وشجاعة أبطالهم.[٣٣]

أمّا عن المقومات الرئيسية للأمة والقومية، فقد أوضحها الأفغاني بانتماء الانسان الى ثلاث دوائر لا تعارض فيها بينها، وتكبر هذه الدوائر من الدائرة الأصغر الى الأكبر؛ من دائرة الأمة، الى دائرة الملّة، الى دائرة النوع الانساني، اي البشرية جمعاء.

وأما عن العناصر المكونة للقومية، فهي خمسة، اربعة منها تنبـع من الطبيعة والـواقـع والأوضاع المادية، وهي: «اللسان» اي اللغة، و«الأخلاق»، و«العوائد»، و«الاقليم»؛ والعنصر الخامس هو عنصر «الدين»، ويعتبره عنصرا من خارج الواقـع المادي.

وهكذا، توصل الأفغاني الى التوافق وعدم التناقض بين عالمية الاسلام ومحلية القومية؛

---

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٣.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٣١٥ ــ ٣١٦.

فهو الذي انطلقت همومه الى خارج حدود الوطن فشملت الانسان في كل مكان؛ وهو الذي دعا الى تعليم وطني، بدايته الوطن وغايته الوطن.

ترك الأفغاني في كل قطر حل فيه روحا ثورية، وكانت إقامته في مصر من اخصب أعوامه عطاء؛ فقد نفخ فيها روح النهضة الاصلاحية، وكان له الأثر الكبير في تلامذته ومريديه. وقد تميّز تيار الجامعة الاسلامية الذي قاده الأفغاني من التيارات الاسلامية الأخرى التي اتخذت من الرابطة القومية موقف العداء، بأن الاصلاح الديني الذي دعا اليه يقوم على التضامن الاسلامي، ووحدة الفكر والنضال على صعيد الأمة الاسلامية، مع النفي القاطع لأي تناقض بين العروبة والاسلام.

من ابرز آثار الأفغاني الفكرية جريدته «العروة الوثقى» التي أصدرها من باريس مع الشيخ محمد عبده سنة ١٨٨٤. وقد نشر منها ثمانية عشر عددا، حملت مقالاته وآراءه في الجامعة الاسلامية. وشعار الجامعة الاسلامية لديه كان ذا محتوى تحرري، أما المضمون فهو مضمون معاد للاستعمار ومناهض للطائفية. فالأفغاني لم يميّز يوما بين مواطني الشرق بسبب انتماءاتهم الدينية. وما كان ترداده لكلمة «المسلمين» تعصبا، وإنما لكونهم الأغلبية؛ فهو مؤمن بوحدة الجوهر في الأديان السماوية، ووحدة غاياتها. والمساواة بين البشر لديه، بين معتنقي هذه الديانات، لم تنبع لديه من اعتبارات سياسية عارضة او ضرورات وطنية معينة، وإنما كانت تمثل لديه الأسس التي بنى عليها فكره وموقفه من الحياة.(٣٤)

مات الأفغاني ولم يترك كتابا جامعا او عملا كاملا. وقد نُسب بعض آثاره الى الشيخ محمد عبده، ثم ثُبت له بعد التحقيق.(٣٥) وقد كان لمقالاته في مختلف الصحف اثر لم يصل اليه كاتب في الشرق من قبله؛ فهو من كان همه الأكبر ان يبعث روح المقاومة في الشرق كله ضد الهيمنة الاستعمارية الأوروبية. وقد عرف الأفغاني من لغات الشرق الذي ناضل طوال حياته للنهوض به: العربية، والأفغانية، والفارسية، والسنسكريتية، والتركية. كما تعلم من لغات الغرب: الفرنسية، والانكليزية، والروسية.(٣٦) وقد كان الترابط لديه بين اللغة والأمة ارتباطا وثيقا؛ فهو الذي قال:

انه لا سبيل الى تمييز امة عن اخرى إلا بلغتها...

---

(٣٤) راجع: المصدر نفسه، «جمال الدين الأفغاني. الأعمال الكاملة: الله والعالم.. والانسان»، الجزء الأول، ص ٦٣ ــ ١٠٠.

(٣٥) راجع بشأن النصوص التي نسبت الى الشيخ محمد عبده، ثم توصل محمد عمارة بعد التحقق من نسبتها الى الأفغاني: المصدر نفسه، الجزء الأول، ص ١٥٣ ــ ١٥٤.

(٣٦) خير الدين الزركلي، مصدر سبق ذكره، الجزء السابع، ص ٣٨

والأمة العربية هي «عرب» قبل كل دين ومذهب، وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان مما لا يحتاج معه الى دليل او برهان (٣٧)

د ــ محمّد عبده (١٢٦٦ ــ ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ ــ ١٩٠٥م)

قال الإمام محمد عبده لمّا مات أستاذه ورفيقه الأفغاني: «ان والدي أعطاني حياة يشاركني فيها أخواي علي ومحروس، والسيّد جمال الدين الأفغاني أعطاني حياة أشارك بها محمدا وابراهيم وموسى وعيسى، والأولياء والقديسين.»(٣٨)

والواقع، ان والده قد أعطاه أكثر من نعمة الحياة؛ فقد هداه الى درب العلم. ذلك بأن محمد عبده الفتى كان قد كره العلم لرداءة التعليم في المسجد الأحمدي في طنطا، وأقنع نفسه بأن الزراعة اجدى له من طلب العلم. وهكذا عاد الى أهله والزراعة والفروسية التي أحبها. غير ان أباه امره بالعودة الى طنطا لتلقي العلم، وما كان أمامه إلا الامتثال لأمر والده. ومن مصادفات القدر انه عرّج في طريقه على احد أقربائه ــ الشيخ درويش خضر ــ ومكث لديه خمسة عشر يوما انقلب خلالها من حال الى حال، من دنيا اللهو والفروسية الى دنيا الجد والمطالعة؛ فالشيخ درويش كان عالما متصوّفا وعلى اتصال بالزاوية السنوسية، وقد استطاع بأسلوبه الهادىء ان يفتح عيني محمد عبده وقلبه على بلاغة القرآن وأسراره، فتعلم كيف يقرأ القرآن بمفرده ويتفهّمه. وهكذا، انتقل من «سجن الجهل الى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد الى إطلاق التوحيد.»(٣٩)

لازم محمد عبده الأفغاني منذ مجيئه الى مصر سنة ١٨٧١، فكان تلميذه البار. وقد انتقل على يديه من التصوف والتنسّك الى الفلسفة الصوفيّة. وفي سنة ١٨٧٧، نال شهادة العالمية من الأزهر، على الرغم من إصرار بعض أعضاء اللجنة على إسقاطه بسبب صحبته للأفغاني الثائر.

تجلّى محمد عبده بالتدريس والصحافة، إلا ان التدريس كان دوما احب الأعمال الى قلبه، وذلك على الرغم من عشرات المقالات الفكرية والنقدية والرسائل التي نشرت له. وظهر محمد عبده، من خلال كتاباته، بالمصلح الكبير لا الثائر الصلب كما كان أستاذه ورفيقه الأفغاني، وذلك على الرغم من انضمامه الى الثورة العرابية، وعلى الرغم من سجنه ونفيه ومن ملازمته للأفغاني في

---

(٣٧) كما وردت في: محمد عمارة، «جمال الدين الأفغاني: الأعمال الكاملة: الله.. والعالم.. والانسان»، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ٨٣.

(٣٨) كما وردت في: محمد عمارة، تحقيق، «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: الكتابات السياسية»، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٥.

(٣٩) طاهر الطناحي، تحقيق، «مذكرات الإمام محمد عبده» (القاهرة: دار الهلال، لا تاريخ)، ص ٣٢ ــ ٣٣.

باريس، إذ استدعاه للعمل معه في أثناء إقامته في المنفى الذي كان قد اختاره، في بيروت، فترك المقاصد الاسلامية حيث كان يدرّس، ولبّـى نداء الأستاذ الثائر، فأصدر معه جريدة «العروة الوثقى»، كما عمل معه نائبا لرئيس التنظيم السري لجمعية «العروة الوثقى». وقد اخذ التنظيم على عاتقه:

إنهاض الدول الاسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شؤونها مع الوعي الكامل على ضرورة تقليص ظل بريطانيا عن الزعامات الاسلامية وضرورة إقامة الروابط النضالية مع الحركات السياسية والاجتماعية الأوروبية المناضلة في سبيل تحرير الانسان [٤٠]

على الرغم من هذه المرحلة النضالية السياسية في حياة محمد عبده، فان ميدانه الأرحب كان الاصلاح الديني والتربوي واللغوي، وخصوصا بعد عودته نهائيا من المنفى سنة ١٨٨٩ الى مصر؛ فقد عاد مؤمنا بأن وسيلة الاصلاح الأولى للنهوض بالشرق هي التربية.

يرى البعض ان فشل الثورة العرابية والنهاية المحزنة التي آل الأفغاني اليها، سجينا ومريضا في الآستانة، كانا وراء يأس الإمام من العمل السياسي.[٤١] ولعل الأصح ان إيمانه بالتربية والتعليم كوسيلة مثلى للاصلاح، كان تشبها بالمرحلة الأولى من الاسلام في عهد الرسول (صلعم)، عندما كان التعليم والهداية والاقناع طريق الاسلام الى القبائل.

ويمكن تلخيص رسالة حياة الإمام بأمرين: «الدعوة الى تحرير الفكر من قيد التقليد، ثم التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة.»[٤٢]

يعتبر الشيخ محمد عبده من أكثر رجال الدين حماسة لتفهّم القرآن الكريم على صور مستجدّات الفكر المعاصر. وهو يرفض كل التفسيرات السابقة، انطلاقا من إيمانه بضرورة التفسير النابع من حالة العصر القائم وقد قام بشرح الآي الحكيم، إلا ان العمر لم يمهله ليتم مشروعه الكبير.[٤٣] ومن ابرز أعماله الفكرية فتاويه الدينية، وقيامه بتحقيق روائع التراث الاسلامي،

(٤٠) محمد عمارة، تحقيق، «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: الكتابات السياسية»، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ٦٩ — ٧٠.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٨٠ — ٨١.

(٤٢) خير الدين الزركلي، مصدر سبق ذكره، الجزء السابع، ص ١٣١

(٤٣) وصل الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم من الفاتحة حتى الآية ١٢٥ من سورة النساء. وكان تلميذه السيد رشيد رضا يدوّن التفسير في أثناء الدرس. وقد ابتدأ ينشر تفسير الإمام في مجلة «المنار» شهريا لمدة إثني عشر عاما (١٩٠٠ — ١٩١٢)، ثم اخذ السيد رشيد رضا على عاتقه مواصلة التفسير

وأهمها «نهج البلاغة» للامام علي بن ابي طالب، ومقامات بديع الزمان الهمذاني؛ فهو رائد للمحققين العرب في العصر الحديث.(٤٤)

اصبح الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية منذ سنة ١٨٩٩، كما اصبح خليفة الأفغاني بين علماء الجامعة الاسلامية ورجالها. وهو الذي قال الأفغاني له ذات يوم، مشيرا الى خلقه السامي الرفيع: «قل لي بالله... ايّ أبناء الملوك انت؟» وهو الذي قال عنه الخديوي عباس، لعظم مهابته: «انه يدخل عليّ كأنه فرعون.»(٤٥)

ومن المفارقات ان الإمام العالِم، الذي شبهه الخديوي بالفرعون، كان أول الكتّاب في نزع كل صفات الفرعونية عن الحكام، وهو في موضوع «السلطان في الاسلام» يقول في صفات الخليفة:

> الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم. ولا هو مهبط الوحي، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة. نعم شرطٌ فيه ان يكون مجتهدا، اي ان يكون من العلم باللغة العربية وما معها ــ مما تقدّم ذكره ــ(٤٦) بحيث يتيسر له ان يفهم من الكتاب والسنة ما يحتاج اليه من الأحكام، حتى يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل، والصحيح والفاسد، ويسهل عليه إقامة العدل الذي يطالبه به الدين والأمة معا
>
> هو ــ على هذا ــ لا يخصّه الدين في فهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزية ولا يرفع به الى منزلة، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء، إنما يتفاضلون بصفاء العقل، وكثرة الاصابة في الحكم، ثم هو مطاع ما دام على المحجّة وأهل الكتاب والسنة، والمسلمون له بالمرصاد، فاذا انحرف عن النهج أقاموه عليه، وإذا اعوجّ قوّموه بالنصيحة والاعذار اليه، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فاذا فارق الكتاب والسنة في عمله وجب عليهم ان يستبدلوا به غيره، ما لم يكن في استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه فالأمة ــ او نائب الأمة ــ هو الذي ينصّبه، والأمة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه، وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها فهو حاكم مدني من جميع الوجوه.(٤٧)

---

(٤٤) ابرز آثاره الفكرية الأخرى: «رسالة التوحيد»؛ «الرد على هانوتو»؛ «الاسلام والردّ على منتقديه»، «الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنيّة». وقد جمع السيد محمد رشيد رضا مقالاته وآثاره في ثلاثة مجلدات بعنوان «تاريخ الأستاذ الإمام»؛ وعن الفرنسية ترجم الشيخ محمد عبده لكبار الكتّاب؛ وقد درس الفرنسية في الرابعة والأربعين من عمره حتى أتقنها.

(٤٥) محمد عمارة، تحقيق، «الأعمال الكاملة للامام محمد عبده: الكتابات السياسية»، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٩.

(٤٦) يشير بذلك الى ضرورة المعرفة بقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها، وأحوال العرب في زمان البعثة خاصة، وما كان الناس عليه زمن النبي (صلعم)، وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحي، وشيء من الناسخ والمنسوخ من الآثار.

(٤٧) محمد عمارة، تحقيق، «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: الاصلاح الفكري، والتربوي، والالهيات» (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٠)، الجزء الثالث، ص ٢٨٧.

هـ ــ عبد الرحمن الكواكبي (١٢٦٥ ــ ١٣٢٠هـ / ١٨٤٩ ــ ١٩٠٢م)

تقدم الكواكبي على جميع العلماء والمصلحين الدينيين، في القرن التاسع عشر، بأنه كان أول من تمتع بالقدرة والرؤية على الفصل بين القومية والدين. وقد نادى بالجمع بين أبناء الوطن الواحد من مختلف الأديان تحت شعار الوطنية. قال في «طبائع الاستبداد...»:

> يا قوم وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين أدعوكم الى تناسي الاساءات والأحقاد وما جناه الآباء والأجداد. فقد كفى ما فعل ذلك على ايدي المثيرين وأجلكم من ان لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون فهذه امم أوستريا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطني دون الديني والوفاق الجنسي دون المذهبي والارتباط السياسي دون الاداري فما بالنا نحن لا نفتكر في ان نتبّع احدى تلك الطرائق او شبهها فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الأعجام والأجانب دعونا يا هؤلاء نحن ندبّر شأننا نتفاهم بالفصحاء ونتراحم بالاخاء ونتواسى في الضراء ونتساوى في السراء. دعونا ندبّر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط. دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهي: فلتحيى الأمة فليحيى الوطن فلنحيى طلقاء أعزاء.(٤٨)

لم تكن السلطات التركية لتسمح بانتشار أفكار الكواكبي. ولذلك، لمّا نشر كتابه «طبائع الاستبداد...» باسم «الرحالة ك»، وكتابه «ام القرى» باسم الرحالة الكواكبي الملقّب بالسيد الفراتي (١٩٠٠)، نشرهما في القاهرة لا في حلب مسقط رأسه، حيث كانت السلطات قد عطلت له في الثمانينات صحيفتين تباعا: «الشهباء»، ثم «الاعتدال».

اتهمه أعداء الاصلاح بالضلوع في مؤامرة لاغتيال الوالي سنة ١٨٨٦، وهو ما ادى الى سجنه ومحاكمته. ولمّا هاجر الى مصر سنة ١٨٩٩، كان قد خسر كل أمواله، وكسب محبة الناس ولُقِّب «ابو الضعفاء».

كان الكواكبي على نهج الأفغاني ومحمد عبده في العودة الى القرآن الكريم والسلف الصالح. وهو، في كتابه «ام القرى»، يبحث في أسباب انحطاط المسلمين، ويضع إطارا لبحثه «سيناريو» لمؤتمر إسلامي سرّي، متصورا زمان الانعقاد سنة ١٣١٦هـ / ١٨٩٩م، ومكان الانعقاد مكة المكرمة، وعدد الأعضاء اثنين وعشرين من مختلف الأقطار الاسلامية، وكلهم يعرفون العربية؛ وقد قرر هؤلاء، في نهاية المؤتمر، ان العلة الأساسية هي في الجهل، وأكثر الجهل ضررا الجهل بالاسلام. كما وزعوا الأعمال والواجبات للنهوض بـ «الجامعة الاسلامية» بين الشعوب المتعدّدة، وأولها العرب. وفي تبرير مكانة العرب الأولى، ورد ستة وعشرون بندا نقتطف منها:

---

(٤٨) [عبد الرحمن الكواكبي] الرحالة ك، «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» (مصر: الأزهر الشريف، [١٩٠٠])، ص ١٠٧.

«الجزيرة» هي مشرق النور الاسلامي
«عرب الجزيرة» هم مؤسسو الجامعة الاسلامية لظهور الدين فيهم.
«العرب عموما» لغتهم اغنى لغات المسلمين في المعارف ومصونة بالقرآن الكريم من ان تموت.
«العرب» لغتهم هي اللغة الخصوصية لمائة مليون من المسلمين وغير المسلمين.
«العرب» اعرق الأمم في أصول الشورى في الشؤون العمومية.
«العرب» اهدى الأمم لأصول المعيشة الاشتراكية.
«العرب» من احرص الأمم على احترام العهود عزة واحترام الذمة إنسانية واحترام الجوار شهامة وبذل المعروف مروءة (٤٩)

كان الكواكبي المفكر العربي الأول الذي طرح العروبة بمفهومها المعاصر.(٥٠) وقد ترك للأجيال خمسة وعشرين مبحثا دعا الى تداولها وتدقيقها: أولها، «مبحث ما هي الأمة اي الشعب»، فتساءل: «هل هي ركام مخلوقات نامية او جمعية عبيد لمالك متغلب. ام هي جمع بينهم روابط جنس ولغة ووطن وحقوق مشتركة؟» وفي «مبحث التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم»، تساءل: «هل يجمع بين سلطتين او ثلاث في واحد. ام تخصّص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بها بإتقان ولا يجوز الجمع منعا لاستفحال السلطة؟»(٥١)

وأما موضوع الاستبداد والمستبدين، فقد كان أكثر الموضوعات اهمية في فكر الكواكبي، مما جعل من كتابه «طبائع الاستبداد...» صيحة مدوية في أبناء جيله، ومن أقواله:

المستبدّ يتحكم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم ويعلم من نفسه انه الغاصب المتعدّي فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته.

المستبدّ عدو الحق عدو الحرية وقاتلهما والحق ابو البشر والحرية امهم والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئا والعلماء هم إخوتهم الراشدون إنْ أيقظوهم هبّوا وإنْ دعوهم لبّوا.

المستبدّ يتجاوز الحد لأنه لا يرى حاجزا. فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفا لما اقدم على الظلم كما قيل الاستعداد للحرب يمنع الحرب.(٥٢)

---

(٤٩) [عبد الرحمن الكواكبي] الرحالة الكواكبي الملقب بالسيد الفراتي، «ام القرى: اي ضبط ومفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الاسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦» (لا مكان: لا ناشر، [١٩٠٠])، ص ١٢٩ ـ ١٣١.

(٥٠) راجع تحليل خلدون الحصري للعروبة في فكر الكواكبي في:
al-Husry, *op.cit.*, pp. 78-94.

(٥١) عبد الرحمن الكواكبي، «طبائع الاستبداد...»، مصدر سبق ذكره، ص ١٢١ ـ ١٢٧.

(٥٢) المصدر نفسه، ص ١٠.

ووضـع الكواكبـي، في نهاية بحثه، ثلاث قواعد لرفـع الاستبداد.

ـ الأمة التي لا يشعر كلها او أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية

ـ الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم باللين والتدريـج.

ـ يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد (٥٣)

والسؤال الرئيسي هو: هل كان الكواكبـي يدعو، حقيقة، الى اللين لا الى الثورة؟ هو نفسه رأى في هذه القواعد ما يسرّ المستبدّين «لأن ظاهرها يؤمنهم على استبدادهم»، ولذلك فهو يردّد:

لا يَفْرَحَنَّ المستبدّ بعظيم قوته ومزيد احتياطه فكم من جبار عنيد جندله مظلوم صغير وإنّي أقول ما من جبار قهار إلا ويأخذه الله اخذ عزيز منتقم (٥٤)

ثم يطرح تبريره لموقف اللين:

الاستبداد لا ينبغي ان يقاوم بالعنف كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصدا على ان الاستبداد قد يبلـغ من الشدة درجة تنفجر عندها الفتنة انفجارا طبيعيا فاذا كان في الأمة عقلاء يتباعدون عنها حتى إذا سكنت ثورتها نوعا قضت وظيفتها في حصد المنافقين يستعملون حينئذ الحكمة في توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة وخير ما تؤسس يكون مـع من لا عهد له بالاستبداد ولا علاقة له بالفتنة (٥٥)

ليس الهدف مناقشة أسلوب الكواكبـي في مقاومة الاستبداد، وإنما تأكيد موضوع «الاستبداد» الذي كان مجرد طرحه على بساط البحث في بداية هذا القرن يعتبر دعوة في منتهى الخطورة. لقد قرع الكواكبـي جرس الثورة حين طرح السؤال: كيف يقاوم الاستبداد؟

مهدت أفكار المصلحين الكبار في القرن التاسـع عشر، من الطهطاوي الى الكواكبـي، لنشوء الفكرة العربية القومية. ذلك بأن الدعوة الى الاصلاح الديني لم تتناول الشؤون الدينية وحدها، وبأن العلم لدى المصلحين الكبار لم يشتمل على النواحـي الدينية فقط، بل اشتمل أيضا على النواحي السياسية. ولّما كان العلم لديهم شرطا أساسيا للتطور والتقدم، فمن البديهي إذاً ان يشمل التطور قضايا العصر السياسية، وأهمها ـ كما توصل الكواكبـي اليها ـ معرفـة الاستبداد ورفـع نـير الاستبداد، ولا يتم ذلك إلا بمجتمـع عربـي إسلامي.

من البراهين على وعي السلطات الحاكمة في البلاد الاسلامية لخطر الدعوات الاصلاحية، قيامها باضطهاد رجال الاصلاح بصورة متواصلة. فالطهطاوي أُبعد الى الخرطوم شبه منفي؛

---

(٥٣) المصدر نفسه، ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٥٤) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

والتونسي حُجر عليه في بيته في الآستانة شبه سجين؛ والأفغاني عرف المنافي وقسوتها أكثر من مرة، وكان آخر منافيه في الآستانة حيث مات مريضا شبه سجين؛ ومحمد عبده سُجن وحُكم عليه بالنفي، وبعد عودته الى مصر عُزل من منصب التدريس وحددت إقامته؛ والكواكبي سُجن في حلب وفي بيروت، وصودرت أوراقه من بيته. إلّا ان الحكم بالنفي على الرجال لا يؤدي الى نفي الفكر والمفاهيم؛ فقد تناقلت الأجيال اسم الطهطاوي مرتبطا بمفهوم حب الوطن، والتونسي بالحرية، والأفغاني بالتضامن الاسلامي وتحرير الشرق، ومحمد عبده بتحرير الفكر من قيد التقليد، والكواكبي بدعوة العرب الى عروبتهم وحريتهم وكرامتهم، وبدعوة المسلمين الى التضامن والتقدم ورفع نير الاستبداد.

خامسا: رسل الدعوة الاصلاحية في فلسطين

ليس من السهل تتبع اثر «الدعوة الاصلاحية» في فلسطين بدقة، عبر المسيرة الفكرية والسياسية التي خاضتها البلاد. على ان من السهل إدراك ان مبادىء الدعوة الاصلاحية وشعاراتها كانت هي السائدة؛ فـ«الدعوة الاصلاحية»، التي قامت في جوهرها على النهوض بالشؤون الدينية والسياسية معا، اصبحت في فلسطين تعني النضال ضد الحكم الأجنبي، والدعوة الى التحرر من الانتداب والصهيونية معا، وتأكيد الانتماء العربي وجودا ومصيرا في ظل التضامن الاسلامي، والتآخي بين العروبة والاسلام. كل هذه المبادىء تظهر من خلال الحركة الوطنية العامة ومبادئها. وليس للبحث المفصّل في مبادىء هذه الحركة ورجالاتها وشعاراتها، مجال في هذا الفصل، إنما الاشارة ضرورة للبرهان على التواصل الفكري بين الأجيال، وإلّا انتفت اهمية البحث ــ أصلا ــ في أصول الدعوة الاصلاحية بالنسبة الى تاريخ فلسطين.

لقد تواصل «الفكر الاصلاحي» على ارض فلسطين عبر الرجال الرسل الذين عرفوا المصلحين الكبار، وعاشوا أجواء المخاض الفكري في القاهرة في تلك المرحلة من التاريخ ــ مرحلة النهاية في الدولة العثمانية. فالقاهرة قد اخذت تستقطب المفكرين والكتّاب وطالبي العلم من مدن العرب، منذ الربع الأخير من القرن الماضي، فأضحت المدينة الأولى في الفكر والنشر والصحافة. ولم يتوقف فيها تيار الاصلاح والتجديد الديني بوفاة محمد عبده؛ فقد استمر تلميذه، محمد رشيد رضا، يقتفي اثره في مدرسته «الدعوة والارشاد»، وعلى صفحات «المنار». وهكذا، استمر التيار الاصلاحي في

مصر، مواكبا استمرار الشعلة الوطنية في مسيرتها، وهي تنتقل عبر رموزها من احمد عرابي الى مصطفى كامل الى سعد زغلول

في هذه الأجواء، درس في الأزهر الشريف عدد لا يحصى من أبناء فلسطين، فالدراسات الدينية كانت تستهويهم بصورة خاصة، نظرا الى المكانة الدينية التي تحتلها بلادهم فلسطين، ونظرا الى ان البلاد أساسا كانت تفتقر الى التعليم العالي. وهكذا، دأبت العائلات المقتدرة على إرسال أبنائها الى الخارج، وخصوصا الى القاهرة لتعلّم الدراسات الشرعية الدينية، او الى الآستانة لتعلّم الادارة او الطب او العلوم.

كان من أكبر الرسل المصلحين سنا وأسبقهم الى النضال الشيخ عز الدين القسام (١٨٧١ ـ ١٩٣٥)، فهو الذي فجّر الثورة باستشهاده المفاجىء، معلنا ان طريق المجابهة المسلحة ضد السلطات البريطانية هي الطريق لتحرير فلسطين.

كان القسام من تلامذة الشيخ محمد عبده. وقد نال الدرجة العالمية من الأزهر، وكان من العلماء المجاهدين. واضطر الى مغادرة سوريا ـ مسقط رأسه ـ لمّا حكم الديوان العرفي عليه بالاعدام لمشاركته في ثورة المجاهد الشيخ صالح العلي ضد الفرنسيين. وقد اختار القسّام حيفا لاقامته، وعمل على وعظ الناس وإرشادهم جهرا، وعلى إنشاء العصبة المجاهدة سرا.

آمن القسّام بأمرين إيمانا كبيرا: العروبة، والاسلام. واعتقد ان العرب إذا كانوا عربا فلا سبيل لهم إلاّ السلاح. والثورة، في مفهومه، هي الثورة التي تأكل الأخضر واليابس وآمن، أيضا، بأن لا حل للقضية الفلسطينية إلاّ بالجهاد الاسلامي.

يلتقي القسام مع الحركة السنوسية في احترام الانسان لكونه إنسانا؛ فقد عمل على اجتذاب العناصر الكادحة، وحتى المنحرفة منها، الى صفوف الايمان والصدق والثورة، مؤمنا بأن جرأة المنحرف او السارق وحتى القاتل، من الممكن ان تتحول الى شجاعة وثورة حقيقية في نفسه إذا ارتدّ عن غيّه وآمن بالله إيمانا صحيحا، وبالجهاد في سبيل الله.[٥٦]

وكان اصغر الرسل سنا ـ وأولهم في القيادة بمرور الزمن ـ الحاج محمد امين الحسيني (١٨٩٧ ـ ١٩٧٣)، مفتي القدس ورئيس المجلس الشرعي الاسلامي الأعلى. وقد درس في القاهرة عامين، كان يتردد خلالهما على الأزهر و«دار الدعوة والارشاد»، فتوطدت بينه وبين السيد رشيد رضا صداقة دائمة، هي صداقة بدايتها التلميذ والأستاذ، ومسيرتها رحلة العمر. وقد اكتسب

---

(٥٦) راجع عن القسّام: بيان نويهض الحوت، «الشيخ المجاهد عز الدين القسّام في تاريخ فلسطين» (بيروت: دار الاستقلال للدراسات والنشر، ١٩٨٧).

التلميذ من توجيهات أستاذه اهمية الدور الكبير الذي يمكن ان يقوم الدين به في السياسة. كما اكتسب من «دار الدعوة والارشاد» صداقات وطيدة مع الطلاب الذين كانوا يؤمونها من مختلف الأقطار العربية والاسلامية، ثم أصبحوا ــ بدورهم ــ في بلادهم من دعاة الاصلاح العربي الاسلامي.

في تلك المبادىء وتلك الصداقات يكمن سر نجاح المؤتمر الاسلامي العام، الذي عقده المفتي في القدس سنة ١٩٣١؛ فكان اهم المؤتمرات الاسلامية في تلك المرحلة. وقد عُقد على الرغم من محاولات الانتداب والصهيونية منع عقده. وحضره ١٤٥ مندوبا من الأقطار العربية والاسلامية، كان منهم السيد رشيد رضا، وكبير مجتهدي الشيعة السيد محمد الحسين آل كاشف الغطاء، الذي امّ المصلّين في المسجد الأقصى عشية الافتتاح. وفي الكلمة التي ألقاها، فسّر الإمام قوله تعالى «باركنا حوله» بأن البركة ليست في وجود الأشجار والأنهار، وإنما في مثل هذا الاجتماع الذي يضم علماء العالم ومشاهيره.(٥٧)

تمكن الحاج امين، منذ العشرينات، من تحويل المجلس الشرعي الاسلامي الأعلى الى قيادة وطنية يؤمها المسيحيون العرب كالمسلمين. وهو يعتبر، بين زعماء العرب المعاصرين، من القلّة التي كان لديها التوازن، بين الشؤون الدينية والسياسية، قائما أبدا.(٥٨)

وكانت الدوائر الصهيونية تحتج بشدة على نفوذ الحاج امين في العالم الاسلامي، وتقاومه بشدة. وقد دعا الكاتب اتمار بن آفي الى إنشاء مؤسسة دينية يهودية عليا في فلسطين، تقف في وجه المجلس الشرعي الاسلامي الأعلى وتقوم بمساع يهودية عالمية كما يقوم المجلس الشرعي الاسلامي الأعلى بمساع إسلامية عالمية. واعترف الكاتب بافتقار اليهود الى زعيم ديني سياسي من طراز الحاج امين، «يخاطب العالم اليهودي بأسره كما يخاطب المفتي العربي الكبير العالم الاسلامي بأسره.»(٥٩)

في عالم الصحافة، كان الشيخ سليمان التاجي الفاروقي (١٨٨٢ ــ ١٩٥٨) حاملا لواء التيار الاصلاحي. كان من الطلاب المقربين الى الشيخ محمد عبده، وكان يطلب الشيخ منه ان ينوب

(٥٧) من الذين حضروا المؤتمر: ضياء الدين الطباطبائي رئيس الوزراء الايراني سابقا؛ عبد العزيز الثعالبي الزعيم التونسي؛ محمد إقبال الشاعر الهندي؛ الزعيم شوكت علي الهندي. ومن الشخصيات العربية، كان هناك: محمد علي علّوبة؛ الأمير سعيد الجزائري؛ سعيد ثابت؛ بشير السعداوي؛ شكري القوتلي؛ رياض الصلح؛ عبد الرحمن عزام.

(٥٨) راجع بشأن المفتي الحاج امين الحسيني: بيان نويهض الحوت، «القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ ــ ١٩٤٨» (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١)، ص ٢٠١ ــ ٢٤٩.

(٥٩) جريدة «الجامعة العربية»، العدد ٨٨٥، ١٢ آب/أغسطس ١٩٣٢، نقلا عن «دوآر هايوم».

عنه في شرح الدروس أحيانا. وقد عاش الفاروقي في الأزهر الشريف تسعة أعوام، وكان يدعى بمعرّي فلسطين؛ فهو شاعر خطيب، حرمته الدنيا وهو فتى نعمة البصر، فرأى بالبصيرة. وفي الأستانة درس أيضا الحقوق، كما اتقن التركية والفرنسية والانكليزية، وكان يقوم بتفسير القرآن الكريم في جامع آيا صوفيا.

وقد اشتهر الفاروقي، في المحاماة، بدفاعه عن الحق والمصلحة الوطنية. ولما منعته السلطات البريطانية من مزاولة المحاماة، أنشأ سنة ١٩٣٢ جريدة «الجامعة الاسلامية»، وأعاد على صفحاتها نهج المصلحين في معالجة جميع القضايا التي تهم العرب والمسلمين. وقد كان يرسل القسم الأكبر من أعدادها الى الأقطار العربية والاسلامية. ومرة ثانية، عوقب بمصادرة جريدته التي استقطبت الكتّاب العرب، مثل علي ناصر الدين وسامي السراج.

كان الفاروقي يردد دوما في جلساته: «لو ان امم الشرق تصبر على الحرية، صبرها على الاستبداد.»[٦٠]

ان تعداد رجال الحركة الوطنية ورجال الفكر، الذين كان اتجاههم مع التيار الاصلاحي، عملية تخرج عن نطاق البحث. غير ان في الامكان استنتاج أبعاد هذا التيار من تحليل للتحصيل العلمي بالنسبة الى مجموعة محددة من رجال تلك المرحلة. وتنحصر هذه المجموعة بالقادة السياسيين، ورجال الحركة الوطنية البارزين في المرحلة الأولى ـــ وهي المرحلة التي تمتد من بداية الانتداب حتى وفاة موسى كاظم الحسيني، رئيس اللجان التنفيذية المتعاقبة (١٩٢٠ ـــ ١٩٣٤)؛ ذلك بأن القادة السياسيين في هذه المرحلة ـــ وهم أساسا أعضاء اللجان التنفيذية والمؤسسات السياسية البارزة ـــ هم أبناء الجيل الذي عرف رجال التيار الاصلاحي عن كثب، وتتلمذ على ايديهم.[٦١]

يتضح، من مجموعة ثلاثة وثلاثين من رجال النخبة السياسية الأولى، ان ثمانية عشر منهم قد توصلوا الى مرحلة التعليم الجامعي. وبين هؤلاء احد عشر رجلا درسوا في الأزهر الشريف وفي «دار الدعوة والارشاد»؛ ويعني هذا العدد نسبة الثلث بين أعضاء النخبة السياسية الأولى.[٦٢] وتعتبر هذه النسبة مؤشرا مهما في اتجاه التواصل الفكري بين فلسطين والمحيط العربي

---

(٦٠) يعقوب العودات، «من أعلام الفكر والأدب في فلسطين» (عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٦)، ص ٥٠١ ـــ ٥٠٤.

(٦١) راجع بشأن التحليل المنهجي الميداني للقيادات السياسية ومؤسساتها بيان نويهض الحوت، «القيادات والمؤسسات السياسية. ..»، مصدر سبق ذكره، ص ٦٤٥ ـــ ٧١٠.

(٦٢) راجع الجدول (٦ ـــ ج) والجدول (٦ ـــ ح) في: المصدر نفسه، ص ٦٧١، ٦٧٥.

الاسلامي.[٦٣] غير ان التواصل الفكري الاصلاحي، بمعناه الشامل، لم ينحصر بالنخبة السياسية حتما؛ فالمساجد، وأولها المسجد الأقصى، كانت دائما مقرا للدراسات الدينية ومركزا للعلم؛ وعلماء فلسطين كانوا ساقين في البحث والرأي والتأليف، وفي إصدار الأحكام الشرعية القضائية المستنيرة. لكن هذه الصفحة الدينية والعلمية المشرقة من تاريخ فلسطين قد بقيت، الى حد بعيد، في الظلال، كمثيلاتها من صفحات شبه منسية مثل صفحة «الفتح العربي الاسلامي»، او صفحة «السجناء والشهداء في عهد الطاغية جمال باشا». وهذه ليست سوى أمثلة.

من المسلّم به ان القدر الذي جابهته فلسطين منذ سنة ١٩١٧، بالاحتلال البريطاني وهجمة الاستيطان الصهيونية، قد دعا العلماء والرجال ومختلف فئات الشعب وطبقاته الى النضال ضد العدوانَيْن معا. وقد بات ذلك النضال المحور الأساسي، إنْ لم نقل الأوحد، في الكتابة عن تاريخ فلسطين الحديث.

غير انه من أجل تعزيز النضال، آن الأوان للكشف عن جميع الصفحات شبه المنسية: وإحداها نشر تراث علماء فلسطين الفكري كاملا، وذلك في الشؤون الدينية وسواها من العلوم، إذ ما زال القسم الأوفر من هذا التراث في عالم المخطوطات.[٦٤]

---

(٦٣) أسماء النخبة السياسية الأولى من طلاب الأزهر الشريف ودار الدعوة والارشاد، بترتيب العمر: الشيخ اسعد الشقيري (١٨٦٠ ــ ١٩٤٠)، الشيخ عز الدين القسّام (١٨٧١ ــ ١٩٣٥)؛ الشيخ المفتي اسعد الحاج قدورة (١٨٧٦ ــ ١٩٥٩)، الشيخ عبد القادر المظفر (١٨٨٠ ــ ١٩٤٩)؛ الشيخ طالب مرقة (١٨٨٠ ــ ؟)، الشيخ سليمان التاجي الفاروقي (١٨٨٢ ــ ١٩٥٨)، الشيخ المفتي محمد مراد (١٨٨٤ ــ ١٩٢٩)؛ صبحي الخضراء (١٨٩٢ ــ ١٩٥٤)؛ الحاج المفتي محمد امين الحسيني (١٨٩٧ ــ ١٩٧٤)؛ كامل الدجاني (١٨٩٩ ــ ١٩٨٥)؛ الشيخ حسن ابو السعود (١٩٠٠ ــ ١٩٥٧).

(٦٤) من النادر فعلا ان يبحث المرء عن سيرة عالم من فلسطين ولا يكتشف ان قسما من إنتاجه لم ينشر بعد، او انه لم ينشر منه شيء. وهذا النقص العلمي الحضاري جزء من المشكلة الرئيسية الكبرى، وهي بناء الذات بناء حضاريا متكاملا، بينما العدوان الصهيوني ينصبّ على اسس البنية الحضارية والبنية القومية في محاولة لتفتيتها وبعثرتها. وللدلالة على دور فلسطين الفاعل والمعطاء، على صعيد الفكر الاسلامي، نشير الى عدد من رموز المرحلة، وجلّهم من العلماء والخطباء، أصحاب المكتبات النادرة، والحائزين على شهادة العالمية او الشهادات العليا في القضاء، فنضيف الى الأسماء الواردة في الحاشية أعلاه من أسماء العلماء، ووفقا لترتيب العمر: الشيخ سعيد الكرمي (١٨٥٢ ــ ١٩٣٥)، المفتي الشيخ عبد الله الجزار (١٨٥٥ ــ ١٩٣٩)؛ الشيخ منيب هاشم (١٨٥٥ ــ ١٩٢٤)؛ الشيخ علي الريماوي (١٨٦٠ ــ ١٩١٩)؛ الشيخ خليل الخالدي (١٨٦٣ ــ ١٩٤١)؛ الشيخ عيسى منّون (١٨٨٨ ــ ١٩٥٧)، المفتي الشيخ طاهر الطبري (١٨٩٥ ــ ١٩٥٩)؛ الشيخ عبد الله القلقيلي (١٨٩٩ ــ ١٩٧٣)؛ الشيخ عبد الحميد السائح (١٩٠٧ ــ)؛ الشيخ عبد الله غوشه (١٩٠٨ ــ ١٩٧٧)؛ الشيخ حلوصي بسيسو (١٩٠٩ ــ ١٩٦٥).

=

سادسا: اليقظة الفكرية

مهدت اليقظة الفكرية التي اخذت في الانتشار منذ القرن الماضي، لانبعاث «المسألة العربية» في مطلع هذا القرن. و«المسألة العربية» مصطلح سياسي كانت بدايته مساعي العرب لنيل حقوقهم السياسية من الدولة العثمانية. وقد تطورت هذه المطالب المعلنة من التمثيل النيابي، الى اللامركزية الادارية، الى الاستقلال السياسي.

من المغالاة القول ان اليقظة الفكرية كانت يقظة عارمة في جميع الولايات العربية الآسيوية في ظل الدولة العثمانية، او أنها كانت يقظة فكرية هادفة الى بعث الأمة من جديد عبر طرح الأسئلة الرئيسية والقضايا المصيرية؛ فالواقع أنها لم تكن كذلك. إلا أنها، وبتضافر العديد من العوامل والأحداث على الصعيدين الاقليمي والدولي، قد ادت الى القيام بثورة مسلحة على الأساس القومي، وتحت شعار «الدين لله والوطن للجميع». وسنحصر البارز والأهم من تلك العوامل والأحداث بالنقاط التالية:

- يؤرخ بعض الكتّاب المحدثين بداية اليقظة العربية مع حملة نابليون في نهاية القرن الثامن عشر. والواقع ان هذه اليقظة القومية السياسية لم تكن من ضمن أهداف نابليون بأي حال؛ فالقائد الفرنسي جاء مصر فاتحا، يريد الوصول الى الهند. ولمّا حاول الاستيلاء على الشام ووصل الى أسوار مدينة عكا، عجز عن اقتحامها لمقاومة احمد باشا الجزار والي المدينة، بالتعاون مع الأسطول البريطاني. وهكذا انتهت رحلة نابليون في المشرق. غير ان من اهم الآثار الناجمة عن هذه «الرحلة العسكرية»، انتشار المطابع والمجلات والجرائد في المنطقة، وكذلك انتشار كتب التراث والترجمات، وهو ما ادى الى تحريك جمر الماضي المطمور في رماد القرون؛ فعادت الذاكرة العربية الى وعيها، وأخذ العقل العربي يستمع الى ما يجري في أوروبا وفي الدولة العثمانية نفسها من تحركات قومية.

- بين الحركات التجديدية في القرن التاسع عشر (والتي تحدثنا عنها سابقا في هذا الفصل، وأشرنا الى اهمية طرحها لقضية الانفصال عن الدولة العثمانية)، كانت الحركة الوهابية أكثرها بعدا في إيجاد المناخ العربي. وليس ذلك فقط بسبب انبثاقها من الجزيرة العربية ـ المهد العربي الأول ـ بل

= راجع بشأن سِيَر العلماء وإنتاجهم الفكري ومخطوطاتهم:
- يعقوب العودات، «من أعلام الفكر والأدب في فلسطين»، مصدر سبق ذكره؛
- «الموسوعة الفلسطينية ـ القسم العام» (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤)؛
- عجاج نويهض، «رجال من فلسطين» (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨١).

أيضا لمناداتها بحاكم عربي؛ فمنذ ان اصبح الدعاء من على المابر في مكة، سنة ١٨٠٦، باسم الأمير محمد آل سعود لا باسم السلطان سليم الثالث، استأثرت روح الفتح بالجماهير التي اخذت تستعيد ذكرى أمتها المجيدة. وقد ذكر احد الوهابيين لقنصل فرنسا في بغداد، جان ريمون: «لقد اقترب الوقت الذي سنرى فيه عربيا على عرش الخلافة، وكم طال علينا الزمن الذي قاسينا فيه مرارة العيش تحت نير مغتصب.»(٦٥)

وبمعنى آخر، فان «عروبة» الحركة الوهابية ــ وقد نشأت أساسا من صلب الدعوة الى نقاوة الاسلام الأولى، باعثة في الأذهان ذكرى العهد العربي الاسلامي ــ قد توضحت أكثر باشتراط عروبة الحاكم (٦٦) وقد أدركت الدولة العثمانية خطر الحركة الوهابية بالذات، فجندت قواها للتشهير بها وتصويرها حركةً دمويةً لا يقرها الشرع الاسلامي. كما جندت محمد علي باشا للقضاء عليها.

● استطاع محمد علي، من خلال حربه مع الوهابيين أولا، ثم حربه مع اليونان (وقد انكسر أسطوله والأسطول العثماني في معركة نافارين سنة ١٨٢٧)، ان يكشف ضعف الدولة العثمانية. ولمّا كان يتمتع بشخصية طموحة مسيطرة، فقد احذ يعمل على استقلال مصر عن السلطنة استقلالا نهائيا. كما امتد طموحه الى حكم الأراضي العثمانية؛ فزحف جيشه على ولاية سوريا، واستمرت الحملة المصرية الشهيرة بحملة ابراهيم باشا في سوريا وفلسطين تسع سنوات، كانت آخرها سنة ١٨٤٠، عندما اضطر ابراهيم باشا الى الانسحاب بتدخل بريطاني، والعودة الى مصر. وكانت نتائج هذا التوسع، بالنسبة الى مصر، حصولها على استقلال شبه كامل، والاعتراف بمحمد علي حاكما عليها حكما وراثيا في أُسرته.

ليس هناك ما يثبت ان دولة محمد علي الكبير، الألباني الأصل، كانت ستغدو دولة العروبة في حال قيامها. وإنْ يكن هناك ما يشير الى ان ابنه ابراهيم باشا بات، بسبب اطلاعه واتصالاته بأوروبا، مقتنعا بالنهج القومي في بناء الدول،(٦٧) إلا ان «الاستقلال» الذي تمتعت مصر به

---

(٦٥) Jean Raymond, *Mémoire sur l'origine des Wahabys, sur la naissance et sur l'influence dont ils jouissent comme nation — 1806* (Cairo. La Société Royale de Geographie d'Egypte, 1925), as quoted in: Zeine N. Zeine, *The Emergence of Arab Nationalism: With a Background Study of Arab-Turkish Relations in the Near East.* Reprinted of the 1958 ed. (Delmar, New York. Caravan Books, 1973), pp. 34-35.

(٦٦) Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939* Reprinted of the 1962 ed. (Great Britain: Cambridge University Press, 1983), p. 261

(٦٧) Asad J. Rustum, *The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria 1831-1841* (Beirut: American Press, 1936), p 85.

بفضل سياسة محمد علي، قد جعل منها موئلا للمفكرين والأحرار العرب الهاربين من استبداد الحكم العثماني؛ فأصبحت القاهرة ـ وخصوصا في إثر ثورة عراسي ـ المدينة العربية الأولى صحافة وفكرا؛ وهذا، بالاضافة الى أجواء النهصة التعليمية التي عمت مصر، وكذلك الولايات العربية بفضل حملة ابراهيم باشا.

● كان لنظام التعليم الذي أدخله ابراهيم باشا الأثر الفعال علميا، وبالتالي قوميا. كذلك ساهمت البعثات التبشيرية الأجنبية في نشر العلم وبغض النظر عن السلبيات التي نشأت عن التنافس بين الارساليات التبشيرية الأجنبية مما ادى الى إثارة النزاع الطائفي أحيانا، وكذلك بغض النظر عن محاولات بعض هذه الارساليات القيام بنشاطات تعزز النفوذ السياسي لدولها في المنطقة، وبغض النظر أيضا عن الايجابيات المبالغ فيها بالنسبة الى المدارس التبشيرية عامة، ودورها في توعية الطلاب العرب قوميا وسياسيا،[٦٨] فالذي لا شك فيه ان انتشار التعليم بصورة عامة، وما رافقه من ازدياد في انتشار الأفكار الحديثة، ومن اهتمام بالواقع السياسي وبالمستقبل المنظور، قد ساهم هذا كله في إيجاد المناخ الفكري الذي اكتشف فيه العرب، من مسيحيين ومسلمين، ان العروبة هي العنصر الموحد الأكبر لهم.

● تردد تعبير «يقظة العرب» في الكتابات عن القرن التاسع عشر. ويرى بعض الكتاب ان هذا التعبير الذي شاع كثيرا قد أُسيء فهمه؛ فهذه اليقظة لم تكن تعني، في تلك المرحلة، أكثر من اليقظة والوعي على الاستبداد والفساد المستشري في الحكم التركي. ولذلك انحصرت المطالب بإصلاح الحكم، وبالمساواة بين العرب والأتراك، وبالمزيد من الحريات السياسية والمدنية. أما إنشاء دولة عربية مستقلة بالانفصال عن الأمبراطورية العثمانية، فلم يكن أمرا مرغوبا فيه، ولا أمرا ممكنا أساسا؛ فقد كان قادة الفكر وزعماء الاصلاح الديني يدركون كل الادراك ما للدول الغربية من مطامع في الأمبراطورية العثمانية، ويدركون بالتالي ان اي انحلال او تفكك داخلي في الحكم سيكون مؤداه فسح المجال للتوسع الأجنبي، وخصوصا ان التوسع الاستعماري كان قد بلغ الذروة في النصف الثاني من القرن الماضي؛ فعصر ازدهار القوميات في أوروبا قد رافقه عصر التوسع الأوروبي في آسيا وأفريقيا.

ويرى فريق آخر من الكتّاب ان ما يسمى يقظة القومية العربية هو، في الواقع والأصل، يقظة

---

(٦٨) راجع بشأن المدارس والتعليم في هذه المرحلة:
Zeine, *op cit*, pp. 39-45

اللغة العربية والآداب العربية؛ فقد استيقظت اللغة العربية، واستيقظ التراث الأدبي العربي منذ منتصف القرن الماضي نتيجة انتشار المطابع والتعليم والجمعيات الأدبية والعلمية. وقد ادت هذه النهضة الأدبية الى إعادة الأمجاد العربية الغابرة الى الأذهان، والى بناء النفسية العربية بناء جديدا. وأول هؤلاء الكتاب المؤرخين حورح أنطونيوس الذي يحدّد بداية اليقظة الأدبية بتأسيس جمعية «الآداب والعلوم» في بيروت سنة ١٨٤٧، وهي أول جمعية منظمة استمرت خمسة أعوام، وكانت تلقى فيها البحوث العلمية، وكان المشرف عليها ناصيف اليازجي وسكرتيرها بطرس البستاني. ويعتبر اليازجي (١٨٠٠ ــ ١٨٧١) من الرواد في نشر الأدب العربي القديم، وقد اغنى المكتبة المدرسية بمجموعة من كتب التدريس في شتى فروع اللغة العربية. أما البستاني (١٨١٩ ــ ١٨٨٣)، فقد غرس في بذور النهضة الفكرية ثلاث دوحات ما زال طلاب العلم يتفيأون ظلالها. فقد ترجم التوراة الى اللغة العربية خلال عشرة أعوام؛ وأعد معجم «محيط المحيط» في جزأين؛ وأنجز ستة أجزاء من موسوعته «دائرة المعارف» العربية.(٦٩) ويعتبر البستاني من الزارعين بذور القومية العربية؛ فقد كان شعار مجلته «الجنان»: «حب الوطن من الايمان». وهذا الشعار كان متقدما جدا آنذاك، وغايته التسامح الديني.

وفي سنة ١٨٥٠، أُنشئت الجمعية العلمية السورية من مختلف الطوائف، وقد ضمت مائة وخمسين عضوا برئاسة العلامة الأمير محمد أرسلان. ولمّا توسع نشاطها امتدت الى القسطنطينية والقاهرة وفلسطين، حيث كان العاملون فيها: الياس بويز، وجبرائيل ايوب، وجبور قرداحي، وجرجس الجمال من عكا؛ وخليل صليبا، وحبيب أسعد خياط من يافا.(٧٠) وقد صرفت الجمعية اهتمامها الى تقدّم البلاد على أساس الوحدة الوطنية، وبعث التراث العربي.(٧١)

في احد الاجتماعات السرية للجمعية العلمية السورية، ألقى ابراهيم اليازجي قصيدته الثورية:

تـنـبّـهـوا واسـتـفـيـقـوا أيهـا العـربُ   فقـد طمى الخـطبُ حتى غـاصتِ الرُّكَبُ

---

(٦٩) عرف البستاني العديد من اللغات مما ساعده في عمله الموسوعي الضخم، إذ كان يعرف اللاتينية والسريانية والعبرية والآرامية واليونانية القديمة، الى جانب الانكليزية والفرنسية والايطالية. وبعد وفاته أكملت اسرته موسوعته الى احد عشر جزءا.

(٧٠) وردت الأسماء أعلاه في جدول الأسماء لسنتي ١٨٦٨ و١٨٦٩ في: عبد الكريم غرايبة، «سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤٠ ــ ١٨٧٦» (القاهرة: جامعة الدول العربية ــ معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦١ ــ ١٩٦٢)، ص ٢٤٣.

(٧١) راجع بشأن النهضة الأدبية:

George Antonius, *The Arab Awakening* (London: Hamish Hamilton, 2nd ed., 1945), pp 45-55.

وتناقل الناس سرا أبيات القصيدة التي تحمل تحريضا علنيا على الثورة، والتي اصبحت تعتبر النشيد الأول لحركة التحرر السياسي.(٧٢)

● شهدت الصحافة العربية في الستينات والسبعينات نوعا من حرية الرأي؛ فمنذ مطلع الستينات كانت هناك بعض الاتصالات بين رجال الصحافة العرب في بيروت ودمشق وبين رجال الدولة المصلحين في الآستانة. وقد شابه المنحى الفكري العام، الذي عبرت الصحافة العربية عنه، المنحى الفكري لحزب «تركيا الفتاة»، وللتيار الاصلاحي بزعامة مدحت باشا. كذلك ظهر، في هذه المرحلة، الطابع العلماني الذي قاده المسيحيون من الكتّاب العرب.

ومن ابرز الدوريات مجلة «الجنان» لبطرس البستاني التي أصدرها سنة ١٨٦٠، وعاشت ستة عشر عاما. ومن اهم الموضوعات التي طرحتها «الجنان»: فصل الدين عن السياسة؛ التمدّن الذي ازدهر في الشرق ماضيا، بغية استلهامه حاضرا؛ المطالبة بإلزامية التعليم؛ الدعوة الى إقامة العدل والاتحاد بين أبناء الأديان المختلفة، والى تقوية الشعور الوطني الموحِّد لجميع العثمانيين.

ابتُليت «الحرية الصحافية» بالقمع والتسلط، فكانت هجرة الصحافيين والكتّاب من الولايات العربية الى المهاجر والى القاهرة في الربع الأخير من القرن الماضي؛ ولمّا اصدر السلطان عبد الحميد الدستور الأول سنة ١٨٧٦، بتأثير من مدحت باشا، تفاءل الناس بالخير. غير ان هذا الدستور لم يعش أكثر من عام، اذ علقه السلطان، كما قام بإبعاد مدحت باشا واليا على الشام. وعلى الرغم من الفترة المحدودة التي أمضاها مدحت باشا واليا، وعلى الرغم من الاخفاق الذي كانت حركته الدستورية قد منيت به، فقد استمر يعمل على بث روح الاصلاح والحرية في البلاد. وكان يدعو الى إنشاء «امة عثمانية» متماسكة، وذات حكم دستوري. وقد عزز صلاته برجال الصحافة والفكر، ومن ابرزهم سليمان البستاني؛ وهو الذي وصف الأمبراطورية العثمانية، في كتاب له اصدره عقب ثورة سنة ١٩٠٨، «عبرة وذكرى»، قائلا ان هناك امة عثمانية تضم مختلف الشعوب والطوائف الدينية، لكن مع بعض الأولوية للأتراك والمسلمين. ومن أجل تقدم هذه الأمبراطورية، طرح البستاني شرط زوال التعصب الديني والعرقي، وإنماء الروح القومية.(٧٣)

---

(٧٢) نُشر معظم أبيات قصيدة ابراهيم اليازجي أول مرة في: احمد عزت الأعظمي، «القضية العربية» (بغداد: مطبعة الشعب، ١٩٣١)، الجزء الأول، ص ٤٣ ــ ٤٨

(٧٣) راجع:

Hourani, *op.cit*, pp 263-265

ولمّا نكّل عبد الحميد بمدحت باشا ورفاقه،[٧٤] ازدادت هجرة الأحرار من العرب والأتراك فرارا من الاستبداد الحميدي.

● ابتدأت الكتابة الحرة تعبّر عن المطامح العربية من حلال الصحف العربية الصادرة في مصر وأوروبا والمهاجر وقد ساهم الكتّاب والصحافيون من المهاجرين في إنشاء العديد من الصحف ودور النشر. وعلى سبيل المثال لا الحصر، فان ابرز الصحف التي أنشأها «المهاجرون اللبنانيون» في القاهرة كانت جريدة «الأهرام» لسليم وبشارة تقلا (سنة ١٨٧٥)، ومجلة «المقتطف» ليعقوب صروف (سنة ١٨٧٦)، وهو الذي أنشأ أيضا جريدة «المقطم» (سنة ١٨٨٩) مع فارس نمر. ثم أُنشئت «دار الهلال» لجرجي زيدان (سنة ١٨٩٢)، وهو المؤرخ الكاتب، والمؤرخ الروائي الذي ما زالت رواياته في تاريخ العرب تعاد طباعتها الى يومنا هذا.

في إثر صدور الدستور العثماني الثاني سنة ١٩٠٨، انطلقت الصحافة العربية بصورة عامة، إيمانا بأن التمثيل السياسي هو السبيل الى الاصلاح، وبأن عهد الدستور هو العهد المنشود (وهو العهد الذي لم يدم أكثر من عام بسبب الانقلاب العثماني ضد السلطان عبد الحميد)؛ فقد صدر في عام الدستور في المدن السورية خمس وثلاثون صحيفة.

في فترة قيام الأحزاب والجمعيات العربية، قامت الصحافة العربية بطرح القضايا السياسية المتعددة، وأولها القضية العربية والخطر الصهيوني. وكمثال واحد، نذكر جريدة «المفيد» التي صدرت في بيروت لعبد الغني العريسي، من مؤسسي الجمعية العربية الفتاة وشهداء ٦ أيار/مايو. كانت «المفيد» من أكثر الدوريات العربية انتشارا وتأثيرا في الفكر العربي؛ فالكثيرون من كتّابها كانوا من زعماء الحركة العربية، ومنهم: الشيخ عبد الحميد الزهراوي، وشكري العسلي، ورفيق رزق سلوم، وسليم الجزائري، ومحمد رشيد رضا، وتوفيق الناطور، ورضا الصلح، ومحمد محمصاني، وعارف الشهابي، وسليم عبد الهادي، وصالح حيدر، وعمر حامد، وحقي ورفيق العظم. وقد صدر بحقّ هؤلاء جميعا أحكام بالاعدام خلال الحرب الكبرى.

ان جميع هؤلاء الزعماء الرفاق الشهداء، الذين جمعتهم الأماني القومية على صفحات «المفيد»، هم عرب بالمصطلحات السياسية في مطلع القرن العشرين. وهم ينتمون الى جنسيات عربية مختلفة بالمصطلحات القائمة اليوم. وقد كان موضوع القومية العربية الموضوع الأول على منبر

(٧٤) استدعى السلطان عبد الحميد الوالي مدحت باشا سنة ١٨٧٩ وحاكمه هو وزملاءه، وصدر الحكم عليه بالإعدام. إلّا ان عبد الحميد عاد فنفاه هو وزملاءه الى قلعة الطائف في الحجاز نفيا مؤبدا، وهناك استشهد مدحت باشا خنقا في منفاه، وسُمّي «ابو الأحرار».

«المفيد»، والالتزام بالأمة العربية وأهدافها كان التزاما واضحا وان مجرد الاطلاع على عناوين المقالات لدليل على نضوج الفكر القومي قبيل الحرب الكبرى؛ فبين خمس وثلاثين افتتاحيـة لـ «المفيد»، في أقل من شهرين (من أواسط تشرين الأول/أكتوبر الى أواسط كانون الأول/ديسمبر ١٩١٣)، تحدثت خمس وعشرون عن القومية العربية وشؤونها، وعناوينها على سبيل المثال: «الهوية القومية العربية»؛ «خلاص الأمة الاسلامية يكمن في العرب ولغتهم»؛ «ماضي العرب ومستقبلهم»؛ «النهضة العربية والاستقلال الوطني». ومن الموضوعات البارزة الأخرى، كان موضوع الاسلام ودوره، ومشكلات المخططات الأوروبية والصهيونيـة في الوطن العـربـي. ثم يأتي عـدد من الموضوعات التي حظيت بالاهتمام والمتابعة، ومنها: دور المسيحيين في الحركة القومية العربية، النواحي الاجتماعية، الدعوة الى المفاهيم السياسية الغربية الحديثة [٧٥] وفي الموضوع الأخير، نشر العريسي افتتاحية بعنوان «تطور الأمم في السلطة والحقوق»، جاء في نهايتها.

> فواجبنا ان نأخذ بالفلسفة الحديثة السياسية القائمة على مذهب «الديمقراطية» ومذهب «الذاتية». فنسير مطالبين بحقوقنا في مملكتنا العثمانية حتى يكون للعدد الأكبر منزلته في الحياة السياسية. وإنا لبالغون.. ويحق لنا في هذا المقام ان نفخر على كل الشعوب العثمانية، بأن كانت كل الاصلاحات في المملكة نتيجة سعي اوروبة. أما اليوم فهي نتيجة شعب مفكر يصنع إصلاحاته بيده.[٧٦]

في أواخر سنة ١٩١٣، أغلقت السلطات «المفيد». وفي العدد الأخير الذي أثار النقمة والغضب، كتب العريسي عن القومية العربية وعواملها موجزا: «نعني... بالعرب كل من ربطته بهذه الأمة وحدة اللغة، وصلة النسب، ونزعة العرب.»[٧٧]

وفي السنة نفسها، أغلقت السلطات مجلة «المنتدى الأدبي» في الآستانة، وكانت كـ «المفيد» من المجلات الرائدة في نشر الفكر القومي. وباندلاع الحرب الكبرى، توقف القسم الأكبر من الدوريات العربية عن الصدور في الأراضي العثمانية. وفي فلسطين بالذات، توقفت الدوريات جميعها طوال فترة الحرب.

● أول كتاب في شؤون القومية العربية اصدره نجيب عازوري في مطلع القرن العشرين بعنوان «يقظة الأمة العربية». وإنْ جاءت شهرة الكتاب متأخرة ــ على الصعيد الشعبي ــ بسبب صدوره

---

(٧٥) Rashid Khalidi, «abd al-Ghani al-Uraisi and *al-Mufid*. The Press and Arab Nationalism before 1914,» in Marwan R. Buheiry, ed., *Intellectual Life in the Arab East, 1890-1939* (Beirut: American University of Beirut, 1981), pp. 38-61

(٧٦) «المفيد»، العدد ١٤٣١، ١٩١٣/١١/٢٣، كما وردت في: عبد الغني العريسي، «مختارات "المفيد"»، تقديم ناجي علوش (بيروت. دار الطليعة، ١٩٨١)، ص ١١٦ ــ ١١٨.

(٧٧) «المفيد»، العدد ١٤٣٥، ١٩١٣/١٢/١٥، كما وردت في: المصدر نفسه، ص ١١٨ ــ ١٢١.

في باريس، وباللغة الفرنسية،[٧٨] فمن المحتم ان رجال الحركة العربية كانوا على اطلاع واتصال بعازوري، وخصوصا رجال «الجمعية العربية الفتاة» التي شُكلت سرا في باريس فيما بعد، ورجال «اللامركزية» الذين كان عـازوري على اتصال مباشر بهم منذ إقامته في القاهرة. وقد كان هو أيضا من العاملين في الحقل السياسي، إذ كان أول من دعا الى تأسيس حزب قومي عربـي، وقد اسسه باسم «جامعة الوطن العربـي»، وأصدر مجلة «الاستقلال العربـي» بالفرنسية (١٩٠٧ ــ ١٩٠٨) من باريس، كما اصدر جريدة يومية وبالفرنسية أيضا في أثناء إقامته في مصر.

بالنسبة الى المستقبل القومي المنظور، تحـدث عـازوري، او بالأحرى تنبأ بتباشير الثورة بين امم الأكراد والأرمن والعرب. أما فكره القومي العربـي، فليس ممكنا ان يتطابق في تفاصيله مـع الفكر الراهن، او حتى مـع فكر العشرينات والثلاثينات؛ فهو قد برّر استعمار الجزائر، وفصل مصر عن الدائرة العربية فصلا جازما، واعتبر مستقبل الأمة العربية رهن تعاونها مـع الدول الأوروبية، وعلى رأسها فرنسا. ومـع ذلك، فلا يمكن تجاهل اهمية ندائه لإحياء الأمة العربية منذ سنة ١٩٠٥.

يرتكز برنامـج «جامعة الوطن العربـي»، الذي شرحه في «يقظة الأمة العربية»، على الحكم الدستوري، وعلى مبدأ المساواة أمام القانون، وعلى الحرية الدينية، وعلى فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية. وهو يرى في ذلك مصلحة للاسلام وللأمة العربية وللخليفة وهيبة الخلافة؛ فقد نادى بوجوب وجود خليفة عربـي مسلم من آل الرسول، يملك سلطة روحية على جميـع مسلمي الأرض، وتكون له دولة سياسية مستقلة تماما في الحجاز. وعن حدود الدولة العربية، فقد رآها من الفرات ودجلة الى خليـج السويس، ومن البحر الأبيض المتوسط حتى بحر عُمان، اي البلاد العربية الآسيوية.[٧٩] وقد انتشر كتاب عـازوري في فلسطين، بعيد صدوره باللغتين الفرنسية والعربية.

● كان للفكر القومي في تكوّنه الأول سمات وملامـح، وذلك على قصر المدة التي عاشها قبل الثورة، وعلى الرغم من هيمنة الاستبداد العثماني الذي حال دون ظهور هذا الفكر. ولذلك، فعملية البحث والتتبـع لا يمكن ان تقتصر على الدوريات والمنشورات، وإنما كان يجب ان تتوجه

---

(٧٨) Negib Azoury, *Le Réveil de la Nation Arab dans L'Asie Turque en Présence des intérets et des rivalités des puissances étrangères, de la Curie Romaine et du patriarcat oecuménique. Partie asiatique de la Question d'Orient et programme de la Ligue de la Patrie Arabe* (Paris: n.p., 1905).

وقد ترجم الكتاب في بيروت بعد أكثر من سبعين عاما على صدوره: نجيب عازوري (مؤسس جامعة الوطن العربـي في مطلـع القرن العشرين)، «يقظة الأمة العربية»، ترجمة احمد بوملحم، تقديم زاهية قدورة (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، [١٩٧٨]).

(٧٩) راجـع برنامـج عازوري في: المصدر نفسه، ص ٢١٩ ــ ٢٢١.

(وفي الوقت الملائم) الى رجال المرحلة انفسهم وما يملكونه من وثائق ومعلومات أساسية (ما زال معظمها في الأدراج)، وما يعرفونه من ذكريات. غير ان تأريخ هذه المرحلة لم يتم بالشكل المنشود؛ فقد انصبت معظم الدراسات على أحداث الثورة العربية، وعلى محاكمة رجال الثورة: هل أخطأوا ام أصابوا؟ وفي الوقت نفسه، انهالت القصائد والخطب تمجيدا بشهداء الثورة. وهنا يتوارى المنطق بالنسبة الى الذين يخطّئون الثورة، فكيف يجوز الحكم على حركة سياسية واحدة بالخلود لشهدائها، وبالنيل ممن بقي في قيد الحياة من أبنائها؟ ان انعدام استكمال الصورة الشاملة بدقائقها، فكريا وعمليا، يدعو أجيال اليوم الى ان تسمع بـ «الشهيد» عبد الغني العريسي، وهي لا تعرف شيئا عن نضوج فكره السياسي في مرحلة ولادة الفكر القومي. وكذلك الى ان تسمع بـ «الشهيد» عبد الكريم الخليل، وهي لا تعرف شيئا عن التوازن المذهل لدى مؤسس «الشبيبة العربية» السرية، بين الخلق النضالي وأصالة الفكر القومي والممارسة اليومية. أما «الشهيد» سليم عبد الهادي، او «الشهيد» علي النشاشيبي، فلا تذكرهما الأجيال أصلا، إذ كلاهما، ضمن المنطق الاقليمي السائد اليوم، قد أُبعد عن قائمة الشهداء.

وعلى الرغم من الثغرات في تأريخ هذه المرحلة، فانه من خلال ما عرف عنها حتى الآن يمكن القول ان السمات العامة تشير الى أبعاد مساهمة التحديات السياسية في تعميق الفكر السياسي وتوجيهه، لكنها لا تؤيد الادعاء القائل ان القومية العربية جاءت ردة فعل ــ لا أكثر ــ لسياسة التتريك.

ويمكن الاشارة أيضا الى ارتفاع ميزان القومية بوضوح والى أولويته على القضية الدينية. وهذا ليس مؤداه ان القضية الدينية كانت مهملة من جانب رجال الفكر والثورة؛ فالاتفاق على قائد هاشمي للثورة، وإعلانها من مدينة مكة بالذات، لدليل على مكانة الناحية الدينية لدى هؤلاء الرجال؛ لكن عروبة المرحلة كانت لها الأولية بالنسبة اليهم.

● يبقى أخيرا ان نشير الى اهمية انتشار القصيدة والنشيد في هذه المرحلة. إذ لم تكن المدن وحدها مهد الفكر العربي الوليد، ولم تكن القلة القارئة لـ«المفيد»، او «الأهرام»، او «المنار»، او «الكرمل»، هي وحدها الرائدة في العروبة؛ فالفكر عادة تواكبه حالة شعبية ونفسية عامة تتقبل او ترفض، تستجيب او لا تستجيب. فالطلاب العرب في المدارس النائية ــ كما في المدارس في قلب المدن ــ أنشدوا بعيد صدور الدستور لمعروف الرصافي النشيد الوطني الذي ترجمه عن الشاعر التركي توفيق فكرت، ولحنه وديع صبرا:

نحنُ حواصو عمارَ الموتِ كشافو المحن
ما لنا غيرُ اكْتساءِ العزِّ او لبسِ الكفن
بذلُ الأرواحَ نهديها لاحياءِ الوطن

هل سوى الأرواحِ للأوطانِ في الدنيا ثمن
يا صلالَ الألى لم يكونوا الفدا
ان نَمُتْ نحنُ فلتَحْيَ أوطانُنا.

انتشر هذا النشيد عنوانا للحرية ورمزا ضد الاستبداد. وفي يومنا هذا، يندر ان يصادف المرء واحدا من الرعيل الأول ومن جيل الدستور، قارئا كان او أميا، ولا يذكر له هذا النشيد.

في سنة ١٩١١، طبعت للرصافي المجموعة الشعرية الأولى في بيروت. وقد كان في زيارة للمدينة، وضيفا على صديقه امين الريحاني. ومن يقرأ قصائد الرصافي والموضوعات التي عالجها، يعرف عروبة المرحلة في كل أبعادها، وفي عمق أعماقها. والرصافي شاعر عربي واحد في كوكبة من الشعراء الكبار عرفهم مطلع هذا القرن، وعرفتهم المرحلة التي انتقلت فيها رموز الانتهاء لدى الانسان العربي من المصلحين الكبار الى الزعماء السياسيين والى الشعراء، فأضحى مصدرا للمباهاة ان يقول المرء: «أنا استمعت الى مصطفى كامل»، او «أنا شاهدت سعد زغلول»، او «أنا صافحت الرصافي».

الفصل الثاني
انهيار الدولة العثمانيّة

أولا: المسألة الشرقيّة

تُعرَّف المسألة الشرقية، بإيجاز، بأنها «نزاع شديد بين الأمة التركية والأمم التي تحت حكمها او التي كانت تحت حكمها من جهة، ودخول الدول العظمى في هدا النزاع لسدّ أطماعها وتحقيق آمالها المتناقضة من جهة أخرى »[٨٠]

يرد البعض بداية المسألة الشرقية الى بداية النزاع بين الدولة العثمانية ــ وهي في مهدها الأول ــ وبين الدولة البيزنطية، اي الى عهد عثمان بن سليمان (١٢٨٨ ــ ١٣٢٦) مؤسس الدولة التي حملت اسمه أكثر من ستة قرون؛ فمنذ القرن الرابع عشر كان النزاع بين الدولتين، وكان الفتح العثماني الاسلامي داخل القارة الأوروبية، فاستولى مراد الأول على بلغاريا وصربيا سنة ١٣٨٩. وفي عهد خلفه بايزيد الأول، نشأ أول حلف اوروبي مسيحي ضد الأتراك بدعوة من البابا، إلا انّ العثمانيين انتصروا سنة ١٣٩٦ واستعادوا نفوذهم في البلقان. واستمرت الحروب سجالا بين الفريقين، وكانت المعركة الفاصلة فتحَ القسطنطينية سنة ١٤٥٣ في عهد محمد الثاني الفاتح. فقد نشأ عن هذه المعركة وسقوط خط الدفاع الأول عن أوروبا، ان اقدم العثمانيون على امتلاك الأراضي الأوروبية؛ غير ان صعود قوة الأتراك العثمانيين العسكرية ابتدأت توازيه، بمرور الزمن، قوة النهضة الأوروبية الحديثة؛ فقد انتقل العلماء من بيزنطة الى إيطاليا، وابتدأ عهد إحياء العلوم القديمة. ولم تتوقف الحروب في أوروبا حتى بعد ان تلفّت العثمانيون شرقا في أوائل القرن

---

(٨٠) احد أعضاء الجمعيات العربية [اسعد داغر]، «الثورة العربية: مقدّماتها ــ أسبابها ــ نتائجها» (مصر: مطبعة المقطم، ١٩١٦)، ص ١٤.

السادس عشر، فكانت معركة مرج دابق شمالي حلب، سنة ١٥١٦، المعركة الفاصلة بين السلطان سليم العثماني والمماليك، وكانت بداية الحكم العثماني للعرب.

في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ــ ١٥٦٦)، وصلت الأمبراطورية العثمانية الى اوج قوتها غربا وشرقا، حيث اضحى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود قاعدتها البحرية. ومن هذه القاعدة ومس الأناضول في الوسط، وصلت الأمبراطورية غربا حتى أطراف مراكش، وشرقا حتى بغداد، وجنوبا حتى المحيط الهندي. أما داخل أوروبا، فقد كانت تسيطر على رومانيا وترانسلفانيا والمجر ومعظم النمسا وبلاد البلقان، التي تسكنها شعوب الألبان والصرب والبلغار واليونان.

ابتدأ العدّ العكسي في تاريخ الأمبراطورية العثمانية من اصغر الحلقات، اي من جزيرة قبرص؛ فلما احتلّها الأتراك العثمانيون سنة ١٥٧٠، كانت أوروبا قد اضحت في اوج نهضتها، مما سهل على الأوروبيين النجاح السريع في تشكيل أسطول بحري والتصادم مع العثمانيين في معركة ليبانتي البحرية سنة ١٥٧١ وعلى الرغم من ان المعركة كانت كارثة عسكرية للفريقين من حيث الخسائر، وعلى الرغم من كون الحلفاء الأوروبيين لم يحرؤوا على النزول الى الشاطىء اليوناني، وبالتالي اضطرت البندقية الى التنازل للأتراك عن قبرص في صلح منفرد، فقد اعتبرت أوروبا ان هذه المعركة هي بداية النصر، وهي المؤشر لإمكان القضاء على الامبراطورية العثمانية، فقرعت أجراس الكنائس في أوروبا فرحا.

في القرن السابع عشر، ابتدأ يظهر جليا ضعف الدولة العثمانية نتيجة العديد من الأسباب الداخلية، أبرزها ان حكم أمبراطورية شاسعة الأطراف تمتد على ثلاث قارات، وتضم خليطا من القوميات واللغات والأجناس والأديان، لا يعقل ان تكون وسيلة الابقاء عليه سوى الجيش القوي؛ فما ان يتسرب الضعف الى الجيش، حتى يبدأ الانهيار. وهكذا اصبحت الأمبراطورية منذ القرن السابع عشر في موقف الدفاع، بينما اخذت الدول الأوروبية تقوى وتتساءل عن مصير الإرث الكبير. وكبرت الأطماع الأوروبية بتضخم الدّيْن العام الذي رزحت الدولة العثمانية تحته، وأول تلك الدول كانت النمسا وأطماعها في البلقان وحوض الدانوب، وفرنسا الحريصة على نفوذها في الشرق، وبريطانيا الساعية دوما لارضاء مطامعها التوسعية والابقاء على خطوط المواصلات؛ ومن جهة اخرى، كانت روسيا من الشرق تتلفت للاستيلاء على الأراضي التركية قرب البحر الأسود.

تلك هي البداية للمسألة الشرقية. وأول من عُني بدراستها من أبناء الشرق كان روحي الخالدي المقدسي؛ فقد ألقى محاضرة في دار الجمعيات العلمية في باريس، وطرح المسألة الشرقية

عبر السؤال التالي: «هل تحافظ أوروبا على بقاء المملكة العثمانية او تتركها تنقرض وتزول؟»[٨١]

ان استرداد الأراضي الأوروبية من العثمانيين كان حلم أوروبا. ولذلك، فالاتجاه الى المحافظة على الدولة العثمانية كأحد الحلَّيْن، معناه وجود طرف ثالث، اي الخطر الروسي في حينه؛ فقد كانت نيات روسيا متجهة الى الاستيلاء على القسطنطينية، وبالتالي الى التحكم في التجارة العالمية والسياسة الأوروبية. ويختصر الخالدي تعريف المسألة بقوله:

فالمسألة الشرقية، اذن، هي جدال سياسي على استبقاء الممالك المحروسة او تقسيمها وربما افضى ذلك الجدال الى قتال بين الدولة العثمانية ــ لسعيها في المحافظة على بقائها ــ ودول إنكلتره وفرنسا وأوستريا وإيطاليا العاملين على حمايتها والمحافظة على كيانها لمنافعهم التجارية ولمنع توسع الدولة الروسية او على اخذ كل نصيبه منها عند حصول الاتفاق بينهم، من جهة، وبين دولة روسيا والأقوام التي خرجت او تريد الخروج عن طاعة العثمانيين كاليونان والرومان والصرب والبلغار... إلخ .. لرغبتهم في إضعاف الدولة العثمانية والاستيلاء عليها او توسيع ممالكهم من أملاكها، من جهة اخرى وقد ساقت سياسة دفع أوستريا للشرق ملك بروسيا وأمبراطور ألمانيا ليلعب على مسرح هذه المسألة دورا مهما.[٨٢]

تحدث الخالدي عن الأبعاد التاريخية، او «أساس المسألة الشرقية»، فرأى ان هذا الأساس يعود الى النزاع القديم بين الاسلام والمسيحية، «وصار كل منهما ينازع صاحبه البقاء ويروم التفرد بالاستيلاء على العالم بأسره.» وعرض تاريخ العلاقات الصدامية المتواصل حتى وصل الى المدخل الحديث للمسألة، فقال:

«منذ وجدت الأتراك في أوروبا، او بعبارة اخرى منذ دخل الاسلام أوروبا من الشرق، وجدت مسألتنا الشرقية، ومنذ دخلت روسيا في مصافّ الدول المعظّمة الأوروبية ادّعت حل هذه المسألة حلا موافقا لمنافعها الخصوصية[٨٣]

التقى الخالدي في رؤيته للبعد التاريخي في جذور المسألة الشرقية مع الشيخ محمد عبده؛ فقد نشرت «الأهرام» في عامها الأول (١٨٧٦) مقالا مطولا للشيخ الامام عن الشرق والغرب، جاء فيه:

---

(٨١) ألقى روحي الخالدي محاضرة عن «المسألة الشرقية» في دار الجمعيات العلمية في باريس بتاريخ ٦ نيسان/إبريل ١٨٩٧، ولمّا نشرها في السنة نفسها في جريدة «الأهرام» كانت الكتابة العربية الأولى في بابها. ثم صدرت محاضرة الخالدي في كتابٍ من ٧٧ صفحة في مسقط رأسه القدس بعد وفاته سنة ١٩١٣، بعنوان: «المقدّمة في المسألة الشرقية» (القدس: مطبعة دار الأيتام الاسلامية، لا تاريخ).

(٨٢) روحي الخالدي، «المقدمة في المسألة الشرقية»، مصدر سبق ذكره، ص ٢.

(٨٣) راجع ناصر الدين الأسد، «محمد روحي الخالدي: رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين» (القاهرة. معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٠)، ص ١٠٤.

ولكن اعجبُ لجعل المسئلة شرقية وغربية، فان العامل يتفرس في ذلك أسرارا خفية، تنبئنا عنها التواريخ القديمة والحديثة، وتحكي ما كانت تفعله القياصرة بالأكاسرة، والأكاسرة بالقياصرة، حيث كل من الشرقيين والغربيين مع سعة أوطانه ينتهز الفرصة للوثوب على الآخر، فهذا حقد بالميراث، حدير بالاكتراث. . . .[٨٤]

وفي مطلع القرن الحالي، ركز السيد رشيد رضا على البعد الديني للمسألة، إذ قال:

ان سلوك أوروبا الجديد في حل المسألة التي يسمونها الشرقية ويعنون بها الاسلامية سلوك عجيب . .[٨٥]

لما شرعت الدول ذات المصلحة في تأليب الشعوب العثمانية ضد الحكم، استغلت الرابطة الدينية للوصول الى هدفها؛ فروسيا ــ حامية الأورثوذكس ــ كانت تحثّ الأمم البلقانية على طلب استقلالها وتمد لها المساعدات، وفرنسا تطالب بحماية الكاثوليك والموارنة، وإنكلترا تطالب بحماية البروتستانت (وكانوا أقلية) واليهود. وقد ادت هذه التدخلات الى منح ما يعرف بـ «الامتيازات الأجنبية».

لم يكن أمام السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ ــ ١٩٠٩)، وهو آخر السلاطين الأقوياء، سوى السعي جاهدا لعدم التفريق بين الشعوب العثمانية. وقد كان يعتقد اعتقادا جازما ان اليوم الذي تفترق هذه الشعوب فيه، هو اليوم الذي يتحطم فيه عرش آل عثمان.[٨٦]

وكان عبد الحميد، أيضا، آخر السلاطين الذين كان للرابطة الدينية في عهده الدور السياسي الأول؛ فقد كان يعمل لاسترضاء المسلمين جميعا، وخصوصا العرب منهم. وهكذا اتخذت الدعوة الى المحافظة على الدولة العثمانية المنهارة ــ وبينما تتحفز الدول الأوروبية لنيل أطماعها منها ــ طابعَ المحافظة على «الاسلام» ضد «المسيحية» الأوروبية المتوثبة للهجوم.

كانت الدول الأوروبية من جهتها، بالاضافة الى إقدامها عبر قنصليّاتها على رعاية المسيحيين من العثمانيين، تتبع أسلوب التأثير الحضاري. وهذا ما دعا السلطان عبد الحميد الى إجراء الاصلاحات الادارية، وإلغاء الاقطاع، وسن التشريعات الدستورية، لعلّه يرضي بذلك طموحات المستجيبين للاغراءات الأوروبية؛ فعندما ساء الوضع في البلقان الى حد اصبحت معه روسيا على وشك التدخل العسكري، وبادرت الدول الأوروبية الى عقد مؤتمر السفراء في القسطنطينية بهدف

---

(٨٤) أعادت مجلة «المنار» نشر القسم الأخير من مقال الشيخ محمد عبده بعنوان «الشرق والغرب»، الجزء السابع، المجلد السادس والعشرون، ١٤ كانون الثاني/يناير ١٩٢٦، ص ٥٣٦ ــ ٥٣٩.

(٨٥) المصدر نفسه، الجزء التاسع عشر، المجلد الثامن، ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٠٥، ص ٧٥٥.

(٨٦) راجع بشأن سياسة عبد الحميد: احمد عزت الأعظمي، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ٧٨ ــ ٨٢

إعداد منهاج للاصلاحات، فاجأ السلطان المؤتمر المنعقد بإعلانه الدستور في ١٦ كانون الثاني/يناير ١٨٧٦، حائلا بذلك دون استمرار المؤتمر، ودون التدخل السافر في شؤون دولته.[٨٧] إلا ان هذا الدستور الذي لم يصدر عن قناعة من السلطان، ألغاه السلطان بعد عام، وألغى الحياة النيابية، وعاد الى استبداده.

فتح استبداد الحكم العثماني مجالا واسعا لحل المسألة الشرقية عبر التقسيم؛ فتشعبت المسألة الى مسائل متعددة: مسألة المضايق (البوسفور والدردنيل)، ومسألة مقدونيا، ومسألة ألبانيا، ومسألة البوسنة والهرسك، ومسألة نوفي بازار، والمسألة الأرمنية، والمسألة العربية. وفي أواخر القرن الماضي، كانت المسألة الأرمنية المسألة الأكثر اهمية؛ فقد جرت المذابح البشعة للآلاف من الأرمن، وهكذا ازدادت المسألة الشرقية تعقيدا. غير ان مصالح الدول الكبرى الست كانت لا تزال في عهد عبد الحميد تتراوح بين المحافظة على الدولة وتقسيمها:

فقد كانت **ألمانيا** الدولة الصديقة الوحيدة؛ فالقيصر ويلهلم الثاني (غليوم) زار عبد الحميد مرتين، وكانت بين الرجلين صداقة وطيدة، من نتائجها ان حققت ألمانيا لنفسها المشروع الضخم: مشروع سكة حديد بغداد.

وكانت أنظار **روسيا**، في تلك المرحلة، في اتجاه الشرق الأقصى، وتفضل إبقاء الأمور في الشرق الأدنى على حالها (وخصوصا في الفترة ما بين مؤتمر برلين والحرب الروسية ــ اليابانية).

والدولة **النمساوية ــ المجرية** عقدت اتفاقية مع تركيا سنة ١٨٩٧، جوهرها الابقاء على الوضع القائم في الشرق الأدنى أطول مدة ممكنة، وكان عبد الحميد يمقت النمسا والمجر ــ وهو الذي وصل أجداده الى أبواب فيينا. إلا انه كان مضطرا الى الاعتماد على ألمانيا كي تبقى النمسا، جارتها، على لائحة «الأصدقاء».

وكان يهم **فرنسا** المحافظة على مصالحها الاقتصادية في الدولة العثمانية، وعلى دورها التقليدي كحامية للكاثوليك في الأمبراطورية. ولا بد من أنها كانت ترحب بحل للمسألة الشرقية، إنْ كان ذلك الحل يضعف النفوذ الألماني ولا يمس المصالح الفرنسية.

وكان همّ **إيطاليا** الحصول على طرابلس الغرب أولا. وقد حاولت الوصول الى مأربها عن طريق الامتيازات الاقتصادية والقانونية مع عبد الحميد، من دون اللجوء الى الحرب.

وكانت **بريطانيا** أكثر الدول اتجاها الى خلع السلطان عبد الحميد؛ فقد كانت الدولة الوحيدة

---

(٨٧) إرنست أ رامزور، «تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨»، ترجمة صالح احمد العلي (بيروت ــ نيويورك: مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، ومنشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠)، ص ٤٣ ــ ٤٤

التي في إمكانها الاستفادة من قلب نظام الحكم وتأسيس حكومة اقوى، وذلك من دون ان تخسر شيئا؛ ولذلك ساندت حركة «تركيا الفتاة» في انقلابها [٨٨]

عندما استولت «تركيا الفتاة» على السلطة، كان من أهدافها إقامة حكومة قوية تضع حدا للتدخلات الأجنبية، وللفساد الاداري الداخلي. غير أنها في موضوع الحريات، تفوقت على عبد الحميد نفسه في الاستبداد، وتجاهلت ان الرياح القومية لا يمكن ان تعصف بالأتراك وحدهم من دون الشعوب العثمانية الأخرى؛ فلما كانت الحرب البلقانية (١٩١٢ ــ ١٩١٣)، وكانت خسارة الدولة العثمانية لمعظم أراضيها في أوروبا، كانت بداية الحسم في الحل التقسيمي للمسألة الشرقية. ولم يكن هذا الحل التقسيمي او الانفصالي موافقا للشعوب الأوروبية وحدها، وإنما للأتراك الجدد أيضا؛ فقد شعر هؤلاء بعدم قدرتهم على حل المسألة الشرقية بأنفسهم، وهي القضية السياسية الرئيسية في تاريخ أوروبا والشرق الأدنى لقرنين من الزمان. وقد كان هؤلاء، أيضا، يرون خلاص تركيا نفسها ببناء امة تركية لا عثمانية. فقد بات من المستحيل حكم دولة متعددة القوميات، ذلك الحكم الأوتوقراطي إرث القرون الوسطى، في مطلع القرن العشرين.

ثانيا: السياسة الطورانية

تألفت النواة الثورية السرية الأولى المناهضة لسياسة عبد الحميد من طلاب «المدرسة الطبية العسكرية الامبراطورية» في الآستانة. وقد تأثر الشبان الأتراك بالمدربين الأجانب الذين استقدمهم السلطان لتدريب الجيش، كما تأثروا بأمّهات الكتب الكلاسيكية الغربية، وقد اصبحت مترجمة حديثا الى التركية. وعرفت النواة الأولى، في بدايتها، باسم «الترقي والاتحاد» لا «الاتحاد والترقي».

في سنة ١٨٩٥، نفت الحكومة العديد من رجال الجمعية. وفي السنة التالية اكتشفت ــ مصادفة ــ مؤامرة انقلابية، فتجددت الأوامر بالنفي. وشهدت السنوات السبع اللاحقة استمرار جماعة في المنفى وجماعة في الداخل. وقد تم توحيد الجماعتين في سنة ١٩٠٧ باسم «الاتحاد والترقي»، على ان يبقى للجمعية مركزان: أحدهما في باريس، والآخر في سالونيك. وقد كان الهدف الأساسي للجمعية إعادة العمل بدستور مدحت الصادر سنة ١٨٧٦. [٨٩]

---

(٨٨) المصدر نفسه، ص ١٥٤ ــ ١٥٦.

(٨٩) راجع نص الوثيقة الصادرة عن دمج الجماعتين وأهداف الجمعية بتاريخ ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٩٠٧ في: المصدر نفسه، ص ١٣٨ ــ ١٤٠.

عرفت جمعية «الاتحاد والترقي» بأنها المنظمة السرية لجمعية «تركيا الفتاة». ومنذ إعادة العمل بالدستور سنة ١٩٠٨، اخذ العثمانيون من القوميات المتعددة يعملون بالتعاون مع «الاتحاديين». وقد انجرف هؤلاء جميعا بسحر الشعارات «الاتحادية» والمترجمة عن الثورة الفرنسية: «الحرية والعدالة والمساواة»، وظنوا بـ «الاتحاديين» صدق الايمان بهذه الشعارات، وصدق الاخلاص لقسم الجمعية، القسم الثوري السري بالمحافظة على الدستور؛ فألّف الألبان والشركس والأكراد والروم والأرمن جمعيات خاصة بهم، كما ألّف العرب جمعية «الاخاء العربي العثماني». لكن الاتحاديين رفضوا إدخال العرب أعضاء في اللجنة المركزية لـ «الاتحاد والترقي»، ورفضوا حتى دعوتهم الى المفاوضة في الشؤون الداخلية. ولم يبادر الاتحاديون بمثل هذه الشراسة اي شعب عثماني آخر، وفي هذه المرحلة، بات واضحا ان الاتحاديين انفسهم يعانون انقسامات داخلية في ثلاثة اتجاهات سياسية:

الاتجاه الأول يسعى للتتريك في ظل العلم العثماني؛ وهذا هو السياسة الطورانية.

والاتجاه الثاني يرى ان الانفكاك امر ضروري، لأن اصطباغ العرب بالجنسية التركية ليس أمرا سهلا، ولا ممكنا؛ هذا بالاضافة الى الخطر الذي سيجابهه الترك من بقاء العرب في دولتهم، لكون العرب الأكثرية عددا.

والاتجاه الثالث كان يرى الحل في الابقاء على «الخط الحميدي» من حيث الالتفاف حول العصبية العثمانية، وعدم إثارة العصبيات القومية خشية انهيار الأمبراطورية.(٩٠)

في المرحلة الأولى، وبينما كان العرب ما زالوا يحسنون الظن بالاتحاديين، أقدموا على فتح فروع للجمعية في العديد من المدن العربية؛ وفي فلسطين، كانت مدينة القدس من اهم مراكز الجمعية، ومن ابرز الأعضاء: الشيخ خليل الخالدي، والشيخ عبد القادر المظفّر، والشيخ اسعد الشقيري، وعبد الفتاح السعدي. وقد حاكت جمعية «الاتحاد والترقي» الحركة الماسونية في سريتها وغرابة طقوسها، وكانت تستدرج الأعضاء الذين تختارهم ما بين ترغيب وترهيب.(٩١)

---

(٩٠) احمد عزت الأعظمي، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ٩٣ ــ ٩٤

(٩١) روى خليل السكاكيني في يومياته كيف استدرجه الاتحاديون للانضمام اليهم؛ ففي ١٩٠٨/١٠/٨ اتصل به كلّ من الضابط جلال والشيخ توفيق الطبنغا للانضمام الى الجمعية، وأكّد الشيخ له ان الكثيرين تُرفض طلبات انتسابهم، وهو الوحيد الذي أرسلت الجمعية في طلبه. وبعد اسبوعين اقسم السكاكيني اليمين في مقرّ الجمعية في القدس يقول: «.. اخذوني الى غرفة داخلية فربطوا عينيّ وقادني الشيخ توفيق بيدي فسرت بقدم راسخة ورأس مرتفع، فوضع يدي اليمنى على إنجيل ويدي اليسرى على مسدس، وقال: 'هذا لتقسم به وهذا لتدافع به'، ثم جعل يقرأ عليّ صورة القسم كلمة كلمة وأنا أُعيد القسم من بعده. 'اقسمت ان أحافظ على الدستور وأسعى في رفع الوطن وأقوم بما تعهد به اليّ الجمعية وأحفظ أسرارها وأدافع عن الوطن والدستور حتى =

وحتى الحرب البلقانية، لم يكن الاتجاه الطوراني هو البارز، ولم يكن المؤمنون بالدستور وحسناته من الأتراك انفسهم يأخذون بسياسة التعصب للقومية التركية. أما بعد انتهاء الحرب، فقد كشّر التيار الطوراني عن أنيابه، وكانت ابرز دلالات هذه السياسة محاولة التتريك بالقضاء على اللغة العربية؛ إذ لم يتسامح الحكام للعرب في فتح مدارس أهلية تدرّس باللغة العربية، وفي المدارس الحكومية طبقت البرامج التي تهدف الى سياسة التتريك، كما اوفدت الحكومة المعلّمين الأتراك لتدريس اللغة العربية. ولم يكن هناك سوى إثنين من العرب بين أفراد بعثة علمية الى أوروبا لدراسة العلوم المالية، من أربعمائة طالب ولم يكتم وزير العدل التركي، نجم الدين منلا بك، ان سياسة الحكومة هي سياسة تتريك العرب؛ وقد امر بأن تكون المرافعات في المحاكم باللغة التركية؛ وكذلك فُرض على التجار العرب تقديم البيانات الى دوائر الجمرك بالتركية؛ وحتى الشكاوى المرفوعة الى مجلس «المبعوثان» من المواطنين العرب بالتركية ــ فالأعضاء العرب الذين كان هذا المجلس النيابي يضمهم بصفتهم عربا، كان من المحظر عليهم نقل الشكاوى او تسلمها باللغة العربية.[٩٢]

ولم يخف الاتحاديون، بعد الكشف عن نياتهم، احتقارهم الشديد للعرب؛ ومن نشراتهم الاستفزازية واحدة تقول: «ان العرب هم بلية علينا وان حصان التركي خير من ألف نبي ظهر في العالم.»[٩٣] ومن نداءاتهم الوثنية ما ردده شبابهم المتهوس:

> أيها الاله القادر على كل شيء!
> أنعم على الترك بالصحة والعافية، وأحسن اليهم بذئب ابيض[٩٤] وأشملهم برعاية مولانا السلطان الأعظم، وأنتِ يا مملكة طوران الجميلة المحبوبة، أرشدينا الى الطريق المؤدية اليك، لأن جدّنا «اوعوز» الكبير ينادينا.
> أيها الاله القادر على كل شيء!
> أنر طريق طوران أمامنا، واجعل أمتنا كالورد الناصر، واهدنا الصراط المستقيم.[٩٥]

= الموت). وفي الختام قال: (والله يشهد عليّ وهؤلاء الاخوان الثلاثة). ثم رفع العصابة عن عينيّ فقلت: (اين الاخوان الثلاثة)؟ فقال: (ها هم)، وأشار الى كراسٍ ثلاثة، فوجدت ثلاثة جلوسا عليها لكنهم ملتحفون بملاءات فلم أرَ غير أطراف أصابعهم » راجع:

خليل السكاكيني، «كذا أنا يا دنيا: يوميات»، إعداد هاله السكاكيني (القدس: المطبعة التجارية، ١٩٥٥)، ص ٣٩، ٤٢ ــ ٤٣.

(٩٢) توفيق علي برو، «العرب والترك: في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ ــ ١٩١٤» (القاهرة. معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٠)، ص ٩٨ ــ ٩٩.

(٩٣) احد أعضاء الجمعيات العربية [اسعد داغر]، مصدر سبق دكره، ص ١١٥

(٩٤) شعار الأتراك القدماء، وأحد آلهتهم.

(٩٥) احمد عزت الأعظمي، مصدر سبق دكره، الجزء الأول، ص ٩٩ ــ ١٠٠.

تحول التيار الطوراني من نشرات ونداءات مهووسة الى سياسة تطبيقية سافرة، لمّا نكث الاتحاديون وعودهم للعرب بعد المؤتمر العربي في باريس، ولمّا منحوا جمال باشا الصلاحيات المطلقة للقصاء على أحرار العرب.

وهكذا، وصلت الدولة العثمانية في نهايتها، بالنسبة الى علاقاتها بالعرب، الى النقيض مما كانت عليه في بدايتها؛ فالعثمانيون، في بداية حكمهم، نظروا الى الولايات العربية نظرة إجلال لم ينظروا بمثيل لها الى سائر الولايات، وذلك بسبب اللغة العربية ـ لغة القرآن الكريم ـ وبسبب الانتماء الديني. وعندما تكلم عقلاؤهم عن العرب قالوا ان العرب «قوم نجيب». والعرب، من ناحيتهم، لم يشعروا والأمبراطورية في أوجها بأي انتقاص في حقوقهم كعرب؛ فقد وصلوا الى أعلى المناصب العليا في الدولة والجيش. أما في العهد الاتحادي الطوراني، فقد كان عليهم ان يجابهوا ذلك العدوان الشرس على كيانهم وعلى وجودهم.[٩٦]

ثالثا: التجربة الدستورية

لمّا صدر الدستور سنة ١٨٧٦، تفاءل العرب بالخير، ولم يَدُر في خلدهم ما سيلقاه من الاضطهاد والقتل المصلح مدحت باشا والملقب بأبـي الدستور،[٩٧] وما سيلقاه الدستور نفسه من تجاوزات وإهمال من قبل السلطان، وهو ما زال دستورا وليدا.

في الانتخابات النيابية الأولى فاز عن متصرفية القدس يوسف ضياء الدين الخالدي، وقد كان النائب الوحيد من أبناء فلسطين. وفي العهد القصير للدستور الأول كانت المعارضة في مجلس «المبعوثان» بأكثريتها من العرب، وقد بنيت على أساس الدفاع عن مصلحة الدولة العثمانية؛ فالقضية العربية لم تكن قد طرحت بعد. وتمادت المعارضة في جرأتها فطالبت ـ بشدة ـ بمحاكمة رجال الحكم الكبار، وعلى رأسهم الصدر الأعظم وعدد من الوزراء. فما كان من الصدر الأعظم وقائد المدفعية إلا المبادرة الى تقديم الاستقالة، وسارع السلطان عبد الحميد الى إجراء تعديلات وزارية مهمة والى إلغاء منصب الصدارة العظمى واستبدالها بمنصب رئاسة الوزراء. وقد كان في عمل السلطان مخالفة دستورية صريحة؛ ذلك بأن كل تعديل دستوري يجب ان يتم عن طريق

---

(٩٦) راجـع بشأن العلاقات العربية ـ التركية:
Zeine, *op cit*, pp. 7-16.

(٩٧) راجـع بشأن أسباب صدور الدستور: البند أولا من هذا الفصل.

المجلس النيابي، وكان النائب الوحيد الذي نهض وألقى خطابا شديد اللهجة ضد هذه المخالفة الدستورية يوسف ضياء الدين الخالدي، وهو العالِم الذي كان ذا نفوذ لدى الباب العالي ويخشاه السلطان نفسه.(٩٨) وقد وقّع ورقة الاتهام التي تلاها الخالدي ستة عشر نائبا. وكان في هذا التطاول حجة كافية للسلطان لايقاف أعمال مجلس «المبعوثان» الى أجل غير مسمى، وتم إبعاد عدد من النواب عن الآستانة ومنهم الخالدي؛ وبالقضاء على مدحت باشا ورفاقه نهائيا خلا الحكم للسلطان الداهية لثلاثين عاما.

في ٢٣ تموز/يوليو ١٩٠٨، اضطر السلطان الى إعلان الدستور للمرة الثانية بضغط من جمعية «تركيا الفتاة» والاتحاديين فيها. وعلى الرغم من ان العرب لم يتمثلوا بأكثر من ربع النواب ــ وهم يفوقون الأتراك عددا ــ فان فرحتهم الغامرة بإعلان الدستور كانت حدثا لا ينسى، وآمالهم بالجسر النيابي وسيلة للوصول الى مراميهم السياسية والاصلاحية اضحت لا تُحدّ؛ فأقيمت الزينات والأفراح في المدن والقرى، وعمّت البشرى المهاجر البعيدة، فبات العرب المهاجرون يشدّون الرحال للعودة الى الوطن، يحدوهم الأمل ببناء المستقبل لأمتهم، ومن هؤلاء خليل السكاكيني الذي كتب في يومياته بعد سماعه إعلان الدستور:

نيويورك،

السبت في ١٩٠٨/٧/٢٥

وصلت نيويورك الساعة السابعة والنصف صباحا.

قرأت اليوم في الجرائد العربية ان جلالة السلطان منح البلاد الدستور مما سررت له كثيرا واستبشرت به خيرا. الآن إذا رجعت الى بلادي يكون رجوعي في محله إذا صحت الأحلام كان المجال أمامي واسعا الآن أستطيع ان اخدم بلادي. الآن أستطيع ان انشىء مدرسة وجريدة وجمعيات للشبان الآن نستطيع ان نرفع أصواتنا بدون حرج لينعم بالك يا سوريا، صبرت كثيرا فنلت مبتغاك. ليرتدّ الطامعون فينا خائبين ولتحيَ سوريا...

اتمنّى لو أطير الى القدس طيرا...(٩٩)

جرت الانتخابات النيابية في أجواء من الحماسة والإقبال والتلهف، وقد تمثلت فلسطين بخمسة نواب.(١٠٠) وكان يوما مشهودا لمّا خرجت مدينة القدس لوداعهم في ١٦ تشرين

---

(٩٨) قام يوسف ضياء الدين الخالدي (١٨٤٢ ــ ١٩٠٦) بتدريس اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية في فيينا، وكان أول من حقّق في ديوان لبيد ونشره سنة ١٨٨٠، وعنه نقل الى الألمانية، وكان أيضا أول من وضع كتابا في أصول اللغة الكردية.

(٩٩) خليل السكاكيني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣ ــ ٣٤.

(١٠٠) نواب فلسطين في سنة ١٩٠٨ هم: روحي الخالدي وسعيد الحسيني عن القدس؛ حافظ السعيد عن يافا؛ الشيخ احمد الخماش عن نابلس؛ الشيخ اسعد الشقيري عن عكا.

الثاني/نوفمبر، في موكب حافل الى المحطة، فكان الشبان في الشوارع يلعبون بالسيوف ويطلقون الرصاص ابتهاجا، والخطباء والشعراء يخطبون وينشدون، ومن كل ناحية تسمع الأهازيج وزغردة النساء.[١٠١]

في عهد «الاتحاد والترقي» أُجريت الانتخابات مرتين.[١٠٢] ومنذ سنة ١٩١١، تجمع النواب العرب في «الكتلة النيابية العربية»، التي كان هدفها الدفاع عن حقوق العرب، وخصوصا ان نيات الاتحاديين المتطرفين قد باتت مكشوفة للسياسيين العرب.

من القضايا البارزة التي أثارها النواب العرب قضية الهجرة اليهودية الى فلسطين، وقضية استيلاء اليهود على أراضيها (وهذا ما سنعالجه بالتفصيل لاحقا).[١٠٣]

اتحد النواب العرب للدفاع عن المسألة العربية، وللمطالبة بحقوق امتهم؛ وكان جوهر المسألة، في سنة ١٩١١، المساواة مع الأتراك، وخصوصا في وظائف الدولة. وبين الأمثلة التي ساقها النائب شكري العسلي:

> ان في نظارة المالية فقط (١١١) تركيا، و(١٣) يهوديا، و(١٠) من الأرمن، و(٤) من الروم وليس فيها عربي واحد. ان سبب ذلك هو فساد التصور وخطأ الاجتهاد. ولكن أكبر خطأ هو ان ترقية الموظفين لم يُعمل لها حتى الآن قانون تجري بمقتضاه، ولو عُمِل لذلك قانون عادل لارتفعت الشكوى. وهذا ما نحن نطالب به بلسان الأمة العربية وبالنيابة عنها [١٠٤]

اتهم الاتحاديون العرب بالعنصرية لإثارتهم موضوع الحقوق العربية، واستمر السجال بين الفريقين. وفي تلك المرحلة لم يخرج نضال العرب السياسي المعلن عن إطار الدولة العثمانية والرابطة العثمانية.[١٠٥]

---

(١٠١) خليل السكاكيني، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧

(١٠٢) في انتخابات سنة ١٩١٢ فاز خمسة نواب؛ فقد أُعيد انتخاب روحي الخالدي والشيخ اسعد الشقيري، وانتُخب عثمان الشاشيبي عن القدس، وأحمد عارف الحسيني عن غزة، وحيدر طوقان عن نابلس.

وفي انتخابات سنة ١٩١٤، فاز ستة نواب، فأُعيد انتخاب سعيد الحسيني (وقد كان من نواب سنة ١٩٠٨)، وانتُخب معه عن القدس راغب الشاشيبي وفيضي العلمي، وعن نابلس توفيق حماد وأمين عبد الهادي، وعن عكا عبد الفتاح السعدي.

(١٠٣) راجع في شأن تصدي النواب الفلسطينيين والعرب للصهيونية ما سيرد أدناه في: البند رابعا ــ الفصل الثالث ــ القسم الخامس.

(١٠٤) جريدة «المؤيد»، العدد ٦٣٣٤، ٨ نيسان/إبريل ١٩١١، كما وردت في: توفيق علي برو، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٥.

(١٠٥) راجع بشأن مواقف النواب العرب: المصدر نفسه، ص ٢٥١ ــ ٢٩٥

من الأسباب الرئيسية لفشل التجربة الدستورية، بصورة عامة، عدم إيمان الحكام بالديمقراطية الصحيحة؛ فالاتحاديون الذين هبوا وانتفضوا ضد السلطان الحاكم المطلق، أثبتوا جدارتهم ـ هم الآخرون ـ في خنق الحريات وفي ممارسة الحكم التسلطي. والدستور نفسه ـ وهو دستور الأحرار: مدحت باشا وصحبه، وهو الأمل الذي تعلقت به جميع الشعوب العثمانية في حينه ـ جاء في المادة الخامسة منه:

> ان حضرة السلطان مقدّس وغير مسؤول

وجاء في المادة ١١٣.

> ... أما الذين يثبت بواسطة تحقيقات إدارة الضابطة الصحيحة انهم سبب في اختلال أمنيّة الحكومة فللحضرة السلطانية وحدها الحق ان تخرجهم من الممالك المحروسة وتبعدهم عنها [١٠٦]

فمن اين جاء الدستور العثماني بالقداسة للسلطان العثماني، والاسلام منها براء، وروح الثورة الفرنسية ملهمة الدساتير الأوروبية الحديثة، وملهمة التيار الاصلاحي العثماني والدستور العثماني، أيضا منها براء. والواقع ان الاتحاديين الثوريين ما ان تسلّموا زمام الحكم حتى تحولوا ـ هم أيضا ـ الى سلاطين، وتصرفوا في ظلال من الطغيان الذي ثاروا ضده، فتمادوا في أحكام النفي والتشريد والسجن والاعدام، بما فاق أحكام العهد الذي عملوا على إسقاطه. وأصدق المقارنات بين العهدين ما تردد على كل لسان في المرحلة نفسها، غضبا وشعرا:

> كان عبد الحميد بالأمسِ فرداً   فغدا اليوم ألفُ عبدِ الحميد

---

(١٠٦) عن القانون الأساسي العثماني الصادر في ٧ ذي الحجة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م

الفصل الثالث
الجمعيات والأحزاب العربية

أولا: الجمعيات في القرن التاسع عشر

ان الصورة المعلنة والراسخة للحركة السياسية العربية الحديثة هي أنها حركة تدرّجت في أهدافها ومراميها من مطلب المساواة مع الأتراك، الى الحكم اللامركزي، الى الانفصال التام؛ ذلك الانفصال الذي ما كان إلا ردا على السياسة الطورانية. أما الصورة الخفية، ففيها من الحقائق ما يثبت غير ذلك؛ وهو ان السعي للاستقلال كان بداية للحركة العربية، لا نهاية فقط. غير ان تلك البداية قد اقتصرت حصرا على جمعيات القرن التاسع عشر وبعض الجمعيات السرية في القرن العشرين، مثل «الشبيبة العربية» وجمعية «العربية الفتاة».

في سنة ١٨٧٥، أُنشئت في لبنان جمعية سرية من مختلف الطوائف، لكن هذه الجمعية انتهت بعد خمسة أعوام من تأسيسها، وبمجرد إعلان برنامجها السياسي. ففي ليل ٣١ كانون الأول/ديسمبر ١٨٨٠، ألصق أعضاء الجمعية المناشير على الجدران في بيروت وطرابلس وصيدا، يدعون الى منح سوريا الاستقلال التام متحدة مع جبل لبنان، ويطالبون بالاعتراف باللغة العربية لغة رسمية، وبنشر التعليم، وبالحريات العامة، وبحصر استخدام القوات المجندة من أهل البلاد بالمهمات العسكرية فقط. لكن سرعان ما تعقّب جواسيس العهد الحميدي رجال الجمعية، مما اضطرهم الى إتلاف مستنداتهم واللجوء الى مصر، وقد كان عددهم بالعشرات.[١٠٧]

وفي دمشق تأسست أول جمعية ثورية بإيحاء من مدحت باشا. ويقول الأمير فايز الشهابي في تأسيسها:

> ... ومما ذكره لي والدي انه اسست في سوريا «جمعية السيف الأحمر»، وهي أول جمعية قومية عربية،

---

(١٠٧) راجع بشأن الجمعيات الأولى:
Antonius, *op.cit.*, pp. 79-88.

ويُعزى الى مدحت تأسيسها سرا، غايتها تحقيق برنامج مدحت ومن أعضاء الجمعية محمود حمزة مفتي دمشق الأكبر، والأمير محمد أرسلان والد الأمير مصطفى، والأمير اسعد الشهابي.[١٠٨]

من المطقي ان تنطفىء جذوة هذه الجمعية باستشهاد مدحت سنة ١٧٨٩. ويبدو أنها كانت الحركة السياسية الوحيدة المؤهلة للقضاء على حكم آل عثمان في حال نجاحها. كما يبدو أنها كانت حركة لا تهدف الى انفصال العرب، بل الى توليتهم حكمَ البلاد كلها؛ فقد اوضح الشهابي «البرنامج» المشار اليه قائلا:

ان مدحت باشا كان ينوي إزالة آل عثمان عن السلطنة وتنصيب الشريف عبد المطلب سلطانا وخليفة، أميرا للمؤمنين، إذ كان عبد المطلب يقيم وقتئذ في الآستانة وعرفه مدحت وآمن بكفايته...[١٠٩]

وفي باريس، اسست الجالية السورية سنة ١٨٩٥ جمعية علنية باسم «الجمعية الوطنية العربية»، وأهدافها واضحة من أجل الاستقلال. وقد وجّهت منشورا الى الدول العظمى سنة ١٩٠٦، جاء فيه:

ان في المملكة التركية انقلابا فكريا سلميا يوشك ان يبين. ذلك ان الأمة العربية التي قسمها الترك طوائف ومذاهب، حتى تم لهم ان يسوموها سوء العذاب، قد انتبهت من غفلتها، فعرفت ان لها قومية وطنية تاريخية جنسية فهي تحاول ان تنفصل عن تلك الشجرة التركية النخرة وتنشىء لها ملكا عربيا مستقلا.

ولهذه الدولة حدود طبيعية تبتدىء من دجلة والفرات الى برزخ السويس، ومن البحر المتوسط الى بحر عُمان. وتكون هذه الدولة سلطنة دستورية حرة يتولى أمرها سلطان عربي...[١١٠]

ثانيا: الشبيبة العربية

ورد عن «الشبيبة العربية» في العديد من مصادر الثورة العربية أنها جمعية سرية أنشأها عبد الكريم الخليل بعد إنشائه المنتدى، و«غايتها الوصول الى استقلال العرب عن طريق العلم

---

(١٠٨) عجاج نويهض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث» (مخطوطة لشهادات من رجال الحركة العربية سجّل المؤلف معظمها في فترة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٩ في ستة وعشرين كراسا)، «شهادة فايز الشهابي»، عمان، ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٣، ك (كراس) ١١، ص ٣٤ ـ ٣٥.

(١٠٩) المصدر نفسه، الشهادة نفسها.

عبد المطلب هو جدّ الأمير علي حيدر الذي نصبّه الأتراك أميرا على مكة سنة ١٩١٦، وهو والد الشريف عبد المجيد، فالشريف حيدر هو ابن الشريف جابر ابن الشريف عبد المطلب من ذوي زيد وذوو عون يتولون الإمارة في مكة منذ حركة ابراهيم باشا، وكان قبلهم يتولاها ذوو زيد. (المصدر نفسه).

(١١٠) احمد عزت الأعظمي، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ٤٨ ـ ٤٩.

وتهذيب الاخلاق.»[111] ولمّا كانت جمعية «الشبيبة العربية» تتصف بالسرية المطلقة، فانه لم يكن في الامكان معرفة حقيقتها قبل ان يرويها واحد من أبنائها؛ وعبد الستار السندروسي واحد من هؤلاء، ومن الأصدقاء الملازمين لعبد الكريم الخليل. ونظرا الى اهمية الشهادة، فاننا نوردها بحذافيرها لكونها تثبت ان هذا التنظيم السري الثوري قد أُنشيء منذ سنة ١٩٠٥، وأنه قد استمر عشرة أعوام:

أول حديث عربي سياسي قومي كان مع عبد الكريم سنة ١٩٠٨ في مدرسة المكتبة التي وراء قبر السلطان محمود بعيد الحرية أول خريف ١٩٠٨. هو فاتحني كنا نتمشّى معا في فناء المدرسة نهارا.

ولكن الصداقة لم تكن قامت بيننا بعد. ولكنه على ما عرفت بعدئذ كان يراقبني مراقبة خاصة في جمعية الاخاء. فكان حديثه عن الأمة العربية. فظننت انه يهزأ بي، إذ لم أكن اعتقد وقتئذ انه يوحد في العالم عربي يحمل هذه الفكرة

فأجبته محتدا. أتسخر بي؟ أتهزأ بي؟

ونفرت منه وأحببت مفارقته.

فأجاب برفق: تعال عندنا جمعية تعنى بهذا الأمر

فاستمعت اليه ومشى الحديث طويلا في نفس الجلسة او الموقف. وفي نفس المحادثة كلمني ان أفاتح عمر زكي. فأجبته ان عمر في اليد ولا لزوم لإدخاله. وقلت لعبد الكريم هكذا إذ من شدة حذري قلت لعل عمر زكي يكون خفيفا. والناس لم يفكروا بعد ان يروا القتل ولا سيما في المسائل السياسية. فاكتفى بجوابي

كانت الجلسة نحو ساعة زمان. ولمّا تفارقنا كنا اتفقنا على العمل للمبدأ القومي. في هذه الجلسة لم يذكر لي عبد الكريم اسم الجمعية التي أشار اليها. وعُرف ان اسمها بعدئذ «الشبيبة العربية»، وبقي اسمها خفيا على المجلس العرفي في عاليه سنة ١٩١٥.

هذه هي الجلسة الأولى بيني وبين عبد الكريم في الآستانة

ثم استمرت العلاقة والمحادثات السرية. وفهمت منه ان «الشبيبة العربية» قد اسست قبل ثلاث سنوات!!

وأن المؤسسين: الأمير عارف الشهابي (حاصبيا)، حمدي الباجه جي (بغداد)، محب الدين الخطيب (دمشق)، وهو نفسه عبد الكريم.

حتى الآن لا ادري عدد المؤسسين الأول إذ كان هذا السؤال ممنوعا. نمرتي كانت (٧٢) سنة ١٩٠٨. ولا ادري هل هذه الأرقام حقيقية ام رمزية .

لقيت محب الدين في دمشق سنة فيصل قبل ميسلون، وعند فيصل في القصر فسألته: من بقي من إخواننا؟ فقال خالد الحكيم سَلْه ومنه تفهم كل شيء.

وحدث ان لقيت بخالد (قبل ميسلون) وسألته فقال لم يبق احد. فمنهم من قضى شهيدا ومنهم

(١١١) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص ٢٨

من دخل في «الفتاة». ولم يُسَمِّ أحدا. لم يكن من الممكن ان نعلم عدد أعضاء الجمعية في الأستانة بقيت «الشبيبة العربية» حتى ١٩١٥.(١١٢)

وعلى النقيض من صورة الفرح العربـي الغامر بصدور الدستور، يقول ابن «الشبيبة العربية» السندروسي:

حاء الدستور أما أنا يئست. ولما رأيت شيوع (حرية عدالة مساواة) اردت يأسا إذ قلنا انه من الصعب السير في عملنا إذ الناس يخدعون بهذه الكلمات المعسولة (١١٣)

تثبت هذه المقتطفات النضوج الفكري والسياسي لدى «الشبيبة العربية» التي أنشأت، بعد اربعة أعوام من تأسيسها، «المنتدى الأدبـي» مسرحا لبث الفكرة العربية واكتشاف العناصر المخلصة للعمل السري.

ثالثا: المنتدى الأدبـي

كانت «جمعية الاخاء العربـي العثماني» الجمعية العربية العلنية الأولى في الآستانة، إذ تأسست سنة ١٩٠٨ من كبار الموظفين العرب. وتدعو أهدافها العامة الى المحافظة على الدستور وعلى الوحدة العثمانية، كما تدعو الى تحسين الأوضاع في الولايات العربية على أساس المساواة الحقيقية بين العرب والأقوام العثمانية الأخرى، والى نشر التعليم باللغة العربية، وتنمية الشعور الوطني بالمحافظة على العادات والتقاليد.(١١٤)

استطاعت هذه الجمعية في عمرها القصير، وهو دون العام الواحد، ان تنشىء ناديا وجريدة باسمها، وأن تستقطب الطلاب العرب في الآستانة. وباشر الأعضاء فتح الفروع في مدنهم المختلفة. ولمّا كان شكري الحسيني من كبار مؤسسي الجمعية، فقد سعى لإنشاء فرع في القدس، وقام اسماعيل الحسيني بمهمة التأسيس، وتألفت الهيئة العاملة الأولى من خمسة عشر عضوا.(١١٥)

---

(١١٢) عجاج نويهض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث»، مصدر سبق ذكره، «شهادة عبد الستار السندروسي»، عمان، آب/أغسطس ١٩٥٣، ك ١، ص ٧ ـ ٩.

(١١٣) المصدر نفسه، ك ١، ص ٩.

(١١٤) امين سعيد، «الثورة العربية الكبرى» (مصر: مطبعة عيسى البابـي وشركاه، لا تاريخ)، المجلد الأول، ص ٧ ـ ٨.

(١١٥) ذكر السكاكيني في يومياته بتاريخ ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٠٨، انه قد شارك في الاجتماع التأسيسي، ومن الأسماء التي ذكرها ولم ترد أعلاه: موسى الخالدي؛ حنا العيسى؛ نخلة زريق؛ فيضي العلمي (خليل السكاكيني، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧ ـ ٤٨).

ولّما أنشأ عبد الكريم الخليل «المنتدى الأدبي» في الآستانة، اضحى «المنتدى» الوارث الطبيعي لـ «الاخاء»، والمقر الجامع للعرب الوافدين على العاصمة، والمنبرَ الجريء للحوار العربي في شؤون التاريخ وإحيائه.

عقدت الاجتماعات التمهيدية لتأسيس المنتدى في منزل النائب عبد الحميد الزهراوي (ولم ينضم الزهراوي رسميا الى المنتدى لكونه نائبا، إلا انه كان الدماغ المفكر والنصير الأول بشهادة الكثيرين).

في الاجتماع العلني الأول، الذي افتتحه عبد الكريم الخليل بحضور مائة وخمسين من العرب، أُقرت اربعة أسماء من الأعضاء المؤسسين، فكانوا بالاضافة الى الخليل: جميل الحسيني المقدسي، وسيف الدين الخطيب الدمشقي، ويوسف سليمان حيدر البعلبكي. وانتخب اربعة آخرون، وكان الانتخاب للأربعة «الاضافيين» يتم سنويا وفقا لنظام المنتدى.(١١٦)

أُلقيت المحاضرات في المنتدى كل اسبوع في الشؤون القومية، وكان الحضور بالمئات من العرب، المقيمين والوافدين. ومن الاحتفالات التي أقامها، كان أكثرها أثرا حفل الوداع للنواب العرب في حزيران/يونيو ١٩١١؛ فقدم المنتدى الى النواب برنامجا مفصلا من أجل النهوض بالتعليم، لاقى صدى في البلاد العربية، وخصوصا في مصر.(١١٧)

قرأ شباب المنتدى الصحف المختلفة، وخصوصا تلك المعارضة لـ «الاتحاديين» وأهمها «المؤيد» و«المقتبس» لمحمد كرد علي (وقد كانت وقتئذ قومية، ثم اصبحت في أثناء الحرب الكبرى عثمانية)، وجريدة «العرب» لأحمد عزت الأعظمي، وهي التي تحولت الى مجلة «المنتدى الأدبي».(١١٨)

ومن المنتدى انطلقت الأناشيد القومية؛ منها ما كان تعريبا لأناشيد تركية، ومنها ما كان من تأليف شباب المنتدى.

---

(١١٦) عجاج نويهض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث»، مصدر سبق ذكره، «شهادة فاير الشهابي»، عمان، ٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٣، ك ١١، ص ٣ ـ ٥.

يذكر الشهابي ان هناك مجموعة من الأسماء كانت في بداية تأسيس المنتدى. وبالاضافة الى الأربعة الذين أُقرت أسماؤهم أعلاه وفقا للنظام، يذكر فهمي العقاد، وعبد الستار السندروسي، من المؤسسين الأوائل.

(١١٧) ركّز البرنامج على النهوض بالتعليم في المرحلة الابتدائية، وعلى إنشاء دُور للمعلمين. وكان الأساس في دعوة النواب ان يقوم كل نائب عربي بتطبيق برنامج التعليم في منطقته (احمد عزت الأعظمي، مصدر سبق ذكره، الجزء الثالث، ص١٣ ـ ٢٨). وفي مقرّ المنتدى كانت تعطى الدروس في اللغات العربية والفرنسية والانكليزية والتركية (عجاج نويهض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث»، مصدر سبق ذكره، «شهادة عبد الستار السندروسي»، ك ١، ص ١٧).

(١١٨) عجاج نويهض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث»، مصدر سبق ذكره، «شهادة عبد الستار السندروسي»، ك ١، ص ١٧ ـ ٢٢.

وكان النشيد العربي الأول بلحن مستقل لـ «الشهيد» رفيق رزق سلّوم.[119] وعلى الصعيد الأدبي والمسرحي، قام شباب المنتدى بتمثيل الروايات العربية، لاستعادة الماضي في الأذهان والنفوس،[120] فنجحوا في استقطاب العرب ومشاعرهم، والأتراك ومخاوفهم؛ ذلك بأن «الاتحاديين» لمّا تأكدت لهم اهمية المنتدى كمركز سياسي، اتبعوا سياسة المجاملة والتودد، وأكثروا من زياراتهم للمنتدى. ولمّا تأكدت لهم صلابة المنتدى إزاء مجاملاتهم، وبالتالي فشلهم في ترويض الشباب العربي، أسفروا عن حقيقتهم وكشّروا عن أنيابهم.

جرى التصادم الأول بين شباب المنتدى والأتراك بسبب الطعن في العرب الذي نشرته جريدة «إقدام» المناوئة للعرب. وكان مقر هذه الجريدة في شارع الباب العالي، اهم شوارع الآستانة، فقام نحو خمسين شابا من المنتدى بالهجوم على المقر والاعتداء على مدير الجريدة بالضرب، ونزلوا الى

---

(١١٩) من ابرز القصائد والأناشيد التي رددها شباب المنتدى، قصيدة معروف الرصافي في حفل افتتاح «المنتدى»:

دَعِ المجالسَ في لهوٍ وفي طربٍ　　واجعل مقرَّك هذا المنتدى الأدبي
وإنْ تكنْ عربيَّ الأصلِ لا كذِباً　　فَمُتْ لإحياءِ مجدٍ كان للعربِ

ومن الأناشيد المعرّبة مع الألحان التركية، لسليم الجزائري

إيه مجدَ العربِ　　ايه مجدَ العربِ
لكَ اسمى موقعٍ　　فوق هام الشُهُبِ
فليحيَ العربُ　　دائما　　أبداً
وليحيَ الوطنُ

ولعارف الشهابي:

يا بني الأوطانِ هُبّوا　　من رقادٍ مستديم
واطلبوا المجدَ ولبّوا　　دَعْوَةَ العظمِ الرميم

وغنّى شباب المنتدى اللحن الشهير لوديع صبرا في «ميدان التقسيم» اوسع ميادين استانبول وكلمات الرصافي «نحن حواضر غمار الموت»، وقد قام وديع صبرا بتدريبهم على الغناء. ومع بداية الحرب انتشرت أناشيد فخري البارودي على كل لسان، وكان منها:

نحن جندُ الله شبانُ البلاد　　نكرهُ الذلّ ونأبى الاضطهاد

وكان أكثر الأناشيد شهرة.

سيروا للمجدِ طراً　　سيروا للحربِ
واستعيدوا بالمواضي　　دولةَ　　العربِ
إيه دولةَ العربِ

(١٢٠) أكثر المسرحيات شهرة كانت مسرحية «صلاح الدين»، ومسرحية «السموأل» للشيخ احمد عباس الأزهري مدير الكلية العثمانية في بيروت. وعندما قُدِّمت هذه المسرحية في بيروت أول مرة كانت حدثا لا يُنسى في ذاكرة المدينة.

المطبعة فاستولوا على الأحرف وعبأوها في جيوبهم. ثم قاموا، حال خروجهم، برميها في شوارع المدينة، ولم يتمكن البوليس من اعتقال احد بسبب السرعة التي تمت بها العملية.(١٢١) وهي ابرز الحوادث أثرا في حياة المنتدى؛ إذ قدمت الدليل على انتمائه القومي، كما ادت الى إعلاء شأنه وشأن شبابه في اعين العرب انفسهم. وكانت نتيجة العملية ان اعتذرت جريدة «إقدام»، حين عودتها الى الصدور بعد أيام، الى الأمة العربية. لكن المناسبة استدعت الصحافة التركية الى الهجوم على العرب، باستثناء جريدة «يكي غازيته» او «الجريدة الجديدة»، فدافع صاحبها نجم الدين صادق ــ وهو اديب تركي ــ عن العرب قائلا ان الانسان عندما يطعن في شرفه يهجم للدفاع عنه.(١٢٢)

لمّا اقدم جمال باشا السفاح على شنق الأحرار متماديا في سياسة الارهاب، كان لرجال المنتدى المكان الأول؛ فأعدم اربعة من مؤسسيه: عبد الكريم الخليل، وسيف الدين الخطيب، ورفيق رزق سلوم، وعزة الجندي. واعتقل الكثيرون وحوكموا، ومنهم: جميل الحسيني، وعاصم بسيسو، والدكتور حسام الدين ابو السعود. وهؤلاء الثلاثة من أبناء القدس وغزة.(١٢٣)

لم يكن لـ «المنتدى الأدبي» فروع خارج الآستانة، وقد حمل شبابه الأفكار العربية الى بلادهم. وكانت نهايته الاغلاق سنة ١٩١٥ بسبب الحرب. ومجمل الأفكار التي حمل شباب المنتدى لواءها ونجحوا في نشرها:

الأمة العربية امة واحدة عظيمة فقدت مجدها واستقلالها لتسلط الأجانب عليها
البلاد العربية بلاد غنية يطمع بها الأقوياء ويعملون على استعمارها
الحكومة العثمانية التي ظهر ضعفها وعجزها في حربي طرابلس والبلقان لا تستطيع في حال ما ان تدافع عن البلاد العربية إذا هاجمها عدو قوي.
لا سبيل لتعديل هذه الحالة إلا بتقوية العنصر العربي في الدولة العثمانية وجعله قادرا على الدفاع عن كيانه.(١٢٤)

---

(١٢١) كاتب المقال إحسان خالد، وهو من الضباط الأتراك في اليمن سابقا. ومما قاله ان العرب يبيعون ناموسهم وشرفهم وحتى عرضهم بالدراهم. وأمّا مدير الجريدة احمد جودت فقد صاح، حين ضُرب، بأنه لم يكن على علم بالمقال.

(١٢٢) عجاج نويهض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث»، مصدر سبق ذكره، «شهادة فايز الشهابي»، عمان، ٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٣، ك ١١، ص ٩.

(١٢٣) عُرف بين الفلسطينيين من شباب المنتدى الأدبي: د. حسام الدين ابو السعود، درويش ابو العافية، عاصم بسيسو؛ جميل الحسيني؛ د. فارس فتح الله السخن؛ محمد صالح الصمادي؛ موسى الكيالي؛ علي رضا النحوي.

(١٢٤) اسعد داغر، «مذكراتي على هامش القضية العربية» (القاهرة: دار القاهرة للطباعة، ١٩٥٩)، ص ٧٠.

رابعا: جمعية العهد

نشأت «العهد» في الآستانة قبيل الحرب الكبرى في ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٣، وكانت اقوى جمعية عربية عسكرية سرية. وقد انتقل اليها معظم أعضاء الجمعية التي أُنشئت سنة ١٩٠٩ باسم «القحطانية»، وكانت نهايتها على يد مؤسسيها الدين خافوا شيوع أمرها حال اكتشافهم خائنا بين الأعضاء.(١٢٥) وكان هدفها الرئيسي تحويل الدولة العثمانية الى أمبراطورية تركية ــ عربية على غرار الأمبراطورية النمساوية ــ المجرية.(١٢٦) وقد ورثت «العهد» عن «القحطانية» أهدافها في الاستقلال الداخلي لبلاد العرب في إطار الاتحاد مع حكومة الآستانة وبقاء الخلافة في يد العثمانيين.(١٢٧)

قاد جمعية «العهد» البكباشي عزيز علي، وقد اشتهر بموطنه، فورد اسمه في مراجع الثورة العربية عزيز علي المصري، وأشاد بفضله رجال القومية العربية منذ ثورة تموز/يوليو في مصر، فأطلقوا عليه «ابو الفكرة العربية». وقد كان بين مؤسسي «العهد»: ياسين الهاشمي، وطه الهاشمي، ونوري السعيد، والشهيدان سليم الجزائري والدكتور علي النشاشيبي المقدسي.

استقطبت «العهد» الآلاف من الضباط العرب، وكانت اهم فروعها في كل من الموصل وبغداد. لكن «الاتحاديين» تمكنوا من اكتشاف امر «العهد» في إثر انتهائهم من الحرب البلقانية في آب/أغسطس ١٩١٣، وعلموا بوجود ٣١٥ ضابطا عربيا من مجموع ٤٩٠ في الآستانة وحدها ينتمون الى «العهد»، اي ما يفوق نسبة الثلثين من الضباط العرب،(١٢٨) فبادروا الى عقد اجتماع سري في دار الحكومة قرّروا خلاله البدء بسياسة البطش والارهاب؛ فكانت اهم قراراتهم: إبعاد الضباط العرب وجميع العرب العاملين ضد الحكومة الى خارج الآستانة، والاستغناء ما أمكن عن الضباط العرب في المناطق العربية بتولية الضباط الأتراك مكانهم، ومقاومة الحركة الاصلاحية التي انطلقت من مؤتمر باريس، وإلغاء الأحزاب العربية، ومقاومة دعاة الانفصال من العرب، وتقوية نفوذ «الاتحاديين» في البلاد العربية، والشروع في تطبيق سياسة التتريك؛(١٢٩) وهذا البند الأخير

---

(١٢٥) من قبل القائد العام للجيش الرابع، «إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرت تدقيقها بديوان الحرب العرفي المشكّل بعاليه» (لامكان: مطبعة الطنّين، ١٩١٥)، ص ١٦.

(١٢٦) Antonius, *op.cit.*, p. 110.

(١٢٧) امين سعيد، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ٤٦ ــ ٤٧.

(١٢٨) المصدر نفسه.

(١٢٩) تحسين العسكري، «مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى» (بغداد: مطبعة العهد، ١٩٣٦)، الجزء الأول، ص ٣٧ ــ ٣٨.

كان الأهم، وكان المنعطف في العلاقات التركية ــ العربية نحو المزيد من التدهور.

بادر «الاتحاديون» الى اعتقال عزيز علي، ثم أفرجوا عنه بشرط مغادرة البلاد فورا. وقد اضطروا الى الافراج عنه بسبب الضجة الكبرى التي أثارها اعتقاله في صفوف العرب؛ وبعد أعوام، عندما اشتعلت الثورة العربية، كان رجال «العهد» في الطليعة، وخصوصا ان معظمهم من العسكريين.

خامسا: جمعية العربية الفتاة

تحتل جمعية «العربية الفتاة» المكانة الأولى بين الجمعيات العربية في أواخر العهد العثماني، وذلك لسريتها المطلقة التي انقذت برامجها من عبث جمال باشا وبطشه، ولنجاحها في عقد مؤتمر باريس من دون ان تلفت الأنظار اليها، وأيضا لاقدامها على تحمل المسؤولية كاملة في إعلان الثورة؛ ولا يعني ذلك ان رجال «الفتاة» كانوا وحدهم على طريق الثورة او في أتونها، وإنما كان لهم فضل المحور الرئيسي في العمل وفي اتخاذ القرار.

روى الدكتور احمد قدري بداية «الفتاة» فكرة وعهدا كما يلي.

شرع الاتحاديون يناهضون العرب مستغلّين حفاوة الشعب بإعلان الدستور، وان أنْسَ لا أنْسَ حادثا مرّ بـي في الآستانة، وهو من اوثق الأدلة على الشعور العدائي الموجه ضد العرب فبينما كنت اسير مع زميل الدراسة عوني عبد الهادي عقب إعلان الدستور، شاهدت جمهورا غفيرا من الأهلين أمام ضابط يدعى سري بك وقد قام يخطب فوق عجلة متغنيا بحسنات الدستور وأمجاده، ثم ما لبث ان انتقل الى التحامل على كبار الموظفين العرب السابقين، كأن يقول «الخائن عرب عزة والخائن عرب ابو الهدى»[130] إلـخ... وقد عجبت أيما عجب لهذا التحامل المعرض؛ أفلم يكن بين رجال الحكم البائد طائفة كبيرة من الأتراك فَلِمَ لا يندّد الخطيب بواحد منهم بمثل ما ندّد بالشخصيتين العربيتين؟ وإذا كان يندد بهما لشخصيهما فَلِمَ يعمد الى ذكر قوميتهما؟

حقا لقد هزني شعوري القومي وتعاظمتني العزة العربية، فانطلقت اليه وصديقي عوني عبد الهادي، ندفع صفوف الجماهير المزدحمة حتى إذا ما وصلنا اليه، جابهناه باستنكار مزاعمه، وفي ملامحنا الغضب الشديد، وفي صوتنا نبرات في مثل النار.

ولدى معادي ورميلي الى مسكننا أخذنا نقلّب الرأي فيما ستتمخض عنه الأحداث بعد إذ على لنا بوضوح ان رجال «جمعية تركيا الفتاة» الذين تسلموا مقاليد الحكم في العهد الجديد متعصبون أيما تعصب لقوميتهم التركية، حاصرون سياستهم في تقوية هذه القومية والنهوض بها على حساب القوميات الأخرى

(١٣٠) الأول عزة باشا العابد، سكرتير السلطان عبد الحميد؛ والثاني ابو الهدى الصيادي، وكان شيخ السلطان المقرّب اليه.

التي كانت تنتظمها الدولة العثمانية. وقد حرجنا من هذه الحقيقة على ان نشكل جمعية عربية سرية على نحو جمعية تركيا الفتاة تنهض بواجب الدفاع عن حقوق العرب ورفع مستواهم، ولم أكد أفاتح الزميل محمد رستم حيدر الذي أعتمد عليه حتى حبّذ الرأي وكان هذا مبدأ تشكيل الجمعية العربية الفتاة، اي على أثر إعلان الدستور العثماني بأربعة أيام لا أكثر (١٣١)

وبانتقال طلاب الآستانة الثلاثة هؤلاء الى باريس واجتماعهم الى الطلاب العرب، تمكنوا من تأسيس الهيئة الادارية الرسمية الأولى من ثمانية أعضاء في سنة ١٩١١، إذ انضم اليهم رفيق التميمي، ومحمد محمصاني، وعبد الغني العريسي، وصبري الخوجة، وتوفيق الناطور. وكانت غاية الجمعية وهدفها الرئيسي «النهضة بالعرب وإيصالهم الى مصاف الأمم الحية.» أما الاستقلال فلم يذكر خوفا من انكشاف الأوراق ذات يوم. ويقول احمد قدري: «وقد تحاشينا ذكر اسم الاستقلال في مضامين برنامج جمعيتنا، وإنْ كنا في السر نعمل ونسعى وراءه.»(١٣٢)

بقي المركز الرئيسي للجمعية في باريس عامين، ثم انتقل الى بيروت سنة ١٩١٣، والى دمشق سنة ١٩١٤. وقد ساهم هذان الانتقالان في استقطاب الأعضاء الجدد. غير ان عملية انتقاء العضو الواحد استمرت تخضع للمراقبة الصارمة، وتتم في منتهى الحيطة والسرية. ويروي سليم عبد الرحمن كيفية انتسابه الى الجمعية، وكان قد جاء من طولكرم الى بيروت تلميذا في «الملكية الاعدادية»، وكان مدير الاعدادية التركي شكري بك يحرّم على طلابه الاختلاط بطلاب «الملكية العثمانية» او بطلاب الجامعة الأميركية كي لا تتسرب الأفكار العربية الى عقولهم. وقد اجتمع في «الاعدادية»، قبيل الحرب، نحو ٢٥٠ طالبا عربيا، منهم: ٣٥ من لواء نابلس، و ٢٦ من متصرفية القدس، وأكثر من ٢٥ من لواء عكا.(١٣٣) وعلى الرغم من أوامر الادارة بعدم اختلاط طلابها بالطلاب الآخرين، فقد كانوا يلتقون سرا، ويتبادلون المقالات الداعية الى العروبة والقومية بين صفحات الكتب؛ وعن هذا الطريق عرف سليم عبد الرحمن العديد من دعاة الاستقلال سرا والاصلاح علنا. يقول:

أول من فاتحني عمر حمد، وذلك بعد المظاهرات وفي احد أيام الجمعة، وكان صديقي الحميم،

---

(١٣١) احمد قدري، «مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى» (دمشق ابن زيدون، ١٩٥٦)، ص ٦ ــ ٧.

(١٣٢) المصدر نفسه، ص ١٢

(١٣٣) حتى الانقلاب العثماني، كان جميع الأساتذة في «الملكية الاعدادية» من الأتراك، بمن فيهم معلّم اللغة العربية. وقد احتاج الطلاب الى ثورة حتى جيء لهم بعددٍ من المعلمين العرب. أمّا المدرسة المعروفة الثانية وهي «الملكية العثمانية» للشيخ احمد عباس، فكانت أوضاعها الادارية والتعليمية احسن حالا و «عروبة»، مما دعا مدير «الاعدادية» التركي الى تحريم الاختلاط بين طلابه والطلاب الآخرين.

فدعاني ان اذهب معه الى رأس بيروت، وهناك بدأ يتحدث عن الحركة ويجسّ نبضي من حيث لا اشعر، فأجبته ما أبكاه ولما رأى اندفاعي وعقيدتي سألني هل انت على استعداد لتنضم الى احدى الهيئات التي تعمل للعروبة؟ اجبت بكل تأكيد وسرور حتّى لو كان في ذلك هدر دمي وكان ظني بأنه يريد ان يضمني الى احدى الجمعيات الظاهرة المعروفة

بعد يومين، أتاني موفد من المدير وقال ان ابن عمك وصل اليوم من فلسطين وهو يريد ان يراك، وقد سمحنا لك بإجازة يوم لتذهب وتراه. وصدقت وخرجت، وإذا بعمر حمد على الباب، فقبّلني وسرت معه، وقلت الى اين؟ فقال الى مكان ما وإذا بالعربة وصلت الى «الروشة»، فجلسنا قليلاً، وإذا بعربة اخرى تأتي وفيها عبد الغني العريسي وتوفيق الناطور، وكلاهما يعرفاني قبلاً. وبعد السلام قال لهما عمر. هذا هو سليم عبد الرحمن اقدمه لينضم الى الإخوان

تحدث عبد الغني بحماسة قائلاً: كلنا يعلم ما تقاسيه الأمة العربية من الاستعباد والذل، الأمر الذي حدا بفريق من الإخوان لتشكيل جمعية تعمل على رفع مستوى الأمة العربية الى مصاف الأمم الحية. والجمعية سرية. وبعد ترشيح عمر لك قررنا قبولك عضوا متمما تحت التجربة.

وبادرني الناطور بلهجة بيروتية.

١ ــ شوف يا اخ أولا جمعيتنا سرية بدك تكتم سرها.

٢ ــ تطيع أوامرها ولا تعرف مقرها ولا تتردد في تنفيذ رغباتها. وعمر حمد يبلغك قراراتها

٣ ــ غايتها رفع مستوى الأمة العربية الى مصاف الأمم المستقلة ذات السيادة وإذا خالفت تُقتل، وإذا احسنت وخدمت بلادك ترفّع وتكرّم

٤ ــ والآن تحلف اليمين على القرآن وبشرفك وبمعتقدك «مدّ إيدك هان». فوجمت قليلاً، ثم مددتُ يدي، فقال ردّد معي:

اقسم بالله العظيم، والقرآن الكريم، وشرفي ومعتقدي ان أطيع أوامر جمعية العربية الفتاة وأنفذ قراراتها والعمل بجعل الأمة العربية في جميع أقطارها في مصاف الأمم الحية الراقية الحرة المستقلة، وإذا حنثت بيميني فدمي هدر، والله على ما أقول شهيد.

ثم قبّلني الثلاثة، وبقينا مدة نتحدث في مختلف الأبحاث، ثم قالوا ان اعمم فكرة العروبة في نابلس وغيرها بالوسائل الخفية.[١٣٤]

ويروي سليم عبد الرحمن عن الرحلة التي قام بها وفد من الطلاب المنتمين الى «الفتاة» عبر فلسطين، مدنها وقراها، في صيف سنة ١٩١٣، وفي مقدمة الوفد عمر حمد:

... اجتمعنا بيافا بعدد كبير من الأهلين وقمنا بالواجب عن طريق الاتصال الشخصي لم ندخل أحدا في الجمعية وإنما كان القصد الدعاية. وكانت «الكرمل» في حيفا قد نشرت عن وصول بعثة الطلاب، وكذلك نشرت «فلسطين» في يافا، وكانت الجريدتان تنشران ما فيه الكفاية عن أخطار الصهيونية.

ثم الى طولكرم. وكانت نشرات «اللامركزية» تأتي من مصر (ومنهم الشيخ سعيد الكرمي

---

(١٣٤) عجاج نويهض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث»، مصدر سبق ذكره، «شهادة سليم عبد الرحمن»، عمان، ٢٧ آدار/مارس ١٩٥٥، ك ٢١، ص ٢١ ــ ٢٣

وعبد الرحيم حنّون) وكانت تنتقل هذه النشرات على العالب بواسطة تجار الطيخ الدين يروحون ويتنقلون من سواحل بي صعب الى مصر بالمراكب الشراعية

ومن طولكرم الى نابلس، وبقينا عدة أيام، وكانت اجتماعاتنا تضم جمهرة شباب نابلس والطلاب، وكانت جميع الأحاديث وطنية إيقاظية وكان الدكتور حافظ كنعان وعزة دروزة يشتركان في هذا (وقد علمت فيما بعد أنهما من «الفتاة»)، وكذلك داود طوقان (وهو الذي دعا ـ رحمه الله ـ عشرات الشباب للاستماع الينا)

عدنا الى طولكرم، وتجولنا في القرى، ثم عاد عمر حمد الى بيروت بحرا، فودعناه في يافا (١٣٥)

لما انتقل مركز «الفتاة» الى دمشق سنة ١٩١٤، ازداد عدد الأعضاء حتى بلغ نحو المائتي عضو، استنادا الى السجل المحفوظ لدى محب الدين الخطيب. والعدد الحقيقي يفوق ذلك، بدليل وجود أسماء في مذكرات رجال «الفتاة» والحركة العربية مما لم يرد في سجل الخطيب، وقد عرف من هؤلاء اربعة وعشرون فلسطينيا. (١٣٦)

يعتز رجال «الفتاة» بنجاحهم في ثلاثة امور: في «مؤتمر باريس»، وفي «الثورة العربية» بصرف النظر عن مخاطرها ونتائجها، وفي «التنظيم السري» الذي قادوه حتى استحال على السلطات العثمانية التوصل الى أوراق «الفتاة» وسجلاتها؛ وقد اتضح فيما بعد انه لم تكن هناك أوراقٌ أصلا:

كانت تتخذ القرارات شفويا، فبعد ان ينتهي التداول في المسألة ويتخذ القرار يكرر قوله وعبارته حتى يرسخ في الذهن. وكان هذا من قبيل الاحتياط الرائد وقد وُجدَ هذا في محله، لأن الجمعيات الأخرى قد عُثِر على أوراقها فيما بعد، أما «الفتاة» فلا. (١٣٧)

وكانت جميع القرارات المتعلقة بالمبادىء العربية والثورة العربية سرية. أما القرارات السياسية المعلنة للملأ، كقرارات مؤتمر باريس، فجمعية «الفتاة» لم تخرج فيها عن إطار التيار العربي المطالب باللامركزية أساسا للحكم.

---

(١٣٥) المصدر نفسه، الشهادة نفسها، ك ٢١، ص ٢٣ ــ ٢٥.

(١٣٦) الأعضاء الفلسطينيون في جمعية «العربية الفتاة»: احمد الإمام، صالح سيسو؛ امين التميمي؛ رفيق التميمي، زكي التميمي؛ محمد علي التميمي؛ محيي الدين الحاج عيسى؛ رشدي الإمام الحسيني؛ سعيد الحسيني؛ نجيب الحكيم؛ محمد عزة دروزة؛ محمد علي دروزة؛ رشدي الشوا؛ عبد اللطيف صلاح، احمد حلمي عبد الباقي؛ سليم عبد الرحمن؛ نسيب طوقان؛ روحي عبد الهادي؛ عوني عبد الهادي، محمد العفيفي؛ حافظ كنعان، معين الماضي؛ د. صدقي ملحس، ابراهيم هاشم.

(١٣٧) عجاج نويهض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث»، مصدر سبق ذكره، «شهادة سليم عبد الرحمن»، عمان، ٣١ آدار/مارس ١٩٥٥، ك ٢٢، ص ١٢

سادسا: التيارات السياسية

يصعب الحديث عن التيارات السياسية قبيل الحرب الكبرى، من دون سبر حقيقة الأوضاع العامة السائدة، وأبعاد الهواجس اليومية لدى عقلاء العرب من خطر الاحتلال الأجنبي. ان ما ندعوه اليوم التيارات الاسلامية والعثمانية والاتحادية واللامركزية والانفصالية، وما يمكن إيجازه في تيارين رئيسيين ــ تيار الجامعة الاسلامية، وتيار القومية العربية ــ لا يصح البحث في الاختلافات بينها قبل البحث في الضغوط السياسية الواحدة التي خضعت لها التيارات جميعا، وسواء أكان ذلك على الصعيد الدولي العام ام على الصعيد الاقليمي العثماني؛ وبالتالي، خضعت للسؤال المصيري الواحد: كيف يكون البقاء؟

برهن رجال المرحلة، على اختلاف مشاربهم وتياراتهم، انهم كانوا يدركون خطورة السؤال، ومن إدراكهم للخطر وكيفية درئه تكونت انتماءاتهم؛ وهذه الانتماءات، بصورة اخرى، لم تنبع من ترف فكري، كما ان خَيار الواحد منهم لم يكن بالضرورة الخيار العقلاني الذاتي، او الوجداني المحض، او العقائدي الصلب؛ فكتاباتهم ــ على قلتها ــ تنضح بالوعي على الأخطار المحدقة. وما «التيارات» التي نتحدث عنها اليوم ــ في حقيقتها ــ سوى اجتهادات لدرء الأخطار التي تشارك الجميع في الخوف منها. فالحقيقة، إذاً، هي ان الاختلاف بين الاتجاهين الاسلامي والقومي، لم يكن قط اختلافا جذريا، وبالتالي لم يكن اختلافا ايديولوجيا قائما ــ في أساسه ــ على التشبث بالجامعة الاسلامية وحدها لدى فريق ما، او على القومية العربية وحدها لدى فريق آخر. والدليل على ذلك ان كثيرين من رجال المرحلة انتقلوا من اتجاه الى اتجاه، بعفوية وبساطة؛ فالهمّ الأكبر كان البحث عن درب للخلاص. ونستشهد بأقوال ثلاثة من رجال المرحلة، للدلالة على حقيقة الصراع الفكري والسياسي.

كتب محمد رشيد رضا في نيسان/إبريل ١٩١٤ يشرح أسباب تشبث حزب اللامركزية والأحزاب الاصلاحية ومؤتمر باريس بالدولة العثمانية، انطلاقا من الأخطار السياسية المحدقة بالوطن:

> .. وكنا ولا نزال نسمع ونقرأ ان فرنسة ترى ان سورية لها، وأن إنكلترة ترى ان البصرة وبغداد وجميع سواحل جزيرة العرب لها ــ والداخلية تتبع السواحل بالطبع ــ كما صرنا نسمع ان لألمانية قلب الأناطول الى العراق ولروسية شمال الاناطول الى الآستانة... فما يؤمننا ان يحل بهذه البلاد ما حل بما قبلها؟ ولا سيما بعد ان رأينا ما حل بولايات مكدونية..
>
> ان جميع من نعرف من عقلائنا في خوف ووجل من قرب تلك الساعة، والعرب منهم موقنون بأن

الدولة ان قدرت على إيجاد أسطول يحمي البلاد التركية القريبة من الآستانة وجزائرها من اليونان او البلقان، فلن تقدر به عن حماية سواحل سورية من فرنسة ولا سواحل العراق او اليمن والحجاز من إنكلترة، فما حظ بلادهم من الأسطول الذي يبذلون لتأسيسه الاعانات الاختيارية وغير الاختيارية؟
هذا الخوف على البلاد هو الذي حمل بعض أهل الغيرة على تأسيس حزب اللامركزية .(١٣٨)

وعرّج رشيد رضا على محاولة رجال العرب تأليف لجنة للدفاع عن سوريا، وطلبهم من الباب العالي المساعدة. فلمّا فشلوا في العثور على استجابة من الحكام اتجهوا الى «الحزم بوجوب ترقية كل قطر بأهله، وتوقف ذلك على الادارة اللامركزية، فوضعوا برنامج حزب اللامركزية، رجاء ان يقنعوا به جميع الأمة العثمانية، لا العرب خاصة » وللأسباب نفسها، قامت الجمعية الاصلاحية في بيروت بإذن من الوالي نفسه: «وكان من غرضها ان اتفاق المسلمين والنصارى على الاصلاح هو الذي يسد ذريعة الاعتداء الأجنبي على البلاد.» وكذلك تألفت جمعية إصلاحية في مدينة البصرة. أما المؤتمر السوري العربي في باريس، فأهم مقاصده مقاومة الاحتلال الأجنبي للبلاد. «ولم يكن المؤتمر ولا الجمعية الاصلاحية البيروتية ولا العراقية ولا حزب اللامركزية سببا لمداخلة اجنبية قولية ولا فعلية، لأن غرض أربابها دفع التدخل الأجنبي، والمقدمات السلبية لا تنتج نتيجة موجبة.»(١٣٩)

وقال اسعد داغر عن المرحلة نفسها في مذكراته عن الأوضاع والاتجاهات في الآستانة:

... ظهر بين المشتغلين في السياسة باسطنبول رأيان متناقضان أحدهما يقول بوجوب السعي الى إنقاذ العرب بالاستناد الى فكرة الجامعة الاسلامية. والثاني يرى ان القومية هي الأساس الذي يجب ان تقوم عليه الدول منذ الآن، وأن الجهود كلها يجب ان تُوجَّه الى خدمة الفكرة العربية مجردة عن كل شيء.(١٤٠)

كانت الأغلبية العظمى ترى في العمل القومي دربا للخلاص. أما اسعد داغر ــ وهو الماروني في عقيدته الدينية ــ فقال عن المرحلة الأولى من عمله السياسي: «وقد كنت أنا من جملة المؤيدين للرأي الأول، القائل بالفكرة الاسلامية، لاعتقادي بأن هذه الفكرة قوة عظيمة للعرب إذا أحسنوا استخدامها.» لكنه تحول الى الاتجاه القومي مقتنعا بآراء أصدقائه في «المنتدى الأدبي». ومن حديث توفيق البساط معه: «إذا كنا نريد الجامعة الاسلامية فلماذا نحاول بث الفكرة العربية؟» ومن حديث

---

(١٣٨) محمد رشيد رضا، «مستقبل الدولة العثمانية وطلاب الاصلاح من العرب»، مجلة «المنار»، الجزء الخامس، المجلد السابع عشر، ٢٥ نيسان/إبريل ١٩١٤، ص ٣٩٥ ــ ٣٩٦.

(١٣٩) راجع: المصدر نفسه، ص ٣٩٥ ــ ٤٠٠.

(١٤٠) اسعد داغر، «مذكراتي على هامش الثورة العربية»، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦.

عبد الكريم الخليل: «ان فكرة الجامعة الاسلامية تؤدي الى الوهن أكثر منها الى القوة؛ لأنها تنفّر الغرب، بينما لا تستطيع ان تمد الشرق بقوة.» ومن حديث جلال البخاري: «كيف يمكننا ان نوفّق بين اعتناقنا للفكرة الاسلامية وقيامنا ضد دولة الخلافة؟»(١٤١) (هؤلاء المتحدثون الثلاثة كانوا في عداد الشهداء على أعواد المشانق؛ فأعدم عبد الكريم الخليل مع الفوج الأول، وأعدم توفيق البساط وجلال البخاري مع الفوج الثاني).

وانتشرت الفكرة العربية خلال الثورة، فقال اسعد داغر:

> والذي اعرفه عن ثقة ويمكنني إعلانه الآن على رؤوس الأشهاد انه لم يكن بين أصدقائي الذين قامت النهضة العربية على أكتافهم او على جماجمهم، سواء في سورية او العراق او فلسطين او لبنان او غيرها، من يفكر في اتحاد الفكرة الاسلامية أساسا للوحدة والاستقلال. بل انهم جميعا كانوا يعملون على تعزيز الروح القومية البحتة وإحياء مجد العرب على أساس هذه الروح.(١٤٢)

لم ينكر الفريق المتشبث بالدولة العثمانية والرابطة الاسلامية العروبة أصلا؛ فالأمير شكيب أرسلان ــ وهو من كبار الداعين الى الدفاع عن الدولة العثمانية ــ لم ينكر يوما المبادىء الاصلاحية للعرب، بل كان يرى في إصرار العرب على المطالبة بها من جهة، وتعنّت الأتراك وترددهم في إقرارها من جهة اخرى، سببا لانقسام قد يؤدي الى تمزيق الدولة، وإمكان استيلاء الأجانب على سوريا وفلسطين والعراق وقسم من الجزيرة العربية. وفي اجتماع مع معارضيه، قال:

> لا اعتقد ان بينكم من هو عربي أكثر مني. افتحوا عيونكم الى ما يهدد البلاد العربية من خطر. اقرأوا الجرائد الأجنبية. انظروا الى المعاهدات التي أُعلنت والى الاتفاقات التي أُذيع حبر عقدها ولم تنشر ترون أنها كلها ترمي الى تقسيم الدولة وذهاب الأقطار العربية للانكليز والفرنسيين.(١٤٣)

سابعا: حزب اللامركزية

انشىء حزب «اللامركزية» سنة ١٩١٢ من مجموعة من السوريين المقيمين في القاهرة ولمّا كان الحزب علنيا فقد عُرِف من المؤسسين: رفيق العظم، ومحمد رشيد رضا، واسكندر عمون، ومحب الدين الخطيب، وحقي العظم، وشبلي شميّل، وسامي الجريديني، ونايف تللو، وسليم عبد الهادي، وحافظ السعيد، ود. علي النشاشيبي. وأعلن برنامج الحزب كذلك عبر الصحف.

---

(١٤١) المصدر نفسه

(١٤٢) المصدر نفسه

(١٤٣) حضر اسعد داغر الاجتماع المذكور، وسجل حديث شكيب أرسلان في مذكراته (المصدر نفسه، ص ٦٩)

لكن المؤسسين اعتمدوا السرية فيما بعد بشأن المراسلات وإنشاء الفروع، خوفا من سياسة البطش؛ وقد طالت تلك السياسة اربعة من المؤسسين الكبار وسواهم من «اللامركزية» بأحكام الاعدام، على الرغم من وضوح أهداف الحزب العامة باللامركزية لا بالانفصال او الاستقلال التام.

جاء في المادة الثالثة من برنامج الحزب:

ليس هذا الحزب حميا وليس فيه ما يُعَدّ من الأسرار فهو ينشر مقصده المبني على المطالبة باللامركزية الواسعة جهرا وعلانية دون الخشية من احد لاعتقاده يقينا ان الدولة لا تبقى في العالم السياسي إلا إذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الادارية.(١٤٤)

في ٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٣، ابرق رفيق العظم، رئيس الحزب، من القاهرة الى الصدر الأعظم في الآستانة يشرح «ان الأمة العربية متفقة في جميع الولايات العثمانية على طلب الادارة اللامركزية الواسعة المبينة قواعدها الكلية في برنامج الحزب، ويؤيد أهلَ الولايات في ذلك المهاجرون من إخوانهم العرب في مصر وأوروبا وأميركا. ولا ينافي اتفاقهم على القواعد العامة وتضامنهم وتكافلهم فيها بعضُ المطالب الخاصة ببعض الولايات، كطلب جمعية بيروت الاصلاحية أمورا مخالفة لبعض مطالب جمعية البصرة مثلا. فطلاب الاصلاح كلهم إلب واحد وكلمتهم واحدة، والأمة كلها معهم تشد ازرهم وتنبذ من يخالفهم نبذ النوى. . .». والأصول الأساسية التي أشار رئيس الحزب اليها بايجاز هي: حرية الشعب في هيئاته النيابية، وحريته في امور المعارف وتعريب التعليم، وحريته في امور النافعة والشؤون الاقتصادية؛ فكلها تتبع المجالس العمومية في الولايات. أما ما يتعلق بالسياسة الخارجية او الحربية، فيبقى وحده من اختصاص الحكومة العليا في العاصمة، وللمجالس العمومية في هذين الشأنين حق إبداء الرأي.(١٤٥)

في هذه المرحلة، كانت فروع اللامركزية تنتشر سرا في فلسطين، ومناشير الحزب توزع سرا كذلك. وفي رسالة خاصة من عوني عبد الهادي في نابلس الى حقي العظم، سكرتير الحزب في القاهرة، ورد في شأن تأسيس الفروع:

ان فكرة تشكيل أحزاب للحزب اللامركزي في مصر، انتشرت في فلسطين ولم يبق لتحقيقها سوى الابتداء بالفعل. حافظ السعيد (يافا) كان وعد في هذا الأمر بعد انصرام رمضان. ومن مدة احدث كتابا من سليم الأحمد عبد الهادي من جنين يعدني فيه بتشكيل حزبين قويين لجنين وحيفا، والمذكور من

(١٤٤) امين سعيد، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ١٥

(١٤٥) راجع: «بيان للأمة العربية من حزب اللامركزية»، مجلة «المنار»، الجزء الحادي عشر، المجلد السادس عشر، ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٣، ص ٨٤٩ ـــ ٨٥٩.
صدر البيان في مصر القاهرة في ٩ ذي القعدة ١٣٣١هـ/٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٣.

الدين يعتمد على أقوالهم، حيث ان له الكلمة العليا في البلدين وهو الوحيد الذي يقدر على خدمتنا خدمة حقيقية بمعنى انه من أكبر المتنفذين في جنين وحيفا، وعليه ارجو ان تبعثوا اليه بتعليمات الحزب وتكتبوا اليه اللازم، لأنه طلب مني ذلك حتى يبتدىء بالعمل [١٤٦]

ومن رسائل اخرى يتضح ان سليم عبد الهادي ألّف شعبة في نابلس، وحافظ السعيد في يافا، وسعيد الحسيني في القدس. وحتى تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٣، تم انتشار الحزب في جنين وحيفا أيضا.[١٤٧] ومما يثبت ان أعمال «اللامركزية» وأفكارها كانت قد اخذت تلقى التجاوب والترحاب من السكان، ذلك التأييد المطلق من المدن الفلسطينية لقرارات المؤتمر العربي الأول، وهي في حقيقتها صدى لبرنامج «اللامركزية».[١٤٨]

لاقى الفلسطينيون من «اللامركزية» مصير الاعدام أكثر من رفاقهم في الأحزاب الأخرى بسبب اكتشاف جمال باشا لبعض الأسماء: الشهيد الأول سليم عبد الهادي، معتمد الحزب في قضاء جنين، عُرف عنه رباطة الجأش والشجاعة الفائقة، وقد كتب وصيته الأخيرة بهدوء وإيمان وهو في انتظار دوره للاعدام؛[١٤٩] والشهيد الطبيب علي النشاشيبي لم يعرف عنه انه من المؤسسين في «القحطانية» و«العهد»، فأعدم بتهمة «اللامركزية» أيضا، وقيل عنه: «كان في السجن اشبه بالأسد المصور عند تفاقم الأخطار»،[١٥٠] وقيل عنه في تاريخ فلسطين انه «باعث الروح العربية في شبيبة القدس.»[١٥١] ولم ينفذ حكم الاعدام بالنائب حافظ السعيد لكبره في السن، وقد مات في السجن، وكذلك بالشيخ سعيد الكرمي للسبب نفسه، وقد بقي سجينا حتى نهاية الحرب [١٥٢]

---

(١٤٦) عوني عبد الهادي، «أوراق خاصة» (محفوظة في منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث)، «رسالة من عوني عبد الهادي الى حقي العظم في ٧ أيلول/سبتمبر ١٩١٣».

(١٤٧) المصدر نفسه.

من الفلسطينيين الذين تأكد انتماؤهم الى حزب اللامركزية: سعيد الحسيني؛ حسن حماد؛ عمر الداري؛ عزة دروزة؛ حافظ السعيد؛ محمد الشنطي؛ ابراهيم القاسم عبد الهادي؛ توفيق عبد الهادي؛ حافظ عبد الهادي، سليم الأحمد عبد الهادي؛ عبد الهادي القاسم عبد الهادي؛ عوني عبد الهادي، سعيد الكرمي؛ د. علي النشاشيبي؛ كامل هاشم.

(١٤٨) راجع أدناه: «الفلسطينيون والمؤتمر العربي الأول»، البند خامسا ــ الفصل الثالث ــ القسم الخامس.

(١٤٩) راجع وصية الشهيد سليم احمد عبد الهادي في: «وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية: من أوراق أكرم زعيتر»، إعداد بيان نويهض الحوت (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٩)، ص ٦٥٤ ــ ٦٥٥

(١٥٠) احمد عزت الأعظمي، مصدر سبق ذكره، الجزء الثالث، ص ٣٤

(١٥١) كان الحاج امين الحسيني يردد هذا القول في مجالسه الخاصة

(١٥٢) راجع نص الاتهام للسعيد والكرمي في: من قبل القائد العام للجيش الرابع، مصدر سبق ذكره، ص ١١٩ ــ ١٢٠.

ثامنا: المؤتمر العربـي الأول

عُقد المؤتمر العربـي الأول في باريس في الفترة الممتدة من ١٨ الى ٢٣ حزيران/يونيو ١٩١٣، بناء على دعوة من الجالية العربية. أما الدافـع الأساسي، فقد كان قرارا سريا بعقد المؤتمر لتداول الشؤون العربية اتخذته جمعية «الفتاة» في باريس ولمّا كانت الجمعية سرية للغاية، فلم يُعرف احد في حينه بفضل الجمعية في ذلك. وقد ورد في الكتاب الصادر عن المؤتمر ان فكرة عقده صدرت عن خمسة شبان عرب هم: عبد الغني العريسي، وجميل مردم بك، وتوفيق فايد، وعوني عبد الهادي، ومحمد محمصاني.[١٥٣] وأنّى لمن حضر المؤتمر ان يعلم ان هؤلاء الخمسة أعضاء في جمعية عربية قومية سرية. ومن البديهي ان قرارات المؤتمر لم تكن لتعكس طموحات «الفتاة» الحقيقية، وإنما كانت الحد الأقصى والمعلن لما يمكن الحصول عليه من الدولة في تلك المرحلة، ويجمـع عليه رجال الفكر العربـي والمنتدى الأدبـي وحزب اللامركزية والأحزاب الاصلاحية العلنية، وقد تمثل هؤلاء جميعا في المؤتمر، وكانت اهم قراراتهم المتعلقة بالأوضاع العربية العامة:

- ان الاصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية فيجب ان تنفّذ بوجه السرعة.
- من المهم ان يكفل للعرب التمتـع بحقوقهم السياسية وذلك بأن يشتركوا في إدارة المملكة المركزية اشتراكا فعليا
- يجب ان تنشأ في كل ولاية عربية إدارة لامركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها
- اللغة العربية يجب ان تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني، ويجب ان يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية.
- تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية إلا في الظروف والأحيان التي تدعو للاستثناء الأقصى.
- ستكون هذه القرارات بروغراما سياسيا للعرب العثمانيين ولا يمكن مساعدة اي مرشح للانتخابات التشريعية إلا إذا تعهد من قبل بتأييد هذا البروغرام وطلب تنفيذه.[١٥٤]

أدركت الدولة خطورة المؤتمر قبيل عقده، وذلك بسبب مشاركة العديد من الشخصيات العربية الفاعلة، كعبد الحميد الزهراوي الذي ترأس المؤتمر ونائبه اسكندر عمون وعبد الكريم الخليل، ولذلك اوفدت امين سر «الاتحاديين» مدحت شكري، فحضر المؤتمر وطمأن العرب، واتفق معهم على بعض الاصلاحات. لكن، ما ان انتهت الحرب البلقانية حتى كشر «الاتحاديون» عن أنيابهم، وتنكروا لوعودهم.[١٥٥]

---

(١٥٣) اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر، «المؤتمر العربـي الأول» (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩١٣)، ص ٤.

(١٥٤) المصدر نفسه، ص ١١٣ ــ ١٢١؛ «قرارات المؤتمر السوري العربـي»، مجلة «المنار»، الجزء التاسـع، المجلد السادس عشر، ١ أيلول/سبتمبر ١٩١٣، ص ٧١٧ ــ ٧١٨.

(١٥٥) راجـع أعلاه البند رابعا من هذا الفصل.

الفصل الرابع
فلسطين والثورة العربية

أولا: مقدمات الثورة العربية

لمّا اندلعت الحرب الكبرى وقف العرب، بداية، الى جانب الدولة العثمانية. لكن تسارع الأحداث، وإحجام الدولة عن الوفاء بوعودها، ثم التمادي في سياسة البطش والارهاب، جعلت الصراع عنيفا في نفوس العرب ما بين الدفاع عن الدولة والثورة عليها. وقد استمر هذا الصراع عشرين شهرا حتى إعلان الثورة العربية في مكة المكرمة.

نفذت الدولة قانون التجنيد العام، وشمل هذا القانون عشرات الألوف من الشباب العربي من المعاهد الحقوقية والوطنية، وأضحت دمشق ــ وهي مقر الفرقة ٢٥ ــ تشهد أكبر لقاء من الشباب المثقف. وحتى في الآستانة لم يحدث اجتماع هذا العدد الكبير.

في خريف سنة ١٩١٤، ابتدأت عملية إجلاء سكان السواحل الى الداخل. وفي ١١ تشرين الثاني/نوفمبر، أعلنت تركيا الحرب. ولمّا كانت دمشق تشهد أكبر التجمعات بين المدن العربية، فقد سارعت جمعية «الفتاة» الى نقل مقر قيادتها السرية من بيروت الى دمشق في نهاية الخريف.

خلال العام الأول للحرب، بادر جمال باشا الى مسايرة الأحرار العرب، مع انه لم يكن يخفي امتعاضه وهو يستمع الى الأناشيد الثورية العربية في الاحتفالات العامة. وفي إثر احتفال شهير أقامه النادي الشرقي في دمشق تكريما لعبد العزيز جاويش، وارتفعت في نهايته الأناشيد والهتافات بحياة الأمة العربية والدولة والسلطان، بادر الى إصدار امر بإرسال ضباط الاحتياط العرب الى الجبهة الجنوبية (غزة وبئر السبع والخليل وطولكرم والقدس وجنين ونابلس)، فغادر دمشق أكثر من ألفي ضابط.

ازداد إقبال الشباب على الانتهاء الى الجمعيات السرية، وهي في تلك المرحلة: جمعية «الفتاة»، و «الشبيبة العربية»، وجمعية «العهد». ولم يكن الاخوان يعلم الواحد منهم بحقيقة انتهاء الآخر، غير

انهم ــ على صعيد القيادة المسؤولة ــ عملوا يدا واحدة. وكان من قراراتهم المشتركة العمل على إبقاء ضباط الخدمة المقصورة في دمشق، فيتمردون على الأوامر بالذهاب والتشتت في أماكن مختلفة، ويعمل الاخوان بشتى الوسائل على إخفاء الضباط المطلوبين للسفر وشرح عبد الكريم الخليل أبعاد القرار بإبقاء الضباط في دمشق قائلا في اجتماع سري:

. لأننا مقبلون على القيام بثورة في دمشق وتوابعها وإعلان استقلال الولايات العربية استقلالا تاما، وسنبدأ بالاستيلاء على دار الولاية (مقر الحكومة) والقشلة الحميدية ومقر قيادة الجيش بواسطة الجنود العرب، وتناصر هذه الثورة قوانا في السواحل، وتشكيلاتنا في الداخل، لأننا نخشى إذا لم نعلن انفصال ولاياتنا عن تركيا ان تحتل فرنسا بلادنا وبريطانيا العراق. وقد يتساهل الترك في عقد الصلح بين الدولتين، فيضحّوا بالبلاد العربية ليسلم الأناضول [١٥٦]

وزحفت الحملة العثمانية على ترعة السويس، وصدرت أوامر جديدة بإرسال باقي ضباط الخدمة المقصورة الى الأماكن النائية (ديار بكر والأناضول وحدود إيران وشمال العراق)، ولم يبق في دمشق حتى مقر التدريب، إذ انتقل الى الآستانة والى بعلبك.

في ربيع سنة ١٩١٥، زار الشريف فيصل دمشق، وكان التحضير للثورة بين دمشق والحجاز قد ابتدأ. وفي هذه الزيارة اقسم فيصل يمين الولاء الى جمعية «الفتاة»، وكان المعرّف عليه نسيب البكري، والشاهدان ياسين الهاشمي وعلي رضا الركابي.[١٥٧] ولمّا دعت الحكومة فيصلا الى زيارة الآستانة لبى الدعوة، وأقنع الأتراك بأنه سيعود الى الحجاز ليشترك في حرب الترعة. وقبل عودته الى الحجاز، زار فلسطين بدعوة من جمال باشا الذي اتخذ من القدس مقرا له لفترة. وخلال الأيام التي أمضاها فيصل في القدس، لم يدر في خلد جمال باشا ان الشريف عائد الى دمشق لاتخاذ مقررات «الميثاق العربي» مع الاخوان لمستقبل العرب. وموجز المقررات: العمل بجميع الوسائل لاستقلال البلاد العربية استقلالا تاما ناجزا، وإقامة وحدة شاملة على ان يكون لكل قطر إدارة

---

(١٥٦) عجاج نويهض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث»، مصدر سبق ذكره، «شهادة سليم عبد الرحمن»، عمان، ٣١ آذار/مارس ١٩٥٥، ك ٢١، ص ٣٩.

حضر الاجتماع السري المذكور أعلاه في غرفة عبد الكريم الخليل في أوتيل إنكلترا في السنجقدار بدمشق، كل من: سليم عبد الرحمن وتوفيق الحلبي ولمّا سُئل عبد الكريم الخليل: هل اتخذ هذا القرار باتفاق جميع الهيئات والتشكيلات؟ (لم يكن وقتئذ يستعمل أسماء الأشخاص بل الهيئات)، أجاب بأن هذا هو قرار الجميع. ولم يستطع سليم عبد الرحمن في شهادته ان ينفي او يؤكد معرفة عبد الكريم بارتباط الثورة بالشريف حسين قبل استشهاده؛ فقد كان تخطيط عبد الكريم لإعلان الثورة من دمشق وربما «شنق دون ان يعلم شيئا من ارتباط الثورة بالحسين، إلّا ان يكون قد اخذ علما في الوقت الأخير، وقد كان موثوقا من الجميع.»

(١٥٧) المصدر نفسه، الشهادة نفسها، ك ٢٢، ص ١١.

داخلية تتلاءم وأوضاعه. وقد خلا الميثاق من تحديد لعاصمة الدولة المقبلة. ولمّا فاوض الحسين الانكليز، عبر مراسلاته مع مكماهون، كان هذا الميثاق أساسا للمفاوضات.

عندما انكسرت حملة الترعة، قيل انها حركة استطلاعية لا أكثر! وعاد جمال باشا من مقر قيادته في القدس الى دمشق، وابتدأ عهد جديد من المراقبة والتجسس والملاحقة. واستمرت عملية إبعاد صباط الخدمة المقصورة الى الأماكن النائية، وانتشر نبأ القبض على عبد الكريم الخليل ورهط من الأحرار وإرسالهم الى عاليه. وسرعان ما أرسلت الوفود الى كبار المسؤولين من «أصدقاء» جمال من أجل التأثير فيه لاصدار العفو عن المسجونين. ولم يخطر ببال احد ان الاعدام نهايتهم. وفي صبيحة ٢١ آب/أغسطس ١٩١٥، فوجيء العرب بشنق «الفوج الأول» من الأحرار في ساحة البرج في بيروت (أطلق عليها ساحة الشهداء)، وكان عددهم احد عشر شهيدا. أما أحكام الاعدام الغيابية فقد تجاوزت السبعين.(١٥٨)

كان لنبأ الاعدام وقع الصاعقة في المدن والقرى، وانتشرت روح التمرد بين الجنود، فبلغ عدد الفارين من الجيش الآلاف، وكان عقاب هؤلاء الاعدام بالقرعة.(١٥٩) وفي الوقت نفسه، تابعت المحكمة العسكرية أعمالها في عاليه وفي القدس، وتواصلت حركة الاعدام في فلسطين؛ فأعدم العشرات في القدس ويافا والخليل ومختلف المناطق، بداعي الفرار من الجيش. كما استمرت، في الوقت نفسه، عملية الابعاد والنفي الى الأناضول، ومصادرة الأموال والأملاك؛ وقد شملت أحكام النفي المئات من العائلات السورية والفلسطينية واللبنانية. وكم من عائلات نُفي أربابها، وكم من عائلات نفيت بكاملها.(١٦٠)

في ٦ أيار/مايو ١٩١٦، علّق جمال باشا «الفوج الثاني» من الشهداء.(١٦١) وكان فيصل قد

---

(١٥٨) الشهداء في ٢١ آب/أغسطس ١٩١٥، هم. عبد الكريم الخليل؛ سليم عبد الهادي، محمد محمصاني؛ محمود محمصاني؛ محمود العجم؛ نور القاضي؛ عبد القادر الخرسا؛ نايف تللو؛ محمد مسلم عابدين، صالح حيدر؛ محمد علي الأرمناري (احمد عزت الأعظمي، مصدر سبق ذكره، الجزء الخامس، ص ٧١ ــ ٧٥)

(١٥٩) اصدر جمال باشا قانونا مآله ان لا حاجة الى التحقيق مع الفارّين من الخدمة العسكرية، بل يجري تجميعهم وإعدامهم بالقرعة، فبعد كل تسعة يعدم العاشر. ونفّذ هذا القانون في بعض الحالات، إلّا ان حركة الفرار لم تتوقف.

(١٦٠) امين سعيد، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ٧٣.

(١٦١) الشهداء في ٦ أيار/مايو ١٩١٥، هم:

في دمشق: الأمير عمر الجزائري، شفيق المؤيد؛ عبد الحميد الزهراوي؛ عبد الوهاب المليجي (الملقب بالانكليزي)؛ شكري العسلي؛ رفيق رزق سلوم؛ رشدي الشمعة.

في بيروت: سليم الجزائري، د. علي النشاشيبي؛ سيف الدين الخطيب؛ محمد الشنطي؛ امين لطفي =

حاول التوسط للعفو عنهم فلم يفلح ولمّا عاد الى دمشق من بيروت، وأخبر رفاقه ان نيات جمال باشا أقطع من كل تصوراتهم، اتخذ الجميع قرارا بأن يعود فيصل الى الحجاز بسرعة استعدادا لبدء الثورة. وقد كانت المفاوضات بين الشريف حسين والانكليز قد انتهت، وفي خيال الشريف وتصورات العرب ان الحلفاء سيحافظون على الكلمة وعلى العهد. وما ان وصلت كلمة السر من الحجاز — وكانت برقية من فيصل الى إخوانه في دمشق بإرسال الفرس الشقراء — حتى اخذ الاخوان يتسابقون الى الالتحاق بالثورة. وفي التاسع من شعبان، الموافق للعاشر من حزيران/يونيو ١٩١٦، أطلق الشريف حسين الرصاصة الأولى بنفسه في مكة، وكان ذلك إيذانا ببدء الثورة.(١٦٢)

ثانيا: الفلسطينيون والثورة

كان همّ الحلفاء الأكبر إسقاط هيبة الخلافة العثمانية وزعزعتها في العالم الاسلامي، مما يسهل القضاء على الدولة. وقد نالوا مبتغاهم بمجرد إعلان الثورة من مكة، فما عاد من همومهم الوفاء بوعودهم وعهودهم. وتبدو خديعتهم سافرة منذ بداية الثورة، اذ كانت من اهم المشكلات التي حاول الشريف حسين وأنجاله حلها منذ البداية، الحصول على أسلحة صالحة وكافية من الحلفاء، غير انهم لم يتمكنوا من ذلك، والسبب هو ان الانكليز — في تخطيطهم — قد حدّدوا مبلغ القوة التي يجب ان يصل الجيش العربي اليها ولا يتعداها، بالاضافة الى انهم حاولوا جاهدين الحؤول دون وصول السلاح الذي يمدّون به الجيش العربي المقاتل ضد الأتراك الى سوريا والعراق وفلسطين (فهذه البلاد، وفقا لاتفاقية سايكس — بيكو التي عرف أمرها فيما بعد، كانت للاقتسام بين بريطانيا وحليفتها فرنسا).

وقد واصل الانكليز، أمام الرأي العام، تصريحاتهم الكاذبة باستقلال العرب، فساهموا — باسم الشريف حسين — في رمي المناشير على الطوابير التركية بالطائرات، مناشدين العرب منهم الالتحاق بالجيش العربي، وأهمها المنشور الصادر عن الشريف حسين في ٢٦ حزيران/يونيو ١٩١٦. وقد لبّى النداء الكثيرون من الضباط والجنود العرب، فانسحبوا من الجيش العثماني

= الحافظ؛ توفيق البساط؛ جلال البخاري؛ الأمير عارف الشهابي؛ الشيخ احمد طبارة؛ عبد الغني العريسي؛ جرجي الحداد، بترو باولي؛ سعيد عقل (احمد عزت الأعظمي، مصدر سبق ذكره، الجزء السادس، ص ٩١ — ٩٤).

(١٦٢) اسعد داغر، «مذكراتي على هامش القضية العربية»، مصدر سبق ذكره، ص ٨٧ — ٨٨.

والتحقوا، بكل الوسائل الممكنة، بالجيش العربي في الحجاز، ومن ثم في الأردن. وساهم الجيش البريطاني في مساعدة البعض منهم في الانتقال. وثبت ان انتقال هؤلاء كانت له اهمية كبرى بفضل المعلومات التي حملوها عن خطط الأتراك. وقد بلـغ عدد المتطوعين في الثورة من الفلسطينيين الآلاف. وقامت جماعة من الشباب ــ بينهم الحاج امين الحسيني ــ بدور مهم في حركة التطوع؛ فكانت تجوب أنحاء البلاد وتنظم المتطوعين.(١٦٣) واعتبرت لجنة شو للتحقيق في أحداث البراق سنة ١٩٢٩ المناشير الداعية الى الثورة دليلا على وعود بريطانيا للعرب، في مقابل وعودها لليهود. وقد كان صبحي الخضراء ــ احد ضباط الثورة العربية ومن أبناء صفد ــ من الذين احتفظوا بهذه المناشير، وقدمها في أثناء شهادته أمام لجنة شو. وما كان من اللجنة إلا إضافتها الى وثائق التحقيق.(١٦٤)

انتقمت السلطات العثمانية من الثوار بإعدامهم. وفي فلسطين لاقى الكثيرون هذا المصير. وقد شهدت القدس إعدام الشيخ احمد عارف الحسيني مفتي غزة، وابنه الضابط مصطفى الحسيني في يوم واحد. وكانت جريمة الأب وابنه واحدة، وهي الالتحاق بالثورة؛ فقد قبض عليهما وهما يحاولان اختراق الحدود مع مصر، في طريقهما الى القاهرة فالحجاز. شنق الأب الشيخ في باب الخليل على مرأى من ابنه، ثم أُعدم الابن الضابط رميا بالرصاص في ارض الشيخ الخليلي، في سهل البقعة.(١٦٥) وعلى الرغم من سلاح الاعدام والنفي والتشريد، فقد استمرت قوافل الملتحقين بالثورة تتوافد على الأزرق في الأردن، بعد انتقال مركز القيادة اليه، من الحجاز.

غادرت القافلة الفلسطينية الأخيرة دمشق في ١٠ آب/أغسطس ١٩١٨، وقد كان بعض أفرادها من السجناء لدى السلطات العثمانية. وفي أثناء الرحلة الشاقة نظم خليل السكاكيني نشيدا للثورة ولحّنه، وأخذ ينشده مع رفاقه في الطريق: سليم عبد الرحمن، وحمدي الحسيني، وعادل

---

(١٦٣) Antonius, *op cit*, pp. 229-230

(١٦٤) في أثناء استماع لجنة شو الى الشهود العرب في أواخر سنة ١٩٢٩، ابرز المحامي صبحي الخضراء ــ وكان احد الشهود ــ منشورا صادرا سنة ١٩١٧ يحمل صورة الشريف ويحرّض على الثورة، وقد شهد بأنه اطلع عليه في حينه، وكانت الطائرات البريطانية توزعه في جنوب فلسطين (جريدة «الجامعة العربية»، العدد ٢٩٣، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٩).

(١٦٥) عجاج نويهض، «رجال من فلسطين»، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٥، محمد داود الخالدي، «للحقيقة والتاريخ»، مجلة «العربي»، العدد ٩٦، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٦، ص ٧
كان محمد داود الخالدي من رجال الشرطة الذين أشرفوا على شنق الشهيد احمد الحسيني.

زعيتر، وصالح الصمادي. ولّما وصلوا الى مقر قيادة فيصل، دخلوا بغبار السفر، وهم ينشدون. «أيها المولى العظيم»، وقد اصبح من أناشيد الثورة وطلاب المدارس.(١٦٦)

ثالثا: فلسطين في مراسلات حسين ــ مكماهون

من الواضح، عبر المذكرات الخاصة وملفات الثورة العربية، ان رجال الثورة العربية من أبناء فلسطين لم يكونوا ليعلموا في مطلع الثورة بما ورد او بما لم يرد في مراسلات حسين ــ مكماهون بشأن وطنهم فلسطين. غير انهم كانوا يدركون، بل يؤمنون بأن فلسطين جزء من الدولة العربية المرتقبة. وما الثورة إلا مقدمة للدولة. وقد احتاجت فلسطين الى ثلاثين عاما لتدرك جيدا ان وعد بلفور كان القرار البريطاني الوحيد بشأن فلسطين، وما عداه كان حبرا على ورق.

كانت فلسطين المحور الرئيسي الغائب والعمود الفقري الضائع في المراسلات، ولم ترد كلمة فلسطين فيها قط. غير ان فلسطين الغائبة نصا بين السطور، كان لها الحضور الأقوى في ذهن كل من الشريف حسين باسم العرب، والسير هنري مكماهون باسم بريطانيا؛ فالحسين لم يشدد على ذكرها لأنها، وفقا لقناعته، تقع حكما ضمن حدود الدولة العربية المتفق عليها؛ ومكماهون لم يشدّد على استثنائها خوفا من تعثر المفاوضات.

وعلى الرغم من تحول هذه المراسلات الى حدث تاريخي، ليس أكثر، بمجرد إقرار الانتداب البريطاني في مؤتمر سان ريمو، فان بريطانيا لم تنشر هذه المراسلات بنصّها الانكليزي إلا في سنة **١٩٣٩** خلال انعقاد مؤتمر المائدة المستديرة في لندن، وبينما كان العالم على قاب قوسين او ادنى من الحرب العالمية الثانية؛ فإرضاء العرب الى حد ما كان مطلبا بريطانيا في تلك الأحوال الصعبة، وهذا ما حداها على نشر النصوص الأصلية، وعلى القبول بتأليف لجنة عربية ــ بريطانية مشتركة للبحث في مضمون المراسلات.(١٦٧)

---

(١٦٦) خلت يوميات السكاكيني من الاشارة الى هذا النشيد، إلاّ ان رفاقه في الثورة أكّدوا حكاية النشيد وأجمعوا على تواصع صاحبه، ومن هؤلاء: سليم عبد الرحمن وعادل جبر وحمدي الحسيني ومحمد الشريقي (عجاج نويهض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث»، مصدر سبق ذكره).

(١٦٧) تألف الوفد العربي من عوني عبد الهادي، وموسى العلمي، وجورج أنطونيوس (من فلسطين)، ونوري السعيد (من العراق)، وعبد الرحمن عزام (من مصر). أمّا الوفد البريطاني، فقد كان برئاسة اللورد موم قاضي القضاة في بريطانيا.

نصت العبارة المختلف بشأن تفسيرها بين الفريقين، والواردة في رسالة من السير مكماهون في ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٥، على «ان ولايتي مرسين واسكندرونة وأجزاء من بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماه وحلب لا يمكن ان يقال انها عربية محضة. وعليه يجب ان تستثنى من الحدود المطلوبة.» وقد قبل الشريف حسين، في رسالته بتاريخ ١ كانون الثاني/يناير ١٩١٦، بأن تخضع هذه الأجزاء لأحكام خاصة.

وحتى سنة ١٩٣٩، كانت بريطانيا تتجاهل كليا رمي المناشير الداعية الى الالتحاق بالثورة في جنوب فلسطين، وتصريحاتها المطمئنة والمتواصلة بشأن تأكيد عروبة فلسطين. وما كان ممكنا للتجاهل المزمن ان ينقلب الى اعتراف صريح بالحق العربي، فجاء الاعتراف البريطاني ــ كما هو شأن الدبلوماسية البريطانية دوما ــ قابلا لأكثر من تفسير، وإنْ تكن البوصلة تشير الى الاتجاه العربي؛ فقد جاء في البيان الرسمي:

> .. ان مندوبي المملكة المتحدة أبلغوا مندوبي العرب ان حجة العرب كما شرحت للجنة فيما يتعلق بمعنى عبارة أجزاء من بلاد الشام الواقعة الى الغرب من ولايات دمشق وحمص وحماه وحلب، لها من القوة أكثر مما كان يبدو من قبل.
>
> وفضلا عن ذلك فان مندوبي المملكة المتحدة أبلغوا مندوبي العرب انهم يوافقون على ان فلسطين كانت داخلة في المنطقة... وأنه ما لم تكن فلسطين قد استثنيت فيها بعد من هذه المنطقة، فانه يجب عدّها داخلة في المنطقة التي تعهدت بريطانيا العظمى بالاعتراف بالاستقلال العربي فيها وتأييده وهم يذهبون الى ان التفسير الصحيح للمكاتبات بجعل فلسطين مستثناة ولكنهم يعترفون بأن العبارة التي تضمنت الاستثناء لم تكن محددة صريحة ولا غير قابلة للخطأ، كما ظن في وقتها.[١٦٨]

ليس لهذا التحول النسبي في الموقف البريطاني من اهمية سياسية تذكر، وخصوصا انه لم يعلن إلا بعد ان مضى على تأسيس دعائم السياسة الصهيونية في فلسطين أكثر من عشرين عاما. فالأهمية تاريخية لا أكثر، وذلك لدى مناقشة قيادة الثورة العربية ورجالها مناقشة شاملة.

رابعا: فلسطين والحرب الكبرى

كانت مهمة الجيش العربي الرئيسية تخفيف الأعباء عن الجيش البريطاني «الحليف» بقتال الأتراك ومشاغلتهم؛ ومع قدوم تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧، كان هذا الجيش «الحليف» قد امضى عدة اشهر في الاستعداد لاقتحام فلسطين من الجنوب.

(١٦٨) مصر، وزارة الارشاد القومي ــ الهيئة العامة للاستعلامات، «ملف وثائق فلسطين ٦٣٧ ــ ١٩٤٩» (القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٦٩)، الجزء الأول، ص ٧٠٥ ــ ٧١١.

جرت المعركة الفاصلة في غـزة؛ فابتـدأت بعنف وشراسـة في ليلة ١١ ــ ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر، واستمرت سبعة أيام ويروي الطبيب الفلسطيني حسين فخـري الخالـدي، في مذكراته، تفاصيل المعركة ــ وقد كان شاهد عيان بحكم عمله مـع الجيش التركي ــ فيقول انها ابتدأت بالمدافـع الثقيلة كالزلزال، وانتهت بـالسلاح الأبيض. وقـد صمد الأتـراك بشجاعـة ولم يتراجعوا شبرا واحدا، محتفظين بمراكزهم كلها. وكانت الثغرة التي نفد الجيش البريطاني منها جبهة ضيقة صغيرة يتولى الدفاع عنها فرقة، جنودها في أغلبيتهم من العرب. وقد انهارت هذه الجبهة، فتدفق الخيالة الأوستراليون الأشداء والتفوا حول الجيش التركي. وتلك كانت رواية الأتراك كما سمعها الخالدي. وهي تبدو منطقية ما دام العرب كانوا يظنّون الصدق والوفاء في حلفائهم، وأخبار وعد بلفور لم تنتشر بعد حتى حدود الجبهة

نتـج من انهيار جبهة الجنوب ان توقفت طلائـع جيش الصاعقة التركي القادم من شمالي فلسطين، وتلقت الجيوش التركية على ساحل البحر الأحمر الأوامر بالتراجـع والتقهقر، وأخذت الجبهة في فلسطين بالانهيار على الرغم من استمرار الأتراك في القتال. ولّما وصل القتال الى ضواحي القدس وقف الأتراك، كما وقف الجميـع، خاشعين أمام عظمة المدينة المقدسة. وقد كان في استطاعة الجيش التركي ان يدك المدينة وهو منسحب من البلاد، لكنه لم يفعل؛ «فالأتراك المتراجعون الذين وصفوا بالهمجية والانحطاط، والألمان الذين وصفوا بالغلظة والصلف، والبريطان الغزاة الفاتحون، قرّ رأيهم واتفقوا في بضـع ساعات وعن طريق الاتصال المباشر، اتفقوا ان لا تصاب المدينة المقدسة بسوء.»[(١٦٩)]

تسلّم الجيش البريطاني مدينة القدس في ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩١٧، غير ان الأتراك لم يغادروا فلسطين. وقد تجدد اشتعال الجبهة ثانية بعد ان احتل الانكليز أريحا استعدادا لعبور نهر الأردن واحتلال الصلت، حيث كانت قيادة للألمان والأتراك. وأخذ الجيش البريطاني يلاحق الطوابير التركية في الجانب الأيسر، بينما يلاحقها الجيش العربـي في الجانب الأيمن في اتجاه سكة حديد الحجاز. وقد استمر في ملاحقتها حتى حلب وجبال طوروس.[(١٧٠)]

على الرغم من الدور الكبير الذي قام الجيش العربـي به في مساندة حلفائه، فان الجيش البريطاني تنكر لهذا الدور. وكانت أولى علامات هذا التنكر انه لّما دخل القدس بقيادة الجنرال

---

(١٦٩) حسين فخري الخالدي، «مذكرات خاصة»، مخطوطة محفوظة في مكتبة خاصة (بيروت، ١٩٤٩)، ص ٥٤ ــ ٥٧.

(١٧٠) المصدر نفسه، ص ٥٩ ــ ٦٠.

أللنبـي، رافعا أعلام الحلفاء المحاربين ــ البريطانية والفرنسية والايطالية ــ لم يكن هناك اي وجود للعلم العربـي؛ وقد شاهد أبناء المدينة هذه الخديعة السافرة منذ اليوم الأول. أما ادعاء الحلفاء فيما بعد ان الدور العربي كان هامشيا او ضئيلا في حسم المعارك، فالمنطق العسكري يرفضه، والشهادات العسكرية تناقضه.

أعطى المارشال ليمان فون ساندرس، القائد العام للجيوش التركية في البلاد العربية، الدور العربـي الأهمية الكبرى؛ فالثورة العربية كانت السبب في منح الحلفاء الحرية والطمأنينة الى ان يفعلوا ويتنقلوا كيفما يشاؤون وكأنهم في بلادهم، لا في بلاد غريبة عليهم، مهمتهم فيها القتال. أما الجيش التركي، فقد اقصته الثورة العربية عن أهل البلاد، وبات وضعه مناقضا لما كان يألفه في السابق، وكأنه على ارض معادية.[(١٧١)]

وشهد قائد تركي آخر بأنه لولا وجود الجيش العربـي لما احرز الجيش البريطاني ذلك النصر بسرعة؛ فقد امتد الجيش العربـي عبر ساحة حربية من ألف كيلومتر، معطلا للأتراك ما يزيد على الأربعين ألف مقاتل. ولو أمكن استقدام هؤلاء للدفاع عن فلسطين لما استطاع الجيش البريطاني ان يتقدم ويحتل القدس.[(١٧٢)]

مـع بدء الاحتلال العسكري البريطاني لفلسطين، كانت البلاد تعاني آلام الحرب الكبرى وويلاتها، وأولها الشلل التام في الحياة الاقتصادية. وقد عمَّ البلادَ شبهُ مجاعة، وخصوصا بعد ان نفدت من الأسواق مواد حياتية مهمة، وانتشرت الأوبئة الفتاكة بين السكان. وبالاضافة الى ذلك، فقد عانت البلاد هجرة داخلية فرضتها القيادة التركية ــ الألمانية لضرورات الحرب، ولم يجد السكان المهاجرون اية معونة من الحكومة. وعانت البلاد نقصا في الرجال؛ فمنهم من كان يقاتل في صفوف الجيش العربـي، ومنهم من استمر يقاتل في صفوف الجيش العثماني، ومنهم من اجبرته أحوال الأسر او المنفى على البقاء خارج الوطن.

على الرغم من الصورة المأساوية التي عمت ارض فلسطين قبيل انتهاء الحرب، وقد سيطر عليها شبـح المستقبل الغامض بانتشار وعد بلفور عوضا من صورة الفرح والعزة القومية بالانتماء الى وطن عربـي أكبر، فانه كانت لرجال الثورة انفسهم من أبناء فلسطين ــ وهم أصحاب المكان الأول في نقد تجربتهم الذاتية ــ القدرة على تحمل الصعوبات، والتفاؤل بوحدة المصير العربـي. ونقتبس من يوميات خليل السكاكيني، في ١٠ آب / أغسطس ١٩١٨، ما يلي:

---

(١٧١) حسن صدقي الدجاني، «تفصيل ظلامة فلسطين» (القدس. المطبعة التجارية، ١٩٣٦)، ص ٢٢.

(١٧٢) المصدر نفسه، ص ٢٢ ــ ٢٣

لا شك في ان الحرب ستضـع أوزارها بعد حين، ولكن اقتحاما الأخطار الآن ولو في الساعات الأخيرة من عمر هذه الحرب اشرف وأبعد في الفخر.

أنا من جملة من كان يظن ان الأمة العربية فقدت قواها الحيوية، ومن فقد قواه الحيوية لا يسترجعها كانت الأمة العربية خاملة، ذليلة، متمرقة الكلمة، فلو مرت الحرب بدون ان يعمل العرب شيئا لذهبت الفرصة وأبنا بالخزي والعار الى الأبد. كان الأتراك يضربوننا بيد ويحاملوننا بيد، ولكن في هذه الحرب جعلوا يضربوننا بأيديهم وأرجلهم ونحن ساكتون خائفون حتى ان العالم كله كان يحتقرنا.

شنقت رجالنا يتّمت أطفالنا، ، أثقلت عواتقنا بالتكاليف الحربية والاعانات والضرائب، نفيت كبار أسرنا، متنا جوعا وصبرا، فتكت بنا الأمراض، أصبحنا من سقط المتاع. فلو انتهت الحرب ونحن على هذه الحالة لذهب كل أمل بأن نعود الى الحياة والحرية والاستقلال...

كنت قبل اليوم احسب وطني القدس، وأما اليوم وقد خرجت من سورية الى البادية الى مصر الى فلسطين، فوطني العربـي يشمل كل البلاد التي يتكلم أبناؤها العربية. وما أسهل ان توحّدَ كلمتنا، وما أسهل ان نحيا كأمة واحدة. لنا مكان ولنا لغة ولنا أدبيات. وما اصغر همة الذين لا يهتمون إلا بوسطهم الصغير. لتكن الحكومات ما شاءت فنحن لا يهمنا إلا ان نكون امة واحدة ونترسى على أدبيات واحدة ومبادىء واحدة وأن يكون لنا آمال واحدة، وهذا ليس على همة ذوي الوطنية بعزيز [١٧٣]

خامسا: خلاصة

من المنطق العام ألا يُبحث في موضوع الفلسطينيين والحركة العربية بمعزل عـن العـرب وبـلاد العـرب، وإلا كان البحث خارجا عن طبيعة الحركة العربية القومية في تلك المرحلة. وبمعنى آخر: فلو شاء الباحث، وفقا للمنطق الاقليمي السائد الى حد بعيد في هذه المرحلة من تاريـخ العرب، ان يبحث عن الدور السوري او الدور اللبناني او الدور الفلسطيني في مطلـع القرن العشرين، لما كان لهذا البحث ان يكتمل؛ إذ لم يكن هناك فعلا من أدوار إقليمية مستقلة حتى يصـح البحث فيها. وأقصى ما يمكن القيام به، هو البحث عن أسماء الرعيل الأول، عن أماكن ولادتهم وانتشارهم في الجمعيات المتعددة. وحتى على هذا الصعيد، فسرعان ما يكتشف الباحث ان المذكرات التي صدرت عن الحركة العربية، وبأقلام رجالها، غالبا ما أغفلت ذكر مدينة الأصل او المولد، وأحيانا أشارت بقولها ان فلانا طرابلسي او دمشقي او نابلسي بقصد المزيد من التعريف، وما من مرة قالت ان فلانا فلسطيني او اردني او عراقي.

السؤال، إذاً، لِمَ كان البحث عن الفلسطينيين في ملفات الحركة العربية الواحدة؟ والاجابة باختصار هي: لأن الشعب الفلسطيني قد جابه من أخطار العدوان على هويته القومية، ومن إنكار

(١٧٣) خليل السكاكيني، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٥ ــ ١٥٦.

وجودها أصلا، ما لم يجابهه شعب عربي آخر فالانتداب البريطاني على فلسطين كان مختلفا عنه في الأردن او العراق؛ فهو قد جاء فلسطين مع الوعد بالوطن القومي لليهود، وهذا الوعد بحاجة الى بلد بلا شعب؛ فكانت بداية الصراع إنكار الهوية القومية للشعب الفلسطيني، وإنكار وجود الفلسطينيين في الحركة العربية. وبريطانيا، وهي التي تنكرت لعهودها بأن تكون فلسطين الأرض جزءا من الدولة العربية، ما كان في استطاعتها إلا ان تتنكر للشعب الذي علّق أمانيه القومية على الدولة العربية المقبلة، وناضل من أجلها.

وردا على هذه التهمة، كان لا بد من البحث عن الفلسطينيين في الحركة العربية ــ لكن في إطار محدود يسمح برؤية الوجود الفلسطيني على حقيقته، ولا يقضي في الوقت ذاته على وحدة العمل العربي المشترك. وقد ثبت لنا ــ عبر الصفحات السابقة ــ وجود الفلسطينيين في الهيئات التأسيسية، وإنشاؤهم الفروع المتعددة لجمعياتهم وأحزابهم على ارض فلسطين، وتصديهم لتحمل المسؤولية في اتخاذ القرارات بشأن المصير.

ومَنْ يتابع أسماء الرعيل الأول في الجمعيات العربية الأولى وفي الثورة العربية، عبر ملفات ووثائق الحركة الوطنية الفلسطينية في عهد الانتداب البريطاني، يكتشف بسهولة ان رجال الرعيل الأول كانوا هم انفسهم ــ في معظمهم ــ من رجال الحركة الوطنية. وهذا مما يثبت ان فلسطين لم تفقد التواصل في العمل السياسي والوطني أولا، وأن جذور هذا العمل هي الجذور العربية نفسها ثانيا.[(١٧٤)]

ان التوقف لدى مؤسسي حزب «الاستقلال العربي» بالذات، لكونه من أكثر الأحزاب تمثيلا للفكرة العربية، يُظهر ان مؤسسي الحزب هم ــ في معظمهم ــ من رجال الحركة العربية: فعوني عبد الهادي، احد المؤسسين الثلاثة الأوائل لجمعية «الفتاة» في الآستانة (١٩٠٨)، هو عميد حزب «الاستقلال» في القدس (١٩٣٢)؛ وعبد اللطيف صلاح من «الفتاة» أيضا هو مؤسس حزب «الكتلة الوطنية» ورئيسها (١٩٣٥)؛ وأحمد حلمي عبد الباقي من «الفتاة» أيضا هو رئيس حكومة عموم فلسطين.

وتلك أمثلة لا أكثر.

---

(١٧٤) راجع بشأن نضال أبناء فلسطين في نهاية العهد العثماني، وراجع أسماء تسعين فلسطينيا شاركوا في الحركة العربية الواحدة، وأسماء الذين أعدموا بينهم، او صدرت في حقهم أحكام الإعدام، او سجنوا، او نفوا، ويبلغ عدد الذين تعرضوا لأي نوع من الاضطهاد اثنين وثلاثين فلسطينيا من مجموع التسعين، وذلك في: بيان نويهض الحوت، «جذور الحركة الوطنية في فلسطين»، «دراسات فلسطينية: مجموعة أبحاث وضعت تكريما للدكتور قسطنطين زريق» (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨)، ص ٢٣٩ ــ ٢٧١.

وعلى صعيد الفكر والقلم، عُرف الكثيرون من رجال الحركة الوطنية الذين نشروا الفكر العربي القومي عبر مقالاتهم ومؤلفاتهم، وكانوا من أبناء الرعيل الأول. ومن هؤلاء: عمر الصالح البرغوثي، وخليل السكاكيني، وعزة دروزة، وعيسى العيسى، وعارف العارف، ونجيب نصار.

وتلك أمثلة لا أكثر.

انها تثبت ان محاولة اقتلاع الفلسطينيين من الجذور العربية محاولة فاشلة. وتثبت ان القول ان دور الفلسطينيين في الحركة العربية كان دورا هامشيا، او انه كان دورا غائبا على الاطلاق، هو قول محض ادعاء وافتراء.

القسم الرابع

الحركة الصهيونية وفلسطين

الفصل الأوّل

المجتمعات اليهوديّة في أوروبا

أولا: النظرية القومية والصهيونية

عندما اصدر والتر لاكور كتابه «تاريخ الصهيونية» سنة ١٩٧٢، اعتبر كتابه هذا الأول في موضوعه، وذلك من حيث الشمولية والنهج العلمي.(١) وكان التعريف الذي اختاره لاكور للصهيونية نقلا عن موسوعة علمية تعريفا مختصرا:

> الصهيونية حركة عالمية أطلقها تيودور هيرتسل سنة ١٨٩٧ كما يقال ــ بالمقياس نفسه ــ ان الاشتراكية قد أُنشئت سنة ١٨٤٨ من قبل كارل ماركس.(٢)

ان هذا التعريف المبالغ في اختصاره يخفي في طيّاته مفارقة أساسية بين الرجلين؛ فالأول سعى لمصلحة اليهود وحدهم، ومع إقامة الجدار من حولهم من دون الشعوب الأخرى، بينما حطّم الثاني كلّ ما بين الشعوب من جدران، واعتمد على الوحدة الأممية للطبقة العاملة.

تعود جذور الصهيونية التي انطلقت أواخر القرن التاسع عشر الى نداءات صدرت، قبل ذلك في منتصف القرن نفسه، على ألسنة بعض من رجال الدين اليهود ومفكريهم، وكان هدفها الرئيسي اللحاق بالركب في هذا القرن، المعروف بعصر الاستعمار، وعصر القوميات؛ فقد اعيد تقسيم خريطة أوروبا استنادا الى المبدأ القومي، وهي الخريطة التي لم تعرف سابقا سوى المبدأ الديني

---

(١) حتى صدور هذا الكتاب، كان قد صدر عن الحركة الصهيونية عدد لا يحصى من الكتب الوثائقية والمؤلفات والمقالات، إلّا أنها كانت في معظمها تتناول حقبة معينة او موضوعا معينا. وتكمن اهمية كتاب لاكور، الصادر سنة ١٩٧٢، في كونه مرجعا شاملا أولا، وبقلم بريطاني لا يهودي ولا صهيوني ثانيا. وقد سبقه كتابان تاريخيان لإثنين من الكتّاب الصهاينة، إذ صدر كتاب سوكولوف في نهاية الحرب العالمية الأولى، وصدر كتاب بوهم في منتصف العشرينات.

(٢) Walter Laqueur, *A History of Zionism* (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1972), p. 40.

أساسا للحكم. كما أنها لم تعرف دافعا الى الحروب المريرة على أرضهـا، يتقدم على دوافـع الجشـع ومصالـح الملوك والأمراء.

ولسنا هنا في صدد مناقشة المبدأ القومي وتعريفه.[٣] إلّا انه يجدر التوقف لمعرفة موقـع الصهيونية الجديدة، وهي التي قيل في انطلاقها انها استمدت روحها من عصر القوميات، وبالتالي بات من حق اليهود التفكير في إنشاء قوميتهم الخاصة اسوة بالشعوب الأوروبية. وما دام المؤرخون للفكر الصهيوني يطرحون القومية الصهيونية في هذا الاطار، فالسؤال البديهي الذي ينبـع من طرحهم هذا هو: اين تقـع «الصهيونية» على سلّم القوميات الحديثة؟ وبتعبير آخر: كيف تقارن القومية الصهيونية بالقومية الألمانية مثلا، او الايطالية، او البولونية؟

والجواب لدى مؤرخي الحركة الصهيونية، وجلّهم يهود او اوروبيون مسيحيـون مولـدا، وصهاينة فكرا، ان القومية الصهيوبية شيء مختلف تماما عن القوميات الأخرى، إذ لا يمكن مقارنتها بسواها؛ فهي قومية فريدة متميزة عبر التاريـخ. إذ ان اليهودية او الصهيونية (والخلط بين التعبيرين ضرورة لتعميم المتاهة الفكرية المنشودة) منذ عهد مـوسى، ومن قبله ابراهيم، وحتى القـرن العشرين، لا بد لمعرفتها من دراستها بشكل منفرد، فهي نسيـجٌ وحدها.

ولو تجاوزنا أقوال هؤلاء جميعا، وحاولنا تطبيق المقاييس القومية الحديثة على تاريـخ اليهود، قديمه وحديثه، لما وجدنا فعلا نظرية قومية واحدة يصـح ان تنطبق الصهيوبية عليها.

وتختلف الدراسات الحديثة كثيرا عن الدراسات الأولى فيما يتعلق بتاريـخ هذه الهوية؛ فقد جاء في كتاب «ازمة هوية: اسرائيل والصهيونية» لمؤلفه دان سيغر، والصادر سنة ١٩٨٠:

> بين جميـع الحركات القومية في القرنين التاسـع عشر والعشرين، بقيت الصهيوبية الأكثر إثارة للجدل. وكمعظم الأشياء التي تتعلق باليهود واليهودية، فالصهيونية تبدو فريدة في نوعها، كما أنها تبدو للكثيرين ــ في الوقت نفسه ــ قضية شاذة، ذلك بأنها تختلف عن النماذج المتعارف عليها للهوية القومية فمنذ ولادتها، وخلال العقود التي تلت ولادتها، لم يحدث ان قامت دعوة قومية اخرى تنادي بالسيادة والوحدة السياسية بين جماعة من البشر، يتوزعون واقعيا على القارات الخمس، ويتحدثون لغات مختلفة، ويمثلون حضارات متعددة، وهم الذين قد أُبعدوا لقرون عديدة عن ارضهم المشتركة. . ويعانون في كل مكان انعدام المساواة اجتماعيا او دينيا او سياسيا. وعلى الرغم من تميّز الصهيونية وافتقارها الى القوى العسكرية والاقتصادية والسياسية، فقد أدركت هدفهـا: إقامـة «دولة» مستقلة لليهـود على ارض أجدادهم.[٤]

---

(٣) راجـع في شأن النظرية القومية، البند أولا ــ الفصل الأول ــ القسم الثالث.

(٤) Dan V. Segre, *A Crisis of Identity. Israel and Zionism* (Oxford Oxford University Press, 1980), pp. 3-4.

ان هذا التعريف «الحديث» يردّ موضوع «وحدة» اليهود من حضارات مختلفة، وألسنة متعددة، وعبر القارات الخمس، الى «معجزة خارقة» تَخُصُّ اليهود وحدهم؛ وإلّا، فكيف يمكن لوحدة كهذه ان تتم؟ إنْ هي تمّت.

أما سوكولوف، وهو من أوائل المؤرخين اليهود، فقد توصل في كتابه «تاريخ الصهيونية» سنة ١٩١٩، ولدى حديثه عن الأعراق والسلالات ونقاوتها، وبعد إقراره بأن النقاء العرقي لا يوجد أصلا بين الشعوب، توصل ــ ومن دون برهان ــ الى ان «اليهود ــ نسبيا ــ هم من دون ادنى شك العرق الأكثر نقاء بين الشعوب المتحضرة... لهم ماضٍ معلوم، وطباع متميزة، وعقلية خاصة.»(٥)

وليس بحثنا في العلوم الاجتماعية او النفسية لتناول هذه الأقوال بالتشريح. لكن يعنينا ان نقول ان منطلقات سوكولوف لم تزل هي المنطلقات الاستعلائية نفسها، وذلك على الرغم من وفرة العديد من النظريات المتشابهة، وأحيانا المتباينة في الفكر الصهيوني المعاصر. وقد علّق الكاتب الفلسطيني إميل توما على نظرية الشعب الفريد في إثر اجتماع المجلس الصهيوني العام في القدس (شباط/فبراير ١٩٧٠) للإعداد للمؤتمر الصهيوني العالمي الثامن والعشرين بما يلي:

> لن يتغيّر في السبعينات رؤيا الصهيونية العالمية وستحتفظ بكثير من منطلقاتها الجوهرية.
>
> تصر الصهيونية على اعتبار اليهود شعبا عالميا واحدا وظاهرة فريدة من نوعها لا يمكن تطبيق القوانين الاجتماعية عليها كما لا يمكن قياس الشعب اليهودي بالمقاييس السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تقاس بها الشعوب...
>
> وانطلاقا من هذا التوجه الاستعلائي يرفض مردخايَ بار ــ أون (رئيس دائرة الشباب الطلائعي في الوكالة اليهودية) حتى الزعم بأن الصهيونية هي حركة التحرر القومي لليهود.. ويقول: اصطلاحات «الأمة» و«القومية» غريبة عن التقليد اليهودي. فالظاهرة اليهودية هي أكثر تعقيدا، وفريدة أكثر من ان تحدّد بكلمات مثل «الأمة» و«القومية».(٦)

فإنْ يكن مردخاي بار ــ أون، ومن يتكلم باسمهم، يقولون بعد أكثر من عشرين عاما على قيام «اسرائيل» ان «الأمة» و«القومية» مصطلحان غريبان عن التقليد اليهودي، فهم انفسهم يطرحون السؤال الأكبر، وهم لا يدرون: فلماذا قامت «اسرائيل» إذاً، إنْ لم يكن لجمع اليهود من الشتات، وبناء «امة»؟

(٥) Nahum Sokolow, *History of Zionism. 1600-1918.* Selected and arranged by Israel Solomons (London: Longmans, Green, 1919), Vol. I, p. 189

(٦) إميل توما، «الصهيونية المعاصرة: دراسات» (عكا منشورات الأسوار، ١٩٨٢)، ص ٤٧.

ثانيا: أوروبا والصهيونية

نشأت الصهيونية ونمت في أوروبا لا في فلسطين؛ وهذه احدى الحقائق التاريخية التي لا جدال في شأنها.

وليس القصد من وراء هذا البند شرح الأحداث العامة في أوروبا، والتي كان لها الأثر الأكبر في ميلاد الصهيونية السياسية فكرةً في منتصف القرن التاسع عشر، وانطلاقتها برنامجا سياسيا في آخره فالقصد هو الاشارة المجملة ــ كما سيأتي تفصيليا في الفصول التالية ــ الى ان الدور الأوروبي في خلق الصهيونية كان أكبر كثيرا مما يظهر لنا عبر الكتابات الصهيونية؛ فهذه الكتابات تظهر ان الصهيونية حركة إرادية ذاتية، وأنها استمرارية طبيعية للمشاعر اليهودية التي رافقت اليهود أينما رحلوا وحلّوا، ولا سيما نحو ارض الأجداد. وقد تبلورت هذه المشاعر تبلورا شبه فجائي على يد هيرتسل «النبي الأخير»، في حركة سياسية.

لا جدال في ان هيرتسل هو مؤسس الحركة الصهيونية، ولا جدال في ان أوروبا هي مهد الحركة الصهيونية؛ إنما الجدال هو في شأن الدور الذي قامت أوروبا به. ذلك بأن أوروبا لم تكن مجرد المهد الذي ولدت الصهيونية فيه جغرافيا وتاريخيا، إنما كانت المهد الذي لـولاه لما كان للحركة الصهيونية ان توجد. وبمعنى آخر، فالصهيونية لم تكن مجرد حركة ذاتية عبقرية عصامية، من حقها ان تبحث عن حلفاء لها يساندونها ــ وهذه هي الصورة التي رافقت سيرة هيرتسل ــ وإنما كانت حركة من نوع ردات الفعل؛ فهي رد على معاداة السامية، وهي رد على الاضطهاد، وهي ــ في الوقت نفسه ــ استجابة للمطامـع الاستعمارية في هذا المشرق، وهي استغلال للمشاعر الدينية لدى البسطاء والمعذبين من اليهود.

في مطلـع القرن التاسـع عشر، كان عدد اليهود يقدر بمليونين ونصف المليون، يسكن تسعون في المائة منهم أوروبا وحدها.(٧) ومن هنا كانت معالم التغيير، وفي اي اتجاه سارت، في المجتمعات اليهودية الأوروبية، تعني بالتالي ــ وبصورة جذرية ــ مصير اليهودية واليهود في العالم.

في العصور الوسطى، عانى اليهود اضطهادا دينيا متواصلا بسبب اتهام المسيحيين لهم بصلب السيد المسيح وكان الحدث الأبرز في تاريخ الاضطهاد الديني ما جرى في محاكم التفتيش الكاثوليكية في إسبانيا، وما نجم عنه من طرد اليهود مرتين: سنة ١٤٩٢، وسنة ١٤٩٦. ومن هنا،

(٧) Laqueur, *op.cit.*, p. 4.

تبدأ المرحلة الأولى من المسألة اليهودية التي تعتبر مقدمة للصهيونية السياسية فيما بعد.(٨)

مع عصر النهضة وانتشار المبادىء الانسانية، وخصوصا في القرن الثامن عشر، اخذ الكابوس ينحسر بالتدريج، وجاءت الثورة الفرنسية تمنح اليهود وجميع المواطنين المساواة القانونية؛ وهي المساواة الحقة التي لم تكن لتسمح بحرمان اليهود من اي حق كان، اسوة بالفرنسيين.

ومن فرنسا الى أقطار اوروبية اخرى، كلما تشعبت مسيرة المساواة وتطورت تحطمت جدران الغيتو، الحقيقية منها والنفسية، واندمج الكثير من اليهود في المجتمعات الأوروبية من حولهم. وهكذا، إنْ أمكن القول باختصار ان الرأسمالية والثورة الصناعية كانتا قد فتحتا أبواب الغيتو اقتصاديا، فقد جاءت الثورة الفرنسية لتفتح الأبواب سياسيا وقانونيا.(٩)

هناك بين اليهود مَنْ رفض الخروج من الغيتو، إنْ لم يكن عمليا فنفسيا، على الأقل، وكذلك اجتماعيا. وقد وجد هؤلاء في الغيتو مصدر حماية لهم وليهوديتهم. وهناك بين اليهود من أخذوا يندمجون في المجتمعات الأوروبية ويقلدونها بحثا عن حل نهائي يفضي بهم الى تصنيفهم مواطنين متساوين مع الآخرين قانونا ومعيشة، وخصوصا ان المساواة الاجتماعية لا تفرض أصلا بالقانون وحده، بل هي نتيجة لعملية بطيئة التطور، كثيرة العقبات وفي هذه المرحلة، الممتدة من الثورة الفرنسية حتى المؤتمر الصهيوني الأول، اي مسافة قرن من الزمن، كانت أوروبا هي الأخرى تعمل لمستقبل اليهود وتخطط له.

رفض فريق من الأوروبيين التيار التحرري اليهودي، كما رفض بشكل أكثر عنفا اعتبار اليهود مواطنين متساوين معه كل المساواة؛ وهذا ما ادى الى انتشار الموجات المعادية للسامية، فساهم هذا الفريق ــ وهو يدري او لا يدري ــ في إيجاد الصهيونية السياسية بمرور الزمن.

واعتقد فريق آخر من المسيحيين الأوروبيين المؤمنين ان من واجبه مساعدة اليهود في العودة الى ارض الميعاد انتظارا لقدوم المسيح.(١٠)

أما الدور الأوروبي الفعلي، فيظهر بعد النداءات الدينية التي صدرت عن يهودا ألكلعي وكاليشر، وحتى نداءات هس التي لم تستند الى الدعوى الدينية لتجميع اليهود؛ فهذه النداءات التي مرت من دون ان تلقى أذنا صاغية بين اليهود انفسهم ــ المتدينين منهم والمتحررين ــ قد لاقت

---

(٨) صبري جريس، «تاريخ الصهيونية: ١٨٦٢ ــ ١٩١٧» (بيروت. مركز الأبحاث ــ منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٧٧)، الجزء الأول، ص ١٣.

(٩) Shoshanna Harris Sankowsky, *A Short History of Zionism* (New York: Bloch Publishing Company, 1947), p. 20.

(١٠) *Ibid.*, pp 21-22.

إصغاء في أوروبا المسيحية، أوروبا التي كانت تخطط لتقسيم الامبراطورية العثمانية؛ فقد وجد الأوروبيون في اليهود سندا ودعما لهم.

وهكذا، اخذ المبشرون البروتستانت يبذلون جهودهم لتنصير اليهود وتبني المشاريع الخيرية. فتكاثرت بالتدريج المشاريع من أجل فلسطين، وكثر المستشرقون، وتوافدت جمعيات البحث عن الآثار، وقد نما ذلك كله وتشعب تحت ستار الدين. وعمل المسيحيون الأوروبيون مرحلة طويلة، لم يتمكنوا خلالها من جذب الكثيرين من اليهود. ثم كان لهم ما أرادوا في الثمانينات، إذ لولا الموجات المعادية للسامية التي تعرض اليهود لها، وتحديدا منذ سنة ١٨٨١، لما مدّ اليهود يدهم ــ بصورة فعالة ــ الى الرواد من الأوروبيين في اتجاه فلسطين.(١١)

وفي الثمانينات، أيضا، ساهمت الأوضاع السياسية الدولية في انتشار المفهوم الشائع بأن الأراضي غير الأوروبية كلها هي أراض مرشحة للاستعمار، وخصوصا ان تونس قد احتلت سنة ١٨٨١، ومصر سنة ١٨٨٢. كما ظهرت بوادر الانهيار، من أطراف الدولة العثمانية الى عاصمتها؛ إذ لم يكد السلطان عبد الحميد يصدر الدستور سنة ١٨٧٦ حتى اقدم على إلغائه بعد عام، وعادت الدولة ترزح تحت الدَّيْن العام والاستبداد، بينما الأطماع تحيط بها من كل من روسيا وأوروبا.

في هذه المرحلة بالذات، وفي إثر المذابح القيصرية ضد اليهود في روسيا، ابتدأت الهجرة الجماعية الأولى الى فلسطين، وهي الهجرة التي كانت الشعارات الدينية عنوانا لها، والفقر والاضطهاد من مبرراتها. أما الصهيونية السياسية، فهي التي جاءت بعد هذا كله تقدم مشروعها، مشروعا صهيونيا «علمانيا»، على أكتاف المؤمنين البسطاء والفقراء من اليهود؛ وأما الدور الأوروبي في قيام الصهيونية، فسنعود الى معالجته بتفصيل أكثر، في البند الأخير من الفصل التالي.

ثالثا: الغيتو والاضطهاد

أُطلقت كلمة غيتو منذ القرن السادس عشر على الأحياء اليهودية في المدن، حيث كان اليهود يمنعون من الاختلاط بسائر السكان، وتفرض عليهم قوانين خاصة بهم. وإنْ تكن الكلمة اليوم قد باتت تستعمل لكل أقلية تُفْرَض عليها الإقامة في منطقة محددة، إلاّ أنها بقيت ملازمة لتاريخ الاضطهاد الأوروبي لليهود.

---

(١١) Maxime Rodinson, *Cult, Ghetto, and State: The Persistence of the Jewish Question*. Translated by Jon Rotschild (London: Al Saqi Books, 1983), p 143.

عاش اليهود داخل الغيتو أحرارا في عاداتهم وطقوسهم، لكنهم مُنعوا من الانتشار خارجا، كما فرض عليهم ـ حين خروجهم للضرورة ـ وضع شارات صفر لتمييزهم. وقد شهدت مدينة البندقية سنة ١٥١٦ إنشاء أول غيتو،[١٢] ثم كان انتشاره في إيطاليا وغيرها من دول أوروبا بحجّة درء خطر اليهود عن السكان المسيحيين من ناحية، وحماية اليهود انفسهم من غير اليهود من ناحية اخرى؛ وكذلك كان للتجار والنقابات الحرفية دور في عزل اليهود بهدف الحدّ من التغلغل الاقتصادي اليهودي.

وفي القرن التاسع عشر، ومع احتلال فرنسا لايطاليا سنة ١٨٧٠، قضي على نظام الغيتو في أوروبا نهائيا، لكن باستثناء روسيا، إذ استمر الغيتو فيها حتى قضت الثورة الاشتراكية عليه سنة ١٩١٧.[١٣]

ممّا ورد أعلاه، يمكن استنتاج المآسي البشرية التي نجمت عن حياة الغيتو، حتى اصبحت كلمة غيتو مرادفة لكل أنواع الاضطهاد الذي عاناه اليهود؛ وهذا فضلا عن النتائج البعيدة المدى على الصعيدين الفكري والسياسي، والتي خلّفها الغيتو، اذ حوّله الزعماء الصهاينة الى مصنع بشري للطاقة الصهيونية؛ ومن هنا، كان الغيتو حجر الأساس في البرنامج الصهيوني.

بالاضافة الى ذلك، فكثيرا ما فضل اليهود الحياة في عزلة عن الآخرين، باختيارهم، ومن دون إكراه. لذلك، أمكن القول ان الغيتو قد ابتدأ ـ واقعيا ـ قبل القرن السادس عشر، وانه ما انتهى ـ فكريا ونفسيا ـ حتى بعد نيل اليهود حقوقهم السياسية والمدنيّة كاملة في أوروبا كلها.

يربط بعض المؤرخين وجود الغيتو بمرحلة انحسار السلطة الكنسيّة نسبيا؛ فالعالم المسيحي الغربي كان دوما يتقبّل وجود الأقليات غير المسيحية، ما دام متمتعا بالأمان. ومثال لذلك، انه في مطلع القرون الوسطى لمّا كانت الكنيسة القوة المحركة للمجتمع، ولمّا كانت المرحلة مرحلة بناء الكنائس، ولمّا كان الحديث المفضّل في الأوساط الراقية والمثقفة يدور حول فلسفة توما الاكويني وروجر بيكون، كان وجود اليهود أمرا مقبولا. لكن، لمّا شرعت المجتمعات المسيحية في التململ من النفوذ الكنسي، طلبا للسلطة وللحرية، بات وجود اليهود أمرا غير مقبول، وخطرا غير محتمل. وهكذا، كلّما انتشر الخوف من بدعة ما، في القرون الوسطى، ارتفع الصوت بطرد

---

(١٢) من المرجّح ان أصل الكلمة «غيتو» يعود الى مسبك للحديد كان في جوار الغيتّو الأول الذي أُنشىء في البندقية. أنظر:

Encyclopaedia Britannica — Micropaedia, Vol. IV, p. 523

(١٣) *Ibid.,* pp. 522-523

اليهـود.[١٤] وقد شهدت أوروبا، منذ بداية الوجود اليهودي على أرضها حتى مطلـع القرن العشرين، اربـع موجات من الطرد والتهجير الجماعيين:

الموجة الأولى رافقت الحروب الصليبية مـع نهاية القرن الحادي عشر ففي حصم الحماسة الدينية التي نتجت من تعبئة المسيحيين للتوجه نحو الشرق واسترداد قبر السيد المسيـح، عادت الى الأذهان الجريمة التاريخية الملقاة على أكتاف اليهود، فكان اضطهادهم بصورة غوغائية «أمرا طبيعيا».

والموجة التانية أُطلق عليها اسم «الموت الأسود»، وقد رافقت تفشي مرض الطاعون في منتصف القرن الرابع عشر وهلاك الكثيرين بسببه.[١٥] ولمّا كان الجهل متفشيا كالطاعون، بل أسوأ، فقد سرت الشائعات بأن الطاعون ليس إلّا بلاء من الساميين (اليهود)؛ فهوجموا بعنف، وأُحرقت بيوتهم، وخصوصا في المدن الألمانية. وهكذا قضي على اليهود قضاء شبه نهائي في حوض الراين، فتوجهوا نحو شرق أوروبا.

والموجة الثالثة جاءت عقب انتهاء الحكم العربي في إسبانيا، ومـع انتشار محاكم التفتيش الكاثوليكية، وكان الانتقام من اليهود بطردهم في أواخر القرن الخامس عشر. ولم تكن اهمية يهود إسبانيا تكمن في عددهم، بل في مكانتهم؛ إذ كانوا من التجار والعلماء والأطباء، مما جعل لهم أثرا في البلاد التي توجهوا اليها، وخصوصا في إيطاليا وشمال افريقيا وهولندا والامبراطورية العثمانية والأراضي الأميركية، وكذلك بريطانيا التي عادوا اليها خفية بسبب القرار الصادر بطردهم منها منذ سنة ١٢٩٠.

أما الموجة الرابعة، فكان مصدرها روسيا؛ إذ نجم عن المذابـح الشهيرة ضد اليهود في إثر مقتل القيصر سنة ١٨٨١، مغادرتهم البلاد بهستيريا جماعية. كما جرت هجرة مشابهة بعد المذابـح التي حدثت نحو سنة ١٩٠٥. ومن ابرز نتائـج الهجرة من روسيا ان اليهود قد توجهوا، في أغلبيتهم، الى الولايات المتحدة، وكذلك الى فلسطين؛[١٦] فكانوا في البلد الأول نواة الجالية اليهودية الضخمة في أميركا، وكانوا في البلد الثاني نواة الصهيونية. وقد عبّر كاتب صهيوني عن فرحه الطاغي بهذه النتائـج، من دون التوقف سوى لحظة إزاء المأساة التي كانت وراءها:

---

(١٤) James Parkes, *A History of the Jewish People* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1962), p. 101

(١٥) ذكر المؤرخون في العصور الوسطى ان عدد الذين هلكوا بسبب الطاعون بلـغ ربـع سكان أوروبا ويعتقد المؤرخون المعاصرون ان هذه النسبة مبالـغ فيها.

(١٦) راجـع:

Jermiah Ben-Jacob, *The Jewish Struggle* (London George Allen & Unwin, 1942), pp 53-59

سنة ١٨٨١! ما اشد هول هذه السنة على الناس الذين عاشوها لكن، ما كان أرحمها وأكرمها من سنة على قدَر اليهود ميلاد الصهيونية، والهجرة الجماعية الى أميركا، ونهاية التحرر [يقصد التحرر من التراث اليهودي]، وبزوغ فجر الاعتماد على الذات ترى؟ كيف يمكن لعالمنا اليهودي اليوم ان يبدو من غير فلسطين؟ ومن غير أميركا؟(١٧)

نشر الكاتب الصهيوني رأيه ــ أعلاه ــ سنة ١٩٤٢ وكي لا نظلمه، نترك رأيه من دون تعليق، ذلك بأننا لا نعرف ــ حقا ــ رأيه في «اسرائيل» بعد قيامها· أهي وطن للحرية؟ ام مهد للثقافة اليهودية، كما كان يحلم بعض رواد الصهيونية؟ ام أنّها الغيتو الأكبر في تاريخ اليهود؟

رابعا: من الاضطهاد الى المساواة

من «الحقائق الملازمة» لتاريخ اليهود في أوروبا ان سيف الاضطهاد لازمهم أينما حلوا او ارتحلوا؛ فمن انغلاق ضمن أسوار الغيتو، الى طرد جماعي، الى أمثلة لا تحصى لمعاداة السامية، كلها عناوين وقضايا امتلأت رفوف المكتبات عن الصهيونية بها، إلّا أنها خلت في معظمها من الحديث بموضوعية عن حقيقة هذا الاضطهاد وأبعاده: ألم تكن هناك عهود أمان؟ أكانت الدول الأوروبية كلها سواء في اضطهادها لليهود؟ واليهود انفسهم، ماذا فعلوا لرفع نير الاضطهاد هذا؟

كان شبح الاضطهاد الذريعة الكبرى للصهيونية السياسية، كما كان البوّابة الأوروبية التي خرجت منها في اتجاه فلسطين. ولذلك اصبح من هموم الدعاية الصهيوبية التركيز على سيرة الاضطهاد، وتقديم الأمثلة لفشل تحقيق المساواة بين اليهود والأوروبيين؛ ولـذلك، سنعـرض ــ بإيجاز ــ للأوضاع التي عاشها اليهود في أوروبا.

نشير، بداية، الى ان من عادة المؤرخين الغربيين تقسيم الخريطة الأوروبية، في هذا المجال، الى غربية وشرقية نظرا الى الاختلافات التي ادت بتاريخ اليهود الى «اندماج» شبه كلي في الأولى، والى نقيضه في الثانية. والمؤرخون في هذا التقسيم محقون. وهم من عادتهم، أيضا، البدء بسرد أوضاع اليهود في إسبانيا بسبب المأساة الكبرى التي اخرجتهم منها، وبسبب نتائج تلك المأساة. وهم في ذلك، أيضا، محقّون. لكنهم غير محقّين ولا منصفين سرد أوضاع اليهود في إسبانيا الكاثوليكية فقط، وتجاهل أوضاعهم في العهد العربـي الاسلامي. وربما نجا البعض من اتّهامه بالتجاهل المطلق، بسبب جملة عابرة أوردها عن العهد المزدهر الذي عاشه اليهود في ظل الخلافة

(١٧) *Ibid*, p. 59.

الاسلامية، كما فعل جيمس باركس.[١٨] غير ان الموضوعية التي نتوخاها تفرض علينا التوقف أطول أمام ذلك العهد المزدهر و«المجهول» في تاريخ المجتمعات اليهودية في أوروبا.

أ ــ الاندلس: إسبانيا

عاش اليهود في الأندلس حياة آمنة وخلّاقة في الوقت نفسه، فساهموا في مختلف النشاطات العلمية والأدبية، وعملوا في مختلف الميادين وكثيرا ما انتقل اليهود من المقاطعات المسيحية في إسبانيا الى الأندلس الاسلامية، ينشدون حرية الفكر والكتابة.

ولم تكن مساهمتهم الحضارية كمجتمع يهودي منفصل فكريا وفلسفيا، بل على العكس من ذلك؛ فقد درس اليهود الفلسفة العربية وعلم الكلام، وكتبوا باللغة العربية كما كتبوا بلغتهم. لا بل انهم كثيرا ما آثروا الكتابة بالعربية، وخصوصا في الفلسفة والمسائل الدينية بسبب الغنى اللغوي للعربية، وافتقار العبرية ــ آنذاك ــ الى الكثير من المفردات، وعجزها عن ان تكون الوعاء الحضاري المساعد.[١٩] وفي الترجمة، كثيرا ما نقلوا من اليونانية الى العربية، كما نقلوا من العربية الى العبرية. ونقتبس للمؤرخ محمّد عنّان من موسوعته عن تاريخ الأندلس:

> ... عومل اليهود منذ الفتح بمنتهى الرفق والرعاية، وازدهرت أعمالهم التجارية والصناعية، في ظلّ ذلك التسامح الاسلامي المأثور، ووصلوا في قرطبة في ظل الخلافة، الى ذروة النفوذ والرخاء وفي أيام الناصر تولّى احدهم، وهو العلّامة حسداي بن شبروت، الاشراف على الخزانة العامة، وكان قبل ذلك قد حظي برعاية الناصر بخدماته الدبلوماسية، وترجمته لكتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية، من اليونانية الى العربية، وهو الكتاب الذي اهدى قيصر منه نسخة الى الناصر. وفي ظل هذه الرعاية، وفد كثير من العلماء والأدباء اليهود الى قرطبة، أيام الناصر وولده الحكم، وقامت في ظلّ نشاطهم مدرسة قرطبة التلمودية، وغدت مركز الرياسة والتوجيه لهذه البحوث. واستمرت الخلافة الأموية، ومن بعدها حكومات الطوائف على رعاية الأقلية اليهودية وتشجيعها، وكان يهود قرطبة يرتدون الزي العربي، ويتخلقون بالتقاليد والعادات العربية، ويمتازون بثرائهم ومظاهرهم الفخمة.[٢٠]

ومن الأدلة على الأفق الحضاري الواسع الذي شمل الأقليات في عهد خليفة مؤمن عادل

---

(١٨) Parkes, *op cit*, p 90

(١٩) عبد المنعم الحفني، «الموسوعة النقديّة للفلسفة اليهودية» (بيروت: دار المسيرة، ١٩٨٠)، ص ٧.

(٢٠) محمّد عبد الله عنان، «دولة الإسلام في الأندلس: الخلافة الأموية والدولة العامرية»، العصر الأول، القسم الثاني (القاهرة: مكتبة الخانجي، طبعة رابعة مزيدة منقّحة، ١٩٦٩)، ص ٥١٥ ــ ٥١٦
أشار الكاتب الى المصدر الأول الذي استقى منه، وهو:
R. Altamira, *Historia de Espana y de la Civilización Espanola*, Vol 1, pp. 250-255.

كالناصر (٣٠٠ ــ ٣٥٠هـ / ٩١٢ ــ ٩٦١م)، ان حسداي بن شبروت، وهو الوزير في بلاطه، كان يعتزّ بيهوديته، ولا يجد ادنى حرج يضطره الى إخفائها. ولم يكن سرا ان شبروت لمّا علم من سفراء فارس وبيزنطة وجود مملكة يهودية تعرف بمملكة الخزر، سارع الى إرسال كتاب الى خاقان الخزر جوزف، يعلن فيه فرحته بهذا الاكتشاف وردّ عليه الخاقان بعد طول انتظار، راويا له تاريخ بلده، ومؤكدا له انهم يتبعون شريعة موسى.(٢١)

استمر ازدهار الدولة في عهد الحكم بن عبد الرحمن الناصر، المعروف بالحكم المستنصر بالله (٣٥٠ ــ ٣٧٠هـ / ٩٦١ ــ ٩٨٠م)، حتى لقّب عهده بربيع الخلافة الأندلسية. وكان أعظم أعماله إنشاء المكتبة الأموية؛ فكانت بضخامتها وتنوع محتوياتها من أعظم مكتبات القرون الوسطى. وكان الخليفة الحكم نفسه من الفقهاء العلماء، وشغوفا بجمع الكتب من أقطار العالم الاسلامي، وحريصا على اقتناء النسخ الأولى من المؤلفات؛ فكان يرسل الى العلماء المسلمين في كل قطر العطاءات الجزيلة، ليحصل عليها.

كان من الطبيعي في ظل عهد كهذا، ان تنتشر المكتبات الخاصة في البيوت. وكان من اشهر هذه المكتبات في بيوت اليهود: مكتبة يوسف بن اسماعيل ابن نغراله، وزير باديس امير غرناطة؛ ومكتبة الطبيب حسداي بن إسحق، طبيب الحَكَم الخاص،(٢٢) وقد أذِن الحَكَم له في جلب ما شاء من مؤلفات اليهود في المشرق، فعلّم حينئذ يهود الأندلس ما كانوا يجهلونه، وخصوصا فيما يتعلق بمداخل تاريخهم ومواقيت أعيادهم. وهكذا استغنوا عن عناء الاتصال الدائم بيهود بغداد للأخذ عنهم، وابتدأت عندهم نهضة فكرية في علوم الدين والتاريخ.(٢٣)

ترك اليهود في الآثار الطبية والفلسفية والشعرية بصمات واضحة في تراث الأندلس. ويصعب الفصل بين كل ميدان وآخر، لأنه كثيرا ما اشتهر عن الواحد منهم براعته في أكثر من ميدان؛ فالطبيب حسداي بن يوسف، ولقبه ابو الفضل، ورد عنه: «أَحْكَمَ علم لسان العرب وبرع في

---

(٢١) Benjamin L Gordon, *New Judea. Jewish Life in Modern Palestine and Egypt* (Philadelphia: Julius H. Greenstone, 1919), pp. 203-204

روى الملك جوزف في رسالته سنة ٩٥٥، ان بولان كان أول من اعتنق اليهودية من ملوك الخزر (في القرن الثامن)، وأنهم قبائل تسكن على نهر الفولغا، ولهم مملكة قوية تصد الروس عن الوصول الى بحر قزوين، وجميع سكان المملكة من اليهود المحافظين على الشعائر والطقوس اليهودية.

(٢٢) محمّد عنان، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠٤ ــ ٥٠٧.

(٢٣) ابن ابي أصيبعة، «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، شرح وتحقيق نزار رضا (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥)، ص ٤٩٨.

الشعر والهندسة والنجوم والموسيقى والمنطق والعلم الطبيعي والطب وطرائق البحث.»[٢٤] ومن الأسماء البارزة في الطب والمنطق والفلسفة، إسحق بن قسطار، ومُنجم بن الفوّال، ومروان بن جناح.[٢٥]

من فلاسفة اليهود وقضاتهم في الأندلس، كان ابن باقوده. ويعتبر كتابه بالعربية «الهداية الى فرائض القلوب» أول كتاب يبحث في الفلسفة اليهودية الخلقية.[٢٦] ومن شعرائهم وفلاسفتهم موسى بن عزرا،[٢٧] ويهودا هاليفي، واسمه بالعربية يهودا اللاوي ــ وقد كانت فلسفته مناقضة للفلسفة اليونانية.[٢٨] وتقديرا لمكانته الفلسفية، شبهته الأنسيكلوبيديا اليهودية بالفلاسفة العرب؛ فذكرت عنه انه «الغزّالي العبري».[٢٩] أما الشاعر والفيلسوف ابن جبريل، فقد استند في كتابه الرئيسي «ينبوع الحياة»، الذي وضعه بالعربية، الى فلسفة إخوان الصفا. وهو لم يقتبس مباشرة من التوراة والتلمود؛ فيهوديته غير ظاهرة وقد سعى في محاولته لجعل الأحلاق اليهودية أخلاقا عالمية باللجوء الى العقل.[٣٠]

في القرن الثاني عشر، اشتهر موسى ابن ميمون في الطب والفلسفة والدراسات التلمودية وهو من ابرز المفكرين اليهود في العصور الوسطى. ولمّا تغلّب الموحدون على الأندلس، وأصدر الخليفة عبد المؤمن قراره الجائر بنفي النصارى واليهود إلّا من اعتنق الاسلام منهم، تظاهر موسى ابن ميمون بالاسلام، ثم غادر الأندلس الى المغرب فمصر. وهناك، في ظل السلطان صلاح الدين الأيوبي، عاد الى المحاهرة بدينه، فأضحى عميد الجالية اليهودية في القاهرة، كما اضحى الطبيب الخاص لصلاح الدين.[٣١]

---

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٤٩٩.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٤٩٨ ــ ٤٩٩؛ شكيب أرسلان، «الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية» (بيروت منشورات دار مكتبة الحياة، لا تاريخ)، ص ١٦٥.

(٢٦) عبد المعم الحفني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤.

(٢٧) اسمه الكامل ابو هارون موسى بن يعقوب بن عزرا (١٠٥٥ ــ ١١٣٥)، أنظر المصدر نفسه، ص ٣٣.

(٢٨) شرح يهودا هاليفي فلسفته في كتاب بالعربية، ومع الترجمة العبرية له اشتهر باسم «كتاب الحرر»، وفيه يتخيل هاليفي حوارا على ألسنة ملك الحرر الذي اعتنق اليهودية، وفيلسوف على مذهب أرسطو، وحبر يهودي، وراهب مسيحي، وفقيه مسلم أنظر: المصدر نفسه، ص ١٨٧،

Jefim H Schirmann, «Judah ha-Levi,» *Encyclopaedia Britannica — Macropaedia*, Vol. 10, pp 282-284

(٢٩) «Arabic Philosophy — Its Influence on Judaism,» *The Jewish Encyclopedia*, Vol. 2, p 58

(٣٠) عبد المنعم الحفني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧

اسم ابن جبريل كاملا هو سليمان بن حربيل، وشهرته ابو ايوب (أنظر: المصدر نفسه).

(٣١) محمد عبد الله عنّان، «عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس»، العصر الثالث، القسم الثاني (القاهرة:=

ولعل أقل الشعراء اليهود شهرة هم شعراء الموشحات، لكنهم أكثر الفئات دليلا على اندماج اليهود في طبيعة المجتمع العربي الأندلسي، نظرا الى الطابع الشعبي والتراثي العميق في الموشحات. ومن شعراء الموشحات الذين بقيت أسماؤهم: نسيم الاسرائيلي، واسماعيل اليهودي، وأبراهام ابن سهل، وموسى بن صموئيل (٣٢)

وحتى القرن الثالث عشر، استمر اليهود في ممارسة حياة علمية وروحية، وإنْ تكن لا تقاس بالنسبة الى عهدهم السابق في ظل الخلافة وتغيرت الرياح منذ القرن الرابع عشر، وكان الجديد في إسبانيا المسيحية بالنسبة الى أوروبا، دعوتها اليهود الى إعلان مسيحيتهم وقد قبل الكثيرون منهم ذلك هربا من الموت، البديل الآخر. وفي عهد فرديناند وإيرابلاّ، وقد اعتليا العرش سنة ١٤٧٩، تم إخراج المسلمين نهائيا من شبه جزيرة ايبيريا، وكذلك كانت النهاية المأساوية لليهود، فالملك فرديناند قد اتخذ قراره بأن تكون مملكته كاثوليكية فقط

حصل حكام إسبانيا سنة ١٤٧٨ على بيان رسمي بابوي من البابا سيكْسْتُس الرابع لإنشاء محاكم تفتيش خاصة مستقلة عن سلطة رجال الدين ومحاكمهم التفتيشية، وخاضعة لسلطة التاج مباشرة. وبهذا يكون البابا قد تنازل عن سلطته الدينية التاريخية، معززا صلاحية حكام إسبانيا في ملاحقة المسيحيين الجدد، اي المتنصرين من المسلمين واليهود. وهكذا انتشرت محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال، وأضحت مثلا في التاريخ لوسائل التعذيب الجهنمية، ثم كانت عملية الطرد الجماعي من إسبانيا سنة ١٤٩٢، ومن البرتغال سنة ١٤٩٦. (٣٣)

ب ـ أوروبا الشرقية

بينما كانت أوروبا تشهد تقلّص الوجود الأكبر والأهم لليهود على أرضها، اي في إسبانيا، كانت تشهد تكاثر الوجود اليهودي ونموّه في أوروبا الشرقية، وخصوصا في بولونيا، وقد انتقل اليها مركز الثقل بالتدريج حتى باتت وارسو، في أواخر القرن الماضي، تضم أكبر تجمع يهودي بين المدن الأوروبية، إذ بلغ عددهم ٢٢٠,٠٠٠ نسمة. (٣٤)

= مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤)، ص ٧٢٣ ـ ٧٢٤
اسم ابن ميمون كاملا هو ابو عمران موسى ابن ميمون ابن عبد الله القرطبي الأندلسي الاسرائيلي، واسمه اليهودي موشي بن ميمون (أنظر المصدر نفسه)

(٣٢) «Arabic Poetry,» *The Jewish Encyclopedia*, Vol 2, pp. 59-60.

(٣٣) Parkes, *op.cit.*, pp 91-93

(٣٤) Laqueur, *op cit* , p. 57.

عندما اضطر اليهود الى مغادرة الأراضي الألمانية في منتصف القرن الرابع عشر، بسبب اتهامهم بتفشي الطاعون، توجهوا نحو شرق أوروبا، الى بولونيا؛ وقد كانت بلدا شاسعا، وبحاجة ماسّة الى المهاجرين الجدد، وخصوصا بسبب الدمار الذي لحق بها من الغزو المنغولي الأخير، وبسبب أوضاعها الاجتماعية والطبقية؛ فسكانها: أغلبية ساحقة في فقر شديد، وأقلية ثرية حاكمة. فكانت النتيجة الطبيعية ان احتلّ اليهود مكانة الطبقة الوسطى شبه المفقودة، كما تمكنوا من ممارسة حياتهم الخاصة وعاداتهم بشيء من الاستقلالية.(٣٥) وقد سمح لهم بإنشاء مجلس خاص يتمتع بصلاحيات قضائية وثقافية ومالية، ومنها جمع الضرائب لمصلحة اليهود.(٣٦)

ونتيجة العزلة التي عاشوا فيها في بولونيا، أصبحوا يستعملون لغة خاصة بهم لا يفهمها البولونيون، وهي لغة اليديش.(٣٧) كما اصبحت وارسو مركز الثقل في الحياة اليهودية، لا من حيث العدد فقط، وإنما أيضا من حيث نمط الحياة اليهودية التي تمكنوا من المحافظة عليها وعلى تقاليدها المتوارثة. لكن، عندما قسّمت بولونيا سنة ١٧٩٥، واضطر اليهود في معظمهم الى الخضوع تلقائيا للحكم الروسي، فضّل الكثيرون منهم الهروب صوب المقاطعات المسيحية الخاضعة للامبراطورية العثمانية، وهي المقاطعات التي اصبحت تعرف فيما بعد برومانيا وهنغاريا.(٣٨)

في روسيا، عانى اليهود الاضطهاد على أكثر من صعيد: دينيا، وعلى الرغم من الاضطهاد النسبي الذي عانوه في بولونيا على يد الرهبان، لاقوا في روسيا اضطهادا اشد، وتعرضوا لملاحقات دائمة للتخلي عن يهوديتهم واعتناق المسيحية، وذلك بأساليب عدوانية. في سنة ١٨٣٦ بدا ان روسيا قد اكتشفت فجأة ان التلمود أساس البلاء، كما أعادت الى الواجهة تهمة اليهود باستعمال دم المسيحي لأغراض شتى. وفي هذه المرحلة فتحت مدارس خاصة لأولاد اليهود، لكن بإدارة مسيحية، هدفها تعميد الطلاب بعد إغرائهم بالإعفاء من الجندية في مقابل ذلك.(٣٩)

على صعيد الاقامة في روسيا، لم يُسمح لليهود بالاقامة إلّا في مدن محددة، منها موسكو وكييف وسان بيترسبورغ وأوديسّا. وقد ضمت الأخيرة أكبر تجمع يهودي بعد وارسو ولمّا كان اليهود يمنعون من التوغل داخل روسيا، فقد سمح لهم بالاقامة ــ فقط ــ في المقاطعات المحاذية للحدود الغربية.

---

(٣٥) Ben-Jacob, *op.cit.*, p 54.

(٣٦) Parkes, *op cit*, p 151.

(٣٧) راجع بشأن لغة اليديش البند خامسا أدناه من هذا الفصل

(٣٨) Parkes, *op cit*, pp 108-111.

(٣٩) *Ibid*, p. 154

وكانت أغلبية اليهود في فقر شديد، أما أغنياؤهم فقد توجهوا الى صناعة السكر والنسيج، والى التجارة بالحبوب والأخشاب.

اختلف القياصرة الروس في معاملتهم لليهود؛ فمن ألكسندر الأول الذي سمح لأولادهم بدخول المدارس العامة، وبالزراعة في المناطق النائية، الى ألكسندر الثاني (١٨٥٥ ــ ١٨٨١) الذي ألغى بعض القوانين الجائرة بحقهم، وأصبح لهم أمل بنوع من المساواة اجتماعيا وسياسيا.

انتهى العهد «الذهبي» النسبي لليهود في روسيا بقتل ألكسندر الثاني، فانتقم منهم ابنه ألكسندر الثالث بسبب اكتشاف فتاة يهودية مع الجماعة التي اغتالت أباه، فأصدر قوانين أيار/مايو الشهيرة و «الموقتة»، إلاّ أنها استمرت حتى نهاية الحكم القيصري؛ ومن هذه القوانين: حرمان اليهود من إقامة اية مستوطنة حتى في المناطق النائية؛ والاستيلاء على بيوتهم لأتفه الأسباب، واضطهاد الشرطة الدائم لهم. وما كان اشد هولا من ذلك كله، هو انتقام الروس البسطاء من اليهود الذين قتلوا القيصر الطيّب؛ فانتشرت أعمال العنف والمذابح ضدّهم مما ادى الى الهجرة الجماعية الكبرى والأولى من روسيا. ولّما توقفت المذابح سنة ١٨٨٤، عادت بعد عشرين عاما في إثر اندلاع الحرب الروسية ــ اليابانية سنة ١٩٠٤. فقد ادّت المجاعة التي سبقت الحرب، والأحوال التي رافقتها، الى موجة ثانية من العنف والقتل ضد اليهود، والى هجرة جماعية كبرى ثانية.[٤٠]

ولّما قامت الثورة الاشتراكية في روسيا سنة ١٩١٧، كانت ابرز شعاراتها تحرير الانسان من العبودية والاستغلال، لا في روسيا وحدها بل في بقاع الأرض. وانتهى عهد الغيتو اليهودي منذ مطلع الثورة.

ج ــ أوروبا الغربية

شهدت أوروبا، في نهاية القرن الثامن عشر، حدثين تاريخيين كبيرين هما: تقسيم بولونيا، والثورة الفرنسية. وقد كان لكل من هذين الحدثين الأثر البارز في حياة اليهود، والمتناقض في الوقت نفسه ــ وفقا لطبيعة الحدث ــ من السلبية الى الايجابية.

نتج من تقسيم بولونيا ان تعرّض اليهود للمزيد من الاضطهاد في أوروبا الشرقية. أما الحدث الأكبر في أوروبا الغربية، وهو قيام الثورة الفرنسية، فقد نجم عنه رفع نير الاضطهاد عن اليهود قانونيا واجتماعيا وسياسيا، وتحقيق المساواة بينهم وبين المواطنين الأوروبيين. وهكذا شكل هذان

---

(٤٠) راجع بشأن أوضاع اليهود في روسيا:

Ibid., pp. 151-169; Laqueur, *op cit.*, pp 56-61.

الحدثان مفترقا رئيسيا في حياة اليهود في أوروبا، فسار اليهود في أوروبا الشرقية نحو التقوقع والانكماش، بينما ساروا في أوروبا الغربية نحو الانفتاح فالاندماج.

منحت فرنسا اليهود حقوقهم المدنية كاملة سنة ١٧٩١، كغيرهم من المواطنين الفرنسيين. ونتيجة إلغائها حواجز الاقطاع والدين، اصبح اربعون ألفا من اليهود يعيشون في فرنسا، أولَ اليهود الذين يتمتعون بالمساواة الكاملة، وفقا لقانون وضعي في أوروبا (باستثناء يهود الأندلس قبلهم).

وفي سنة ١٨٠٧ جمع نابليون بونابرت مجمع السنهدرين،[٤١] أول مرة منذ انحلاله في عهد الرومان. ولم يكن هدف نابليون الرئيسي إحياء الماضي وطقوسه، بل على العكس من ذلك؛ فقد طلب من المجمع تأكيدا لاعتبار حق السلطة الدينية ــ اي سلطتهم ــ حقا لاغيا ومن مخلفات الماضي الذي لن يعود. فاليهود ليس أمامهم إلّا التخلي عن «وطنيّتهم اليهودية المستقلة»، وخصوصا تخليهم عن حلمهم التقليدي باسترداد فلسطين. ووافق السنهدرين على مطالب نابليون، وأعلن المجتمعون ان شريعتهم الربّانية لن تتعدى إطار الطقوس والشعائر الدينية، وبالتالي فان اليهود الفرنسيين لا يؤلفون شعبا، وهم يتخلّون نهائيا عن حلمهم بالهجرة الجماعية الى ارض الأجداد.[٤٢] وفي سنة ١٨٣٠ اقرّت فرنسا المساواة بين الأديان، مساوية بذلك بين الديانة اليهودية والديانة المسيحية.[٤٣]

وشهد القرن التاسع عشر موجات من المد والجزر بالنسبة الى أوضاع اليهود القانونية؛ فبعض الدول التي خضعت لفرنسا عسكريا اضطرت الى منحهم حقوقهم، لكنها عادت فتراجعت عن ذلك. غير ان يهود أوروبا الغربية كانوا، بحلول سنة ١٨٧٤، قد نالوا حقوقهم المدنية كاملة، باستثناء البرتغال التي تحرروا فيها سنة ١٩١٠، وإسبانيا سنة ١٩١٩.[٤٤]

ان إلقاء الضوء على بعض التفاصيل من دولة الى اخرى، يظهر اثر الأوضاع السياسية والدينية والاجتماعية، لهذه الدولة او تلك، في أوضاع اليهود كجزء من المجتمع الأكبر.

---

(٤١) استُحدث تعبير السنهدرين للدلالة على المجلس اليهودي الديني الذي كان يعمل على إصدار القوانين لليهود قديما، وقد انتهى على يد الرومان في فلسطين في القرن الثاني للميلاد.

(٤٢) Howard M. Sachar, *A History of Israel From the Rise of Zionism to Our Time* (New York: Alfred A. Knopf, 1982), pp. 3-4.

(٤٣) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٢٥ ــ ٢٧.

في إيطاليا، وطن مكيافيللي، لم يعد التفكير السياسي منذ أواخر القرن الخامس عشر وقفا على الكنيسة، مما أعطى الجمعيات السياسية المحتلفة قدرا من الحرية. وقد توقع كالفن من اليهود ــ بعد الاصلاحات الدينية ــ ان يعتنقوا المسيحية ولمّا لم يفعلوا انقلب عليهم، ولم يسمح لهم بالعودة الى جنوى، وقد طردوا منها سنة ١٤٩١. ولم يتمتع اليهود بالحرية إلا في عصر النهضة، فشاركوا في كل مناحي الحياة اجتماعيا وثقافيا وفنيا ومد سنة ١٨٥٩، اخذت المدن الايطالية تمحهم المساواة القانونية واحدة بعد الأخرى، حتى منحوا المساواة في البلد كله مع الوحدة الايطالية سنة ١٨٧٠.

وكانت هولندا أول بلد يعامل اليهود بالحسنى، وخصوصا لكونها، في معظمها، بلدا بروتستانتيا منافسا لإسبانيا الكاثوليكية، بالاضافة الى احتوائها أيضا على تيارات دينية متعددة ساهمت في تثبيت الحرية مبدأً للجميع. ففي سنة ١٥٧٩، صدر إعلان من المقاطعات الثائرة بعدم اضطهاد اي كان لمعتقده الديني. كما تم الاتفاق سنة ١٦١٥ على انه يعود الى السلطات المحلية، في كل مقاطعة، ان تقرر قبول اليهود او رفضهم، وارتفع الشعار. «لا غيتو، لا شارة مميزة، والسبت يوم محترم.» ولمّا اخذت هولندا، منذ سنة ١٦٥٧، تعتبر اليهود مواطنين كالهولنديين، كانت تسبق فرنسا بذلك [٤٥]

شعر اليهود، من جهتهم، بالأمان في أمستردام الى الحدّ الذي جعلهم يطلقون عليها «القدس الجديدة»، وكانوا يعتبرون أكثر الجوالي اليهودية ثراء في أوروبا.[٤٦] إلا انهم، من منطلق الحنين نفسه، عادوا فأطلقوا على المدينة الأميركية الكبرى التي توجه نحوها يهود هولندا اسم نيو أمستردام. والأهمية الكبرى للمهاجرين اليهود الهولنديين انهم كانوا أثرياء، وكانوا نواة الجالية اليهودية في نيو أمستردام سنة ١٦٥٤، وهي المدينة التي اصبحت تعرف باسم نيويورك منذ سنة ١٦٦٤.[٤٧] ولمّا انفصلت بلجيكا عن هولندا سنة ١٨٣٠، ابقت على حريات اليهود.

كان اليهود في بريطانيا دوما أقلية، وكانت بريطانيا أول بلد اوروبي يطرد اليهود منذ سنة ١٢٩٠، وآخر بلد يعود الى استقبالهم. وقد عادوا اليها بالتدريج وبالسر، بعد طردهم من إسبانيا والبرتغال، ثم سمحت لهم بالعودة قانونيا في سنة ١٦٥٦. وكانت بريطانيا ــ كهولندا ــ لم يسبق لها ان فرضت يوما قيودا على حريات اليهود الشخصية.[٤٨] وإنْ بدا تطور أوضاع اليهود في بريطانيا

---

(٤٥) بداية، كان مفهوم الحرية الهولندية لليهود إفراديا، بمعنى ان الحرية لم تكن تنتقل الى الأولاد بالإرث.

(٤٦) Parkes, *op cit.*, p. 117

(٤٧) *Ibid.*, p. 105.

(٤٨) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦ ــ ٢٧؛
Ben-Jacob, *op cit*, pp. 55-56.

تطورا بطيئا، فذلك يعود الى عقلية الانكليز المحافظة، والى وجود عدد من الأقليات الأخرى المضطهدة نسبيا، كالروم الكاثوليك مثلا (٤٩)

وكانت ثورة سنة ١٨٤٨ الدموية في أوروبا من أسباب تحرير اليهود في مجموعة من الدول؛ فرُفعت عنهم القيود في النمسا بعد عام من الثورة بموجب الدستور، وقد سبقتها ألمانيا بمنحهم حق الانتخاب للبلديات سنة ١٨١٢. غير ان أوضاعهم استمرت بين مدّ وجزر، الى ان منحوا حقوقهم المدنية كاملة سنة ١٨٧١ مع توحيد ألمانيا. وفي تلك المرحلة أيضا، نالوا حقوقهم في السويد والدانمرك واليونان، وكانت سويسرا آخر المطاف سنة ١٨٧٤. (٥٠)

فالحركة الصهيونية، إذاً، لمّا أعلنت نفسها سنة ١٨٩٧، كان اليهود قد حصلوا على حقوقهم في أوروبا كلها، باستثناء إسبانيا والبرتغال. ولمّا حصلت الحركة على وعد بلفور سنة ١٩١٧، كانت أوروبا لا تفرّق بين يهودي وغير يهودي (وذلك مع استثناء إسبانيا التي لم تمنحهم حقوقهم قبل سنة ١٩١٩).

يظهر من خلال قراءة موضوعية لتطور الأوضاع القانونية والاجتماعية لليهود في أوروبا، انه يجدر التفرقة بين مرحلتين في تاريخ أوروبا: المرحلة الأولى، مرحلة الجهالة والتعصب الأعمى، وهي المرحلة التي لم يكن اليهود وحدهم من ضحاياها؛ فأوروبا كانت في القرون الوسطى تعيش نظاما اجتماعيا طبقيا تعسفيا، تداس في ظلاله كرامة الأكثرية من الشعوب الأوروبية نفسها، فكيف بالأقليات «الغريبة» دينيا او عرقيا. كما أنها قد شنت في هذه المرحلة حروبا صليبية ضد المسلمين لمائتي عام؛ أما المرحلة الثانية، وهي مرحلة ما بعد القرون الوسطى إجمالا، وما بعد الثورة الفرنسية تحديدا، فيمكن استخلاص النقاط الأساسية التالية في شأن أبعاد الاضطهاد الأوروبي لليهود:

١ ـ العلاقة الجدلية بين انحسار الاضطهاد وانتشار مبادىء الحرية والعدالة والمساواة، ثم انحساره نهائيا مع قيام الثورة الاشتراكية.

٢ ـ العلاقات المتشابكة بين الأزمات السياسية والاقتصادية داخل البلد الواحد من جهة، وبين الحقوق المعطاة لليهود او المرفوعة عنهم من جهة اخرى؛ وهذا يؤدي الى إسقاط للمقولة التاريخية بأن اليهود قوم مضطهدون، لا لسبب إلاّ كونهم يهودا، او ساميين.

٣ ـ لم تكن حياة اليهود في أوروبا سلسلة من الاضطهادات المتلاحقة، كما تصورها

---

(٤٩) Parkes, *op.cit*, pp. 138-140.

(٥٠) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦ ـ ٢٧، Parkes, *op cit*, pp. 138, 141

الصهيونية؛ وهي، لو كانت كذلك، لما أمكن لليهود ان تصبح لهم قوة اقتصادية يحسب لها الحساب في خريف الحرب الكبرى.

٤ ــ كانت صفحة اليهود في الأندلس صفحة مناقضة لتاريخهم في أوروبا كلها؛ كانت نموذجا لم يتكرر. وليس ذلك بمقارنتها بالقرون الوسطى فقط، بل بمقارنتها بمرحلة الاندماج اللاحقة التي خاضها اليهود في القرن التاسع عشر.

٥ ــ لم يكن اليهود دوما هم وحدهم المضطهدون؛ فقد شمل الاضطهاد فئات او أقليات اخرى في هذا البلد او ذاك، او في هذه المرحلة او تلك. وإنْ تكن إسبانيا الكاثوليكية المثل الأول لاضطهاد اليهود، فان محاكم التفتيش فيها لم ترحم المسلمين قط.

خامسا: حل المسألة اليهودية: التحرّر او الاندماج

لم تقترن المساواة القانونية بين اليهود والأوروبيين ــ دائما ــ بالمساواة الاجتماعية، والأهم بالمشاعر النفسية والاحترام المتبادل بين الفريقين. فلو طرحنا السؤال: متى تقبّلت أوروبا على الصعيد النفسي، وبارتياح، وجود اليهود؟ وفي المقابل، متى اعتبر اليهود انفسهم ــ وعلى الصعيد النفسي أيضا ــ جزءا من أوروبا؟ لما وجدنا جوابا سهلا. إلّا ان إلقاء الضوء على سياسة الاندماج التي نادى يهود أوروبا الغربية بها يعطي جوابا نسبيا عن السؤال؛ وقد كان الاندماج احد الحلول المطروحة للمسألة اليهودية.

من الاضطهاد الى المساواة التامة فالاندماج كانت، إذاً، رحلة التيه المعاصرة في تاريخ اليهود عبر القارة الأوروبية. والفارق الرئيسي بينها وبين رحلة التيه في سيناء، ان بني اسرائيل في الرحلة الأولى كانوا متفقين على الهدف، وهو الوصول الى ارض اللبن والعسل. أما في الرحلة الثانية، فالهدف غير متفق عليه؛ لا فلسطين متفق عليها، ولا المساواة نفسها هدف متفق عليه. فالغيتو الذي كان نقمة لبعضهم، كان نعمة للبعض الآخر. وفي رحلة التيه هذه، كان التيه الحقيقي، بين حل المسألة اليهودية بالتحرر النسبي من تراث الماضي، اي بالانعتاق، او بالاندماج الكلي في المجتمعات الأوروبية؛ او بالاشتراكية الأممية؛ او بالانغلاق ضمن أسوار الغيتو، «ذريعة يصعب ردّها» للمحافظة على «العصبية اليهودية».

انجذابا مع هذه المحاور، كان اليهود في أوروبا مجتمعات متعددة، ومتفاوتة، وعرضة للرياح

الفكرية والسياسية في كلّ بلد. لكن التفاوت الذي كان له الأثر الأكبر في تقبل اليهود للاندماج او رفضهم له، وبالتالي في حياة اليهود (ماضيا وحاضرا)، هو انقسامهم الذاتي بين يهود شرقيين ويهود غربيين.

أ ــ اليهود السفاراديم واليهود الأشكنازيم

كان لليهود في ظل الحكم العربي الاسلامي في الأندلس الدور الأول بين يهود أوروبا. وقد أصبحوا، بعد حروجهم من إسبانيا الكاثوليكية، يعرفون باليهود السفاراديم ــ وهي من الكلمة العبرية «سفاراد»، وتعني المنافي البعيدة وبمرور الزمن اصبحت الكلمة تعني جميع اليهود من البلاد العربية والاسلامية، بسبب تأثر هؤلاء بالسفاراديم، اي اللاجئين القادمين من إسبانيا، وبسبب وجود الحضارة الاسلامية التي عاشوا جميعهم في ظلالها، وهم يعرفون أيضا باليهود الشرقيين.

أما اليهود الأشكنازيم، المعروفون أيضا باليهود الغربيين، فهم أصلا يهود ألمانيا الذين هاجروا الى بولونيا بأعداد كبيرة هربا من الاضطهاد في منتصف القرن الرابع عشر. وقد اضحت وارسو تضم أكبر التجمعات اليهودية بعد قدومهم، كما اصبحت الاشارة الى هؤلاء باليهود الاشكنازيم ــ وهي كلمة عبرية الأصل؛ فكلمة أشكناز تعني ألمانيا، وهكذا تعني كلمة أشكنازيم ــ أساسا ــ اليهود القادمين من ألمانيا الى بولونيا. إلّا ان الكلمة اصبحت تطلق على جميع اليهود من وسط أوروبا وشرقها، ثمّ على جميع اليهود الغربيين.

تكلم اليهود «الأشكنازيم» لغة اليديش، وهي لغة اليهود الألمان من القرون الوسطى، خالطتها كلمات عبرية وغير عبرية، وقد تطورت في بولونيا وأصبحت تكتب بالطريقة العبرية. وتكلّم اليهود «السفاراديم» لغة لادينو، وهي لغة عبرية قائمة على اللغة الاسبانية؛ وكان من عادات اليهود السفاراديم تعلم لغات البلاد التي يسكنونها. أما الأشكنازيم، فلا. ولقرون طويلة، كانت هناك هوة من انعدام الثقة والاحترام بين الفريقين. ومع موجة التيار الاندماجي في أوروبا الغربية تعمقت الهوة بينهما.(٥١)

(٥١) ما زال انقسام اليهود بين اشكنازيم وسفاراديم قائما حتى اليوم في المجتمع الاسرائيلي، ويسيطر الاشكنازيم ــ بصورة عامة ــ على مقاليد السلطة في البلاد

ب ـ حركة الهاسكالاه

ابتدأ اللقاء الفكري بين الأوروبيين المسيحيين واليهود، أولا، على الصعيد الديني، وخصوصا بعد انتشار المطابع والكتب، واهتمام المسيحيين ـ من كاثوليك وإصلاحيين ـ بدراسة المسألة اليهودية وتاريخ اليهود. وكان جون سبنسر في جامعة كامبردج، أول من اسس علم المقارنة بين الأديان، منذ سنة ١٦٣٠.(٥٢)

وتطور اللقاء الفكري ـ وخصوصا بين المثقفين ـ بانتشار الآراء التحررية في مرحلة انبعاث الثورة الفرنسية، مما جعل اليهودي يشعر بالبون الشاسع والغربة عن ماضيه القديم. وهكذا تلوّنت الموجة الأولى من تيار الاندماج في الحضارة الأوروبية، بالمفاهيم السائدة في مطلع القرن التاسع عشر، وهي المفاهيم التي لم تكن ترتكز قط على القومية او الدين. وبالتالي، فالمزيد من سياسة الاندماج بالنسبة الى اليهودي المتحضّر، بات يعني أيضا المزيد من التحرر الذاتي من قيود الماضي المنغلق، وبالتالي المزيد من التقدم.(٥٣)

وهكذا، ظهرت حركة تحرر في أوروبا الغربية عرفت باسم الهاسكالاه، وارتبطت منذ ظهورها باسم رائدها الأول مندلسون؛ وهي في جوهرها حركة تحررية علمانية. ولمّا كان مندلسون من يهود ألمانيا، وكانت نخبة اليهود الأوروبيين في ألمانيا، وخصوصا في برلين، فقد باتت ألمانيا النموذج في تجربة الهاسكالاه.

لخّص مندلسون (١٧٢٩ ـ ١٧٨٦) ازمة اليهودي في رسالة الى احد أصدقائه: «ليس أمام ولدي ـ كيهوديّ ـ إلّا ان يصبح طبيبا او تاجرا او شحاذا.»(٥٤)

عانى مندلسون في طفولته الفقر والعذاب، ودرس التلمود، كما درس الفلسفة فيما بعد. وكانت بداية أعماله الفكرية ترجمته للتوراة الى الألمانية. وقد اعتبر بعض اليهود عمله هذا خيانة، بينما اعتبره البعض الآخر حركة تحررية.(٥٥)

والجوهر في نهج مندلسون انه لم يدع اليهود الى تشرّب الثقافة العلمانية والاندماج في الحضارة الأوروبية فقط، وإنما دعاهم أيضا الى دراسة ثقافتهم العبرية ولغتهم العبرية. وقام تلامذته بتعليم أبناء اليهود العلوم العصرية والعبرية معا، وبذلك كانوا أول من احيى اللغة العبرية وأخرجها من

---

(٥٢) Parkes, *op.cit*, pp 124-126.

(٥٣) *Encyclopaedia Britannica-Micropaedia*, Vol. IV, p 772.

(٥٤) Laqueur, *op cit.*, p 6.

(٥٥) *Ibid*, p. 8.

طوق رجال الدين ــ الحاخامين ــ وعالمهم الضيق، حيث كانت لغة شبه ميتة.

اعتقد مندلسون ان الغيتو العقلي لليهود لا يقل أثرا عن الغيتو الجغرافي، والتحرر من الغيتو الثاني لا يتم من دون عملية تحرر ذاتية من الغيتو الأول. وما نفى مندلسون يهوديته يوما، غير انه رفض الايمان بما يتناقض منها مع العقل؛ فالايمان عنده قائم على العقل. وهذا ما جعل تلاميذه وأتباعه يجلّونه الى حد انهم أطلقوا عليه اسم «موسى الثالث»؛ فالأول هو النبي موسى، والثاني موسى ابن ميمون (الأندلسي)، والثالث موسى مندلسون (الألماني).(٥٦)

لم تنحصر اهمية مندلسون في كونه فيلسوفا اوكاتبا اوثائرا دينيا. فالأثر الأكبر الذي تركه كان بتجسيده ــ عبر سلوكه وحياته ــ المثل والنموذج لليهودي الأوروبي المتحضر الجديد؛ فهذا ما جعله رائدا لليهود المتحررين اي المنعتقين من التراث البالي؛ وهذا ما جعله مرتدا في رأي آخرين. وفي الحالتين، بقي مندلسون نقطة تحول مهمة في تاريخ يهود أوروبا، ورمزا لليهودية المتحررة.(٥٧)

من التحرر الذاتي من القديم الموروث، الى الاندماج التام في المجتمع الأوروبي، تباينت آراء رواد الهاسكالاه، فَمِنْ تحرر قائم على استيعاب القديم والحديث معا، الى تحرر بعيد المدى قائم على الفصل فصلا نهائيا بين التاريخ اليهودي القديم والحاضر، وعلى اعتبار الماضي عظاما ميتة لا يمكن إحياؤها، مع التوقف نهائيا عن الحلم بالعودة الى أورشليم، وانتظار المسيح.

وكان غبريال ريزر في منتصف القرن التاسع عشر من اشد المدافعين عن التحرر في ألمانيا، وهو الذي قال ان الذي يفضل دولة غير قائمة (اي اسرائيل) على ألمانيا، يجب وضعه تحت حماية الشرطة، لا لخطورة آرائه بل لأنه بكل بساطة مجنون. كما قال «ان الذي يشك في حقي ودعواي بأن ألمانيا ارض أجدادي. . . يحرمني حقي في الوجود، وسأحمي نفسي منه كما احمي نفسي من قاتل.» وكان ريزر صادقا في ولعه الشديد باللغة الألمانية وشعرها وفلسفتها، إذ قال أيضا: «لنا ابٌ واحد في السماء، وأم واحدة على الأرض فالله ابو الكائنات كلها، وألمانيا أمنا الوحيدة على الأرض.»(٥٨) لكن، على الرغم من ألمانيّته، فانه لم يوافق يوما على التخلي عن يهوديته، وكان ضدّ اعتناق اليهود للمسيحية. وقد حرِم بسبب إصراره هذا ممارسة التعليم الجامعي والمحاماة؛ فهذه كانت للمسيحيين فقط. ولمّا لم يكن إلاّ القلة من اليهود الألمان في صلابة ريزر، فقد تحول الكثيرون منهم عن دينهم، وخصوصا في برلين.

---

(٥٦) راجع. عبد المنعم الحفني، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٧ ــ ٢١٩.

(٥٧) Laqueur, *op cit*, pp 7-8

(٥٨) *Ibid.*, pp 8-9

ج ـ اعتناق اليهود للمسيحية

كان من رواد الانعتاق مَنْ نادى الى نهاية الشوط؛ فدعا ديفيد فريدلاندر الى اعتناق جماعي للمسيحية يقوم بهود برلين وعائلاتهم به. وكذلك فعل هاينّي؛ فهو الذي قال: «المعمدانية بطاقة دخول الى الحضارة الأوروبية، ومَنْ دا الـدي يَـدَعُ الشكليات تقف بينه وبين الحضارة الأوروبية »(٥٩)

ونتيجة اعتناق اليهود المسيحية، أفرادا وعائلات، دخلوا مهنا جديدة وآفاقا جديدة. غير ان ازمة الهوية بقيت قائمة؛ إد ان هاينّي نفسه كتب الى صديق له بعد اعتناقه المسيحية وحصوله على وظيفة عالية في بافاريا، يعلن ندمه على ذلك، ويعترف بأنه اصبح مكروها من المسيحيين واليهود معا.(٦٠)

ومن باب الاصلاح الديني وجذب اليهود الشاب الى ممارسة طقوسهم الدينية، أُدخل الأُرغن الى المعابد، كما اصبحت الصلوات تُتلى بالألمانية، وأصبح الحديث بين الحضور للصلاة مسموحا به في فترات الانتظار

كان من ابرز نتائج مرحلتي التحرر الذاتي والاندماج، إقبال اليهود على الدراسة والتعلم، وظهورهم في ميداني العلم والفن. وقد ساهموا في بناء الحضارة الأوروبية الحديثة، لكن لم يكن هناك علمٌ يهودي او فلسفة يهودية؛ كان لهم وجود مميّز محدود في الأدب الحديث. أما ألمانيا، وهي التي ابتدأت على أرضها مرحلة الاندماج، فلم تكن المثل الأعلى لنجاح الاندماج؛ فايطاليا قد ابتدأت عملية الاندماج فيها بعد ألمانيا، لكنها وصلت الى شوط ابعد في ذلك. وفي بريطانيا، سار الاندماج سيرا بطيئا، لكن وصل الى مناحي الحياة كلها بسبب قلة عدد اليهود فيها، مما جعل البريطانيين لا يعانون ــ كالألمان ــ الشعور بعدم الأمان تجاه اليهود؛ هذا، بالاضافة الى ان بريطانيا ــ كدولة كبرى ــ قد رأت في التعدّدية بين رعاياها غنى لحضارتها، فلا خَوْف من الأقليات، بشرط ألّا تتحول الى قوة. وامتازت فرنسا بمكانة خاصة في العلاقة بين اليهود والوطن؛ فقد كان اندماجهم كليا الى الحد الذي جعل الكثيرين منهم يرفضون اخذ حادثة درايفوس على أنها نابعة من موقف فرنسي ضد اليهود.(٦١)

---

(٥٩) *Ibid.*, pp. 9-10.

(٦٠) *Ibid*, p. 13.

(٦١) *Ibid.*, pp. 34-35.

د ــ الاندماج في أوروبا الشرقية

اتخذت مسيرة الاندماج في أوروبا الشرقية دربا مختلفا؛ فاليهود هناك يعيشون بأعداد كبيرة وفي أوضاع سيئة، مما قادهم في النهاية الى تيار «انطوائي» إنْ جاز التعبير. إلّا ان ذلك لا يعني ان موجة الاندماج لم تصل اليهم في الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر. ففي هذه المرحلة الضبابية، كان هناك من اليهود من شارك في المجموعات الثورية الاشتراكية، وكان منهم من سعى للتحرر الذاتي، وحتى للاندماج، وصدرت آراء تدعو الى اعتبار روسيا الوطن الأم الوحيد، والى ضرورة اتباع طريقة الحياة الروسية، واكتساب الروح الروسية. وكما كتب أوسيب رابينوفيتش، وهو رئيس تحرير مجلة يهودية بارزة تصدر بالروسية: «روسيا هي ارض أجدادنا، وهواؤها ولغتها أيضا لنا.»(٦٢) لكن جميع الذين علقوا آمالا على الاندماج عادوا فتراجعوا أمام سياسة ألكسندر الثالث.

دينيا واجتماعيا، حافظ اليهود في روسيا على تقاليدهم جيلا بعد جيل. وقد ساهمت أعدادهم الضخمة التي بلغت ثلاثة ملايين، مع تردي الأوضاع الاقتصادية وظلم القياصرة، في تلاحم لا ينفصم بين مرارة الحاضر وحلاوة الذكريات البعيدة؛ فكانت ممارستهم للطقوس الدينية، وقراءة التلمود، وإحياء ذكرى خراب الهيكل كل عام، تقترن ــ تلقائيا ــ بتجديد الحلم بالعودة لـ «تخليص الأرض المقدسة». وفي هذه المرحلة، ظهر بين اليهود في أوروبا الشرقية أكثر من مسيح دجّال، وكثيرا ما باع البسطاء ما يملكونه من متاع قليل، ووقفوا على الشطآن ينتظرونه للرحيل.(٦٣)

وعلى النقيض من دعوة مندلسون، كانت دعوة سمولنسكين عبر صحيفة «هشاحر» (الفجر) التي أصدرها من فيينا فقد اخذ يهاجم الاندماج الحضاري، ومندلسون بالذات، طارحا فكرة الحضارة اليهودية بديلا منها. وتتلخص دعوته في ان اليهود كانوا شعبا، وما توقفوا عن ان يكونوا كذلك حتى بعد خراب مملكتهم، فقد تحولوا الى «شعب روحي». وجريمة الهاسكالاه، في رأيه، أنها جعلت حب اليهودي لشعبه «موضة قديمة»، بالاضافة الى تحريفها للتراث الديني. أما وطنية سمولنسكين، فقد استوحاها من مصادر روحية، فآمن بأن لا عبرية بلا توراة، ولا توراة بلا شعب يهودي، ولذلك رفض كل حركة دينية إصلاحية كي لا ينقسم اليهود. وبعد ان كان يدعو الى انبعاث قومي في الشتات، اخذ يدعو في مقالاته الى الذهاب الى ارض بني اسرائيل، معترفا بأنه

(٦٢) *Ibid.*, p 36.

(٦٣) Sachar, *op cit*, pp. 5-6.

لم يكن يُنظر اليها من جانب اليهود إلاّ كمقبرة؛ فكان حلم اليهودي بأن يعيش آخر عمره في ارض الأجداد، ويدفن فيها. أما بعد قوانين أيار/مايو، وبطش القيصر، فقد تحولت المقبرة الى الملجأ الأخير.(٦٤)

انضم الى صوت سمولسكين أصوات مسموعة، منها صوت الشاعر يهودا ليب غوردون الذي كان من أنصار الاندماج أولا، ولمّا ارتد عنه اشتهر بقوله: «كن إنسانا في الخارج، ويهوديا في بيتك.» وكذلك فعل ليلينبلوم، الذي ابتدأ حياته منتقدا التلمود ومدافعا عن الاشتراكية. وبعد ان تحول الى قومي متطرف قال: «غرباء نحن، وغرباء سنبقى.» فقد رأى ان زوال الأسباب الدينية التي دعت الى اضطهاد اليهود لا يكفي؛ فالتطور الحضاري القائم على النوازع القومية لن يوقف اضطهادهم. ولذلك رأى ان المشكلة اليهودية لا يحلها المجتمع القومي، كما لا يحلها المجتمع الاشتراكي، حيث سينظر الى اليهود على انهم «رأسماليون»، ولذلك دعا الى وطن في فلسطين. ولمّا لم يكن موضوع فلسطين متفقا عليه بعد، والخوف من السلطان عبد الحميد ورجاله هو الطاغي، فالحوار الدائر بين يهود روسيا وأوروبا الشرقية كان: فلسطين ام اميركا؟(٦٥)

عمل الفكر الصهيوني الهيرتسلي، منذ مؤتمر بازل، على تثبيت صفحة تاريخية، موجزها ان الصهيونية السياسية قد قضت على الحل الاندماجي للمسألة اليهودية نهائيا. فاليهود شعب واحد أينما كانوا، ووطنهم هو فلسطين من دون سواها.

ولو طُرح السؤال مجددا، ايّ الحلول للمسألة اليهودية قد انتصر منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى الربع الأخير من القرن العشرين ــ الذي نحياه ــ لكان الجواب باختصار:

ان نجاح الحلّ الاندماجي الطبيعي وتفوقه على الحل الصهيوني السياسي واضحان. والبرهان على ذلك ان اليهود في أكثريتهم ما زالوا مواطنين أميركيين في أميركا، ومواطنين اوروبيين في أوروبا، مما ادّى ويؤدّي الى هدم الحلم الصهيوني بتجميع يهود العالم في «اسرائيل». وهذا، على افتراض ان يكون «التجميع» قائما على مبادىء الحريات الحقيقية. أما «التجميع» بالأساليب الضاغطة، من دون إعطاء اي وزن لحرية اليهودي (دينا او وراثة) في تقرير مصيره ومكان إقامته وقوميته، كما يجري بالنسبة الى يهود الاتحاد السوفياتي ــ مثلا ــ بعد البيريسترويكا، في عصرنا، فتلك مسألة اخرى.

---

(٦٤) David Patterson, «Perez Smolenskin,» *Encyclopaedia Judaica,* Vol. 15, pp. 7-11; Laqueur, *op cit*, pp 65-67.

(٦٥) Laqueur, *op cit.*, pp 68-69

سادسا: معاداة السامية

أ ـ مفهوم معاداة السامية

حمل عصر التنوير الفرنسي في القرن الثامن عشر موقفا متطورا من اليهود؛ فالفلسفة الثورية الجديدة كانت تهدف الى إقامة الدولة العلمانية، وهي بالتالي عدوة للدولة المسيحية. ولّما كان اليهود ـ تاريخيا ومن ارث القرون الوسطى ـ هم ضحايا السلطة الدينية المسيحية المتسلطة، فقد تحولوا في هذا العصر الى شواهد حية على نتائج تلك العهود المظلمة، وانتشرت الكتابات الداعية الى الحقوق الانسانية الواحدة للجميع، ومن أبرزها كتابات مونتسكيو وليسنغ وروسّو.(٦٦)

وكانت الموجة الاندماجية من ثمار عصر التنوير ومبادىء الحرية والعدالة والمساواة، إلاّ أنّها لم تُفْضِ الى الحل العملي والنهائي للمسألة اليهودية؛ ذلك بأنها قد اخذت في الانحسار مع انتشار الروح القومية في القرن التاسع عشر، وما رافقها من دعوات عرقية. وقد اعتُبِر غوبينو وتشمبرلين ورينان وترايْتشكي في مقدمة الكتّاب الذين مهدوا بدعواتهم العرقية لمعاداة السامية. ومما قاله رينان، الفيلسوف الفرنسي، ان الساميين لم يمتلكوا يوما مفهوم الحضارة كما امتلكه الآريّون. وقد اعتبر ان الأنانية والافتقار الى الشجاعة الذاتية من اهم خصائص اليهودي. أما التضحية بالذات والوطنية، فصفتان لا تمتان اليه بصلة (٦٧) وأما ترايتْشكي، أستاذ التاريخ في جامعة برلين، فقد تناقلت الألسن عنه العبارات المختلفة الداعية الى تحقير اليهود، ومنها «ان اليهود سر بلائنا».(٦٨)

ان هذه النظريات العرقية، وخصوصا الجرمانية منها، نظريات لا يملك اي امرىءٍ ذي ضمير إلاّ إدانتها؛ وإن تكن بحدّ ذاتها ليست سوى حلقة من سلسلة نظريات مشابهة لها عبر التاريخ. وقد كان اليهود انفسهم أول الداعين اليها، بادعائهم انهم شعب الله المختار، وأن الأرض المقدسة لهم وحدهم، ودون سائر البشر.

والأهم من هذه الدعوات، ان انتشار الروح القومية كان سيفا ذا حدّين للمسألة اليهودية؛ فهو يعني إما قبول اليهود بالقومية الأوروبية نهائيا، كما حاول نابليون بونابرت ان يفعل، وإما تمييزهم من سواهم لكونهم يهودا يسعون لقومية خاصة بهم.

---

(٦٦) Paul Weissman, «Anti-Semitism, The Enlightenment,» *Encyclopaedia Judaica*, Vol 3, p 111.

(٦٧) Gotthard Deutsch, «Anti-Semitism,» *The Jewish Encyclopedia*, Vol 1, p. 642

(٦٨) *Ibid*, p 644

تعرّف «معاداة السامية» بأنها عبارة يراد بها التعبير عن العداء لليهود وهي تعود أساسا الى النظرية الاثنية (العرقية) التي اعتبرت ان اليهود، كساميين، يختلفون كليا عن الآريين او الهندو ـ اوروبيين، وبالتالي فهم لا يمكن ان يندمجوا معهم.

وانطلاقا من هذا التعريف، فمعاداة السامية عندما اخذت بالانتشار في أوروبا منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر، لم تكن تتضمن في طبيعتها العداء لليهود بسبب الفوارق الدينية، اي كما كانت الحال قبل عصر التنوير، وإنما بسبب الخصائص العرقية التي ميزتهم من غيرهم، ومن أهمها ـ وعلى سبيل المثال ـ نظرتهم الى المال، وجشعهم، وابتعادهم عن العمل الشاق، وتعصّبهم ليهوديتهم، وضعف وطنيتهم. ثم تشعب استعمال عبارة معاداة السامية حتى اصبحت تعني العداء الموجه ضد اليهودي أينما كان، ولأي سبب كان [٦٩]

وأبعد من ذلك، فقد اصبحت معاداة السامية تعني العداء لليهود عبر العصور كلها، والأزمنة كلها؛ وللمزيد من التعريف، اصبح يضاف اليها كلمة ما، او وصف ما، للدلالة على أسباب العداء؛ فهناك معاداة السامية الاقتصادية مثلا، او الاجتماعية، او العرقية. . . إلخ. [٧٠]

وإذا انطلقنا من اعتبار معاداة السامية ـ كتعبير سياسي وتاريخي ـ عدوانا من قبل «غير اليهود» على «اليهود»، ولأي سبب كان، وهذا هو جوهر التعريف الذي تلاقت حوله المصادر الصهيونية (او اليهودية، لا فارق هنا)، وكذلك معظم المصادر الغربية؛ فهذا التعريف نفسه يحمل في مضمونه عدوانا من نوع آخر، وهو العدوان «اليهودي» على جميع الشعوب السامية التي عرفها التاريخ. وهذا، الى جانب ان الحركة الصهيونية في شرحها لمعاداة السامية ـ ماضيا وحاضرا وحتى مستقبلا ـ لا تدع مجالا لأي قارىء ان يستوعب، او ان يتذكر، وجودا للسامية غير الوجود اليهودي؛ فاليهود وحدهم ساميون.

في تاريخ الحركة الصهيونية المعاصرة، نالت معاداة السامية الجانب الأوفر من هذا التاريخ: فهي أولا سبب رئيسي لولادة هذه الحركة؛ وهي ثانيا سبب رئيسي لاستمرارها. ولّما قامت النازية بعنصريّتها وجرائمها اللاإنسانية تعذيبا وإفناء ضد اليهود وغيرهم، كانت بذلك تقدم النموذج «المثالي»، والمبرر الأول لقيام الدولة اليهودية.

ومنذ العهد الهتلري ومآسيه، انطبعت معاداة السامية في الأذهان ـ أذهان العالم بأسره ـ لا كمجرد ذكرى أليمة، بل كشبح دائم يستحيل التخلص منه. وما زال «اليهود»، وعلى الرغم من

---

(٦٩) *Ibid.*, p 641.

(٧٠) Joseph Heinemann & Joshua Gutman, «Anti-Semitism,» *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 3, p 87.

تجاوز اربعين عاما على تأسيس دولتهم، وعلى الرغم من أحلافهم الدائمة مع القوى الامبريالية العالمية، وسواء أكانت بريطانية بالأمس، ام أميركية اليوم، فهم ما زالوا يتحدثون عن معاداة السامية كأنها خطر مفاجىء محتمل في اية بقعة من الأرض، وفي اية لحظة.

ويتمادى الحكام الاسرائيليون اليوم الى حد اعتبار اي نقد موجه الى السياسة الاسرائيلية، مثلا، عملا معاديا للسامية.

ب ــ معاداة السامية عبر «الأنسيكلوبيديا اليهودية»

تتمادى «الأنسيكلوبيديا اليهودية» الى حد اعتبار العرب انهم المعادون الجدد للسامية؛ فهؤلاء العرب ــ وعلى الرغم من اعتراف الأنسيكلوبيديا بتمييزهم بين اليهودية والصهيونية ــ يعتبرون الصهيونية حركة عنصرية امبريالية، ويدعون الى محاربتها.(٧١)

وهكذا، وبكل بساطة، تتجاهل «الأنسيكلوبيديا اليهودية» كل ما فعلته الحركة الصهيونية واسرائيل من اغتصاب لفلسطين وحقوق شعبها، ومن سلسلة حروب واعتداءات على الأردن ومصر وسوريا ولبنان والعراق وتونس؛ تتجاهل معاداتها هي للسامية كل التجاهل، متهمة العرب، اقدم الشعوب السامية، وهم يدافعون عن ارضهم وحقوقهم، بالمعادين للسامية.

وفي البحث الذي تناولته «الأنسيكلوبيديا اليهودية» عن معاداة السامية عبر ثماني صفحة، مبتدئة بأوضاع اليهود في العصور القديمة قبل الميلاد، ومنتهية الى يومنا هذا بأوضاعهم في الاتحاد السوفياتي وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا، كان الهدف الأساسي واضحا: محاولة إثبات وجود المعاداة للسامية عبر التاريخ، وإثبات المقولة بأن اليهودي مضطهد أينما كان، وفي اي زمان كان.

ومثالا للتناقض الذي وقعت «الانسيكلوبيديا اليهودية» فيه، نشير الى بحثها المتعلق بمعاداة السامية في العصور القديمة. فقد ورد في مطلع البحث ان التحامل على اليهود قد ظهر منذ العصور القديمة في البلاد التي اصبحت فيها بعد جزءا من الامبراطورية الرومانية. إلّا ان الفقرة نفسها تنتهي الى القول ان التحامل لم يكن بنسبة جدية. ولتأكيد انعدام معاداة السامية في تلك المرحلة، تستشهد «الأنسيكلوبيديا اليهودية» نفسها بآراء المؤرخ اليهودي يوسيفوس، وفحواها انه من الحقائق المعروفة ان معاداة السامية لم توجد يومذاك بين اليهود، حتى في منفاهم (اي في بابل).(٧٢)

---

(٧١) Yehoshafat Harkabi, «Anti-Semitism; In Arab Countries,» *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 3, pp 138, 147.

(٧٢) Joseph Heinemann & Joshua Gutman, «Anti-Semitism; In Antiquity,» *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 3, p. 87

وبالنسبة الى عهد داود وسليمان، فـ «الأنسيكلوبيديا اليهودية» تعترف بأن معاداة السامية لم تكن قائمة في تلك المرحلة، وتتجاهل انه لا يجوز ـ منطقيا ـ البحث عن معاداة السامية في عهد داود؛ فداود هو الملك، وهو ملك اليهود، وهو الملك المحارب، وهو الحاكم الذي قضى على شعوب اخرى، ولم يُقْضَ على شعبه في عهده، وهو الذي افنى سكان مدينة صقلـع، المدينة الفلسطينية التي احتضنته «لاجئا سياسيا» وهاربا من قومه اليهود، ومن الملك شاول

لقد وقعت «الأنسيكلوبيديا اليهودية» في هذا التناقض لمجرد سعيها لدمـغ معاداة السامية بتاريـخ اليهود منذ القدم، متجاهلة ان اليهود كـانوا يـومذاك هم الغـزاة للبلاد الكنعـانية. فـ «الأنسيكلوبيديا اليهودية» في نبشها بلا جدوى لمعاداة السامية في عهود الحكام اليهود، أمثال داود وسليمان، إنما تنفي جوهر معاداة السامية، وهي لا تدري؛ فجوهر معاداة السامية قائم على اضطهاد اليهودي من قبل الغير. إلّا ان «الأنسيكلوبيديا اليهودية» قد وصلت الى مبتغاها بإبراز معاداة السامية عبارة ملازمة لتاريخ اليهود في كل زمان ومكان. ولم تكن هذه الموسوعة فريدة في هذا المجال، وما حاولت الوصول اليه عبر عرض تاريخي على الأقل، ورد في موسوعات اخرى كحقائق مسلّم بها لا تقبل الجدل؛ فكان تعريف موسوعة «العلوم الانسانية» لمعاداة السامية مقتضبا وجازما· «مصطلـح معاداة السامية يعني حرفيا كره الساميين. إلا ان المفهوم منه بصورة عامة كره اليهود، وهو مصطلـح وجد أواخر القرن التاسـع عشر لظاهرة قديمة قدم التاريـخ.»(٧٣) وهذا التاريـخ يعود الى عهد الشتات في «أنسيكلوبيديا الصهيونية واسرائيل».(٧٤)

هناك ثلاث نقاط جديرة بالملاحظة من خـلال طرح «الأنسيكلوبيـديا اليهـودية» لمعـاداة السامية: (٧٥)

النقطة الأولى، معالجة معاداة السامية لمعزل تام عن الكوارث والمآسي والعـذابات التي تحل بالشعوب الأخرى، والتجاهل المطلق لشركاء لليهود، في هذا البلد او ذاك، في سوء المصير؛ فاليهود ـ دوما ـ وحدهم مضطهدون.

النقطة الثانية، التجاهل المطلق لمسؤولية اليهود وأدوارهم (باستثناء بعض العموميات)؛ فالتركيز دوما على أخطاء هؤلاء المعادين للسامية وخطاياهم. أما اليهود، فهم وحدهم بلا أخطاء،

(٧٣) Arnold A. Rogov, «Anti-Semitism,» *International Encyclopedia of the Social Sciences,* Vol. 1, p. 345.

(٧٤) E. Mendelsohn, «Anti-Semitism,» *Encyclopedia of Zionism and Israel,* Vol. I, p. 45.

(٧٥) راجع:

Encyclopaedia Judaica, Vol. 3, pp. 79-160.

ولا خطايا. هم وحدهم المضطهدون، لا لشيء إلاّ لأنهم «ساميون».

النقطة الثالثة، تكرار الاستنتاج من قبل الموسوعة نفسها، ان معاداة السامية لم توجد فعلا في هذا العصر، او ذاك البلد، او أنّها لم تكن في تلك المرحلة ــ مثلا ــ لتؤثر حقيقة في حياة اليهود. فانْ يكن استنتاج الموسوعة صحيحا ــ وهو كذلك ــ فلماذا خوض الموضوع إذاً في كل عصر، وفي كل بلد؟ ولا سيّما ان الموضوع الرئيسي هو البحث عن ظواهر معاداة السامية، لا البحث عن انعدام وجودها.

ج ــ تطور معاداة السامية حتى وعد بلفور

كان الصحافي الألماني ولهلم مار أوّل من استعمل تعبير معاداة السامية سنة ١٨٧٩، دلالة على حملات اوروبية متعددة ضد اليهود.[٧٦] وفي ألمانيا، عندما ابتدأ ظهور الأحزاب والمؤسسات ضدّ اليهود، كانت دوافعها مختلفة، من اقتصادية او دينية او عرقية او انتخابية محلية، او من هذه الدوافع مجتمعة. وقد اعتبرت هذه التحركات بداية لمعاداة السامية «الحديثة» (باعتبار ان معاداة السامية في المفهوم الصهيوني شبه أزلية). وقد انطلقت معاداة السامية الحديثة تحديدا بعد حروب ١٨٦٦ و ١٨٧٠ في أوروبا، وخصوصا بعد الهزّة الاقتصادية العامة سنة ١٨٧٣.

وتعتبر ألمانيا والنمسا أول الدول التي مارست معاداة السامية، فسبقت بذلك بولونيا وهنغاريا. كما تعتبر سيرة معاداة السامية في كل من فرنسا من جهة، وروسيا من جهة اخرى، ذات طابع مختلف نسبيا؛ فهي في فرنسا قد تأثرت بواقع الانتماء الديني للفرنسيين، وخصوصا عندما راح الكاثوليك يبحثون عن كبش للفداء، بعد هزيمة فرنسا، فلم يجدوا سوى اليهود الماسونيين، ومنهم انطلقت فكرة الخطة اليهودية للاستيلاء على العالم.[٧٧] أما في روسيا، فقد امتازت معاداتها للسامية بأنها كانت من صنع الحكومة القيصرية نفسها ولمّا كانت ألمانيا المثل الأول لمعاداة السامية في أوروبا الغربية، فسنكتفي بالمثال الألماني.

ظهر في ألمانيا تياران في معاداة السامية السياسية، أحدهما اجتماعي والآخر عرقي. وتألف كل من التيارين من عدة فرقاء؛ فكان هناك في الجمعيات الاصلاحية فريق راديكالي، وآخر محافظ. كما كان في الجماعات العرقية والمحافظة اجنحة راديكالية، وأخرى محافظة جدا؛ وهذا ما دعا الى تواصل الانقسامات، والى تبادل التحالفات في الجماعات المعادية للسامية.

---

(٧٦) «Anti-Semitism,» *The New Standard Jewish Encyclopedia*, 5th ed., p. 121

(٧٧) Jacob Toury, «Anti-Semitic Political Parties and Organizations,» *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 3, p. 85

وكانت قمة معاداة السامية في ألمانيا يوم اجتمع زعماؤها على جمع التواقيع من المواطنين الألمان لإلغاء حقوق اليهود في المساواة معهم. وقد تراوح عدد التواقيع بين المصادر من ٢٢٥,٠٠٠ الى ٣٠٠٠ توقيع؛ إلّا انه لم ينتج ــ حقيقة ــ شيء بارر من هذه العريضة التي قدمت الى بسمارك، باستثناء فشل زعمائها انفسهم في الانتخابات المحلية.(٧٨)

وبصورة عامة، فان الانقسامات المتعددة في المؤسسات المعادية للسامية في ألمانيا قد ادت الى ضعف معاداة السامية وتراجعها حتى الحرب العالمية الأولى.(٧٩)

وقد تراجعت معاداة السامية ــ وخصوصا في أوروبا الغربية ــ في مطلع القرن العشرين. ومن قراءة تفصيلية لظواهر معاداة السامية منذ نهاية القرن الماضي حتى سنة ١٩١٧، نصل الى ما يلي:

ــ كانت المؤسسات المعادية للسامية، في معظمها، ذات عمر قصير، وقد فشلت في الحصول على تأييد جماهيري.

ــ عقدت عدة مؤتمرات معادية للسامية في أوروبا الغربية، لكنها لم تستمر في عملها، ولم ينتج منها شيء يذكر.

ــ كان انحسار الحزبية المعادية للسامية على عتبة الحرب الكبـرى أمرا واضحا، وخصوصا في ألمانيا.

ــ في النمسا، لم تكن معاداة السامية ضد اليهود وحدهم، بل كانت هناك موجة عداء ضد الأقليات عامة.

ــ في أراضي السوديت التشيكية، وبين سكانها الألمان، انطلقت أحزاب جرمانية عرقية ضد التشيكيين، وضد رجال الدين، وضد اليهود أيضا.

ــ التشيكيون، بدورهم، اعتبروا اليهود أصحاب قومية غريبة عنهم؛ فكانوا ضدهم، لكنهم كانوا كذلك ضد الألمان، وضد الروس، وضد البولونيين.

ــ في فرنسا، ارتفعت موجة معاداة السامية سنة ١٨٧١، اي بعد هزيمة فرنسا أمام ألمانيا. غير ان هذه الموجة كانت من نوع الردة على مبادىء الثورة الأم، فكانت ضد التحرر، وضد البرلمانية، وضد السامية.

ــ في رومانيا، كانت معاداة السامية من قبل الحكومة نفسها، وقد حولت بعض الأحزاب

---

(٧٨) *Ibid.*, p. 79.

(٧٩) *Ibid*

اجتماعات البرلمان الى منبر لمعاداة السامية؛ إلّا ان معاداة السامية تلك، كانت موجهة ضد كل الغرباء.

ـــ روسيا، هي المثال الوحيد لمعاداة السامية، وبأبشع مظاهرها. وإنْ لم تشهد ساحتها أكثر من ثلاث جماعات منظمة ضد اليهود، فذاك عائد الى الحكم الروسي الأوتوقراطي الدي كان من الشدة بحيث انه لم يسمح حتى بقيام جماعات معادية للسامية متعددة. إلّا ان التحالف الروسي الذي نشأ في إثر الحرب الروسية ـــ اليابانية، قد استمر حتى الحرب الأولى، ومن نتاجه ان توحد النبلاء سنة ١٩١١ ونادوا بطرد اليهود من البلد كله (٨٠)

ـــ الولايات المتحدة الأميركية، لم يكن فيها من ظواهر معاداة السامية شيءٌ يذكر؛ فاليهود لم يشكلوا ـــ أساسا ـــ خطرا على المجتمع الأميركي في تلك المرحلة، لا عددا ولا قوة.(٨١)

* * *

وهكذا نجد ان «معاداة السامية»، بمعنى «اضطهاد الغير»، قد شملت العديد من البشر غير اليهود. كما نجد انه امر طبيعي حدا ان تتصارع القوى السياسية والاقتصادية في كل بلد. أما ان يستثنى اليهود وحدهم من كل الصراعات، فلا يحاسَبون ولا يُسْألون ولا يُنظر اليهم إلّا كضحايا معاداة السامية، فذاك امر غير طبيعي. ومن هنا، كان تجاهل المصادر العبرية للأسباب المتعلقة باليهود انفسهم، كأوضاعهم الاقتصادية، او انخراطهم في الأحزاب السياسية المتعددة، او طموحاتهم السياسية المحلية، او أهدافهم القومية المتميزة.

وأخيرا، ان الهدف الذي توخيناه، بداية، هو معرفة مدى استفحال معاداة السامية، وفحواه ان معاداة السامية لم تكن ـــ كما تصورها الدعايات الصهيونية ـــ داء عضالا لا يمكن الشفاء منه بغير اقتلاع اليهود من البلاد الأوروبية، وبغير التعويض عليهم بإعطائهم فلسطين، ارض العرب. بل، على العكس من ذلك، ان معاداة السامية منذ سنة ١٨٩٧ حتى سنة ١٩١٧ كانت في اضعف حلقاتها؛ وهذا مؤداه ان اللورد بلفور عندما وعد اليهود بالأرض المقدسة وطنا لهم للمرة الثانية (إذ كانت الأولى هي الوعد الرباني)، كانت قوة اليهود الاقتصادية والذاتية قد بلغت مدى بعيدا ساهم في فرض الوعد لا استجدائه؛ فهذا الوعد كان مصدره قوة اليهود في أوروبا لا ضعفهم.

---

(٨٠) راجع:

Ibid., pp. 79-87.

(٨١) Arthur Hertzberg, «Anti-Semitism, Between East and West,» *Encyclopaedia Judaica*, Vol 3, p 126

الفصل الثاني
عوامل الصهيونية

أولا: دراسة الصهيونية: التناقضات

ليست المشكلة الرئيسية في دراسة الصهيونية هي في الكمّ الهائل من الكتابات بشأنها فحسب، وإنما أيضا في التناقضات الهائلة في هذه الكتابات.

وتظهر التناقضات ــ بداية ــ في تعريف الصهيونية؛ فما من حركة سياسية كثرت في شأنها التعريفات، وتأرجحت بين نعتها بالحركة القومية او بالحركة العنصرية الرجعية، كالحركة الصهيونية.

ويصعب العثور في التاريخ الانساني العام، قديمه وحديثه، على حركة سياسية مماثلة للحركة الصهيونية؛ فالصهيونية لم تكن تتكوّن حين انطلاقتها من مجموعة عوامل متكاملة او ناضجة ــ كما يفترض ــ وإنما تكونت من عوامل سلبية كمعاداة السامية، او من عوامل ذاتية كانت لا تزال في مرحلة الانبعاث او التجديد.

حين عُقد مؤتمر بازل سنة ١٨٩٧، كانت ابرز قضاياه بعث اليهودية في يهود أوروبا الغربية، وتعليم الأغلبية من اليهود لغتهم العبرية. أما القضية الأم، فكانت توجيه أنظار اليهود ومشاعرهم ونفسياتهم نحو فلسطين، وتحويلها عن أميركا، او اي مكان آخر قد يؤمن لهم المستقبل الأفضل.

إذاً، فـ «الأرض» لم تكن متوفرة سنة ١٨٩٧؛ و«الشعب» ــ أصلا ــ لم يكن شعبا موحدا ولا شبه موحّد، وسوكولوف احد كبار المؤرخين اليهود في مطلع القرن العشرين، هو الذي قال: «ان الهدف الحقيقي (للصهيونية) هو إحياء الشعب اليهودي ماديا واقتصاديا وخلقيا»؛[٨٢] و«اللغة» كانت عشرات من اللغات بحكم انتماء اليهود الى عشرات الشعوب والأمم. أما اللغة

(٨٢) Sokolow, *op.cit.*, Vol. I, p. 313

العبرية، اللغة التي يفترض فيها ان تكون اللغة الأم، فلم تكن تخرج عن إطار الصلاة والعبادة. وكانت لغة شبه ميتة، ومحصورة الى الحد الذي طالب معه الكثيرون من اليهود بتعميم لغة الييديش، لأنها اللغة الأكثر انتشارا بين الأغلبية الساحقة من يهود العالم.(٨٣)

فماذا تبقّى من عوامل الوحدة بين اليهود حين قامت الحركة الصهيونية؟

ليس من شك في ان لوحدة التاريخ أهميتها وقدسيتها في نفسيات الشعوب، وكذلك وحدة الآلام، ماضيا وحاضرا. وقد وعت الحركة الصهيونية اهمية هذين العاملين المتوفرين لديها، والى الحد الذي بات معه همها الأكبر الضرب الدائم على وتر معاداة السامية. ولذلك يبدو أنها كانت على استعداد دائم لإثارة معاداة السامية كلما هدأت او انطفأت.

تتجسّد ابرز التناقصات في الحركة الصهيونية في النقاط التالية:

١ ــ لقد جسّدت الحركة الصهيوبية، في اختيارها فلسطين أرضا لها، التناقض الرئيسي الأول في جوهرها؛ فهي حركة انبعاث وتوحيد لليهود، وهي حركة عدوان على شعب فلسطين وإفناء له؛ انها حركة تنادي بالانسانية والحضارة والمثل العليا أمام الأجيال اليهودية، بينما هي في حوهرها حركة لا إنسانية وعنصرية بصورة لا مثيل لها في التاريخ. فما من حركة استعمارية وصلت مع الشعوب المستعمرة، الى ما وصلت اليه الحركة الصهيونية، في فلسفتها وقوانينها، ثم في تعاملها مع الشعب الفلسطيني صاحب الأرض والحق في السيادة.

٢ ــ ولمّا كان على الحركة الصهيونية ان تقيم جسرا بين مشروع دولتها المستقبلية وبين الدولة الاسرائيلية القديمة منذ آلاف السنين، فقد اصطدمت بالتناقض الرئيسي الثاني، وهو التناقض بين المنهج العلمي الخلقي الانساني المتعارف عليه في قراءة التاريخ، اي المنهج الذي يستوعب الحضارات كلها والشعوب كلّها، وبين المنهج العنصري الانتقائي الذي لا بديل لها منه، من أجل ان تقيم الجسر بين ماضيها البعيد وحاضرها. وقد ادّى بها هذا الدرب ــ حكما ــ الى الإغفال الكلّي للمرحلة العربية الاسلامية، وللمرحلة المسيحية قبلها؛ فتاريخ الأرض المقدسة في الفكر الصهيوني يبدأ بالعهد الاسرائيلي القديم، وينتهي باسرائيل صهيونية حديثة، ولا اهمية مطلقا للأصل والبداية في هذا التاريخ، اي للكنعانيين بناة الحضارة الأولى، وللعرب الذين آلت اليهم الحضارات كلها، وكانوا أسياد البلاد وشعبها، سكانا وحضارة، لثلاثة عشر قرنا على الأقل.(٨٤)

٣ ــ وجسّدت الصهيونية في تحالفها مع كبرى الدول الاستعمارية ــ تحالفا لا حياة

(٨٣) Arthur Hertzberg, «Jewish Identity,» *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 10, p 62

(٨٤) راجع بشأن «تجاهل شعب فلسطين»، نهاية البند خامسا ــ الفصل الثاني ــ القسم الرابع.

للصهيوبية من دوبه ــ التناقض الرئيسي الثالث؛ فهي حركة وطنية داتية تحررية على ألسنة بعض روادها، وفي قلوب بسطائها، وهي حركة استعمارية استيطانية في حقيقتها.

٤ ــ يتجسّد التناقض الرئيسي الرابع في الصهيونية بين الديمقراطية التي تدّعيها وبين سياسة التمييز العنصري التي تمارسها، ولو كانت دولة الصهيونية اليوم دولة ديمقراطية حقا، لكان عليها تحقيق المساواة بين جميع مواطنيها، بينما التمييز العنصري هو الأساس في السياسة الصهيونية ــ الاسرائيلية، واللادستورية حالة يجب استمرارها حفاظا على العنصرية. ونقتطف لكاتب اسرائيلي معاصر رأيا في اهمية اللامساواة بالنسبة الى الكيان الصهيوني، إذ يقول يوسف لابيد بوضوح:

> ان الغاية من الدستور هي، بشكل عام، ضمان المساواة والعدل. لن يكون بوسع الدستور الاسرائيلي فعل ذلك سوف يتعيّن على الدستور الاسرائيلي تخليد اللامساواة. عليه ان يضمن ان اسرائيل ستكون دولة يهودية، وطنا لشعب واحد لا لشعبين. سوف ينصّ الدستور على حق كل يهودي في الهجرة الى اسرائيل ان حقا كهذا لن يتاح لأبناء شعوب اخرى سوف ينصّ على حق كل يهودي في حمل السلاح. لن يكون بوسعه منح هذا الحق للعرب. وبطبيعة الحال، لن يحمل الدستور طابع المساواة.(٨٥)

٥ ــ التناقض بين الإطار العلماني الذي تتبناه الحركة الصهيونية، وبين الجذور الدينية والأدوات الدينية التي لولاها لما قامت الصهيونية.

٦ ــ التناقض بين الحضارة الغربية الحديثة، التي يعتبر اليهود الغربيون ــ الاشكنازيم ــ انفسهم رسلا لها في الشرق، كما انهم لا يعتبرون دولتهم إلاّ امتدادا سياسيا وثقافيا للدول الأوروبية وحتى الأميركية، وبين الحضارة الاسرائيلية الشرقية القديمة، والمتوارثة في نفوس اليهود الشرقيين ــ السفاراديم ــ وهم الذين يعتبرون انفسهم اليهود الذين حافظوا على التوراة والتقاليد، ويعتبرون انه لولاهم لما كان هناك لليهودية، وبالتالي للصهيونية، من وجود.

٧ ــ التناقض الدائم بين طريق «القومية اليهودية» وطريق الاندماج في القوميات الأخرى؛ فما زال الصهاينة انفسهم يختلفون حتى اليوم في شأن احد الطريقين، او كليهما، من أجل ديمومة الصهيونية. وهكذا تتناقض الصهيونية اليوم مع ماضيها القريب؛ فهي شنت حين قيامها حربا فكرية ونفسية ضدّ الاندماج، وخصوصا بين اليهود في أوروبا الغربية. فقد كان همّ الصهيونية الأكبر، يومذاك، ومبرر قيامها أصلا، استقطاب اليهود، كل اليهود، حول مشروع دولتها. أما اليوم، فواضح ان الصهيونية تستثمر النقيضين التاريخيين في «المسألة اليهودية».

---

(٨٥) «معاريف»، ١٨ أيلول/سبتمبر ١٩٨٧، كما وردت في. «نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية»، العدد ١٠، تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٧، ص ٧٤٦

٨ ــ وأخيرا، التناقض بين ادعاء الصهيونية أنها تمثل اليهود كلهم في العالم، وبين الحقيقة في كونها ــ وعلى الرغم من قوتها وانتشارها ــ لا تمثل أبدا كل اليهود، وهذا ما جعل للصهيونية شروحات متعددة، وأحزابا متعددة، كما جعل لها أعداء بين اليهود انفسهم.

ان إغفال معظم هذه التناقضات من قبل الكتاب الصهاينة، ومؤيديهم من الكتاب العربيين غير اليهود، لا يلغي حقيقة وجودها بل هناك ما يؤكد وجودها حتى في عقول الكثيرين من الكتاب المعروفين هؤلاء، الذين عالجوا الصهيونية، وهم يحاولون تجاهل تناقضاتها، إلّا ان تجاهلهم هذا قد قادهم الى تحليلات لامنطقية، والى الحد الذي يثير الدهشة. وكنموذج ومثال، نتوقف إزاء موضوع واحد فقط في الكتابات الصهيونية، وهو موضوع الرابطة او الصلة بين اليهود وفلسطين في مرحلة الشتات. فالبوصلة في هذه الكتابات تتوجه بصورة لافتة للنظر نحو:

ــ التضخيم من طبيعة الحنين الروحي والمشاعر الدينية اليهودية نحو فلسطين، الى حد يرشحها او يجعلها بديلا من المشاعر «الوطنية ــ القومية»، وعنوانا لاستمرارية «الدولة ــ الحلم».

ــ الادّعاء ان فلسطين كانت مهملة جدا في العهود العربية الاسلامية، أرضا وسكانا، حتى اصبحت البلاد شبه قاحلة حين قيام الصهيونية، وأما السكان فشراذم لا يُخشى جانبهم.

ــ التركيز على اعتبار وجود بضعة آلاف من اليهود في فلسطين، خلال مرحلة الشتات، صلة ما كان يمكن لها ان تنقطع يوما من عهد داود الى زمن هيرتسل.

نتوقف إزاء هذا الموضوع مع كاتبين فقط: أحدهما الكاتب الصهيوني اسرائيل كوهين الذي كان له تحليل متميز، إذ قال:

> ان الحركة (الصهيونية) تنبع أساسا من حقيقة ان اليهود كانوا يعيشون شعبا واحدا في فلسطين، لكن مع انقطاع قصير يبلغ خمسة عشر قرنا [٨٦]

هناك أولا الخطأ الحسابي في مجموع الخمسة عشر قرنا؛ ذلك بأنه حين قيام الصهيونية سنة ١٨٩٧، كان قد مضى على نهاية المملكة الجنوبية ٢٤٨٣ عاما، وعلى إخماد هدريان لتمرد سمعان باركوخبا (وهو آخر تمرد يهودي في العهد الروماني) ١٧٦٢ عاما. ولم يعد هناك اي وجود سياسي لليهود، لا في صيغة تمرد، ولا في صيغة مطالبة بحكم، حتى سنة ١٨٩٧ حين طالب اليهود من أوروبا بدولة على ارض فلسطين، فكيف بحسب اسرائيل كوهين ان ١٧٦٢ عاما تساوي خمسة عشر

(٨٦) Israel Cohen, *The Zionist Movement* (London: Frederick Muller, 1945), p 15

قرنا؟ وهذا إنْ اعتبرنا تمّرد باركوحبا، بحد ذاته، عنوانا لوجود سياسي ولم نقل ان خمسة وعشرين قرنا هي الفاصل بين نهاية المملكة الجنوبية وقيام الصهيونية.

غير ان الأهم من الخطأ الحسابي الخطأ المنطقي؛ فالكاتب يعتبر «الخمسة عشر قرنا» انقطاعا قصيرا. وقد يكون الرقم كذلك في قياس تطور الكرة الأرضية مثلا، أما في قياس التاريخ الاسرائيلي ففترة الانقطاع هذه تبلغ أكثر من ثلاثة أضعاف حكم الممالك الاسرائيلية القديمة مجتمعة. وأما في قياس نشوء الأمم والدول منذ الميلاد، فهذه الخمسة عشر قرنا ليست فترة، وإنما هي التاريخ كله، من عهد التبشير الى الدول الدينية، الى العصور الوسيطة، الى عصر النهضة، الى عصر الثورة الفرنسية، الى عصر الثورة الصناعية؛ فكيف استطاع اسرائيل كوهين ان يختزل هذه العصور كلها في «فترة قصيرة»؟

وإزاء الموضوع نفسه، نتوقف مع المؤرخ جيمس باركس، وهو الذي يعتبر من كبار المؤرخين غير اليهود في تاريخ الأرض المقدسة؛ قال:

> ان البحث عن جذور الصهيونية لا يكون ـ زمنيا ـ في القرن التاسع عشر، ولا يكون ـ جغرافيا ـ بين يهود روسيا القيصرية؛ ذلك بأن جذور الصهيونية توجد في كل مكان، وفي كل عصر، في تاريخ اليهود فقط، يعود الشكل والأسلوب في التعبير عن الصهيونية الى القرن التاسع عشر والى روسيا أما كلمة الصهيونية، فهي كلمة تعبّر ببساطة عن الحقيقة المركبة في ان كلمة يهود تعني شعبا ودينا معا.[(٨٧)]

ومن هنا، فالقضية كما يراها باركس لم تكن يوما

> قضية يهود يعودون الى ارض غادروها من ألفي عام، فهم كشعب لم يغادروها قط، لا جسديا ولا روحيا. ان بقية اليهود الذين بقوا فيها قد تكون صغيرة جدا، لكن كان يُنظر اليها دائما كدليل على الشعب كله؛ ودائما، كان يجب ان تُدعم هذه البقية من قبل الكل، اي اليهود.[(٨٨)]

لو كان جيمس باركس روائيا لما كان من ضرورة لمناقشة آرائه هذه. أما وهو المؤرخ الكبير فلا يجوز له، أولا، الخلط ببساطة بين الصهيونية واليهودية؛ وثانيا، لا يحق له منطقيا اعتبار استمرار وجود بضعة آلاف من اليهود في فلسطين دليلا على وجود الشعب كله، ودليلا على ديمومة الصهيونية وأبديتها؛ وثالثا، لا يجوز له ان يتجاهل ان الدوافع الدينية وحدها كانت وراء بقاء هؤلاء، وأن يتجاهل انه لولا التسامح الديني من قبل الحكام المسلمين، وعبر العصور، لما بقي من اليهود من

(٨٧) Parkes, *op.cit.*, p. 185

(٨٨) *Ibid.*

بقي في فلسطين، ولما عاد اليها من عاد منهم، هاربا من الاضطهاد حيث كان، ليجد الترحاب والأمان.

ان التناقضات المتعددة في حوهر الصهيونية وتكوينها، تنعكس سلبا وإيجابا على الكتابات في شأنها، كما تنعكس على نظرات الآخرين الى الصهيونية. ويحلّل مكسيم رودنسون، الكاتب الفرنسي اليهودي المعروف، هذه النظرات بقوله:

> بالنسة الى العص، فالصهيونية نتاج لتطلعات قومية دائمة من قبل اليهود كلهم ولهذا السبب بالذات، فهذا البعض يعتبرها شرعية، وتستهدف مصلحة عامة. وهي تمثل، بالنسة الى آخرين، حيانة أساسية لقيم عالمية، سواء أكانت هذه القيم دينية يهودية، ام إنسانية ليبرالية، ام بروليتارية اممية، وهي بالنسبة الى آخرين أيضا (وأحيانا الى الناس انفسهم)، وقبل كل شيء، نتاج حاقد، ناشىء إما عن الجوهر الهدام في اليهود، وإما عن الجوهر الهدام في الرأسمالية الامبريالية.(٨٩)

ثانيا: العوامل الممهّدة للصهيونية

أ ــ تهافت الاستعمار الأوروبي

كان اكتشاف الطريق الى الشرق حول رأس الرجاء الصالح في جنوب افريقيا سنة ١٤٨٨، واكتشاف القارة الأميركية سنة ١٤٩٢، هما الحدثان البارزان وراء توجه الدول الأوروبية، منذ مطلع القرن السادس عشر، الى المزيد من الاكتشافات والاحتلالات، شرقا وغربا. وكان على رأس الدول الاستعمارية، بداية، إسبانيا والبرتغال وإنكلترا وهولندا وفرنسا.

وحتى القرن الثامن عشر، اتسعت مساحة الأراضي المستعمَرة، وكثرت الدول المستعمِرة وقد تصدّرتها بريطانيا. أما ابرز أسباب قوتها فكانت أسطولها الضخم، والثورة الصناعية الأوروبية التي انطلقت منذ منتصف القرن الثامن عشر، والتي كانت بريطانيا مهدها الأول. ولمّا اضحت الثورة الصناعية سببا رئيسيا في التخمة الاقتصادية التي عانت من جرائها الأسواق الأوروبية، ازدادت شراهة الدول المستعمِرة الى البحث عن مستعمرات جديدة، وعن أسواق جديدة.

أما بريطانيا، فهي منذ اصبحت الدولة الاستعمارية الأولى، اخذت تجد في السيطرة التجارية وسيلة أكثر سهولة، تحلّ مكان الاستعمار التقليدي، بوسائله المعروفة من احتلال عسكري وحكم مباشر؛ وهكذا، لمّا هبّت دول أميركا اللاتينية تطالب باستقلالها، هبت بريطانيا تدعم هذه

(٨٩) Rodinson, *op.cit*, p. 138

الاستقلالات وتباركها، لكن لمصلحتها لا لمصلحة الشعوب اللاتينية. فهي عبر تحالفاتها التجارية مع تلك الدول الضعيفة الناشئة، أحكمت نشر أخطبوطها الاستعماري الجديد؛ وهكذا تكون بريطانيا، ومنذ الربع الأول من القرن التاسع عشر، قد نشرت امبراطوريتها التجارية ـ غير الرسمية ـ عبر العالم، بالاضافة الى امبراطوريتها الفعلية الرسمية التي لم تكن الشمس لتغيب عنها.

وبتحرر أميركا اللاتينية، منذ سنة ١٨٢٥، انتهى الوجود الاستعماري في النصف العربي من الكرة الأرضية، وأخذت تتكرّس نظرية تقسيم العالم الى عالم غربي سيد مستقل متطور، وعالم شرقي متأخر ليس أهلا إلّا ليستعمَر. (غير ان تاريخ العالم الحديث قد برهن على تقسيم أكثر واقعية، وهو بين الشمال الأقوى الحاكم، والجنوب الأضعف المحكوم).

وبتحرر أوروبا نفسها من طموح نابليون ونفوذه في القارة الأوروبية، شهد التنافس الاستعماري الأوروبي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، انحسارا بارزا قياسا بما كان عليه في القرن الثامن عشر، حين كان التنافس بين الدول الاستعمارية يؤدي الى الاقتتال. إلّا ان التنافس قد عاد الى اشدّه في السبعينات، وذلك حين دخلت حلبته قوى اوروبية جديدة، أهمها ألمانيا وبلجيكا وإيطاليا. وكذلك دخلت الولايات المتحدة ميدان الاستعمار، كما دخلته أول مرة قوة من الشرق لا من الغرب، وهي اليابان. وشكلت الهجمة الاستعمارية الجديدة، وخصوصا في افريقيا والشرق الأقصى، تحديا لبريطانيا التي كانت منصرفة الى حكم مستعمراتها، وامبراطوريتها التجارية، فعادت هي الأخرى الى حلبة التنافس. وحتى البرتغال وإسبانيا عادتا الى الظهور من جديد في افريقيا.

في القسم الأخير من القرن التاسع عشر، شملت المستعمرات الجديدة معظم القارة الافريقية، وقسما كبيرا من آسيا، وجزرا في الباسيفيك. ويعتبر المثل الافريقي مثالا نموذجيا للجوهر الاستعماري العنصري، القائم على اعتبار الكرة الأرضية كلها ممتلكات شرعية للقوى العظمى؛ وهي القوى الأوروبية أساسا ولذلك، فالعصر الاستعماري هو العصر الأوروبي.

حتى سنة ١٨٨٠، لم يكن قد احتل من افريقيا أكثر من أجزاء قليلة، يقع معظمها على الشواطىء. أما افريقيا الداخلية، فكانت كلها لا تزال حرة مستقلة. إلّا انه خلال عشرين عاما فقط، اي حتى نهاية القرن، كانت افريقيا كلها قد اصبحت مقسّمة ومستعمَرة من أوروبا، باستثناء دول معدودة احتلتها أوروبا في مطلع القرن العشرين.[٩٠] وفي حسابات التاريخ الاستعماري، ان افريقيا قد سقطت كاملة في ثلاثين عاما.

---

(٩٠) الدول الافريقية المستثناة من قيود الاحتلال الأوروبي حتى سنة ١٩٠٠، هي: ليبيريا التي كانت تعتبر خاضعة =

وكان التنافس الاستعماري يزداد فيما يتعلق بالأماكن المهمة؛ ففي شأن منابع نهر النيل تنافس الانكليز والفرنسيون والألمان والبلجيكيون، وآخرهم الطليان؛ وكان حلم بريطانيا ان تسيطر على المواصلات من رأس الرجاء الصالح الى القاهرة، اي عبر القارة من جنوبها الى شمالها. وفي الوقت نفسه، كانت فرنسا تحلم بالسيطرة على المواصلات من شواطىء مستعمراتها حتى الكونغو.[٩١] أما البحر الأبيض المتوسط، فقد كان في العصر الاستعماري (الأوروبي) بحيرة خاصة للقوى العظمى.

وأما الحدث الأكبر بافتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩، فقد فتح مجالا لتنافس شديد في شأن مصر، والشمال الافريقي. وفي المفاوضات الثنائية بين الدول الاستعمارية، كانت البلاد المرشحة للاستعمار يتم استبدالها وتحريكها على الخريطة الاستعمارية، كما يتم تحريك أحجار الشطرنج؛ هكذا انتهى التنافس البريطاني ـ الفرنسي في شأن مصر ـ تفاوضيا ـ بأن تكون مصر لبريطانيا، في مقابل ان تكون تونس لفرنسا؛[٩٢] وهكذا انتهى التنافس الألماني ـ الفرنسي أيضا في شأن مراكش، بأن تكون مراكش لفرنسا، في مقابل اقتطاع جزء مهم من الكونغو الفرنسية لألمانيا.[٩٣] أما ايطاليا التي كانت عينها أيضا على الشاطىء الافريقي المقابل لها، فقد تمت التسوية الأوروبية على إعطائها الضوء الأخضر بالاستيلاء على طرابلس الغرب.[٩٤]

وفي أثناء عملية التقاسم الأوروبي لأفريقيا، كانت تجري في الصين والشرق الأقصى عملية تقاسم اخرى، وخصوصا فيما يتعلق بالنفوذ التجاري. وكانت هذه العملية تتشعب وتتعقد، بسبب تشابك المصالح الأوروبية ـ الأميركية ـ اليابانية.

= لحماية خاصة من قبل الولايات المتحدة الأميركية؛ ليبيا التي احتلتها إيطاليا سنة ١٩١١؛ مراكش التي احتلتها فرنسا سنة ١٩١٢؛ الحبشة التي احتلتها إيطاليا سنة ١٩٣٥

(٩١) René Albrecht-Carrié, «European Diplomacy and Wars: 1815-1914,» *Encyclopaedia Britannica-Macropaedia*, Vol. 6, p. 1112.

أُطلق على المشروع البريطاني: Cape to Cairo Project (*Ibid*).

(٩٢) غزت فرنسا تونس سنة ١٨٨١، وهي كانت قد ابتدأت باحتلال الجزائر منذ سنة ١٨٣٠، وضربت بريطانيا شاطىء الإسكندرية، وأنزلت قواتها في مصر سنة ١٨٨٢.

(٩٣) كانت ألمانيا بين أواخر الدول الأوروبية المستعمِرة في افريقيا، وسرعان ما استولت على أراض شاسعة منذ الثمانينات في القرن التاسع عشر، لكنها خسرت كل مستعمراتها نتيجة الحرب الكبرى وهزيمتها

(٩٤) في إثر الغزو الايطالي لليبيا في خريف سنة ١٩١١، قامت بين القوات العثمانية والايطاليين الغزاة عدة معارك انتهت بتوقيع معاهدة أوشي في خريف سنة ١٩١٢ واحتلال إيطاليا للبلاد، غير انه قامت في وجه الاحتلال مقاومة شعبية عنيفة، قادها المجاهد الكبير الشيخ عمر المختار، ولم يتمكن الايطاليون من إلقاء القبض عليه وإعدامه شنقا حتى سنة ١٩٣١. وينسب الى القائد العام الايطالي غراسياني قوله ان عمر المختار خاض ضدّهم ٢٦٣ معركة في عشرين شهرا، بالاضافة الى المعارك التي جرت قبلها عبر عشرين عاما.

يظهر من خلال هجرة أفواج الأوروبيين في اتجاه المستعمرات، مدى الاندفاع الأوروبي نحو الاستعمارين السياسي والاقتصادي. فخلال مائة عام، منذ سنة ١٨٢٠، غادر أوروبا خمسة وخمسون مليونا من الأوروبيين أوطانهم الأولى، إما لارتباطهم بخدمة حكومات بلادهم وأساطيلها، وإما للقيام بأعمال حرة.(٩٥)

كذلك تظهر ذروة الاستعمار في القرن الماضي عبر مساحة أراضيه ومستعمراته بالنسبة الى مساحة المعمورة، وكذلك عبر مساحة أراضيه المستعمَرة في نهاية القرن التاسع عشر، بالنسبة الى ما كانت عليه في بدايته.

في سنة ١٨٠٠، ادعت أوروبا ملكيتها لما يعادل ٥٥ ٪ من مساحة الكرة الأرضية. وكان المقصود ان تشمل النسبة أوروبا نفسها، وأميركا الشمالية والجنوبية، ومعظم الهند، وأجزاء من آسيا، وأجزاء قليلة من شواطىء افريقيا، إلّا ان قسما كبيرا من هذه الأراضي كان ادعاء بحق الملكية؛ ذلك بأن الحكم الأوروبي الفعلي لم يشمل أكثر من ٣٥ ٪ من المعمورة، بما في ذلك مساحة أوروبا نفسها.

خلال القرن التاسع عشر، إذاً، بات الهمّ الأكبر للدول الاستعمارية تثبيت أقدام استعمارها في المستعمرات القديمة، مع الاستيلاء على مستعمرات جديدة. وادعت أنها حتى سنة ١٨٧٨، كانت قد استولت على مساحة ١٦,٨٠٠,٠٠٠ كلم² جديد. إلّا ان تقوية نفوذها وتثبيت استعمارها، وخصوصا استعمارها للأراضي السابقة، كانا الأهم؛ وهكذا ارتفع الحكم الأوروبي منذ سنة ١٨٠٠ حتى سنة ١٨٧٨ (بما في ذلك المستعمرات السابقة في شمال أميركا وجنوبها) من نسبة ٣٥ ٪ الى نسبة ٦٧ ٪ من مساحة المعمورة.

وامتاز الثلث الأخير من القرن التاسع عشر حتى الحرب الكبرى، بالسرعة في الاستيلاء على المستعمرات وفي اقتسامها، حتى بلغ معدل الأراضي المستعمَرة سنويا، في الثلث الأخير من القرن، ثلاثة أضعاف معدل المساحة المستعمَرة سنويا، خلال الثلثين الأولين من القرن؛ فالمعدّل السنوي الذي كانت تدّعي الدول الاستعمارية ملكيته في الثلثين الأولين بلغ ٢١٠,٠٠٠ كلم². إلّا ان هذا المعدل قد ارتفع في الفترة ١٨٧٠ ــ ١٩١٤ الى معدّل ٦٢٠,٠٠٠ كلم² سنويا.

ومع بداية الحرب الكبرى، كان القسم الأكبر من المساحة الجديدة التي تدعي القوى الاستعمارية ملكيتها، محتلا فعلا في معظمه. وهكذا، ونتيجة التوسع الجديد، وبالاضافة الى المستعمرات السابقة، كانت أراضي القوى الاستعمارية ومستعمراتها، سنة ١٩١٤، تشمل ٨٥ ٪

(٩٥) Harry Magdoff, «Colonialism (c 1450 — c 1970),» *Encyclopaedia Britannica-Macropaedia*, Vol. 4, p. 893.

تقريبا من مساحة المعمورة. أما السيطرة الاقتصادية والسياسية للقوى العظمى، فقد امتدت عبر أنحاء المعمورة كلها.[96]

ان الإطلالة على القرن التاسع عشر، بمنظار اليوم، بمنظار الأمم المتحدة مثلا، حيث اللغة السياسية المتداولة يوميا في قاعاتها وأروقتها، تتناول مبادىء معترفا بها لكل الدول، صغيرها وكبيرها، كحق تقرير المصير، اوحق السيادة الوطنية، او مبدأ إدانة العدوان على أراضي الغير؛ ان إطلالة كهذه تجعل المرء يشعر بفارق قرون عديدة، تفصل بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

مما لا شك فيه ان الثورة الفرنسية قد نشرت مبادىء إنسانية ما زالت حتى اليوم هي المبادىء المثلى، إلّا ان الأثر الفعلي لها حتى القرن التاسع عشر، قد بقي محصورا على الأرض الأوروبية؛ فالمبادىء الانسانية، كالحرية والإخاء والمساواة، لم تكن تشمل واقعيا سوى الانسان الأوروبي، ومن بعده الأميركي. أما ما عداهما، فليس هناك في القاموس البشري للقرن التاسع عشر سوى شعوب وأوطان خلقت لتُستعمَر.

ب ـ صعود القوميات

منذ فجر التاريخ، والانسان يتعلّق بالأرض والقوم والتقاليد والسلطة الحاكمة. إلّا انه، منذ شيوع مبادىء الثورة الفرنسية، اخذت المشاعر الانسانية تجاه الأرض والوطن تتبلور نحو عاطفة مؤثرة وفاعلة في تطوير الحياة العامة والخاصة. وقد عرفت هذه العاطفة بأنها العاطفة القومية. كما عرفت، بين عوامل التاريخ الحديث، بأنها تشكل العامل الأقوى. وقد تمحور المبدأ القومي حول الاعتراف بحق كل قومية في ان تؤلّف دولة، يجتمع على أرضها أبناء القومية الواحدة.

وساهم نابليون بونابرت وجيشه في نشر مبادىء الثورة الفرنسية، والفكرة القومية، لا في أوروبا وحدها وانما في العالم أيضا. ولم يكن نابليون ليعلم ان هجومه على شبه جزيرة إيبيريا المتاخمة لحدوده (إسبانيا والبرتغال) سنة ١٨٠٧، سيتمخض عنه تحرّر أميركا اللاتينية كلها؛ ففي أعوام الحرب، كادت الصلات تنقطع بين كل من إسبانيا والبرتغال وبين مستعمراتها في أميركا اللاتينية، مما ادى بهذه المستعمرات الى استغلال الفرصة السانحة، والقيام بالانتفاضات طلبا للحرية. وبحلول سنة ١٨٢٥، كانت أميركا الجنوبية اللاتينية كلها قد تحررت، وافتتحت بتحررها السجل القومي الحافل في القرن التاسع عشر.

---

(٩٦) *Ibid.*, p 894.

ومرة ثانية، كان نابليون السبب في التطورات القومية، لكن في أوروبا نفسها هذه المرة؛ إذ ان نشر الفكرة القومية قد ألّب عليه الدول الأوروبية الكبرى، فاتحدت ضده وقضت عليه، وبذلك قضت على الطموح الفرنسي الجامح داخل أوروبا. غير ان هذه الدول لم تقض على العقيدة الليبرالية الجديدة التي هبت رياحها منذ الثورة الفرنسية، وهي العقيدة التي عبرت شعارات «الحرية والإخاء والمساواة» عنها، كما أنها لم تقض على الضمير القومي الذي أشعله الإحساس بالظلم؛ فالعقيدة الليبرالية والضمير القومي هما الجمر المتقد في كل الثورات التي جرت في أوروبا في القرن التاسع عشر.

استمرت فرنسا، على الرغم من تقليص دورها ونفوذها منذ مؤتمر فيينا سنة ١٨١٤، المثال الثوري الذي تتطلع نحوه سائر الشعوب الأوروبية. فبعد ثورة سنة ١٨٣٠ في باريس وإنهاء حكم شارل العاشر، عادت الانتفاضات من جديد سنة ١٨٤٨، فابتدأت في باريس ثم انتشرت في أكثر من مكان في القارة الأوروبية؛ فقد قام الليبراليون، في فيينا وبرلين وبراغ وبودابست وميلان، وفي عدة مقاطعات يونانية، بسلسلة انتفاضات طوال سنتي ١٨٤٨ و١٨٤٩، مطالبين بالحكم الدستوري، مما اضطر الكثيرين من الحكام الى إعطاء رعاياهم الدساتير؛ والواقع ان هذه الانتفاضات لم تثمر كثيرا، إلّا ان المشاعر القومية كانت واضحة وراءها.

وشهدت بولونيا عدة انتفاضات من أجل استقلالها، وخصوصا سنة ١٨٦٣؛ فقامت بانتفاضة قوية لم يتمكن الروس من إخضاعها إلا بصعوبة. لكن بولونيا لم تحصد نتيجة انتفاضاتها إلّا مع الحرب الكبرى، حين نالت استقلالها. غير ان الحسّ القومي البولوني كان مثلا يحتذى في أوروبا، ذلك بأن بولونيا التي قسّمت في نهاية القرن الثامن عشر بين ثلاث دول مجاورة، كانت قبل ذلك تتمتع بتاريخ حضاري عريق، مما جعل جمر القومية دائم التوهج فيها.[٩٧]

انطلقت الحرب القومية الأولى في البلقان، من الأراضي اليونانية. وكانت اليونان جزءا من البلقان العثماني، وقد هزّت بثورتها القومية كل القوميات البلقانية الأخرى، سواء تلك التابعة للدولة العثمانية، او تلك التابعة للدولة النمساوية.

خاضت اليونان من أجل استقلالها سلسلة من الحروب مع العثمانيين، ابتدأت سنة ١٨٢١. ولمّا رفض العثمانيون التدخل الدولي، أرسلت بريطانيا وفرنسا وروسيا أساطيلها الى نافارين سنة

(٩٧) قُسِّمت بولونيا ثلاث مرات، في السنوات التالية: ١٧٧٢ و١٧٩٣ و١٧٩٥، وذلك لمصلحة روسيا وبروسيا والنمسا، بالتتابع

١٨٢٧، فحطمت الأسطول المصري الذي كان يقاتل باسم العثمانيين. ثم استمرت الحرب حربا روسية ــ عثمانية، حتى نالت اليونان استقلالها سنة ١٨٢٩

تنحصر اهمية المثل اليوناني في ان اليونان قد فتحت في آن واحد الملفّين الخطرين المتلازمين: أولهما الملف البلقاني الذي كان في يد حكام استانبول وفيينا. فاليونان أول قومية بلقانية تنال استقلالها في البلقان المتعدّد القوميات، والخاضع لملوك اسرة هابسبورغ وسلاطين آل عثمان؛[٩٨] وثانيهما ملف المسألة الشرقية. فباستقلال اليونان انفرطت الحبة الأولى في سبحة المسألة الشرقية، وتكرست عملية وضع اليد من قبل الدول الكبرى على الأراضي العثمانية.[٩٩]

بعد البلقان، كان دور البلاد الواطئة في الثورات القومية. فقد خضعت هذه البلاد لفرنسا منذ سنة ١٧٩٥، وبعد هزيمة نابليون اعيد توحيدها باسم المملكة الهولندية المستقلة.[١٠٠] إلا ان الانتفاضة التي قامت في بروكسل، تكللت بحصول بلجيكا على استقلالها سنة ١٨٣١. وعلى الرغم من الدوافع الدينية، بسبب الأكثرية الكاثوليكية في الجنوب (البلجيكي)، والبروتستانتية في الشمال (الهولندي)، فقد نُظر الى الانتفاضة في بلجيكا على أنها تعبير عن الشعور بالهوية القومية.

وكان المثل الايطالي في الثورة من أجل الوحدة القومية، مثلا بارزا في الأحداث الأوروبية على إمتداد خمسة عقود فبعد قيام الثورة الفرنسية، وزحف نابليون وجيشه، خضعت إيطاليا للحكم الفرنسي (١٧٩٦ ــ ١٨١٤). ثم نتيجة لمقررات مؤتمر فيينا، قُسِّمت إيطاليا بين النمسا وسافوا والبوربون، كما أعطى المؤتمر النمسا اليد العليا في إيطاليا؛ وتنبّه الايطاليون لواقعهم المحكوم، فهبّوا يجمع بينهم وعي عميق على حضارة رومانية عظيمة مشتركة. وطالبت انتفاضاتهم ضد النمساويين، بين سنتي ١٨٢٠ و ١٨٣٠، بالقومية والاصلاحات الدستورية. لكن النمسا تمكنت من إخضاع هذه الانتفاضات. غير ان ظهور قادة أقوياء في إيطاليا دفع بالبلاد نحو وحدتها؛ فالقيادة السياسية، التي توحدت في منتصف القرن التاسع عشر بين ماتزيني وكافور، دعمها التحرك العسكري لغاريبالدي الذي تمكّن من تحرير صقلية ونابولي من حكم اسرة البوربون، وأُنشئت مملكة إيطاليا سنة ١٨٦١ برئاسة إيمانويل الثاني. إلّا ان روما العاصمة، بقيت خارجها حتى سنة ١٨٧٠، حين تمكن الجيش الايطالي من دخولها، وإجبار البابا بيوس التاسع على التراجع ضمن أسوار الفاتيكان.

---

(٩٨) تؤلف البلقان حاليا كلا من الدول التالية: اليونان، وألبانيا، ويوغسلافيا، وبلغاريا، ورومانيا

(٩٩) صدر بروتوكول لندن في ٣ شباط/فبراير ١٨٣٠، يعلن اليونان مملكة مستقلة تحت حماية الدول الكبرى، واضطر السلطان بعد عامين الى الاعتراف باستقلال اليونان.

(١٠٠) تؤلف البلاد المعروفة تاريخيا بالبلاد الواطئة حاليا كلا من الدول التالية: هولندا، وبلجيكا، واللوكسمبورغ

أما المثال الألماني في الوحدة القومية، فهو المثال المرتبط بالزعيم الأوحد، الذي كانت مشكلته الأولى توحيد أبناء قومه انفسهم؛ فمنذ ان اصبح بسمارك رئيسا لوزراء ألمانيا سنة ١٨٦٢، وجّه جهوده كلها من أجل تحقيق الوحدة بين الامارات والمقاطعات الألمانية. ولمّا كان الولاء الألماني يتأرجح بين الأسرتين الحاكمتين، هابسبورغ وهوهنزلرن، فقد اضحى الهدف الأول لبسمارك توجيه الولاء نحو القومية الألمانية الواحدة.

قام بسمارك بالخطوة الأولى حين فصل النمسا عن ألمانيا؛ فهو لم يكن يرى خيرا لألمانيا في وحدتها مع النمسا. ومن أجل ذلك، قاد النمسا الى حرب سنة ١٨٦٦، انتهت بهزيمتها وبفصلها عن ألمانيا.(١٠١) وسعيا وراء إثارة المشاعر القومية من جهة، وضرب فرنسا من جهة اخرى، فقد استدرج بسمارك فرنسا الى الحرب الفرنسية ـ الألمانية الشهيرة (١٨٧٠ ـ ١٨٧١)، وهي الحرب التي ما ان أعلنتها فرنسا حتى هبّت المقاطعات الألمانية الجنوبية، بالدافع القومي الألماني، الى مساعدة بسمارك البروسي الشمالي. وانتهت هذه الحرب بهزيمة فرنسا وتحقيق الوحدة الألمانية، وأصبح ويلهلم الثاني أول ملك لألمانيا الموحدة أما الحاكم القوي بسمارك، فكان أول من لقب بالمستشار، وهو الذي قاد ألمانيا خلال عقدين من الزمن لتصبح قوة كبرى في أوروبا، لها صناعتها المتقدمة، ونفوذها الاستعماري الجديد في افريقيا والصين والباسيفيك، وكذلك لها أسطولها القوي الذي اضحى ينافس الأسطول البريطاني.

مرة ثانية، عاد الملف البلقاني يفتتح في صربيا. وإنْ تكن الانتفاضات في بلاد الصرب قد ابتدأت منذ مطلع القرن التاسع عشر،(١٠٢) إلّا ان صربيا لم تصبح مقاطعة معترفا بها دوليا قبل سنة ١٨٢٩، اي في أعقاب الحرب الروسية ـ التركية. ونتيجة مشاركتها الى جانب روسيا ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨، أُعلنت صربيا مملكة مستقلة سنة ١٨٨٢.(١٠٣)

وثارت في البلقان، أيضا، مقاطعتا مولدافيا ووالاشيا واستمرت الانتفاضات فيهما منذ سنة

---

(١٠١) نادى الاتجاه المحبذ يومذاك للوحدة الألمانية المساوية بـ «ألمانيا الكبرى» (Grossdeutschland)، وهو تعبير يقصد به ألمانيا والنمسا معا؛ ونادى الاتجاه المعاكس بـ «ألمانيا الصغرى» (Kleindeutschland)، ويقصد به ألمانيا وحدها، من دون النمسا. وقد كان بسمارك من أنصار ألمانيا الصغرى.

(١٠٢) قامت الانتفاضات في صربيا أول مرة ١٨٠٤ ـ ١٨١٣، ثم تجددت ثاني مرة ١٨١٥ ـ ١٨١٧.

(١٠٣) فقدت صربيا استقلالها في الحرب الكبرى، وقد قتل من شعبها ٢٣٪ في هذه الحرب، وذلك انتقاما للأرشيدوق ولي عهد النمسا الذي اغتيل وزوجته في ٢٨ حزيران/يونيو ١٩١٤ على يد شاب صربي، وكان اغتياله شرارة الحرب الكبرى وتعتبر صربيا حاليا جزءا من يوغسلافيا

١٨٥٨ حتى سنة ١٨٦٤، حين تحققت وحدة الشعب في هاتين المقاطعتين اللتين أعلنت دولة رومانيا مكانهما. وقد اعترف باستقلالها سنة ١٨٧٨.

وفي منتصف السبعينات، وفي البلقان أيضا، فتح الملف مجددا في البوسنة وبلغاريا مما ادى الى حرب تركية ـ روسية (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨). ولمّا كان الروس هم المنتصرون، فقد أملوا شروطهم على الأتراك، في معاهدة سان ستيفانو سنة ١٨٧٨، وبناء عليها نشأت بلغاريا بحماية روسيّة. إلاّ ان أوروبا خافت من النفوذ الروسي، فهبّت تطالب في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ بحماية دولية مشتركة، وكذلك بتقليص مساحة بلغاريا. ولم يرضَ الروس عن معاهدة برلين، بطبيعة الحال، فتجددت الحروب بعد سبعة أعوام في البلقان، تمكنت بعدها بلغاريا مع روميليا الشرقية من الحصول على اعتراف السلطان باستقلالها.

وفي البلقان النمساوي اعترفت النمسا لهنغاريا بحكم ذاتي، واعتبر هذا الاعتراف بحدّ ذاته دليلا قوميا. أما صيغة الحكم فقامت على أساس فدرالي؛ وهكذا قام اتحاد المملكة النمساوية ـ الهنغارية سنة ١٨٦٧.

ان إلقاء نظرة شاملة على المسلسل القومي في القرن التاسع عشر، لا يترك مجالا للشك في ان هذا العصر هو عصر القوميات؛ والشعوب الأوروبية التي لم تتمكن من نيل استقلالها فيه، تكفلت الحرب الكبرى خاصة بتسوية استقلالاتها.

وبين هذه المفترقات القومية التي تمتلىء مسيرة القرن التاسع عشر بها، ولدت الصهيونية ولادة قيصرية؛ فسارع هيرتسل الى عقد مؤتمر بازل قبل فوات الأوان، مطالبا لشعب لم يجد نفسه بعد، ولم يتوحد بعد، بمكان تحت الشمس، شمس الاستعمار؛ وذلك لأن شرط وجود الشعب اليهودي، من المنظار الصهيوني، رهن بشرط تَمَكُّنِه من استعمار بلد من البلاد.

ج ـ تفاقم المسألة الشرقية

لم يكن المنطق الاستعماري السائد في القرن التاسع عشر بحاجة الى مبررات، كي تنقضّ دولة اوروبية سيّدة على اية بقعة في العالم. غير ان الدولة العثمانية لم تكن مجرد بقعة في العالم؛ فقد كانت ـ يوما ـ الدولة السيدة التي اجتاحت أوروبا ووصلت جيوشها الى مدينة فيينا. وعندما كانت الدولة العثمانية في اوج قوتها، كان العصر الاستعماري الأوروبي لا يزال في البدايات.

إلاّ ان ميزان القوى قد تبدّل كليا في منتصف القرن التاسع عشر للمصلحة الأوروبية. فقد اصبح العصر الاستعماري في اوجه، بينما ضعفت الدولة العثمانية الى الحد الذي أطلق القيصر

الروسي عليها «رجل أوروبا المريض». وبرزت مخالب الدول الكبرى، كل منها تريد حصة في اقتسام تركة الرجل المريض. وسعيا وراء تفكيك الدولة العثمانية كانت أوروبا تساند الحركات القومية، وخصوصا في البلقان حيث ابتدأ التقلص والانسلاخ عن الأراضي العثمانية.

وجذبت فلسطين، بالذات، أنظار الدول الكبرى؛ فهي ارض الديانة المسيحية. وقد سارعت كل الدول الأوروبية والولايات المتحدة الى إنشاء قنصليات لها في القدس ما بين سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٥٤. وكان الموضوع الرئيسي المتداول بين هذه القنصليات، مصير الإرث العثماني.(١٠٤)

وبرز في هذه المرحلة موضوع دولة يهودية في فلسطين على شكل مقترحات اومشاريع من قبل جماعات ومفكرين مسيحيين او يهود. ومما لا شك فيه، ان ضعف الدولة العثمانية قد فتح الباب واسعا أمام العنصريين من المستشرقين والرحالة والبعثات الاستكشافية، كي يساهموا في ترسيخ ادعاءاتهم بشأن فلسطين؛ فصوّروها بلدا مهملا، تسكنه أقليات متأخرة. وقد لحق الصهاينة بهؤلاء العنصريين، من الباب نفسه.(١٠٥)

وكان الحائل دون اقتسام الأراضي العثمانية في القرن التاسع عشر، حدّة التنافس الأوروبي ــ الروسي، وخشية أوروبا ان تبتلع روسيا قسما كبيرا من الأراضي العثمانية المجاورة لها. واقتصرت المسألة الشرقية من المنطلق الأوروبي بتحديد مصلحة أوروبا: هل هي في تقسيم إرث الرجل المريض، ام في المحافظة على هذا الإرث حتى يأتي أوان التقسيم.

وهكذا، بقيت المسألة الشرقية هي القضية الدائمة التوتر في القرن التاسع عشر. ولم يكن صعبا على الصهيونية، في أجواء دولية تحكمها شريعة الاستعمار، وأجواء عثمانية تسيطر عوامل الضعف والتفكك عليها، ان تخطط كقوة استعمارية جديدة، وأن تحلم بوضع يدها على فلسطين.(١٠٦)

ثالثا: العوامل الجذرية للصهيونية

دأبت معظم الكتابات عن الصهيونية على ان تصنّف عوامل ظهورها فئتين: فئة العوامل الذاتية التي تتعلّق بالمجتمعات اليهودية؛ وفئة العوامل الخارجية التي تتعلق بالمحيط الأوروبي. غير

(١٠٤) Laqueur, *op cit.*, pp. 42-43.

(١٠٥) راجع أدناه: «تجاهل شعب فلسطين» في نهاية البند خامسا ــ الفصل الثاني ــ القسم الرابع.

(١٠٦) راجع أعلاه بشأن المسألة الشرقية، البند أولا ــ الفصل الثاني ــ القسم الثالث.

ان اشتراك العامل الخارجي مع الذاتي في عدد من القضايا، وتبادل التأثير فيما بينهما، يجعلان من تصنيف العوامل في هذين الاطارين عملية غير دقيقة، وخصوصا ان المجتمعات اليهودية المعنية لم تكن تُعتبر مجرد مجتمعات ضمن المجتمعات الأوروبية، وإنما كان قسم كبير من اليهود يعتبر نفسه أوروبيا مائة في المائة.

ان التصنيف الأكثر دقة ينطلق من اهمية العوامل. وفي هذا الاتجاه نصنّف العوامل نوعين رئيسيين: النوع الأول هو النوع الذي ما كان ممكنا للصهيونية ان تقوم من دونه. وهذا النوع من العوامل هو الجذور؛ فكما لا تنبت غرسة ولا تكبر من دون جذور، فالعقائد السياسية أيضا لا تنبت ولا تكبر من دون جذور. وتظهر اهمية الجذر في حال ضعفه او فقدانه، فأي ضعف في الجذر يؤدي الى انحناء الغرسة، وربما موتها. وتستند العقيدة الصهيونية الى ثلاثة جذور، يعتبر كل منها ركنا لا يمكن للصهيونية ان تستمر من دونه. وسنعالج في هذا البند جذور الصهيونية. أما النوع الثاني من العوامل، فهو بقية العوامل الدافعة الى ظهور الصهيونية، الذاتية منها والخارجية. وسنعالجها في البند اللاحق، وفقا لموضوعاتها المتعددة.

أ ــ الجذر الديني

يظهر الجذر الديني في نشأة الحركة الصهيونية، أول ما يظهر، في التسمية نفسها، في كلمة «الصهيونية». وما كان احتيار هذا المصطلح بالذات إلّا للدلالة على اهمية الجسر الديني ــ التاريخي بين «صهيون» في الأمس و«الصهيونية» اليوم، اي بين ارض التوراة ومملكة داود وسليمان في القرن العاشر قبل الميلاد، وبين الحركة السياسية الهيرتسلية في نهاية القرن التاسع عشر للميلاد.

كلمة «صهيون» في أصلها كلمة كنعانية أُطلقت على الجبل الشرقي للمدينة التاريخية،(١٠٧) المعروفة في يومنا باسم «القدس». أما اليبوسيون بناتُها الأوائل، وهم قوم من الكنعانيين، فقد أطلقوا عليها اسمهم، فعُرفت بمدينة يبوس. وكانت مدينة قائمة على جبلين. وعند استيلاء الملك داود عليها كانت يبوس تعرف بأورشليم. إلّا ان اسم صهيون بقي ملازما للجبل الشرقي نفسه، حتى انه كثيرا ما استعمل كناية عن المدينة كلها. وقد وردت كلمة «صهيون» في التوراة مائة واثنتين وخمسين مرة على أنها المدينة المقدسة، كما وردت سبع مرات بالمعنى نفسه في «العهد الجديد».(١٠٨)

---

(١٠٧) *Encyclopaedia Britannica-Micropaedia*, Vol X, pp. 885-886

(١٠٨) *Ibid*

وكان اليبوسيون قد اشتهروا ببناء الحصون والسور حول مدينتهم، وقد احتاج الملك داود الى سبعة أعوام حتى تمكن من اختراق المدينة، كما علمنا سابقا. ومما ورد في «أنسيكلوبيديا الصهيونية واسرائيل» ان نشأة كلمة صهيون تعود الى الحصن اليبوسي في منطقة القدس.(١٠٩)

منذ الخراب الأول للهيكل وتشتت اليهود في السبي، اصبحت هذه الكلمة الكنعانية الأصل، كلمة «صهيون»، ملازمة لصلوات اليهود، ورمزا لأحلامهم بالعودة الى أورشليم؛ فجاء في سفر المزامير (١٣٧: ١ ــ ٦).

> عَلَى أَنْهارِ بَابِلَ هُنَاكَ جَلَسْنَا بَكَيْنَا أَيْضاً عِنْدَمَا تَذَكَّرْنَا صِهْيَوْنَ عَلَى الصَّفْصَافِ فِي وَسَطِهَا عَلَّقْنَا أَعْوَادَنَا. لأَنَّهُ هُنَاكَ سَأَلَنَا الَّذِينَ سَبَوْنَا كَلاَمَ تَرْنِيمَةٍ وَمُعَذِّبُونَا سَأَلُونَا فَرَحاً قَائِلِينَ رَنِّمُوا لَنَا مِنْ تَرْنِيمَاتِ صِهْيَوْنَ.
>
> كَيْفَ نُرَنِّمُ تَرْنِيمَةَ الرَّبِّ فِي أَرْضٍ غَرِيبَةٍ. إِنْ نَسِيتُكِ يَا أُورُشَلِيمُ تَنْسَى يَمِينِي ــ لِيَلْتَصِقْ لِسَانِي بِحَنَكِي إِنْ لَمْ أَذْكُرْكِ إِنْ لَمْ أُفَضِّلْ أُورُشَلِيمَ عَلَى أَعْظَمِ فَرَحِي.

وقام النبي حزقيال، وهو احد أنبياء اليهود الكبار، بدور كبير في بعث الحنين الدائم في نفوس اليهود الى العودة الى صهيون. فقد ظهر حزقيال في آخر عهد ملوك يهودا، وكان من جملة السبي الى بابل. وقد اشتهر بأحاديثه الحماسية للعودة، الى حد انه دُعي بنبيّ السبي، كما دُعي النبي أرميا المعاصر له بالنبي البكّاء، من كثرة انتحابه على صهيون وأورشليم.(١١٠)

يميّز الكاتب الحاخام إلمر بيرغر بين «صهيون» و«الصهيونية»، بقوله انه مما لا ينكر ان «صهيون»، وليس بالضرورة «الصهيونية»، احدى المقدسات في اليهودية التقليدية او الأورثوذكسية. «صهيون» هذه، في حقيقتها ومعناها الأرثوذكسي، مفهوم ديني لا مفهوم سياسي قومي. ويتمحور هذا المفهوم حول النبوءة القائلة بأن الله سوف يرسل مسيحا في اي وقت يشاء كي يقود أبناء اسرائيل في العودة الى صهيون.(١١١)

على الرغم من صحة هذا التمييز الذي أشار إلمر بيرغر اليه، فانه لا ينفي ان الصهيونية ما كانت لتوجد لولا صهيون؛ فهذه الحركة السياسية الحديثة المنسوبة الى العلمانية تستند، تاريخيا ومجتمعيا ونفسيا ــ وحتى إسما ــ الى صهيون، اي الأصل الديني.

لم تنقطع صلة اليهود الروحية بالأرض المقدسة في بلاد الشتات، وكان طبيعيا ان تعمل

---

(١٠٩) «Zionism,» *Encyclopedia of Zionism and Israel,* Vol. II, p 1262

(١١٠) عجاج نويهض، «بروتوكولات حكماء صهيون» (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨٠)، المجلد الثاني، ص ٦٢ ــ ٦٤.

(١١١) Elmer Berger, *Zionist Ideology-Obstacle to Peace* (Tripoli. EAFORD, 1981), p. 2.

الطقوس الدينية والصلوات والأعياد على إحياء التراث التوراتي في النفوس، وبعث الحنين الدائم الى زيارة ارض التوراة. وكما احتوت التوراة على أسفار وإصحاحات متعددة تشير الى اهمية الأرض المقدسة لبني اسرائيل ــ وأكثرها انتشارا ما جاء في المزمور السابع والثلاثين بعد المائة الذي ذكرناه أعلاه، وخصوصا الجملة التي اصبحت ملازمة لصلوات اليهود في كل المناسبات «إنْ نَسِيتُكِ يَا أورُشَلِيمُ تَنْسَى يَمِيني» ــ كذلك احتوى التلمود على المعاني نفسها، بل أضاف اليها عندما اعتبر التلمود «ان ثواب العيش لليهودي في ارض اسرائيل لأفضل من ثواب طاعة التعاليم التوراتية كلها.»[١١٢]

وتأكيدا لأهمية الجذر الديني يقول هربرت بارسن، في شرحه لطبيعة الصهيونية، ان التراث اليهودي هو جد الصهيونية الأكبر، وبواسطة الآباء الذين ربوا أولادهم بعناية استمر التراث مشعلا للأجيال ورائدا لها في تبجيل الأرض المقدسة، ومحبة أبناء اسرائيل، والصلاة من أجل الخلاص، وانتظار عودة المسيح لاسترداد صهيون. لقد تعلم اليهود انهم نفوا لأنهم ارتكبوا الخطيئة. وعندما يكفرون عن خطاياهم، يعودون الى ارض اسرائيل. وما دام التكفير ممكنا، فللمنفى نهاية مهما يطُل زمنه. وقد تكون نهايته فجائية؛ وهذا ما يوجب على اليهود ان يكونوا مستعدين دوما للعودة الى ارض الأجداد.[١١٣]

لقد كان الأدب الرباني (الديني) الوعاء التثقيفي الذي عمل على تعميق الايمان بالتحرر من أغلال المنفى، وعلى تقوية الأمل بإقامة «المملكة» يوما ما. وقد شجعت كتب الصلاة، وخصوصا السيدور والمدراش والقانون والقبّالة، على هدف العودة ونقشته في وجدان الشعب اليهودي. ومن هذه الكتب، جسّد السيدور ــ الى حد ما ــ انعكاسا للتطلعات القومية، عبر الابتهالات والطقوس الدينية التي حوّلها جزئيا الى دعوات الى الانبعاث القومي، والى اعتقاد بحتمية الخلاص القومي، حتى باتت صلوات اليهود في الكُنُس والمعابد اشبه بطقوس شعب يبحث عن حريته.[١١٤]

لم يحدّد بارسن متى ابتدأت الابتهالات الدينية تتحول الى دعوات قومية؛ هذا، إنْ هي تحوّلت فعلا. والكاتب يوحي بأنها كانت كذلك منذ نشأة اليهودية الأولى. وبغض النظر عن المبالغة والوهم في التطور الناشىء عن اختلاط الدعوة السياسية بالدينية، فان عرضا لمفهوم الطبيعة الدينية، مثل مفهوم بارسن، تجدر معرفته كنموذج للتحليل الصهيوني، عقليا ونفسيا.

---

(١١٢) Raphael Patai, «History of Zionism,» *Encyclopedia of Zionism and Israel,* Vol. II, p 1262.

(١١٣) Herbert Parzen, *A Short History of Zionism* (New York Herzl Press, 1962), p 7

(١١٤) *Ibid*, p 8

يضيف بارسن انه في كل مناسبة دينية، في أيام السبت، وفي أيام الاحتفالات والأعياد، وفي كل لحظة لا تنسى في حياة اليهودي، وسواء أكانت لحظة تعاسة ام سعادة، فصهيون دائما كانت محفورة في وجدان اليهودي، في قلبه وعقله. وبشكل او بآخر؛ فالمفهوم الديني المسيائي، اي انتظار المسيح والأمل بقدومه، قد ألقى بظلاله على التراث كله، وكان ينبوع أمل متواصل لـ «الشعب الشهيد المنفي»، كما بعث النور في عهود اليأس.

ويستنتج بارسن الحقيقة التالية، وهي ان اليهود كانوا قبل العصر الحديث يتقبلون النهج المسيائي بمضمونيه القومي والانساني، كجزء رئيسي، وجزء لا يتجزأ من اليهودية. وقد قام هذا المعتقد على الصعيد النفسي بدور الطوافة التي تعمل على إرشاد السفينة لحمايتها من العواصف والغرق.

ويجزم بارسن، من وجهة نظره، ان اليهود وإنْ عاشوا في المنفى فانهم عاشوا عاطفيا في ارض اسرائيل. وهو يستشهد بقصائد يهودا هاليفي التي تغنى اليهود بها، وخصوصا بالبيت الشهير: «قلبي في الشرق، وأنا في اقصى الغرب.»

ويخلص بارسن الى ان اليهود في العصور الوسيطة قد اعتبروا انفسهم شعبا توحّده «التوراة المقدسة»، و«اللغة المقدسة»، و«الأرض المقدسة»، وما وجودهم في المنفى إلا وجود موقت، وهم في انتظار المسيح ليرشدهم في رحلة العودة الى صهيون.(١١٥)

نكرر ثانية، ان الهدف من عرض المفهوم «الديني ـــ القومي» أعلاه، ينبع من صرورة الاطلاع على الشروحات الصهيونية في عمق الجذر الديني؛ أما بالنسبة الى التناقضات الواردة في هذا المفهوم، فنكتفي بالاشارة الى التناقض الأهم، وهو التناقض في الدمج المفتعل ـــ تاريخيا ـــ بين ما هو «ديني» وما هو «قومي»؛ وأما بالنسبة الى المبالغات في اندفاع اليهودي أينما كان الى السكنى في الأرض المقدسة، فتكشفها الأعداد الضئيلة لليهود الدين اختاروا العيش في فلسطين.(١١٦)

لا ريب ان الدافع الديني كان يقوى بظهور العديد من الأنبياء الكذبة الذين كان كل منهم يدّعي انه المسيح المنتظر، فتنتشر موجة دينية وحماسة عارمة لدى بسطاء اليهود الذين كانوا يصدّقونهم. وكان من ابرز هؤلاء شبتاي بن تسفي، النبـي الكذاب الذي ظهر في تركيا في القرن

---

(١١٥) *Ibid.*, pp 8-11.

(١١٦) راجع أدناه بشأن عدد اليهود في فلسطين البند خامسا· «(اليشوف) القديم والجديد: إحصاءات» ـــ الفصل الأول ـــ القسم الخامس.

السابع عشر. وقد بلغ من هوسه انه قسم فلسطين الى ٣٨ مملكة، وعيّن ملكا من قبله على كل منها، وكان يوقّع منشوراته السرية بلقب «شبتاي بن داود وسليمان».(١١٧)

ان التوصل الى معرفة عمق الجذر الديني في الصهيونية، وبالتالي في اسرائيل، يتضح عبر الاجابة عن السؤال التالي. هل يختلف عمق الجذر الديني وأثره في الكيان الصهيوني الاسرائيلي عن عمق الجذر الديني وأثره في الدول عامة، وفي الدول العلمانية الغربية التي تتشبه اسرائيل بها خاصة؟

قامت الأديان في تاريخ الأمم بأدوار بارزة وأساسية في تكوين التراث الخلقي والسلوكي للأمم، وفي تكوين وجدانها ونفسيتها. وحتى الأمم الغربية التي سلكت الدرب العلماني قانونيا وفكريا، منذ الثورة الفرنسية، فما زال في هذه الأمم نفسها، موضوع علاقة الدين بالمجتمع قضية مهمة، لا تاريخيا فحسب بل حاضرا ومستقبلا أيضا.

وكما ان العلمانية المعاصرة لا تستطيع إلغاء تأثير المسيحية في صنع الحضارة الأوروبية لألف عام خلت، كذلك لا تستطيع الصهيونية العلمانية تغيير الحقيقة التي تشير الى ان اعمق الجذور لدولة «اسرائيل» اليوم هي الجذور الدينية.

وتبقى مفارقة أساسية بين نشوء العلمانية الأوروبية ونشوء الصهيونية، فالأولى قد أقامت أنظمتها السياسية بمعزل عن الدين المسيحي، بينما قامت النظريات الصهيونية وقامت «اسرائيل» على العنصر الديني او الرابط الديني. وإنْ يكن يحلو للصهاينة العلمانيين ان يتحدثوا عن «تراث يهودي» وعن «تقاليد يهودية»، إلّا ان هذه التقاليد نفسها ما هي إلا إرث الدين اليهودي (١١٨)

وهكذا نجد ان اهمية موضوع علاقة الدين بالمجتمع، تتضاعف لدى الجماعات الصهيونية، واليهود عامة، عنها لدى اي مجتمع آخر، او شعب آخر، وذلك لسبب رئيسي يرجع الى كون الدين اليهودي هو الأساس والبداية في تكوين تاريخ بني اسرائيل، اي الاسرائيليين القدماء، والى كونه أيضا هو الأساس في تطور اللغة العبرية، بواسطة التوراة.

ولا نجد في تاريخ تكوين الأمم والشعوب التي اعتنقت، في أغلبيتها، المسيحية او الاسلام

---

(١١٧) عجاج نويهض، «بروتوكولات حكماء صهيون»، مصدر سبق ذكره، المجلد الثاني، ص ٢٠٥ ــ ٢١٣.
حوكم شبتاي في تركيا، ثم ادعى الاسلام خوفا من السلطان، ولكنهم أمسكوا به في احد الكنس يعظ بالعبرية ضدّ الاسلام، ورئي ان يُقطع رأسه، إلّا ان شيخ الاسلام تشفّع له كي لا تطير الشائعات بأنه قد صعد الى السماء (المصدر نفسه)

(١١٨) راجع:
James Parkes, *End of an Exile* (London. Vallentine, Mitchell, 1954), pp. 5, 8.

مثلا شبيها بتكوين اليهود، شعبا ولغة؛ فلا يهود هناك لولا الديانة اليهودية؛ ولا لغة عبرية هناك لولا التوراة

في تاريخ تكوين الشعوب، إذاً، ينفرد الاسرائيليون القدماء (اليهود) بالتداخل بين الانتماءات الدينية واللغوية و«القومية»، وهذا ان جاز استعمال مصطلح القومية على التاريخ الاسرائيلي، او تاريخ اي شعب كان، قبل ثلاثة آلاف عام.

وفي تاريخ تطور الشعوب، ينفرد اليهود باعتماد كلي على المؤسسات الدينية وحدها، عمودا فقريا في عملية التطور، او بالأحرى في عملية المحافظة على مجرد الكينونة، ذلك بأن التطور كان في مراحل عديدة بطيئا حتى شفير الاضمحلال. ومن هذه المنطلقات التاريخية والواقعية، يبدو الحديث عن فكر صهيوني ديني مستقل، وفكر صهيوني علماني مستقل، حديثا اقرب الى الترف الفكري او الجدل البيزنطي، منه الى الواقع؛ فالفكران لهما منبع واحد، ومصب واحد، وإنْ اختلفت مجاريهما.

ان الحركة الصهيونية الحديثة ما كان ممكنا ان يكون لها دور، او ان تقوم لها قائمة، لولا الجذر الديني الذي اعتمدت عليه جسرا اوحد لا بديل منه، بين الشتات والدولة. فهذا الجسر هو صلة الوصل بين اليهود أينما كانوا، وبين الهدف الرئيسي للحركة الصهيونية، وهو تجميع اليهود وإقامة دولة خاصة بهم، ولهم وحدهم، على ارض فلسطين.

من الأدلة البارزة على المنحى أعلاه، ان كبار السياسيين الاسرائيليين اليوم، الذين يتبجحون بديمقراطية اسرائيل وبعلمانيتها، هم الذين يتبجحون في الوقت نفسه بالجذر الديني، وحتى بالمستقبل الديني؛ فقد قال بن ــ غوريون في إثر قيام «اسرائيل».

> ان أورشليم ليست فقط عاصمة اسرائيل واليهودية العالمية انها تتوق لتصبح المركز الروحي للعالم كما صورها الأنبياء. . .(١١٩)

وقال ييغال آلون بعد عام من حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، مبررا احتلال الجولان لأسباب دينية:

> مرتفعات الجولان جزء من اسرائيل التاريخية لا أقل من الخليل ونابلس. . ألم يجلس يفتاح قاضيا فيها (١٢٠)

---

(١١٩) *The Jewish Chronicle*, December 16, 1949,
كما وردت في: ضياء أويغور، «جذور الصهيونية»، ترجمه عن التركية ابراهيم الداقوقي (بغداد: وزارة الثقافة والإرشاد، ١٩٦٦)، ص ١٨.

(١٢٠) جريدة «الاتحاد»، ١٩٦٨/٦/١٤، كما وردت في: «القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني» (بيروت: وزارة =

وكان موشي دايان أكثر وضوحا وأدق تحديدا، عندما خاطب جمهورا اسرائيليا في ملعب ياد إلياهو بعد حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، من دون ان يدع مجالا للشك في اهمية الحافز الديني وراء الصهيونية واسرائيل:

> لا عودة الى حدود ١٩٤٨.
>
> على الناس في الخارج ان يدركوا انه مع الأهمية الاستراتيجية لاسرائيل باحتلال سيناء، ومرتفعات الجولان، ومضائق تيران، فان سلسلة الجبال عربي نهر الأردن تقع في قلب التاريخ اليهودي.
>
> ما دام عندكم كتاب التوراة، وما دمتم شعب التوراة، فيجب ان تكون لكم ارض التوراة قد لا يكون هذا برنامجا سياسيا، لكنه أكثر اهمية لأنه برنامج يحقق لشعبنا نبوءة الآباء.[١٢١]

ان التناقض الصارخ في التصريحات الاسرائيلية بين المباهاة بكل ما هو علماني تارة، وبكل ما هو ديني تارة اخرى، ثم الانغماس بكل ما هو ديني صهيوني، اي وفقا للقراءة الصهيونية للتوراة، لا يؤكدان اهمية الجذر الديني للحركة الصهيونية، وفي المجتمع الاسرائيلي، فحسب، وانما يؤكدان أيضا اهمية استمرار هذا الجذر، الجذعَ الرئيسي للفروع الصهيونية.

ب ــ الجذر التعاطفي: الهوية

لا خلاف في شأن اهمية الرابطة العاطفية بين اليهود كجذر رئيسي من جذور الصهيونية. فقد ورد هذا الجذر، أحيانا، باسم الجذر التاريخي او الجذر العاطفي تجاه الأرض المقدسة؛ فهي التي خلقت رابطة وحدوية بين اليهود في الشتات، واليهود في كل العالم.[١٢٢]

وأحيانا اخرى، ارتبطت العاطفة اليهودية بمعاداة السامية الحديثة، ومن قَبْلها بكل أشكال الاضطهاد، كالاضطهاد الأوروبي لليهود في العصور الوسيطة؛ فقد ساهم الاضطهاد في خلق أواصر التعاطف او الترابط بين اليهود، وفي توجههم فكريا ونفسيا نحو حل مشترك ببناء وطن خاص بهم.[١٢٣] والأصح ان تشمل التسمية كل الدوافع التي تثير التعاطف بين اليهود، تاريخية كانت

= الدفاع الوطني ــ الجيش اللبناني ــ الأركان العامة ــ الشعبة الخامسة؛ مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٣)، ص ٥٢٢ ــ ٥٢٣.

(١٢١) *The Jerusalem Post,* August 10, 1967

(١٢٢) Patai, *op.cit.*, in *Encyclopedia of Zionism* and Israel, Vol II, p 1262

(١٢٣) Morris Jastrow, *Zionism and the Future of Palestine: The Fallacies and Dangers of Political Zionism* (New York: The Macmillan Company, 1919), p. 40.

او معاصرة، إيجابية كانت او سلبية. ويشكل الجذر التعاطفي هذا العصبَ الرئيسي في قيام الصهيونية، بأنواعها واتجاهاتها كافة.

ان وجود أواصر العاطفة والمحبة بين أبناء الأمة الواحدة، او الشعب الواحد، او الانتماء الواحد الى وطن ما او عقيدة ما، لأمر طبيعي. ومن البديهيات ان التاريخ المشترك والمحن والآلام، وكذلك الآمال والمصير المشترك، كلها قضايا تعزز من الروابط بين الشعب او الجماعة. إلّا ان القضية الرئيسية بالنسبة الى اليهود هي تعريف الهوية اليهودية أولا؛ فالسؤال البسيط: من هو اليهودي؟ لا يجد جوابا واضحا بسيطا كمن يسأل عن هوية الفرنسي او الصيني.

تكوّنت الهوية اليهودية، عبر العصور، بتأثير عنصرين بارزين. عنصر الاجماع في الفكر او الشعور داخل الجماعة اليهودية في كل عصر؛ وعنصر القوة الخارجية التي كانت، في معظمها، قوة ضاغطة ضد اليهودية، وقد استمرت تعامل اليهود كيهود، حتى أولئك الذين ما عادت تربط بينهم وبين اليهودية صلة. وفي مراحل متعدّدة، بالغ الكارهون لليهود في صقل تعريفات شاملة للهوية اليهودية، والى الحد الذي كان اليهود انفسهم، في تلك المراحل، لا يتقبلونها.(١٢٤)

لم تخرج الهوية اليهودية، في عهد التوراة، عن كونها هوية دينية للاسرائيليين القدماء. أما في العصر اليوناني الهلليني، فاليهود لم يكونوا مواطنين جيّدين؛ كانوا يعفون من الخدمة العسكرية مثلا، لكونها تتعارض مع أيام السبت وأعيادهم. كذلك لم يشارك اليهود في الاحتفالات الدينية، ولا في الاحتفالات الرياضية، ولا في الخدمات العامة كإصلاح الطرق. لذلك، عندما اخذت مئات قليلة من اليهود في الاسكندرية تحاول كسر الطوق ودخول المجتمع الهلليني بالمشاركة في ألعاب الجمنازيوم، رفض اليونان دخولهم ولم يصدقوهم، وخصوصا لأن دخول الجمنازيوم كان يعتبر الخطوة الأولى المعتادة نحو المواطنية اليونانية الكاملة. وتمشيا مع رغبات اليهود، اعتبرهم الامبراطور اليوناني كلاوديوس جماعة لها هويتها الخاصة.(١٢٥)

بعد انتهاء محاكم التفتيش وذيولها في إسبانيا، وبالتالي توقف انسياب اليهود الذين اعتنقوا المسيحية خوفا على حياتهم،(١٢٦) ما عاد هناك من مشكلة في تعريف اليهودي. أما بعد قيام الثورة الفرنسية، فقد بات اليهودي في أوروبا يعرّف بأنه مَنْ وُلد لأم يهودية، او من اعتنق اليهودية،

---

(١٢٤) Hertzberg, «Jewish Identity,» *op.cit.*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 10, p. 53.

(١٢٥) *Ibid*, p. 55.

(١٢٦) عرف اليهود والمسلمون الذين تنصّروا خوفا على حياتهم بـ Marranos.

وهو أيضا من يعتبر نفسه يهوديا، وكذلك من يعتبره المجتمع اليهودي يهوديا.[١٢٧] وقد كان لهذا التعريف أوضاع قانونية، إنْ بالنسبة الى المجتمع اليهودي، او بالنسبة الى القانون العام للبلد. أما في حالة التخلي عن الدين اليهودي واعتناق المسيحية، فان تغيير الدين كان عاملا كافيا لإنهاء الهوية اليهودية في معظم الحالات؛[١٢٨] وفي هذا دليل بارز على اهمية العنصر الديني في الهوية اليهودية.

برز تعريف جديد للهوية اليهودية في عهد تحرر المجتمعات الأوروبية نهائيا من السلطة الدينية؛ ذلك بأن مجموعة القوانين التي كانت تحدد من هو اليهودي، قد انتهت مع ولادة الدولة العلمانية؛ فلا اهمية للدين أمام قانون علماني. وهذا، بالاضافة الى ان القوانين الجديدة منحت المواطنين جميعا حرية الاعتقاد الديني. فلم يعد في الامكان القول ان ممارسة الشعائر الدينية من قبل اية جماعة أقلية تتناقض مع قوانين الدولة؛ فالعكس بات الصحيح، من منطلق الحريات التي تكفلها الدولة العلمانية.

في هذه المرحلة، قدّم اليهود الاصلاحيون في ألمانيا والولايات المتحدة تعريفا حديثا للهوية اليهودية، يتضمن التركيز على الصفات الخلقية والتثقيفية، ويبتعد كل البعد عن المعاني القومية، بل يعتبرها إرث التاريخ السحيق، ولا اهمية لها بالنسبة الى حاضر اليهود الذين يجب ان يتبع انتماؤهم الوطني او القومي الدولة التي يعيشون فيها.[١٢٩]

ومع بروز القوميات وانتشارها في أوروبا، طرح السؤال عما إذا كان في إمكان اليهود ان يساهموا في بناء حضارة قومية في بلد اوروبي، وأن يكونوا مواطنين في مجتمع له جذور تاريخية قديمة لم يشارك أجدادهم فيها (باعتبارهم ينفردون بتاريخ سامي مميّز). ولم تجد الأنتلجنسيا اليهودية جوابا عن هذا السؤال، وتبعثرت في ضياع. ثم بدا ان الصهيونية قد وجدت جوابا؛ فهي حين ظهورها في نهاية القرن التاسع عشر، تقدّمت بالحل «العلماني» على أساس ان تطور هوية يهودية علمانية هو، في واقع الأمر، حقيقة اجتماعية، لكن قيامها يصبح ممكنا فقط في الأماكن التي تكاثر اليهود فيها. أما من أجل اكتساب شرعية تاريخية، فعلى الشعب ان يرتبط بأرضه وأرض أجداده، وأن يستعيد قدرته على التكلم بلغته.[١٣٠]

---

(١٢٧) كانت التسمية لليهودي في هذه المرحلة هي هالاخا (Halakhah).

(١٢٨) Hertzberg, «Jewish Identity,» *op.cit.*, in *Encyclopeadia Judaica,* Vol. 10, p. 59.

(١٢٩) *Ibid* , p. 59.

(١٣٠) *Ibid.*, p 62

بتعبير آخر، قدمت الصهيونية الهوية التاريخية في محتوى علماني حديث، لكنه ينبعث من أصداء الماضي الديني.

وأخيرا، يصعب استخلاص تعريف شامل للهوية اليهودية؛ ذلك بأن معانيها تتناقض على ألسنة اليهود انفسهم. وللمثال نورد هذين الموقفين المتناقضين:

يقول الصهاينة ان اليهود «امة يهودية عالمية»، وانهم «امة لامكانية»، لكن ليس بالمعنى المادي بل الروحي (الديني). ويعتبر الصهاينة ان اليهودية ظاهرة ثقافية خارقة تشكل الأمة.(١٣١)

وأما رجل مثل موشي منوحين، فيقول: «انني اعترف باليهودية دينا لي، لكنني ارفض اليهودية القومية للصهاينة.»(١٣٢)

أما التعريف الذي توافقت عليه عناصر بارزة متعددة من يهود العالم، وكما ورد في الأنسيكلوبيديا اليهودية، فهو:

> ان الهوية اليهودية تعني جماعة يؤلف التاريخ والقدر بينها، وما زال أفرادها يشعرون بانتمائهم الى هذه الجماعة. وهي تعني أيضا أفرادا غير هؤلاء، يشعر الآخرون إزاءهم شعورا قويا بأنهم ينتمون الى اليهودية (١٣٣)

ونلاحظ ان هذا التعريف يخالف المنطق العام في شقه الأخير، كما يخالف البديهيات في علم النفس؛ فالأفراد والشعوب لا تتكون انتماءاتها بناء على نظرة الآخرين اليها، ليس إلّا؛ فهذا تعريف يقصد منه ان يترك الباب مفتوحا أمام معاداة السامية، لتبقى العنصر او الشبح الذي لا يمكن الاستغناء عنه، لا في استمرارية الصهيونية فحسب، بل في استمرارية اليهودية أيضا.

ج ـ الجذر الاستعماري الاستيطاني

إذا كانت اهمية الجذر في اعتباره الأصل في تكوين الغرسة واستمرارها، فالاستعمار الأوروبي، فكرا ونهجا وممارسة، هو الأصل في الصهيونية وفي استمرارها؛ فلا صهيونية من دون استعمار اوروبي، ولا نجاح للاستعمار الصهيوني إنْ لم يكن استعمارا استيطانيا. ومن هنا، لم يكن

---

(١٣١) «الجوهر الرجعي للصهيونية: مجموعة مقالات»، ترجمة دار التقدّم (موسكو دار التقدم، ١٩٧٥)، ص ٣٢ ـ ٣٣

(١٣٢) المصدر نفسه، ص ٣٨.

اسّس موشي منوحين «الجمعية اليهودية الأميركية المناهضة للصهيونية»، وأصدر كتابا بعنوان «انحطاط اليهودية في عصرنا» سنة ١٩٦٥.

(١٣٣) Hertzberg, «Jewish Identity,» *op. cit.*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 10, p. 65.

التوجه الاستعماري في انطلاقة الحركة الصهيونية مجرد حلف مرحلي، وإنما كان حلفا استراتيجيا، ومبدأ ثابتا من ثوابت الصهيونية؛ فالمؤرخ الصهيوني سوكولوف لم ير مستقبلا للصهيونية إلّا من خلال استعمار فلسطين.(١٣٤) والواقع ان الاستعمار، بحد ذاته، لم يكن يُنظر اليه في عهد سوكولوف، اي في عهد الصهيونية الأول، على انه عملية عدوانية، بل حق شرعي للقوى الكبرى.

وعلى النهج نفسه، تتحدث «الأنسيكلوبيديا اليهودية» الصادرة سنة ١٩٠١، ببساطة، عن المحاولات الاستعمارية التي جرت قبل ظهور الصهيونية نفسها، في فلسطين وخارج فلسطين.(١٣٥)

في اوج العصر الاستعماري الأوروبي إذاً، وبينما كانت أراضي قارة شاسعة كأفريقيا تتنازعها القوى الاستعمارية وتتبادلها، لم يكن أمرا مخالفا لمنطق العصر ان تولد الصهيونية من رحم الاستعمار؛ ولم يكن أمرا مستهجنا كذلك ان تُعرض على الصهيونية أراض متعددة كي تستعمرها او تحوّلها أوطانا لها، كالموزامبيق، او أوغندا، او الأرجنتين، او فلسطين. فالعقبة الرئيسية أمام روّاد الصهيونية لم تكن اختيار الأرض المرشحة للاستعمار الصهيوني، وإنما موقع الصهيونية نفسها، كقوة رئيسية، بين القوى الاستعمارية؛ فحين تتمكن الصهيونية من الوصول الى هذا الموقع، تتمكن من فرض ذاتها قوة استعمارية، من حقها ان تطال يدها احدى المناطق المرشحة للاستعمار. وقد وصلت الصهيونية الى هذا الموقع خلال الحرب الكبرى؛ وكانت أراضي الدولة العثمانية هي الأراضي المرشحة للاستعمار، تماما كما كانت أراضي القارة الأفريقية من قبلها، لثلاثة عقود خلت.

رابعا: العوامل الدافعة الى ظهور الصهيونية

أ ــ معاداة السامية

اعتبرت معاداة السامية اهم العوامل السلبية في ظهور الصهيونية، والى الحد الذي صنفها البعض من جذور الصهيونية. وتعتبر موجة الاضطهاد الروسي في أول الثمانينات من القرن التاسع عشر، ثم ازدياد موجة معاداة السامية في ألمانيا خاصة، دافعا رئيسيا فاعلا في قيامها.(١٣٦) أما قضية درايفوس الشهيرة في فرنسا سنة ١٨٩٤، فهي ــ من وجهة النظر الصهيونية ــ الحدث الذي رفع الزناد عن معاداة السامية في أكثر الدول حضارة.

---

(١٣٤) Sokolow, *op cit*, Vol I, p. 273.

(١٣٥) Richard Gottheil, «Zionism,» *The Jewish Encyclopedia*, Vol 12, p. 668.

(١٣٦) Sankowsky, *op cit.*, p. 20

ويستمر غلاة الصهيونية في البحث عن كل مظهر من مظاهر معاداة السامية، حتى اليوم. وهم يصلون الى حد مهاجمة كل من يعارض أهدافهم السياسية كمعاد للسامية. كما ان لديهم وسائل مختلفة لاستغلال معاداة السامية، كأداة، لإسكات اية معارضة للسياسة الاسرائيلية، وبالتالي فرض الموافقة والتأييد لموافقتهم. وحتى الذين يبدون أكثر تعقلا اوثقافة من غيرهم، مثل آبا إيبن، لا يختلفون عن المتطرفين في هذا المضمار؛ فآبا إيبن يرى ان كل نقد يوجه الى اسرائيل لا يمكن اعتباره إلا عملا معاديا للسامية.[(١٣٧)] ويقابل هؤلاء المغالين فريقٌ صهيوني أيضا يرى في التركيز على معاداة السامية، كعامل خارجي سلبي، حرمانا لليهود من شرعية تطورهم الذاتي. أما واقعيا، فقد مرّ معنا فيما يتعلق بأبعاد معاداة السامية ما موجزه أنها كانت في اضعف حلقاتها ما بين مؤتمر بازل ووعد بلفور.[(١٣٨)]

ب ـ فشل الاندماج

يعتبر الصهاينة ان فشل الاندماج في المجتمعات الأوروبية الغربية خاصة، كان سببا رئيسيا في قيام الصهيونية، باعتبارها البديل الأوحد.[(١٣٩)] ويستشهد هؤلاء بأقوال الألمان المغالين في موقفهم الرافض لليهود، وعلى رأسهم المؤرخ الألماني ترايتشكي الذي كان يعتبر «ان أكثر اليهود بعدا عن اليهودية لم يصبح ألمانيا بعد.»[(١٤٠)] وقد عالجنا ــ سابقا ــ حل المسألة اليهودية عن طريق الاندماج.[(١٤١)]

وما يجب تأكيده هنا ان الحل الصهيوني والحل الاندماجي حلان متناقضان كل التناقض للمسألة اليهودية؛ ولذلك شنت الصهيونية حين قامت حربا شعواء على الاندماج. ولولا قيام الصهيونية ــ حين قيامها ــ كحركة سياسية عنصرية استعمارية، لكانت سياسة الاندماج الحل الأوحد لجميع اليهود، تماما كما هو الحال اليوم مع القسم الأكبر من يهود العالم الذين اختاروا البقاء في أوطانهم خارج اسرائيل.

ويعتبر هذا المأزق من اهم مآزق الفكر الصهيوني؛ فإنْ تكن «اسرائيل» هي ــ حقا ــ دولة

---

(١٣٧) Alfred Lilienthal, *The Zionist Connection II What Price Peace?* Reprinted (New Brunswick, New Jersey. North American, 1982), pp 404, 407

(١٣٨) راجع «تطور معاداة السامية حتى وعد بلفور»، فقرة ح ــ البند سادسا ــ الفصل الأول ــ القسم الرابع

(١٣٩) Patai, *op cit.*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. II, p 1263.

(١٤٠) Hertzberg, «Jewish Identity,» *op cit.*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol 10, p. 61

(١٤١) راجع أعلاه، البند خامسا ــ الفصل الأول ــ القسم الرابع

اليهود، كل اليهود، كما هو الشعار الصهيوني، فهي الدولة الوحيدة النشاز بين دول العالم التي يعيش معظم أبنائها خارج أراضيها، بالاضافة الى كونهم ــ في أغلبيتهم ــ لا يتكلّمون لغتها العبرية، وما زالوا ينتمون الى الحضارات والدول التي يقيمون فيها.

ج ــ الهجرة اليهودية من أوروبا

ازداد عدد السكان اليهود ازديادا مطردا في أوروبا الشرقية خلال القرن التاسع عشر. ولّما كان النمو السكاني هذا يرتفع في بيئة غير ملائمة، فقد شكّل عاملا ضاغطا على المجتمعات اليهودية نحو هجرات متلاحقة، وواسعة النطاق.

لقد تضاعف عدد السكان اليهود في مدى نصف قرن من نحو مليونين ونصف المليون نسمة سنة ١٨٠٠، الى نحو خمسة ملايين نسمة سنة ١٨٥٠. وكذلك تضاعف هذا العدد حتى سنة ١٩٠٠ الى نحو عشرة ملايين نسمة. وقد ظهرت هذه الزيادة في معظمها بين يهود أوروبا الشرقية، بينما كانت نسبة اليهود في أوروبا الغربية مستقرة نسبيا.

ولم يكن الفارق بين اليهود في كل من أوروبا الشرقية وأوروبا الغربية فارقا عدديا فقط، وإنما كان أيضا في سوء الأوضاع الاقتصادية؛ وهكذا شكل هاجس الهجرة، وخصوصا لدى يهود بولونيا وروسيا ورومانيا، ارضية ناجحة للصهيونية، وهي التي تعتبر اقتلاع اليهود من أماكن سكناهم وترحيلهم الى فلسطين شرطا أساسيا لنجاح أهدافها.(١٤٢)

خامسا: العوامل الصهيونية
قبل قيام الصهيونية

لم تدخل الصهيونية ــ كحركة يهودية حديثة هدفها الاستيطان في ارض فلسطين ــ عتبة التاريخ قبل مؤتمر بازل سنة ١٨٩٧. إلّا ان هذه السنة المتعارف عليها لميلاد الصهيونية لا تنفي وجود صهيونية فعلية غير يهودية في أوروبا، قبل ميلاد الصهيونية اليهودية بأربعة قرون. وقد ساهمت هذه الصهيونية غير اليهودية السباقة في دعم الأفكار والمبادىء الأساسية نفسها، التي عادت واحتوتها صهيونية هيرتسل وصحبه؛ وذلك بدءا بالاعتقاد ان اليهود شعب لا طائفة، مرورا بالايمان بعودة

(١٤٢) راجع مروان بحيري، «الحركة الصهيونية منذ نشأتها حتى نشوب الحرب العالمية الأولى»، في: وليد الخالدي، تحرير، «القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني» ([عمان]: اتحاد الجامعات العربية، الأمانة العامة، ١٩٨٣)، ص ١٧١.

هذا الشعب الى ارض أجداده، وأهمية إحياء اللغة العبرية، وحتمية تأسيس دولة يهودية في فلسطين، وضرورة المساندة الأوروبية لهذه الدولة.

وليس من المغالاة في شيء القول ان الصهيونية غير اليهودية كانت قد انتشرت في أوروبا، ووصلت فكرا وتخطيطا الى أعلى مراحل الصهيونية ــ اي مشروع الدولة ــ بينما كان اليهود انفسهم، سواء في أوروبا الغربية او في أوروبا الشرقية، لا يزالون خارج النشاطات الصهيونية. وفي الكثير من الأحيان كانوا يقفون ضدها؛ كان بعضهم لا يستوعبها عقليا، وبعضهم يرفضها دينيا او نفسيا، وبعضهم لم يسمع بها بعد. ويمكن القول، بصورة عامة، ان اليهود كانوا آخر من اكتشف الصهيونية في أوروبا.

من الطبيعي ان تثير هذه الحقائق العامة، من الوهلة الأولى، الدهشة والتساؤل: هل يعقل هذا؟ هل يعقل ان تتواصل حركة تاريخية لأربعة قرون، خارج الدائرة التي يُفترض ان تنشأ فيها؟ بإيجاز، الإجابة: نعم، بالنسبة الى نشأة الصهيونية أمّا الاجابة تفصيليا، فيجب ان تشمل النشاطات الدينية والثقافية والفنية والسياسية التي قامت في أوروبا منذ القرن السادس عشر حتى مؤتمر بازل سنة ١٨٩٧، والتي يهدف كل منها الى تحقيق مبدأ صهيوني او أكثر.

ويصعب إيجاد عنوان واحد لهذه النشاطات كلها، نظرا الى تعدد طبيعتها فكريا وعمليا، والى امتدادها في دول اوروبية وأميركية متعددة، والى التداخل فيما بينها، وخصوصا بين القضايا الدينية والسياسية. إلّا انه يسهل إيجاد الأصل الذي نبتت منه وتفرعت معظم الكتابات والنشاطات الصهيونية غير اليهودية. ويعود هذا الأصل الى عهد الاصلاح الديني، الى البروتستانتية.

أ ــ الصهيونية المسيحية ــ البروتستانتية

أشارت المصادر الصهيونية الى هذه الصهيونية باسم «الصهيونية المسيحية». إلّا أننا أضفنا اليها كلمة البروتستانتية، لكون المسيحية المقصودة في هذه المرحلة هي البروتستانتية، من دون سواها.

كانت فلسطين، في الفكر المسيحي الكاثوليكي الغربي، مهد المسيح وبلد المسيح. ومن أجل استردادها بلدا مسيحيا خالصا، قامت الحروب الصليبية؛ ولم يفتك الصليبيون في القدس بالمسلمين وحدهم، بل قتلوا أيضا اليهود حرقا، في كُنُسهم.

ولم يكن الفكر الكاثوليكي التقليدي ليسمح بتصوّر عودة اليهود الى فلسطين، ولا وجود في افقه ــ أصلا ــ لشعب يهودي. أما ما ورد في العهد القديم من عودة اليهود الى فلسطين، فلم تفسره الكنيسة الكاثوليكية تفسيرا حرفيا.

ونظرت الكنيسة الكاثوليكية الى اللغة العبرية على أنها هرطقة، وكانت تعمل جاهدة في القرون الوسطى على منع تدريسها وانتشارها.

مع قيام حركة الاصلاح الديني في القرن السادس عشر، نشأت البروتستانتية على يد مارتن لوثر وجون كالفن اللذين كانا من ابرز روادها. والبروتستانتية، بصورة عامة، تُطْلَق على المسيحيين الذين لا ينتمون الى الكنائس الكاثوليكية، وعلى رأسها الفاتيكان، او الى الكنائس الشرقية؛ وهي في جوهرها حركة تحريرية في امور الدين والدنيا، قامت على التسامح الديني، وعلى منح الفرد حرية التقدير، والحكم على الأمور، وشرح الكتاب المقدس. وهكذا انتقلت السلطة الدينية العليا من السلطة البابوية الى السلطة الالهية عبر كلمة الله، اي الكتاب المقدس، وباتت مسؤولية البروتستانتي تجاه الله وحده، لا تجاه الكنيسة.

ومع العودة الى اهمية الكتاب المقدس، قام الاصلاحيون بترجمته الى لغات عديدة كما اصبحت العودة الى التوراة، وهي القسم الأول والأكبر من الكتاب المقدس، أساسا في المفهوم الديني الجديد، ومحورا للتعليم في المدارس. وهكذا، مع انبعاث التاريخ القديم، بكل تفاصيله وحكاياته التوراتية، تحولت فلسطين في الضمير البروتستانتي من الأرض المقدسة للمسيحيين، الى ارض الشعب المختار، فآمن البروتستانت بأن اليهود لا بدّ عائدون الى الأرض المقدسة كما جاء في النبوءات التوراتية. وهذا مما أيقظ قضية انبعاث اليهود وعودتهم الجماعية الى فلسطين، حيث يظهر المسيح للمرة الثانية، ويحكم لألف عام. وقد آمن بعض البروتستانت بضرورة اعتناق اليهود للمسيحية تمهيدا لقدوم المسيح، وآمن بعضهم بإمكان تحولهم هذا بعد قدومه.

وكان من أهم آثار البروتستانتية الجديدة إقامة الربط الذهني والنفسي بين اليهود المعاصرين في أوروبا، اي يهود القرن السادس عشر، وبين الاسرائيليين القدماء، أنبياء التوراة وشعبها. وقد كانت الكنيسة الكاثوليكية تقيم تمييزا قاطعا بين يهود الأمس البعيد ويهود الحاضر.

أما اللغة العبرية، فعاد اليها اعتبارها عن طريق الكنيسة البروتستانتية (لا الكنيس اليهودي الذي كان غارقا في غيبياته وانطوائيته). وأصبح طلاب العلم في عصر النهضة يتوجهون الى دراسة العبرية، الى جانب اللاتينية واليونانية، كما فرض الاصلاح الديني اللغة العبرية مادة أساسية في المنهاج الديني التدريسي.[١٤٣]

ادى هذا التحول الكبير في النظرة المسيحية تجاه اليهود الى احترامهم، ومعاملتهم معاملة

(١٤٣) راجع:

Regina Sharif, *Non-Jewish Zionism: Its Roots in Western History* (London: Zed Press, 1983), pp 4-17

جيّدة في الدول والمدن التي تسود البروتستانتية فيها. ثم تفرع من البروتستانتية مذاهب عدة كانت اشد التصاقا بالأفكار اليهودية من عهد الاصلاح الأول، ومن أهمها الحركة البيوريتانية (حركة التطهّر) في إنكلترا، في القرنين السادس عشر والسابع عشر؛ وهي الحركة التي حولت الأفكار والمبادىء الدينية المتعلقة باليهود الى عقيدة سياسية، وأهمها: فكرة وجود «الشعب اليهودي»، وفكرة عودة «الشعب اليهودي» الى فلسطين، وفكرة «استيطانه وسيادته في فلسطين».

كان عهد كرومويل العهد الذهبي للبيوريتانيين؛ فهو عندما حلّ مجلس العموم البريطاني سنة ١٦٥٣، جاء بعده مجلس مصغّر يتألف من البيوريتانيين فقط. أما مجلس الدولة فقد تألف حينئذ من سبعين عضوا، اقتداء بعدد أعضاء السنهدرين القديم. كما كان كرومويل هو الذي اصدر في آخر عهده، سنة ١٦٥٦، قانونا يسمح بعودة اليهود الى بريطانيا كما أشرنا سابقا.

ضعفت سلطة البيوريتانيين في عهد آل ستيوارت، ثم تلاشت في نهاية القرن السابع عشر. إلّا ان الحركة كانت قد انتشرت خارج إنكلترا، كما ان نشاطها الطويل كان نواة للاهتمام البريطاني بالمسألة اليهودية.(١٤٤)

فسحت الأجواء البروتستانتية المجال واسعا أمام اليهودية لدخول عالم الفن والأدب. وما عادت اهمية التوراة تنحصر في كونها كتابا دينيا، إذ اضحت مرجعا لتعليم الأخلاق. وهكذا انطلقت اليهودية مع عصر النهضة ركنا أساسيا في الفكر الأوروبي الحديث، ومصدر إلهام لشعراء الغرب وأدبائه ورساميه

ولعل أكثر الفنون إبداعا والتصاقا بالذاكرة والوجدان، هو فن النحت والرسم، لما يتركه من اثر خالد تراه العين على مدى القرون؛ واليوم، تضمّ أكبر متاحف الدنيا وأهمها، اللوحات الزيتية للفنّانين المسيحيين البروتستانت الذين خلّدوا مرحلة وهج الاصلاح الديني برسمهم حكايات التوراة، وأنبياء التوراة، عوضا من القديسين. ويحتل رمبراندت، الرسام الهولندي البروتستانتي، مكان الصدارة في بعث المشاهد الاسرائيلية القديمة وشخصياتها.

كان فنانو عصر النهضة في إيطاليا يرسمون، في معظمهم، اللوحات الدينية بطلب من الفاتيكان، في أغلب الحالات. أما رمبراندت فلم يرسم بناء على طلب من احد، وكانت عظمته كفنان في قدرته على إحياء المشاهد التاريخية والدينية، بالعين الانسانية، وببساطة، وكأنها ليست إلّا حكايات يومية تُروى بلغة الانسان العادي.(١٤٥)

(١٤٤) *Ibid.*, pp 23-27

(١٤٥) Helen Gardner, *Art Through the Ages* (New York· Harcourt, Brace and Company, Third Edition, 1948), p 579.

لم يكن هم رمبراندت ان يرسم ابراهيم ويعقوب وشاول وشمشون وإستر وداود كأنبياء او كأبطال حكايات خالدة، وإنما كان همه الأكبر التعبير عن الأحاسيس البشرية في المواقف الصعبة، كلوحة ابراهيم وهو يكاد يضحّي بولده، او شمشون وهو يكاد يفقد نظره، او داود وهو يستقبل ابنه، او يعقوب الشيخ العاجز وهو يبارك حفيديه من يوسف، أغلى أبنائه.

وكما استلهم رمبراندت التوراة استلهم الحياة اليهودية المعاصرة، فرسم عروسا يهودية ولوحة ليهودي طاعن في السن؛(١٤٦) وأنّى له ان يدري وهو يخلّد، عبر لوحاته الفنية الرائعة، رسالة إنسانية ان هذه الرسالة ستتحول الى حركة استعمارية عنصرية.

توارت الصهيونية الدينية ــ البروتستانتية في المراحل اللاحقة، وراء اقنعة كادت تخفي حقيقتها، كالأدب او الشعر او المصالح الاستعمارية، إلاّ أنها كانت تعود أحيانا الى الظهور بقوّة، كما حدث في الولايات المتحدة، وخصوصا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عندما ظهر عدد من المذاهب البروتستانتية الجديدة ينادي بعودة اليهود انطلاقا من المعتقدات المسيائية. ولم يكتف أصحاب هذه المذاهب بالدعوة، بل عملوا من أجلها. ثم سرعان ما اختلطت الدعوة الدينية بالنهج السياسي.(١٤٧)

منذ مؤتمر بازل سنة ١٨٩٧ حتى وعد بلفور سنة ١٩١٧، اصبحت الصهيونية الدينية هذه مرادفة للصهيونية السياسية، باستثناء ما يتعلّق منها بأمل المسيحيين بعودة اليهود الى المسيحية.(١٤٨)

ب ــ الصهيونية غير اليهودية

مع تأكيد بقاء المسيحية ــ البروتستانتية دافعا أساسيا للعديد من النشاطات الفكرية والعملية

---

(١٤٦) Robert Wallace, *The World of Rembrandt 1606-1669* (Amsterdam: Time-Life Books, Tenth Printing, 1982); V. Loewinson-Lessing, ed., *Rembrandt Harmensz Van Rijn. Paintings From Soviet Museums* (Leningrad: Aurora Art Publishers, 1975).

يعود الفضل في وجود أكبر مجموعة من لوحات رمبراندت في المتاحف الروسية الى عهد القيصر بطرس الأكبر، إذ كان يطلب من سفرائه في هولندا وسواها شراء كل ما يمكنهم الحصول عليه من اللوحات الفنية، من التجار او في المزادات

(١٤٧) Yona Malachy, «Restoration Movement,» *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol II, p 950

(١٤٨) *Ibid.*

مما لا شكّ فيه ان الأغلبية العظمى من البروتستانت في العالم كانت حتى إصدار وعد بلفور تعطف على الصهيونية، بل تنادي بها أمّا بعد «الوعد»، فقد وقف البروتستانت العرب ضد الصهيونية، مما كان له اثر عام، بالاضافة الى الخلاف بين البروتستانتية الليبرالية وسواها من المذاهب البروتستانتية الأصولية المتزمتة (*Ibid.*).

المؤيدة للصهيونية، فانه بعد انتهاء المرحلة الأولى المعروفة بمرحلة الاصلاح الديني، لا يجوز الاكتفاء بمصطلح «الصهيونية المسيحية»، وتعميمه طوال القرون الأربعة اللاحقة كما فعل بعض المؤرخين الصهاينة، او استبداله بمصطلح «حركة العودة»[١٤٩] كما فعل البعض الآخر، وخصوصا لكون الدين لم يعد العامل الأوحد، فالعديد من الأوروبيين قد ناصر المبادىء الصهيونية ــ فيما بعد ــ حبا في التخلص من اليهود ليس إلاّ، وآخرون انطلقوا من مبادىء إنسانية ليس إلاّ.

ان المصطلح الذي ينطبق على جميع النشاطات المؤيدة للأهداف الصهيونية ــ فكريا وعمليا ــ من قبل الأوروبيين غير اليهود، هو مصطلح «الصهيونية غير اليهودية»، إلا انه لا يصح تعميمه بدءا من مطلع القرن السادس عشر. إذ انه على الرغم من صوابيّته كمصطلح بالمعنى الحرفي، فانه مضلّل تاريخيا؛ فالأساس هو الفكر الديني البروتستانتي، والذي ــ ربّما ــ لولاه لما نشأت صهيونية دينية، وبالتالي صهيونية غير يهودية. وقد ارتأينا تثبيت مصطلح «الصهيونية الدينية»، كما ورد أعلاه، وخصوصا في مرحلة الاصلاح الديني الأولى، وتثبيت مصطلح «الصهيونية غير اليهودية» على جميع الأفكار والدعوات والنشاطات التي تفرعت من هذه المرحلة، وسواء أكانت دينية ام غير دينية. ولا يوجد لهذا المصطلح ذكر في المراجع الصهيونية، لكن يوجد فيها تفاصيل عن المشاريع والدعوات المؤيدة للصهيونية، وقد كرّسته ريجينا شريف عنوانا لكتابها عن الموضوع.[١٥٠]

١ ــ الدعوات الفكرية والأدبية

اصبح أنبياء اليهود يحتلون بالتدريج مكانة الأبطال اليونان الكلاسيكيين في عالم الأدب الغربي. وحتى اليهود المعاصرون باتوا يصوَّرون كشخصيات متميزة. وجاءت مرحلة حلّ الأدب فيها مكان النهج الديني، ولمعت أسماء عديدة من الشعراء والأدباء الذين انصرفت أقلامهم الى وصف الشخصيات والصفات اليهودية. وقد فاقت حماسة البعض منهم، في تأييد عودة اليهود الى فلسطين، كل تصوّر.

كان من الشعراء الكبار جون ملتون، وكوليريدج، واللورد بايرون، ووليام بليك، ووليام وردزوورث، وروبرت براونينغ. وكان اللورد بايرون هو الذي اختصر قضية العودة في بَيْتَيْنْ من الشعر:

---

(١٤٩) Restoration Movement.

(١٥٠) *Non-Jewish Zionism*

راجع أعلاه الهامش (١٤٣) في هذا الفصل.

«للحمامة البرّية عشُّها، للثعلب كهفه، للانسان وطنه،
إلاّ اسرائيل فليس لها غير القبر.»

وكان من الروائيين والترسكوت الذي ابتدع شحصية ربيكّا في روايته الشهيرة «آيفنهو»، واسكـدر دوماس الابـن الذي نادى بلسان احدى بطلاته المسرحيات بوطن دائم للشعب اليهودي. أمّا دزرائيلي، الذي اصبح رئيسا للوزراء في بريطانيا، فقد ألف العديد من الروايات، تضمنت اثنتان منها محتوى سياسيا صهيونيا واضحا. وقد كان دزرائيلي من كبار المتحمسين للصهيونية.(١٥١)

غير ان ابرز الشخصيات الروائية التي حسّدت الحلم اليهودي، وأكثرها شهرة، هي شخصية دانييل ديروندا؛ وهو البطل الذي أطلقت اسمه الكاتبة الانكليزية المعروفة جورح إليوت على روايتها الصادرة سنة ١٨٧٦.(١٥٢) ولّما كانت جورج إليوت من كبار الروائيين الانكليز، فقد نالت روايتها شهرة بعيدة المدى وقد ساهمت في خلق الدافـع الخيالي، باعثة قضية اليهودي على صورة شاب مثالي يبحث عن حرية شعبه. ومما ورد على لسانه:

> ان الفكرة التي تستحود عليّ هي استعادة وحود سياسي لأبناء قومي، وابعاثهم شعبا من جديد، ومنحهم وطنا قوميا، كما يوحد للانكلير الذين هم بدورهم، أيضا، يتوزعون في أنحاء المعمورة. تلك مهمة تتحسّد لي كواحب، وأنا مرمـع على القيام بهذا الواجب مهما تكن البداية صعيفة أنا مزمـع على تكريس حياتي له.(١٥٣)

وقد اعتبرت «أنسيكلوبيديا الصهيونية واسرائيل» ان رواية دانييل ديروندا كانت «مقدمة ادبية» لوعد بلفور.(١٥٤)

كان للصهيوبية أنصار ومؤيدون أيضا بين الفلاسفة والعلماء، أمثال جون لوك، وإسحق نيوتن، وباسكال؛ وحتى في ألمانيا، البلد الذي اشتهر بمعاداة السامية، وبالأقوال الكارهة لليهود على ألسنة بعض فلاسفته ومؤرخيه، كانت هناك أقوال في مصلحتهم تعتبر إكسير الصهيونية؛ فقد توصل

---

(١٥١) راحـع:

Sharif, *op. cit*, pp 34-35, 43-45, Malachy, *op cit*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol II, p. 949.

نشر دررائيلي سنة ١٨٣٣ روايته *The Wondrous Tale of Alroy*، وسنة ١٨٤٧ روايته *Tancred*.

(١٥٢) جورج إليوت هو الاسم المستعار الدي اشتهرت به الروائية ماري آن إيفانز (١٨١٩ ـ ١٨٨٠)، وقد اصدرت روايتها الأخيرة *Daniel Deronda* في ثمانية أحزاء، صدر كل جزء منها في مطلـع كل شهر، بالتتابـع ابتداء من شباط/فبراير ١٨٧٦

(١٥٣) George Eliot, *Daniel Deronda*, first published 1876 (England Penguin Books, 1976), p. 875.

(١٥٤) Malachy, *op. cit*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. II, p. 949

الفيلسوف البروتستانتي الألماني يوهان هيردر،[155] من خلال دراسته للعهد القديم، الى القول بـ «العبقرية اليهودية»، كما وصف اليهود القدماء بأنهم «شعب متميّز».[156] وكذلك ساهم الفيلسوف الكبير كانت في تكريس الاعتقاد ان اليهود شعب لا طائفة.[157]

على الرغم من وفرة الاكتشافات العلمية للقوانين الطبيعية في القرن الثامن عشر، وعلى الرغم من شيوع موجة التحدي للسلطة الدينية، فانه عوضا من ان يتوجه كبار العلماء الى دحض النبوءات الدينية اللامنطقية قاموا بتكريسها عبر محاولتهم تفسيرها تفسيرا علميا، وخصوصا فيما يتعلق بعودة اليهود. وقد نشر بحث لإسحق نيوتن بعد وفاته (١٦٤٣ ــ ١٧٢٧) جاء فيه انه توصل الى ان اليهود سيرجعون الى وطنهم الأول. أما الطريقة لتحقيق دلك، فهو لا يعرف كيف، ولْتُترك للزمن.[158]

وتوصل ديفيد هارتلي، الفيلسوف والطبيب الذي ساهم في إرساء قواعد علم النفس الحديث (١٧٠٥ ــ ١٧٥٧)، الى ان اليهود على الرغم من تفرقهم الحالي فهم يؤلفون كيانا سياسيا موحدا، ولهم مصير قومي واحد.[159] وكذلك آمن جوزف بريستلي، الكيميائي ومكتشف مادة الأوكسجين، إيمانا قويا بالمهمة المسيائية للشعب اليهودي، وبالتكامل بين المسيحية واليهودية.[160]

٢ ــ التحركات والمشاريع: «حركة العودة»

ظهرت في بريطانيا بين عدد من المسيحيين البروتستانت، رجالا ونساء، حركة تدعى «حركة العودة»؛ وهي حركة منطلقة من إيمان المسيحيين بعودة اليهود الى فلسطين. وقد اعتقد رواد هذه الحركة ان على العالم ان يساعد اليهود في استعادة فلسطين.[161] وسيتضح معنا، في الصفحات

---

(١٥٥) راجع نظرية وحدة اللغة في ابعاث القوميات ليوهان هيردر، التي أشرنا اليها أعلاه في البند أولا ــ الفصل الأول ــ القسم الثالث

(١٥٦) Sharif, *op cit.*, p 37

نشر هيردر آراءه أعلاه في كتابه الصادر سنة ١٧٨٣: *Vom Geiste der Hebraeischen Poesie* (*Ibid.*).

(١٥٧) *Ibid.*

(١٥٨) *Ibid*, p. 36.

نُشر بحث نيوتن بعنوان:

Observations upon the Prophecies of Daniel and the Apocalypse of St. John (*Ibid.*).

(١٥٩) *Ibid.*

نشر هارتلي كتابه سنة ١٧٤٩ بعنوان.

Observations on Man, his Fame, his Duty and his Expectations (*Ibid.*)

(١٦٠) *Ibid*

(١٦١) Sankowsky, *op. cit.*, p. 22

التالية، ان مشكلة هؤلاء الرئيسية لم تكن في إقناع العالم بل في إقناع اليهود انفسهم.

يعتبر توماس برايتمان (١٥٦٢ ــ ١٦٠٧) مؤسس حركة العودة. وقد لاقت دعوته أذنا صاغية، وخصوصا من الكبار أمثال كرومويل نفسه،[١٦٢] والقاضي هنري فينش الذي اصدر أول كتاب عن الصهيونية في لندن سنة ١٦٢٨،[١٦٣] وروجر وليامز المدافع عن الحرية الدينية ومؤسس مستعمرة رود آيلاند؛ وهي احدى المستعمرات البريطانية الرئيسية الثلاث عشرة في الولايات المتحدة.[١٦٤]

ورفع جماعة من البيوريتانيين الانكليز، سنة ١٦٤٩، أول عريضة تطالب بعودة اليهود بصورة عملية. وقد حثّوا فيها الحكومة على ان تقوم بريطانيا بنقل أبناء اسرائيل على سفنها الى ارض أجدادهم.[١٦٥]

وفي فرنسا، شملت حركة العودة سياسيين فرنسيين، أمثال السفير إسحق دو لا بيرير (١٥٩٤ ــ ١٦٧٦)؛ فهو الذي تقدم من ملك فرنسا بالتماس يطلب فيه بعث اسرائيل بعودة الشعب اليهودي الى الأرض المقدسة.[١٦٦] وكذلك قام المركيز فيليب لانغالُري (١٦٥٦ ــ ١٧١٧) بمباحثات دبلوماسية مع السفير العثماني في هولندا في شأن منح فلسطين لليهود،[١٦٧] وفي مقابل ذلك يأخذ السلطان العثماني روما.[١٦٨]

وفي الدانمرك قام هولغير باولي (١٦٤٤ ــ ١٧١٤) بنشاط متواصل، ابرزه إرسال المذكرات الى

---

(١٦٢) Malachy, *op cit*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel,* Vol II, p 948

(١٦٣) Lucien Wolf, *Notes on the Diplomatic History of the Jewish Question* (London: Spottiswoode, Ballantyne, 1919), p 100.

لم ينشر فيش اسمه على صفحة الغلاف، وعنوان كتابه:

The World's Great Restoration, or the Calling of the Jews (*Ibid*.)

(١٦٤) Malachy, *op. cit*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel,* Vol. II, p. 948.

(١٦٥) Sharif, *op cit*, pp 24-25.

كتب العريضة أعلاه جوانا وإبنزر كارترايت، وهما بريطانيان يقيمان في أمستردام (*Ibid*., p. 24)

(١٦٦) لم ينشر التماس إسحق دو لا بيرير أعلاه إلّا بعد وفاته بقرنين، اي بعد دعوة نابليون للسنهدرين سنة ١٨٠٧. راجع:

Ibid, p. 27, Sokolow, *op cit*, Vol I, pp 41-42

(١٦٧) Malachy, *op cit*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel,* Vol II, p 948.

(١٦٨) Sharif, *op. cit*, p. 27

ربما كان اقتراح المركيز لانغالُري أعلاه هو السبب في اعتقاله واتهامه بالتجسس والخيانة العظمى (*Ibid*.).

ملوك أوروبا بشأن تأسيس مملكة يهودية في فلسطين.(١٦٩) ولم يمر ببال هذا الدانمركي، او سواه من روّاد حركة العودة، ان القرن الثامن عشر لن ينتهي قبل صدور وعد نابليوني فرنسي بإنشاء دولة يهودية في فلسطين.

لم يكن نابليون بونابرت أمبراطورا بعد، حين اصدر الوعد الرسمي الأوروبي الأول لليهود بفلسطين، لكنه كان قائدا للجيوش الفرنسية في آسيا وأفريقيا. وقد اصدر نداءه الشهير، الذي يدعو فيه اليهود في آسيا وأفريقيا الى الانضواء تحت أعلامه من أجل استعادة القدس، سنة **١٧٩٩**، بينما كان يزحف بجيشه من العريش في مصر شمالا نحو فلسطين.(١٧٠)

خاطب نابليون اليهود في ندائه بقوله انهم «الاسرائيليون الشعب المتميز»، وانهم «الورثة الشرعيون لفلسطين»، ودعاهم الى «إحياء كيانهم السياسي كشعب بين الشعوب.»(١٧١) ولم يكن لنداء نابليون اي اثر مباشر لأسباب متعددة، أهمها فشله في دخول عكا وتراجعه عنها، ثم اضطراره الى الانسحاب من مصر أيضا، كما ان اليهود انفسهم لم يكترثوا للأمر. إنما ليس صحيحا ان النداء كان مجرد وثيقة تاريخية للذكرى؛ فقد كان جرس الانذار في أُذن بريطانيا التي هزّتها منافسة فرنسا لها في المشرق.

وإنْ يكن نابليون قد فشل عمليا في مشروعه الصهيوني، إلاّ انه نجح نظريا في إرساء القواعد الرئيسية للمشاريع الصهيونية القادمة، وخصوصا قاعدة حتمية التحالف بين الصهيونية ودولة اوروبية كبرى.(١٧٢)

كذلك يبدو اثر نابليون جليا في كاتب بريطاني من طراز جيمس بيكينّو، الذي كان من رواد «حركة العودة» في مطلع القرن التاسع عشر، ومن اشد المتحمسين لعودة اليهود عودة سريعة بمساعدة دولة كبرى. لكنه رأى ان تكون هذه الدولة فرنسا، لا بلده بريطانيا. وكانت ابرز أعماله سلسلة من الكتيبات، هدفها تعريف الشعب البريطاني بتاريخ اليهود وقضيتهم. وقد اعيدت

---

(١٦٩) Malachy, *op cit*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. II, p. 948

(١٧٠) Wolf, *op. cit.*, p. 104; Sokolow, *op cit.*, Vol. II, p 220.

(١٧١) راجع نص النداء في:
Sharif, *op. cit.*, pp. 50-51.

(١٧٢) اتسمت نظرة نابليون بونابرت الى اليهود بالتناقض؛ فهو يدعوهم الى التجمع في القدس، كما لو كان صهيونيا، بينما يدعوهم ويدعو السنهدرين في باريس الى التخلي نهائيا عن أحلام العودة والى الاندماج في المجتمع الفرنسي وأما مشاعره تجاههم فكانت أيضا متناقضة؛ بين الاعجاب أحيانا والنفور أحيانا اخرى. أنظر:
Ben-Jacob, *op. cit.*, p. 98.

طباعتها مرات، وكانت الجملة الدائمة في مقدمة كل منها: «ان عودة اليهود ازمة كل الشعوب.»(١٧٣)

حمل القرن التاسع عشر تطورا بارزا في طبيعة «حركة العودة». فقد ظهرت جماعات بروتستانتية تعتبر عودة اليهود الى ارض أجدادهم ركنا أساسيا في عقيدتها. وجذبت هذه الجماعات أنظار الكثيرين، وخصوصا في إنكلترا وفرنسا؛ وكذلك في الولايات المتحدة، حيث اقترح روبنسون سنة ١٨١٩ إقامة مستوطنات يهودية في منطقة المسيسيبي العليا وفي ميسوري. أما موردخاي نواه، فقد احتل مشروعه الذي تقدم به سنة ١٨٤٥ أمام جمع من المسيحيين في نيويورك، مركز الصدارة بين مشاريع العودة؛ فهو ينص (الى جانب التطورات التي أضافها اليه فيما بعد)، على عودة اليهود نهائيا الى فلسطين؛ إلاّ انه، كمرحلة تمهيدية، دعاهم الى إقامة المستوطنات في منطقة آرارات قرب بافالو وشلالات نياغرا.(١٧٤) وقد ايد الرئيس الأميركي جون آدامز عودة اليهود، في رسالة وجهها الى نواه.(١٧٥)

برزت تغيّرات مهمة في السياسة الأوروبية الدولية تجاه الشرق، منذ قام ابراهيم باشا، نجل الخديوي محمد علي وقائد جيشه، بالتوجه نحو بلاد الشام سنة ١٨٣٠. وكان الهدف الأكبر لحملة ابراهيم باشا تحقيق طموحات والده الخديوي الى إقامة مصر الكبرى. لكن طموحات الخديوي وحروبه ضد السلطنة العثمانية، قد انعكست على السياسة الأوروبية عامة، والبريطانية خاصة، فأصبحت مصر قضية دولية. ومن هنا، اخذت المنطلقات الدينية تختلط بالمصالح السياسية والاقتصادية، حتى اصبحت فكرة إنشاء دولة يهودية لحساب بريطانيا في فلسطين تعتبر مشروعا مستقبليا ناجحا، من وجهة المصالح البريطانية؛ فهذه الدولة اليهودية ستكون ــ مبدئيا ــ دولة عازلة بين الأتراك والمصريين.(١٧٦)

نشرت صحيفة «ذي غلوب» اللندنية سنة ١٨٣٩ سلسلة مقالات تدعو فيها الى إنشاء دولة مستقلة في سوريا وفلسطين، تؤمّن الاستقرار الجماعي والنهائي لليهود. وعرف ان هذا المشروع قد

---

(١٧٣) Albert M Hyamson, *British Projects for the Restoration of Jews to Palestine*. Reprinted from the Publications of the Jewish Historical Society, No. 26, 1918, pp. 129-130.

(١٧٤) Gottheil, *op. cit.*, in *The Jewish Encyclopedia*, Vol. 12, p 668.

(١٧٥) Malachy, *op. cit.*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. II, p. 948.

جون آدامز هو الرئيس الثاني للولايات المتحدة (١٧٩٧ ــ ١٨٠١)، وقد توفي سنة ١٨٢٦ قبل تبلور مشروع نواه نهائيا، إلاّ ان موردخاي نواه كان قد ابتدأ النشاط المتواصل لمشروعه منذ سنة ١٨١٨.

(١٧٦) Laqueur, *op cit.*, p. 43.

نال تأييد اللورد بالمرستون، وزير الخارجية يومذاك.[(١٧٧)] وكان من المعروف، أيضا، ان بالمرستون يستمع كثيرا الى اللورد شافتيسبري، الذي ناصر القضايا الصهيونية طوال حياته (١٨٠١ ـ ١٨٨٥)، كما انه كان من أقرباء بالمرستون وأصدقائه. وقد تقدم اللورد شافتيسبري بمشروع الى وزارة الخارجية البريطانية لاستيطان اليهود في فلسطين، على ان يخضعوا للحكم القائم في البلاد. وطالب بضمانات من الدول الأربع الكبرى.[(١٧٨)]

لم ينجح مشروع شافتيسبري. غير ان صاحبه لم يعرف اليأس، وانتظر مناسبة اخرى؛ فلمّا كانت حرب القرم بين العثمانيين والروس على وشك الوقوع سنة ١٨٥٤، سجّل في مذكراته ان المنطقة في غليان، وأنها مقبلة على تغيّرات، وأن عددا كبيرا من المناطق سيصبح بلا حكام. ولمّا تساءل عن القوة التي يمكن إعطاؤها فلسطين، وهل ستكون أميركا ام احدى دول المشرق؟ ردّ على تساؤله بنفسه، وفي مذكراته، كالآتي:

«لا. لا لا. هناك بلد بلا شعب؛ والله يوجهنا الآن بحكمته ورحمته نحو شعب بلا وطن.»[(١٧٩)]

وقد تبنى الصهاينة فيما بعد هذه الجملة، وأصبحت من أول الشعارات الصهيونية، كالآتي: «ارض بلا شعب، لشعب بلا ارض.»[(١٨٠)]

لم يكن شافتيسبري ـ بحماسته اللامحدودة ـ نسيجا وحده، بل كان واحدا من مجموعة من كبار الانكليز الذين صرفوا جل اهتمامهم وعملهم، في العقدين الخامس والسادس، من أجل إعادة اليهود الى فلسطين. ومن هؤلاء البارزين الكولونيل تشارلز هنري تشرشل الذي كان قنصلا سابقا لبريطانيا في دمشق؛ فقد كان من كبار المتحمسين للدولة اليهودية، ومن المؤمنين بأن مهمة بريطانيا التاريخية ان تقود اليهود المعذبين في عودتهم الى وطنهم الأصلي.[(١٨١)]

بعث الكولونيل تشرشل برسالة الى السير موسى مونتفيوري، احد أقطاب اليهود الأثرياء،

---

(١٧٧) *Ibid.*

(١٧٨) Hyamson, *op cit.*, pp. 138-139, as quoted from Edwin Hodder, *Life of Lord Shaftesbury*, Vol. I, pp. 310-314.

(١٧٩) *Ibid.*, pp 139-140, as quoted from Hodder, *op cit*, p. 478

(١٨٠) شعار شافتيسبري بالانكليزية:

«A country without a nation for a nation without a country,»

والشعار الصهيوني، لاحقا:

«A land without a people for a people without a land.»

(١٨١) Laqueur, *op cit*, p. 43.

يناشده فيها ان يأخذ اليهود قضيّتهم على عاتقهم؛ فهذا أمر لا بدّ منه، إذ «تبقى لليهود خطوة البداية. وليتقدّم الحركة الأشخاص اليهود البارزون في مجتمعهم. فليجتمعوا، وليتّفقوا وليقدّموا العرائض.» وأوضح تشرشل ان همه الأكبر تخليص «هذه البلاد من قبضة حكامها الجهلة والمتعصّبين... سوريا وفلسطين، بكلمة واحدة، يجب ان تصبحا تحت الحماية الأوروبية...» وازداد تشرشل حماسة، وهو يخاطب مونتفيوري: «أنظر الينا هنا ونحن جميعا ننتظر، ونتحرّق للعودة الى تلك الأرض التي تنشدون انبعاثها وتكوينها من جديد... فلسطين تطلب عودة أبنائها اليها.»(١٨٢)

لقد فاقت حماسة تشرشل الانكليزي عشرات المرات حماسة اليهود الذين كان يخاطبهم. فقد كانت اقصى ردة فعل لمونتفيوري على حماسة تشرشل، انه اكتفى ذات مرة بإعطائه مبلغا من المال كي يوزعه على فقراء اليهود لدى عودته الى الشرق.(١٨٣) أما ردة فعل مجلس ممثلي اليهود في لندن، على رسالة مماثلة، فقد كانت في منتهى البرودة والحذر، وتذرّع المجلس بضرورة استشارة اليهود في كل أوروبا.(١٨٤)

تركّزت مصالح بريطانيا في الشرق، في منتصف القرن التاسع عشر، في تأمين المواصلات الى الهند عبر سوريا، وفي المحافظة على امن الهند الذي كان مهددا من قبل فرنسا وروسيا. ومن أجل ذلك، كان لا بد من التحالف بين سياسة الامبراطورية الاستعمارية، وبين الصهيونية ـــ الدينية ـــ البروتستانتية التي كان زعماء حركة العودة من أبنائها البررة.(١٨٥) وقدّم العديد من هؤلاء مشاريع الى الحكومة البريطانية، كان من أهمها مشروع توماس تالي الذي دعا الى عقد اجتماع في لندن بهدف تأسيس جمعية بريطانية وأجنبية لتشجيع عودة الشعب اليهودي الى فلسطين؛(١٨٦) ومشروع صموئيل اسكندر برادشو، سنة ١٨٤٤، الذي شدد فيه على واجب

---

(١٨٢) Wolf, *op cit*, pp. 119-120

تاريخ الرسالة ١٤ حزيران/يونيو ١٨٤١، اي في السنة التالية لحادثة الأب توما الكبوشي في دمشق

(١٨٣) Hyamson, *op cit*, p 141

استقر الكولونيل تشرشل في سوريا بعد تقاعده، وعاش فيها حتى وفاته.

(١٨٤) راجع النصوص الأصلية لرسائل الكولونيل تشرشل والردود عليها في:

Wolf, *op cit.*, pp. 119-124.

(١٨٥) راجع:

Sharif, *op cit.*, p 43

(١٨٦) Malachy, *op cit.*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol II, p 949

الدول المسيحية تجاه إعادة اليهود الى فلسطين، واقترح ان تمنح الحكومة المشروع اربعة ملايين جنيه، وأن تجمع الكنائس مليونا خامسا.[١٨٧]

تعددت الاقتراحات والمشاريع البريطانية، لكن أهمها ما كان يصدر عن اللورد بالمرستون وجماعته. وقد كان بالمرستون زعيما ليبراليا، ووزيرا للخارجية، ورئيسا للوزراء منذ منتصف الخمسينات حتى وفاته سنة ١٨٦٥.

يعتبر بالمرستون من أكثر الساسة الانكليز شوفينيّة في السياسة الخارجية، وفي مقدمة الساسة الانكليز الذين نفخوا في الصهيونية، قبل ان تولد، الروح العنصرية الاستعلائية؛ فبالنسبة الى بالمرستون، كان اليهود شعبا حضاريا، وكانت تركيا بلدا متأخرا وبحاجة الى اللحاق بركب الحضارة الغربية، خدمة للمصالح البريطانية. ومن أجل تحقيق مشروع «عصرنة» تركيا، لا بد من ربطها بالغرب عن طريق مشروع الاستيطان اليهودي. ويشدد بالمرستون، في رسالة كتبها الى سفيره في الآستانة، على اهمية المال اليهودي والصناعة اليهودية، وأثرهما في التطور الحضاري لتركيا.[١٨٨]

كان من الطبيعي ان يكون لبالمرستون أصدقاء وحلفاء داخل اجهزة الحكومة البريطانية، ومن ابرزهم إثنان من كبار العاملين في وزارة المستعمرات، وهما ميتفورد وغولير، وقد تقدّم كل منهما بمشروع أكثر صهيونية وأبعد استعمارا من وعد بلفور الذي صدر بعد أكثر من سبعين عاما.

تقدّم إدوارد ميتفورد سنة ١٨٤٥ بـ«نداء لمصلحة الشعب اليهودي بالترابط مع السياسة البريطانية في الشرق»، دعا فيه بوضوح الى إعادة كيان للشعب اليهودي تحت حماية بريطانية. وجاء فيه:

> [ان فلسطين] على الرغم من كونها الآن قاحلة ومهجورة، فهي بحاجة فقط الى شعب حيوي وصناعي، وما أكثر ميزاتها الطبيعية من التربة والمناخ.
>
> ان الفوائد التي يمكن ان تجنيها إنكلترا من وراء هذا عظيمة جدا، والى الحد الذي قد يبدو معه ان مشروعي الحقيقي ما هو إلاّ لفائدة بلدي، لا للدفاع عن قضية الجنس المضطهد والذي لا يؤذي أحدا... لكنها الحقيقة. . ان حماية هذا الشعب سرعان ما ستعود بالبركات على إنكلترا.[١٨٩]

ان ابرز ما ورد في مشروع ميتفورد نقطتان:

الأولى: «إعادة إنشاء كيان للشعب اليهودي في فلسطين كدولة محمية، تحت وصاية بريطانيا

(١٨٧) Hyamson, *op cit*, pp 142-143.

(١٨٨) Sharif, *op cit*, p 60, as quoted in Public Record Office MSS, F.O. 78/427 (No 33), Palmerston to Ponsonby, 17 February 1841

(١٨٩) Hyamson, *op.cit.*, p 143, as quoted in E.L Mitford, *An Appeal in Behalf of the Jewish Nation, in Connection with British Policy in the Levant* (London, J Hatchard and Son, 1845)

العظمى، وخلال مرحلة تقاس مدتها بمدى تقدمهم (اليهود) نحو بناء دولة معاصرة في المعرفة والحضارة المستيرة.»

والثانية: «ان قيام الدولة نهائيا، كدولة مستقلة، يتحقق عندما تتمكن المؤسسات الأم (اليهودية) من إحراز قوة كافية تسمح بسحب هذه الوصاية (البريطانية)، وعندما تتطور الخصائص القومية تطورا كافيا، وعندما تبرأ الروح القومية من كآبتها، مما يسمح لهم بحكم انفسهم بأنفسهم . . »(١٩٠)

وأكّد ميتفورد ان لهذا المشروع اهمية لا توصف بالنسبة الى بريطانيا العظمى من أجل استرجاع قوتها في الشرق، ومن أجل إعطائها يدا حرة في مواصلاتها مع ممتلكاتها (الهند).(١٩١)

أما الكولونيل جورج غولير، الحاكم البريطاني السابق في جنوب أوستراليا، فقد كان يعتبر ابرز هؤلاء المنادين بعودة اليهود مع مساعدة بريطانيا؛ فمنذ عودته من أوستراليا الى بلده، كرّس نشاطه للمسألة اليهودية. وقد تفوق على رفاقه الآخرين لكونه خبيرا بالادارة، وخبيرا بالاستعمار ووسائله. وهو نفسه خير من يعرف ذلك، إذ يقول في تقديمه لمشروعه الصهيوني بعنجهية تفتقر الى الحد الأدنى من التواضع:

«اني، بفضل العناية الالهية . . تمكنت من تأسيس اروع مستعمرة ظهرت حتى الآن في العالم كله ولذلك، فانني أطمح حادا الى ان اصبح مستشارا في شأن تأسيس اهم مستعمرة يمكن للعالم ان يشهدها ــ أول مستعمرة يهودية في فلسطين.(١٩٢)

أطلق غولير على المشاريع الأخرى المشابهة وصف «الخطط المتوحشة». وقد يبدو مشروعه معتدلا ظاهريا، إلاّ انه في حقيقته لا يقل تطرفا عن مشروع ميتفورد.

رأى غولير ان مأساة فلسطين تكمن في كونها صحراء ليس إلاّ، وهي التي كانت تدرّ لبنا وعسلا. ورأى ان الشعب الانكليزي هو المسؤول عن إيجاد العلاج لفلسطين المهجورة؛ لذلك، فحجر الأساس في خطته هو الحماية البريطانية «من أجل تزويد المدن والبقاع المهجورة بالشعب الحيوي الذي تنغرس مشاعره المتقدة عميقا في التراب.» وكخطة عملية، اقترح غولير إنشاء

---

(١٩٠) *Ibid*

(١٩١) *Ibid.*, pp 143-144

عمل ميتفورد في سيلان، كما عاش في مراكش والشرق الأدنى، وهناك عرف اليهود عن كثب.

(١٩٢) *Ibid.*, p 144, as quoted in Colonel George Gawler, *Tranquillization of Syria and the East Observations and Practical Suggestions in furtherance of the Establishment of Jewish Colonies in Palestine, the most sober and sensible remedy for the miseries of Asiatic Turkey* (London. T & W. Boone, 1845).

مستعمرات صغيرة مدنيا، يشرف القنصل البريطاني عليها بالتشاور مع ممثلي تركيا. أما العبء المالي في حطة الاستيطان فيجب ان يتحمله، بصورة أساسية، الشعوب التي اضطهدت اليهود.[١٩٣]

توصل غولير الى ان اليهود سيُمْنَحون في النهاية حكومة خاصة بهم، لكن تحت الوصاية البريطانية. واعتقد ان فلسطين ــ كدولة يهودية ــ هي الضمانة الوحيدة للحفاظ على هيمنة بريطانيا في الشرق.[١٩٤]

لم تكن بريطانيا وحدها مسرحا للمشاريع والدعوات. فقد ارتفع صوت الفيلسوف السياسي بنيديتّو موسولينو (١٨٠٩ ــ ١٨٨٥) من إيطاليا، مطالبا بعودة اليهود وسيلةً من أجل نشر الحضارة الأوروبية في الشرق الأوسط

وتشابهت الدعوات وتعددت، وخصوصا من فرنسا، في إثر حرب القرم (١٨٥٤ ــ ١٨٥٦). فقد حرّكت هذه الحرب أطماع فرنسا في الشرق، وتزايد فيها عدد السياسيين والكتّاب ورجال الدين الذين تبنّوا فكرة عودة اليهود، كنتيجة طبيعية لاهتمامات فرنسا الجديدة بمستقبل سوريا وفلسطين.

وكانت ابرز الشخصيات الأوروبية العاملة من أجل وطن قومي لليهود، السويسري جان هنري دونان، مؤسس الصليب الأحمر الدولي، وأيضا مؤسس جمعية فلسطينية لاستيطان اليهود.

اتصل دونان بنابليون الثالث، وبالحكومة التركية، وبعدّة مؤتمرات دولية، للحصول على اهتمام دولي بمشاريعه في استيطان اليهود. وقد امضى ثلاث عشرة سنة متواصلة (١٨٦٣ ــ ١٨٧٦) وهو يعمل بلا كلل، محاولا إقناع الجماعات اليهودية في باريس ولندن وبرلين كي تعمل، بدورها، من أجل الاستيطان اليهودي في فلسطين؛ لكن، بلا جدوى.[١٩٥]

ازداد نشاط «حركة العودة» في بريطانيا مع مجيء بنيامين دزرائيلي رئيسا للوزراء؛ فقد كان هو نفسه من كبار المتحمسين للمبادىء الصهيونية. وقد أشرنا الى مساهمته الأدبية الداعية الى الصهيونية في شبابه. وتُنسب اليه مذكرة سياسية قدمت الى أعضاء مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨. وقد تضمنت هذه المذكرة، التي خلت من اسم صاحبها، برنامجا صهيونيا لحل مشكلة فلسطين. إلاّ ان المذكرة لم توزع نسخها وأُتلفت كلها، بسبب معارضة بسمارك لها.[١٩٦]

---

(١٩٣) *Ibid*, pp 144-145.

(١٩٤) Sharif, *op cit*, p 61.

(١٩٥) Malachy, *op cit.*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel,* Vol., II, p. 949

عاش جان هنري دونان (١٨٢٠ ــ ١٩١٠) حتى ولادة الصهيونية، فحضر المؤتمرات الصهيونية الأولى. (*Ibid.*)

(١٩٦) *Ibid.*, p 950

كانت نتائج مؤتمر برلين مخيبة لآمال رواد «حركة العودة» وأنصارها. لكن المسألة سرعان ما نوقشت أمام البرلمان البريطاني عندما طرح إدوارد كازاليت، الاقتصادي والصناعي، عودة اليهود الى صهيون تحت حماية بريطانيا. وكان كازاليت يملك مصانع في روسيا، حيث عرف عن كثب الأوضاع السيئة التي كان اليهود يعيشونها. وهو أول مسيحي اهتم بجعل فلسطين مركزا روحيا وحضاريا لليهودية.(١٩٧)

اصدر كازاليت سنة ١٨٧٨ كتابا عن «المسألة الشرقية»، لفت فيه الأنظار الى مصالح بريطانيا الهائلة في فلسطين، وشدد على ضرورة إيجاد محمية بريطانية فيها لمصلحة بريطانيا واليهود معا. وفي السنة التالية، نشر كتابا آخر بعنوان «سياسة إنكلترا في الشرق»، أضاف فيه ان على إنكلترا ان تهيىء الأوضاع في سوريا وفلسطين من أجل هجرة اليهود اليها: وأول هذه الأوضاع، إيجاد محمية بريطانية يسودها القانون والنظام البريطانيان؛ وثانيها، بناء سكة حديد من الشاطىء الى الفرات لفسح مجال العمل أمام الآلاف من المهاجرين، ولتوفير ضمانة من أجل استمرار لقاء المحمية البريطانية في الوقت نفسه. وكان كازاليت أول من دعا، في كتابه هذا، الى إنشاء جامعة عبرية في الأرض المقدسة.(١٩٨)

اشتهر في المرحلة نفسها اسم الكاتب والسياسي الاسكتلندي لورنس أوليفانت، صاحب كتاب «ارض جلعاد» الذي صدر سنة ١٨٨٠. وقد اقترح فيه ان تُنشأ المستعمرات اليهودية في شرقيّ فلسطين (اي شرق الأردن). وقد رحبت بريطانيا وفرنسا بمشروعه، وحاول أوليفانت ان يتصرف كصديق للدولة العثمانية محاولا إقناعها بأن استقدام اليهود لزراعة أراض خصبة لم تزرع بعد، إنما هو عمل يدعم اقتصاد الدولة.(١٩٩) لكن الحكومة ارتابت بأمره فأوقفت المباحثات معه مرتين.(٢٠٠)

لم يتوقف نشاط «حركة العودة»، وأصبح وليام هيشلر يعتبر من رموزها البارزة بين رجال الدين الانكليز؛ فهو زار فلسطين سنة ١٨٨٢، وألّف لدى عودته كتاب «عودة اليهود الى فلسطين»، وفيه طوّر النهج الديني لعودة اليهود من خلال الروح الصهيونية، مقترحا ان حل «المسألة اليهودية»

---

(١٩٧) *Ibid*

(١٩٨) Hyamson, *op.cit.*, pp. 161-162, as quoted in Edward Cazalet, *The Eastern Question An Address to Workingmen* (1878); Cazalet, *England's Policy in the East· Our Relations with Russia and the Future of Syria* (1879)

(١٩٩) *Ibid* , pp 157-158.

(٢٠٠) Malachy, *op cit* , in *Encyclopedia of Zionism and Israel,* Vol II, p 950

كامن في ذلك. وعقد هيشلر مؤتمرا في لندن (أيار/مايو ۱۸۸۲) دعا اليه كبار المسيحيين للنظر في توطين اليهود اللاجئين من رومانيا وروسيا في فلسطين.[٢٠١]

أما في الولايات المتحدة، فقد شهدت هذه المرحلة تطورا ملحوظا في نشاط بعض الوزراء الأميركيين، ورجال اللاهوت على السواء. وتألف عدد من المذاهب البروتستانتية، يبشّر بعودة اليهود على النهج الديني المسيائي. وكان من ابرز الصهاينة المسيحيين وليام بلاكستون، وهو تاجر من شيكاغو زار فلسطين سنة ۱۸۸۸، فأصبح صهيونيا عمليا. وقد شرح آراءه الدينية في كتابه «المسيح آت»، الذي ترجم الى لغات عديدة. أما على صعيد النشاط السياسي، فقد تقدم بلاكستون سنة ۱۸۹۱ بعريضه الى الرئيس الأميركي، بنيامين هاريسون، يطلب فيها تدخّل الولايات المتحدة لاستيطان اليهود في فلسطين، كحل لمشكلة اليهود المعذبين في ظل الحكومة القيصرية. وحملت العريضة ٤١٣ توقيعا لشخصيات معروفة.[٢٠٢]

٣ ـ الرحلات والاستكشافات العلمية

منذ أواخر القرن الخامس عشر، تعرضت فلسطين، كغيرها من بلاد المشرق الغنيّ بتاريخه وآثاره، لرحلات ودراسات متعددة قام بها رحالة وعلماء أجانب، أفرادا وجماعات. إلّا ان فلسطين قد لاقت ــ من دون سائر بلاد المشرق ــ اهتماما خاصا، لكونها ارض التوراة ومهد المسيح، فتوجّهت اليها أنظار اللاهوتيين والعلماء لدراسة أرضها وتربتها ومناخها وآثارها، وللتنقيب بحثا عن اي اثر او دليل يعود الى العهد التوراتي.

كانت الدوافع الدينية ــ أحيانا ــ وحدها البارزة وراء البعثات الاستكشافية. ومن ابرز الأمثلة، الأميركي إدوارد روبنسون الذي ابتدأ يعمل مع تلميذه وصديقه إيلي سميث في منطقة القدس، منذ سنة ۱۸۳۸. وقد اعترف منافسه السويسري تيتس توبلر بأن أعمال روبنسون، في جغرافية فلسطين، تتجاوز في أهميتها أعمال السابقين جميعا. ومع ذلك، تبقى مساهمة روبنسون في علم الآثار بالمعنى الضيق محدودة جدا؛ إلّا انه قام ببعض الاكتشافات التي أثبتتها الحفريات فيما بعد.[٢٠٣]

---

(٢٠١) *Ibid*

التقى هيشلر فيما بعد هيرتسل في فيينا، وأصبح من كبار الدعاة للصهيونية السياسية، وهو الذي عرّف هيرتسل على القيصر ويلهلم الثاني الألماني (*Ibid.*).

(٢٠٢) *Ibid.*

قدم بلاكستون عريضة مماثلة فيما بعد الى الرئيس ولسون سنة ١٩١٦

(٢٠٣) **W F Albright,** ***The Archaeology of Palestine*** Revised and reprinted from 1949 edition (London· Penguin Books, 1956), pp. 25-26

وما يقال بشأن نتائج أعمال روبنسون، يمكن قوله بشأن أعمال الفرنسي شارل كليرمونت ــ غانو، او الانكليزي فلندرز بيتري، وحتى بشأن مجموع الاستكشافات والمسح الجغرافي الذي قامت به بعثة «صندوق استكشاف فلسطين» ــ وهي البعثة البريطانية التي احتكرت معظم الأعمال لنفسها، منذ قيامها سنة ١٨٦٥؛ فقد ارتكبت أخطاء متعددة في الحسابات والاستنتاجات، إلاّ أنها بمجموع عملها قد وضعت الأسس للأعمال الطوبوغرافية، وتاريخ القدس.[٢٠٤]

انتهى القرن التاسع عشر قبل ان تبدأ الحفريات العلمية (كحفريات أريحا سنة ١٩١٣). إلاّ أننا لسنا في صدد التوقف عند الجهود العلمية والاستكشافية والجغرافية، وما نجم عنها من مؤلفات وتقارير وأدب الرحلات، وإنما نحن في صدد التوقف عند المرامي الصهيونية التي حمل لواءها عاليا هؤلاء العلماء والمستكشفون في القرن التاسع عشر، وخصوصا أعضاء بعثة «صندوق استكشاف فلسطين»، وهي البعثة الوحيدة التي عملت كمجموعة؛[٢٠٥] فالآخرون عملوا إفراديا.

كانت سنة ١٨٣٨ سنة مهمة في التوجه البريطاني نحو فلسطين؛ فقد عيّن في تلك السنة أول قنصل بريطاني في القدس، وقام اللورد شافتيسبري (من كبار الصهاينة الانكليز) بوداعه، مسجّلا في مذكراته الخاصة، بالمناسبة، عن أمله بأن يأتي اليوم الذي ستُحفر فيه فلسطين وتنقّب، ويومذاك «تبرهن الأرض المقدسة على مصداقية التوراة وصحتها.»[٢٠٦] غير ان أمل شافتيسبري لم يتحقق قبل سنة ١٨٦٥، حين تأسست الجمعية البريطانية المعروفة باسم «صندوق استكشاف فلسطين». وقد قام بتأسيسها جماعة من الانكليز الصهاينة.

في اجتماع عقده مؤسسو الجمعية برئاسة رئيس أساقفة يورك، تحددت ابرز مبادىء العمل، بضرورة اتّباع الأصول العلمية، وتبعا لذلك فالهيئة العاملة المسؤولة يجب ألاّ تكون هيئة دينية.[٢٠٧] وربما ظن هؤلاء المجتمعون ان إخفاء الأهداف الدينية يُطمئن السلطات العثمانية. وبينما كانوا واثقين بالموافقة التامة، فاجأتهم السلطات ــ في رسالة بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٣هـ ــ بالموافقة على القيام بالحفريات من أجل الأبحاث العلمية في اي مكان في القدس، باستثناء الحرم الشريف وجميع أماكن العبادة والمقامات الدينية، إسلامية او غير إسلامية؛ وكذلك

---

(٢٠٤) *Ibid.*, pp. 26-27.

(٢٠٥) البعثة الألمانية Deutsche Orient-Gesellschaft التي أوفدها قيصر ألمانيا سنة ١٨٩٨، ظهرت نتائج أعمالها في القرن العشرين.

(٢٠٦) A. L. Tibawi, *British Interests in Palestine 1800-1901: A Study of Religious and Educational Enterprise* (London: Oxford University Press, 1961), p. 183.

(٢٠٧) *Ibid.*, p. 185.

وضعت السلطات شرط الاتفاق مع الملاّكين.(٢٠٨)

ولعل من غرائب المصادفات، او لعلّه بناء على تخطيط هادف، ان كبار الذين اوفدتهم الجمعية في لندن للبحث والتنقيب في فلسطين، لم يكونوا من علماء الآثار، وإنما من وزارة الحرب والجيش البريطاني، وخصوصا من سلاح الهندسة الملكية، ومعظمهم يعرفون المنطقة جيدا، إذ قاموا برحلات سابقة في سوريا وفلسطين ومصر والسودان.(٢٠٩)

كان الكابتن كوندِر من ابرز شخصيات البعثة، وكان همّه الأكبر سنة ١٨٧٣ اكتشاف موقع المعركة الشهيرة بين الفلسطينيين والاسرائيليين (يومَ قتل داود جليات)؛ ولمّا قامت ثورة عرابي، اختارت المخابرات البريطانية كوندر مرافقا للحملة العسكرية البريطانية التي ذهبت الى مصر لتهدئة الأوضاع.

أما الكابتن كيتشنر الذي اشتهر في الخرطوم فيما بعد، فقد انضم الى حملة التنقيب سنة ١٨٧٤، وكان ميدانه في القسم الجنوبي بين البحر الميت وخليج العقبة. وكذلك الكابتن لورنس، ضابط المخابرات الذي اشتهر فيما بعد بـ«لورنس صديق العرب»، كان أيضا في عداد الفريق العامل، وخصوصا في عمليات المسح في صحراء النقب وسيناء.(٢١٠)

ان التوقف عند أقوال البارزين في «صندوق استكشاف فلسطين»، وعند كتاباتهم، أمثال وارين وويلسون وكوندِر وسواهم، يثبت من دون شك انهم كانوا يعملون بدافع مزدوج من المشاعر الدينية والجشع الاستعماري.(٢١١) وقد بدت لهم الصهيونية جسر العبور الى ما يطمحون اليه.

نشر الكابتن وارين سنة ١٨٧٥ كتابا بعنوان «ارض الميعاد». وكان قد مضى على قدومه الى فلسطين، برفقة ضابط من سلاح الهندسة الملكية، سبعة أعوام كانت كافية ليدرس طبيعة البلاد ومستقبلها. وقد اقترح في كتابه استقدام اليهود بالتدريج مبدئيا كي لا يلفت الأنظار. إلاّ ان هؤلاء اليهود البسطاء هم الذين سيصبحون في النهاية أسياد البلاد. وتوصل وارين في تخطيطه الى إمكان استيعاب فلسطين لخمسة عشر مليونا، في حال توفر حكومة قوية، وفي حال استغلال الأرض الصالحة المنتجة.(٢١٢)

---

(٢٠٨) *Ibid.*, p. 186.

(٢٠٩) Ass'ad Razzouk, *Greater Israel. A Study in Zionist Expansionist Thought* (Beirut: Palestine Liberation Organization-Research Center, 1970), p. 28.

(٢١٠) *Ibid.*

(٢١١) *Ibid.*, p. 29

(٢١٢) *Ibid.*
اصبح لقب وارين فيما بعد سير جنرال تشارلز وارين.

أما الكابتن ويلسون، وهو الذي كان من المتطوعين الأوائل منذ سنة ١٨٦٦ لعمليات المسح في القدس وضواحيها، والذي شارك فيما بعد في الحملة العسكرية لإنقاذ الجنرال غوردون في السودان،[٢١٣] فقد كان يعلن أمام الجميع العطف الكبير الذي كان يحمله دوما لاستيطان اليهود في فلسطين.[٢١٤]

كذلك كان يعلن زميله كيتشنر صراحة ان عمله في فلسطين ليس كباحث آثار فقط وإنما كرجل سياسي أيضا؛ لذلك، فهو يتفحّص البلاد، أرضها وتربتها، تمهيدا لـ «الاستيطان اليهودي وللمستقبل المشرق الذي يبدو ان فجره سوف يطلّ على هذه الأرض.»[٢١٥]

ويبقى الاسم الأول البارز بين هؤلاء اسم الكابتن كلود كوندِر (١٨٤٨ ـ ١٩١٠)، ويعود ذلك الى حماسته الصهيونية التي لا حدّ لها، والى العمل الذي قام به، برسم خريطة مفصّلة تشمل فلسطين كلها، وقد سميت حينئذ فلسطين الغربية. أما فلسطين الشرقية (الأردن حاليا) فقد كانت هي الأخرى هدفا للاستيطان اليهودي؛ وكانت مهمة كوندِر الأساسية ان يضع على الخريطة أسماء الأماكن التوراتية، وأن يرسم الحدود لقبائل بني اسرائيل الاثنتي عشرة.

أتاح هذا العمل الفرصة لكوندر كي يتعرف على فلسطين أكثر من غيره. وقد نشر العديد من الكتب والمقالات عن تاريخ فلسطين وحاضرها ومستقبلها؛ فكان أكثر كاتب بريطاني «صهيوني» إنتاجا،[٢١٦] وهو الذي وصفه المؤرخ اليهودي سوكولوف بأنه أفضل عالم وخبير بفلسطين في عصره.

حين أعلن هيرتسل قيام «الصهيونية» رسميا في بازل، كان كوندر من أوائل الذين اعتنقوها. إلّا ان ذلك لا ينفي انه كان ـ عمليا وفكريا ـ صهيونيا قبل هيرتسل. وتتلخص صهيونيته بالآتي: اعتقد كوندر ان يهود أوروبا الشرقية هم الذين يعوّل عليهم للقيام باستيطان مزدهر، مبرهنا على ذلك بأن اليهود الذين اعتادوا ظلم القياصرة لن يضيرهم ظلم السلطان؛ ولم يفصل كوندر بين غربي النهر وشرقيه، فهي فلسطين الغربية والشرقية. وفي هذا البعد يكمن مشروع «اسرائيل

---

(٢١٣) *Ibid*

اصبح لقب ويلسون فيما بعد سير جنرال تشارلز ويلسون.

(٢١٤) Hyamson, *op cit*, p 158.

(٢١٥) *Ibid*

(٢١٦) Razzouk, *op cit*, pp. 29-30.

اصبح لقب كوندر فيما بعد كولونيل كلود رينيي كوندر. ومن مؤلفاته عن تاريخ اليهود:

Heth and Moab, Syrian Stone Lore, The Hittites and their Language; the Latin Kingdom; The City of Jerusalem (Ibid)

الكبرى» فيما بعد؛ وألحّ كوندر باستمرار على جمعية «أحباء صهيون» في شراء كل ما يمكن شراؤه من الأراضي.

وكان كوندر من أوائل الذين لم يحصروا الاستيطان اليهودي بالنوازع الدينية او الانسانية (لإيواء الفقراء والمضطهدين)، بل نظر الى حركة الاستيطان اليهودي كحركة طبيعية صحية، يجب تشجيعها بدعمها بالقوة والمال.(٢١٧)

من هنا، كان طبيعيا ان يوافق كوندر فورا على خطة لورنس أوليفانت باستيطان اليهود ارض جلعاد، شرقيّ نهر الأردن، وأن يقدّم له خبرته بشؤون الأرض والناس.(٢١٨)

مهدت أعمال بعثة «صندوق استكشاف فلسطين»، بالاضافة الى شهادات الرحالة والعلماء وكتاباتهم، دربا واضح المعالم للصهيونية السياسية؛ كما ساهمت في زرع فكرة «فلسطين الكبرى»، التي اصبحت «اسرائيل الكبرى».(٢١٩)

٤ ـ تجاهل شعب فلسطين

ان مجموعة العوامل التي ادت الى قيام الصهيونية، والتي عالجناها في هذا الفصل، لا يمكنها ـ واقعيا ـ ان تنجح في إقامة وطن صهيوني على ارض يمتلكها شعب، اي شعب؛ لذلك، فالشرط الأول لخلق وطن صهيوني كان في القضاء على الوطن الأصيل، الوطن الفلسطيني.

والشرط الأول لتجميع شعب يهودي على ارض فلسطين، كان في إلغاء شعب فلسطين. وإنْ يكن هذا الالغاء شبه مستحيل، فالتجاهل والتحقير والتحامل على هذا الشعب هي المواقف والآراء التي امتلأت كتابات المستشرقين والرحالة والمستكشفين بها. وإنْ تكن الأغلبية من هؤلاء قد تصرفت قولا اوكتابة، بوعي منها، فانه حتى الأقلية التي لا يبدو وراءها دافع صهيوني اوحتى ديني، قد انجرفت مع التيار؛ فلم تشاهد في سكان فلسطين إلّا شراذم جاهلة متعصبة، لا تؤلّف شعبا ولا تستحقّ، أصلا، ان تؤلف شعبا. وفي هذا المجال، نجد قصب السبق للفكر الأوروبي على الفكر الصهيوني؛ فالمنحى الفكري الأوروبي الصهيوني غير اليهودي، هو الوعاء الذي تمخضت عنه اهم الأفكار العدوانية المتحاملة على شعب فلسطين.

لن نخوض في ما وراء هذا المنحى ـ تاريخيا ـ من حروب ما بين الشرق والغرب، الشرق الاسلامي والغرب المسيحي، او من فكر استشراقي عريق في تحامله على الشرق العربي الاسلامي؛

---

(٢١٧) Sokolow, *op.cit*, Appendix LXXIII, Vol II, pp. 274-276.

(٢١٨) Hyamson, *op cit.*, p. 154

(٢١٩) Razzouk, *op cit*, pp 31-32.

بل سنكتفي بالتوقف عند ابرز المقولات غير الصحيحة والمغرضة في تاريخ فلسطين وشعبها، وهي المقولات السلبية التي روّج لها الرحالة والمستكشفون الأوروبيون، والتي تعبّر في مجموعها عن احتقار لهذا الشعب وتجاهله من قبل هؤلاء الصهاينة غير اليهود، تماما كموقف الصهاينة اليهود بعدهم.

ارض بلا شعب: لم يجد هؤلاء كلمة غير كلمة فلسطين دلالةً على الأرض المقدّسة، فاستعملوها. إلاّ ان لفظة «فلسطين» كانت تعني الأرض وحدها، لا الأرض وشعبها؛ فهناك فلسطين، لكن... لا يوجد فلسطينيون. هناك جماعات من بدو، من فلاحين، من مسلمين متأخرين وإنْ سمّوا عربا في المناسبات، فذلك لا يكون إلاّ عند ارتباط «العرب» هؤلاء بالمعاني السيئة؛ لكن ليس هناك فلسطينيون

ان هذا التجاهل، بحد ذاته، هو الأول من نوعه عبر التاريخ. فهل يعقل ان تكون هناك فرنسا، ولا يكون هناك فرنسيّون؟ وحتى المستعمرات المحكومة وفقا لمنطق الاستعمار في القرن التاسع عشر، هل يعقل ان تكون هناك بلاد تدعى الهند، ولا يكون هناك هنود؟

اللغة العبرية أولا: من الحقائق التاريخية التي لا يجادل فيها ان اللغة الكنعانية هي اقدم اللغات انتشارا في فلسطين. ومع ذلك كانت عملية إقحام اللغة العبرية، باعتبارها اللغة الأولى في تاريخ فلسطين، عملية تستمد جذورها من كون التوراة اقدم الكتب المعروفة دينيا وتاريخيا. وقد بلغ الهوس بالرحالة الشهير كوك الى ان يقول كلاما لا يستند الى اي منطق تاريخي او لغوي علمي؛ إذ يقول: «ان اللغة القديمة التي كانت تستعمل في فلسطين قبل دخول بني اسرائيل وبعده هي اللغة العبرية.»(٢٢٠)

ومن منطق اللامنطق نفسه أعلاه، حلّ كوك معضلة اصطدامه بالحرف الكنعاني الذي اثبتت الحفريات انه اقدم الحروف والكتابات في المنطقة، وذلك بقوله ببساطة: «ان الأحرف العبرية القديمة (او الأحرف الفينيقية) التي وجدت... يبدو أنها تكونت بالتدريج. » إلخ.(٢٢١)

لا للحضارة الكنعانية. تبدأ المؤامرة على تاريخ فلسطين بتجاهل الحضارة الكنعانية، وحتى بتجاهل الوجود الكنعاني إنْ أمكن. فتارة يلجأون الى استعمال لفظة الفينيقيين ابتعادا عن استعمال

(٢٢٠) Arthur William Cooke, *Palestine. In Geography and in History* (London. Charles H Kelly, 1901), Vol I, p. 40.

(٢٢١) *Ibid*

لفظة الكنعانيين،[٢٢٢] وطورا يدمج هؤلاء في التاريخ الاسرائيلي الذي لا يعقل ان يكون هناك تاريخ قبله، تماما كما رأينا المثال أعلاه في دجل كوك بالنسبة الى اللغة العبرية.

في محاضرة ألقاها الميجر كلود كوندر سنة ١٨٩٢ بعنوان «مستقبل فلسطين»، ذكر جميع الشعوب القديمة التي استوطنت فلسطين، باستثناء الكنعانيين الذي مر على ذكرهم سريعا مرة واحدة عرضا.[٢٢٣]

لا للحضارة العربية ولا للعرب: لا وجود على الاطلاق في كتابات الرحالة والمستكشفين لحضارة عربية إسلامية، امتدّت ثلاثة عشر قرنا من الزمن؛ ولا وجود أيضا للعرب، بغض النظر عن طبيعة حكمهم؛ فالميجر كوندر، في المحاضرة التي أشرنا اليها أعلاه، يقفز في حديثه عن الشعوب التي سكنت المنطقة، قفزا نهائيا عن العرب. فهو يطلق على الشعوب التي سكنت المنطقة تاريخيا «الموجات الآسيوية». وبعد إبراز اهمية ظهور اليونان والرومان والإفرنج، كل منها لمرحلة، يعود الى القول انها عادت فأُخرجت بـ «عودة موجة آسيوية».[٢٢٤] فالعرب، عند كوندر، موجة آسيوية.

وإنْ يكن الانكار المطلق للتاريخ العربي ممكنا، بالقفز عنه من دون حسيب او رقيب، وتمهيدا للصهيونية القادمة، فهذه البلاد التي تنتظر عودة اليهود من مئات السنين، لا يمكن ان تكون ــ فعلا ــ من دون سكان على الاطلاق. ومن هنا، كان إنكار العرب الأحياء مهمة مستحيلة، وكان لا بدّ من الاستعاضة من الانكار بالتجاهل والتحقير، وبإلصاق كل الصفات السيئة بالعرب، وأقلها صفة الجبن.[٢٢٥] ولا يكاد يخلو كتاب، بما فيها الكتب العلمية الصرف، من تحقير للعرب بمناسبة وبلا مناسبة، كما فعل أولبرايت (وهو من الصهاينة غير اليهود في القرن العشرين) في كتابه العلمي الذي يعتبر حُجة في آثار فلسطين. فقد غمز في مقدّمته مرتين بالعرب، ولم يتورع في إحداها عن

(٢٢٢) الكنعانيون والفينيقيون شعب واحد، ولم يُعرفوا إلّا بالكنعانيين حتى القرن الثاني عشر ق. م ، حين أطلق اليونان الإغريق على التجار الكنعانيين القادمين اليهم من سواحل شرق المتوسط لفظة الفينيقيين، وهي مشتقة من كلمة فينكس بالاغريقية اي احمر، وترمز الى الاله الاغريقي فينيق الذي كان يكسوه ريش احمر، ولّما كان الكنعانيون يرفعون العلم الأحمر على سفنهم، بات الاعريق يشيرون الى سفنهم قائلين، هؤلاء الفينيقيون جاؤوا. وقد اشتهرت التسمية قرونا حارج البلاد التي اصبحت تعرف ببلاد الفينيقيين (سوريا ولبنان). أمّا الكنعانيون، سكان فلسطين، فلم يهاجروا للتجارة، واحتفظوا باسمهم الكنعانيين.

(٢٢٣) Major C R. Conder, «The Future of Palestine,» *The City and the Land A Course of Seven Lectures on the Work of the Society*. Delivered in Hanouver Square in May and June 1892 (London: Palestine Exploration Fund, 1892), p 36.

(٢٢٤) *Ibid.*, p 37.

(٢٢٥) *Ibid*, p. 44.

القول ان فلانا (من المستكشفين الأجانب) «لم يجرؤ على العودة الى عمله في التنقيب لأنه كان جدّ خائف من العرب.»(٢٢٦) أما لماذا كان فلان خائفا فعلا، ومتى اعتدى العرب فعلا عليه، فأمر لا يثبته أولبرايت؛ ذلك بأن هدفه إشاعة الأجواء ــ عن طريق هذا الغمز الظالم ــ بأن الأجانب وحدهم العلماء أصحاب التضحيات، وأن السكان العرب لا همّ لهم إلّا الاعتداء والسرقة.

الأرض المهملة القاحلة· فلسطين ارض مهملة منذ ألفي عام! سكانها لم يحافظوا عليها! أرضها صحراء او أراض قاحلة! كل هذه الصفات لأرض فلسطين التصقت بالأدبيات الممهدة للصهيونية، ومن بعدها بالأدبيات الصهيونية. وقد بالغ الفكر الصهيوني في تعميم هذه الصفات، الى حدّ الوقوع في مأزق علمي محض، فهل ينجح اليهود القادمون في تحويل فلسطين الى جنة خضراء، كما يُوعَدون، ويَعدون؟

حاول غوردون طرح الموضوع علميا، فتساءل عن السبب الذي جعل البلاد قاحلة مهملة لألفي عام: هل هو تغير في المناخ والتربة؟ وأشار الى عدد من البحاثة الذين رأوا تغييرات طبيعية قد حدثت في فلسطين عبر المراحل التاريخية.(٢٢٧) ثم أشار الى البحاثة الذين لا يعتقدون ذلك (٢٢٨) ثم عاد الى تساؤله: ام ترى السبب عائد الى الجهل والتخلف؟ الى البدو الذين يحرقون الأشجار لينبت مكانها العشب لقطعانهم، والى الفلاحين الذين يقطعون أشجار الفاكهة كي يبيعوها حطبا للتدفئة، وهذا فضلا عن جهل الفلاحين بشؤون الزراعة؛ ويصل غوردون في نهاية تساؤله الى ان السبب الثاني هو وراء الأرض القاحلة، اي جهل السكان وتخلفهم.(٢٢٩)

كان كوندر أكثر ذكاء من سواه، فلم يقل في محاضرته الشهيرة التي أشرنا اليها أعلاه، ان فلسطين كلها قاحلة، لقد شهد بأن البلاد ومناخها ومنتوجاتها، ما زالت كما كانت أيام الاسرائيليين القدماء، إلّا ان اي تغير قد جرى فهو الى الأسوأ وشهد بأنه كان يرى كل سنة سهل «شارون» يمتلىء بالأزهار البرية. واعترف بأن القمح والذرة والعنب والزيت ما زالت خيراتها في البلاد، وأمّا لعنة البلاد الحقيقية فهي «الظلم والجهل».(٢٣٠)

---

(٢٢٦) Albright, *op.cit*, p 8

(٢٢٧) Gordon, *op.cit*, p. 218.

دكر غوردون أسماء البحاثة: فيشر، وزوموس، وهول، وفْراس (*Ibid.*)

(٢٢٨) أشار الى عدد من هؤلاء البحاثة منهم وارنز، وكوندر، وجورج آدم سميث، (*Ibid*, pp. 218-219).

(٢٢٩) *Ibid.*, p 219

(٢٣٠) Conder, *op.cit*, in *The City and the Land...*, p 34.

انتهت محاضرة كوندر من دون ان يطرح احد عليه سؤالا: كيف يمكن للبلاد ان تنتج خيرات من القمح والذرة والعنب والزيت، كما قال، من دون ان يكون فيها شعب مزارع نشيط؟

عهد التوراة القديم ــ الحديث: رأى القادمون المتدينون في فلسطين ارض التوراة وعهد التوراة، وما رأوا فيها شيئا غير ذلك. أرادوا بعث الماضي حيا أمام اعينهم، وهذا ما دعاهم، بوعي منهم وبلا وعي، الى إغماض عيونهم عن كل ما لا يريدون رؤيته.

قال الأب بيتن في كتابه سنة ١٨٥٩ بعنوان «اليهود في الشرق»، انه «رأى (في فلسطين) الأخلاق والعادات، وحتى لباس الشرقيين، لم تتغير سوى قليلا. ومن قراءتنا للتوراة، نكاد نعتقد أنها تتحدث عن الحاضر لا الماضي.»[٢٣١]

وإكراما للتوراة، وإكراما لابراهيم، استُثنيت الخليل من نظرية الصحراء والأرض القاحلة، فلم يَرَوْها صحراء، بل اعترفوا بخضرتها وخيراتها. فقد قال الرحالة كوك بأنه لم ينس يوما ما انطبع في طفولته من قراءة التوراة، عن رسل موسى الى الخليل وعودتهم بعنقود العنب الهائل. وقد دفعت هذه الذكريات كوك الى الشهادة بوجود خمسة وعشرين ينبوع ماء في ضواحي الخليل، واثنتي عشرة بئرا كبيرة، والى الشهادة أيضا بوفرة بساتين العنب والتين والرمان، كما كانت أيام موسى.[٢٣٢]

أما شجرة البلوط التي كان يجلس ابراهيم عليه السلام في ظلالها، فقد أحياها الكتّاب في خيالهم، كما أحيوها بالصور.[٢٣٣] ولم يتمالك متحمّس متعصّب، مثل بالوك، عن القول باعتزاز مَنْ اكتشف أثرا حقيقيا: «هذه هي بلوطة ابراهيم».[٢٣٤]

أما ستانلي، الذي زار الخليل سنة ١٨٥٣، فكان أكثر حكمة من بالوك، اذ أنكر خلود شجرة عبر آلاف السنين، لكنه كان بارعا في وصف المشهد التوراتي، وفي إثارة خيال القارىء، الى الحد الذي لا يملك المرء معه نفسه إلاّ ان يتصور الخليل شجرة بلوط، وكروم عنب، ومجموعة من القبور.[٢٣٥]

---

(٢٣١) P Beaton, *The Jews in the East.* Translated from the German of Dr. Frankl (London· Hurst and Blackett, 1859), Vol. II, p. 342

(٢٣٢) Cooke, *op.cit*, p. 32.

(٢٣٣) Jacob M Landau, *Abdul-Hamid's Palestine. Rare Century-old photographs from the private collection of the Ottoman Sultan now published for the first time* (London: André Deutsch, 1979), pp. 58-59.

(٢٣٤) Maltbie Davenport Balock, *Letters from Egypt and Palestine.* Reprint of the 1902ed. (New York· Arno Press, 1977), p. 57.

(٢٣٥) Arthur Penrhyn Stanley, *Sinai and Palestine· In Connection with Their History* (London: John Murray, 1910), pp. 85-86

عبثا يبحث المرء في ادب الرحلات والاستكشافات عن صفات هؤلاء البشر الذين يقطنون الخليل، فهم ببساطة غائبون، او مغيّبون. وما فكّر احد من طابور المتحاملين الأوائل، ومن المبالغين حتى في وصف بساتين الخليل وخيراتها، وفي عظمة القبور الخالدة، في ان الأجيال المقبلة قد تتساءل: هل يمكن للبساتين ان تبقى خضراء، مئات السنين، من دون مزارعين؟ وهل يمكن لقبور الأنبياء، ابراهيم واسحق ويعقوب، وزوجاتهم سارة وربيكا وليا، ألاّ تندثر، عبر القرون، من دون حراس ومسؤولين؟

الفصل الثالث

رُوّاد الصّهيونيّة واتجاهَاتهَا

أولا: روّاد الصهيونية

وصلت الأهداف الصهيونية في الأفق الأوروبي الاستعماري، فكرا وتخطيطا وعملا، الى حد بعيد، كما علمنا من الفصل السابق. ولا تظهر اهمية الصهيونية غير اليهودية وأبعادها إلاّ حين مقارنتها بما سيأتي عن رواد الصهيونية الأوائل.

ان الانتقال بالمشروع الصهيوني من الساحة الأوروبية، الى الساحات اليهودية في أوروبا، يشير الى تفاوت مذهل؛ فبينما كان المشروع في الساحة الأولى في مرحلة النضوج والتكامل، كان في الثانية في مرحلة البدايات الأولية المتعثرة؛ بمعنى آخر: ان الانتقال بالمشروع الصهيوني في المرحلة الواحدة، في منتصف القرن التاسع عشر، من الساحة الأولى (الخارجية) الى الساحات الثانية (الداخلية)، كأنه عودة الى الوراء من العصر الفيكتوري الى عصر القرون الوسطى.

يعتبر الصهاينة ان الصهيونية المتعارف عليها، وكما دعا هيرتسل اليها في مؤتمر بازل سنة ١٨٩٧، هي الوارث الشرعي لعدد من النداءات والدعوات الفكرية التي ابتدأت تظهر في أواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر، لكنها لم تجد تجاوبا ــ ولو محدودا ــ إلاّ مع بداية الستينات. وهذا فضلا عن ان بعض النداءات والمؤلفات لم تكن لتجد الحد الأدنى من الانتشار والشهرة ــ حتى بين اليهود انفسهم. ومع ذلك، فانها في مجموعها مقدّمة مهمة لمعرفة الصهيونية، فكرا وحركة سياسية يهودية.

في الستينات، اضحى العامل المشترك لدى الرواد الأوائل، أمثال ألكلعي وكاليشر وهس، اعتقادهم ان مستقبل «الشعب اليهودي» مشروط بعودته الى وطنه التاريخي. كما اضحى هذا

الاعتقاد هو الأساس لقيام وحدة اجتماعية بين اليهـود.(٢٣٦) ولذلـك اعتبر هؤلاء الثـلاثة، بالذات، من ابرز الرواد في هذه المرحلة

أ ـ يهودا ألكلعي (١٧٩٨ ـ ١٨٧٨)

ولد يهودا ألكلعي في ساراحيفو ـ البوسنة سنة ١٧٩٨، وأصبح في عمر مبكر حاخام الطائفة اليهودية في يوغسلافيا. وكان غارقا في غيبيّات «القبّالة» الدينية.(٢٣٧) لمّا انتشرت شائعة في البلقان تقول ان سنة ١٨٤٠ ستكون سنة الخلاص. وتعلّق معظم اليهود، وخصوصا المتديّنين منهم، بهذه الشائعة ـ النبوءة.

قبل موعد الخلاص بعام، اي في سنة ١٨٣٩، نشر ألكلعي كتابا في تعليم قواعد اللغة العبرية، دعا فيه اليهود الى الاستغراق في الصلاة تمهيدا لتحقيق النبوءة المسيائية. ثم أتبعه بكتاب ثان سنة ١٨٤٠، سمّاه «شلوم يروشالايم»، حثّ فيه اليهود على دفـع عُشر مدخولهم لمساعدة يهود القدس.(٢٣٨)

لمّا فشلت النبوءة بعدم ظهور المسيـح المخلّص، ولمّا وقعت حادثة دمشق الشهيرة في السنة نفسهـا، اي سنة ١٨٤٠، وهي الحـادثة التي اتهم فيهـا اليهود بقتـل المسيحيـين واستنـزاف دمهم،(٢٣٩) تخلّى ألكلعي عن الغيبيّات الدينيّة وسيلة وحيدة لخلاص اليهود، وبات يدعو الى درب عملي، وخصوصا بعد رؤيته اهمية تدخل القناصل والدول الأجنبية لوقف محاكمة اليهود في

---

(٢٣٦) Jacob Katz, «Zionism Forerunners,» *Encyclopaedia Judaica,* Vol 16, p 1034.

(٢٣٧) القبّالة كلمة بالعبرية تعني القبول، وهي مذهب ديني سلفي قائم على قبول التراث. والكلمة تلموديا تعني التراث الديني الذي لم تتصمنه الشريعة المكتوبة. استعملت كلمة القبّالة في القرن الثالث عشر للتعاليم الغيبية الصوفية التي احذت تنتشر في فرنسا وإسبانيا منذ القرن السابق، والتي وصلت الى القمة في كتاب «الزوهر» (*Zohar*). ويعتقد القبّاليون ان رحمة الله لا تفيض إلاّ بسبب وجود اليهود مـع الغير على الأرض، ويؤمنون بظهور المسيـح المنتظر في ازمنة الاضطهاد والهروب من الواقـع بالعودة الى ارض الميعاد. وأخذت القبّالة تنتشر في أوروبا منذ القرن السادس عشر، وهي وراء انتشار الدعوات المسيائية، وظهور الأنبياء الدجالين.

(٢٣٨) T Preschel, «Alkalai, Judah Solomon Hai,» *Encyclopedia of Zionism and Israel,* Vol I, p. 22

(٢٣٩) احتفى الأب توما الكبوشي في ٥ شباط/فبراير ١٨٤٠ في دمشق، واختفى معه خادمه المسلم ابراهيم عمارة، فاتهم الآباء الكبوشيون اليهود بقتلهما واستعمال دمهما في عيد الفصـح. وقامت محاكمات لعدد من اليهود المتهمين في دمشق. ثم تعقدت القضية بسخط اليهود وثورتهم في أوروبا، وانتهت بتدخل الدول الكبرى والتوسط لدى الخديوي محمد علي لوقف المحاكمة وقد كانت هذه الحادثة احد المبررات المهمة لدحض نظرية الاندماج.

دمشق؛ فكرّس ما تبقّى من حياته داعيا الى تخليص اليهود وعودتهم، بالصلاة وبالعمل. وقد نشر منذ سنة ١٨٤٣ سلسلة من الكتيبات والمقالات ركّز فيها على اهمية الطلب من شعوب العالم كي تسمح لليهود بالعودة الى وطنهم، كما طالب اليهود بدفع العُشر من أجل العودة.(٢٤٠)

تقدّم ألكلعي باقتراح عملي يقضي بتأسيس جمعية لانشاء خطوط حديدية، والطلب من السلطان العثماني في مقابل ذلك، إعطاء اليهود ارضهم في فلسطين لقاء إيجار سنوي.(٢٤١) كما قام برحلتين الى أوروبا الغربية، والى فلسطين، لاقناع اليهود وغير اليهود بضرورة تجمّع اليهود في ارض ـ اسرائيل كي يعيشوا كما يعيش الشعب الواحد.(٢٤٢) وفي أثناء وجوده في بريطانيا، في مطلع الخمسينات، اسّس جمعية للاستيطان في فلسطين، لكنها كانت قصيرة العمر. وكذلك كان مصير الجمعية الاستيطانية التي أسسها في فلسطين لدى زيارته الأولى سنة ١٨٧١.

توفّي ألكلعي في القدس سنة ١٨٧٨ عن ثمانين عاما. وكان قد سكن فيها نهائيا طوال الأعوام الأربعة الأخيرة من عمره. وكانت أفكاره قد ابتدأت بإيجاد صدى لها، منذ الستينات، فقط.(٢٤٣) وتتلخص اهميته في الآتي:

ـ يعود الفضل اليه في نشر فكرة وحدة اليهود عن طريق إنشاء جمعية ليهود العالم.

ـ كان من أول الداعين الى تحديث اللغة العبرية.

ـ يُعتبر من رواد فكرة الوحدة القومية بين اليهود، وقد رأى في هذه الفكرة الخلاص الوحيد للخلاف المستشري بين اليهود المتدينين والاصلاحيين.(٢٤٤)

ب ـ تسفي هيرش كاليشر (١٧٩٥ ـ ١٨٧٤)

عاصر كاليشر ألكلعي، وكانت آراؤهما متوافقة الى حدّ بعيد. وكما اشتهر ألكلعي بين قومه في يوغسلافيا أولا، اشتهر كاليشر في بروسيا، حيث ولد سنة ١٧٩٥. وقد عمل القسم الأكبر من حياته حاخاما للطائفة اليهودية في مدينة ثورن، ومات فيها سنة ١٨٧٤. وكانت ثورن تقع يومذاك في

---

(٢٤٠) Preschel, *op. cit.*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel,* Vol I, p. 22

(٢٤١) Laqueur, *op. cit.*, p. 55.

(٢٤٢) Katz, *op. cit*, in *Encyclopaedia Judaica,* Vol. 16, p. 1034.

(٢٤٣) Preschel, *op. cit*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel,* Vol. I, p. 22.

(٢٤٤) راجع:

Katz, *op. cit.*, in *Encyclopaedia Judaica,* Vol. 16, pp. 1033-1037.

بروسيا الشرقية، إلّا ان أهلها تكلموا البولونية (وهي حاليا تقع في بولونيا)، ولذلك يرد في سيرة كاليشر انه حاخام ألماني من أصل بولوني.(٢٤٥)

بالاضافة الى العلوم الدينية، درس كاليشر الفلسفة وعددا من الموضوعات غير الدينية. ولعلّ سعة اطلاعه هيأت له ان يرى، قبل ألكلعي، اهمية التوقف عن خلاص اليهود، فقط، بمعجزة ربّانية؛ فقد أعلن منذ سنة ١٨٣٢ ان استرداد صهيون يجب ان يبدأ بالعمل عليه من جانب اليهود أولا، وأمّا المعجزة المسيائية، بقدوم المسيح المنتظر، فَتَتْبَعُ عملهم.(٢٤٦)

نشر كاليشر أفكاره سنة ١٨٤٣ في كتاب من جزأين بعنوان «عقيدة صادقة». ثم أكمل تصوره في مجلد اخير نشره سنة ١٨٦٢ بعنوان «البحث عن صهيون»، وهو أكثر كتبه شهرة، كما انه أول كتاب يصدر بالعبرية في أوروبا الشرقية بشأن المستعمرات الزراعية في فلسطين.(٢٤٧)

نستنتج من كتابات كاليشر ثلاث نظريات، مدعومة بسيل من الاقتباسات التوراتية والتلمودية، وهي:

— ان خلاص اليهود كما تنبأ الأنبياء به، يمكن ان يتمّ بوسائل طبيعية، اي بمجهود اليهود انفسهم، من دون ان يتطلب ذلك مجيء المسيح.

— ان الاستيطان في فلسطين يجب ان يتمّ من دون تأخير.

— ان إحياء التضحيات في الأرض المقدسة مباح وضرورة.(٢٤٨)

ومما قاله في شأن الخلاص:

> ان خلاص اسرائيل لن يكون بمعجزة فجائية، والمسيح لن يُرسَل من السماء نافخا في بوقه الكبير، وجاعلا جميع الناس يرتجفون... فالناس البلهاء فقط، يمكن ان يصدّقوا هراء كهذا. أما العقلاء فيعرفون ان الخلاص لا يكون إلّا بالتدريج، وهو فوق كل شيء لن يكون إلّا نتيجة جهود اليهود انفسهم. وإذا كانت القدرة الالهية ستقوم بمعجزة، فأيّ مغفل لا يكون مستعدا، عندئذ، للذهاب الى فلسطين؟ أمّا ان يتخلّى المرء عن بيته، وماله، من أجل المسيح المنتظر، فذاك هو الامتحان الحقيقي، وذاك هو التحدي.(٢٤٩)

ركّز كاليشر على «ان الخلاص يبدأ مع تدفق المساعدات من قبل المحسنين، ومع موافقة

---

(٢٤٥) Israel Klausner, «Kalischer, Zvi Hirsch,» *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol II, p 651

(٢٤٦) *Ibid.*

(٢٤٧) *Ibid*

اشتهر كتابه «البحث عن صهيون»، بالعبرية (*D'rishat Tziyon.*)

(٢٤٨) Sachar, *op cit*, p. 7.

(٢٤٩) Laqueur, *op. cit.*, pp 54-55.

الشعوب على تجميع أبناء اسرائيل المشتّتين في الأرض المقدّسة.» وفقط، عندما يتقدم اليهود المتديّنون والمتعلّمون للعيش في القدس، يستمع الله الى صلواتهم ويسرع في يوم الخلاص.[٢٥٠]

رأى كاليشر في الثراء الواسع الذي وصلت بعض العائلات اليهودية اليه، تحقيقا لنبوءة قديمة في تحرير اليهود، فثراؤهم يعني نهاية المنفى؛ لذلك طلب كاليشر من ماير روتشيلد منذ سنة ١٨٣٦ ان يشتري من الخديوي محمد علي ارض فلسطين كلّها، اوعلى الأقل القدس، او مكان الهيكل. ثم تقدم بالطلب نفسه من موسى مونتفيوري، لكنه لم ينجح.[٢٥١]

تنقّل كاليشر كثيرا في ألمانيا يحثّ أغنياء اليهود على مساعدة مشاريع اليهود الاستيطانية. وكان لجهوده الأثر في إنشاء عدد من الجمعيات الاستيطانية. وكان سنة ١٨٦٤ مسؤولا عن إنشاء «اللجنة المركزية لاستيطان فلسطين» في برلين.[٢٥٢] وبمبادرة منه، أُنشئت المدرسة الزراعية مكفيه يسرائيل (ومعناها أمل اسرائيل)، بالقرب من يافا، وبالتعاون مع جمعية الأليانس الفرنسية. أما بصورة عامة، فان دعوة كاليشر لم تلق قط انتشارا واسعا؛ فالقلّة قد قرأت كتبه.[٢٥٣]

اتّهم كاليشر بالهرطقة. وقوبلت آراؤه، كما قوبلت آراء ألكلعي المماثلة، بعدم التجاوب من قبل اليهود، إنْ لم يكن بالبرود، وذلك بسبب دعوتها الى الاسراع في النهاية، وعدم انتظار المعجزة الالهية، ممّا جعل اليهودية الأرثوذكسية تناصبهما العداء، وأيضا لأن دعوتهما الى الاستيطان لم ترتكز على حاجة مادية؛[٢٥٤] فالرجلان لم يثيرا قط قضية حاجة اليهود الى بلد خاص لتأمين وجودهم المادي، وقد اصبحت هذه القضية فيما بعد من اهم بنود الصهيونية.

ج ــ موشي هس (١٨١٢ ــ ١٨٧٥)

ولد موشي هس في بون في ألمانيا سنة ١٨١٢. وعلى الرغم من انه تلقّى تربية دينية على جدّه في طفولته وحداثته، فانه تحوّل في شبابه الى دراسة الفلسفة، فانصرف لها عامين في جامعة بون.[٢٥٥]

---

(٢٥٠) Sachar, *op. cit.*, p 7

(٢٥١) Katz, *op cit.*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 16, p 1035.

(٢٥٢) Klausner, *op. cit.*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. II, p. 651.

(٢٥٣) Laqueur, *op cit*, p. 55

(٢٥٤) Sachar, *op cit.*, pp. 7-8

(٢٥٥) Getzel Kressel, «Hess, Moses,» *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 8, p 431.

كان هس اشتراكيا وصديقا لماركس، لكنه انفصل عنه لاصراره على نوع من الاشتراكية الروحيّة؛ فالفارق بين الرجلين هو ان ماركس كان يشدّد على الاشتراكية العلمية في دراسة قوانين التطور الاجتماعي التي تعمل على خلق المجتمع الاشتراكي، بينما كان هس يركز على إرادة الوعي، فضلا عن الدوافع الموضوعية في التاريخ، وقد رأى أنها العامل الأقوى. ويعتبر هس من ابرز الاشتراكيين الألمان، وهو أفضل من يمثّل الاشتراكية الفلسفية. لم تكن الاشتراكية بالنسبة اليه مسألة طبقية، بل مسألة خلقية عملية، وقضية إنسانية يجدر حلها بالثقافة وتنظيم العمل.(٢٥٦)

عاش هس في ألمانيا وفرنسا وسويسرا وبلجيكا، ونشر كتابه الأول في التاريخ والفلسفة سنة ١٨٣٧، وهو في الخامسة والعشرين. وفي كتابه الثاني، بعد اربعة أعوام، اقترح وحدة إنكلترا وفرنسا وألمانيا. وكتب هس سيلا من المقالات في أماكن عدة، وخصوصا فيما يتعلق بالاشتراكية.

تقاعد هس سنة ١٨٥٢ منصرفا الى دراسة العلوم الطبيعية وعلم الوراثة. ومن هذا المزيج من الدراسات والاهتمامات، ومع الصحوة اليهودية في ذاته ــ ولو متأخرة ــ تطورت نظريته في ان لليهود ولليهودية دورا حيويا في تطور تاريخ العالم (٢٥٧)

وهكذا، بينما كان هس يبدو منصرفا الى العلوم، اصدر فجأة كتابه «روما والقدس» سنة ١٨٦٢، وهو كتابه الذي اشتهر به والذي اودعه آراءه الصهيونية ــ وإنْ يكن عنوانه لا ينبىء كثيرا بمضمونه. (٢٥٨)

تبدّلت نظرة هس كليا الى اليهودية في كتابه «روما والقدس»، وهو الذي كان لثلاثة أعوام خلت، قبل صدور كتابه، رافضا كلّ الأديان؛(٢٥٩) وهو الذي كان في شبابه لا يعير دينه اليهودي اي اهتمام، فكان يدعوه بالدين الموسوي، قائلا ان هذا الدين قد انتهى كما انتهى دوره التاريخي، ولا يمكن بعثه من جديد؛ أما إذا كان هناك من ضرورة لاختيار دين، فالمسيحية هي الأفضل في العصر الحاضر. وكان هس قد قال في كتابه الأول سنة ١٨٣٧ بعنوان «التاريخ المقدس»: «ان

---

(٢٥٦) *Ibid*, p. 433; Laqueur, *op cit*, p. 47

(٢٥٧) Parkes, *A History of the Jewish People, op cit.*, p 186.

(٢٥٨) كان يفترض ان يكون عنوان كتابه: The Revival of Israel، إلّا انه بسبب تأثره بالتطورات القومية في إيطاليا، فضّل عليه عنوان *Rome & Jerusalem, the Last Nationality Question*.

وكان بالألمانية حين صدر أول مرة:

***Rom** und Jerusalem, die letzte nationalitaets-frage* (Laqueur, *op cit*, p 47).

(٢٥٩) Laqueur, *op. cit*, p. 53.

الشعب الذي اختاره الله، يجب ان يختفي الى الأبد، اذ بموته يمكن ان تنبعث حياة جديدة أكثر اهمية.»(٢٦٠)

سنة ١٨٥١، ضرب هس مثلا في شعبين اعتبرهما من أسوأ الشعوب التعيسة الحظ، التي تُعاقب على استمرارها في محاكاة ماضيها الميت، وهما: الشعب الصيني الذي اعتبره «جسدا بلا روح»؛ واليهود «روحا بلا جسد تحوم كالشبح عبر القرون.»(٢٦١)

إذاً، آمن هس في تلك المرحلة من عمره بعدم ضرورة العمل أصلا لبعث الشعب اليهودي، وخصوصا ان اليهود لا يثقون بأنفسهم ولا بقضيتهم. فكيف تغيّر هس من النقيض الى النقيض؟

كانت بداية التغيّر بسبب حادثة دمشق سنة ١٨٤٠، إلّا ان التغيّر لم يظهر سريعا؛ فخلال عقدين من الزمن، لم تكن أحوال اليهود في أوروبا الغربية سيئة قط، وكانت نظرة رفاق هس الاشتراكيين آنذاك الى «معاداة السامية» أنها ظاهرة رجعية تزول بزوال الأنظمة البالية. إلّا ان هس لم يعد يشاركهم في هذا الرأي، فقد تحوّل عن سياسة الاندماج، منذ استيقظت في ذاته العاطفة اليهودية، وأخذ يرى ان التحول الى المسيحية لم ينقذ اليهود، وكذلك لم ينقذهم الاصلاح او التحرر الذاتي؛ فالأنف الأقنى لا يتغيّر، والشعر المجعّد لا يملس بالتمشيط.(٢٦٢)

أمّا سر استيقاظ عاطفته وتحوّله، فهو نتيجة لدراساته وتجربته، وخصوصا انه كان يراقب عن كثب حركة التحرر القومية في إيطاليا وسواها، فاقتنع بأن السيطرة العرقية لا بدّ من ان تتوقف نهائيا، ليتبعها انبعاث القوميات، ومنها اليهودية.

ومع هذا التحول، أعاد هس شرحه للتاريخ فقال ان حركة التاريخ كله قامت على الصراع العرقي أولا، فالصراع الطبقي ثانيا. وقال هناك عرقان تاريخيان، الآريون والساميون، وقد انصرف الآريّون الى شرح الحياة وتجميلها، وانصرف الساميون الى تحسينها خلقيا وتطهيرها؛ وهناك تنوّع في الأعراق، غير انه يجب ألّا يوجد تفوق ما او نقص ما. لذلك، فلا تبرير للاضطهاد العرقي او التفرقة؛ فالهدف النهائي للتاريخ هو التعاون المنسجم بين كل الشعوب.(٢٦٣)

ربط هس بين نظريته العرقية التاريخية ويهوديته، بتشبيهه المجتمع بالجسد والأعضاء؛ فلكل عضو عمل. واليهود، في رأيه، هم الرافعون دوما لواء العدل الاجتماعي في المجتمع. ولمّا كانوا

---

(٢٦٠) *Ibid*, p. 48.

(٢٦١) *Ibid*

(٢٦٢) *Ibid.*, pp. 48-49

(٢٦٣) Kressel, *op. cit*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 8, p. 433.

غرباء في كل مكان، فقد كانوا يُمنعون من أداء مهمتهم. والحلّ الأوحد لهذه المعضلة هو قيام حركة قومية للاستيطان في فلسطين. هناك يصبح في إمكان اليهود ان يعيشوا حياة طبيعية، ويستطيعون ان يخلقوا فيها اجتماعية جديدة من أجل الانسانية؛(٢٦٤) فاليهودية، في رأيه، فلسفة اجتماعية تهدف الى كمال المجتمع الانساني. لكنّ اليهود لا يستطيعون ان يطوّروا فلسفتهم إلّا في حال امتلاكهم لقَدَرهم. لذلك، يجب ان يكونوا أحرارا، ولا يمكن ان توجد هذه الحرية في غير ارض أجدادهم.(٢٦٥)

اعتقد هس ان من الممكن استرداد فلسطين عن طريق إغراء السلطان بالمال، لكنه لم يعتقد ان الأغنياء من يهود أوروبا سيعودون الى فلسطين، وإنْ كان يأمل بهجرة اليهود من شرق أوروبا. وقال ان العدد لا يهم كثيرا؛ فأهمية هذه الدولة ـ الاشتراكية كما يراها ـ ان تكون منطلقا للعمل السياسي، ومركزا روحيا في آن واحد، حيث لا داعي الى إخفاء الهوية اليهودية او التظاهر بها.

وهكذا، من النقيض الى النقيض، اصبح موقفه من اليهودية؛ اذ ما عاد اليهود، في رأيه، جماعة دينية بل شعبا مستقلا، وعرقا مميزا، و«اليهودي العصري» الذي ينكر هذا خائن لشعبه، وقبيلته، والعرق الذي ينتمي اليه. ومع هذا التشبث، بات هس لا يرى خطرا من المتدينين، بل من الاصلاحيين. أما عن إمكان بناء جسر بين الفريقين، فجوابُهُ: بالعودة الى ارض فلسطين وبناء الدولة اليهودية.(٢٦٦)

وردت معظم آراء هس في اليهودية ومستقبلها، في كتابه «روما والقدس»، وهو يتألف من اثنتي عشرة رسالة، وملاحظات في نهايتها. إلّا ان كتابه هذا لم يكن له اثر يذكر في حياته: فالاشتراكيون رفاقه لم يقرأوه، ومن قرأه منهم وصفه بالكتاب الرجعي الرومنطيقي؛ والاصلاحيون اعتبروا وطنيته بديلا من اشتراكيته الفاشلة؛ وحتى اليهود الشرقيون، فالقلة منهم قرأت الكتاب لمّا ترجم من الألمانية الى العبرية والييديش، بعد وفاته؛ وحتى هيرتسل، لم يقرأ كتاب هس إلّا بعد ان اصدر كتابه «الدولة اليهودية» بأربعة أعوام. لكنه قال معترفا بأن «كل شيء حاولنا القيام به موجود في كتابه.»(٢٦٧)

غير انه على الرغم من التناقضات في كتاب هس، وعلى الرغم من عدم تأثيره في عصره، فانه قد اعتبر فيما بعد رائدا سابقا لزمانه. واعتبره البعض انه لم يكن مبشرا بالحركة الصهيونية فحسب،

---

(٢٦٤) Sankowsky, *op cit*, p. 31.

(٢٦٥) Parkes, *A History of the Jewish People, op. cit.*, p 186

(٢٦٦) Laqueur, *op cit*, pp 50-52

(٢٦٧) *Ibid*, pp. 53-54.

بل منشئها أيضا،(٢٦٨) فضلا عن كونه أبا للصهيونية الاشتراكية.

ولعلّ تعظيم الصهيونية لشأن هس، فيما بعد، أنها وجدت في كتابه الصغير «روما والقدس» أساسا للتفوّق العنصري على سائر البشر، وإنْ يكن هس بهذا يناقض نظريته العامة التي ذكرناها، بأن لا تفوق لعرق على آخر.

يطلق هس على شعبه لقب «الشعب الممتاز»،(٢٦٩) ويقول ان اليهود وحدهم بين الشعوب قادرون على السمو (٢٧٠) أما اليهودية فهي أساس الحضارات والأديان.(٢٧١) وأما عن عبقرية شعبه، فيقول في الرسالة السادسة ان «اليهود يمتلكون، بوحي من روح الله، موهبة مميزة في الرؤى الاجتماعية، كما هي العبقرية اليونانية في الابداع الفني.»(٢٧٢)

أما المساواة بين البشر، فيناقضها هس كل التناقض في حديثه عن العرب وسكان الشرق، إذ يقول مخاطبا بني قومه: «انتم يجب ان تكونوا حملة الحضارة الى الشعوب البدائية في آسيا، وأساتذة العلوم الأوروبية التي أضاف شعبكم اليها الكثير. انتم يجب ان تكونوا الوسطاء بين أوروبا والشرق الأقصى. افتحوا الطرق المؤدية الى الهند والصين، تلك المناطق المجهولة التي يجب ان تفتح أخيرا أمام المدنية.» وبعد حثهم على المطالبة بأرض الأجداد من تركيا يقول: «تقدموا الى الأمام أيها اليهود من كل الدول. ان ارض أجدادكم تناديكم. أواه! كم سيرتجف الشرق لدى قدومكم... انتم سوف تصبحون الدعامة الخلقية للشرق. انتم كتبتم كتاب الكتب [التوراة]، دعوا حكمة الشرق القديمة، دعوا كتاب زِنْد [كتاب زرادشت]، بالاضافة الى القرآن، وهو أكثرها حداثة، والأناجيل، دعوها تتجمع حول توراتكم. فهذه كلها سوف تتطهر من كل خرافة...» وأنهى هس تعظيمه لبني قومه قائلا لهم: «انتم قوس النصر للحقبة التاريخية المقبلة، الذي سوف يكتب تحته عهد الانسانية العظيم، ويختم في حضوركم كشهود على التاريخ والمستقبل.» لقد كانت أكثر أقوال هس انتشارا بين الكتّاب العرب قوله: واجعلوا القرآن والأناجيل تتجمع حول توراتكم. إلا ان هذه الجملة بالذات، وصفحات غيرها، قد حذفت من طبعات لاحقة لكتابه «روما والقدس».(٢٧٣)

---

(٢٦٨) Moses Hess, *Rome and Jerusalem*, introduction by Martin Buber (New York, Philosophical Library, 1958).

(٢٦٩) *Ibid*, p. 13.

(٢٧٠) *Ibid*, p. 17.

(٢٧١) *Ibid.*, p. 62.

(٢٧٢) *Ibid.*, p. 46.

(٢٧٣) Moses Hess, *Rome and Jerusalem: A Study in Jewish Nationalism*. Translated from the German by Meyer Waxman (New York Bloch Publiching Company, 1918), pp. 157-159

يتلخص برنامج هس السياسي بما يلي:

ــ استمرار شعلة الأمل بالبعث السياسي حتى تسمح الأحداث الدولية التي تتوجه الآن للعمل صوب الشرق، بالبدء بعملية إعادة بناء الدولة اليهودية، وتقتصر العملية أولا على بناء المستعمرات في ارض الأجداد، وليس من شكّ في مساعدة فرنسا.

ــ ان اعتراض الدول المسيحية غير ذي بال، ما دامت تأمل ــ عن طريق إقامة الدولة اليهودية ــ بأن تتخلّص من الشعب الغريب الذي تعتبره شوكة في جنبها.

ــ ابرز الوسائل: الدبلوماسية والوعود الدولية، وأموال الأثرياء من اليهود لشراء المدن في الصحراء، والسهول والكروم، حيث الأرض الصحراوية غير الآهلة سوف تزهر من جديد «كأعواد الزنابق». (٢٧٤)

ان التناقضات التي يقع فيها مفكر سياسي وعالم في الفلسفة والعلوم كموشي هس، يشرحها ولا يبررها المؤرخ لاكور عندما يحلل شخصية هس بقوله انه كان يفكر بقلبه أكثر مما يفكر بعقله. (٢٧٥)

يختلف هس عن كل من ألكلعي وكاليشر في كونه لم يصعد من تراث التوراة والتلمود والغيبيات؛ فهو أول رائد في تاريخ الصهيونية لم ينشأ من عمق التراث. ومن هنا، فهؤلاء الثلاثة يمثلون الفئتين الرئيسيتين في الصهيونية: الفئة التي كان عليها ان تتجاوز المسيائية التقليدية، كألكلعي وكاليشر؛ والفئة التي أعادت اكتشاف المضامين الحضارية والسياسية لتراثها، بعد ان كانت قد قذفت بهذا التراث بعيدا، مثل هس. وإنْ لم تجد دعوات الثلاثة الأوائل، هؤلاء، تجاوبا واسعا في صفوف اليهود، حين انطلاقها، فقد وجد بين ثلاثتهم معرفة وتعاون. (٢٧٦)

= لم نعثر على اثر للاقتباسات في المقرة أعلاه في النسحة التي رجعنا اليها من كتاب هس، والصادرة سنة ١٩٥٨، وقد تمكنا من العثور على نسحة أولى صادرة سنة ١٩١٨، بينما كان الكتاب في مرحلة الطباعة، فاقتبسنا منها وتجدر الملاحظة ان السخة التي استند الأستاذ صبري جريس اليها، والصادرة سنة ١٩٤٥، كانت تحتوي أيضا على الاقتباسات المحذوفة لاحقا راجع: جريس، مصدر سق ذكره، ص ٧٨ ــ ٧٩، نقلا عن:

Moses Hess, *Rome and Jerusalem* (New York. Bloch Publıshıng Company, 1945), pp 139-140

(٢٧٤) Hess, *op. cıt* , pp. 75, 77, 85-86

(٢٧٥) Laqueur, *op cıt.*, p 47.

(٢٧٦) Katz, *op cit* , ın *Encyclopaedıa Judaica,* Vol 16, p 1036.

د ـ ليون بِنسكر (١٨٢١ ـ ١٨٩١)

يعتبر ليون بنسكر من رواد الصهيونية بين يهود روسيا. ولد في بولونيا (الروسية)، ودرس في مدرسة لوالده في أوديسّا. وقد كان ينتمي الى اسرة متعلمة، ومن القلائل الذين دخلوا الجامعة في محيطه؛ فقد درس الحقوق أولا، ثم الطب في جامعة موسكو، وعاد الى أوديسّا ليعمل طبيبا فيها منذ سنة ١٨٤٩.

آمن بنسكر في حياته الأولى بحتمية الاندماج في المجتمع الروسي، فكان من مؤسسي مجلة «الفجر» الذين يشجعون اليهود على التكلم بالروسية وتذوق الأدب الروسي.[٢٧٧]

خدم بنسكر في حرب القرم طبيبا، وتبلورت بعدها رؤيته للمستقبل اليهودي بالتعبير الثقافي عن الذات (اليهودية) ضمن روسيا الكبرى المتعددة القوميات والثقافات. إلّا أن الاضطرابات ضد اليهود في أوديسّا سنة ١٨٧١، ادّت الى إقفال الصحيفة اليهودية الداعية الى الاندماج، مما دفع بنسكر الى الانصراف الى الطب وحده. وإنْ تكن هده الاضطرابات قد حررته جزئيا من الأمل بنجاح الاندماج، فان المذابح التي جرت في إثر مقتل القيصر سنة ١٨٨١ قد جعلته يتحرّر نهائيا؛[٢٧٨] كما أنها كانت السبب في جولة طويلة له في العواصم الأوروبية، هدفها مقابلة الشخصيات اليهودية، وإقناعها بضرورة هجرة اليهود الى بلد ما، اي بلد تتفق عليه؛ إلّا ان الأكثرية رفضت اقتراحه.[٢٧٩]

لم يثن هذا الرفض بنسكر عن تصوره ان الحركة اليهودية يجب ان تنشأ في وسط أوروبا وغربها؛ فهو لم يؤمن بقدرة يهود روسيا على التنظيم، ولذلك اصدر الكتيّب الذي اشتهر به «التحرر الذاتي» من ألمانيا وبالألمانية. لكن اليهود الغربيين، وخصوصا الألمان، لم يكترثوا، وذلك على العكس من يهود روسيا؛ فعلى الرغم من تعليقاتهم العامة بأن الكتاب لا جديد فيه إلّا القليل،[٢٨٠] فان رفاقه من بينهم، أمثال ليلينبلوم وغوردون، استقبلوا كتابه بحفاوة. أما آحاد هاعام، فكتب في الذكرى العاشرة لوفاته، مقالا قال فيه ان بنسكر هو صاحب نظرية الصهيونية السياسية، وإنْ لم يكن الكثيرون في الغرب قد سمعوا به بعد. وبالمقارنة بين بنسكر وهيرتسل، كان آحاد هاعام

---

(٢٧٧) Israel Klausner, «Pinsker, Leon,» *Encyclopaedia Judaica,* Vol. 13, p. 545.

(٢٧٨) Sachar, *op cit.*, p. 14.

(٢٧٩) Klausner, *op. cit*, in *Encyclopaedia Judaica,* Vol. 13, p. 546

(٢٨٠) Laqueur, *op cit.*, pp. 73-74.

واضحا في تعظيم الأول وانتقاد الثاني.[281]

اتسمت كتابة بنسكر الطبيب بالوضوح والايجاز وعدم الانجراف وراء العاطفة، وخصوصا فيما يتعلق بفلسطين؛ فأبرز ما جاء في كتابه عدم التركيز على فلسطين، وعدم إعارة الرابطة العاطفية بالأرض المقدسة اية أولوية:

> ان هدف جهودنا الحالية يجب ألا يكون «الأرض المقدسة»، بل أرضا تخصّنا وحدنا فنحن لسنا بحاجة إلّا الى قطعة كبيرة من الأرض لأبناء قومنا
>
> . ربما تصبح الأرض المقدسة في وقت لاحق لنا، وإن حدث هذا، فهو للأفضل؛ لكن، قبل كل شيء، يجب ان نقرّر في هذه المرحلة الصعبة، اي الدول يمكن ان نحصل عليها.[282]

ويقترح بنسكر منطقةً في شمال أميركا، او ولاية مستقلة في آسيا التركية، مع اعتراف الباب العالي والقوى الكبرى المعنية بحيادها.[283]

ويلخّص بنسكر نظريته السياسية بالآتي:

ـ ان اليهود ليسوا شعبا حيا، انهم غرباء في كل مكان، ولذلك هم محتقرون.

ـ ان التحرر السياسي والمدني لليهود لم يكن كافيا ليرفعهم في تقدير الشعوب.

ـ الخلاص الوحيد هو بخلق القومية اليهودية لشعب يعيش على ارض تخصّه وحده؛ فالتحرر الذاتي لليهود كشعب، لا يكون إلّا بحصولهم على وطن لهم وحدهم.

ـ ان الوقت الملائم للتحرر قد جاء

ـ على الرغم من كون المسألة اليهودية مسألة عالمية، فان حلّها يجب ان يكون حلا قوميا (يهوديا)، وعلى اليهود اتخاذ الخطوة الأولى بعقد مؤتمر يهودي عالمي.[284]

بالنسبة الى القيادة السياسية، لم يتصور بنسكر إمكان مجيء قائد عبقري كموسى، لأنّ التاريخ لا يعطي شعبا واحدا قائدا مثله، أكثر من مرة؛ ولذلك تصور قيادة جماعية من أصدقاء مميزين.[285]

---

(٢٨١) راجع:

Achad Ha-am, «Pinsker and Political Zionism (To the memory of Dr Pinsker on the tenth anniversary of his death, 1902), » in Achad Ha-am, *Ten Essays on Zionism and Judaism*. Translated from the Hebrew by Leon Simon (London. George Routledge & Sons, 1922), pp. 56-90

(٢٨٢) Leo Pinsker, *Auto-Emancipation*, edited by A.S Eban (England. Federation of Zionist Youth, [1932]), p. 32.

(٢٨٣) *Ibid*, p 38

(٢٨٤) *Ibid*, pp 41-42

(٢٨٥) *Ibid*, p 35

حين اصدر بنسكر كتابه، لم يكن قد اطّلع على كتابات السابقين،(٢٨٦) إلّا انه كان، على غرار كاليشر وهس، يرفض الاعتماد على الايمان الغيبي بالمسيح المنتظر. كما انه قد وضع اللوم على الايمان الغيبي بجعل اليهود يتخلون عن الاهتمام بحريتهم القومية ووحدتهم واستقلالهم، مما جعلهم يغرقون الى الأسفل، فالأسفل.(٢٨٧)

قيل عن كتاب بنسكر انه كتاب يتصف بالمنطق، وهذا صحيح في مواقع عدّة من الكتاب، إلّا ان صاحبه يتخلّى عن المنطق كليا في معالجة الجوهر الذي قامت نظريته عليه؛ فهو من أجل إثبات حق اليهود في وطن، اي وطن، تمادى في شروحات لمعاداة السامية لم يسبقه أحد اليها، فضلا عن كونها شروحات لامنطقيّة، اذ يقول:

> منذ ان فقد اليهود دولتهم (الغابرة)، انتهى وجودهم السياسي، لكنهم لم يخضعوا للخراب النهائي، فقد استمرّوا يعيشون شعبا واحدا على الصعيد الروحي، وقد رأى العالم، في هذا الشعب، صورة شبح غريب لميت يمشي بين الأحياء... وإنْ يكن الخوف من الأشباح خوفا فطريا، وله ما يبرره في الحياة النفسية للطبيعة البشرية، فأي عجب في ان يفرض هذا الخوف نفسه بقوة، لدى مرأى هذا الشعب، الميت والحي في الوقت نفسه.
>
> ان الخوف من الشبح اليهودي قد انتقل وازداد عبر أجيال وقرون، وقاد الى التحامل الذي مهّد بدوره، مع عوامل اخرى .. الطريق الى الهلع من اليهود
>
> ان الهلع من اليهود انحراف نفسي. وكإنحراف نفسي، فهو متوارث. وكمرض محمول من ألفي سنة، فهو لا يمكن الشفاء منه.
>
> حاول الصديق والعدوّ معا شرح هذه الكراهية ضد اليهود، او تبريرها بلصق كل أنواع التهم ضدهم. هم متهمون بصلب المسيح، بشرب دم المسيحيين، بوضع السم في الآبار. الخ، وهناك ألف تهمة اخرى ثبت ان لا أساس لها من الصحة (٢٨٨)

ويصل بنسكر الى القمة في دمغه معاداة السامية موقفا أبديا من اليهود، من شعبه الذي قال عنه انه «الشعب المحتقر الى الأبد».(٢٨٩) كما قال عنه بتهكم في غير موضعه: «انه اعمى حقيقة من يصرّ على ان اليهود ليسوا الشعب المختار، انهم الشعب المختار للكراهية العالمية.»(٢٩٠)

ويتمادى أكثر بقوله: «انت إنْ سُرِقْتَ كيهودي، او إنْ توفّرت لك الحماية كيهودي، فالأمران متساويان في الاذلال، ومتساويان في إيذاء احترام الذات لليهود.»(٢٩١)

(٢٨٦) Laqueur, *op cit*, p. 74
(٢٨٧) Pinsker, *op. cit.*, p. 27
(٢٨٨) *Ibid*, pp. 18-19.
(٢٨٩) *Ibid.*, p. 31
(٢٩٠) *Ibid*, pp. 19-20
(٢٩١) *Ibid*, p. 20

ومع هذا الانجراف اللامنطقي في شرح معاداة السامية من الطبيعي ألّا يستشهد بنسكر إلّا بأسوأ الدول معاملة لليهود، اي إسبانيا وروسيا. ومن الطبيعي ان يقدّم صورة كهذه عن شعبه: «اليهودي للأحياء رجل ميت، وللمواطنين غريب متشرّد، ولأصحاب الأملاك متسوّل، وللفقراء مستغِلّ ومليونير، وللوطنيّين رجل بلا وطن، ولكل الطبقات منافس مكروه.»[٢٩٢]

وعندما يطرح بنسكر السؤال: اين يمكن ان يلام اليهود؟ لا يذكر شيئا من أخطاء اليهود، لكنه يركّز على امر واحد، هو فقدانهم الكرامة الوطنية، واستمرارهم في الحياة كيهود فقط، لا كشعب واحد.[٢٩٣]

والحل الأوحد عنده إيجاد الوطن المستقل، مع تحميله العالم مسؤولية منح هذا الوطن.

> اسمحوا لنا بأن نكون أسياد قَدَرنا، أعطونا قطعة ارض. امنحونا فقط، ما منحتم للصرب وللرومانيين، فرصةً إنشاء كيان قومي مستقل، ثم تجرّأوا على إصدار حكم سطحي علينا، وعلى لومنا لافتقارنا الى رجال عباقرة. نحن ما زلنا نعيش في الحاضر تحت كوارث الظلم التي أنزلتموها علينا وما ينقصنا ليس العبقرية، بل احترام الذات، وضمير الكرامة الانسانية، الذي سرقتموه منا.[٢٩٤]

اعتبر الصهاينة (فيما بعد) كتاب بنسكر حجر الأساس في الفكر الصهيوني الحديث. أما الأثر السياسي المباشر لكتابه فكان محدودا بصورة عامة، ومعظم الذين قرأوه لم يتحولوا الى صهاينة. إلّا ان قلة منهم ألّفت نواة لمجموعة من الجمعيات الصهيونية التي انبثقت في شرق أوروبا. وقد قامت شخصية بنسكر بدور بارز في خلق هذه النواة وقيادتها، وخصوصا منذ اصبح رئيسا لجمعية «أحباء صهيون»؛ فهذه الجمعية وسواها من الجمعيات الصغيرة، تكمن أهميتها في كونها البدايات الأولى، وما كان في قدرة هيرتسل ــ من دونها ــ ان يفعل ما فعل.[٢٩٥]

بقيت مشكلة المكان للوطن المنشود هاجس بنسكر. ففي المرحلة الأخيرة من عمره، اخذ يشكّ في ان تصلح فلسطين مأوى لكل اليهود المضطهدين، وأخذ يعتقد بصوابية رأي البارون موريس دي هيرش الذي اسس رابطة يهودية لاستيطان اليهود في الأرجنتين؛ أما قبيل وفاته، فقد توصل الى الاعتقاد ان ارض اسرائيل يمكن ان تبقى فقط، مقرا روحيا للشعب اليهودي.[٢٩٦]

---

(٢٩٢) *Ibid.*, p 23.

(٢٩٣) *Ibid.*, p 24.

(٢٩٤) *Ibid* , p. 25.

(٢٩٥) Laqueur, *op cit.*, pp 70, 75.

(٢٩٦) Klausner, *op cit.*, in *Encyclopaedia Judaica,* Vol. 13, p. 548.

لم يقرأ هيرتسل كتاب بنسكر إلّا بعد أعوام من صدور كتابه هو. وقد كانت آراء هيرتسل مشابهة جدا لسلفه، مما دعاه الى القول انه، لوكان يعلم بكتاب بنسكر لما كتب «الدولة اليهودية». (٢٩٧)

* * *

نجد في مختلف التعريفات للصهيونية واتجاهاتها وشروحاتها التي تتناقض في عدد من القضايا، أثرا لآراء الرواد الأوائل؛ فآراء هؤلاء الأربعة، بالاصافة الى آراء عدد من الكتاب، وخصوصا بين اليهود الروس، دفعت بمجموعها نحو ولادة الصهيونية.

ثانيا: اتجاهات الصهيونية

ظهرت كلمة «الصهيونية» المشتقة من كلمة «صهيون»(٢٩٨) كمصطلح سياسي في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. وكانت، حين ظهورها، تشير الى مجموعة من الحركات التي يجمع بينها عامل مشترك، وهو خطة اليهود لانشاء مركز روحي إقليمي، او إنشاء دولة ليهود العالم، يكون مقرها بصورة عامة ارض فلسطين وتشير ابرز المصادر الى ان الدكتور ناثان بيرنباوم كان أول من استعمل كلمة «الصهيونية» بالمعنى السياسي في صحيفته «التحرر الذاتي» منذ سنة ١٨٩٠. (٢٩٩)

قبل انتشار مصطلح «الصهيونية»، كانت هناك تسميات اخرى تستعمل مرادفة للصهيونية السياسية، كـ «أحباء صهيون»، وهي الجمعية التي مهدت الدرب لولادة الصهيونية، بفروعها وأعضائها. وكان آحاد هاعام، الكاتب اليهودي الروسي، ابرز من احتج على استبدال «أحباء صهيون» بـ «الصهيونية» في مقال نشره عقب مؤتمر بازل، متهما اليهود الغربيين بأنهم اخترعوا الكلمة ــ «الصهيونية» ــ على نمط اللغة الألمانية،(٣٠٠) إيحاء للغرب بأنهم لا يتكلمون عن شيء قديم بالٍ كـ «أحباء صهيون»، وإنما عن حركة سياسية حديثة. والدليل على ذلك، ان اسمها ينبع من الغرب، حيث اليهود هم اوروبيون غربيون، ولا يستعملون العبرية. (٣٠١)

---

(٢٩٧) Arthur Hertzberg «Zionism: Hibbat Zion,» *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 16, p 1043.

(٢٩٨) راجع بشأن أصل كلمة صهيون في «الجذر الديني» من البند ثالثا ــ الفصل الثاني ــ القسم الرابع.

(٢٩٩) Getzel Kressel, «Zionism. The Word and its Meaning,» *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 16, p. 1032, as quoted from the journal *Selbstemanzipation* (April 1, 1890), (Nov. 6, 1891).

(٣٠٠) الصهيونية بالألمانية: Zionismus.

(٣٠١) Achad Ha-am, «The Jewish State and the Jewish Problem 1897,» in Achad Ha-am, *op. cit*, pp. 32-33.

ذهب احتجاج آحاد هاعام أدراج الرياح. وتكرّست كلمة «الصهيونية» منذ سنة ١٨٩٧ عنوانا للمشروع السياسي بتأسيس دولة لليهود على ارض فلسطين، وباتت تعني من ضمن ما تعنيه قيام المؤسسات المتعددة التي تعمل على تحقيق هده الرغبة.(٣٠٢)

وإنْ تكن الصهيونية السياسية بالمفهوم الذي اقرّه مؤتمر بازل، ثم تطور حتى قيام دولة «اسرائيل»، هي أكثر الاتجاهات الصهيونية شهرة وانتشارا، إلّا ان ذلك لا ينفي وجود غيرها. فقد طُرحت الصهيونية منذ نشأتها من عدة وجوه؛ فكانت الصهيونية الدينية اليهودية، والثقافية، والاقتصادية، والعملية، والسياسية. ومع تطور الصهيونية، تزايدت فروعها؛ فكانت الصهيونية الاشتراكية، والمركبة... إلخ.

وسنكتفي بمعالجة ابرز الاتجاهات الصهيونية التي رافقت ولادة الصهيونية الهيرتسلية.

أ ــ الصهيونية الدينية

تعتبر الصهيونية الدينية جزءا لا يتجزأ من العقيدة الدينية اليهودية، وهي الشاهد الحي على تواصل الجذر الديني، ومكانته حتى يومنا هذا.

تقوم الصهيونية الدينية على اربعة اسس رئيسية: الايمان بالاله الواحد؛ الايمان بأن اليهود هم شعبه المختار؛ الايمان بأن المسيح سوف يرسله الرب لتخليص شعبه والانسانية؛ الايمان بعودة اليهود الى وطنهم الأصلي.(٣٠٣)

ويبني اليهود المتدينون آمال المستقبل من العبرة بالماضي؛ فهم يفسّرون التوراة بأن الاسرائيليين القدماء أضاعوا الأرض المقدسة بسبب ارتكابهم المعاصي ضد الآخرين، وبسبب تخلّيهم عن إلههم الواحد من أجل آلهة اخرى. واليهودية، في جوهرها، دين ميثاق او عهد. وإنْ اختلف هذا العهد من جيل الى جيل، فهو دائما يبقى عقدا بين الشعب والله؛ فالله وعدهم بالأرض، وبأن يعيشوا فيها عيشة ازدهار. لكن، في مقابل ذلك، على اليهود من جانبهم ان يقوموا بتنفيذ الشروط الخلقية والمبدئية للعهد، كما يشرحها أنبياء الله في كل عصر.

الله وحده، إذاً، هو الذي يحكم على سلوك أبنائه اليهود، وهو وحده الذي يرى ــ في مرحلة ما ــ انهم قد وصلوا الى حد من المثالية الخلقية، مما يستدعي تصحيح العهد، فيرسل لهم مسيحا

(٣٠٢) S. Landman, *History of Zionism,* Zionist Pamphlets, No. 3 (London. The Zionist, 1915), p. 1.

(٣٠٣) Jastrow, *op cit* , pp. 1-3.

ليخلصهم من الشتات، ويعيدهم الى الأرض المقدسة.(٣٠٤)

بناء على هذه الصهيوبية المتدينة المسيائية، لا يوجد سبب على الأرض ــ مهما تكن اهميته ــ يستدعي العودة الى صهيون، إلّا ان يكون السبب هو الأمر الالهي، فالعودة مرتبطة بسلطة الله التي لا تناقش، ولذلك فالصهاينة المتدينون يتهمون أمثال كاليشر بالهرطقة؛ ومن هنا، تختلف هذه الصهيونية الدينية عن الصهيونية السياسية التي قرر رجالها في مؤتمر بازل سنة ١٨٩٧ العودة الى الأرض المقدسة، ولم ينتظروا المعجزة الالهية. فالصهاينة المتدينون لا يرون في ايّ مؤتمر سياسي طريقا للعودة. وهم، أكثر من ذلك، لا يرون حتى في عذاب الهولوكوست ومعسكرات النازية سببا للعودة؛ فالعودة إنْ لم تقترن بالارادة الالهية، بقدوم المسيح الجديد، هي عودة باطلة.(٣٠٥)

الصهيوبية الدينية، إذاً، نهج يصعب حدا ترجمته الى حركة سياسية فاعلة.(٣٠٦) ومن هذا المنطلق، يرى الصهاينة المتدينون ان قيام اسرائيل الدولة قيام باطل، لأنه جاء بناء على قرار سياسي لا إلهي؛(٣٠٧) فدولة اسرائيل هذه قد تكون اي شيء باستثناء ان تكون، كما جاء وصفها في التوراة، «بيت الصلاة»؛ وهم يستندون الى سفر إشعياء (٥٦:٧): «آتي بهم الى جبل قدسي وأفرِّحُهم في بيت صلاتي وتكونُ محرقاتهم وذبائحهُم مقبولةً على مذبحي لأنّ بيتي بيت الصلوٰة يدعى لكلّ الشعوب.»

ظهرت مواقف وأقوال متعددة من قبل اليهود، تشرح وجهة النظر الدينية الأرثوذكسية، كان من أولها عريضة بتسبيرغ الصادرة سنة ١٨٨٥ التي جاء فيها: «نحن لا نعتبر أنفسنا شعبا بل جماعة دينية، ولذلك فنحن لا نتوقع عودة الى فلسطين.»(٣٠٨)

أمّا عن اليهود الذين ذهبوا الى فلسطين قبل ولادة الدولة الصهيونية، فقال الدكتور جاكوب بيتَشوفسكي، وهو عالم ديني يهودي: «سياسيا... لم يكن لديهم اية تطلعات بل على العكس من ذلك، فهم اعتقدوا ان كلّ الجهود المنصبّة على إنشاء دولة يهودية في فلسطين ما هي إلّا معصيات ترتكب بشأن الموعد الزمني الذي لا يقرره إلا الله.»(٣٠٩)

---

(٣٠٤) Berger, *op.cit.*, p 2.

(٣٠٥) *Ibid.*

(٣٠٦) Jastrow, *op.cit.*, p. 3.

(٣٠٧) Berger, *op.cit.*, p. 3.

(٣٠٨) *Ibid.*

(٣٠٩) *Ibid.*

ويظهر الحوار التالي عمق الهوة الرئيسية التي لا تُردم بين الصهيونيتين السياسية والدينية، وهو حوار جرى في إثر احتلال الأماكن المقدسة في القدس من قبل الجيش الاسرائيلي (حزيران/يونيو ١٩٦٧)، بين الجنرال الاسرائيلي الذي قاد عملية الاحتلال، وبين الحاخام أفرام بلاو رئيس الجماعة الدينية المتزمّتة المعروفة بـ«حراس المدينة»؛ فعندما التقى الرجلان، توقع الجنرال ان يحيّيه الحاخام بلاو تحية الأبطال. ولّما لم يفعل بادره الجنرال بالقول: «ان أتباعه يمكنهم الآن ان يصلّوا على حائط المبكى.» غير ان الحاخام رد عليه بتجهم قائلا: «عندما يهيىء الله الطريق ويأمرنا سنذهب. . . لكننا لن نذهب بناء على دعوة من جنودك.»(٣١٠)

لا تضم الصهيونية الدينية اليوم أكثر من فئات محدودة، سواء في نطاق الصهيونية العالمية او داخل اسرائيل. ولعل المقياس في هذا المجال نتائج انتخابات الكنيست التي لا يتعدّى الصهاينة المتدينون فيها خانة الأقليات. إلّا ان العدد الضئيل للمقاعد الدينية لا يعكس الأثر الكبير للفكر الديني المتزمت في تبريرات السياسة الاسرائيلية.

ب ـ الصهيونية الثقافية ـ الروحية

الصهيونية الثقافية، او الصهيونية الروحية، كما يطلق عليها أيضا، تنبع فلسفتها في القومية اليهودية من أولوية التراث الثقافي والخلقي، واللغة العبرية. وعلى الرغم من الأهمية التي تعطيها لقضية تجميع اليهود في ارض الأجداد، فانها ترفض، من أجل الحصول على الأرض، ادعاء الصهيونية السياسية بحجة معاداة السامية واستفحالها، او بالأوضاع المتردية التي تحيط باليهود اقتصاديا وسياسيا؛ وعوضا من ذلك، فهي ترى ان أعظم تهديد لبقاء اليهود في ظل الأوضاع المعاصرة (في العقد الأخير من القرن التاسع عشر خاصة) يكمن في الضعف الداخلي للمجتمعات اليهودية، وفي فقدانها اي إحساس بوحدتها، وفي تداعي إمساكها بالقيم التقليدية والمثاليات والآمال.(٣١١)

قبل صعود هيرتسل، برز عدد من المفكرين اليهود الذين أكدوا اهمية العامل الثقافي في بعث القومية اليهودية، ومن ابرزهم موشي هس وبيريز سمولنسكين؛ وكذلك كان للتوجه التراثي اهمية بارزة في جمعية «أحباء صهيون». إلّا ان الفضل في تطوير مضامين الصهيونية الثقافية، فكرا

---

(٣١٠) *Ibid*

يعلّق إلمر بيرغر على الحوار أعلاه بأنه قد يكون منسوبا، لكنه حوار يمكن ان يحدث، وهو يعبّر تعبيرا صحيحا عن موقف الصهيونية الدينية (*Ibid*).

(٣١١) Leon Simon, «Cultural Zionism,» *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. I, p 225

وتوجيها، يعود الى آحاد هاعام الذي كان يشدد على اللغة العبرية والقيم اليهودية التاريخية.(٣١٢)

«آحاد هاعام»، لفظة عبرية معناها «واحد من الشعب»، وهي الاسم المستعار الذي عرف به آشر غينزبيرغ، الكاتب اليهودي الروسي وأحد زعماء «أحباء صهيون».

ولد آحاد هاعام سنة ١٨٥٦ في كييف لأب تاجر ثري، متدين «حسّيدي».(٣١٣) تلقّى في طفولته وحداثته تعليما دينيا بتواصل، كما انه درس التلمود وفلسفة الدين على أستاذ خاص، وقام في شبابه بدراسات مكثفة لعدة لغات اوروبية. كما درس بمفرده الفلسفة والعلوم. ونتيجة ثقافته الواسعة، ومطالعته أدبيات حركة الهاسكالاه، تخلّى في شبابه عن المعتقدات الدينية، لكنه لم يتخلّ عن ارتباطه بالتراث الثقافي اليهودي.(٣١٤)

انتقد آحاد هاعام، في مقاله الأول الذي نشره سنة ١٨٨٩ بعنوان «الطريق الخطأ»، سياسة الاستيطان في فلسطين، وقال ان لا أمل بنجاح حركة الاستيطان ما لم توقف وسائلها بإغراء القادمين عن طريق الخداع والأوهام بطرح المكاسب الذاتية، وتتوجه عوضا من ذلك الى إيقاظ وطنيتهم اليهودية الخفية، وحبهم لصهيون، لأنهم هكذا فقط يستمدّون قوة معنوية لمواجهة صعوبات الحياة التي تجابههم في ارض الأجداد.(٣١٥)

اكتسب آحاد هاعام شهرة من مقاله هذا. وقد استمرّ في انتقاد المشرفين على أوضاع اليهود في إثر زياراته لفلسطين في مطلع العقد الأخير. ولإعطاء المثال في أسلوب العمل الاستيطاني، قام بإنشاء التنظيم السري باسم «بني موسى»، وكان موجهه الروحي والعملي. وقد حاول من خلال هذا التنظيم ان يقدّم النموذج للأسلوب الاستيطاني المنشود، إلّا انه لم ينجح كثيرا.(٣١٦)

نشرت مقالات آحاد هاعام النقدية بعدّة لغات. وقد اصبح منذ سنة ١٨٩٥ ــ ولمدة ست

---

(٣١٢) *Ibid.*

(٣١٣) «الحسيديون» بالعبرية «حسيديم» ومعناها المتدينون. والحسيدية او الحصيدية مذهب يهودي باطني متزمت، انتشر في القرن الثاني قبل الميلاد. ويُذكر الحسيديم في التلمود والمدراش بأنهم المتدينون او التقويون الأوائل، الذين يصرف الواحد منهم ساعة تأمل قبل الصلاة وساعة بعدها. ظهر الحسيديم الاشكناز في القرن الثالث عشر، كما انتشرت حركة حسيدية في أوروبا الشرقية في القرن الثامن عشر، ولا يوجد ترابط تاريخي بين الحسيديم القدماء والمتأخرين، مع الفارق في ان القدماء كانوا محاربين، والمتأخرين الذين يوجد لهم بقية في اسرائيل اليوم، فرقة صوفية تعتقد انه حيث يعزّ الخلاص المادي لا يتبقى إلّا الخلاص الروحي.

(٣١٤) Alter Hilewitz, «Ahad Ha-am,» *Encyclopaedia Judaica,* Vol. 2. pp. 440-441; Leon Simon, «Ahad Ha'am,» *Encyclopedia of Zionism and Israel,* Vol. I, p. 13.

(٣١٥) *Ibid*

(٣١٦) *Ibid.*, pp. 13-14.

سنوات ــ رئيسا لتحرير صحيفة «هاشيلواه». وجمع مقالاته في اربعة مجلدات بعنوان «على مفترقات الطرق»، وكذلك جمع رسائله في مجلدات مماثلة.

شن آحاد هاعام حربا صحافية على مؤتمر بازل الذي كان احد حضوره، واتهم هيرتسل ونورداو بإهمال الجانب الثقافي الذي كان يرى في إحيائه الضمانة الوحيدة ضدّ الاندماج. وأظهر خشيته ان تؤدي الحملة الدبلوماسية الى إجهاض العمل قبل الأوان.(٣١٧)

لم تكن معارضة هيرتسل أمرا سهلا، وخصوصا ان القسم الأكبر من شبيبة «أحباء صهيون» قد انضم الى هيرتسل. وقد تعرض آحاد هاعام للقذف والتجريح وسوء التأويل، إلاّ انه استمر على مكانته ككاتب مقال، وصاحب أسلوب مميز؛(٣١٨) وقد شرح نهجه في مقالة «الوقت قد جاء» سنة ١٩٠٦، بقوله:

ان مشكلة الشعب اليهودي لن تحلّ إلاّ بإنشاء «ملجأ قومي» له في فلسطين، ولن يكون هذا ملجأ لكل اليهود الباحثين عن الخبز والسلام، ولكن يكفي ان يكون ملجأ آمنا لعُشْر اليهود، حيث يتمكنون من تطوير خصائصهم القومية الفردية، بحرية، ومن دون ضغط خارجي. وبعد ان رأى ان هذا العُشر سيصبح مقدسا من قبل جميع اليهود، تساءل: من يستطيع ان يتصوّر سلفا قوة تأثير هذا المركز القومي الروحي في حياة اليهود؟ (٣١٩)

أمّا بالنسبة الى بقية اليهود، اي التسعة أعشار، فهو كان يرى ان في إمكانهم الاستمرار في العيش في المنفى، مفترضا ان أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية ستتحسن في النهاية. وفي كل حال، فانّ حل المسألة اليهودية مبدئيا، ينطلق من ارض الشتات، والذين تؤرقهم المسألة اليهودية يتوجهون للعيش في فلسطين، المركز الروحي.(٣٢٠)

عرف آحاد هاعام بين الكتاب الصهاينة بمنطق متسلسل هادىء نورد في صدده المثال التالي، ثم نُتبعه بالنقيض العملي الذي مارسه لمّا كان يكتب:

> اشرف فجر الفكرة الجديدة في ذكريات أرضنا التاريخية، التي اصبحت يوما بلا حياة، ومجرد ذكرى في كتاب، فإذ بها تصبح من جديد قوّة عاطفية حية، يستيقظ مع انبعاثها حبًّا لتراثنا كله .
>
> إذا قلنا ان هؤلاء الرجال قد أقرّوا ان لنا أرضا قومية، نربو الى العودة اليها فعلا، لا بالصلاة وحدها، فنحن إذاً نعترف، ونريد غيرنا ان يعترف بأننا حقا شعب، لا مجرد طائفة دينية، فإذا كنا

(٣١٧) Hilewitz, *op cit*, in *Encyclopaedia Judaica,* Vol 2, pp. 441-442.

(٣١٨) Simon, «Ahad Ha'am,» *op.cit*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel,* Vol. I, p. 14.

(٣١٩) Achad Ha-am, «The Time has Come 1906,» in Achad Ha-am, *op.cit*, p. 97

(٣٢٠) Hilewitz, *op cit*, in *Encyclopaedia Judaica,* Vol 2, p. 447.

شعبا، فانه يجب ان يكون لدينا روح قومية نتميّز بها من سائر الشعوب، كما يجب ان نقدرها ونحميها كما يفعل كل شعب آخر مع قوميته. وإذا كنا نقدر روحنا القومية، فأين نجدها إنْ لم يكن في تاريخنا، وخصوصا في لغتنا القومية وأدبنا، حيث اختزن كل جيل كنوزه الروحية مخلفا إياها لمن يرثه من بعده... هكذا ابتدأت «أحباء صهيون» بإعطاء النبض للانبعاث الروحي.[٣٢١]

وتوّج آحاد هاعام نهجه الثقافي ــ الروحي، وهو في قمة هجومه على سياسة هيرتسل بقوله: «ان خلاص اسرائيل يتحقق بواسطة الأنبياء، لا الدبلوماسيين.»[٣٢٢]

ناقض موجّه «الصهيونية الثقافية» نفسه في أثناء إقامته اربعة عشر عاما في لندن (منذ سنة ١٩٠٨)، لم يتفرغ خلالها للعمل التجاري فقط، بل أيضا للعمل الدبلوماسي الذي عابه على هيرتسل في السابق؛ فقد كان احد زعماء الصهيونية الذين تباحثوا مع الحكومة البريطانية بشأن فلسطين، وانتهت مباحثاتهم بإصدار وعد بلفور

عاش أعوامه الأخيرة في تل ابيب حتى توفي سنة ١٩٢٧، وظل اسمه مرتبطا بالصهيونية الثقافية التي استمرت من بعده، في جذب عدد من الصهاينة الذين يشددون على الجانب الثقافي قبل سواه.[٣٢٣]

ج ــ الصهيونية العملية: أحباء صهيون

اشتهرت «الصهيونية العملية» كمصطلح في تاريخ الحركة الصهيونية، وكحركة نشيطة ذات برنامج واحد، بعد صعود هيرتسل وصعود برنامجه السياسي معه؛ فالصهاينة العمليون كانوا يرون في النشاط الدبلوماسي اللاهث وراء وعود وضمانات دولية مضيعةً للوقت، لذلك عارضوا هيرتسل، وحصروا جهودهم في تنمية المستعمرات داخل فلسطين، والعمل على زيادة الهجرة اليها، حتى تفرض سياسة الأمر الواقع نفسها.

إلّا ان هذا لا ينفي وجود بدايات، ولو متعثّرة، للصهيونية العملية، تندرج في نشاطات الحركة التي عرفت باسم «أحباء صهيون».[٣٢٤]

كان العامل المباشر وراء هذه الحركة مقتل القيصر الروسي ألكسندر الثاني، وما نجم عن

(٣٢١) Achad Ha-am, «The Time has Come 1906,» in Achad Ha-am, *op cit.*, pp. 93-94.

(٣٢٢) Achad Ha-am, «The First Zionist Congress-1897,» in *Ibid.*, p. 31

(٣٢٣) Simon, «Ahad Ha'am,» *op cit.*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. I, p. 14.

(٣٢٤) Getzel Kressel, «Hibbat Zion,» *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 8, p. 463.

مقتله من موجة قَتْل واضطهاد؛ فاليهود الذين كانوا مؤمنين بالاندماج في المجتمع الروسي، صفعتهم موجة الاضطهاد فلجأوا الى يهوديتهم، وارتفعت اسهم الهجرة الى خارج روسيا بحثا عن الخلاص.

والواقع، انه كانت هناك هجرة يهودية الى أميركا قبل مقتل القيصر. فمنذ سنة ١٨٧١ حتى سنة ١٨٨٠، هاجر الى أميركا اربعون ألف يهودي روسي. لكن هذا الرقم تضاعف أكثر من ثلاث مرات في الثمانينات، نتيجة العنف والمذابح، فبلغ عدد المهاجرين مائة وخمسة وثلاثين ألفا.(٣٢٥)

غير ان الهجرة الى أميركا، على كثافتها، لم تحلّ ازمة الجميع. وما كان أمام الاندماجيين بالذات إلاّ حلّ من ثلاثة: فإمّا التوجه الى بلدٍ غربي للاستقرار والاندماج فيه؛ وإمّا البقاء في روسيا والعمل من أجل الثورة وإطاحة العهد القيصري؛ وإمّا العمل على الهجرة الى فلسطين.(٣٢٦) وبالنسبة الى الحل الأخير، فالردّة كانت فجائية بالنسبة الى الكثيرين، من الاندماج الكلي الى الشرنقة اليهودية، فأخذ الشبان الذين كانوا يعتبرون المعابد الدينية من مخلفات الماضي، يدخلونها لأول مرة.

خلال سنتي ١٨٨١ و١٨٨٢، اخذت تنشأ تجمعات وروابط متعددة، هدفها تحقيق هجرة اليهود الى فلسطين وكانت كل منها، في البداية، مستقلة عن الأخرى. وقد ضم بعضها متدينين، وبعضها طلابا ثوريين، وأخرى جمعت متعاطفين ومحسنين، على استعداد للتبرع من أجل اليهود القاطنين في فلسطين. وقد عرفت هذه الجمعيات، في بداياتها، باسم «حب صهيون»، ثم اشتهرت باسم «أحباء صهيون».(٣٢٧)

لم يكن هناك من تعاون بين الجمعيات في المرحلة الأولى. وكانت مجموعة طلاب جامعة كاركوف، وهي من أولها، أنشط المجموعات، فقامت تطوف في البلاد، وتجمع أسماء المستعدين للهجرة الى فلسطين، حتى جمعت خمسمائة اسم.(٣٢٨) واتخذ هؤلاء الشبان المتحمسون لأنفسهم شعارا توراتيا من سفر إشعياء «يا بيْتَ يعقوب هلمَّ فنسلُكُ في نورِ الرب» (٢ : ٥)، وتشكل الحروف الأولى بالعبرية منه كلمة «بيلو»، فاتخذوها إسما لهم.

---

(٣٢٥) Conor Cruise O'Brien, *The Siege: The Saga of Israel and Zionism* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1986), p. 40.

(٣٢٦) *Ibid.*, p. 41.

(٣٢٧) Laqueur, *op.cit.*, p. 75.

أُطلق على الجمعية بالعبرية أولا Hibbat Zion، اي «حب صهيون»، ثم اصبح يقال عن الأعضاء والأنصار Hovevi Zion اي «أحباء صهيون».

(٣٢٨) Cohen, *op. cit.*, p. 59.

تقلّص عدد البيلو المهاجرين في الدفعة الأولى من المئات الى العشرات، ولم يصل أكثر من اربعين منهم الى الآستانة للتباحث في شراء ارض في فلسطين. ولمّا فشلوا في ذلك تفرقوا، ولم يصل منهم الى فلسطين إلّا ستة عشر في تموز/يوليو ١٨٨٢، فكانوا في طليعة الهجرة الأولى.

حاول شباب البيلو الاستفادة من مشروع لورنس أوليفانت الاستيطاني، غير ان هذا قد فشل بدوره ــ كما علمنا ــ فتنقّل البيلو من مستعمرة الى اخرى، وكانوا يطبقون على انفسهم نهجا اشتراكيا صارما، حتى أطلق اليهود المحليون عليهم اسم «الفوضويين الروس». والواقع ان خبرتهم الزراعية كانت ضئيلة جدا، وكذا كان استعدادهم للتعلم، ولا مال لديهم إلّا ما يصل اليهم عن طريق الهبات المحدودة، وحتى عددهم لم يرتفع كثيرا.[٣٢٩] ولعلّ الصفة التي ميّزتهم من «أحباء صهيون» عامة، انهم كانوا يتمتعون بالصلابة والعناد، وقد حددوا لجماعتهم هدفا هو: «إحياء الروح القومية والعوامل السياسية والاقتصادية للشعب اليهودي في سوريا وأرض اسرائيل.»[٣٣٠]

لم يتبنّ أحباء صهيون هدفا سياسيا معلنا، وربما كان ذلك خوفا من إغضاب السلطات الروسية والعثمانية معا. وقد حرص أحباء صهيون على إضفاء طابع الفقر والمسكنة على هجراتهم ومهاجريهم.[٣٣١]

مّما لا شك فيه ان السياسة القيصرية، التي لم تكن لتسمح بأي نشاط سياسي، قد اضطرت أحباء صهيون الى الانصراف الى قضية الهجرة وحدها؛ وهذا ما اضفى عليهم الطابع العملي من دون سواه.

وعلى الرغم من ان اليهود في أوروبا الغربية كانوا يتمتعون بحرية سياسية أفضل من إخوانهم في روسيا، فان «أحباء صهيون» هناك أيضا لم يعملوا على أهداف سياسية، لأنهم كانوا يخشون ان توضع وطنيّتهم موضع الشك؛ وهذا ما جعل نشاطهم في أوروبا الغربية محدود النتائج، وقليل الأهمية، ومنحصرا في المساعدات الخيرية.[٣٣٢] أما في المؤتمر الذي عقد في برلين (نيسان/إبريل ١٨٨٢) وضمّ ممثلين عن العديد من التجمعات اليهودية، فقد عارض الجميع هجرة اليهود الى فلسطين، باستثناء صوت واحد هو صوت هيلدِشايمر.[٣٣٣]

(٣٢٩) Laqueur, *op.cit.*, p. 75.

(٣٣٠) Arthur Hertzberg, «Zionism. Hibbat Zion,» *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 16, pp. 1038-1039.

(٣٣١) O'Brien, *op.cit*, p. 42

(٣٣٢) Kressel, «Hibbat Zion,» *op.cit.*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 8, p. 463.

(٣٣٣) Hertzberg, «Zionism: Hibbat Zion,» *op.cit.*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 16, p. 1039; Laqueur, *op cit.*, p 80.

عقد «أحباء صهيون» أول مؤتمر عام لهم في كاتوفيتس في فترة ٦ ـ ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٨٤. ويعتبر هذا المؤتمر محطة بارزة في تاريخ الحركة؛ فقد حضره ٣٤ عضوا، وفيه تألفت المنظمة المركزية للجمعية برئاسة بنسكر. وكان بنسكر قد اصدر كتابه «التحرر الذاتي» قبل عامين، وما زال على حماسته في مبادئه، وركّز في خطابه أمام المؤتمر على اهمية العودة الى الأرض، وقال ان فلسطين هي البلد الوحيد الذي يحقق الآمال.

اتُّفق في المؤتمر على إرسال المساعدات الى المستعمرات الحديثة، والسعي من أجل الحصول على إذن رسمي من الآستانة للعمل من دون عوائق. إلاّ انهم لم يحصلوا على هذا الاذن يوما.

وأقرّ المؤتمر تأليف لجنة رئيسية في كل من وارسو وأوديسّا، ولم تعش لجنة وارسو طويلا. أما لجنة أوديسّا، فقد كانت رئاستها لبنسكر أيضا، وقد استمرت من بعده عصب النشاط اليهودي في روسيا حتى الحرب الكبرى.(٣٣٤)

واجهت جمعية «أحباء صهيون» مشكلات رئيسية، أهمها ان مؤتمر كاتوفيتس، على اهميته، لم يعمل جديا لتعريف الهدف الحقيقي وتحديد المجال الفعلي، فضلا عن طرح الوسائل للخطط العملية؛ وأهمّها أيضا ان الأغنياء من اليهود الروس لم يتبرعوا بسخاء، فجابهت الجمعية صعوبات مالية؛ وهكذا، فعلى الرغم من تحول الحركة كليا الى حركة إحسان ومعونات خيرية، فانها لم تفلح كثيرا حتى في هذا المجال، إذ لم تتعدّ المبالغ التي كانت تجمعها سنويا أكثر من عشرين ألف روبل.

صحيح ان بعض أعضاء الجمعية قد هاجروا الى فلسطين، لكن الأكثرية بقيت في الجانب المتعاطف.(٣٣٥)

كان ابرز من ترأس الجمعية منذ وفاة بنسكر، رئيسها الثالث مناحيم أوسشكين الذي اصبح على رأسها منذ سنة ١٨٩٦. وكان رجلا ديناميا وشديد الطموح (وهو الرجل الأول الذي سترتبط به الصهيونية العملية في فلسطين بعد مجيء هيرتسل).

انتشرت فروع «أحباء صهيون» في أوروبا الشرقية، وخصوصا في رومانيا، حيث وجد ٣٢ فرعا. كذلك قام العديد من الطلاب اليهود بتأسيس جمعيات طالبية، وأولها جمعية للطلاب اليهود في أوروبا الشرقية أُنشئت سنة ١٨٨٢ باسم «كاديما»، وكانت هذه برئاسة الكاتِبَيْن سمولنسكين والدكتور بيرنباوم الذي كان أول من استعمل كلمة «الصهيونية» في كتاباته السياسية، كما ذكرنا.

وتعددت الجمعيات الطالبية، وكان منها جمعية الطلاب اليهود الروس في برلين، ومن أعضائها

---

(٣٣٤) Cohen, *op cit.*, p. 60, Laqueur, *op cit*, p 77

(٣٣٥) Laqueur, *op.cit.*, p. 77.

حاييم وايزمن (الذي سيصبح من زعماء الصهيونية فيما بعد).

كانت ميّزة التجمعات الطالبية أنها أكثر قدرة وجرأة على التفكير، من سواها، فطالبت جمعية «يونـغ اسرائيل» (اي: اسرائيل الفتية) سنة ١٨٩٣ بمؤتمر عام لصوغ الأهداف الكبرى للصهيونية السياسية.

حصلت جمعية «أحباء صهيون» سنة ١٨٩٠ على إذن رسمي من السلطات الروسية، معرّفة عن نفسها بأنها «جمعية لمساعدة اليهود الزراعيين والحرفيين في فلسطين وسوريا.»[٣٣٦] واستمرت في انتشارها جغرافيا حتى شملت أوروبا الغربية والولايات المتحدة. لكنها، على الرغم من هذا الانتشار، لم تحصّل شيئا يذكر من الآمال الكبار لرجالها، أمثال بسكر وليلينبلوم. وإنْ تكن الجمعية قد حصرت شؤونها وشجونها في «الهجرة»، فان الأرقام تثبت ضآلة عملها، ذلك بأن معظم العشرين ألف يهودي الذين كانوا قد تركوا روسيا بسبب المذابح القيصرية (١٨٨١ ــ ١٨٨٢)، توجهوا الى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية. أما نسبة الذين ذهب منهم الى فلسطين، فلم تتجاوز ٢ ٪. ثم كانت النسبة مـع الزمن تتدنى ولا ترتفـع.

لقد تمزّقت حركة «أحباء صهيون» بسبب النزاعات الداخلية؛ إذ حاول رجال الدين التخلّص من المفكرين الأحرار، حتى جاء يوم تقلّصت فيه سلطة بنسكر، الدماغ المفكر فيها؛ وكذلك شلّتها الأنباء التي كانت ترد الى الأعضاء من فلسطين، عن سوء الادارة في المستعمرات، والقلة في الانتاج، والصعوبات بسبب طبيعة هذه الأرض او تلك.[٣٣٧]

تقدّم رجال الدين لمساعدة الجمعية مشترطين ان تصبح دينية. غير ان العلة لم تكن في «علمانيتها»، إنْ وجدت حقا، بل في أساليبها البطيئة، وتنظيمها الضعيف، ومواردها الضئيلة؛ فالعمل في معظمه قام على تبرعات رجل واحد، هو البارون إدموند دي روتشيلد. وبغضّ النظر عن كرمه، وعن تضحية الطلائـع، فما كان النظام القائم ليستطيـع ان يتحمل قضية هجرة واسعة.[٣٣٨]

ردّ لاكور السبب الرئيسي في ضعف الجمعية وتضعضعها الى الانقسامات الداخلية، والى ضياع قادتها الذين كانوا لا يملكون الرؤية، ولا العبقرية، ولا الطموح القيادي، ولا النشاط الكبير الذي تتطلبه هكذا حركة. لكن، على الرغم من فشل «أحباء صهيون»، تنظيميا وسياسيا، فقد

(٣٣٦) Cohen, *op cit*, pp. 61-62.

(٣٣٧) Laqueur, *op cit.*, p. 77.

(٣٣٨) Cohen, *op.cit.*, p. 66.

تعلّق بها آلاف المتعاطفين الذين ظلوا على إيمانهم بأن آمالهم سوف تتحقق يوما.(٣٣٩)

كان الدكتور بيرنباوم من المفكرين اليهود القلة الذين أدركوا، يومئذ، اهمية المغزى السياسي لانشاء المستعمرات؛ فكان يرى ان قيام المستعمرات من دون تأمين وجودها الاقتصادي والسياسي، لا يكفي. وبالاضافة اليه، فلم يكن هناك من يؤمن مثله بالصهيونية سنة ١٨٩٦ إلّا القلة المعدودة على الأصابع من رجال الدين، وفريق من الطلاب والشباب في برلين وكولون، بالاضافة الى فريق محدود ـــ لكن أكبر عمرا من هؤلاء ـــ في روسيا.

نستنتج من هذا كله ان لا دعوة بنسكر الى التحرر والتجمع، ولا قيادته او قيادة سواه لـ «أحباء صهيون» قد نجحت في خلق حركة جماهيرية؛ أما المستعمرات العشرون التي أُنشئت في فلسطين، فمعظمها هزيل ولا يصلح قاعدة لهجرات جماعية واسعة؛ وأما العقيدة المسيائية، فقد كانت منبعا عاطفيا وفكريا، لكنها برهنت على فشلها في توجيه حركة سياسية جماعية؛ وهكذا، لولا ظهور هيرتسل، وطرحه المبادىء السياسية بوضوح، واستقطابه الناس من حوله، وتحويله العواطف الصهيونية الى حركة منظمة، لما كانت جمعية «أحباء صهيون» غير مجرد جمعية للذكرى.(٣٤٠) وأمّا بفضل هيرتسل، فقد اصبحت همزة الوصل الوحيدة بين الرواد الأوائل في منتصف القرن التاسع عشر، وبين صهيونية هيرتسل. كما أنها كانت الخميرة التي استند هيرتسل اليها في عمله.

اختلفت نظرة «أحباء صهيون» الى هيرتسل، في أوروبا الغربية عن شرقها: ففي الغربية وقفوا منه موقفا متحفظا، لكنهم استمروا في التبرع؛ أما في الشرقية، فقد انضمّ معظمهم الى هيرتسل، لكنهم ميّزوا موقفهم منه باستمرارية نهجهم العملي، وإعطاء هذا النهج الأولوية في المستعمرات.(٣٤١)

د ـــ الصهيونية السياسية

تعتبر الدعوات الفكرية التي أطلقها رواد الصهيونية، ولا سيما دعوة بنسكر، حجر الأساس في قيام الصهيونية السياسية التي أطلقها هيرتسل سنة ١٨٩٧. وبمعنى آخر، فالصهيونية السياسية كانت قائمة، لكن في عالم النظريات، حتى جاء هيرتسل وحوّلها الى حركة سياسية.

---

(٣٣٩) Laqueur, *op cit*, p 80

(٣٤٠) *Ibid.*, pp 81-83

(٣٤١) Kressel, «Hibbat Zion,» *op cit*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol 8, p. 463

هناك من يكتفي بالاشارة الى الصهيونية السياسية بالصهيونية فقط، غير ان نعتها بالسياسية قد نجم عن معارضة الصهاينة العمليين والثقافيين لهيرتسل، مما ادى الى تمييز دعوته ونهجه على أساس كونها «الصهيونية السياسية»، او«الصهيونية الدبلوماسية». وقد تفرع من الصهيونية اتجاهات عديدة فيما بعد، إلّا ان الاتجاهات الرئيسية العامة التي رافقت ولادة مؤتمر بازل هي: الدينية، والثقافية ـ الروحية، والعملية، والسياسية.

الفصل الرابع

انطلاقة الصهيونية

أولا: ظهور هيرتسل

هيرتسل، مؤسس الحركة الصهيونية وزعيمها الأوحد منذ إنشائها حتى وفاته؛ وهيرتسل الصحافي المثقف اللامع؛ وهيرتسل، الروائي والمسرحيّ والناقد؛ وهيرتسل، المفاوض والدبلوماسي والمناور، الذي امتلأت حياته السياسية ـ على قصرها ـ بمئات المقابلات والاتصالات والرحلات؛ هيرتسل هذا، كتب هو عن نفسه، بعد وصوله الى القمة، في ٤ حزيران/يونيو ١٩٠٢، يقول:

> يحدث أحيانا للرجل الفذ ان يوزع نشاطه على عدّة حقول، وإذ به لا يجد نفسه مشهورا إلاّ في الحقل الذي لا يتلاءم مع أعماق شخصيته
>
> على سبيل المثال، فأنا اجد نفسي في الحقل الذي لم أُنجز فيه شيئا على الصعيد الفكري، فما قمت به كان مجرد مهارة سياسية عادية . وقد دانت لي الشهرة العالمية في المسألة اليهودية، وكأنني مروّج دعائي.
>
> أنا ككاتب، وتحديدا ككاتب مسرحي، لا شيء، وأقلّ من لا شيء. الناس يقولون عني فقط انني صحافي جيّد.
>
> ومع ذلك، فأنا اشعر، وأعرف انني، او انني كنت كاتبا ذا قدرة كبيرة؛ إلاّ ان هذا الكاتب لم يستنفد قدراته، لأنه لم يلق تشجيعا، ولأنه شعر بالاشمئزاز [٣٤٢]

ان اعتقاد هيرتسل انه كاتب مسرحي وروائي عبقري، فيما لو انصرف كليا الى ذلك، وفيما لو تنبّه الناس لذلك، امرٌ لا يقرّه نقاد الأدب، ولا سيما هؤلاء من أبناء جيله؛ فهم يصنفون آثاره الأدبية في خانة الأدب العادي. [٣٤٣] أما التواضع في إنجازاته السياسية، فمفاجأة للقارىء في هذا القسم

---

(٣٤٢) Raphael Patai, ed , *The Complete Diaries of Theodor Herzl* Translated by Harry Zohn (New York, London· Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960), Vol. IV, pp 1282-1283.

(٣٤٣) Laqueur. *op.cit* , pp. 87-88.

الأخير من يومياته، لأن من يقرؤها من بدايتها يجد تناقضا صارخا بين هذا التواضع المفاجىء وبين «اليوميات» كلها، فهي تنضح غرورا واعتدادا بالذات واستهانة بالآخرين. كما ان الشواهد فيها على تمسكه بالزعامة ــ له وحده ــ حقا شرعيا طبيعيا لا نقاش فيه، لا تحصى ولا تعدّ، فضلا عن وفرتها في يومياته السابقة لقيام الحركة الصهيونية، وحتى السابقة لصدور كتابه «الدولة اليهودية». ويبدو انه منذ قيامه بمشروع كتابه هذا، اي منذ سنة ١٨٩٥، وهو لا يرى نفسه إلاّ الزعيم الأول، والقائد، والمفكر، وصاحب القرار الذي لا يُردّ. وكم ردّد في يومياته بين صفحة وأخرى: «أنا سأفعل هذا»، او «أنا سأطلب هذا»، او «أنا سأعيّن فلانا». ونقتطف للمثال ما كتبه في يومياته الأولى بتاريخ ٧ حزيران/يونيو ١٨٩٥، اي قبل ان تكون له اية صفة رسمية، او ان يكون لـ «الصهيونية» وجود: «أنا أحمل الى آل روتشيلد واليهود الكبار مهمتهم التاريخية »(٣٤٤)

وكتب رسالة الى مجلس آل روتشيلد في حزيران/يونيو ١٨٩٥، أيضا، يقول فيها:

> أولا، سأتفاوض مع القيصر (الروسي) من أجل السماح لليهود الروس بمغادرة البلاد.
>
> وعليه ان يعطيني كلمته الامبراطورية كي تطبع في الجريدة الرسمية (وهو سيعتقد انني قادر على سحب بضع مئات الآلاف فقط).
>
> ثم أتفاوض مع القيصر الألماني. ثم مع النمسا. ثم مع فرنسا بشأن اليهود الجزائريين. ثم كما تمليه الحاجة...(٣٤٥)

ونراه في هذه المرحلة بالذات، بل في هذا الشهر بالذات، وفي ١٦ حزيران/يونيو ١٨٩٥ بالتحديد، قد اقتنع تماما بأنه هو الزعيم المنتظر، فكتب يقول: «أنا اعتقد ان الحياة بالنسبة الي قد انتهت، وأن تاريخ العالم قد ابتدأ.»(٣٤٦)

وهكذا يتضح ان هيرتسل كان يفكر ويخطط كزعيم، قبل ولادة الصهيونية الرسمية والفعلية بسنوات. وهذا بالذات يطرح سؤالا مبدئيا: متى ولدت الصهيونية نفسها في فكر هيرتسل ومشاعره؟

يتضح من خلال «يوميات هيرتسل»، ان ولادة الصهيونية متزامنة مع ولادة الزعامة في ذاته. فالصهيونية والزعامة توأم شخصيته، وقد ولد هذا التوأم في إثر المقابلة الأولى التي جرت بينه وبين الثري اليهودي الكبير هيرش. وقد كان هيرش صاحب مشروع استيطاني لبضعة آلاف من اليهود في الأرجنتين، وقد هاجم هيرتسل مشروعه هذا لأن الاحسان الى فقراء اليهود يبقيهم جبناء وضعفاء،

---

(٣٤٤) Patai, ed., *The Complete Diaries...*, *op.cit.*, Vol. I, p. 37.

(٣٤٥) *Ibid.*, Vol. I, p. 55.

(٣٤٦) *Ibid.*, Vol I, p. 105.

وأما توظيف المال في مشروع سياسي فيضمن لهم الأرض التي تخصّهم وحدهم، اي «مشروع الدولة».

وهزأ هيرش به قائلا له: «من اين يأتي المال؟ ان روتشيلد سيتبرع بخمسمائة فرنك.»[٣٤٧]

لقد عاد هيرتسل من هده المقابلة مقتنعا بأنه الزعيم المنتظر، وبأن هؤلاء اليهود الأثرياء ليسوا بعظماء، وإنْ كان لا بدّ من أموالهم لقيام المشروع الصهيوني، وهذا معناه ان لا بد من التزلف لهم.

ولد ثيودور هيرتسل في بودابست سنة ١٨٦٠ لعائلة يهودية ميسورة، ولم يتلقّ تعليما دينيا متزمتا في صغره، إذ نبعت دراسته وثقافته عامة من الروح السائدة يومئذ في أوروبا الوسطى، وهي روح التنوير والاندماج اليهودي في الحضارة الألمانية. وكان طموحه الأكبر ان يُدرج اسمه في عداد الكتاب الكبار بالألمانية.

انتقل ذووه الى فيينا سنة ١٨٧٨، فدخل كلية الحقوق وحصل على دكتوراه في التشريع الروماني سنة ١٨٨٤. إلّا انه سرعان ما تحوّل، وفي أقل من عام، من عالم الحقوق الى عالم الأدب، منصرفا الى كتابة القصة والمسرحية والنقد والمقالات الصحافية وكان غزير الانتاج. وقد قُدِّم بعض مسرحياته على مسارح فيينا وبرلين وبراغ.

كان أول حدث بارز في حياة هيرتسل تعيينه مراسلا أدبيا من باريس لجريدة «الصحافة الحرة الجديدة»[٣٤٨] سنة ١٨٩١. ولمّا كانت هذه الجريدة النمساوية الأولى في صحافة العصر باللغة الألمانية، فقد اكتسب هيرتسل شهرة عن طريقها. كما انه اكتسب الكثير من حياته في باريس، عاصمة الثقافة الأوروبية والعالم الغربي، ومركز التيارات الحضارية، والتطورات السياسية المستجدة. وهناك تمكن من التعرف عن كثب على الشؤون السياسية والثقافية في أوروبا. وبحكم مهنته الصحافية، فقد تعرّف على العديد من المشاهير.[٣٤٩]

كان هيرتسل في هذه المرحلة من شبابه في عداد التيار الاندماجي، والى الحدّ الذي كان لا يرى حلا للمسألة اليهودية إلّا عن طريق اعتناق اليهود للمسيحية اعتناقا جماعيا لم يسبق له مثيل؛ وقد رشح هيرتسل يهود النمسا طليعة اليهود المتحولين الى المسيحية.

وروى في مطلع يومياته التي سجلها سنة ١٨٩٥، ذكرياته السابقة في هذا الشأن، وكيف كان

---

(٣٤٧) *Ibid*, Vol I, p 23

(٣٤٨) كانت «الصحافة الحرة الجديدة» (*Die Neue Freie Presse*) تصدر في فيينا.

(٣٤٩) Alex Bein, «Theodor Herzl,» *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol I, pp 490-491, Laqueur, *op cit*, pp. 84-88.

يحلم ــ سنة ١٨٩٣ ــ بالوصول الى البابا في الفاتيكان ليقول له: «ساعدنا ضد معاداة السامية، وأنا سأقود حركة ضخمة عظيمة من أجل اعتناق اليهود المسيحية اعتناقا حرا ومشرّفا.»(٣٥٠)

وشرح هيرتسل معنى الاعتناق الحرّ والمشرّف، بكونه يستثني قادة الحركة من التحول، ويستثني شخصه بالذات؛ فهؤلاء القادة سيبقون يهودا. وأما الاعتناق الجماعي المنشود،

> فسوف يتمّ في ضوء النهار، وفي الآحاد، وفي كاتدرائية سان ستيفان، وسط مراسيم الاحتفالات وقرع الأجراس. فالتحوّل لن يكون معيبا كما كان اليهود الأفراد يتحوّلون من قبل، بل مع مظاهر الكبرياء. وبما ان قادة اليهود سيبقون يهودا، وسيرافقون الجموع الى عتبة الكنيسة، ويقفون هم انفسهم خارجها، فالأداء الكامل مع هذه المسحة من الصراحة والاخلاص لا بدّ من ان يرتفع شأنه.(٣٥١)

وبعد هذا التقديم المسرحي، يشرح هيرتسل فلسفته بقوله ان جيله هو، يجب ان يبقى على عقيدة الآباء، لكن الآباء يحولون أبناءهم الى المسيحية، قبل ان يصل هؤلاء الأبناء الى العمر الذي يخوّلهم اتخاذ قرارهم الذاتي، لأن تحوّلهم في عمر النضوج والرجولة سيبدو جبنا او تراجعا.

ولا يتخلّى هيرتسل عن أسلوبه المسرحي، ولا عن عادته في التخطيط لأدق التفاصيل، بما فيها الشكلية. وفي هذا السياق، فهو يتخيل سيناريو كاملا بينه وبين رئيس أساقفة فيينا، وكذلك بينه وبين البابا، وقد تأسف كلاهما لأنه سوف يبقى واحدا من الجيل اليهودي الأخير.(٣٥٢)

أما كيف اكتشف هيرتسل الصهيونية بعد هذا كله، فكتّاب سيرته يربطون ذلك بحادثة درايفوس الشهيرة التي ابتدأت مع مطلع سنة ١٨٩٥، ولم تنته قبل سنة ١٩٠٦؛ لقد اتهم الضابط الفرنسي اليهودي ألفرد درايفوس ببيع أسرار عسكرية حربية للملحق العسكري الألماني، فحكم عليه بالسجن المؤبد.(٣٥٣) وفي صباح ٥ كانون الثاني/يناير ١٨٩٥، وبينما كان درايفوس يمرّ أمام الصحافيين، وبينهم هيرتسل، صاح: «عليكم ان تقولوا لفرنسا كلها انّي بريء.» وفي الوقت نفسه، كانت هتافات السخرية تتصاعد من الجماهير: «جبان! يهوذا! يهودي قذر! الموت لليهودي.»(٣٥٤)

ابتدأ هيرتسل يدوّن يومياته بعد حادثة درايفوس بأشهر، لكنه لم يعد الى انطباعاته وذكرياته عنها، كما عاد بالنسبة الى اعتناق اليهود المسيحية ــ مثلا. ولم تكن الاشارة الى درايفوس في يومياته

---

(٣٥٠) Patai, ed , *The Complete Diaries* , *op cit.*, Vol. I, p. 7.

(٣٥١) *Ibid.*

(٣٥٢) *Ibid.*

(٣٥٣) أُعيدت محاكمة درايفوس مرتين، فكان مذنبا وقد صدرت براءته النهائية سنة ١٩٠٦، ورقّي بعدها الى رتبة ميجر، ثم اصبح من كبار الضباط في الحرب العالمية الأولى.

(٣٥٤) Jean-Denis Bredin, *The Affair: The Case of Alfred Dreyfus*. Translated from the French by Jeffrey Mehlman (New York: George Braziller, 1987), pp. 4-5.

كلها، أكثر من إشارات عابرة؛ أمّا عن بداية التحوّل في ذاته، اي التحوّل من الاندماج الى الصهيونية، فهو يردّها الى قراءته لكتاب ديورنـغ بشأن المسألة اليهودية، وقد قدّم هذا الكـاتب والفيلسوف الألماني المعادي للسامية اليهودية كعنصر هدّام لحضارة الشعوب. (٣٥٥)

ابتدأ هيرتسل يعي، بالتدريج، أخطار معاداة السامية. وقد تعرّض مرتين، في النمسا وألمانيا، لاهانات، مثل: «يهودي قذر» وذلك من جانب شبان لا يعرفونه، لكنهم ربما عرفوه من شكله كما يقول. (٣٥٦) أما وهو في باريس، فهي المدينة الوحيدة التي اصبح يمر بها من دون ان يتنبّه له احد كيهودي، حتى كانت حادثة درايفوس، فأصبح همّ هيرتسل التفتيش عن معاداة السامية، ونبشها لا وأدها.

هو الذي يقول:

«معاداة السامية قد كبرت، وما زالت تكبر، وكذلك أنا.»(٣٥٧)

وهو الذي يشبّه معاداة السامية ببخار الماء الذي يغلي في وعاء على النار؛ فالبخار هو الذي يرفـع الغطاء بقوته. (٣٥٨)

وهو الذي يقـول ان كل مكـان فيه يهـود، فيه معـاداة للسامية. (٣٥٩) ويقول أيضـا: «فنحن على الأرجـح مكروهون لمواهبنا، تماما كما نحن مكروهون لأخطائنا.»(٣٦٠)

ويقول في خطاب له:

«نحن يجب ان نطوف في أرجاء المعمورة كلّها باحثين عن بقعـة واحدة لا يُشْتَم فيهـا ولا يُضطهد شعب الله التاريخي.»(٣٦١)

ولا يبحث هيرتسل عن حلّ إلّا عن طريق استفحال معاداة السامية لتصبح المحرّك الأول، والدافـع الأول للصهيونية، إذ يقول:

---

(٣٥٥) Patai, ed , *The Complete Diaries .., op.cit* , Vol. I, p. 4.

كان كارل يوجين ديورنـغ من اشهر الفلاسفة الألمان (١٨٣٣ ــ ١٩٢١) الذين طرحـوا الفلسفة الوضعية. وهو لم يهاجم في كتاباته اليهودية وحدها، بل هاجم أيضا الدين، والماركسية، والتسلط العسكري.

(٣٥٦) *Ibid* , Vol I, pp 5-6

(٣٥٧) *Ibid.*, Vol. I, p. 7.

(٣٥٨) Theodor Herzl, *The Jewish State. An Attempt at a Modern Solution of the Jewish Question* Translated by Sylvie D'avigdor (London· Rita Searl, 4th ed , 1946), p. 9

(٣٥٩) *Ibid.*, p. 14.

(٣٦٠) *Ibid.*, p. 73.

(٣٦١) Herbert Parzen, ed., *Herzl Speaks. His Mind on Issues, Events and Men* (New York. The Herzl Press, 1960), p. 17.

نحن يجب ان نغرق أكثر نحن يجب ان نُحتقر في أرجاء الدنيا أكثر، وأن يُبصق علينا، وان يُستهزأ بنا، وأن نُضرب، وأن نُسْرَق، وأن نُذبح، قبل ان نصبح ناصحين للفكرة [الصهيونية].[٣٦٢]

وهكذا كان هيرتسل ينظر الى الشعوب كلها، ومن دون استثناء، على أنها معادية للسامية، وإنْ يكن بعضها ــ في رأيه ــ يعلن معاداته للسامية، وبعضها يخفيها.[٣٦٣]

ويتضح الربط العضوي بين الاضطهاد والقومية في فكر هيرتسل، وهو يدلي بشهادته أمام لجنة ملكية بريطانية سنة ١٩٠٢، إذ يقول:

أنا سأعطيكم تعريفي للشعب، وأنتم تستطيعون ان تضيفوا اليه صفة «اليهودي».
فالشعب هو. . . جماعة تاريخية تتميّز بالتماسك الذي يجمع بينها بسبب عدوّ مشترك. تلك هي نظرتي الى الشعب. فإنْ اضفتم كلمة «يهودي»، يصبح لديكم ما افهمه أنا بـ «الشعب اليهودي». والعدو المشترك هو المعاداة للسامية[٣٦٤]

ثانيا: «الدولة اليهودية» لهيرتسل

كان صدور كتاب «الدولة اليهودية» لهيرتسل في شتاء سنة ١٨٩٦ حدثا فكريا مهما، لا للأفكار الواردة في الكتاب، إذ لم يكن فيه ــ حقيقة ــ شيء جديد، وإنما للتحوّل المفاجىء في الكاتب نفسه: من مسرحي وروائي، الى مفكر سياسي.

كتب هيرتسل «الدولة اليهودية» في صيف سنة ١٨٩٥ في باريس (والكتاب او الكتيّب، أصلا، رسالة الى آل روتشيلد بشأن مخططه السياسي)، وهو يقول انه كان يعمل عليه يوميا حتى يصاب بالارهاق. وقد امضى أسابيع في الكتابة، حتى بات عاجزا عن صوغ أفكاره بوضوح. ومن كلماته: «كنت أكتب ماشيا، واقفا، مستلقيا، في الشارع، في أثناء وجبات الطعام، في الليل حتى يهرب النوم مني. . .»[٣٦٥]

لم يشأ هيرتسل إجراء اي تنقيح لكتابه. ولّما أعطاه لصديق له، أظهر له هذا انزعاجه ونصح له ان يعطيه للدكتور ماكس نورداو، الطبيب النفساني والكاتب المرموق. فأظهر نورداو، القارىء

---

(٣٦٢) *Ibid.*, p. 11.

(٣٦٣) Elmer Berger, *Israel's Threat to Judaism in Palestine Zionism v. Judaism, Christianity, Islam* (Dublin: Irish Arab Society, 1970), p. 4

(٣٦٤) Parzen, ed , *Herzl Speaks..* , *op.cit* , pp 7-8.

(٣٦٥) Herzl, *The Jewish State...*, *op cit.*, p. 3.

الثاني، على العكس من القارىء الأول، إعجابه الهستيريّ بالكتاب، وتأييده المطلق لهيرتسل. وقد عانقه قائلا: «ان كنتَ انتَ مجنونا، فسنكون معا مجانين. اعتمد عليّ ـ أنا معك.»(٣٦٦)

احدث الكتاب حين صدوره ضجة كبيرة، معه وضده، وتُرجم الى أكثر من لغة. وعلى الرغم من ان هيرتسل ما كان يشير الى كتابه قط منذ صدوره، إذ تجاوزه نفسيا، فان جذور الخطوط العريضة لمشروعه السياسي تبقى واضحة في «الدولة اليهودية»، ولم يطرأ عليها تغيير يذكر باستثناء رأيه في لغة الدولة وموقع الدولة.

يرتكز مشروع هيرتسل الصهيوني، فكريا وعاطفيا، على العداء للسامية وانتشاره وتطوره، فهو الأصل الذي لولاه لما ولدت صهيونيته حركةً استعمارية عدوانية، من اللحظة الأولى.

تتميز القوميات عبر التاريخ بقدرة الشعوب على تطوير مقوماتها القومية الذاتية جيلا بعد جيل. أما هيرتسل، فلا مقومات قومية لديه، إلّا المشاعر وردات الفعل اليهودية على عنصر سلبي خارجي، هو معاداة السامية. ان من يقرأ كتاب «الدولة اليهودية» يخرج بانطباع أكيد ان القضاء على معاداة السامية هو القضاء على «الدولة اليهودية».

يقوم مشروع هيرتسل العملي، في الدرجة الأولى، على خطوتين رئيسيتين: فالأولى، الحصول على وعد دولي بإعطاء اليهود أرضا لبناء الدولة، وليس همّا ان يكون الوعد من تركيا ام ألمانيا ام روسيا ام بريطانيا ام فرنسا، فالمهم ان يكون وعدا دوليا قادرا على حماية المشروع؛ وليس همّا ان تكون الأرض فلسطين او الأرجنتين، فالمهم ان تكون أرضا صالحة وكافية. أما الخطوة الثانية، فهي جمع الأموال من أثرياء اليهود لاغراء تركيا ـ مثلا ـ ببيع فلسطين.

من الطريف ان هيرتسل كان يرى المال أحيانا وسيلة للوعد، وأحيانا يرى الوعد وسيلة للمال. وما عدا هاتين الخطوتين، اي تأمين الوعد الدولي وتأمين المال، فكل ما ورد في الكتاب تفاصيل تأتي في الدرجة الثانية والدرجة الثالثة من الأهمية، ومن ضمنها إنشاء جمعية لليهود عامة، وإنشاء الشركة اليهودية.(٣٦٧)

قال هيرتسل في شأن الوعد الدولي بصلف لا استجداء:

> فَلْتُعْطَ لنا السيادة على قطعة من المعمورة، تكون كافية لتلبية الحاجات المطلوبة والمحقة لشعب.
> أما الباقي فسوف نتدبره بأنفسنا (٣٦٨)

---

(٣٦٦) Sachar, *op.cit.*, p. 39.

(٣٦٧) Herzl, *The Jewish* State. , *op. cit.*, p 28.

(٣٦٨) *Ibid.*

ثم عاد الى مزيد من الصلف ليقول ان الدول الكبرى عندما تكون مستعدة لمنحنا السيادة على قطعة ارض، فالجمعية تتفاوض لحيازة هذه الأرض، وهنا يتساءل:

هل نختار فلسطين ام الأرجنتين؟ نحن سنأخذ ما يُعطى لنا، وما يقع عليه اختيار الرأي العام اليهودي. (٣٦٩)

ويحدّد هيرتسل بوضوح واختصار الوظيفة الاستعمارية للدولة القادمة، في حال كانت في فلسطين، فيقول:

فنحن هناك نؤلف جزءا من الاستحكام الأوروبي ضد آسيا، وسنكون قاعدة أمامية للحضارة [الأوروبية] لمقاومة الهمجيّة. (٣٧٠)

بهذا المنطق الاستعماري الاستعلائي، استمر هيرتسل يخطب أمام المؤتمرات الصهيونية، فقال مرة:

انه لمن دواعي مصلحة الشعوب المتحضرة، ومصلحة الحضارة عامة، ان ينشأ مركز حضاري على اقصر الطرق الى آسيا. فلسطين هي هذه المحطة. ونحن اليهود، حملة الحضارة، نحن المستعدين للتنازل عن ممتلكاتنا وحياتنا لخلق هذا الكيان. (٣٧١)

تخيل هيرتسل هجرة اليهود على مراحل، وبشكل متواصل؛ فالفقراء يذهبون أولا للزراعة ولبناء الجسور والطرقات وسكك الحديد. وكلما توسعت آفاق العمل والتجارة، استجلب المشروع مهاجرين جددا. (٣٧٢)

ووصف هيرتسل ادق التفاصيل المتعلقة بالهجرة: وسائلها، مثلا، بالقطار ام الباخرة. ولم ينس مسايرة الأغنياء، ولا مسايرة رجال الدين؛ «فكل جماعة مهاجرة، سيكون معها حاخام مسؤول عنها.» وكذلك في الدولة الموعودة، «سيكون لكل جماعة محلية قائدها الروحي.» ووعد هيرتسل نفسه بأن يؤيد رجال الدين مشروعه من منابرهم، ومن أجل إغرائهم تجاهل شروحاته العلمانية، وقال ان الجماعات المحلية تنتخب ممثلين عنها برئاسة رجال الدين وإشرافهم. (٣٧٣)

ما حدود دولة هيرتسل؟

لا حدود لها.

(٣٦٩) *Ibid*, p 30.

(٣٧٠) *Ibid.*

(٣٧١) Parzen, ed, *Herzl Speaks .., op cit.*, p. 79.

(٣٧٢) Herzl, *The Jewish State...*, *op.cit.*, p 28.

(٣٧٣) *Ibid.*, pp 52-54.

ان مشروعه استعماري توسعي، لذلك فهو لا يرى هيكلية «دولته المتحضرة» إلاّ على ارض لا حدود معلومة لها؛ وتغطية للدافع التوسعي الاستعماري، فهو يفلسف عدم الاعتراف بحدود معلومة بحجة «ان الدولة لا تتألف من قطع من الأراضي فقط، بل أيضا من عدد من الرجال المتّحدين في ظل حكم ذي سيادة.»(٣٧٤)

لا مكان للديمقراطية في فكر هيرتسل؛ فهو يعتقد ان: «الجماهير ميالة أكثر من البرلمانات الى ان تقاد بالهرطقات والبدع، والى ان تقع تحت سيطرة الألفاظ الرنانة المتبجحة.»(٣٧٥)

ويجزم هيرتسل ان من المستحيل صوغ سياسة حكيمة، إنْ في الشؤون الداخلية او في الشؤون الخارجية، في مجالس او اجتماعات عامة، «فالسياسة يجب ان تأخذ شكلها في الطبقات العليا، ثم يُعمل بها من الأعلى الى الأسفل.» ويعمّم احتقاره للديمقراطية على الجميع بقوله: «والشعوب أيضا ليست أهلا في عصرنا الحاضر للديمقراطية اللامحدودة، وهي ستكون أقلّ أهلية لذلك في المستقبل.»(٣٧٦)

ويبدو هيرتسل، في يومياته، أكثر صراحة او فجاجة، إذ كتب في ٢١ حزيران/يونيو ١٨٩٥ يقول: «ان الديمقراطية هراء سياسي لا يمكن الاتفاق بشأنه، إلاّ في أثناء هيجان الجماهير الغوغائية، في خضم ثورة ما.»(٣٧٧)

وقف هيرتسل ضد اللغة العبرية لغة رسمية للدولة التي ينشدها، لأن لا احد يعرفها؛ ولذلك اقترح ان يحتفظ كلٌّ باللغة التي يتكلم بها، ثم تسود اللغة الأكثر انتشارا.(٣٧٨)

كانت لليهود ردات فعل متناقضة على صدور «الدولة اليهودية»؛ فالطبقة اليهودية الوسطى، وخصوصا في فيينا، اعتبرت هذا الكتاب ضربا من الجنون، وقالت «ان لغتنا ألمانية لا عبرية، والنمسا الجميلة وطننا. أليست أوضاعنا جيدة في عهد الامبراطور الطيب فرانز جوزف. لماذا يعمل هذا الرجل الذي يتكلم كيهودي، والذي يرغب في مساعدة اليهودية، على وضع المباحثات في يد ألدّ أعدائنا، وعلى التفرقة فيما بيننا، في الوقت الذي نقترب يوما فيوما من العالم الألماني أكثر.»(٣٧٩)

(٣٧٤) *Ibid.*, p. 63.

(٣٧٥) *Ibid*, pp 69-70.

(٣٧٦) *Ibid.*, p 70.

(٣٧٧) Patai, ed., *The Complete Diaries.. op.cit.*, Vol. I, p. 126

(٣٧٨) Herzl, *The Jewish State .. , op.cit.*, p. 71.

(٣٧٩) Sachar, *op.cit.*, p. 42.

غير انه كان للجمعية الطالبية اليهودية في فيينا، والمعروفة باسم كاديما، رأي مخالف؛ فقد بادرت الى تأييد مشروع «الدولة اليهودية»، واستمرت على رأس الفئات المتحمسة لسياسة هيرتسل.
وعلى الرغم من منع روسيا القيصرية للكتاب، فانه انتشر بين اليهود في أوروبا الشرقية، إجمالا، كما ساندته جمعيات «أحباء صهيون»، وأطلقت على هيرتسل لقب «موسى الجديد»، ودعته الى قيادة الحركة السياسية. وهكذا ابتدأ الحديث عن مؤتمر صهيوني شامل.[٣٨٠]

طُويت سريعا في حياة هيرتسل، نفسه، صفحةُ كتابه، وطغى عليها تتابع الأحداث. إلّا ان هذا الكتاب يعتبر المرجع الكلاسيكي للصهيونية السياسية، ويرى إلمر بيرغر انه «توراة الحركة الصهيونية».[٣٨١]

ثالثا: مؤتمر بازل

ابتدأ التحضير الجدي لعقد مؤتمر صهيوني مع مطلع سنة ١٨٩٧. وكان مقررا عقده في ميونيخ، لكن لمّا أُرسلت الدعوات الرسمية، غضب اليهود الغربيون وأعلنوا سخطهم على المؤتمر، واعتبرته الصحافة الألمانية اليهودية خيانة. كما أعلنت رابطة رجال الدين اليهود في ألمانيا ان هذا المؤتمر يناقض الدعوة المسيائية، ولذا رفضته بشدّة.

ادت هذه الحملة الى نقل مكان المؤتمر الى بازل في سويسرا، وانصرف هيرتسل بكل ما اوتي من نشاط وحماسة الى مراسلة زعماء اليهود قاطبة، يحثهم على انتخاب النخبة البارزة بينهم.

عقد المؤتمر أخيرا في بازل (٢٩ ــ ٣١ آب/أغسطس ١٨٩٧)، وحضره مائتان وأربعة أعضاء من اليهود، يمثلون خمس عشرة دولة. وترأس هيرتسل المؤتمر، ولم يكن بين الحاضرين من يفوقه شهرة وقدرة على الرئاسة؛ فهو قد استفاد الكثير في أثناء عمله الصحافي في باريس، من مراقبة المناقشات البرلمانية الفرنسية. وكان ابرز ما جاء في كلمة هيرتسل رفضه الوسائل القديمة باستعمار فلسطين قطعة وراء قطعة، وتركيزه على اهمية الوعد الدولي، وضرورة إنشاء مؤسسات جديدة، وإعلانه ان «معاداة السامية منحتنا القوة الذاتية من جديد. لقد رجعنا الى وطننا»؛ وأما عن الصهيونية، فقوله: «ان الصهيونية هي عودة اليهود الى اليهودية حتى قبل عودتهم الى ارض اليهود.»[٣٨٢]

---

(٣٨٠) *Ibid*, pp. 42-43.

(٣٨١) Berger, *Israel's Threat to Judaism*., *op cit*, p. 5.

(٣٨٢) Sachar, *op.cit*, pp. 44-45.

أما الدكتور ناثان بيرنباوم، فقد قال: «الشعب اليهودي منقسم حاليا الى جزأين: . . . يهود لدول الغربية، ويهود أوروبا الشرقية والشرق بأسره»، وان هدف الصهيونية يجب ان يكون «إرجاع لشرق الى التقدم، وإحياء [اليهود] الغربيين من اوروبيتهم المميتة.»(٣٨٣)

أنشأ المؤتمر منظمة صهيونية دائمة، وهي تقابل «الجمعية اليهودية» في كتاب «الدولة اليهودية». ما الجهاز التنفيذي للمنظمة الصهيونية فينبثق من الجمعية العامة للجنة التنفيذية الكبرى التي تتألف من ممثلين عن مختلف الاتحادات الصهيونية، ومن بين أعضائها تتألف اللجنة التنفيذية المركزية او الصغرى، التي كانت عمليا هي اللجنة التنفيذية الحقيقية، وكان أعضاؤها يعيشون في فيينا في المرحلة الأولى. وأمّا العضوية في المنظمة، فهي لكل من يوافق على برنامج المؤتمر الصهيوني الأول في بازل، ويدفع الرسم السنوي المطلوب: شيكلا واحدا.

وانتهى المؤتمر بانتخاب هيرتسل رئيسا للمنظمة الصهيونية. أما اهم ما ورد فيه إطلاقا، فهو برنامج الحركة الصهيونية العالمية، الذي يعرف اختصارا ببرنامج بازل:

> تسعى الصهيونية لاقامة وطن لليهود في فلسطين، معترف به وفقا للقانون العام. ولتحقيق هذا الهدف، يتخذ المؤتمر الوسائل التالية:
>
> ١ ــ تعزيز الاستيطان في فلسطين باليهود المزارعين، والحرفيين، والمهنيين، وبناءً على قواعد صالحة.
>
> ٢ ــ تنظيم اليهود كافة، وتوحيدهم بواسطة إنشاء المؤسسات المحلية والعامة الملائمة، وفقا للقوانين السارية في كل بلد.
>
> ٣ ــ تقوية الشعور اليهودي القومي والضمير القومي.
>
> ٤ ــ اتخاذ الخطوات التحضيرية للحصول على موافقة الحكومات، التي يجب الحصول عليها، لتحقيق هدف الصهيونية.(٣٨٤)

كتب هيرتسل في يومياته عقب انتهاء المؤتمر في ٣ أيلول/سبتمبر في فيينا:

> لو شئت اختصار برنامج بازل بكلمة واحدة ــ سأحاول جاهدا عدم نشرها علنا ــ لكانت: في بازل، أنشأتُ الدولة اليهودية
>
> لكنني لو قلت هذا علنا اليوم، لكانت الاجابة على قولي هذا ضحكات السخرية في العالم. ربما خلال خمسة أعوام، وبالتأكيد خلال خمسين عاما، سيعرف الجميع هذا.

---

(٣٨٣) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٥٤، نقلا عن: «محاضر المؤتمر الصهيوني الأول» (بالعبرية)، ص ٧٢، ٧٤.

(٣٨٤) O.K Rabinowicz, «Basle Program,» *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol I, p 114
برنامج بازل الوارد في هذا المصدر مترجم عن الأصل الألماني.

ان تأسيس دولة ما يكمن في إرادة الشعب لبناء دولة، نعم، وحتى في إرادة فرد واحد قوي بما فيه الكفاية [وهنا يستشهد هيرتسل بقول لويس الرابع عشر: الدولة هي أنا]
الأرض هي القاعدة المادية فقط، الدولة وحتى عندما تمتلك الأرض، فهي دائما جسم معنوي فدولة الكنيسة باقية حتى من دونها، وإلّا لما كان البابا حاكما سيدا.(٣٨٥)

لم يكتب هيرتسل الكثير او المهم عن تفاصيل ما جرى في مؤتمر بازل. ويظهر من يومياته ان همومه الأساسية كانت ان يجعل صديقه الدكتور نورداو ينسى انه الرجل الثاني. كما كان من همومه أيضا كراهيته المتدفقة لخصومه، وتضايقه منهم، ولا سيما الدكتور بيرنباوم، وهو من عادته ان يكتب بقسوة واحتقار عن خصومه السياسيين.(٣٨٦)

ما ان انتهى مؤتمر بازل حتى اضحى حديث أوروبا، وخصوصا بين اليهود؛ فقد كانت اهميته انه فرض الصهيونية محور المستقبل لليهودية. وقد انقسم اليهود ازاء هذا المحور، بين مؤيد للصهيونية، ومعارض لها.

وكان الفاتيكان أول القوى المعارضة للمؤتمر؛ فقد اصدر في إثر المؤتمر مباشرة رسالة يعارض فيها باسم المسيحية سيطرة اليهود على الأماكن المقدسة.(٣٨٧)

رابعا: «بروتوكولات حكماء صهيون»:
صحيحة ام مزورة؟

عندما صدر كتاب بعنوان «بروتوكولات حكماء صهيون» أول مرة بالانكليزية في لندن سنة ١٩١٩، أثار هذا الكتاب عاصفة هوجاء من حوله، بشكل لم يعرف في القرن العشرين كله ان كتابا سواه قد أثار عاصفة مشابهة.

أنكر الصهاينة، من جهتهم، الكتاب جملة وتفصيلا، واعتبروه كتابا مزورا من صنع المعادين للسامية بقصد إيذاء اليهود، فأخذوا يشترون النسخ من الأسواق للحدّ من توزيعها. وكانوا يعتبرون كل من يقتني هذا الكتاب او يتحدّث عنه معاديا للسامية يستحق العقاب. فكانت النتيجة عكس ما سعت الحركة الصهيونية له؛ إذ ترجمت «البروتوكولات» الى عدة لغات، واكتسبت

(٣٨٥) Patai, ed., *The Complete Diaries...*, *op.cit.*, Vol II, p. 581
(٣٨٦) *Ibid.*, Vol II, pp. 581-585
(٣٨٧) *Ibid.*, Vol. II, p. 587
ورد في اليوميات بتاريخ ٤ أيلول/ستمبر ١٨٩٧.

شهرة فائقة. وعندما صدرت الطبعة الحادية والثمانون بالانكليزية سنة ١٩٥٨، كانت «البروتوكولات» قد وزعت، بهذه اللغة فقط، أكثر من مليون نسخة.(٣٨٨)

ولا بدّ للحكم على هذه «البروتوكولات»، سواء أكانت حقيقية وصحيحة ام مزورة فعلا، من التوقف إزاءها أولا.

يظهر من خلال البروتوكولات الأربعة والعشرين، التي يحتويها الكتاب، مخطط شامل لاستيلاء المنظمة اليهودية العالمية ــ وهي المنظمة الظاهرة والخفية معا ــ على مقدّرات العالم. والمخطط ان يتمّ ذلك بتقويض كل ما هو قائم في هذا العالم، ولا سيما تقويض أوروبا المسيحية، وروسيا الأورثوذكسية، والبابوية، والاسلام. وسيحتاج هذا، وفقا لتصورات واضعي «البروتوكولات»، الى فترة مائة عام تنتهي سنة ١٩٩٧؛ فعندئذ، يعتقد أصحاب «البروتوكولات»، سيستولون على العالم المنهار، ويقيمون ملكا يهوديا لنسل داود، باعلانهم الحكومة العالمية اليهودية على أنقاض الآخرين.

يتضح من قراءة «البروتوكولات» ان الحكم القادم لن يكون إلّا حكما يهوديا أوتوقراطيا، ولا دين في رحابه لا للمسيحية ولا للاسلام ولا لأي دين آخر.

لا توجد حتى الآن رواية ثابتة لأصل «البروتوكولات» التي تنسب، عادة، الى مؤتمر بازل؛ فهناك أكثر من رواية.

ورد في مقدمة النسخة الانكليزية ان العالِم الروسي سيرجي نيلوس هو أول من ترجم «البروتوكولات» الى اللغة الروسية. وإنْ يكن غير مؤكد بعد الأصل الذي ترجمها عنه، الفرنسية ام العبرية، ام لغة اخرى؛ إلّا ان من المعروف أنها نشرت أول مرة ــ بالتتابع ــ في صحيفة روسية في شتاء عام ١٩٠٢/١٩٠٣، ثم نشرت ثاني مرة في صحيفة روسية اخرى في شهري آب/أغسطس وأيلول/سبتمبر من سنة ١٩٠٣.(٣٨٩) ثم نشرها نيلوس ضمن كتاب له، بالروسية، سنة ١٩٠٥. أما خارج روسيا، فلم يكن قد عرف عنها شيء بعد.(٣٩٠)

وصلت نسخة من ترجمة نيلوس الى المتحف البريطاني في ١٠ آب/أغسطس ١٩٠٦، غير أنها

---

(٣٨٨) *World Conquest through World Government: Protocols of the Learned Elders of Zion* Translated from the Russian of Sergyei A. Nilus by Victor E. Marsden, 81st Impression (London: Britons Publishing Society, 1958), p. II.

(٣٨٩) نُشرت البروتوكولات مترجمة الى الروسية في شتاء عام ١٩٠٢/١٩٠٣ في صحيفة *Moskowkja Widmosti*، ثم نشرت في آب/أغسطس وأيلول/سبتمبر ١٩٠٣ في صحيفة *Snamja*.

(٣٩٠) Marsden, «Introduction,» in *World Conquest through World Government*, op. cit., p. 5

لم تثر انتباه احد حتى كانت الحرب الكبرى. وقد تسربت نسخ من «البروتوكولات» بالروسية مع المهاجرين الروس الى أميركا الشمالية وألمانيا.(٣٩١)

هناك عدة روايات لوقوع «البروتوكولات»، بالروسية، في يد الصحافي البريطاني فيكتور مارسدن الذي قام بترجمتها الى الانكليزية.(٣٩٢) غير ان من المعلوم انه بعد خروجه من السجن في روسيا، حيث اعتقل لمدة عامين، وعودته الى لندن، قد عكف على ترجمتها في المتحف البريطاني. وعندما صدرت ترجمة مارسدن سنة ١٩١٩ أول مرة، ابتدأت المعركة الصاخبة في شأن صحة «البروتوكولات» او عدم صحتها.

ذكر نيلوس في مقدمة كتابه الصادر سنة ١٩٠٥، والذي يحتوي على فصل بعنوان «بروتوكولات حكماء صهيون»، ان صديقا له ــ لم يذكر اسمه ــ أعطاه مجموعة هذه الوثائق لترجمتها. وذكر آخرون ان أليكس نيقولافتس، من رجالات روسيا البارزين، هو الذي كلّفه ترجمتها.(٣٩٣)

وتختلف رواية الكولونيل سكوت في كتابه «الحكومة الخفية»؛ فهو يذكر ان أصل «البروتوكولات» يعود الى مؤتمر بازل؛ فهذه الوثيقة قد أُعدّت لاقرارها في المؤتمر، غير ان البوليس السرّي القيصري قد دبّر حريقا في مكان الاجتماع، في اليوم الثالث، فهرب الأعضاء اليهود واستولى البوليس السري على أوراق المؤتمر، وبينها مسودة «بروتوكولات حكماء صهيون» وفي سان بيترسبورغ، عثر على هده المسودّة بين الأوراق. وبغض النظر عن الأصل في ظهور هذه البروتوكولات في روسيا، فالمعروف عن مصيرها ان نسخها قد أُتلفت بعد قيام الثورة البلشفية. وفي عهد كيرنسكي، اصبحت عقوبة حيازة البروتوكولات الاعدام.(٣٩٤)

لجأ الصهاينة مرة واحدة الى القضاء لاثبات تزوير «البروتوكولات»؛ فادعى «اتحاد الطوائف اليهودية في سويسرا» سنة ١٩٣٣، على خمسة أعضاء من الجبهة الوطنية السويسرية بتهمة نشر «البروتوكولات» في سويسرا. وحكمت المحكمة السويسرية للجانب الصهيوني، وأعلنت ان

---

(٣٩١) *Ibid*

(٣٩٢) يقال انه اطلع عليها في المتحف البريطاني، بطلب من الجريدة التي يعمل فيها، قبل سفره لتغطية أنباء الثورة البلشفية سنة ١٩١٧. ويقال انه عثر عليها في أثناء وجوده في روسيا.

(٣٩٣) عجاج نويهض، «بروتوكولات حكماء صهيون .»، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢ ــ ٣٣

(٣٩٤) Lieut. Colonel J Chreagh Scott, *The Hidden Government* (London Britons Publishing Society, 3rd ed., 1960), p 11.

«البروتوكولات» مزورة.[٣٩٥] إلاّ انه لمّا استأنف المدّعى عليهم الحكم، اصدرت محكمة الجزاء العليا حكمها سنة ١٩٣٧ بإبطال القرار السابق.[٣٩٦]

صحيح ان أحدا لم يتمكن حتى الآن من إثبات صحة «البروتوكولات»، غير انه صحيح أيضا ان أحدا لم يتمكّن من إثبات عدم صحتها. فمما يؤخذ على الصهاينة الذين يتنصلون منها كل التنصّل، انهم لم يخضعوا «البروتوكولات» لأي تدقيق علمي من قبل الخبراء لاثبات التزوير الذي يقولون به، وهم بذلك سهلوا مهمة الذين هاجموا «البروتوكولات» بعنف، أمثال اللورد سايدنهام، والكولونيل سكوت، ورجل الأعمال الشهير هنري فورد؛ وذلك كله قبل ان تترجم «البروتوكولات» الى اللغة العربية.[٣٩٧]

يستنتج فورد من أسلوب «البروتوكولات» هوية واضعيها. فالأسلوب بمنتهى البرودة، كالكتابة القانونية المحضة، اوكتابة الجداول الاحصائية. ولا يبدو أبدا أنها موجهة حتى الى عموم اليهود، بقصد استنهاض هممهم لتطبيق البرنامج مثلا؛ وفي هذا دليل على أنها قد حضرت للفئات الحاكمة العليا فقط، ولم يكن القصد منها إلاّ ان تبقى في منتهى السرية لهؤلاء. كذلك لا يرى فورد ان «البروتوكولات» هي ابنة مؤتمر بازل، اي أنها قد ولدت سنة ١٨٩٧؛ فالبرنامج لا يبدو له حديثَ الكتابة، اذ تدلّ أمثلته ومعانيه على تراث تاريخي من حكماء عصر الى عصر آخر [٣٩٨]

وبالنسبة الى طريقة العرض، فالملاحظة البارزة أنها كثيرا ما ترد على لسان متكلم فرد، مما يوحي بالحديث أمام جمهور مستمع. كما ان التفاوت في طول الشرح أحيانا، وبتره أحيانا اخرى، يوحي بأن «البروتوكولات» هي مسودّة ملاحظات كُتبت خلال الاستماع الى المتكلّم.

تصعب الاحاطة ببرنامج «البروتوكولات» كاملا؛ فهو برنامج متشعب، ولا يترك جانبا إلاّ ويطرقه في سبيل هدف واضح هو تخريب المجتمعات البشرية، اقتصاديا واجتماعيا وصحافيا

---

(٣٩٥) Marsden, *op.cit*, pp. 5-6

استمع القاضي الى ١٦ شاهدا من جانب الادعاء. أما من جانب الدفاع، فلم يستدع إلا شاهد من اربعين. كما انه سمح للمدّعين بتعيين كاتب اختزال على حسابهم لكتابة وقائع الدعوى، عوضا من الكاتب الموظف المختص في المحكمة (*Ibid.*, p. 6).

(٣٩٦) *Ibid.*, p. 6.

(٣٩٧) من الترجمات الأولى الموثوق بها التي صدرت بالعربية لمحمد خليفة التونسي، «الخطر اليهودي: بروتوكولات حكماء صهيون» (القاهرة: مطبعة دار الكتاب العربي، ١٩٥١)؛ ولعجاج نويهض، «بروتوكولات حكماء صهيون...»، مصدر سبق ذكره.

(٣٩٨) Henry Ford I, *The International Jew* (Los Angeles: Christian Nationalist Crusade, n.d.), pp. 26-27.

وخلقيا، وذلك تمهيدا لسيطرة «الشعب المختار» وحكامه من نسل داود. لكن يجدر التوقف عند بعض المحطات البارزة ـ قبل الحكم على هذه «البروتوكولات» ـ كأمثلة لمخطط «البروتوكولات» وأسلوبها.[٣٩٩]

نهجت «البروتوكولات» على تقسيم البشر الى فئتين: فئة الشعب المختار (اليهود)؛ وفئة الغوييم، وهي سائر البشر (غير اليهود)، والغوييم معناها الحيوانات العجماء. ولهذا «التقسيم البشري» جذور تلمودية واضحة.

ورد في البروتوكول الحادي عشر:

«الغوييم قطيع من الغنم، ونحن ذئابهم. وتعلمون ماذا يحلّ بالغنم إذا جاءتها الذئاب.»

وورد في البروتوكول الرابع:

«ثم تدقّ الساعة، فاذا بالطبقات السفلى من الغوييم تنضوي الى قيادتنا في الزحف لتحطيم حصوننا المشرئبّين الى السلطة، وهم أهل المكر في الغوييم، فيرون في هذا الدور النهاية.»

لا يوجد في «البروتوكولات» ادنى احترام للديمقراطية، وللدساتير، التي تعتبرها منبرا للثرثارين ومدرسة لفنون الانشقاق والشغب والمشاكسات الحزبية. وتدعو «البروتوكولات» الى إلغاء الحريات، وخصوصا حرية التعليم، ولا تجد وسيلة لاشاعة الفوضى أفضل من خلق الأزمات الاقتصادية، وإفساد الشباب، والتجسس؛ فثلث الشعب يستخدم للتجسّس على الثلثين الآخرين. وقد ورد في البروتوكول الأول وحده ما يكفي للدلالة على التسلط الغاشم:

«ولا يتم وضع المخطط وضعا كاملا محكما الى آخر مداه، إلاّ على يد حاكم مستبد قاهر.»

«الحرية السياسية إنما هي فكرة مجردة، ولا واقع حقيقيا لها.»

«فالسياسة مدارها غير مدار الأخلاق، ولا شيء مشتركا بينهما.»

«لا حياة للحضارة، والحضارة لا تقوم على الدهماء، بل على من يقود الدهماء.»

«في الزمن الماضي، كنا نحن أول من نادى في جماهير الشعب بكلمات الحرية والعدالة والمساواة، وهي كلمات لم تزل تردّد الى اليوم، ويردّدها من هم بالببغاوات اشبه.»

ثلاثة أسلحة لدى «حكماء صهيون»، هي: المال، والصحافة، والعنف. جاء في البروتوكول الخامس فيما يتعلق بالمال:

(٣٩٩) المقتبسات من نصوص «البروتوكولات» أدناه مترجمة عن نص Marsden, *op.cit* وبالمقارنة مع نص كل من التونسي ونويهض، المذكورين سابقا.

«وكل دواليب الأجهزة للحكومات تحتاج الى محرك، وهذا المحرك بأيدينا وهو (الذهب).»

وجاء في البروتوكول الثاني بشأن الصحافة:

«غير ان دولة الغوييم لم تعرف بعد كيف تستغل هذه الآلة [الصحافة]، فاستولينا عليها نحن، وبواسطة الصحف نلنا القوة التي تحرّك وتؤثّر، وبقينا وراء الستار.»

وفي البروتوكول الثاني عشر:

«صناعة الأدب والصحافة في مضمارهما، هما اشد عوامل التهذيب، ولهذا السبب ستكون حكومتنا مالكة مقود معظم الصحف.»

وفي البروتوكول السابع:

«وطريقة حمل تلك الحكومات على ما نريد، هي التيار الذي يقال له الرأي العام، وفي يدنا الخفية زمامه ومقادته، نحرّكه بالقوة الكبرى ـ الصحف.»

أما العنف، فأنيابه بارزة من البروتوكول الأول:

«خير النتائج التي يراد تحقيقها من التسلط على الغوييم بطريق الحكومة، إنما يكون بالعنف والارهاب.»

«حقنا منبعه القوة.»

«وهذا الشر هو الوسيلة الوحيدة لبلوغ الغاية المقصودة من الخير. ولذلك لا ينبغي لنا ان نتردد في استعمال الرشوة والخديعة والخيانة.»

وتشير «البروتوكولات» مرات عديدة الى استخدامها الجمعيات السرية، وأبرز هذه الجمعيات الماسونية؛(٤٠٠) فجاء في البروتوكول الرابع:

«والماسونية الأممية (الغوييم) تخدمنا خدمة عمياء، بأن تكون ستارا لنا نحتجب من ورائه نحن وأغراضنا وصور خططنا، لكنّ مخططنا المعدّ للعمل مع التنفيذ، يبقى هذا كله على طبيعته كما يبقى المكان الذي يوجد فيه، سرا عميقا لا يطلع عليه احد.»

(٤٠٠) لا يوجد تاريخ معلوم لبداية الماسونيّة، وهي تعتبر اليوم أكبر جمعية سرية في العالم. يعتقد البعض أنها نشأت في هيكل سليمان، وتعود أصولها الى مصادر متعددة، منها التقاليد الاسرائيلية التوراتية، والقبّالة، وجماعة البنّائين في القرون الوسطى (كلمة ماسوبية بالانكليزية ـ Masonry ـ تعني البناء). تبنّت الماسوبية في العصور الحديثة أهدافا وشعارات إنسانية، أهمها الإخاء والمساواة والإحسان وطاعة القانون وهي قائمة على المحافل والسرية المطلقة والطقوس الغربية والتدرج (٣٣ درجة)، وأكثر انتشار لها هو في الولايات المتحدة ثم بريطانيا، إلاّ أنّها قد منعت في الاتحاد السوفياتي والصين وإسانيا والبرتغال وأندونيسيا ومصر وسوريا (الجمهورية العربية المتحدة)، كما أنها تلاقي معارضة شديدة في الكنيسة الكاثوليكية.

وجاء في البروتوكول الخامس عشر:

«والى ان يأتي الوقت الذي نقيم فيه مملكتنا... فاننا سنخلق ونضاعف من المحافل الماسونية الحرة في جميع بلدان العالم، لتمتصّ الى جوفها الأشخاص البارزين في الشؤون العامة، او الذين سيصبحون كذلك. لأننا في هذه المحافل نجد طِلْبَتَنا في مكامن التجسّس الرئيسية، ووسائلَ نفوذنا وسوف نضع هذه المحافل تحت إدارة مركزية معروفة لنا وحدنا، وأما غيرنا فلا يدري من ذلك شيئا مطلقا. وهذه الادارة المركزية إنما تؤلف من حكمائنا... وفي هذه المحافل، نحكم ربطَ العقدة التي تضم كل العناصر الثورية والليبرالية معا.»

لا تخلو «البروتوكولات» من الجانب المسرحي في وصف تنصيب ملك اليهود «البابا الحقيقي للمسكونة كلها»، كما ورد في البروتوكول السابع عشر. ثم تكتمل المسرحية في البروتوكول الثامن عشر بالحاكم الذي يخرج الى الناس محاطا دائما بجمع غفير، من عامة الشعب ظاهرا، ومن الحرس حقيقة. وإزاء مشاهد كهذه، تبدو «البروتوكولات» كتابة سطحية خيالية سخيفة فعلا، ولا تستحق نقدها بجدّية. إلّا ان هذا الخيال، وهذه السطحية، يتلاشيان إزاء الحديث عن الأهداف الرئيسية، ومن أبرزها هدم الأديان؛ فقد جاء في البروتوكول الرابع عشر:

«متى ما وَلَجْنا أبواب مملكتنا، لا يليق بنا ان يكون فيها دين آخر غير ديننا، وهو دين الله الواحد المرتبط به مصيرُنا، من حيث كوننا الشعب المختار، وبواسطته ارتبط مصير العالم بمصيرنا. فيجب علينا ان نكنس جميع المعتقدات الأخرى.»

ان من يحكم على «البروتوكولات» بنصها المكتوب، قد يجدها مسرحية خيالية يستحيل تحقيقها، أكثر من كونها برنامجا سياسيا. أما من يحكم على روح «البروتوكولات» وفلسفتها العامة، فهو لا يراها إلّا نسخة اخرى عن تصريحات الزعماء الصهاينة وكتاباتهم السابقة (واللاحقة)، وكذلك في أساليب الحركة الصهيونية. وهنا، تسقط نهائيا اهمية صحة «البروتوكولات» او عدم صحتها.

لم تتبرأ الصهيونية من كتابات هيرتسل وهس وبنسكر، مثلا، او من مؤتمر بازل نفسه؛ فالفكر الصهيوني والمخططات الصهيونية حتى عهد هيرتسل (ومن دون الحاجة الى سيرة من جاء بعده أمثال بن ـ غوريون وبيغن وسواهما)، تنضح بروح «البروتوكولات» وفلسفتها العامة.

ان التحقير من شأن الديمقراطية والاعلاء من شأن الدكتاتورية، من اسس دولة هيرتسل؛ ووسيلة المال للمآرب السياسية أسلوبه الأوحد؛ أما وسائل الإعلام ـ او الصحافة بلغة «البروتوكولات» ـ فهي نفسها وسائل هيرتسل ووسائل الصهيونية التي تتطور مع تطور الاعلام

(والاعلام الغربي الذي تسيطر عليه الصهيونية في عصرنا، وخصوصا الاعلام الأميركي، هو الدليل).

أما نظرية الغوييم، فهي في صلب فكر موشي هس الذي أطلق على العرب «القطعان العربية المتوحشة»، وفي صلب فكر هيرتسل الذي غازل الغرب بإنشاء دولته اليهودية قاعدة حضارية اوروبية «في وجه البربريّة»، وهي أساسا في صلب التلمود نفسه. فأي جديد في «البروتوكولات»؟

الهجوم على الأديان الأخرى؟

وهذا أيضا في التلمود نفسه، ولا سيما ضد المسيحية. وهو أيضا لدى موشي هس؛ ألم يقل في كتابه «روما والقدس»، الكتاب الرائد في الفكر الصهيوني المعترف به: «واجعلوا القرآن والأناجيل تتجمع حول توراتكم»؟

هناك علامة واحدة فارقة بين «البروتوكولات» السرية والفكر الصهيوني المعلن، وهي مسألة معاداة السامية؛ فمعاداة السامية لا وجود إطلاقا لها في «البروتوكولات»، بينما نجدها الأساس الذي بنى فوقه كل من بنسكر وهيرتسل مشروعه السياسي. و«البروتوكولات» حقيقية كانت او مزورة ــ ولا فارق هنا بين الاثنين ــ تنسجم كليا مع كبار الحاخامين عبر العصور، ومع التلمود نفسه؛ فشعب الله المختار ــ وتلك نظرية التلمود الأساسية ــ هو الشعب المختار للحكم والقيادة، فكيف يكون الشعب الواحد قائدا مختارا، ومضطهدا دائما، في الوقت نفسه؟

خامسا: هيرتسل والأثرياء اليهود

يتضح من خلال يوميات هيرتسل الدور الكبير الذي احتلّه موضوع جمع الأموال للحركة الصهيونية ــ وحتى قبل إنشائها ــ في فكره وعمله؛ وقد بنى خطته في المرحلة الأولى على فرضيّة المساهمة بالملايين من قبل أصحاب الملايين، ولا سيما آل هيرش، وآل روتشيلد، وآل مونتاغو وسواهم.

يروي هيرتسل ادق التفاصيل عن مقابلاته لأصحاب الملايين، ورسائله لهم. وهو يبدو متزلفا لهم أحيانا، ومهاجما إياهم في معظم الأحيان، وواثقا بأنه سيجرّهم بسحر شخصيته الى مشروعه السياسي. لكنه لم ينجح فعليا مع احد من هؤلاء.

كان روتشيلد ضدّه علنا، وهو من قال لنيولنسكي: «ان الدولة اليهودية سببت لنا ضررا كبيرا.»[٤٠١]

(٤٠١) Patai, ed , *The Complete Diaries* ., *op.cit* , Vol II, p 587, September 4, 1897.

من البديهي ان يخاف أثرياء اليهود الأوروبيين على أموالهم ومصالحهم. إلّا ان الأسلوب الذي اتبعه هيرتسل لجرّهم الى «دولته اليهودية»، لم يكن مقنعا بما فيه الكفاية؛ فهو فرديّ النزعة الى حد كبير، وحادّ في نقاشه، ولا سيما مع هؤلاء الأثرياء. وربما ظنّ انه بتحقيره أسلوبهم في التبرعات لفقراء اليهود، وتعظيمه نهجه في جمع الأموال للمشروع السياسي، إنما يفرض عليهم احترامه. غير ان النتائج كانت سلبية، فقد احجم الأثرياء اليهود الكبار عن الرهان على الحصان الصهيوني.

في اللقاء الأول بين هيرتسل وهيرش، قال الثاني للأول:

«ان الأغنياء اليهود لن يعطوا شيئا. فالناس الأغنياء وضيعون ولا يعني لهم شيئا عذاب الفقراء.»

وقال له هيرتسل:

«انت تتكلم كاشتراكي بارون هيرش.»

وردّ عليه:

«أنا كذلك. أنا على اتم استعداد لأعطي كل شيء، شرط ان يفعل الآخرون الشيء نفسه.»(٤٠٢)

بداية، ركز هيرتسل آماله كلها على هيرش، والى حد ان اعتبره حجر الزاوية في مشروعه. لكنه بعد ان يئس منه تحوّل الى روتشيلد مؤكدا انه لم يعد بحاجة الى هيرش إطلاقا. وقد كتب هيرتسل هذا، وهو في زهوة أحلامه الوردية بإبرام اتفاق مع روتشيلد. غير ان هذا الاتفاق لم يبرم قط؛ فقد تكررت الحكاية نفسها، على الرغم من اللقاءات العديدة التي جرت بينه وبين كبار عائلة روتشيلد، ولا سيما إدمون روتشيلد، وعلى الرغم من فيض الرسائل التي بعث بها اليهم. وللمثال واحدة منها؛ فقد كتب الى مجلس آل روتشيلد في حزيران/يونيو ١٨٩٥ يقول:

«الآن تصوروا كيف انني أبهركم وأنتم الذين أطالبهم بألف مليون ــ وإن يكن ذلك ليس لشخصي ــ فكيف سأبهر هؤلاء الذين سوف أجعل منهم أثرياء، وأحرارا، وسعداء.»(٤٠٣)

وفي المرحلة نفسها، كتب انه سيخاطب أصحاب المصارف قائلا لهم:

«انني اودّ ان أراكم تعطون بناتكم للشباب الأقوياء الطموحين الواعدين. أنا بحاجة الى هذا من أجل ‹الدولة›، ففيه الخصب الذاتي للشعب.»(٤٠٤)

---

(٤٠٢) *Ibid.*, Vol I, p. 23

(٤٠٣) *Ibid.*, Vol. I, p. 61.

(٤٠٤) *Ibid* , Vol. I, p. 56.

ركّز هيرتسل جهوده المالية في السنوات الأولى على سلم ثلاثيّ الدرجات: آل روتشيلد وأمثالهم، اي الكبار من أصحاب الملايين؛ ثم الصغار من أصحاب الملايين؛ وفي حال الفشل في مساهمة هؤلاء وأولئك، فلا مناص من الدرجة الثالثة، اي مساهمة اليهود العاديين، وبالمبالغ الضئيلة.(٤٠٥)

اتخذت قرارات في مؤتمر بازل الأول سنة ١٨٩٧، والثاني سنة ١٨٩٨، لانشاء مؤسسة مالية صهيونية. إلّا ان هذه المؤسسة لم تباشر العمل قبل سنة ١٩٠٢ في لندن باسم البنك الاستيطاني اليهودي. وكان الأثر النفسي لهذه المؤسسة كبيرا بين اليهود؛ إذ للمرة الأولى لا تنصبّ المساهمات من أجل مساعدات إنسانية، بل من أجل المساهمة في مشروع إنتاجي يؤدي بالنتيجة الى شراء الدولة وخلقها.

كان رأس المال المطلوب مليوني جنيه. غير انه لم يجمع منه أكثر من ٣٩٥,٠٠٠ جنيه، وفي مصادر اخرى ٢٥٠,٠٠٠ جنيه، وقد كان السهم الواحد بجنيه.

أنشأ البنك الاستيطاني اليهودي سنة ١٩٠٢ أيضا فرعا إضافيا باسم الشركة الانكليزية ـــ الفلسطينية، ثم اصبحت تعرف بالبنك الانكليزي الفلسطيني. وافتتح فرعا له في يافا سنة ١٩٠٣. وقد استثمر البنك الاستيطاني اليهودي أمواله في عدد من المشاريع المالية والصناعية، في فلسطين وغيرها من البلاد.(٤٠٦)

سادسا: مشاريع هيرتسل الاستعمارية

وصلت مشاريع هيرتسل الاستعمارية الى القارات الكبرى الثلاث: أميركا وآسيا وافريقيا. ويعتبر بعض الصهاينة هذا دليلا على عظمة هيرتسل الذي كان يعمل ليل نهار ليحلّ العقدة الكبرى، وهي إيجاد ارض للدولة. وبالتالي، فهو يحلّ الأزمة الرئيسية التي جابهت اليهود في عهده، وهي ازمة الهجرة بين يهود أوروبا الشرقية؛ فمن أجل هؤلاء ـــ مبدئيا ـــ كان هيرتسل يسعى للأرض؛ وقد عارض فريق من الصهاينة الأوائل مسعاه هذا، معتقدا ان نشاط هيرتسل اللاهث وراء وعد دولي، ايّ وعد، وللحصول على الأرض، اية ارض، ليس إلّا تسرعا يؤدي بالحركة الى الهلاك.

(٤٠٥) *Ibid*, Vol I, p 44.

(٤٠٦) «Jewish Colonial Trust LTD,» *Encyclopedia of Zionism and Israel,* Vol I, p. 620.

أ ـ مشروع الأرجنتين

قبل ظهور هيرتسل، كان هيرش صاحب مشروع استيطاني مصغّر لعدد محدود من اليهود. وفي اللقاء الأول الشهير بين الرجلين في باريس، في ٢ حزيران/يونيو ١٨٩٥، هاجم هيرتسل المشروع لأن نتائجه جاءت ضعيفة، وقال انه حتى لو نجح هيرش في إسكان عشرين ألفا هناك، وبمستوى جيد، فهو لن يبرهن شيئا يذكر. أما إذا فشل المشروع، فسيكون الفشل شهادة مريعة ضد اليهود. ولّما احتدّ هيرش قائلا: «كفى انتقادا. ماذا يجب ان يُعمل؟» ردّ هيرتسل بأن المشكلة ليست في هجرة اليهود او بقائهم حيث هم؛ فالمشكلة انهم يجب ان يصبحوا أقوياء ومندفعين الى العمل والنهوض، وبعد ذلك فليهاجروا ان دعت الحاجة. وعوضا من شراء اليهود فردا فردا، يجب ان تنفق الأموال على المشاريع العامة والانجازات الضخمة في الفنون والعلوم والاستكشافات. . .

واختلف الرجلان. وصاح هيرش: «لا، لا، لا. لا اريد ان ارفع من المستوى العام لليهود أبدا. فكل البلاء الذي ينصبّ علينا سببه ان اليهود يريدون التسلق عاليا جدا. . . ان كره الآخرين لليهود سببه هذا.»(٤٠٧)

وعاد هيرش يشرح مشروعه في الأرجنتين، وهدفه في تحويل اليهود الى مزارعين. وعلى الرغم من اختلاف هيرتسل معه اختلافا أساسيا فيما يتعلق بأسلوب العمل، فانه اخذ عنه حلم الأرجنتين. وقد ذكرنا سابقا انه اقترح في كتابه «الدولة اليهودية»، الأرجنتين، او فلسطين.

تراجع هيرتسل عن مشروع الأرجنتين بعد صدور كتابه بالألمانية، بأشهر؛ فقال للمترجم الى اللغة العبرية ان يعلم القرّاء انه قد توصل الى نتيجة ان الدولة اليهودية يجب ان تقام في فلسطين، وأن اللغة القومية يجب ان تكون العبرية.(٤٠٨) غير ان هذا التراجع لم يحل دون استعمال مشروع الأرجنتين بديلا من مشروع فلسطين، في مباحثاته مع العثمانيين، بهدف الضغط عليهم.(٤٠٩)

ب ـ مشروع فلسطين

امتدّت الاتصالات بين هيرتسل والسلطان عبد الحميد ستة أعوام، لم يقطع خلالها اي منهما شعرة معاوية مع الآخر: هيرتسل، من جهته، كان يعلم ان الحصول على وعد بفلسطين من السلطان الحاكم نفسه، لا يعادله اي وعد آخر، وكان الاغراء بالمال وسيلته الوحيدة؛ والسلطان،

(٤٠٧) Patai, ed , *The Complete Diaries.* , *op cit.*, Vol. I, p. 22.

(٤٠٨) Parzen, ed., *Herzl Speaks* .., *op.cit* , p. 89

(٤٠٩) Patai, ed , *The Complete Diaries* .. *op cit* , Vol I, p. 367.

من ناحيته، كان يريد الأخذ من دون عطاء، فهو لم يكن ـ فعلا ـ على استعداد للتنازل عن شبر من فلسطين.

بدأ هيرتسل أول مساعيه الدبلوماسية في ألمانيا بلقاء دوق بادن الكبير في نيسان/إبريل ١٨٩٦. وكان القسيس وليام هيشلر، الملحق في السفارة البريطانية في فيينا، والمؤمن الكبير بهيرتسل شبه نبي، واسطته الى القصور الألمانية.(٤١٠)

بدا دوق بادن الكبير متعاطفا، لكنه لم يجرؤ على المساندة علنا. أما هيرتسل، وهو الذي ذهب الى اللقاء وهدفه الأول ان يطلب لقاء مع القيصر الألماني ويلهلم الثاني، فقد طلب أيضا لقاء مع قيصر روسيا، إنْ أمكن. وقد وعده الدوق الكبير بالمحاولة على الرغم من ان القيصر الروسي لا يقابل أحدا إلا وزراءه، وعند الضرورة. ولعل اهم ما ورد في اللقاء هو السؤال العابر من قبل الدوق بشأن السلطان، وإنْ كان هيرتسل قد عمل شيئا بخصوصه.(٤١١)

لم يضع هيرتسل وقته؛ فبينما كان مستمرا في لقاءاته في أوروبا، كانت عينه على استانبول. أما واسطته نحو الشرق، فكانت صديقه الكونت نيولنسكي، وهو بولوني الأصل، وله علاقات واسعة بالأسر الحاكمة في أوروبا، وكذلك في استانبول.

كانت زيارة هيرتسل الأولى لاستانبول في حزيران/يونيو ١٨٩٦. وقد قابل خلالها الصدر الأعظم، الذي استمع اليه بكل هدوء، وطرح العديد من الأسئلة. إلا ان المقابلة بصورة عامة لم تكن مشجّعة. وقد علم هيرتسل عن طريق نيولنسكي، ان الصدر الأعظم رفع تقريرا الى السلطان لا يؤيد فيه المشروع، بل لا يعتبره مشروعا جديا.(٤١٢) وكان عرض هيرتسل، في هذه الزيارة، المال لتخليص تركيا من الدَّيْن العام. فهو يعرض عشرين مليون ليرة لتسوية الأوضاع المالية في تركيا، منها مليونان لقاء فلسطين، وثمانية عشر مليونا لتحرير تركيا من قبضة أوروبا.(٤١٣)

لم يقابل السلطان هيرتسل خلال هذه الزيارة. إلّا انه أرسل اليه رسالة شفوية عن طريق صديقه نيولنسكي، في ١٩ حزيران/يونيو ١٨٩٦:

---

(٤١٠) كان هيشلر من كبار الصهاينة غير اليهود في لندن، وقد آمن بهيرتسل عندما التقاه في فيينا، وأعلن ان دعوة هيرتسل توراتية، وبناء على حسابات خاصة به، كان يتنبأ ان فلسطين سوف تعود الى اليهود بعد ١٢٦٠ سنة من حكم عمر بن الخطاب، وذلك سنة ١٨٩٧ او سنة ١٨٩٨ راجع:

Ibid, Vol I, p 310.

(٤١١) راجع.

Patai, ed, *The Complete Diaries*.., *op cit.*, Vol. I, pp 328-341

(٤١٢) *Ibid*, Vol. I, p 401.

(٤١٣) *Ibid*, Vol I, p 365.

إذا كان السيد هيرتسل صديقك بقدر ما انت صديقي، فانصح له ألاّ يتخذ اية خطوة في هذا الأمر. لا أستطيع ان ابيعَ ولو قدما واحدا من البلاد، لأنها ليست لي بل لشعبي. لقد حصل أبناء شعبي على هذه الامبراطورية بدمائهم، وقد غذّوها بدمائهم وسنغطّيها بدمائنا قبل ان نسمح لأحد باغتصابها منا. كتيبتان من سوريا وفلسطين استشهد أفرادهما الواحد تلو الآخر في بلفنه. لم يسلّم منهم احد، كلهم قدموا حياتهم في تلك المعركة الامبراطورية التركية ليست لي وإنما للشعب التركي، لا أستطيع ان أعطي أحدا اي جزء منها. ليوفّر اليهود ملياراتهم. فإذا قسمت امبراطوريّتي، فهم قد يحصلون على فلسطين من دون مقابل إنما لن تقسّم إلاّ على جثتنا. أنا لن أقبل بتشريحنا ونحن أحياء.(٤١٤)

وعلى الرغم من هذا الرد الحازم القاطع، فالسلطان حافظ على شعرة معاوية، وقال انه سيقابل هيرتسل عاجلا اوآجلا.(٤١٥) وربما أراد السلطان ان يمتحن هيرتسل عندما طلب منه ـ عن طريق نيولنسكي ـ ان يعمل على إقناع زعماء الأرمن في لندن بالخضوع له مباشرة، وأن يضغط على الصحافة الأوروبية لمعالجة المسألة الأرمنية بروح صداقة أكثر، مع الأتراك. والسلطان من جهته سيقدّم لهم تنازلات، ثم يستقبل هيرتسل كصديق. ووافق هيرتسل، إلاّ انه طلب تحديدا لأسماء الصحف، ولأوضاع الأرمن. لكنه لم يفعل شيئا فيها بعد.(٤١٦)

ربح هيرتسل من الزيارة الأولى وساما من السلطان، وقد شكره في رسالة جاء فيها:

في اليوم الذي تنعم حلالتكم بقبول خدمات اليهود، سوف يسعدهم ان يضعوا قواهم في تصرف ملك عظيم مثلكم.(٤١٧)

زار هيرتسل استانبول ثاني مرة في تشرين الأول/أكتوبر ١٨٩٨، وكانت غايته لقاء القيصر الألماني ويلهلم الثاني الذي كان بدوره يقوم بزيارة لصديقه السلطان، والذي رأى هيرتسل فيه خير واسطة لإقناع السلطان.

تم اللقاء بحضور وزير الخارجية الألماني فون بيلو الذي أشار الى عدم ولاء اليهود للأسرة الحاكمة، هوهنزلرن، والى انخراط شباب اليهود في الأحزاب المعارضة للامبراطورية، والى معارضة أثرياء اليهود ومعارضة الصحف الكبرى. وقد علّق هيرتسل، في يومياته، ان فون بيلو كان معارضا معارضة كلية، باستثناء قوله كلمة لا (٤١٨)

---

(٤١٤) *Ibid*, Vol I, p 378.

(٤١٥) *Ibid.*, Vol. I, p 395.

(٤١٦) راجع:
Ibid, Vol. I, pp. 384-389.

(٤١٧) بعث هيرتسل برسالة الشكر الى السلطان في ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٩٦، بعد تسلمه براءة الوسام، أنظر:
Ibid., Vol. II, p 485.

(٤١٨) Patai, ed., *The Complete Diaries. ., op.cit*, Vol. II, p. 733.

أما القيصر الذي كان هيرتسل متهيبا جدا من لقائه، فقد اعرب عن قناعته بأن القدرات المالية والبشرية لليهود كفيلة بإنجاح استيطانهم في فلسطين، وبدا متعاطفا حين قال في نهاية الجلسة: «وبعد، فأنا الوحيد الذي بقي الى جانب السلطان وهو يعتمد عليّ.» ثم سأل هيرتسل: «قل لي بكلمة واحدة ماذا تريد مني ان أطلبه من السلطان؟» فأجابه: «شركة قانونية ـــ تحت الحماية الألمانية.»[٤١٩]

التقى هيرتسل القيصر بعد اسبوعين، في القدس، وكله أمل بأن يسمع منه ردا إيجابيا، وألقى بين يديه خطابا مطولا شرح فيه صهيونيته العصرية المتطورة، حتى قال أخيرا:

> ونحن نعتقد، بصدق، ان تحقيق الخطة الصهيونية يحمل الخير الى تركيا أيضا؛ سيحمل اليها الموارد المالية والعملية، وسيعمل على إخصاب مساحات شاسعة من الأراضي القاحلة في المستقبل القريب، وينتج من هذا كله المزيد من السعادة والحضارة لأناس كثيرين.
>
> نحن نخطط لقيام شركة يهودية لأراضي سوريا وفلسطين، تأخذ على عاتقها المشروع الكبير، ونطلب حماية القيصر الألماني لهذه الشركة
>
> ان فكرتنا لا تسيء الى حقوق احد ولا الى المشاعر الدينية لأحد. انها تؤمن مصالحة طال نشدانها. نحن نفهم ونحترم تعلّق جميع الأديان التي قامت على هذه الأرض، التي قام عليها أيضا دين آبائنا.[٤٢٠]

تحدّث القيصر مع هيرتسل باقتضاب في عدة موضوعات جانبية. أما الجواب المنشود، فكان جملة مبهمة عامة: «المسألة، في كل حال، ما زالت بحاجة الى دراسة شاملة، والى المزيد من التفكير.»[٤٢١]

كانت تلك هي زيارة هيرتسل الوحيدة الى فلسطين، التي لا يبدو انه اعجبه شيء فيها، بما فيها القدس؛ أما وساطة القيصر، فكانت الى الفشل اقرب. إلّا ان ذلك لم يثن هيرتسل عن الاستمرار في طلب الحماية الألمانية، ولا سيما عبر دوق بادن الكبير.[٤٢٢] وأكثر من مرة، عاد يطلب مقابلة القيصر الألماني والقيصر الروسي، فلم ينجح في ذلك، مما دفعه الى اللجوء الى القوى الأوروبية الكبرى الأخرى، والى الولايات المتحدة عن طريق سفرائها.

---

(٤١٩) راجع بشأن لقاء هيرتسل ـ القيصر:
Ibid., Vol. II, pp 726-734

(٤٢٠) Patai, ed., *The Complete Diaries..., op cit.*, Vol II, pp 720-721
كان هيرتسل قد أرسل الخطاب أعلاه مكتوبا الى الامبراطور في استانبول، بناء على طلبه (*Ibid*, p. 719).

(٤٢١) *Ibid*, Vol II, p. 755.

(٤٢٢) *Ibid.*, Vol II, pp 765-767.

وعاد هيرتسل يطلب لقاء السلطان. ولمّا كان نيولنسكي قد توفي، فقد بحث عن وسيط آخر، ووجده في المستشرق الرحالة فامبري، وهو يهودي في السبعين من عمره، من أصل هنغاري، اعتنق في حياته خمسة أديان، وعمل راهبا مرتين، وكان يتكلم عدة لغات، منها التركية.(٤٢٣)

نجح فامبري في الحصول على موعد لهيرتسل مع السلطان، الذي سيستقبله كزعيم لليهود، وكصحافي صاحب نفود، لا كصهيوني. وقد كانت وصية فامبري له: «إياك ان تحدثه عن الصهيونية. فهي بالنسبة اليه كابوس أوهام. ان القدس مقدّسة لهؤلاء الناس مثل مكة.»(٤٢٤)

قابل السلطان هيرتسل في ١٨ أيار/مايو ١٩٠١، وقد ارتدى هيرتسل معطفا رسميا كان قد اعدّه من عامين، لهده المناسبة.(٤٢٥)

كان مفتاح هيرتسل للحديث قصة أندروكليس مع الأسد، والشوكة التي انتزعها؛ فجلالة السلطان هو الأسد، والشوكة التي يود هيرتسل انتزاعها هي الدَّيْن العام.

تشعب الحديث عبر ساعتين، بشأن ميثاقٍ ما يصدره السلطان، والدَّيْنِ العام، والمشاريع الاقتصادية، وأهمية استمرار المراسلات بينهما.

ويتضح، من يوميات هيرتسل وتعقيبه على اللقاء، ان عدم الوضوح كان طابع الحديث. وقد علم فيما بعد من رجال السلطان، ان الدولة بحاجة ماسّة الى اربعة ملايين جنيه، ووعد هيرتسل بمحاولة تأمينها مشيرا الى اهمية موقف السلطان من اليهود في المقابل.(٤٢٦)

ثابر هيرتسل على اتصالاته ورسائله الى السلطان، وبعضها فضفاض بالتزلف والنفاق. وفي الوقت نفسه، لم يتوقف عن الركض وراء مقابلة الملوك والرؤساء والزعماء الذين كان يدعوهم بأحجار الشطرنج، يحركها كيف يشاء.(٤٢٧) وأخيرا وصلته دعوة الى زيارة استانبول. لكن السلطان لم يقابله، وكان التفاوض عبر رَجُلَيْه ابراهيم بيك وعزة بيك، اللذين بلّغاه موقف جلالة السلطان في ١٨ شباط/فبراير ١٩٠٢:

١ ــ ان جلالة السلطان سوف يسمح بهجرة اليهود الى أراضيه في آسيا الصغرى وما بين النهرين، بشرط ان يحصل المهاجرون على إذن من حكوماتهم في الحصول على الجنسية العثمانية. وعلى

(٤٢٣) *Ibid*, Vol. III, p. 1092.
(٤٢٤) *Ibid*, Vol. III, p 1093.
(٤٢٥) *Ibid.*, Vol. III, p. 1111.
(٤٢٦) *Ibid*, Vol. III, p. 1133
(٤٢٧) *Ibid.*, Vol III, p. 1179.

المهاجرين ان يخضعوا للقوانين العثمانية، وأن يقوموا بالخدمة العسكرية. ويجب ألّا تكون الهجرة جماعية ولا الاقامة، وإنما وفقا للقرارات التي تتخذها حكومة جلالته في المناطق التي تحدّدها لهم

٢ ــ يرغب جلالته، في مقابل ذلك، في إنشاء وكالة مالية يهودية لتقديم المساعدة الى حكومة جلالته فيما يلي:

أ ــ إنشاء شركة تعدين لاستثمار مناجم الامبراطورية، يتألف مجلسها الاداري مناصفة من رعايا عثمانيين مسلمين، ورعايا يهود

ب ــ تسهيل عملية تصفية الدَّيْن العثماني العام بشروط معتدلة ومفيدة.

ج ــ قرض الحكومة العثمانية المبالغ اللازمة لتنفيذ مشاريعها الانشائية بشروط معتدلة ومفيدة (٤٢٨)

ما كان أمام هيرتسل إلّا الرفض؛ فما زالت أبواب فلسطين موصدة. ولم يدرك هيرتسل فشله حقا إلّا عندما أُعلِنَ، في آذار/مارس ١٩٠٢، ان السلطان قد قبل مشروع روفييه لتصفية الدَّيْن العام. وهنا أدرك هيرتسل كل الادراك ان رجال السلطان كانوا يستغلونه، ولم يكن العكس ــ كما كان واهما ــ فكتب في ١٤ آذار / مارس، وكان في فيينا: «مما لا شك فيه ان السلطان قد استغل حضوري. كنت أنا اليهودي الذي استدعي لحمل المنافسين الآخرين على ان يكونوا أكثر مرونة.»(٤٢٩)

ولّما لم يكن من عادة هيرتسل الاعتراف بهزيمته، فهو ما فتيء يقول انه لو أعطاه اليهود المال، لجاءهم بفلسطين.(٤٣٠)

وحاول هيرتسل أخيرا الدخول من باب آخر؛ فبعث الى السلطان برسالة من فيينا، في ٣ أيار/مايو ١٩٠٢، يعرض فيها إنشاء جامعة علمية ومدارس مهنية وزراعية في القدس، تستوعب الشبان الأتراك الذين يضطرون الى الدراسة في أوروبا، والتأثر بالأفكار الثورية.(٤٣١) وجدّد رجال السلطان، من ناحيتهم، الاتصال بهيرتسل لعلّه يقدّم عرضا أفضل من مشروع روفييه، او لعل الاستفادة من الاثنين ممكنة. وعلى هذا الأساس، كانت زيارته الخامسة والأخيرة لاستانبول في نهاية تموز/يوليو ١٩٠٢. وعلى الرغم من تلويح هيرتسل بمشروعه الجديد في أفريقيا، حيث سيستثمر أموال اليهود كما يقول، فقد جاءه الرد النهائي من السلطان بواسطة تحسين بيك السكرتير الأول للسلطان، وابراهيم بيك ترجمان الديواني السلطاني:

(٤٢٨) *Ibid*, Vol. III, pp. 1229-1230

(٤٢٩) *Ibid*, Vol III, p 1256

(٤٣٠) Laqueur, *op.cit*, p 116

(٤٣١) Patai, ed., *The Complete Diaries..*, *op cit*, Vol. IV, pp. 1274-1275

يمكن للاسرائيليين ان يقبلوا ويستقروا في الامبراطورية العثمانية، شرط ألا يتجمعوا في مكان واحد، بل ان يتفرقوا في الأماكن التي تعينها الحكومة لهم، وشرط ان تقرر الحكومة عددهم مسبقا. وسيعطون الجنسية العثمانية، وستطبق عليهم الواجبات المدنية، بما فيها الخدمة العسكرية، كما سيخضعون لقوانين البلاد كالأتراك تماما (٤٣٢)

هكذا اضطر هيرتسل الى التحول من استانبول الى لندن، بعد وثوقه باستحالة الحصول على اي وعد او تشريع بفلسطين، او حتى بجزء منها.

ج ـ مشروع قبرص وسيناء والعريش

وجّه هيرتسل أنظاره نحو المستعمرات البريطانية. ولمّا كان من طبيعته الدينامية اللعب على عدة حبال في وقت واحد، فقد كانت قبرص في حساباته في الوقت الذي كان يسعى فيه من أجل فلسطين؛ فقد كتب في ١ تموز/يوليو ١٨٩٨:

منذ المؤتمر الأول، وأنا أفكر في إعطاء الحركة الأرض الأقرب الى الهدف، تاركين صهيون هدفا نهائيا

ان الجماهير اليائسة بحاجة ماسة الى المساعدة، وتركيا لم تصل الى حدّ اليأس لتلبية رغباتنا .

ربما نطلب قبرص من بريطانيا، بينما تبقى عيننا على جنوب افريقيا او أميركا، حتى تنحلّ تركيا. (٤٣٣)

ومرة ثانية، عاد قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الرابع يخشى عدم تلبية تركيا له، لذلك اخذ يهيىء قبرص مشروعا بديلا، فما عليه إلاّ الذهاب الى لندن لإقناع الانكليز، ثم إقناع اليهود في المؤتمر الرابع القادم. (٤٣٤)

رسميا، كانت فرصة هيرتسل الأولى بعرض مشروع قبرص في حزيران/يونيو ١٩٠٢ في لندن. وقد صمم على كسب ودّ روتشيلد هذه المرة، وهو الذي كان يشتم أثرياء آل روتشيلد، ويصفهم بأنهم جماعة من الحمقى. إلاّ انه الآن كان بحاجة الى مساندتهم، لإقناع بريطانيا بإنشاء شركة يهودية قانونية في قبرص. (٤٣٥)

---

(٤٣٢) *Ibid*, Vol. IV, pp. 1340-1341.

(٤٣٣) *Ibid.*, Vol., II, p. 644.

(٤٣٤) *Ibid.*, Vol. III, p. 885.
دوّن هيرتسل آراءه أعلاه في ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٩٩.

(٤٣٥) *Ibid*, Vol. IV, pp. 1284-1285

نصح اللورد روتشيلد له ألاّ يطلب «عهدا» من بريطانيا لإنشاء مستعمرة يهودية في الممتلكات البريطانية. وفي تموز/يوليو ١٩٠٢، قابل هيرتسل اللجنة الملكية (لجنة برلمانية رسمية)، وتقدم بمشروع «سيناء ــ العريش ــ قبرص». وكان طبيعيا ان تستنتج اللجنة ان المشروع هو بمساعدة اللورد روتشيلد، فقد أكد هيرتسل لها انه بأموال اليهود.(٤٣٦)

قابل هيرتسل تشمبرلين وزير المستعمرات في ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٠٢، وقدّم له طلباته من إنكلترا، وهي قبرص والعريش وصحراء سيناء. وأجاب الوزير بأنه لا يستطيع التكلم إلاّ عن قبرص كمستعمرة؛ فالمناطق الباقية من اختصاص وزارة الخارجية. وبالنسبة الى قبرص، فهو يخشى ان يقاوم اليونانيون ــ سكان الجزيرة ــ المشروع، بمساعدة اليونان وتركيا، فضلا عن انه لا يستطيع إخراج السكان لإحلال سكان جدد. وطلب منه أخيرا مذكرة خطية، واعدا بالكتابة الى اللورد كرومر في مصر.(٤٣٧)

أرسل هيرتسل مذكرة خطية الى الحكومة البريطانية، جاء فيها:

> ان إنكلترا تمتلك في جنوب شرقي البحر الأبيض المتوسط أراضي لا قيمة لها حاليا، وغير آهلة تقريبا، وهي ساحل العريش وشبه جزيرة سيناء.
>
> ان هذه المنطقة يمكن ان تصبح المأوى والوطن لليهود المضطهدين في أنحاء العالم، إذا سمحت إنكلترا بإنشاء مستعمرة يهودية هناك.(٤٣٨)

أرسل هيرتسل لجنة من الخبراء لاستكشاف سيناء، وزار القاهرة للبحث في مشروعه، وفي تأمين المياه. إلاّ ان الحكومة المصرية رفضت المشروع، لأن خبراء الري لديها توصّلوا الى ان من المفروض تأمين خمسة أضعاف كمية المياه المطلوبة للمشروع، وأما جرها من النيل فمستحيل. وتأكد هيرتسل، في ١٢ أيار/مايو ١٩٠٣، من ان المشروع قد رفض نهائيا.(٤٣٩)

د ــ مشروع شرق افريقيا

كان اللورد روتشيلد أوّل من ذكّر هيرتسل بأوغندا، فرفضها أول مرة.(٤٤٠) لكنه لم يرفضها

---

(٤٣٦) *Ibid*, Vol IV, pp 1294-1295

(٤٣٧) *Ibid*, Vol. IV, pp 1360-1364.

(٤٣٨) *Ibid*, Vol IV, p. 1365.

(٤٣٩) *Ibid*, Vol IV, p. 1487.

(٤٤٠) *Ibid*, Vol. IV, p 1294

لمّا عرضت عليه ثاني مرة من قبل وزير المستعمرات البريطاني تشمبرلين، في ٢٤ نيسان/إبريل ١٩٠٣ في لندن؛ اذ قال له:

> لقد وجدت لكم أرضا خلال رحلاتي انها أوغندا
> ان ساحلها حار، غير ان جوها في الداخل رائع، وحتى بالنسبة الى الأوروبيين، وفي إمكانكم ان تنتجوا السكر والقطن هناك. وقد قلت لنفسي، هذا بلد للدكتور هيرتسل. لكنه طبعا لا يريد الذهاب إلّا الى فلسطين او جوارها (٤٤١)

تذكر هيرتسل حديث تشمبرلين حين فشل مشروع العريش وسيناء نهائيا، وأضاف اليه تحياله المجنّح الموزامبيق، لعلّه يقايض عليها سيناء ومياه النيل وقبرص في المستقبل.(٤٤٢)

في ٢٠ أيار/مايو ١٩٠٣، قدّم تشمبرلين للحركة الصهيونية منطقة شاسعة تسع مليون نسمة، وإنما ليس في أوغندا، بل في جوارها، ومع الحق في إنشاء حكومة محلية ذاتية.(٤٤٣)

في أثناء عملية التفاوض بشأن المنطقة المجاورة لأوغندا، اي في شرق افريقيا، زار هيرتسل سان بيترسبورغ في آب/أغسطس ١٩٠٣ ليبحث مع رجال القيصر في هجرة اليهود الروس ولمّا كانت جرت مذابح ضد اليهود قبل اشهر من زيارته، فقد باتت هذه الزيارة سببا في تهجم الكثيرين من الصهاينة عليه، ولا سيما انه تحدّث مع وزير الداخلية بليهف، المسؤول عن المذابح التي جرت في كيشينيف (٦ ــ ٨ نيسان/إبريل ١٩٠٣)، وقتل فيها خمسون يهوديا. أما بالنسبة الى هيرتسل، فان هذه المذابح هي التي اوحت اليه بزيارة روسيا، والتفاوض بشأن هجرة اليهود الروس، معتقدا ان روسيا ستهتم بتبييض صفحتها، وأنها لا بدّ من ان تقدم له تنازلات.(٤٤٤)

طلب هيرتسل، في مذكرة قدّمها الى وزير الداخلية، وساطة روسيا لإقناع السلطان عبد الحميد بإنشاء شركة الاستيطان اليهودية في فلسطين، باستثناء الأماكن المقدسة، وفي ظل حكم جلالة السلطان.(٤٤٥) وأعطاه الوزير جواب حكومته في لقائهما في ١٤ آب/أغسطس؛ وأهم ما جاء فيه:

> ان خلق دولة يهودية مستقلة، قادرة على استيعاب عدة ملايين من اليهود، أمر يوافقنا جدا. غير

(٤٤١) *Ibid.*, Vol. IV, p. 1473.

(٤٤٢) *Ibid.*, Vol. IV, p. 1487.

(٤٤٣) *Ibid*, Vol. IV, p. 1498.

(٤٤٤) Laqueur, *op.cit*, p. 123.

(٤٤٥) Patai, ed., *The Complete Diaries...*, *op.cit*, Vol. IV, p. 1520.
تاريخ المذكرة أعلاه ٩ آب/أغسطس ١٩٠٣ ــ سان بيترسبورغ.

ان هذا لا يعني أننا نريد ان نتخلّ عن كل اليهود عندنا هؤلاء المتفوقون بالذكاء ــ وأنت نفسك أفضل مثال ــ نريد ان نحتفظ بهم. ان القدرات العقلية لا تمييز لديها في العقيدة ولا في القومية.

لكننا نريد ان نتخلص من ضعاف العقول ومن الفقراء ونود ان نبقي عندنا كل من هو قادر على الاندماج. نحن لا نعادي اليهود كيهود (٤٤٦)

لم تكتمل الوساطة الروسية بسبب تدهور العلاقات الروسية ــ العثمانية؛ فلم يربح هيرتسل من زيارته الى روسيا إلّا نقمة العديد من اليهود في المؤتمر الصهيوني السادس، بالاضافة الى النقمة الناجمة عن المشروع الاستيطاني في شرق افريقيا.

عرض السير كليمنت هيل، باسم الحكومة البريطانية، الموقف الرسمي في رسالة بتاريخ ١٤ آب/أغسطس ١٩٠٣. ويبدو من خلالها ان الأرض المعروضة في شرق افريقيا غير صالحة للسكنى والزراعة إلّا بنسبة ٢٠ ٪ منها. أمّا الموضوع الأهم، فكان مجرد القبول بأرض غير فلسطين. ومن الغريب ان هيرتسل لم يجد من يشكو اليه همّه إلّا وزير الداخلية الروسي بليهف، فكتب اليه في ٥ أيلول/سبتمبر يقول: «وفي اجتماع خاص للروس الصهاينة، اتهموني بالخيانة.»(٤٤٧)

لم يكن المطلوب من المؤتمر السادس التصويت على المشروع الاستعماري في شرق افريقيا، والذي بات معروفا بمشروع أوغندا، وإنما التصويت على إرسال لجنة الى شرق افريقيا لدراسة الأوضاع.

ولمّا انعقد المؤتمر السادس في ٢٢ آب/أغسطس ١٩٠٣، برز فيه تغيير ظاهر؛ فالخريطة لشرق افريقيا، لا لفلسطين.(٤٤٨)

أكد هيرتسل في خطابه «ان أوغندا ليست صهيون، ولا يمكنها ان تكون.» كما أكد ان هذه العملية ليست إلّا إجراء أملته الأوضاع القاهرة لحماية المضطهدين المشتتين.(٤٤٩) ولمّا قدم المشروع ارتفعت أصوات تصرخ من كل الجهات: «انتحار». «مجرم». «خيانة». لكن، عندما عرض مشروع إرسال البعثة على التصويت فاز بـ٢٩٥ صوتا ضد ١٧٧ صوتا، وامتناع مائة من التصويت. ثم وصل الفريقان الى اتفاق عملي في اليوم التالي، وهو ان مهمة اللجنة هي فقط

(٤٤٦) *Ibid*, Vol. IV, p 1535.

(٤٤٧) *Ibid.*, Vol. IV, p. 1551.

(٤٤٨) Sachar, *op.cit*, p. 60.

(٤٤٩) *Ibid.*, p 61; Parzen, ed., *Herzl Speaks.* , *op cit*, p 81; Sachar, *op.cit.*, p. 61.
لم يدوّن هيرتسل شيئا يذكر عن المؤتمر السادس في يومياته.

الاستقصاء في شرق افريقيا، وهي لا تملك الصلاحية لإنشاء «الشركة». وبغية حفظ التوازن، تألفت لجنة اخرى لدراسة أوضاع اليهود في فلسطين.(٤٥٠)

نشر آحاد هاعام مقالا في إثر المؤتمر، يعلن فيه إفلاس «الصهيونية السياسية». وكان فريق من أعضاء المؤتمر باسم «صهيونيّي صهيون» قد هدد بالانشقاق؛ أما أوسشكين، فقاد حملة واسعة للقضاء على مشروع «أوغندا»، فعقد مؤتمرا للصهاينة العمليين في كاركوف، في نهاية تشرين الأول/أكتوبر ١٩٠٣، أسقطوا فيه المشروع نهائيا، وأرسلوا وفدا الى فيينا لمقابلة هيرتسل وإنذاره بضرورة التخلي عن المشروع وعن أسلوبه السلطوي الفردي. وما كان أمام هيرتسل إلّا الانصياع، كي لا تضيع منه أموال اليهود في أوروبا الشرقية.

وتحمّس أنصار هيرتسل في الجريدة التي كان قد أنشأها باسم «دي فِلت»، ومعناها «العالَم»، ضدّ متمرّدي كاركوف. ولم تهدأ العاصفة، بل اشتدت الى الحد الذي تجاوزت فيه الحدود بين «العمليين» و «السياسيين»، إنْ لم تكن قد اختلطت أحيانا، والى الحد الذي تمزقت فيه حتى الروابط العائلية وصداقات العمر، ما بين مؤيد ومعارض.(٤٥١)

وبينما كان «العمليون» يصعّدون هجومهم على دبلوماسية هيرتسل التي شرعوا يهاجمونها من سنوات، حُلّت عقدة الأزمة المستعصية على يد الحكام المستعمرين الانكليز في شرق افريقيا؛ إذ عارض هؤلاء بشدّة تدفق اليهود الروس، فأعلن تشمبرلين أخيرا ان المنطقة لا يمكنها استيعاب اليهود. واستراح هيرتسل للرفض الذي جاء من بريطانيا، فكلّ ما كان يعنيه هو العلاقات ببريطانيا. وأعلن أخيرا، في نيسان/إبريل ١٩٠٤، ان فلسطين وحدها من الآن فصاعدا ستكون قبلة أنظاره في جهوده كلها.(٤٥٢)

وذهب فريق من الخبراء اليهود الى شرق افريقيا في كانون الأول/ديسمبر ١٩٠٤، ثم اصدر تقريرا في نيسان/إبريل ١٩٠٥ بأن المنطقة المقترحة لا تصلح لاستيطان جماعي.(٤٥٣)

(٤٥٠) Sachar, *op.cit.*, p 61.

(٤٥١) *Ibid*, p. 62

(٤٥٢) *Ibid.*, pp. 62-63

(٤٥٣) *Encyclopaedia Judaica*, Vol 16, p 1073.

سابعا: زعامة هيرتسل

توفي هيرتسل في ٧ تموز/يوليو ١٩٠٤، وجرى له في فيينا مأتم حاشد مهيب، سرعان ما تحوّل الى شغب بفعل النحيب والحزن المريع والصراخ الجنوني.(٤٥٤) وفي كل التجمعات اليهودية، كان الحزن عميقا على هيرتسل الذي سبب فقدانه اليتم الحقيقي للحركة الصهيونية.

التصقت بهيرتسل ألقاب عدة في حياته وبعد مماته، منها: «الملك»، و«النبي»، و«الزعيم»، و«النسر الكبير». وهكذا، على الرغم من ان الرجل لم يحقق ـ فعلا ـ شيئا مما وعد به شعبه، فالواقع ان حليف هيرتسل لم يكن النجاح، بل الشهرة الواسعة الآفاق.

قال النقاد في هيرتسل انه كان فاشلا لا في نظرهم فحسب، بل في نظره هو نفسه. ولمّا مات، كان الصهاينة ابعد ما يكونون عن فلسطين. أمّا صفاته؟ فمما لا شك فيه انه كان فرديّ النزعة في قيادته الى حد كبير، ويتطلب من أتباعه الانقياد الأعمى. وفكرهُ؟ ماذا هناك؟ لم يكن مفكرا مبتكرا، ولم يذهب تحليله السياسي الى ابعد ممّن كان قبله. وبرنامجه؟ ان رغبته الجامحة في إيجاد حل، ولو جزئي للمسألة اليهودية، تُقدَّم على رغبته في إنشاء دولة يهودية في فلسطين.(٤٥٥)

في جانب آخر، يوجد بين معاصري هيرتسل فريق معجب به ومعترف بأخطائه، وبينهم وايزمن؛ وفريق آخر لا يرى في هيرتسل إلاّ أخطاءه، ومنهم آحاد هاعام. ونتوقف عند آراء من الفريقين في «يهودية» هيرتسل:

كتب وايزمن (أول رئيس لدولة اسرائيل) في مذكراته، انه كان في عامه الجامعي الثاني عندما اصدر هيرتسل كتابه «الدولة اليهودية». ولم يجد هو وزملاؤه في الكتاب شيئا جديدا، وساءهم انهم لم يجدوا فيه اية إشارة الى الرواد في الصهيونية أمثال هس وبنسكر وبيرنباوم «وواضح ان هيرتسل لم يكن يعلم بوجود 'أحباء صهيون'، وهو لم يذكر فلسطين، وتجاهل اللغة العبرية»؛ ومع ذلك، يقول وايزمن: «ان تأثير الكتاب كان كبيرا، لا بسبب الآراء الواردة فيه، وإنما سبب الشخصية وراء الكتاب؛ فهي التي جذبتنا اليها. هنا الجرأة والوضوح والحيوية.» ثم يعزو وايزمن سرّ إعجابه وإعجاب رفاقه الطلاب الروس اليهود في برلين بهيرتسل، الى كونه يهوديا غربيا، جاءهم من دون ان يكون مثقلا بالمفاهيم السابقة التي ألفوها.(٤٥٦)

---

(٤٥٤) Sachar, *op.cit.*, p 63

وصف المؤلف مأتم هيرتسل أعلاه نقلا عن شاهد عيان هو شتيفان رفايغ.

(٤٥٥) *Laqueur, op cit*, p 132

(٤٥٦) Chaim Weizmann, *Trial and Error*, 4th Impression (London. Hamish Hamilton, 1950), p. 61.

ويشير مناحيم أوسشكين، زعيم العمليين المعارض لدبلوماسية هيرتسل، الى النقطة نفسها التي أثارت إعجاب وايزمن من زاوية اخرى؛ فيقول ان جهل هيرتسل باليهودية كان مهما ليبقى متحمسا. كما يعلّق على اللقاء الأول بينهما في فيينا: «ان نقصه الكبير سيغدو أكبر مصدر للقوة لديه. فهو، أولا، لا يعرف شيئا عن اليهود. ولذلك فهو يعتقد ان هناك صعوبات خارجية فقط في وجه الصهيونية، لا داخلية. لن نفتح عينيه كي يبقى إيمانه قويا.»(٤٥٧)

قال فيه النقاد من يهود أوروبا الشرقية، انه إجمالا لم يكن في هيرتسل إلاّ القليل مما يمكن وصفه بوضوح بأنه يهودي.(٤٥٨) وتساءل آحاد هاعام: «ماذا كان بالتحديد — يهوديا — في ‹الدولة الجديدة›؟ الاسم — صهيون — لم يرد ولا مرة. والسكان لا يتكلمون العبرية. ولا شيء إلاّ القليل عن الثقافة اليهودية، هذا إنْ ذُكرت.»(٤٥٩)

أما «يوميات هيرتسل»، فما كان نشرها بحرفيته ليثير انتقادا أقلّ من نشر «دولته»؛ فعندما طُرِحَ أول مرة موضوع نشر «اليوميات»، عارض صديقه وحليفه الأول نورداو اشد المعارضة صائحا: «سوف تحطمون اسم هيرتسل إنْ نشرتم يومياته. فكل من يقرؤها سيعتقد انه كان مخادعا وأحمق.»(٤٦٠)

في إثر وفاة هيرتسل، قال وايزمن فيه ما يمكن اعتباره موقفا عاما للعديد من اليهود: «لقد ارتكب هيرتسل أخطاء فادحة، إلاّ انه كانت له طلّة النسر، وكان ذا قوة هائلة.»(٤٦١)

واختصر مارفن لوونتال اهمية هيرتسل بقوله: «ان هيرتسل وضع الصهيونية على الخريطة. وهو بإنشاء المنظمة الصهيونية، أعطى الشعب اليهودي عنوانا.»(٤٦٢)

ان هذا الرأي الأخير ينسجم مع الحقيقة والتاريخ، إلاّ انه يبقى تعريفا ناقصا؛ فيجب ان يضاف اليه ان هيرتسل، بإصراره على وعد دولي بفلسطين، دخل البوابة التي لولاها لما كان للصهيونية وطن، وهي بوابة الاستعمار. ان فضل هيرتسل على الصهيونية انه كان أول يهودي،

(٤٥٧) Dan V. Segre, *A Crisis of Identity: Israel and Zionism* (Oxford, New York: Oxford University Press, 1980), p 3.

(٤٥٨) Laqueur, *op.cit.*, p 132.

(٤٥٩) *Ibid.*, p 133

(٤٦٠) *Ibid*, p. 137, as quoted from P. A. Alsberg, «Mediniut hahanhala hazionit memoto shel Herzl ve'ad milkemet haolam harishana» (Doctoral dissertation, Jerusalem)

نشرت يوميات هيرتسل كاملة باللغة الانكليزية أول مرة سنة ١٩٦٠.

(٤٦١) Sachar, *op.cit.*, p 63.

(٤٦٢) *Ibid.*, p. 64.

لا أول زعيم يهودي فقط، يقرع هذه البوابة بكلتا يديه؛ لقد كان ابعد مَنْ رأى، ومن أول لحظة، حتمية الحلف الدائم بين الصهيونية والاستعمار.

قبل صعود هيرتسل، وقبل مؤتمره في بازل، لم يكن للصهيونية السياسية من وجود فعلي؛ وبعد وفاته، ظُنَّ ان الحركة الصهيونية الى زوال، لا لأنّها إنجازه الفردي فحسب، بل لأنه كان القطب الذي يتوحّد الأعضاء من حوله. وأمّا فشله في كل المفاوضات التي أجراها، فأمر لم يكن مكشوفا بعد. ومع ذلك كله، فالاعتراف الصهيوني الكامل بعظمة هيرتسل لم يتوفر إلاّ مع «وعد بلفور»، فعندما تكللت المسيرة التي ابتدأها بهذا «الوعد»، وعندما تراكض الى المفاوضات، حتى خصومه الذين كانوا يعارضون نهجه السياسي، أُعلن نجاح هيرتسل، وتكرّس اسمه أبا للصهيونية، وأبا للوطن القومي

ثامنا: القيادة الصهيونية (١٩٠٤ ــ ١٩١٧)

برزت المشكلة الأولى أمام القيادة الصهيونية في اختيار خلف لهيرتسل. فاليهود الروس كانوا أكثر من قدّم في الساحة الصهيونية، كما انهم كانوا الأكثر عددا بين التجمعات اليهودية في أوروبا. إلاّ انه لم يُعترف بالصهيونية في العهد القيصري اعترافا قانونيا بصورة تامة، فكانت تعتبر نصف قانونية. وهذا ما جعل اليهود في روسيا عاجزين عن التأثير في حكومتهم، ومن باب أولى، كان عجزهم عن التأثير في الحكومات في الدول الأخرى، فضلا عن افتقارهم الى الخبرة الدبلوماسية والعلاقات الدولية؛ فالقيادة ــ منطقيا ــ إذاً، يجب ان تكون في ايدي اليهود الغربيين (غرب أوروبا)، بغضّ النظر عن هوة انعدام الثقة التي تفصل يهود روسيا عن يهود غرب أوروبا، وبغض النظر عن الهوة بين «السياسيين» و«العمليين».[٤٦٣]

كان الصهاينة الروس، «العمليون»، بزعامة مناحيم أوسشكين، اقوى المعارضين لدبلوماسية هيرتسل العلنية والسرية، ويرون أنها قد أوصلتهم الى لا شيء. غير انهم، وإنْ كانوا يؤكدون الأهمية القصوى لسياستهم العملية بالمطالبة بإنشاء المزيد من المستعمرات الزراعية، والعمل على تقوية العنصر اليهودي في فلسطين، حتى تنضج الأوضاع السياسية الدولية للعهد المنشود، فهم ــ حقيقة ــ لم يعارضوا قط مبدأ المفاوضات الاستعمارية، وإنّما رأوا أفضلية التوجه نحو السياسة العملية، وعدم إضاعة الوقت في مفاوضات قبل الأوان.

---

(٤٦٣) Laqueur, *op cit* , p. 136.

«السياسيون» من ناحيتهم، ولا سيما في عهد هيرتسل، كانوا اشد على خصومهم «العمليين» مما كان هؤلاء عليهم؛ فهيرتسل لم يكن يرى اية اهمية لإضاعة المال والجهد في فلسطين، حتى يتمكن من تأمين الحد الأدنى من الامتيازات والضمانات السياسية.[٤٦٤] وقد ساهمت عقدة أوغندا في استفحال الصراع بين أنصار المشروع الذين أُطلق عليهم «الأوغنديون»، وبين المعارضين الذين أُطلق عليهم «صهيونيو صهيون». وبقي الخلاف قائما حتى تفجّر نهائيا في أول مؤتمر بعد وفاة هيرتسل، وهو المؤتمر الصهيوني السابع الذي عقد في بازل (٢٧ تموز/يوليو ـ ٢ آب/أغسطس ١٩٠٥)، وانتهى برفض الأكثرية للمشروع، وبانسحاب الأوغنديين من القاعة، وقد أشرنا سابقا الى تقرير الخبراء السلبي الصادر في نيسان/إبريل من السنة نفسها

كان من المتوقّع في المؤتمر السابع، ان يرث الزعامة ماكس نورداو، الوارث الطبيعي لهيرتسل. غير انه كان هو الذي ابتعد عن الرئاسة وتخلّى عنها.[٤٦٥] وجاءت القيادة بتسوية بين الفريقين، فكانت تتألف من ستة أعضاء، نصفهم من «السياسيين»، ونصفهم من «العمليين» برئاسة ديفيد وولفسون (ولد في ليتوانيا ومقيم في كولون بألمانيا).

كان وولفسون من أنصار هيرتسل الأوائل. لكن سياسة هيرتسل المكوكية كثيرا ما قادته الى اليأس، مّما جعل البعض يظنون ان الرئيس الجديد سيكون بالتالي أكثر تعاطفا مع الخط العملي،[٤٦٦] وخصوصا انه في عهد هيرتسل، كان قد نظم الشركة الانكليزية ـ الفلسطينية للعمل في فلسطين، كما شجع على إنشاء الصندوق القومي اليهودي لشراء الأراضي.[٤٦٧]

أعلن وولفسون، بمجرّد انتخابه، ان الأزمة بين الفريقين قد انتهت. وقد أراد الايحاء بأنه يمسك بالعصا من وسطها، ثم اتضح ان المشكلة لم تكن في اتباع خط من دون آخر، بل كانت في الرئيس نفسه الذي وصفه يهود روسيا بأنه على الرعم من جده وإخلاصه في العمل، «فانه تنقصه الشخصية وتنقصه الرؤيا؛ فقد كان يعمل جاهدا لتقليد مثله الأعلى هيرتسل، إلاّ انه كان يفتقر الى شخصية هيرتسل والى قدراته التنظيمية.»[٤٦٨]

اقتفى وولفسون خطى هيرتسل بمقابلة الأثرياء (لكن من دون استفزازهم)، وكذلك بزيارة استانبول؛ وحتى المشاريع الجديدة، فهو لم يتوقف عن البحث عنها، ولا سيما في جوار فلسطين

---

(٤٦٤) *Ibid*, p. 137

(٤٦٥) *Encyclopaedia Judaica*, Vol 16, p. 1073.

(٤٦٦) Laqueur, *op.cit*, p 138.

(٤٦٧) Sachar, *op.cit*, pp. 65-66.

(٤٦٨) Weizmann, *op cit.*, p 146

(العريش وسيناء وسوريا والعراق). وعلى الرغم من عدم نجاحه الفعلي، ومن مساعي اليهود الروس لاستبعاده عن الرئاسة، فهو قد استمر بسبب عدم الاتفاق على سواه حتى المؤتمر العاشر في بازل سنة ١٩١١، حين تقدّم باستقالته. ولعلّ مقارنة وولفسون بسواه من الصهاينة المسؤولين تتضح أكثر عبر أجواء المؤتمر التاسع الذي عقد سنة ١٩٠٩ في هامبورغ، إذ جاء في وصف مراقب لهذا المؤتمر: «كان المؤتمر اشبه بروضة للأطفال يسود فيها الهرج والمرج، وكان الوحيد الذي تصرف بين هؤلاء كراشد عاقل هو وولفسون.»[٤٦٩]

انتخبت في المؤتمر العاشر سنة ١٩١١ لجنة تنفيذية جديدة، إثنان من أعضائها من يهود ألمانيا، وثلاثة من يهود روسيا. واعتلى رئاسة المنظمة أوتو واربورغ الذي كان يعتبر من رجالات التيار الجديد المعروف بالصهيونية المركبة؛ وكان وايزمن (الدكتور في الكيمياء) هو الذي أطلق هذه الصهيونية منذ المؤتمر الثامن الذي عقد في لاهاي سنة ١٩٠٧. فقد وجد حلا كيميائيا تركيبيا للخلافات السياسية بين الفرقاء، وأطلق تسمية «الصهيونية المركبة»، اي الصهيونية الجامعة للتيارين المتشاحنين، «السياسي» و«العملي»، وكذلك الجامعة للتيارات الأخرى، كالتيار «الثقافي ــ الروحاني».

لا يبدو ان وايزمن كان مهتما، حقيقة، بإنهاء المشاحنات السياسية بين الفرقاء. إذ استمرت هذه المشاحنات في العقد الثاني من القرن العشرين، وهو العقد الذي سيشهد صعودا في دبلوماسية وايزمن العلنية والسرية، وكأن هيرتسل ما زال حيا.[٤٧٠]

كانت مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى فرصة أمام «العمليين» لإثبات نجاحهم في فلسطين، غير انهم لم ينجحوا إلّا بنسبة ضئيلة جدا (وهذا ما سنعالجه في القسم الأخير). وقد انتقد نورداو بشدة أساليب العمل في الحركة الصهيونية، فكتب معقبا على المؤتمر الحادي عشر (عقد في فيينا سنة ١٩١٣) بقوله ان هذا المؤتمر قد شهد انتصار «المحترفين الصغار» من «أحباء صهيون» في روسيا وحلفائهم في برلين، وهؤلاء ضربوا الصهيونية التي كان هيرتسل قد أخرجها من إطار الكنيس والاجتهادات الدينية، ثم صاغها على شكل حركة سياسية، فحوّلوها الى مشروع استيطاني خاص، بائس وجبان.[٤٧١]

ولعلّ أنصار الاتجاه الصهيوني الثقافي كانوا أكثر الصهاينة شعورا بتحقيق شعاراتهم،

---

(٤٦٩) Laqueur, *op.cit.*, p. 139.

(٤٧٠) راجع:

Ibid, pp. 148-150

(٤٧١) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٨٨.

ولو نظريا؛ إذ قرّر المؤتمر العاشر اللغة العبرية لغة رسمية للصهيونية، وقرر تكثيف تعليمها في الشتات؛[٤٧٢] كما قرر المؤتمر الحادي عشر مبدأ إنشاء جامعة عبرية في القدس. وعندما أُقرت خطة الإنشاء على جبل سكوبس (سنة ١٩١٣)، أعلن آحاد هاعام «ان اهمية إنشاء حامعة واحدة تضاهي إنشاء مائة مستعمرة.»[٤٧٣]

ان إلقاء نظرة شاملة على التطورات في القيادة الصهيونية منذ وفاة هيرتسل حتى نشوب الحرب الكبرى، يؤدي الى ما يلي: ربما كان متوقعا ان تؤدي وفاة الزعيم «السياسي» الى تقوية خصومه «العمليين»، بعد ان اصبح في إمكانهم السيطرة بقوة أكثر على السياسة الصهيونية مع غياب خصمهم اللدود. لكن التطورات لم تكن هكذا؛ فلا «العمليون» سيطروا، او تمكّنوا من فرض الحل بأساليبهم العملية، ولا «السياسيون» تمكنوا من النجاح حيث فشل زعيمهم هيرتسل.

كان لا بد من الانتظار حتى يتم تحقيق المعجزة. وعندما اندلعت الحرب الكبرى، كان واضحا ان خريطة الشرق الأوسط ستحتاج الى رسم جديد، كما كان واضحا ان المعجزة المنتظرة ستتحقق بأسرع من كل التوقعات.

تاسعا: التيارات والأحزاب السياسية

لمّا كان هيرتسل قطبا وزعيما ديناميا في بني قومه، كان له الأنصار والأتباع المخلصون، كما كان ضدّه الخصوم والمعارضون؛ ومن موقع المعارضة لهيرتسل، نشأت الأحزاب السياسية الأولى، وهي في حقيقتها تجسيد لثلاثة تيارات: التيار الديمقراطي العلماني، والتيار الديني، والتيار الاشتراكي.

أ ــ التيار الديمقراطي العلماني

برز أول تكتل معارض لسياسة هيرتسل في وسط الطلاب الجامعيين اليهود الروس في أوروبا. وقد انطلقت معارضتهم من واقع التناقضات بين مفاهيمهم الصهيونية والمفاهيم الصهيونية لليهود الغربيين الذين كان يمثلهم هيرتسل ورفاقه، أمثال نورداو.

كتب وايزمن، احد هؤلاء الطلاب الروس، في مذكراته ــ فيما بعد ــ عن أهداف هذا التكتل

Sachar, *op.cit*, p 66. (٤٧٢)

Laqueur, *op.cit*, p 152. (٤٧٣)

قائلا انه كان يجتمع ـ بداية ـ سبعة طلاب في سويسرا، ولما أعلنوا تكتلهم باسم «جمعية الفجر»، كانوا يعلنون في الواقع ولادة أول جمعية معارضة؛ فهبّت البورجوازية الرجعية لمقاومتهم وإخضاعهم، مما دعا هؤلاء الى عقد مؤتمر عام للطلاب والجامعيين اليهود في سويسرا سنة ١٩٠١، وأصبحوا يعرفون باسم الكتلة الصهيونية الديمقراطية.

لم يكن هؤلاء الطلاب ثوريّين، كما انهم لم يكونوا رجعيين. كانوا شبانا أكاديميين، لا يملكون قوة سياسية، لكنهم يملكون رؤية محددة للصهيونية (٤٧٤)

ثم يتضح ان وايزمن ورفاقه كانوا ـ في تلك المرحلة ـ يعرفون جيدا ما لا يريدونه في صهيونية هيرتسل، اكثر مما كانوا يعرفون ما يريدون هم؟ وكيف السبيل الى ما يريدون؟ كانوا مطمئنّين الى ان هيرتسل لا سبيل له الى قلب الحركة الطالبية الروسية، او الى قلب المجتمعات اليهودية الروسية. (٤٧٥)

عارض هؤلاء ملاحقة هيرتسل للملوك والأمراء، وعارضوا يمينيته على الرغم من انهم ليسوا يساريين، ولم يعجبهم اتكاؤه على رجال الدين. وانتقدوا انتقاد هيرتسل لأسلوب «الإحسان» من أثرياء اليهود الى فقرائهم، وقالوا انه سلك الدرب نفسه، وإنْ يكن الاحسان الذي يقوم به على مستوى أعلى، لكنه إحسان في كل حال. فالمسألة بالنسبة اليه، أيضا، مسألة يهود أثرياء ويهود فقراء؛ فهو يأخذ من مال الأثرياء للسلطان، من أجل السماح لفقراء اليهود بالذهاب الى فلسطين. (٤٧٦)

شرح وايزمن الخلاف الجذري بين اليهود الروس ويهود غرب أوروبا، بقوله: «ان صهيونية الغربيين بدت بالنسبة الينا ميكانيكية. فهي من منطلق المفهوم الاجتماعي، قائمة على فكرة مجردة، لا جذور لها في تقاليد الشعب اليهودي وعواطفه.»(٤٧٧)

أعلنت الكتلة الصهيونية الديمقراطية في برنامجها: «ان تحرير الأمة اليهودية يهدف الى بعث الشعب اليهودي، وبنائه مجددا كوحدة عضوية، تكون مؤهلة عند تجديد شبابها لتطوير مواهبها الأصلية الحقيقية، وخلق قيم تربوية واجتماعية قيّمة.»(٤٧٨)

---

(٤٧٤) Weizmann, *op.cit*, pp 70-72

(٤٧٥) *Ibid.*, p 72.

(٤٧٦) *Ibid.*, pp. 62, 72-73.

(٤٧٧) *Ibid*, p 74.

(٤٧٨) صبري حريس، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٧٩.

وطالبت الكتلة القيادة الصهيونية بالمناخ الديمقراطي، وحق الصهيونيين في إنشاء الأحزاب السياسية.[479]

لمّا عقد المؤتمر الصهيوني الخامس في بازل في سويسرا سنة ١٩٠١، كان قد سبقه بأيام عقد المؤتمر العام للطلاب والجامعيين الروس، وإعلان ولادة الكتلة الصهيوبية الديمقراطية. وكان متوقعا ان يهاجم هيرتسل وجماعته الكتلة الجديدة، غير ان الهجوم كان أيصا من الاتجاهات الأخرى، العملية والدينية: فـ«العمليون»، وكانوا أيصا من الروس، وبزعامة أوسشكين، خافوا من ردة الفعل في روسيا؛ «والمتدينون»، أعلنوا سخطهم على شعارات العلمنة التي رفعتها الكتلة.[480]

ب ـ التيار الديني

لم يتمثل التيار الصهيوني الديني الذي يعترف بالقومية اليهودية، في كل المؤتمرات الصهيونية الأولى، إلاّ بأقلية، لكنها أقلية فاعلة. وكان الحاخام صموئيل موهي ليفي من ابرر قادة هذا التيار؛ فهو عالِم تلمودي اتجه نحو «العمليين» بسبب الاضطهاد الذي لاقاه يهود روسيا في أوائل الثمانينات، ثم اصبح من أنصار حركة «أحباء صهيون». ولمّا قام هيرتسل ورفاقه العلمانيون تعاون معهم أيضا، وهو مقتنع بإمكان التأثير فيهم لمراعاة الأمور الدينية.

أنشأ موهي ليفي منذ سنة ١٨٩٣ جمعية سمّاها «المركز الروحاني»، او «مزراحي».[481] ثم تحوّلت هذه الجمعية الى حركة سياسية ضمن الحركة الصهيونية، بفضل الحاخام اسحق يعقوب راينس، الذي كان يتمتع بشخصية نادرة. وقد انطلق مع «أحباء صهيون»، ثم انتقل الى فلك هيرتسل، وكان له الفضل في إدخال الدراسات العلمانية الى جانب الدينية في بعض الأماكن في روسيا.

ترأس راينس مؤتمرا للصهيونيين المتديين الروس في فيلنا، في شباط/فبراير ١٩٠٢، وأعلن فيه إعادة تنظيم «مزراحي» كعصبة داخل إطار الحركة الصهيونية، ووفق مقررات مؤتمر بازل.[482]

رفعت «مزراحي» شعار: «ارض اسرائيل لشعب اسرائيل بموجب توراة اسرائيل»، وبشّر

(٤٧٩) المصدر نفسه.

(٤٨٠) المصدر نفسه، ص ١٨٠ ــ ١٨١

(٤٨١) كلمة «مزراحي» اختصار لكلمة «المركز الروحاني» (Merkaz Ruchani)

(٤٨٢) Sachar, *op.cit.*, p. 67.

راينس، في كتبه الدينية الفلسفية، بخلاص مزدوج لأرض اسرائيل وللروح اليهودية. غير ان أيا من الخلاصين لا يتمّ إلّا من خــلال قواعد المعتقدات الصارمة.

حتى الحرب الكبرى، لم يشارك حزب «مزراحي» بأكثر من اثني عشر ممثلا في المؤتمرات الصهيونية. غير ان ميدان تأثيرهم الأكبر كان في كونهم قد جعلوا الصهيونية الحديثة مستساغة ومقبولة من العناصر التقليدية بين اليهود؛ فلولا «مزراحي» لوجد هؤلاء التقليديـون انفسهم معزولين، من قبل العلمانيين، ومن قبل الاشتراكيين معا.(٤٨٣) وعندما قامت إشكالية بين الثقافة القومية التقدمية التي يرفـع لواءها آحاد هاعام، وبين الثقافة القومية الدينية التي ينادي حزب «مزراحي» بها، قرّر المؤتمر الثاني للصهيونيين الروس في مدينة مينسك، في أيلول/سبتمبر ١٩٠٢، برنامـج كل من التيارين الثقافيين المتعارضين، وتأليف لجنة مستقلة لكل منهما.(٤٨٤)

ج ــ التيار الاشتراكي

مـع بدايات عهد التصنيـع في روسيا، عانى اليهود نتيجة المتغيّرات الاقتصادية، كما عانوا من جراء اضطهاد القياصرة. وفي تلك الأوضاع القاهرة التي أحاطت بهم في أوروبا الشرقية، بصورة عامة، نبتت جذور «الصهيونية العمالية».

ورد في الاحصاءات الروسية لسنة ١٨٩٧ ان نصف اليهود قد أصبحوا من العمال في قطاعات النسيـج والتعدين والبناء، وفي صناعات اخرى خفيفة. إلّا ان معظم هؤلاء العمال كان هامشيا في احسن الحالات مما دفـع بالعمال اليهود وعائلاتهم الى الاشتراكية، ملاذا وملجأ لهم.

كانت اللغة الروسية في المرحلة الأولى، وحدها لغة الاشتراكيين. ولم يكن هناك ما يميّز الاشتراكي اليهودي من الروسي، حتى ظهر حزب البوند، وهو الحزب اليهودي الاشتـراكي الديمقراطي، عقب مؤتمر بازل سنة ١٨٩٧؛ فقد تجمـع اليهود الاشتراكيون في مؤتمر سري عقدوه في فيلنا، وأسسوا حزبهم الذي اصبـح الآلية التي يناضلون من خلالها طبقيا، وكذلك من أجل حقوق طائفتهم اليهودية.

رأى يهود أوروبا الشرقية (وأكبر تجمعاتهم في روسيا وبولونيا وليتوانيا) في حزب «البوند» ذلك الحزب الثوري الاشتراكي الذي سيحلّ مشكلة الهوية اليهودية المستعصية، بإيصال اليهود الى درجة

---

(٤٨٣) *Ibid.*, p. 67

(٤٨٤) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٨٢.

الاعتراف بهم جماعة قومية، لها خصائصها الإثنية، ولها تراثها، ولها لغتها القومية، وهي اليديش [٤٨٥]

عندما عقد المؤتمر الروسي الاشتراكي الديمقراطي الثاني سنة ١٩٠٣، كان نصف أعضائه من اليهود. وخلال مرحلة تعاظم المدّ الثوري في روسيا (١٩٠٤ ـ ١٩٠٦)، كان ثلاثون ألف يهودي أعضاء في «البوند»، وغيرهم بعشرات الآلاف كانوا مناصرين. [٤٨٦]

تتلخّص نظرة اليهود الاشتراكيين الى الصهيونية في كونها نوعا من البورجوازية اليوتوبية؛ [٤٨٧] فهي تعتمد على الارادة الطيبة من السلطان التركي الرجعي، ومن الحكومات اليمينية، ومن اليهود الرأسماليين. والأسوأ من هذا كله، في رأيهم، تجاهل الصهيونية لتطلعات اليهود الروس السياسية والاقتصادية.

كان من الطبيعي ان يكون التنافس شديدا بين اليهود الروس «الاشتراكيين»، وأبناء قومهم اليهود الروس «الديمقراطيين»، كتلة وايزمن ورفاقه؛ وفي هذا المجال، كان وايزمن اقرب الى هيرتسل منه الى «الاشتراكيين». وفي رسالة منه الى هيرتسل، في ٦ أيار/مايو ١٩٠٣، شكا وايزمن سرعة نمو الراديكالية في شبيبة اليهود الروس، كما اعترف في هذه الرسالة بأن اقسى أنواع الصراع الذي تخوضه كتلته، هو ضد «اليهود الاشتراكيين الديمقراطيين». [٤٨٨]

جرت محاولات جدية لرأب الصدع بين الصهيونية والاشتراكية، كان أولها بواسطة نخمان سيركين، وهو يهودي روسي؛ وكان لا يزال طالبا في جامعة برلين. عندما أعلن أمام جمع من الصهيونيين في زوريخ سنة ١٨٩٨، نهجه التوفيقي. ثم نشر آراءه في كتاب بعنوان «المسألة اليهودية ودولة اليهود الاشتراكية». وأهمّ ما جاء فيه، ان الاشتراكية لن تحل المشكلة اليهودية إلّا في المستقبل البعيد. ولم يختلف سيركين قط عن بنسكر وهيرتسل عندما اصرّ على ان معاداة السامية هي احدى حقائق الحياة التي لا يمكن الشفاء منها بالتطور الاشتراكي الطبيعي. ولم يبشر سيركين قط بإمكان الوصول الى حل عن طريق الصراع الطبقي؛ لذلك، وإزاء «الحائط المسدود»، فهو لم يجد إلّا الدولة اليهودية جوابا حاسما على اضطهاد اليهود.

---

(٤٨٥) Sachar, *op cit*, pp. 67-68

(٤٨٦) *Ibid*, p 68.

(٤٨٧) «اليوتوبية» كلمة في الفكر السياسي والاجتماعي تعني الرغبة في خلق المجتمع المثالي، وقد باتت تستعمل في الانكليزية Utopianism مرادفة لكل ما هو مثالي او خيالي يتعذر تطبيقه. ويرجع أصلها الى Utopia، الاسم الذي أطلقه السير توماس مور في كتابه سنة ١٥١٦ على جزيرة وهمية، بنى عليها مجتمعه الفاضل.

(٤٨٨) Sachar, *op cit.*, p. 68.

على الرغم من الشعب الذي كان يحدثه سيركين في المؤتمرات الصهيونية في عهد هيرتسل، ومن نجاحه في خطف الأضواء لمرحلة، فان نجمه قد خبا سريعا بتأييده المطلق لمشروع أوغندا.[٤٨٩]

يسهل وصف نهج سيركين بكلمة واحدة هي الانتهازية؛ فهو أراد الصهيونية جسرا للوصول الى الدولة، ثم تصبح الدولة هي الجسر الى الاشتراكية ومع ذلك. تبقى اهمية سيركين، في تلك المرحلة، انه كان أول من بدأ المحاولة التوفيقية بين الصهيونيين والاشتراكيين. إلّا انه، وفي المرحلة نفسها تقريبا، قامت جماعات عمالية منعزلة في روسيا، تعمل بتقاطع بعضها مع بعض، باسم «بوعالي تسيون»، ومعناها «عمال صهيون».

نشأت خلايا «بوعالي تسيون» بصورة شبه تلقائية في العديد من الأوساط العمالية. وقد اختلفت في نظرة كل منها الى ازمة المصير، والى طبيعة العلاقات بين الصهيونية والاشتراكية، حتى ظهر بينها أول زعيم مفكر في مدينة بولتافا الروسية، وهي المدينة التي كانت تعتبر شبه منفى للثوريين، وتضم اقوى فرع عمّالي؛ ففي هذه المدينة ــ المنفى صاغ بوروخوف نظريته المتميزة في الصهيونية الماركسية.

كان بوروخوف شابا في الخامسة والعشرين، وقد طرد من الحزب الاشتراكي الديمقراطي بسبب «انحرافه الصهيوني»، عندما عرض نظريته أول مرة سنة ١٩٠٥ في محاضرة بعنوان «المسألة القومية والصراع الطبقي»، فتلقفها رفاقه كأنها التوراة.

استعمل بوروخوف، في عرض نظريته، المصطلحات المادية الديالكتية، ولم يخرج قط عن الصيغ والتعابير الماركسية. لكنه في النهاية ناقض الماركسية التي تبناها عقيدة وأسلوب نضال، عندما توصّل الى ان اليهود كشعب بلا ارض، هم غير مؤهلين للتكيف، بصورة فعّالة، إزاء نظام اقتصادي اجنبي. ويقول بوروخوف ان البورجوازية اليهودية تأقلمت، إلّا ان البروليتاريا اليهودية لا تستطيع ذلك، لأنها بروليتاريا رثة، وهامشية، ومرفوضة في مجتمعاتها؛ فهي لا تعمل إلّا في الصناعات الثانوية والبعيدة عن الموارد الطبيعية وأدوات الصناعة الثقيلة؛ وهي، نتيجة ذلك، غير قادرة على تنظيم نفسها ضد مستغلّيها.

والحلّ، في رأي بوروخوف، يكمن في هجرة اليهود للسكن على ارض تخصّهم وحدهم، حيث يمكن للطبقة العاملة ان تتطوّر في أوضاع طبيعية. ومن هذه القاعدة، فقط، يستطيع اليهود ان يناضلوا طبقيا وأن يحققوا ثورتهم الاشتراكية.[٤٩٠]

---

(٤٨٩) *Ibid.*, pp 68-69.

(٤٩٠) *Ibid.*, p. 70

لم يبرّر بوروخوف اختيار فلسطين من منطلقات دينية أو رومانسية او تاريخية، بل من منطلقات ماركسية محضة؛ اذ قال ان المطلوب ارض يستطيع اليهود فيها ان يلجوا بحرية كل أبواب الاقتصاد، وأن يشارك عمالهم في كل الصناعات الأساسية، وفي الزراعة؛ فالأرض يجب ان تكون نصف زراعية، وأن يكون عدد سكانها ضئيلا، وبلد كهذا هو في الحقيقة: فلسطين

فلسطين وحدها ــ كما يرى بوروخوف ــ بلد ينقصه التراث القومي الخاص به. وفقط في فلسطين، وفي خطّين متوازيين، ينمو الاستقلال الاقتصادي اليهودي، وينمو معه في الخط المتوازي الآخر، الاستقلال السياسي اليهودي.[٤٩١]

نظرت البروليتاريا اليهودية، في أول القرن العشرين، الى بوروخوف نظرتها الى عبقري ابتكر نظرية خاصة، وطورها، عن الماركسية، بطريقة الاستنتاج، وحتى بالطريقة الحسابية. ونظر جيل كامل اليه على انه «المعلم»؛ فهو الذي تمكّن من جعل الصهيونية محترمة عقلانيا في الشبيبة اليهودية الاشتراكية. وكان من أبناء ذلك الجيل المعجب ببوروخوف، بن تسفي (الرئيس الثاني لاسرائيل).

هاجر بوروخوف الى الولايات المتحدة في إثر أحداث سنة ١٩٠٥، وهناك كتب عن مشاركة كل «الجماعات اليهودية» في الصهيونية، وكتب عن فلسطين أنها الوطن للشعب اليهودي قاطبة، وأصبح يستعمل التعبير التقليدي: «ارض اسرائيل»، كما اصبح يستعمل تعبير «الجماهير اليهودية» عوضا من «البروليتاريا».[٤٩٢]

هاجر عدد من الشبان اليهود الروس الاشتراكيون، مع موجة الهجرة الثانية، الى فلسطين، وأسسوا فيها نواة التنظيمات الاشتراكية بين اليهود (وهذا ما سنعالجه في القسم الأخير).

كان هيرتسل، في اوج زعامته، لا يرى للأحزاب السياسية اية اهمية، سوى أنها عائق في مرحلة الوحدة الأولى . إلّا انه اضطر أخيرا، في المؤتمر الصهيوني الخامس الذي عقد في بازل سنة ١٩٠١، الى إجراء تعديلات في هيكلية المنظمة، بشأن الأحزاب او التنظيمات السياسية المستقلة؛ فبات يحقّ لكل مجموعة من الجمعيات الصهيونية تبيع خمسة آلاف شيكل على الأقل، ان تقيم اتحادا صهيونيا مستقلا، له حق الاتصال المباشر باللجنة التنفيذية. وقد كانت المنظمة، قبل هذه التعديلات، تكتفي بمركز إقليمي صهيوني واحد في كل دولة، حيث يقوم هذا المركز بتمثيل كل الصهيونيين في هذه الدولة.[٤٩٣]

---

(٤٩١) *Ibid*

(٤٩٢) *Ibid.*, pp 70-71; G. Kressel, «Borochov, Ber,» *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol I, pp. 150-151.

(٤٩٣) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٨٤

القسم الخامس

فلسطين ووعد بلفور

الفصل الأول
اليهود في فلسطين

أولا: يهود فلسطين:
«الييشوف القديم»

يعرف يهود فلسطين بالعبرية باسم «ييشوف». ومنذ توافد الهجرات اليهودية من روسيا وسواها، ولا سيّما منذ سنة ١٨٨٢، اصبح يهود فلسطين يعرفون باسم «الييشوف القديم»، تمييزا لهم من «الييشوف الجديد».

منذ القرن الثاني للميلاد، كان عدد اليهود في فلسطين ضئيلا في مرحلة ما، وضئيلا جدا في مراحل اخرى. فمنذ نكّل هدريان باليهود، ومنعهم من دخول أورشليم سنة ١٣٥م،[١] تشتّت اليهود، لكنهم أينما تفرقوا واستقروا عاشوا كجماعات دينية، محتفظة بخصائص متعددة للجماعات الاثنيّة. ومما لا شك فيه ان أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية كانت متفاوتة، وفقا للزمان والمكان. غير انهم ــ وبنسبة متوافقة مع عزلتهم وتعاستهم ــ كان يغلب عليهم الشعور بأنهم أقليات ثانوية. وكلما اشتدت المحن بهم، قادهم الحنين والذكريات الى «ارض اسرائيل»: ارض الأجداد.

عبّر اليهود في الشتات عن حنينهم الى ارض فلسطين بالحج، وكان بعضهم يختار البقاء لتمضية بقية عمره في حياة دينية وصلوات، انتظارا للمسيح المنتظر، وتحقيقا للأمنية بأن يُدفن هناك.

بقي عدد ضئيل من اليهود مقيما في فلسطين في عهد هدريان، على الرغم من بطشه بهم. وكان هؤلاء يعتبرون الحكم الروماني كابوسا عليهم حتى حرّرهم منه العرب المسلمون. ولا ينكر العقلاء من المؤرخين الأجانب واليهود هذه الحقيقة، وإنْ جاء اعترافهم بها في جمل خاطفة، كما ورد

---

(١) راجع أعلاه: «هـ ــ نهاية اليهود على يد الرومان» ــ البند رابعا ــ الفصل الثاني ــ القسم الأول.

في «الأنسيكلوبيديا اليهودية»: «كانت المرحلة الأولى من الفتوحات العربية (٦٣٨ ــ ١١٠٠) خلاصا ليهود حبرون (الخليل)، كما لبقية اليهود في فلسطين، في إثر العهد البيزنطي الظالم.»[٢]

وكما ورد في كتاب غوردون الصادر سنة ١٩١٩، في وصفه استقبال يهود فلسطين للعرب المسلمين: «لقد استقبلوهم كمحرّرين لهم من النير الذي اخضعهم له الحكام المسيحيون [البيزنطيون] لسوريا...»، وفي قوله عن عمر بن الخطاب: «لقد فتح أبواب القدس لليهود الذين كانوا يمنعون من دخول المدينة المقدسة مع جزاء الموت من قبل الحكام البيزنطيين؛ ومَنَحَهم حقّ التنقل من دون انزعاج من اقصى فلسطين الى أقصاها؛ وأصدر أمرا اصبح اليهود بموجبه يتمتّعون بحقوق متساوية مع المسيحيين، وقد كان على كل من الفريقين ان يدفع المقدار نفسه من الجزية سنويا.»[٣]

ليست أحداث التاريخ غايتنا في هذه المحطة، وإنما غايتنا التوصل الى الحقيقة التالية: ان اليهود لم يُضطهدوا يوما في فلسطين من قبل العرب المسلمين الذين أصبحوا يؤلفون الأغلبية من سكان البلاد عبر ثلاثة عشر قرنا. وتعترف «أنسيكلوبيديا المعارف اليهودية» الصادرة سنة ١٩٤٦، اي قبل قيام «اسرائيل»، بأن «العرب أصبحوا، منذ عهد عمر، الأغلبية من سكان فلسطين.»[٤]

ومرة ثانية، يتحرّر اليهود في عهد صلاح الدين الأيوبي من نير الافرنج الصليبيين الذين ساموا الفريقين معا، المسلمين واليهود، سوء المصير.

استمرّ اليهود في حياتهم المعتادة في فلسطين بأمان، في عهود الأيوبيين والمماليك والعثمانيين. وقد استقبلت فلسطين أفواجا من اليهود المضطهدين في إسبانيا والبرتغال، كما استقبلتهم الدولة العثمانية في كل أراضيها، وباتوا من رعاياها، ومشمولين برعايتها. ولّما كانت أعداد القادمين من يهود إسبانيا، اي السفاراديم، كبيرة بالنسبة الى يهود فلسطين، فقد تمكن القادمون الجدد من استيعاب اليهود المحليين، ومن نشر لغتهم اللادينو بينهم. وهكذا، اصبح، منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر، يُشار الى يهود فلسطين جميعا بالسفاراديم

دعا الحاخام الاسباني بيراب (١٤٧٤ ــ ١٥٤٦)، منذ وصوله الى فلسطين، الى إنشاء سلطة دينية عليا لليهود في البلاد، فلم ينجح. أما رجل المال والمصارف وصاحب الحظوة لدى البلاط

(٢) Efraim Orni, «Hebron. Arab Conquest,» *Encyclopaedia Judaica,* Vol. 8, p. 228.

(٣) Benjamin L. Gordon, *New Judea: Jewish Life in Modern Palestine and Egypt* (Philadelphia: Julius H. Greenstone, 1919), pp. 201-202.

(٤) *The Encyclopedia of Jewish Knowledge,* p. 412.

العثماني، جـوزف ناسي، فقد تمكن من الحصول على منطقة قرب طبريا، أسكن فيها بعض المهاجرين منذ سنة ١٥٦٥، وكانوا يقومون بصناعة النسيـج.(٥) وأصبـح السفاراديم، منذ القرن السابـع عشر، ينتخبون حاخاما رئيسا لهم يعرف باسم «ريشون لتسيون»، ومعناها «الأول في صهيون».(٦)

ونتيجة طموحات محمد علي الكبير في التوسـع، والحروب التي اضطرت الدولة العثمانية الى خوضها ضده في الثلاثينات من القرن التاسـع عشر، والتي نجم عنها احتلال ابنه ابراهيم باشا لسوريا ولبنان وفلسطين، تنبّه السلطان محمود الثاني للأخطار الداخلية، وهذا فضلا عن الأخطار الخارجية المتجسّدة بأطماع الدول الكبرى. وكان لا بد من إصلاحات داخلية درءا للخطرين معا؛ فصدرت القوانين الاصلاحية الشهيرة بالتنظيمات في مطلـع عهد ولده السلطان عبد المجيد، وعرفت بخط كلخانـه لسنـة ١٨٣٩. وأبـرز مـا في هـذه التنـظيمـات الأولى: إقـرار المسـاواة بـين الرعايا، واعتراف الدولة بحقوق الأفراد وحرياتهم على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وأجناسهم ولغاتهم. ومن البديهيات، ان هذه التنظيمات قد شملت اليهود، كما شملت سواهم.

منحت الحكومة العثمانية الحاخام الأكبر سنة ١٨٤٢ منصبا رسميا، كما منحته صلاحية إصدار الأحكام القضائية في المنازعات بين اليهود، وصلاحية اختيار معاونيه من القضاة اليهود، وأصبحت له صفة رسمية كالمسؤولين الكبار في القدس، كما اصبـح يمثّل الطائفة اليهودية في كل العلاقات بالطوائف المسيحية. وقد وضـع له العثمانيـون مكتبا الى جـانب مكاتب الـرؤساء الـروحيين المسيحيين.(٧)

لمّا اندلعت حرب القرم بين تركيا وروسيا سنة ١٨٥٤، كان النزاع قد اشتد بشأن التصرف في الأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم، بين الإكليروس اللاتيني وكهنة الروم الأورثوذكس؛ وبينما كانت فرنسا تدعم الطائفة الأولى، كانت روسيا تدعم الثانية. ولّما خشيت أوروبا تفاقم الحرب لمصلحة روسيا، قامت دول إنكلترا وفرنسا وبروسيا (الألمانية) والسافوا (الايطالية) تخوض الحرب ضد روسيا. فقد كان من الأفضل لأوروبا، في تلك المرحلة، الابقاء على وحدة الامبراطورية العثمانية واستقلالها. ومن هذا المنطلق، اعترفت معاهدة الصلـح في باريس سنة ١٨٥٦ (وهي

(٥) Maxime Rodinson, *Cult, Ghetto, and State. The Persistence of the Jewish People.* Translated by Jon Rotschild (London: Al Saqi Books, 1983), p 142.

(٦) Arnold Blumberg, *Zion before Zionism 1838-1880* (Syracuse — New York: Syracuse University Press, 1985), pp 25-26.

(٧) *Ibid.*, p 27.

المعاهدة بين الدول الأوروبية المتحاربة من جهة، وروسيا من جهة ثانية) بأن تركيا اصبحت عضواً في الجامعة الدولية الخاضعة للقانون الدولي؛ وهذا مؤداه احترام استقلال الامبراطورية العثمانية وسلامة أراضيها.

كانت المسألة الشرقية إذاً، في منتصف القرن التاسع عشر، تقتضي من الدول الأوروبية، حفاظا على مصالحها، الابقاء على وحدة الأراضي العثمانية لا تمزيقهـا كما فعلت بعد ستّين عاما.

وبادرت الدولة العثمانية من جانبها، وهي تبغي إظهار حسن نياتها تجاه المسيحيين، الى إصدار الخط الهمايوني الشهير سنة ١٨٥٦؛ وهو القانون الذي يحدّد حقوق الطوائف المسيحية، ويقرّ لكل طائفة بحقها في الحياة الطائفية المستقلة، وفي إصدار قوانينها الطائفية الخاصة بها، في ظل الدولة.

وقد كانت هذه التنظيمات الجديدة بداية عهد جديد في فلسطين، اشتدت فيه سطوة القناصل الأجانب بحجة حماية الأقليات الطائفية، وكثرت فيه الإرساليات الأجنبية التبشيرية، والبعثات الاستكشافية، كما مرّ معنا سابقا. أما ابرز ما في نظام الامتيازات الأجنبية الجديد هذا، فهو انه بات يضمن للمقيمين من أصحاب الجنسيات الأوروبية نوعا من الحصانة القانونية والمادية، برعاية قناصلهم.(٨)

كان للتنظيمات العثمانية أيضا اثر بارز في الطائفة اليهودية في فلسطين؛ فقد تسرّب الكثيرون من يهود أوروبا المعروفون بالاشكنازيم، بحماية القنصليات الأجنبية. ولا يبدو ان تسرّب هؤلاء كان لافتا للنظر في المرحلة الأولى، إلاّ بين يهود فلسطين الذين كانوا من السفاراديم، والذين لم يرحبوا قط بالقادمين الجدد. وربما لم تظهر المشكلات في البداية لكثرة عدد السفاراديم، لكن مع تزايد عدد الاشكنازيم بالتدريج، كانت المشكلات تكبر، ولا سيّما ان الدولة كانت تعترف بالحاخام الأكبر من جماعة السفاراديم، من دون سواه.

كان السفاراديم في معظمهم فقراء. وكانوا يسكنون المدن، وخصوصا تلك المدن التي يعتبرها اليهود مقدسة عبر تاريخهم في فلسطين، وهي القدس وطبريا وصفد والخليل. وكانوا يعيشون بصورة رئيسية على الصدقات التي تأتيهم من الخارج، وعلى الأثرياء المتصدّقين. ولم يجد السير موسى مونتفيوري الذي زار فلسطين سنة ١٨٢٧، بين دان (تل القاضي) في شمال فلسطين وبين بئر السبع في جنوبها، أكثر من خمسمائة يهودي في أوضاع مريعة من الفقر والانحطاط.(٩)

---

(٨) Howard M. Sachar, *A History of Israel: From the Rise of Zionism to our Time* (New York Alfred A Knopf, 1982), p. 23.

(٩) Frank G. Jannaway, *Palestine and the Jews; or the Zionist Movement an Evidence that the Messiah will soon appear in Jerusalem to rule the Whole World therefrom* (Birmingham: C C. Walker, 1914), pp 8-9

روى جَنَويه في كتابه الصادر سنة ١٩١٤، عن الفرح الطاغي بين اليهود بصدور التنظيمات العثمانية سنة ١٨٥٦، اذ اعتبر هذا «الفرمان» العثماني دعوة لليهود قاطبة الى العودة، وردًا على امر هدريان منذ سبعة عشر قرنا. أما مونتفيوري الذي احزنه جدا وضع اليهود المزري في أثناء زيارته، فقد طلب من الباب العالي الإذن في تشييد عدد من الملاجىء لهؤلاء التعساء، حيث يمضون بقية عمرهم في سلام. وحصل على الإذن سنة ١٨٣٨، إلّا ان الأبنية لم تتمّ قبل سنة ١٨٥٦، وقد شيدت خارج حائط المدينة الجنوبي الغربي، وكانت عبارة عن سبعة وعشرين كوخا، يتألف الواحد منها من غرفتين، بالاضافة الى طاحونة هوائية لطحن الذرة.(١٠)

لم ينحصر عذاب هؤلاء اليهود بالفقر، وبانتظار أكواخ السير مونتفيوري وصدقاته؛ فقد ادّت الهزة الأرضية التي ضربت منطقة الجليل سنة ١٨٣٧ الى تدمير طبريا وصفد، وموت الآلاف، وهجرة الذين تمكنوا من الهرب الى ضواحي القدس.(١١)

لم تطرأ تغيّرات ملموسة على أوضاع الييشوف القديم في القرن التاسع عشر. وكان معظم أفراد هذا الييشوف من المتدينين الذين يمضون عمرهم في الصلاة والعبادة معتمدين على «الحالوكاه»، وهي الصدقات من أثرياء اليهود. وحتى سنة ١٨٦٠ كانت أموال الصدقات تصل الى ثلث المدخول العام ألاجمالي للييشوف القديم في فلسطين عامة، والى نصف مدخول ييشوف القدس خاصة. لقد انصرفت قلّة من اليهود الى الأعمال اليدوية، والى التجارة، كعمل دائم؛ فمن مجموع ستة آلاف يهودي، ورد انهم كانوا يسكنون القدس سنة ١٨٥٦، لم يكن هناك أكثر من مائة وخمسين حرفيا يدويا، وسبعة وأربعين تاجرا.(١٢)

اخذت الأوضاع الاقتصادية بالتحسّن الملموس منذ شقّ الطريق الأولى في الجبال بين يافا والقدس، سنة ١٨٦٩، ومنذ تزايد عدد البعثات المسيحية التي ساهم أعضاؤها في الإحسان المتواصل لليهود المتدينين الفقراء، اسوة بأثرياء اليهود الأوروبيين.(١٣)

كانت بذور الخلاف متعددة بين اليهود السفاراديم، الذين كانوا الأكثرية، وبين اليهود الاشكنازيم الذين كانوا الأقلية. ثم كان الخلاف الأكبر بين «اليیشوف القديم» و«اليیشوف الجديد» الذي ابتدأت طلائعه الأولى مع سنة ١٨٨٢، اي مع الهجرة اليهودية الأولى.

---

(١٠) *Ibid.*, pp. 9-10.

(١١) Blumberg, *op.cit.*, pp. 28-29.

(١٢) Sachar, *op.cit*, p. 24.

نقل المؤلف عدد الحرفيين والتجار اليهود أعلاه عن مراقب معاصر هو لودفيغ أوغست فرانكل.

(١٣) *Ibid.*

ثانيا: القوانين العثمانية وتطبيقها

عندما ابتدأت طلائع اليهود من روسيا القيصرية تصل الى فلسطين، لم يكن هناك من مشروع سياسي صهيوني محدّد في الأفق، كما ان عدد هؤلاء المهاجرين لم يكن كبيرا على الاطلاق. ومع كل الضجة التاريخية التي رافقت الموجة الأولى من الهجرة، اي سنة ١٨٨٢، فهناك إجماع على ان الذين وصلوا فعلا الى فلسطين كانوا مئات معدودة، لا أكثر من أربعمائة مهاجر، وأما الآلاف من اليهود فقد توجهوا الى الولايات المتحدة.

نظرت الدولة العثمانية الى الطلائع المهاجرة هذه بعين الريبة، على الرغم من ضآلة عددها، وذلك لأنها قادمة من روسيا عدوّها اللدود. أمّا بعد ولادة المشروع الصهيوني، فقد كانت مخاوف الدولة تختفي أحيانا لتظهر أحيانا اخرى؛ كانت تختفي وراء ستار الدبلوماسية الحميدية ــ الهيرتسلية، لتظهر في إصدار القوانين ضد الهجرة اليهودية الى فلسطين، ثم كان الفساد في الادارة العثمانية كفيلا بحل التناقض بين هاتين السياستين.

أعلنت الحكومة العثمانية في أواخر سنة ١٨٨١ أنها تسمح بهجرة اليهود الى اي جزء من أجزاء الامبراطورية العثمانية، عدا فلسطين، شرط ان يوافق المهاجرون على استبدال جنسياتهم الأصلية بالجنسية العثمانية. واستمرت الحكومة على موقفها هذا ــ رسميا ــ حتى الحرب الكبرى. (١٤)

ادى مفهوم الامتيازات للأجانب، بالاضافة الى تكاثر القنصليات في القدس وموظّفيها، وتشابك مصالح هؤلاء جميعا اقتصاديا وتجاريا داخل البلد، الى ان تصبح كل قنصلية دائرة نفوذ كبرى تستطيع، بحكم حصانتها الدبلوماسية، والامتيازات المعترف بها قانونا بشأن حماية رعاياها الأجانب (منذ سنة ١٨٥٦)، ان تقوم بالدور الأول في تسهيل دخول اليهود الى البلد أولا، وتوفير المستعمرات لهم ثانيا.

اصبحت كل قنصلية دولة ضمن الدولة، وما كان أسهل من دخول اليهود الأوروبيين باعتبارهم مواطنين تابعين لهذه القنصلية او تلك، وما عاد من داع لتطبيق القانون العثماني المعلن، بشأن شرط التنازل عن الجنسية الأجنبية واتخاذ الجنسية العثمانية؛ فكان بقاء هؤلاء على جنسياتهم الأصلية يستمر برعاية قناصلهم، الى جانب انه امر يصعب ملاحقته قانونيا.

---

(١٤) صبري جريس، «تاريخ الصهيونية» (بيروت: مركز الأبحاث ــ منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٧٧)، الجزء الأول، ص ١٠٨.

وكذلك كان دور القناصل وموظفيهم كبيرا جدا في مرحلة الاستيطان التي تبدأ بشراء الأرض، ثم الحصول على الرخص الرسمية للانشاء وبناء المستعمرات. وقد كان عدد من هؤلاء الدبلوماسيين الأجانب ـ أصلا ـ من اليهود.

اتُبعت عدة وسائل للتحايل على القوانين العثمانية، منها وسيلة تسجيل القناصل او موظفيهم للأراضي العثمانية بأسمائهم الخاصة؛ ولم يكن في عمليات كهذه اية مخالفة للقوانين أما في المرحلة الثانية، فكانت تتم عملية «تسريب» هذه الأراضي الى الييشوف الجديد بواسطة شراء أراضٍ كانت في السابق تعتبر ممتلكات اجنبية، وقد عمدوا الى تبادل الأراضي؛ فيحصل اليهود على أراضي الأجانب هؤلاء في فلسطين، في مقابل اعطائهم أراضي من ممتلكاتهم اليهودية في الخارج، ولا سيما في روسيا. وأما الوسيلة الأخرى، فكانت أقلّ تعقيدا؛ اذ ما كان على الشاري إلاّ التقدم لشراء الأرض التي كانت الحكومة التركية نفسها تعرضها للبيع، لعجز الفلاحين العرب عن تسديد الضرائب المترتبة عليها.

وبإيجاز، فما كان يصعب النفاذ اليه عبر هذه الوسيلة او تلك، وبصورة أساسية عبر الدهاليز القنصلية، كانت الرشوة المستشرية في الدوائر العثمانية كفيلة بحلّ عقدته. لكن، مع ذلك كله، فقد كان في وسع مسؤول عثماني كبير واحد ان يحدّ من التسيّب والمخالفات القانونية الى حد كبير؛ فوالي القدس رؤوف باشا (١٨٧٦ ـ ١٨٨٨)، كان صارما ونظيف الكف، ممّا حمى سنجق القدس في عهده، فاضطر اليهود في معظم الحالات الى شراء الأراضي في منطقة الشمال، التي كانت تابعة لولاية بيروت. وقد ضغط القناصل الأجانب على الدولة السنية حتى تم استبدال الوالي الصارم الأمين.

وعلى صعيد آخر، كانت الاحتجاجات الفلسطينية تتوالى (وسنتوقف عندها في الفصل الثالث اللاحق)، ممّا جعل السلطات الرسمية تفرض القيود ثم تلغيها، وتتشدّد على تطبيق التعليمات ثم تتراخى.[(١٥)]

وفي منتصف رحلة المفاوضات الحميدية ـ الهيرتسلية، وفي غمرة الدبلوماسية الخادعة بين رجلين من الدهاة لم يفصح أحدهما للآخر عن حقيقة رأيه، جاء القانون الذي اصدره السلطان سنة ١٩٠٠ فيه الرأي الفصل:

---

(١٥) راجع بشأن الفوضى والفساد في الدوائر الرسمية: نجيب عازوري (مؤسس جامعة الوطن العربي في مطلع القرن العشرين)، «يقظة الأمة العربية»، ترجمة احمد بو ملحم (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، [١٩٧٨])

كنا شدّدنا على منع دخول الاسرائيليين الى ارض فلسطين. الموظفون تراخوا في تطبيق الأمر وأساؤوا الى تأويله، والاسرائيليون يأتون بحجة الزيارة ويستوطنون، كما أشعرنا متصرف القدس ان مكثهم لا يجوز بأي حال من الأحوال. ان مأموري الدولة مسؤولون بشدة فوق العادة على تنفيذ هذا الأمر بدقة وحتى اليهود من أتباع الدولة العلية لا يجوز لهم الاقامة بصفة دائمة

ان هذه الأوامر لا تمانع في زيارة اليهود للأراضي المقدسة منفردين كانوا او جماعات. ولكنها لا تسمح بإقامتهم الدائمة، ويجب اخذ تعهّد من القنصليات التي جاؤوا عن طريقها. وقد اتخذ هذا الأمر بقرار مجلس شورى الدولة ومجلس الوزراء. وصدر فيه إرادة سنية من الخليفة

صدر في ٥ تشرين الأول ١٣١٦ تحت رقم ٢٤٠٩ [١٦]

ابتدأت السلطات العثمانية تفرض الوثيقة الحمراء منذ سنة ١٨٨٧، في إثر اصطدامات مسلحة بين الفلاحين العرب والمهاجرين الغزاة، الذين أقدموا على طرد الفلاحين من الخضيرة وملبّس (بتاح تكفاه)، وهي وثيقة موقتة كانت تعطى لليهودي الأجنبي القادم الى فلسطين، في مقابل احتفاظ السلطات بجواز سفره، ضمانة لخروجه بعد انتهاء إقامته، وأقصاها ثلاثة اشهر.[١٧] لكن، على الرغم من ذلك، فان اليهود القادمين كانوا يستغلون الفوضى في تطبيق القوانين، فيتوزعون في فلسطين ولا يغادرونها. ومما سهّل تلك الفوضى وجود مسؤولين عثمانيين كبار، كمتصرف القدس احمد رشيد الذي عُيِّن سنة ١٩٠٤، والذي كان لا يعبأ بتنفيذ القوانين، مؤيدا هجرة اليهود علانية، ممّا ادى الى احتجاج العرب، والى اضطرار الحكومة الى عزله سنة ١٩٠٦.[١٨]

مع مطلع القرن العشرين، ومع تحوّل الهجرة اليهودية الى شركة تجارية بين البارون روتشيلد من جهة، وبين شركة الأيكا التي كان اللورد هيرش قد أنشأها من جهة اخرى، فقد اقدمت هذه الشركة (الأيكا) على فتح مكتب لها في بيروت سنة ١٩٠١، وتمكنت من شراء الأراضي في شمال فلسطين، اي المنطقة التابعة لولاية بيروت، وكان اهم ما حصلت عليه بعض ممتلكات عائلة سرسق بالقرب من طبريا.[١٩]

---

(١٦) احمد صدقي الدجاني، «عبد الحميد في التاريخ» (مخطوطة لم تنشر)، ص ٩٨ ـ ٩٩ (نقلا عن وثيقة بالتركية في دار المحفوظات التاريخية في طرابلس الغرب)

(١٧) عبد الوهاب الكيالي، «تاريخ فلسطين الحديث» (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٠)، ص ٤٨ ـ ٤٩.

(١٨) احمد صدقي الدجاني، مصدر سبق ذكره، ص ١١٠.

(١٩) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١١٠.

بلغت مساحة الأرض التي حصلت شركة أيكا عليها من آل سرسق ٣١,٥٠٠ دونم (المصدر نفسه).

يمكن تلخيص السياسة العثمانية الحميدية إزاء الاستيطان اليهودي، فالصهيوني، بأن هذه السياسة قالت «لا» واضحة باسم القانون، وعلى لسان السلطان، لكنها قالت ألف «نعم» عبر الادارات الضعيفة والمرتشية. وهذا، بالاضافة الى ان سياسة عبد الحميد نفسه، الشهيرة بالاستبداد والشدّة، كانت تحمل صفات اخرى مناقضة، هي المماطلة والتسويف؛ فعبد الحميد عبر مباحثاته مع هيرتسل لسنوات طويلة، قد اضفى على «الهجرة اليهودية الى فلسطين» أجواء من التساهل، او إمكان التساهل، وذلك على الرغم من «اللّا» التاريخية والواضحة التي قالها السلطان أولا، وقالها أخيرا.

ثالثا: الهجرة الأولى ١٨٨٢ ـ ١٩٠٤

تمتد الهجرة الأولى زمنيا عبر اثنين وعشرين عاما، ابتدأت سنة ١٨٨٢ بسبب مقتل القيصر ألكسندر الثاني، والمذابح التي حرت في إثر ذلك ضد اليهود في روسيا، بالاضافة الى الاضطهاد الذي كانوا يعانونه في روسيا ورومانيا، وفي أوروبا الشرقية عامة

قبل هذا التاريخ، كانت هجرة اليهود من روسيا تشتد في اتجاه الولايات المتحدة، تخلّصا من الأوضاع السيئة التي كانت تجابههم. وكذلك كانت هجرتهم من رومانيا تتوجه نحو الولايات المتحدة أيضا. وهذا بالاضافة الى ان رومانيا كانت تشجع الهجرة للتخلّص من اليهود؛ وهي حين إعلان استقلالها سنة ١٨٧٨ لم تعط اليهود حقوق المواطنية، بل اصرّت على التعامل معهم كغرباء.[٢٠]

اليهود، اذاً، لم يجابهوا في هذه المرحلة اية مشكلة مع حكوماتهم المستبدة، في عملية الخروج. ومن المفارقات التاريخية ان الأدبيات الصهيونية تقدّم اليهودي الروسي نموذجا للعذاب البشري. لكن هذه الأدبيات تخلو خلوا تاما من الاشارة الى العلامة الفارقة المميزة بين أوضاع المواطن اليهودي الروسي المعذب والمضطهد فعلا، وبين المواطن المسيحي الروسي المعذب أيضا والمضطهد فعلا. فبينما لم يكن أمام الثاني غير الصبر والاحتمال، او المخاض الثوري حتى نهايته، فتحت أبواب الهجرة على مصاريعها للأول. وهكذا، بينما اعتقدت جمعيات «أحباء صهيون»، ومن بعدها «الحركة الصهيونية» انّ في الهجرة إنقاذَ اليهود، إنسانيا او دينيا او سياسيا، كانت في حقيقة الأمر تقيم جدارا بين اليهود واليهودية، وبين اليهود والانسانية. فاليهود لم يكونوا وحدهم ضحايا القيصرية، لكنهم وحدهم باتوا المميزين: فقراؤهم يهاجرون، أغلبيتهم الى الولايات المتحدة وأوروبا، وأقليتهم الى

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٠٣.

فلسطين؛ وثوارهم الاشتراكيون يهاجرون أيضا، أغلبيتهم الى الولايات المتحدة وأوروبا، وأقلّيتهم الى فلسطين. وهذا بينما يُساق رفاقهم الروس الثوريون الاشتراكيون معتقلين، الى سيبيريا.

منذ طلائـع الهجرة الأولى، إذاً، تكرست عمليا نظرية الازدواجية في المواطنية لليهودي.

وقد شهدت الهجرة الأولى موجتين، كانت الموجة الأولى من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٨٤، وتسمى الهجرة بالعبرية «عالياه». وقد اقتصرت الموجة الأولى من «عالياه الأولى» على العائلات، واختارت في معظمها الهجرة الى الولايات المتحدة. ومن مجموع عشرين ألفا غادروا روسيا خلال سنتي ١٨٨١ و ١٨٨٢، لم يصل الى فلسطين أكثر من ٢٪؛(٢١) وهذا معناه أربعمائة مهاجر. ثم استمرت الهجرات الصغيرة أفرادا وعائلات.

ابرز المستعمرات الأولى التي أُنشئت: ريشون لتسيون (عيون قارة)، وروش بيناه (الجاعونة)، وزخرون يعقوف (زمارين)، وبتاح تكفاه (ملبس). وقد جابه القادمون منذ البداية صعوبات متعددة، أهمها: قلة الموارد المالية، والافتقار الى المهارات الزراعية، والجهل بتربة فلسطين وأوضاعها ممّا قادهم الى ازمة اقتصادية تهدّد مشاريعهم.

كانت الموجة الثانية من «عالياه الأولى» خلال سنتي ١٨٩٠ و١٨٩١ من روسيا أيضا، وكان من نتيجتها حصول اليهود القادمين على أراضٍ إضافية، وإنشاء المزيد من المستعمرات بالوسائل التي أشرنا اليها سابقا. وكان من اهم المستعمرات الجديدة: رحفوت (ديران)، وحَدِراه (الخضيرة)، ومِشْمَر هَيَردن، وبئير طوفياه التي عرفت بداية باسم كاستنييه، والمطلّة.(٢٢)

ضمت «عالياه الأولى»، بالاضافة الى العائلات، عددا من شباب البيلو الذين كانوا وحدهم بين اليهود، في هذه المرحلة، أصحاب عقيدة معينة، ونظرة محددة. وكانوا، في جلّهم، من طلاب الجامعات في روسيا، او من المهنيين. وتتلخص عقيدتهم بالترابط بين الاصلاح الاشتراكي وتحقيق الوطنية، غير انهم كانوا عديمي الخبرة بالزراعة، فضلا عن اعتمادهم على المساعدات المالية من الآخرين في مقابل جهودهم وتضحياتهم، واعتمادهم أيضا على الأمل بمساعدة السلطات العثمانية بإعطائهم الإذن والأمان، وحتى الأرض. إلّا ان هذه السلطات قد نظرت منذ البداية بعين الريبة الى المكتب الذي افتتحوه في استانبول، وحيث بقي جماعة منهم في انتظار الفرمان الذي لم يصدر يوما.(٢٣)

---

(٢١) Walter Laqueur, *A History of Zionism* (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1972), p. 77.

(٢٢) Y'huda Slutsky, «First Aliya,» *Encyclopedia of Zionism and Israel,* Vol. 1, p. 325.

(٢٣) Laqueur, *op.cit*, p. 76.

الواقع ان عدد شباب «البيلو» كان ضئيلا بحيث لا يسمح فعلا بنجاح اية تجربة. وحتى هذا العدد تقلص حتى بلغ ثمانية فقط؛ وكان هؤلاء يتنقلون من مستعمرة الى اخرى، حتى حاولوا الاستقرار في بقعة خاصة بهم سمّوها جْديراه (قطرة). وقاموا بتجربة بناء المستعمرة على قاعدة العدل الاجتماعي، إلّا ان هذه التجربة قد باءت بالفشل، فتفرقوا في اتجاه المدن، اوهاجروا الى أوروبا.(٢٤)

نال «البيلوييم» في الكتابات الصهيونية مجدا لا يستحقّونه فعلا في تاريخ هذه المرحلة، فبرزوا كأنهم المؤسسون والاشتراكيون الأوائل، وهم في الحقيقة مغامرون كان يحكمهم طيش الشباب لا العقل، إذ اعتقدوا ان القضية تنحصر في القرار الذي يتخذونه، ثم في التضحيات التي يقومون بها، وما عدا ذلك فلا اهمية له.

جابه «الييشوف الجديد» من يهود الهجرة الأولى تجارب مماثلة. وعلى العكس مما تمنّى «أحباء صهيون»، فقد سكن معظم المهاجرين الأوائل في المدن وما حولها، لا في المستعمرات.

كان على رأس المشكلات البارزة، مشكلة «الييشوف الجديد» مع قيادتهم ومع المسؤولين عنهم.

بداية، اعتبر «أحباء صهيون» انفسهم في موقع المسؤولية، وقد واكبت مؤتمراتهم مسألة الهجرة، إلّا انهم كانوا دوما مقصّرين في دعمهم المالي. وحتى لمّا نالوا الإذن الرسمي من روسيا في العمل، لم تتقدم وسائلهم كما كان متوقعا منهم، فأضاعوا بذلك فرصة عمرهم، وقد برهنوا على افتقارهم الى الرؤية السليمة، والى الحيوية في العمل، وحتى الى الطموح القيادي.(٢٥) وأما القياديون البارزون بينهم، أمثال بنسكر وليلينبلوم، فقد كان مغضوبا عليهم من قبل الحاخامين أمثال موهي ليفي. وقد حاول هؤلاء إخراجهم لكونهم من «المفكرين الأحرار»، فأدى هذا التمزّق الى تقليص سلطة بنسكر، والى شلل في الحركة بصورة عامة. ويصعب ان تنجح قيادة كهذه من أوروبا، في حلّ المشكلات لمستعمرات حديثة التكوين في فلسطين.(٢٦) وقد ثبت عجزها نهائيا عندما أرسلت مبعوثا من قِبَلها لدراسة الخلافات بين المستوطنين، فلم يتمكن من تحقيق المهمة، وعاد خائبا.(٢٧)

---

(٢٤) Sachar, *op cit.*, pp 27-32

(٢٥) Laqueur, *op cit.*, p. 80.

(٢٦) *Ibid.*, p. 77

(٢٧) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٣١ — ١٣٢

إزاء استفحال المشكلات الاقتصادية، وتوقف بعض المستعمرات عن العمل، دخل البارون روتشيلد بوابة الانقاذ بصفة «المحسن الكبير المجهول»، وهي الصفة التي كان المستوطنون الفقراء يشيرون اليه بها بإعجاب، في السنوات الأولى، من دون معرفة اسمه، بناء على رغبته.

لم يفرض روتشيلد نفسه زعيما حتى بعد ان عُرف اسمه وانتشرت الأنباء عن حسناته. غير انه كان ــ في الواقع ــ كل شيء بالنسبة الى العمل الاستيطاني، لا نتيجة الإحسان البحت فحسب، ولا بسبب الأعمال الاقتصادية المتعارف على أصولها، بل من موقع الحاكم الفعلي، والمتحكّم في الصغائر قبل الكبائر بالنسبة الى شؤون الرعايا.

ولا ريب انه كان لروتشيلد الفضل المادي في المستعمرات الأولى، إلّا ان نظرته الى المستعمرات كانت محض تجارية، وكذلك كان قبله البارون هيرش، عندما أنشأ شركة الأيكا لتوطين اليهود الروس في الأرجنتين سنة ١٨٩١.(٢٨) لكن هيرش كان يرفض مشاريع التوسع في الاستيطان. أما بعد وفاته سنة ١٨٩٦، فقد قرر مجلس شركة الأيكا توسيع نشاطه الاستيطاني (التجاري لا الوطني) في الجزائر وتونس وآسيا الصغرى، وفي فلسطين أيضا، وتم الاتفاق بين روتشيلد و «الأيكا» على دعم المستعمرات. وقد جُدِّد هذا الاتفاق بين الفريقين عدة مرات، حتى بعد الحرب الكبرى.(٢٩)

رفض البارون روتشيلد الإذعان لمطلب تسليم المستوطنين إدارة مستعمراتهم، واستمر يعمل بعقلية النبلاء والاقطاعيين من القرون الوسطى. وعلى الرغم من متابعته ادق التفاصيل بنفسه، فان إدارته فشلت فشلا ذريعا، وكثيرا ما نشبت الخلافات بين المستوطنين من جهة والموظفين والمرشدين الزراعيين الموفدين من قِبَله من جهة اخرى. كما تمردت المستعمرات على الادارة عدة مرات، وكثيرا ما كانت بعض المستعمرات تفشل الى حد التوقف عن العمل.

تخلّى البارون إدموند دي روتشيلد أخيرا عن إدارة المستعمرات سنة ١٩٠٠، لشركة «الأيكا»، وللجنة التنفيذية لـ «أحباء صهيون» في فلسطين؛ فكان أول ما فعلته «الأيكا» ان استبدلت كل موظفي روتشيلد، ووضعت قواعد جديدة للعمل.(٣٠) وانتهت بذلك صفحة بارزة من تاريخ المستعمرات تشهد بالفضل المالي لروتشيلد عليها، لكنها في المقابل تشهد بالنتائج السلبية على حياة

---

(٢٨) اشترط هيرش، قبل القيام بالمشروع الاستيطاني، ان يساهم يهود روسيا بدفع مبلغ خمسين الف روبل، ولمّا لم يفعلوا تحوّل الى الأرجنتين (Laqueur, *op cit*, p. 78.).

(٢٩) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٣٤ ــ ١٣٥.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ١٢٤ ــ ١٢٥، ١٣٥.

المستوطنين الذين تحوّلوا إمّا الى مرتزقة وإمّا الى مستغِلّين، همهم استغلال البارون لجمع المال من أجل الهجرة الى الولايات المتحدة. وكان موظفو روتشيلد القدوة السيئة في نهب أموال «المحسن الكبير». (٣١) ولعل النجاح الأكبر الذي حققه روتشيلد، انه تمكّن من تطويع الهجرة اليهودية، التي كان الكثيرون يحلمون بجعلها حجر الأساس في دولة المستقبل، الى مغامرة تجارية. (٣٢)

وربما كان تمادي روتشيلد في التجارة بالمستعمرات ناشئا عن غياب القيادة الصهيونية بزعامة هيرتسل غيابا شبه كلي عن ساحة المستعمرات. وكان جليا ان هيرتسل يريد كل وجوه القيادة له وحده، باستثناء وجه المستعمرات، وهو الذي كان يطلق على الهجرة الى فلسطين التسلّل البطيء، معتقدا أنها في النتيجة النهائية عامل معوق لمشروعه السياسي الضخم القائم على أولوية الوعد الدولي. وكان روتشيلد، من الجهة الثانية، لا يوافق إطلاقا على مشروع هيرتسل، خوفا على مصالحه ومصالح اليهود في الدول التي يقطنونها. وهكذا ضعفت المستعمرات، وباتت ضحية مفهومين مختلفين في شأنها، لكل من الزعيم السياسي هيرتسل والاقتصادي المحسن الكبير روتشيلد؛ فالأول يعتبرها نشازا في مرحلة انبعاث الصهيونية، بينما يعتبرها الثاني صفقة تجارية.

كانت ابرز المشكلات الداخلية التي عاناها الييشوف الجديد، اختلافهم عن الييشوف القديم وخلافهم معهم، بالاضافة الى الاختلاف بين جماعات الييشوف الجديد نفسه ــ بين مهاجري روسيا ومهاجري رومانيا، وبين شباب البيلو الاشتراكيين وسائر المهاجرين، حتى القادمين منهم من روسيا. وكان الييشوف القديم يدعو البيلوييم بـ «الفوضويين الروس»، كما أشرنا سابقا، وكثيرا ما تقدّموا بالشكوى ضدهم الى السلطات العثمانية. (٣٣)

وتجسّدت قمة الخلاف بين العقلية الدينية المتزمتة وعقلية المهاجرين المزارعين، في إقدام رجال الدين المتشددين، من روسيا وفلسطين معا، على المطالبة بضرورة مراعاة السنة السابعة، وفقا لتعاليم توراتية؛ وفي هذه «المراعاة الدينية» قتلٌ للزراعة والمحاصيل. (٣٤)

أمّا ابرز المشكلات الداخلية في المستعمرات الأولى فكانت: أولا، في الأمراض التي تفشت بينهم، وخصوصا الملاريا، مما اضطرهم الى تجفيف بعض المستنقعات حتى اصبح الوضع طبيعيا نسبيا؛ وثانيا، قلة الخبرة الزراعية، إنْ لم يكن انعدامها. إذ لم يكن المهاجرون الأوائل يعرفون ماذا

(٣١) المصدر نفسه، ص ١٢٦.

(٣٢) Laqueur, *op.cit.*, p. 79.

(٣٣) *Ibid.*, p 76.

(٣٤) *Ibid*, p. 79.

يزرعون؟ وكيف؟ ومتى؟ مما اضطرهم الى الاعتماد على المزارعين العرب الذين فاقوهم خبرة بالزراعة بمراحل. وأُضيف الى هذه العوامل الاختلاف في الجوّ مما جعل الحماسة تخف الى حد التلاشي، فباعت بعض العائلات كل ما تملك للهجرة من جديد، وهاجر البعض الى أميركا، بينما قفل البعض الآخر عائدا الى روسيا. أمّا الذين ذهبوا الى القدس، بمساعدة البعثات المسيحية، فقد أضافوا الى الخلافات المعتادة مع البيشوف القديم خلافا جديدا؛ إذ أعلن البيشوف القديم رفضهم لسكنى هؤلاء المهاجرين بينهم.(٣٥)

كثيرا ما توقف العمل في هذه المستعمرة اوتلك، لسبب اولآخر. فعندما ترك المستوطنون بتاح تكفاه ــ على سبيل المثال ــ بسبب تفشي الأمراض سلموها للمزارعين العرب أما المستوطنون القادمون من رومانيا، فقد دفعتهم الأزمات الاقتصادية الى التوقف عن بناء المستعمرات، كما دفعت سواهم، من المهاجرين الروس، الى الوقوع في فخ الاحسان والصدقات، حتى بات همهم مجرد الاستمرار في الحياة وتقديم الشكر للمحسنين، وبذلك لم يكونوا يختلفون عن البيشوف القديم الذي كان «الحالوكاه» مورده الأهم؛ وهكذا لم يتمكنوا قط من تحقيق آمال زعماء «أحباء صهيون» و«بي موسى» بأن يقوموا بدور فعال في بعث المجتمع اليهودي

كم بلغ عدد اليهود المهاجرين الذين سكنوا المستعمرات وزرعوها حتى نهاية القرن التاسع عشر؟

في الواقع لم تستقطب المستعمرات إلاّ عددا ضئيلا من القادمين الذين كانوا يفضلون سكنى المدن، والقيام بأي عمل، او العيش على الإحسان (الحالوكاه)، على الاقامة في المستعمرات. ويتفق المؤرخون على العدد الضئيل لهؤلاء المستوطنين، وإنْ اختلفوا بفوارق لا تكاد تذكر. فالرقم الأعلى كان ستة آلاف نسمة في عشرين مستعمرة؛(٣٦) وفي مصدر آخر، كان خمسة آلاف نسمة في عشرين مستعمرة أيضا؛(٣٧) أما الرقم الأدنى، فكان اربعة آلاف وخمسمائة نسمة في واحدة وعشرين مستعمرة.(٣٨) وهكذا، نجد ان عدد المستوطنين يبقى ضئيلا في كل الحالات، فضلا عن انهم لم يكونوا جميعا مزارعين، بل كان ثلثاهم فقط.(٣٩)

كتب آحاد هاعام مقوّما مرحلة الهجرة الأولى، وهو شاهد عيان:

---

(٣٥) *Ibid*, pp. 76-78

(٣٦) Slutsky, *op cit*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel,* Vol 1, p. 325

(٣٧) Sachar, *op.cit.*, p. 71.

(٣٨) Laqueur, *op cit.*, p. 78.

(٣٩) *Ibid.*

ما هي نتائج أعمالنا خلال أكثر من عشرين عاما من العمل في فلسطين؟ بالنسبة الى العمل المادي، ليس لدينا إلّا محاولات غير ناجحة لنطهرها أما بالنسبة الى العمل الروحاني، فليس لدينا حتى المحاولات لنطهرها (طبعا باستثناء مدرسة يافا)،[٤٠] لأنه في الحقيقة لم يعمل شيء يذكر.[٤١]

وكتب لاكور، المؤرخ المعاصر، عن المستعمرات الأولى:

ان المستعمرات العشرين غير المنظمة التي أُنشئت في فلسطين منذ سنة ١٨٨١، قد استمرت. لكن بينما كان القرن يقترب من نهايته، كان يبدو بوضوح شديد انه لا يمكن الاستفادة من هذه المستعمرات كقاعدة للهجرة الجماعية . . ولو أنها انتهت تاريخيا في سنة ١٨٩٧، لكانت اليوم تذكر كواحدة من الحركات الطائفية اليوتوبية القليلة الأهمية، التي نمت بسرعة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.[٤٢]

كان من ابرز نتائج الهجرة الأولى، اهمية دحضها للمقولة الصهيونية بأن العرب مزارعون كسالى، وأن ارضهم قاحلة؛ فالمهاجرون اليهود هم الذين فشلوا زراعيا، بينما كانوا يلجأون الى المزارعين العرب النشيطين الأكفاء.

رابعا: الهجرة الثانية ١٩٠٥ ـ ١٩١٤

كان فشل ثورة تشرين الأول/أكتوبر ١٩٠٥ في روسيا منعطفا رئيسيا في حياة اليهود الروس؛ إذ انفجرت في أماكن عدة من البلاد موجة من ردات الفعل العنيفة ضد اليهود، اتصفت بمختلف أنواع الاضطهاد من قتل وتشريد وحرق بيوت، مما ادى الى هجرات جماعية متلاحقة استمرت حتى قيام الحرب العالمية الأولى.[٤٣]

تميزت الهجرة الثانية (عالياه الثانية) بتعدّد الفئات المهاجرة، إذ لم تكن كلها كالمهاجرين الأوائل من المواطنين البسطاء الهاربين من الاضطهاد؛ فهذه المرة، أُضيف الى أمثال هـؤلاء مجموعات من الشباب تحركهم الصهيونية العمالية، وقد حملوا معهم الأفكار الليبرالية والعلمانية.[٤٤]

جابه المستوطنون الأوائل القادمين الجدد بالنفور، لافتقارهم الى الخبرة والى ما هو اهم: الى

(٤٠) مدرسة يافا المذكورة: Choveve Zion Hebrew School.

(٤١) Achad Haam, «The Time has come,» *Ten Essays on Zionism and Judaism.* Translated from the Hebrew by Leon Simon (London: George Routledge and Sons, 1922), p 111

(٤٢) Laqueur, *op.cit*, p 83.

(٤٣) Sachar, *op.cit.*, p. 72.

(٤٤) S Zalman Abramov, «Second Aliya,» *Encyclopedia of Zionism and Israel,* Vol. 2, p. 1012.

آرائهم الاشتراكية، والى الشائعات التي رافقتهم بأنهم يسعون للسلطة والسيطرة الاقتصادية والاجتماعية؛ فما كان أمام المهاجرين الجدد إلّا التنقل من مستعمرة الى اخرى نثياب رثّة، وعلى وشك الانهيار من سوء التغذية (٤٥) وقد روى بن ــ غوريون (أول رئيس مجلس وزراء لاسرائيل) عن تلك التجربة، وكان يومذاك شابا في التاسعة عشرة من عمره، بقوله: «ان نصف المهاجرين الذين جاؤوا الى فلسطين في تلك الأيام الأولى، ما ترددوا من النظرة الأولى في العودة الى بيوتهم، على السفن نفسها التي جاءت بهم.»(٤٦) وقال آخرون ان نسبة الذين عادوا، في الأشهر الأولى، قد بلغت ٨٠ ٪ من مهاجري الهجرة الثانية.(٤٧)

لم تكن الهجرة في بدايتها منظمة قط، فلم تكن باشراف المنظمة الصهيونية العالمية، ولا اية مؤسسة صهيونية عامة اخرى. ومن تبقى من أفرادها لم ينصرفوا الى الزراعة وحدها، بل عملوا على تطوير الصناعات البدائية في المدن.(٤٨) ومع ان عدد هؤلاء جميعا لم يزد على الألفين، فان اثرهم كان كبيرا مع الزمن، سواء في المستعمرات او في المدن

نظم المهاجرون الاشتراكيون انفسهم في تجمعات بوعالي تسيون، وأعلنوا انهم في صدد تكوين «حزب الطبقة الفلسطينية العاملة»، وأن هذا الحزب هو الحزب الثوري الوحيد للعمال اليهود في الامبراطورية العثمانية. وشددوا، في اجتماع عام عقدوه في الرملة سنة ١٩٠٦، على مركزية الصراع الطبقي، كما طالبوا بالملكية العامة لوسائل الانتاج.(٤٩)

انشىء مكتب فلسطين سنة ١٩٠٨ برئاسة الدكتور آرثر روبين، وهو عالم اجتماع يهودي ألماني، وكان في هذا دلالة على ان المنظمة اصبح لها سياسة استيطانية منظمة. فقبل إنشاء المكتب كانت الفوضى تسود أعمال الصندوق القومي اليهودي، وكانت مشكلة المنظمة الصهيونية أنها انصرفت الى انتقاد شركة الأيكا من دون البحث الجدي عن الطريق البديل. أما بعد إنشاء مكتب فلسطين، فقد اصبحت الجهتان، مكتب فلسطين والأيكا، مسؤولتين عن الاستيطان.(٥٠)

مع نهاية سنة ١٩٠٨، سنة الدستور، كانت السلطات المحلية قد اخذت تتراخى في تطبيق

---

(٤٥) Sachar, *op.cit*, p 72.

(٤٦) *Ibid*, p. 73

(٤٧) *Ibid.*

(٤٨) Abramov, *op cit.*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel,* Vol. 2, p 1013

(٤٩) Sachar, *op cit*, p 73.

حضر الاجتماع المذكور أعلاه بن تسفي وبن ــ غوريون.

(٥٠) *Laqueur, op cit*, p. 153

القوانين المتعلقة بالمهاجرين؛[٥١] وأدت الحرب التركية ـ الايطالية سنة ١٩١١ الى إضعاف الحكومة المركزية نفسها، مما جعلها أكثر استعدادا للاستماع الى المطالب الصهيونية. ونتيجة ذلك، رفعت بعض القيود ضد الهجرة، وأصبح تملّك الأجانب للأراضي أكثر سهولة، بالاضافة الى انه لم يعد للحكومة المركزية السيطرة الكاملة على ممثليها في فلسطين؛ فبات هؤلاء يتصرفون بحرية في تفسير الأوامر الصادرة من استانبول. وفي هذه المرحلة، كان العمل الأساسي للمكتب الصهيوني في استانبول، رعاية «الييشوف» في فلسطين.[٥٢]

صرف روبين خمسة اشهر لاستكشاف أوضاع البلاد ودراستها. وكانت ابرز ملاحظاته في التقرير الذي رفعه الى اللجنة التنفيذية المصغرة ان «الييشوف» ليس مستعدا بعد للبقاء بصورة مستقلة ضمن الامبراطورية العثمانية. واقتصر الحل، في رأيه، على توفير فرص العمل للمهاجرين الجدد، واقترح لذلك شراء مليوني دونم في يهودا والجليل من أجل بيعها لليهود المهاجرين، وتدريب العمال المزارعين على مزارع إضافية، قبل استقرارهم على ارضهم.

قُبلت طلبات روبين. وإنْ يكن قد بدا ـ نظريا ـ ان المنظمة الصهيونية هي المسؤولة، فقد كان روبين يتصرف عمليا ببادرة شخصية، وبمرونة؛ وقد تمكن، بالتعاون مع شركة تطوير أراضي فلسطين، من شراء الأراضي وتوطين اليهود القادمين. وهكذا تمكن من إضافة تسع قرى في ستة أعوام، وشراء خمسين ألف دونم. ولم يكن الربح المادي للمستعمرات وحده هدف روبين، بل إنجاح تجربة العمل الجماعي.[٥٣]

على الصعيد العمراني كان ابرز ما شُيِّد في هذه المرحلة مدينة تل ابيب، التي أُقيمت سنة ١٩٠٩ على شاطىء البحر شمالي مدينة يافا؛ وتل ابيب أول مدينة يهودية تقام في العالم المعاصر. وقد بلغ عدد سكانها مع نشوب الحرب الكبرى ألفا وخمسمائة نسمة.[٥٤]

وعلى الصعيد التعليمي، اقتصر التعليم في الهجرة الأولى على المرحلة الابتدائية، بالاضافة الى المدارس التي أنشأها الفرنسيون والألمان.[٥٥] وقد قام كل فريق بتدريس لغته في مدارسه. وكذلك كان التعليم في عدد من المدارس اليهودية بلغة اليديش، وعلى اسس دينية.

---

(٥١) Sachar, *op cit*, p. 81.

(٥٢) Laqueur, *op cit.*, pp 142-143.

(٥٣) Sachar, *op.cit.*, pp. 77-78.

(٥٤) «Second Aliyah,» *Encyclopedia of Zionism and Israel,* Vol. 2, p. 1013.

(٥٥) عرفت مدارس الفرنسيين باسم: Alliance Israélite Universelle
كما عرفت مدارس الألمان باسم. Hilfsverein der Deutschen Juden.

لم يكن التعليم بالعبرية سهلا، لأن اللغة العبرية لم تكن مهيأة أصلا، اذ اقتصرت على لغة التوراة القديمة. وكان أول من عمل على تطوير العبرية عالم متضلع من فقه اللغات عرف باسمه المستعار بن يهودا، أكثر مما عرف باسمه الحقيقي أليعازر بيرلمان. وقد اكتشف هذا العالم، في أثناء دراسته في السوربون، اهمية الأدب في نمو الوطنية الفرنسية. غير انه في فلسطين قد هوجم بعنف من قبل الحاخامين الذين وقفوا منه موقف العداء، لأنه يستعمل اللغة العبرية لأغراض علمانية لا دينية. وهو، بدوره، هاجمهم لـ «جريمتهم الاجتماعية» برعاية مجتمع «الحالوكاه»، فاتهموه بالخيانة، وسُجن فترة قصيرة.

نشر بن يهودا الجزء الأول من قاموسه العبري سنة ١٩٠٤. وكان عمله موسوعيا، أكمل منه اربعة مجلدات فقط في حياته، ثم استُكملت المجلدات الى سبعة عشر مجلدا بعد وفاته سنة ١٩٢٢.[٥٦]

على صعيد الأمن الذاتي والدفاع عن المستعمرات، عمل بعض الشباب منذ سنة ١٩٠٧ على تطوير فكرة الحراسة، وتدريب الشبان اليهود، فأنشأوا منظمة «هاشومير» ومعناها «الحارس»، سنة ١٩٠٩. ولم يبلغ عدد «الحراس» في فلسطين كلها مع نشوب الحرب الكبرى أكثر من مائة «حارس»؛ غير ان هؤلاء كانوا نواة منظمة الهاغاناه العسكرية فيما بعد.[٥٧]

وعلى صعيد مماثل، تطورت منظمات العمال الزراعيين التي أُنشئت في مرحلة الهجرة الثانية الى منظمة «الهستدروت» في عهد الانتداب، وهي النقابة العامة للعمال اليهود.

تكمن اهمية الهجرة الثانية تاريخيا بالنسبة الى سائر الهجرات، في كونها الهجرة السابقة للحرب الكبرى، والتي يفترض فيها أنها قد مهدت لوعد دولي، كوعد بلفور؛ فالى اي مدى كانت الصهيونية قد تغلغلت ــ فعلا ــ في فلسطين حتى نشوب الحرب؟

تتفاوت الاجابات عن سؤال كهذا، وأكثرها إغراقا في التفاؤل الصهيوني كان التحليل الذي يتوصل الى ان المنشآت والمؤسسات المتعددة التي أُقيمت في مرحلة الهجرة الثانية، كانت الأعمدة والركيزة لقيام الوكالة اليهودية في عهد الانتداب. ويصل الغلاة في سياق هذا التحليل الى ان الوطن الصهيوني قد اصبح حقيقة مجسّدة عبر المستعمرات والنقابات والمؤسسات، وإنْ يكن هذا التجسيد اشبه بالصورة المصغرة.[٥٨]

---

(٥٦) Sachar, *op.cit*, pp 82-85

(٥٧) *Ibid.*, pp 80-82.

(٥٨) راجع.

Abramov, *op.cit.*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. 2, pp 1015-1016.

وتتعدّد التحليلات وسنكتفي في هذا المجال بالتوقف إزاء تحليل المؤرخ لاكور المعروف بإعجابه بالصهيونية، لا بتحامله عليها.

يقول لاكور ان ابرز نتائج الهجرة الثانية كانت: أولا، برهان اليهود على قدرتهم على ان يكونوا مزارعين، وقدرتهم على تطوير وسائل مبتكرة في أشكال الحياة الجماعية في المستعمرات؛ ثانيا، إحياء اللغة العبرية؛ ثالثا، تصميم عدد من اليهود على البقاء فعلا في فلسطين على الرغم من كل الصعوبات.

ويضيف لاكور معقبا:

> لم يكن عدد اليهود في فلسطين يتزايد وحده، ففي المقابل، كان عدد السكان العرب يتزايد أيضا، وبالتالي يكبر الفارق بين العددين
>
> فلسطين اليهودية كانت غرسة رقيقة ضعيفة، بحيث ان عملية إخراج بضعة آلاف من اليهود كانت كافية للقضاء على إنجازات العقد السابق للحرب؛ وقد حدث هذا ــ تقريبا ــ خلال الحرب
>
> «الصهاينة السياسيون» لم يكونوا مخطئين بكل معنى الكلمة فانه لولا الحرب لكان حصول الصهيونية على اية درجة من الحكم الذاتي أمرا مشكوكا فيه.[٥٩]

خامسا: «الييشوف» القديم والجديد: إحصاءات

كم بلـغ عدد اليهود في فلسطين في خريف سنة ١٩١٧ حين صدور وعد بلفور؟ وبالتالي، كم بلغت نسبة اليهود الى مجموع سكان فلسطين حينذاك؟

للاجابة عن سؤال يتعلق بالاحصاءات، يفترض ــ عادة ــ إيجاد رقم واحد موثوق المصدر. إلّا ان الرقم المطلوب للاجابة عن هذا السؤال ليس مجرد رقم إحصائي؛ فهو رقم سياسي صهيوني، نابـع من قرار غير معلن ــ لكنه واضـح النتائـج ــ بضرورة تضخيم الرقم ما أمكن.

ومما ساعد المصادر الصهيونية في تضخيم الأرقام، ان الاحصاءات العثمانية بالنسبة الى فلسطين لم تكن موحدة، بل متعددة وفقا للتقسيمات الادارية. وهذا بالاضافة الى قلة الاحصاءات أصلا، والى الفوضى العامة بالنسبة الى قدوم اليهود من أوروبا بصفة حجاج تارة، او بصفة زيارة موقتة تارة اخرى، ثم تهرّبهم من التسجيل والسجلات، اعتمادا على الرشوة؛ وبمعنى آخر، فليس

---

(٥٩) Laqueur, *op.cit.*, pp. 154-155.

هناك من ميدان ارحب مس الأوصاع الادارية التي سادت فلسطين في العقود الأخيرة من العهد العثماني، كي تتوصل الصهيونية الى إعطاء الأرقام التي تراها موافقة لسياستها

بلـغ عدد اليهود في فلسطين (الييشوف القديم)، في مطلـع القرن التاسـع عشر، ستة آلاف نسمة كحدّ اقصى.(٦٠) ولم يرد في اي مس المصادر انهم كانوا أكثر من دلك؛ ولا يبدو ان هذا الرقم كان يسمـح بالاختلاف في شأنه، رىما لضآلته، وربما للأحوال التي سادت مطلـع القرن التاسـع عشر؛ فقد كانت أحوالا عادية واستمرارا لما كان قبلها، ولم يكن قد طرأ عليها بعدُ قدوم البعثات الدينية والاستكشافية، وازدياد القنصليات الأجنبية وامتداد نفوذها.

أمّا منذ سنة ١٨٢٢ فصاعدا، فقد ابتدأت الاختلافات في الأرقام تصل الى حد المضاعفة؛ اذ ورد في «الكتاب السنوي لاسرائيل» انه كان في فلسطين سنة ١٨٢٢ ما يقرب من ٢٤ ألف يهودي.(٦١) وتظهر المبالغة الفائقة في هدا الرقم أولا بمقارنته مـع الستة الآلاف في مطلـع القرن التاسـع عشر؛ فلا يعقل ان يتضاعف الرقم اربـع مرات، على مدى نحو عشرين سنة، لم تحفل ــ تاريخيا ــ بأية هجرة من الخارج. وهذا، بالاضافة الى انه قد ورد في مصادر اخرى موثوق بها، ومنها كتاب «تاريـخ اسرائيل» لساشار، ان عدد اليهود قد ارتفـع الى سبعة عشر ألفا فقط حتى منتصف القرن التاسـع عشر، ثم الى خمسة وعشرين ألفا حتى سنة ١٨٨١؛(٦٢) وهو رقم يزيد ألفا واحدا عـن الأربعة والعشرين ألفا التي اعتبرها المصدر الاسرائيلي الرسمي ــ أعلاه ــ هي عدد اليهود سنة ١٨٢٢، اي قبل ٥٩ سنة.

قامت الحكومة العثمانية بإحصاءات تقديرية(٦٣) في منتصف القرن التاسـع عشر، توصلت من خلالها الى انه لم يكن في فلسطين أكثر من نصف مليون نسمة: ٨٠٪ منهم عرب مسلمون، و١٠٪ عرب مسيحيون، وربما من ٥٪ ــ ٧٪ يهود.(٦٤)

يصل عدد اليهود بنسبة ٧٪ الى ٣٥ ألف سمة، وهدا يفوق ضعف رقم السبعة عشر ألفا،

---

(٦٠) Sachar, *op cit*, p. 24

(٦١) *The Israel Yearbook 1950/51* (Tel Aviv: Israel Publications, [1952]), p 81

(٦٢) Sachar, *op.cit.*, p. 24

(٦٣) هناك عـدة طـرق للإحصاءات التقديرية في العهد العثماني، وأكثرها شيوعا صرب معامل يتراوح من ٤ كحد ادنى الى ٥ او ٦ او ٧ كحد اقصى، بعدد الذكور الراشدين الذين كان يتم إحصاؤهم وتسحيل أسمائهم للخدمة العسكرية.

(٦٤) Janet Abu-Lughod, «The Demographic Transformation of Palestine,» in Ibrahim Abu Lughod, ed, *The Transformation of Palestine* (Evanston. Northwestern University Press, 1971), p. 140.

كما ورد في مصدر ساشار أعلاه، فضلا عن انه رقم غير منطقي؛ فقدوم اليهود من أوروبا حتى منتصف القرن كان مستمرا، لكن محدودا جدا. وهذا، بالاضافة الى الزلزال الذي ضرب منطقة الجليل في ١ كانون الثاني/يناير ١٨٣٧، والذي دُمِّرت نتيجته طبريا وصفد حيث يقطن العديد من اليهود. فقد خسرت صفد من سكانها اليهود، الذين يتراوح عددهم بين ثمانية آلاف وتسعة آلاف نسمة، خمسة آلاف ماتوا او هربوا. وأمّا طبريا، فقد فقدت تقريبا معظم سكانها اليهود، وكانوا ألفي نسمة، ومن تمكن منهم من النجاة هرب الى ضواحي القدس.(٦٥)

أمّا بنسبة ٥ ٪ من التقديرات العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر، فيبلغ عدد اليهود ٢٥ ألف نسمة. ونلاحظ ان هذا الرقم قد ورد في مصدر ساشار، لكن لا لمنتصف القرن التاسع عشر وإنما لسنة ١٨٨١، اي بفارق ٣١ سنة.

كانت الموجة الأولى من الهجرة الأولى، منذ سنة ١٨٨٢، علامة فارقة في تاريخ اليهود، إلّا أنها لم تكن كذلك رقميا؛ إذ لم يصل منها في العامين الأولين أكثر من مئات، قدّرت بأربعمائة. وهذا ما اجمعت المصادر المختلفة عليه، وقد شرحناه سابقا. كما اجمعت المصادر على عودة الكثيرين من أبناء الموجة الثانية في أول التسعينات، مما يجعل الرقم الوارد في «الكتاب السنوي لاسرائيل» ــ وهو خمسون ألفا في نهاية القرن التاسع عشر» ــ(٦٦) رقما مشكوكا في صحته. غير ان لا مجال لمعرفة الأرقام الصحيحة، مع الفوضى الادارية في السجلات العثمانية.

توقفت معظم المصادر إزاء رقم اليهود في مطلع الحرب الكبرى او في أثنائها. وهنا تبرز أرقام مختلفة تتراوح بين مائة ألف نسمة كحد أعلى وبين خمسة وخمسين ألف نسمة كحد ادنى؛ اي ان الرقم الأول يكاد يبلغ ضعف الثاني ومن المستغرب فعلا ان عددا من المصادر الصهيونية، التي يرتفع فيها الرقم الى المائة ألف او الى الخمسة والثمانين ألفا، تتوقف هي نفسها إزاء عودة أكثر من نصف المهاجرين، من أبناء الهجرة الثانية. ويصل البعض منها الى القول انه لم يتبق سوى ألفين من الهجرة الثانية. ومع ذلك يتضخّم الرقم لديها، ومن دون مبررات، على عتبة الحرب الكبرى.

لن نتوقف عند رقم المائة ألف نسمة،(٦٧) بل عند رقم الخمسة والثمانين ألفا، ولا سيما انه

---

(٦٥) Blumberg, *op.cit*, pp. 28-29

(٦٦) *The Israel Yearbook 1950/51*, *op cit.*, p. 81.

(٦٧) J.M.N. Jeffries, *The Balfour Declaration*. Reprinted from *Palestine· The Reality*, chapter 11, Longman, Green & Co., 1939 (Beirut: The Institute for Palestine Studies, 1969), p. 11.

كان نورمان بنتويش، النائب العام (اليهودي) في عهد هربرت صموئيل، من القائلين بوجود مائة ألف يهودي (*Ibid*).

الرقم الذي ورد في المصادر الرسمية وفي «الأنسيكلوبيديا اليهودية»،[٦٨] وفي عدد من المصادر التاريخية.[٦٩] وقد أضاف بعضها انه لمّا كان عدد السكان، إجمالا، يبلـغ سبعمائة ألف نسمة سنة ١٩١٤، فنسبة اليهود تبلـغ إذاً ١٢ ٪ من السكان.[٧٠]

لكن من المستغرب، فعلا، ان يتجاهل مؤرخون بارزون المصدر الاحصائي الرسمي الذي صدر عن السلطات العثمانية سنة ١٩١٤. فقد أعلنت تركيا نتائج الاحصاء التقديري لهذه السنة، وقد جاء فيه ان مجموع سكان فلسطين يبلـغ ٦٨٩,٢٧٢ نسمة، وبينهم لا أكثر، وربما أقل من ستين ألف يهودي. وقد نشرت هذه الأرقام في الفصل التمهيدي من الكتاب الاحصائي البريطاني الرسمي لسنة ١٩٢٢،[٧١] وهي السنة التي قامت حكومة الانتداب فيها بأول إحصاء رسمي.

قام بالاحصاء التقديري لليهود سنة ١٩١٤، والذي اقرته الحكومة العثمانية، الدكتور آرثر روبين (رئيس المكتب الصهيوني)؛ فهو الذي أعطى رقما تقديريا أعلى ٦٢,٠٠٠ نسمة، ورقما تقديريا ادنى ٥٧,٠٠٠ نسمة، مما يجعل الرقم الوسطي ٦٠,٠٠٠ نسمة.[٧٢] وتتناقض هذه الأرقام مع الأرقام التي قدمها هو نفسه الى المؤتمر الصهيوني، قبل سنوات. فقد باشر روبين، في نيسان/إبريل ١٩٠٧، دراسته واستقصاءاته عن أوضاع اليهود في فلسطين، وقدم في نهاية السنة تقريرا الى المؤتمر الصهيوني جاء فيه انه يوجد ٨٠,٠٠٠ يهودي في مقابل ٧٠٠,٠٠٠ عربي.[٧٣] ومرة ثالثة، أعطى روبين رقما تقديريا جديدا سنة ١٩١٦، فقال ان عدد اليهود قد بلغ فيها ٨٥,٠٠٠ نسمة.[٧٤]

هناك ملاحظتان بشأن أرقام روبين: الملاحظة الأولى ان رقم الـ ٦٠,٠٠٠ لسنة ١٩١٤، والذي يبدو نشازا في الوسط بين رقمي الـ ٨٠,٠٠٠ لسنة ١٩٠٧، والـ ٨٥,٠٠٠ لسنة ١٩١٦، هو الرقم الأقرب الى الصواب، لأنه ما كان في وسع روبين ان يخدع السلطات العثمانية المسؤولة،

---

(٦٨) *The Israel Yearbook 1950/51, op.cit.*, p. 81; *Encyclopaedia Judaica*, Vol 16 p. 1078.

(٦٩) *ESCO Foundation for Palestine: A Study of Jewish, Arab, and British Policies* Reprint of the 1947 ed (Milwood, N.Y.: Kraus, 1980), Vol. I, p. 463; Laqueur, *op cit*, p. 41, Sachar, *op.cit.*, p. 88.

(٧٠) Fritz Steppat, *Zionism — Judaism: Some Historical Aspects of the Clash between Zionism and Arab Nationalism* (Beirut University Christian Center Forum, 1968), pp. 6-7.

(٧١) كما وردت في:
Janet Abu-Lughod, in *The Transformation of Palestine, op cit.*, p. 141.

(٧٢) *Ibid.*

(٧٣) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ٢١٠، نقلا عن ألِكس باين، «تولدوت هاهتيشفوت هاتسيونيت» (تاريخ الاستيطان الصهيوني)، (رامات عان: مساده، ١٩٧٠)، ص ٣٥ — ٣٦

(٧٤) Jeffries, *op cit.*, p. 11

وهو يرفع إحصاءاته اليها؛ والملاحظة الثانية هي الارتفاع الكبير لديه بين سنتي ١٩١٤ و١٩١٦، والذي بلغ ٢٥,٠٠٠ ـ مع العلم ان السكان اليهود قد نقص عددهم كثيرا في الحرب الكبرى بسبب الهجرة، او الإبعاد؛ ومما يؤيد انخفاض العدد ما ورد في تقرير من الادارة البريطانية العسكرية في فلسطين (١٩١٧ ـ ١٩٢٠)، رفعته الى عصبة الأمم، إذ جاء فيه ان مجموع السكان اليهود يبلغ ٥٥,٠٠٠ نسمة.[٧٥] والتفسير الوحيد للاختلاف الكبير بين رقم ٨٥,٠٠٠ الذي أعطاه روبين وبين رقم ٥٥,٠٠٠ الذي أعطته الادارة البريطانية العسكرية للمرحلة نفسها ـ مرحلة الحرب ـ وكذلك للاختلاف بين رقم روبين والرقم التقديري الذي قدّمه هو نفسه للسلطات العثمانية على عتبة الحرب، اي رقم ٦٠,٠٠٠، هو اعتقاده ان الرقم المعطى للدوائر العثمانية (٦٠,٠٠٠) لن يعطى الفرصة للانتشار؛ فالأقلام الصهيونية كفيلة بإلغائه. وهذا ما حدث فعلا، الى حد كبير. فقد تبنّى العديد من المؤرخين الرقم المرتفع من دون التدقيق الكافي. أما العقلاء المنصفون منهم، فقد عرفوا كيف يصلون الى الحقيقة، ومن هؤلاء جيفرز البريطاني في كتابه «فلسطين: الحقيقة».

يقول جيفرز انه لا يوجد إحصاء دقيق للسكان يمكن الاعتماد عليه، فالأرقام كلها تقريبية. ثم يذكر بين هذه الأرقام الرقم التقديري للادارة البريطانية العسكرية، والذي أشرنا اليه أعلاه ـ وهو ٥٥,٠٠٠ نسمة. كما يذكر انه جاء، في مذكرة اخرى لحكومة الانتداب سنة ١٩٢٠، ان عدد اليهود يبلغ ٦٥,٠٠٠ نسمة. ثم يستنتج ان عدد اليهود حين صدور وعد بلفور كان، على الأرجح، ٦٠,٠٠٠ نسمة من مجموع عدد السكان البالغ ٦٧٠,٠٠٠ نسمة ـ وهو العدد نفسه الذي ورد في تقرير لجنة شو عن الرقم التقريبي لليهود قبل الحرب.[٧٦]

نستنتج من أرقام جيفرز ان نسبة اليهود الى العرب، حين صدور الوعد، كانت ٩٪. ونستنتج من مراجعة الأرقام البريطانية الواردة في عدة تقارير ومذكرات رسمية ان رقم السكان اليهود لم يرتفع قط، على عتبة الحرب، الى أكثر من ٦٠,٠٠٠. أما حين صدور الوعد، فلا خلاف في ان عدد السكان جميعا، عربا ويهودا، قد نقص.

لم يقع الظلم على سكان فلسطين العرب بتضخيم رقم السكان اليهود فقط ـ تمهيدا للتوصل الى حق شرعي لليهود في البلاد ـ وإنما أيضا بتضخيم نسبتهم عبر التجاهل الكلّي لفئة كبيرة من سكان فلسطين العرب، وهي فئة البدو؛ فهؤلاء المنسيون في كل الاحصاءات الرسمية، قدرت الحكومة البريطانية عددهم في الاحصاء الرسمي الأول الذي قامت به بمائة ألف

---

(٧٥) *Ibid.*

(٧٦) *Ibid.*

نسمة.[٧٧] كما كانت السلطات العثمانية قد قدرت عددهم قبل الحرب الكبرى ستين ألفا في سنجق القدس فقط.[٧٨] لكنهم دائما كانوا خارج المجموع العام، وكأنهم ليسوا من الشعب. فإذا اعتبرنا عدد البدو في فلسطين، سنة ١٩١٤، ٨٠,٠٠٠ كحدّ أدنى (وهذا الرقم ينقص ٢٠,٠٠٠ نسمة عن رقم السلطات البريطانية التقديري في مطلع الانتداب، ويزيد ٢٠,٠٠٠ نسمة عن الرقم العثماني التقديري لسنجق القدس فقط)، ثم أضفناه الى رقم السلطات العثمانية نفسها لسنة ١٩١٤، وهو ٦٨٩,٢٧٢ نسمة، يصبح مجموع سكان فلسطين ٧٦٩,٢٧٢. ولمّا كان عدد اليهود ٦٠,٠٠٠ نسمة، بناء على رقم السلطات العثمانية أيضا، القائم على تقديرات روبين، فان نسبة اليهود تبلغ أقل من ٨٪ من مجموع السكان، وهي تحديدا ٧,٨٪

ولا يعقل ان ترتفع النسبة في السنوات الثلاث الأولى من الحرب، لأن لا خلاف في ان العدد كان في نقصان لا في زيادة.

سادسا: المستعمرات: إحصاءات

أنشأت جمعية الأليانس أول مستعمرة يهودية في فلسطين سنة ١٨٧٠. وبلغ عدد المستعمرات التي أنشأها «ييشوف» الهجرة الأولى عشرين مستعمرة زراعية، سكنتها ٧٢٠ عائلة تؤلف ٦٠٠٠ نسمة.[٧٩]

ذكر جاسترو في كتابه، الذي نشره سنة ١٩١٩، انه يوجد «حاليا» اربعون مستعمرة، يسكنها عشرة آلاف نسمة. ولمّا كان جاسترو يقول ان عدد السكان اليهود ٨٠,٠٠٠ نسمة، فالنسبة لسكان المستعمرات لديه تبلغ ١٢,٥٪.[٨٠]

أما بالنسبة الى غيره، الذين يقولون ان عدد السكان اليهود ٨٥,٠٠٠ نسمة، وان سكان المستعمرات ١٢,٠٠٠ نسمة، فالنسبة تبلغ لدى هؤلاء ١٥٪. وحتى هذه النسبة تعتبر نسبة ضئيلة في مجتمع جديد، تعتبر الزراعة بالذات من مبررات وجوده.

---

(٧٧) روجر أوين، «تاريخ فلسطين الاقتصادي في القرن التاسع عشر (١٨٠٠ ــ ١٩١٨)»، ترجمة يوسف شبل، «الموسوعة الفلسطينية»، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، المجلد الأول، ص ٥٧٠.

(٧٨) المصدر نفسه

(٧٩) «First Aliya,» *op.cit.*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol 1, p 325

جمعية الأليانس: Alliance Israélite Universelle

(٨٠) Morris Jastrow, *Zionism and the Future of Palestine: The Fallacies and Dangers of Political Zionism* (New York. The Macmillan Company, 1919), p. 140.

يُستنتج مما تقدم عدد وسطي لسكان المستعمرة الواحدة، هو ثلاثمائة نسمة تقريبا. وهذا العدد الوسطي قريب من العدد الوسطي الذي يُستنتج من جداول المؤرخ سوكولوف الذي زار فلسطين سنة ١٩١٤. وقد تضمنت الوثائق الملحقة بالجزء الثاني من كتابه التاريخي الشهير «تاريخ الصهيونية»، جدولين بالمستعمرات حتى سنة ١٩١٣، يضمان تاريخ إنشاء المستعمرة، وعدد السكان، والمساحة، ونوع العمل والمؤسسات إلخ... في كل مستعمرة.[٨١]

مما يلفت النظر في جدولي سوكولوف، أنهما أطول جدولين في مصادر المستعمرات؛ اذ يضمان بالأسماء المجرّدة ٥٧ مستعمرة. أما المستعمرات التي ذكر عدد سكانها، فتبلغ ٣٥ مستعمرة فقط. وواضح ان ما تبقّى من المستعمرات لديه هو إمّا مجرد أسماء لمستعمرات في مراحل تكوينها الأولى (وهذا هو تعبير سوكولوف)، وقد ثبت فيما بعد ان العديد منها لم يستوطن الى ما بعد سنة ١٩٤٨ مثل ابو شوشه ودلب؛ وإمّا أنها لم تكن مستعمرة قط بل قطعة من الأرض شُيدت عليها مدرسة، كما جاء في شرحه لمستعمرة شْفيا؛ وإما أنها قطعة ارض تزرع فيها جماعة صغيرة من العمال شجر اللوز، كما جاء في شرحه لمستعمرة كفار سابا. إلّا ان النقطة الجديرة بالتحليل هي أرقام السكان لديه للمستعمرات الخمس والثلاثين التي ذكرها تفصيليا.

يبلغ مجموع سكان المستعمرات، بعد القيام بعملية الجمع، ٩٩٠٥ نسمات. وهذا العدد يتوافق مع الأعداد الاجمالية التي تعطى لسكان المستعمرات، والتي تتراوح نسبتها بين ١٠٪ و١٢٪ من السكان اليهود في فلسطين. أمّا الجديد الذي تطرحه إحصاءات سوكولوف، فهو توزيع السكان على المستعمرات الخمس والثلاثين؛ فالعديد منها لم يستقطب إلّا أرقاما ضئيلة جدا، لا يمكن إزاءها اعتبار المستعمرة مستعمرة فعلا، وتتوزع أرقامه من الأعلى فالأدنى كما يلي:

٢٥٠٠ نسمة في مستعمرة محنيه يهودا،[٨٢] و١١٥٠ نسمة في بات شلومو، و٨٥٠ نسمة في نحلات يهودا، و٨٠٠ نسمة في رحفوت (ديران)، و٦٥٠ نسمة في روش بيناه (الجاعونة)، و٥٠٠ نسمة في نحاليم.

---

(٨١) راجع الجدولين في:

Nahum Sokolow, *History of Zionism· 1600-1918* Selected and Arranged by Israel Solomons (London. Longmans, Green, 1919), Vol. II, pp. 328-331.

(٨٢) ذكر سوكولوف ان سكّان مستعمرة محنيه يهودا كانوا من يهود اليمن، وأنها أُنشئت سنة ١٩١٣ (*Ibid.*, p. 329)، ولكن لم يرد ذكر لهذه المستعمرة في «الأنسيكلوبيديا اليهودية»، ولا في «أنسيكلوبيديا الصهيونية واسرائيل»، ولا في الجداول الرسمية. راجع الجدول المنقول عن «الكتاب السنوي لاسرائيل [١٩٥١]» في.

Alex Bein, *The Return to the Soil. A History of Jewish Settlement in Israel* (Jerusalem. The Youth and Hechalutz Department of the Zionist Organisation, 1952), pp 555-572.

ثم هناك اربع مستعمرات يتراوح عدد سكانها بين ٣٥٠ و ٢٢٥ نسمة؛ وثماني مستعمرات يتراوح عدد سكانها بين ٢٠٠ و ١٢٠ نسمة؛ وأربع مستعمرات يتراوح عدد سكانها بين ١٠٠ و ٦٠ نسمة؛ واحدى عشرة مستعمرة يتراوح عدد سكانها بين ٥٠ و ٢٠ نسمة.[٨٣]

ان ضآلة أرقام السكان المستوطنين في معظم المستعمرات، وارتفاعها في القليل منها، يتوافقان مع نسبة النجاح الذي حققته هذه المستعمرات. فالقليل منها كان ناجحا، بل نموذجيا، بشهادة المؤرخين عامة، والمؤرخين العرب خاصة من أبناء المرحلة؛[٨٤] غير ان معظمها كان حقول تجارب، وفي بداية الطريق. وبناء على ذلك، فرقم الأربعين مستعمرة ــ هذا الرقم الذي التصق تاريخيا بالوجود الصهيوني حتى وعد بلفور ــ هو في الواقع ادنى من ذلك كثيرا، ويصعب استنتاج الرقم الصحيح من دون تعريف المستعمرة، او تعريف الحدّ الأدنى من المقومات التي تؤدي الى اعتبار المستعمرة مستعمرة، فعلا.

إذا أخذنا المثال الصهيوني للمستعمرات المعروف بالكيبوتس، حيث يسود العمل الجماعي، فانه منذ قيام الكيبوتس الأول في دغانيا سنة ١٩٠٩ حتى سنة ١٩١٨، لم يكن هناك سوى اربعة كيبوتسات، ولا تضم أكثر من ١٢٠ مستوطنا؛ ذلك بأن معظم المستوطنين كانوا يفضلون السكنى في المستعمرات التقليدية حيث الاعتماد على اليد العربية العاملة كان سائدا.[٨٥]

سنة ١٨٩٠، كان هناك ٣٨٠٠ عربي يعملون في المستعمرات اليهودية عمالا وحراسا من مجموع ٥٠٠٠ عامل. وبعد هذا التاريخ ازداد العدد؛ فمستعمرة بتاح تكفاه (وهي من المستعمرات الناجحة)، كانت سنة ١٩١١ توفر العمل لـ ٤٠٠٠ عربي على أساس العمل الدائم، ولنحو ١٦٠٠ عربي على أساس العمل الموسمي ــ وأهمه قطف البرتقال، وتجفيف المستنقعات.[٨٦]

ان إطلاق الأسماء على الأراضي، وتثبيت هذه الأسماء كمستعمرات حتى قبل استيطانها، كما

---

(٨٣) من المستغرب ان سوكولوف لم يذكر أعداد السكان في مستعمرات عامرة مثل ريشون لتسيون ورخرون يعقوف.

(٨٤) راجع ملاحظات النائب روحي الخالدي على ثماني وعشرين مستعمرة في. وليد الخالدي، «كتاب السيونزم او المسألة الصهيونية لمحمد روحي الخالدي المتوفى سنة ١٩١٣»، في «دراسات فلسطينية: مجموعة أبحاث وضعت تكريما للدكتور قسطنطين زريق»، تحرير هشام نشابه (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨)، ص ٧٧ ــ ٨١.

(٨٥) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٩٢.

(٨٦) المصدر نفسه.

تقاضى العامل العربي أجرا يوميا في المستعمرات اليهودية من ٥ قروش الى ٨ قروش، في مقابل ١٠ قروش كان يتقاضاها العامل اليهودي (المصدر نفسه).

حاول سوكولوف ان يفعل من حلال جدوليه، لا ينفيان حقيقة ان العمل الاستيطاني حتى الحرب الكبرى، يقسم الى فئتين: فئة المستعمرات الناجحة ذات الوسائل الزراعية الحديثة فعلا، وهي معدودة؛[87] وفئة المستعمرات الهزيلة، او غير القائمة بعد، وهي عديدة.

ما مساحة الأرض التي تملّكها اليهود في فلسطين؟

تمكّن اليهود منذ سنة ١٨٨٢ حتى سنة ١٩١٤، من شراء ما مجموعه ٤٢٠,٦٠٠ دونم من أراضي فلسطين. وكانت وسائط الشراء الأساسية: شركة الأيكا؛ والأفراد الذين حصلوا على ٤٠٤,٢٠٠ دونم منذ الهجرة الأولى حتى الحرب الكبرى؛ والصندوق القومي اليهودي (الكيرين كاييمت) الذي حصل، سنة ١٩١٤، على ١٦,٤٠٠ دونم. أمّا نسبة المساحة التي استُغلّت في الزراعة فعليا، فقد بلغت نصف مساحة هذه الأراضي فقط.[88]

ان نسبة ما تملّكه اليهود حتى الحرب الكبرى، وبالتالي حتى وعد بلفور (إذ لم تكن هناك عمليات بيع وشراء للأراضي في الحرب)، لا تبلغ أكثر من ١,٥ ٪ من مجموع أراضي فلسطين. وما دامت الأراضي المستغَلّة للزراعة تبلغ نصف ما تملّك اليهود، فهذا يدل على انهم كانوا يزرعون أقل من ١ ٪ من مساحة فلسطين، وتبلغ النسبة تحديدا ثلاثة أرباع الواحد في المائة.

---

(٨٧) كانت على رأس المستعمرات الناجحة مستعمرة ريشون لتسيون (عيون قارة) التي اشتهرت بطرقها وأشجارها وصنع النبيذ، ومستعمرة زخرون يعقوب (رمارين)، ومستعمرة عقرون.

(٨٨) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٧٨، نقلا عن: *A Survey of Palestine*, Vol. II, pp 372, 376, 379, Gilbar, «Growing Economic Involvement,» pp 198-200.

الفصل الثاني

الأوضاع العامّة للسّكان العرب

أولا: الأوضاع الادارية والسياسية

لم يكن لفلسطين في العهد العثماني، ولا في اي عهد عربي إسلامي سابق، كيان سياسي مستقل. فهي، اسوة بسائر بلاد الشام، كانت تعتبر جزءا من الدولة الكبرى، وهي الدولة العربية الاسلامية منذ القرن السابع للميلاد حتى القرن السادس عشر، ثم الدولة العثمانية الاسلامية منذ سنة ١٥١٦ حتى سنة ١٩١٧.

كذلك لم يكن لفلسطين كيان إداري مستقل وموحَّد. وقد خضعت، عبر تاريخها الطويل، لعدة تقسيمات إدارية. أمّا في مطلع القرن التاسع عشر، فقد كانت مقسمة بين ولايتين: ولاية صيدا وعاصمتها عكا منذ سنة ١٨٠٧؛ وولاية دمشق. أمّا في آخر تقسيم إداري جرى سنة ١٨٨٣، فقد اصبحت فلسطين تقسم الى ثلاث متصرفيات، هي متصرفية القدس المستقلة التي تتبع الباب العالي مباشرة، ومتصرفيتا عكا ونابلس اللتان أُلحقتا بولاية الشام.[٨٩]

يلاحظ ان التقسيمات الادارية منذ عهد الرومان الشرقيين البيزنطيين، كانت تتقلّص أحيانا، وتتسع أحيانا اخرى حول الأرض التي عرفت منذ نهاية الحرب العالمية الأولى باسم فلسطين. فالرومان قد كرّسوا الاسم لثلاث مناطق، أطلقوا عليها كلها اسم فلسطين؛ فكانت فلسطين الأولى والثانية والثالثة.[٩٠] أمّا منذ الفتح العربي الاسلامي، فقد حافظ العرب إجمالا على هذه التقسيمات الادارية. ولمّا اصبحت المناطق الادارية تسمى أجنادا، عُرفت فلسطين الأولى في العهد

---

(٨٩) عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣.

(٩٠) راجع بشأن التقسيمات الادارية الرومانية، أعلاه: البند ثالثا ــ الفصل الثاني ــ القسم الثاني.

الروماني السابق بجند فلسطين، وذلك طوال التاريخ العربي حتى الغزو المنغولي. وقد اتّسع جند فلسطين شرقا حتى مدينة عمان، وجنوبا حتى خليج العقبة [٩١]

لم يطلق العثمانيون اسم فلسطين على البلاد، ولا على اي جزء منها في تقسيماتهم الادارية المتعاقبة، مما فتح الثغرة أمام الكتّاب الصهاينة للقول ان هذا هو احد الأدلة على عدم وجود كيان فلسطيني؛ والواقع ان التقسيمات الادارية العثمانية لم تحمل اي بُعد أكثر من كونها تقسيمات إدارية داخلية في امبراطورية كبرى، وكان طبيعيا ان تؤخذ أسماء الولايات والمتصرفيات عن أسماء المناطق والمدن؛ فأسماء الأقطار العربية ــ اليوم ــ لم ترد هي الأخرى بين أسماء الولايات والمتصرفيات العثمانية. فما ينطبق على غياب اسم فلسطين ينطبق، إذاً، على غياب اسم سوريا او لبنان.

كان لفلسطين اهمية خاصة لدى العثمانيين انفسهم؛ والدليل ان البلاد كان يُشار اليها دائما باسم فلسطين، حتى في القوانين الرسمية الصادرة عن الدولة،[٩٢] وفي مباحثات السلطان ورسائله. ففي الجواب التاريخي للسلطان عبد الحميد الذي أرسله الى هيرتسل، عبر نيولنسكي، كانت الاشارة الى البلاد باسم فلسطين فقد كانت فلسطين، في فكر عبد الحميد وضميره، بلدا واحدا موحدا، لا ثلاث متصرفيات. وكذلك كانت في فكر الرجل الآخر، هيرتسل، لكن من الموقع المضاد، اي انه أراد فلسطين أيضا بلدا واحدا موحدا، ولكن للقضاء عليه وبناء دولته الصهيونية.

ان افتقار فلسطين الى وحدة سياسية، او وحدة إدارية، وحتى وحدة اقتصادية، لا يُلغي وحدة المجتمع؛ فقد امتلكت فلسطين خصائص اجتماعية معينة، جعلتها وحدة قائمة بحدّ ذاتها. فأبناء فلسطين كانوا دائما يعون جيدا اهمية موقع بلادهم الديني. وقد تمحورت حول هذا الموقع قوى سياسية محلية، وزعامات عائلية، وتركيبات اجتماعية، وقيم، وعادات.

سياسيا، وعروبيا، لم تختلف مسيرة شعب فلسطين عن اي شعب عربي معاصر، في إطار الحركة العربية الواحدة، في نهاية العهد العثماني (وهذا ما عالجناه مطولا عبر القسم الثالث). ولو نالت فلسطين استقلالها اسوة بالأقطار العربية الأخرى، لكانت اليوم بلدا عربيا ينعم باستقلاله ودولته ومؤسساته السياسية والثقافية ــ وقبل هذا كلّه، بتراثه الحضاري.

---

(٩١) للتفصيل في التقسيمات الادارية، راجع:
Y. Porath, *The Emergence of the Palestinian-Arab National Movement 1918-1929* (London: Frank Cass, 1974), pp. 4-6

(٩٢) راجع نص القانون العثماني الصادر سنة ١٩٠٠، أعلاه، في: البند ثانيا «القوانين العثمانية وتطبيقها» ــ الفصل الأول ــ القسم الرابع.

ثانيا: البنية الاجتماعية

شارك أبناء فلسطين خلال الحرب الكبرى في صفوف الجيشين المتقاتلين، فقتل منهم من قُتل، وقضت المجاعة على من قضت، كما تعرّض الكثير من السكان، أفرادا وعائلات، للتشرد والنفي، ونتج من ذلك نقصان في مجموع السكان عن بداية الحرب. إلّا ان النقص في السكان قد شمل الجميع، العرب واليهود على السواء؛ فالنسبة لم تتبدل كثيرا، وبقي السكان، حتى صدور الوعد، يتألفون من أكثرية عربية، وأقليات يهودية وأجنبية.

شجع ابراهيم باشا عندما استولى على البلاد سنة ١٨٣١ نمو النفوذ الأجنبي، سياسيا ودينيا، وافتتحت في عهده أول قنصلية اجنبية في القدس لبريطانيا. وكرّت سبحة القنصليات، حتى عرفت مرحلة التنظيمات بعهد القنصليات الأجنبية. وأصبح للمسيحيين ولليهود وضع متساو مع المسلمين. ونشأت الامتيازات الأجنبية في إثر صدور الخط الهمايوني لسنة ١٨٥٦، وصدور القانون العثماني لتملّك الأجانب وحقهم في شراء الأراضي سنة ١٨٦٧، فازداد بالتالي النفوذ الأجنبي.[٩٣]

كان للبعثات الأجنبية التبشيرية والاستكشافية والثقافية، كما كان للدبلوماسيين، اثر بارز في الحياة العامة في البلاد، ولا سيما في الميدان الثقافي والميدان التجاري. وقد انتمى هؤلاء الى جنسيات مختلفة، فكان من ابرز الجوالي الأجنبية: الروسية (المسكوبية)، والانكليزية، والفرنسية، والألمانية، واليونانية، والايطالية، والأميركية. وقد أقام بعضها في مناطق خاصة (كولونيّات)، إلّا أنها لم تعتبر يوما من سكان البلاد، كي يقال ان فلسطين بلد متعدد القوميات، وهذا ما حاول الكتّاب الصهاينة طرحه في مطلع عهد بلفور.[٩٤]

كانت في فلسطين قومية واحدة يومئذاك، هي القومية العربية؛ فالأغلبية من السكان كانت عربا يؤلفون نحو ٩٠ ٪ من مجموع السكّان،[٩٥] يضاف اليهم نحو ٨ ٪ من اليهود ــ كما مر معنا سابقا ــ والباقي من الأجانب الذين بلغ تعدادهم عشرين ألفا تقريبا.[٩٦]

كذلك عاش في فلسطين عدد من العرب جاءها من البلاد العربية الأخرى، ولا سيما من المغرب ومصر ولبنان، وعدد من المسلمين المستعربين من الأتراك والشركس والأفغان والهنود. وكانت

---

(٩٣) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٦٣.

(٩٤) Jastraw, *op.cit.*, pp 103-104

(٩٥) David Gilmour, *Dispossessed: The Ordeal of the Palestinians.* Reprinted (London Sphere Books Limited, 1984), p 12

(٩٦) حنا صلاح، «فلسطين وتجديد حياتها» (نيويورك: الجمعية الفلسطينية لمقاومة الصهيونية، ١٩١٩)، ص ١٢.

الحكومة قد جاءت ببعض هؤلاء لصد غزوات البدو، فاستقر منهم في فلسطين من أراد ذلك، ولا سيما ان الدولة العثمانية كانت دولة موحدة؛ فأصحاب الجنسيات العثمانية كان يمكنهم التنقل بسهولة من بلد الى آخر، او من ولاية الى اخرى.

دينيا، استمرت فلسطين عبر التاريخ ملتقى الأديان السماوية الثلاثة. وقد تألف معظم السكان العرب من المسلمين، وكانت أغلبية هؤلاء من المذهب السنّي. أما المسيحيون العرب، فقد تراوحت نسبتهم بين ١٠ ٪ و١٢ ٪ من مجموع السكان العرب، وقد انتموا الى طوائف مسيحية متعددة، إلّا ان القسم الأكبر منهم كان من الروم الأورثوذكس.

جغرافيا، استقر ما يقارب نصف السكان في المدن الكبرى، وهي القدس وحيفا ويافا وغزة والخليل وعكا ونابلس والناصرة وطبريا وصفد، وانتشر النصف الآخر في أنحاء البلاد وقراها.(٩٧)

انقسم سكان فلسطين العرب، بالنسبة الى أماكن سكناهم، الى ثلاث فئات رئيسية هي: الحضر او سكان المدن، والفلاحون، والبدو. وانقسموا اجتماعيا، بلغة العهد العثماني، الى فئتين. فئة الأشراف، وفئة العامة. أمّا باللغة المعاصرة، فقد توزعوا على ثلاث طبقات رئيسية.

كانت الطبقة الاجتماعية الأكثر عددا بين السكان، هي الأكثر فقرا في الوقت نفسه، وكانت تضم أكثرية الفلاحين والبدو، الى جانب العمال في المرافىء والمدن، والعمال الزراعيين، والحرفيين الصغار. وينطبق على هؤلاء جميعا الوصف بأنهم فقراء، وأما بعضهم فقد عاش في حالة الفقر المدقع.

تألفت الطبقة الاجتماعية الثانية، وهي الوسطى والوسطى العليا، من موظفي الدوائر الرسمية وذوي الاختصاص والمهن الحرة والتجار وأصحاب الصناعات المحلية واليدوية. وقد نمت هذه الطبقة في المدن خاصة، وتراوحت أوضاعها المادية بين عائلات مستورة وعائلات ميسورة.

وتألفت الطبقة الاجتماعية الثالثة من كبار التجار والملاكين. وكانت هذه الطبقة هي الأقل عددا، والأكثر ثراء، وهي الطبقة التي تمكنت من السيطرة على الشؤون الاقتصادية للبلاد. وقد تمحورت هذه الشؤون بصورة رئيسية حول التجارة والملكية الزراعية.

في عهود الولاة الكبار الأقوياء، كأحمد باشا الجزار والي عكا، كان هؤلاء الولاة انفسهم على رأس الأثرياء والتجار. وقد احتكر الجزار لنفسه تجارة القمح والطحين، وكان من كبار الملاكين، كما كان يفتك بكل ثري من غير جماعة الأشراف.(٩٨)

---

(٩٧) المصدر نفسه، ص ٢١ ــ ٢٢.

(٩٨) نبيل بدران، «التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني» (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية ــ مركز الأبحاث، ١٩٦٩)، الجزء الأول، ص ٣٥.

كان «الشيـخ» يملك عادة أكبر مساحة من الأراضي في المطقة التي تخضـع له، وغالبا ما كان «الشيوخ» يتصرفون باستقلالية عن الدولة. إلاّ ان ابراهيم باشا قد قضى على سلطة «الشيوخ الحكام» في عهده القصير (١٨٣١ ــ ١٨٤٠)، كما ألغى الاقطاع سنة ١٨٣٩، فاستردت الدولة الاقطاعيات العسكرية، وأصبحت تعتبر هذه من أراضي الدولة، اي المشاع.

عادت الدولة العثمانية، بعد انحسار سلطة ابراهيم باشا، الى تقوية الحكام المحليين في عهد التنظيمات، الأمر الذي ادى الى تنافس شديد بين العائلات الكبرى، والى سلسلة من الحروب الداخلية المعروفة بالحروب القيسية ــ اليمنية (١٨٥٠ ــ ١٨٧٤). وفي غمرة هذه الحـروب، استحدثت الدولة منصب «المختار» سنة ١٨٦٤. وعلى العكس من منصب «الشيـخ» الوراثي، فقد اعتبر المختار موظفا معينا في الدولة، عليه واجبات متعددة لكنه لا يملك سلطة مستقلة. وما كان «المخاتير» ــ عادة ــ من الفئات المتعلمة او من أصحاب الثراء، ولهذه الأسباب استمرت السلطة الفعلية للمشايـخ والوجهاء.

بنيت القرى الفلسطينية في كثير من الحالات، على المرتفعات، لأسباب صحية ومناخية وأمنية. وقد توصلت القرية الى اكتفاء اقتصادي واجتماعي، وهو ما منحها حالة استقلالية وفردية ادت بمرور الزمن الى تمحور حياة القرية كلها حول العائلة او «الحمولة» باللغة المحكية، فهي التي قامت بالدور الأساسي احتماعيا واقتصاديا. كما كان للروابط العائلية الدور الموجه، وربما الحاسم، في السياسة المحلية. وهكذا، اصبحت العائلة البديل من الدولة في شؤون الأمن وشؤون العباد. ولم يكن الناس في القرى والأرياف يعرفون أصلا من رجال السلطة إلاّ وجهين: وجه جباة الضرائب في المواسم؛ ووجه الشيوخ والوجهاء.[٩٩]

مـع اقتراب نهاية القرن التاسـع عشر، تحول مركز ثقل القوى السياسية المحلية من الجبال والأرياف الى المدن الكرى، وخصوصا مدينة القدس. وقد شجّـع العثمانيون هذا التحوّل الذي كان من أسبابه، أيضا، اعتبار القدس سنجقا خاصا مستقلا، فبرزت في هذه المرحلة اهمية العائلات المقدسية العريقة بالنسبة الى سائر العائلات في المدن الأخرى. وكانت العائلات المقدسية تتباهى، في الدرجة الأولى، بميزة اتصالها نسبا بالسلالة النبوية الشريفة، او بالقبائل العربية الأصيلة في الجزيرة العربية، وفي المغرب العربـي. وقد انصرف الكثيرون من أبنائها الى الاهتمام بالأمور الدينية والعلمية، فكان منهم الشيوخ والعلماء والأئمة والمفتون.

(٩٩) Gilmour, *op cit.*, pp 26-28

تفاوتت هذه «الطبقة» المختارة من العائلات اقتصاديا، إلاّ أنها تمتعت بميزات متعددة، من أبرزها: إعفاء رجالها من الضرائب، وعدم السماح بمحاكمة واحد منهم إلاّ في منزل نقيب الأشراف، وحصولهم على أراض للأوقاف بحكم مكانتهم الدينية. وقد تحولت معظم هذه الأراضي، بحكم مرور الزمن ونظام الارث، الى ملكيات خاصة. غير ان أفضل الميزات كانت في تعيين أبنائها في المناصب العليا في الدولة السنية، سواء داخل فلسطين او خارجها، ولا سيما في سوريا والعراق واليمن كما كان في قدرتها إرسال أولادها للتعلم في الخارج. وهكذا، باتت قضايا الجاه والعلم والمنصب، أكثر اهمية من وراثة المال بالنسبة الى أفرادها، ولا سيما انهم كانوا أكثر أبناء جيلهم ثقافة بين العائلات الاسلامية.[١٠٠]

ثالثا: البنية الثقافية

توزعت المدارس في فلسطين عشية الحرب الكبرى على ثلاث فئات رئيسية هي، وفقا لانتشارها وعددها: المدارس الحكومية (العثمانية)، ومدارس الارساليات الأجنبية؛ والمدارس الوطنية الخاصة.

لم تنفق الدولة العثمانية كثيرا على التعليم. ففي سنة ١٩١٤، كان في فلسطين ٩٥ مدرسة ابتدائية حكومية، و٣ مدارس رشدية – اي ثانوية – تضم ٢٣٤ معلما و٨٢٤٨ تلميذا، منهم ١٤٨٠ من الإناث. وكانت لغة التدريس الرئيسية هي اللغة التركية.

بالاضافة الى المدارس الحكومية، كان هنالك ٣٧٩ كُتّابا (مجموعها كتاتيب)، يدرّس فيها ٤١٧ معلما، وتضمّ ٨٧٠٥ تلاميذ، منهم ١٣١ من الإناث. وكان يتعلم في الكتاتيب التلاميذ المسلمون الذين يدفعون أقساطا متدنية، وكان التعليم في هذه المدارس – الكتاتيب باللغة العربية.[١٠١]

عندما حاولت السلطات العثمانية إصلاح المدارس في آخر عهدها، زاد هذا الاصلاح المفتعل في البلبلة والضعف في المدارس الحكومية، لأنه كان مرتبطا بالسياسة الطورانية. وكان من ابرز مقوماته، التشجيع على دراسة آداب اللغة التركية، وتفضيلها في كل الحالات على اللغة العربية؛

---

(١٠٠) بيان نويهض الحوت، «القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ – ١٩٤٨» (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١)، ص ٨ – ٩

(١٠١) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٧٣.

فكان هذا ــ بحدّ ذاته ــ سببا كافيا لتحوّل العديد من الطلاب الى مدارس الارساليات الأجنبية.[١٠٢]

وفضلا عن سياسة التتريك، فقد كان المنهاج التعليمي صعيفا، وأساليب التدريس متدنية. وقد وصف احد الأساتذة المربّين المعاصرين الأوصاع التربوية بلاءات ثلاث: «والجانب الأكبر منها لا عدّة مدرسية لها تستحقّ الذكر، ولا منزل يصلح للسكن، ولا مدرّس له من العلم او التهذيب ادنى نصيب.»[١٠٣]

اصبحت فلسطين قبلة أنظار الأوروبيين، منذ حملة نابليون سنة ١٧٩٩. لكن المبشرين لم يصلوا اليها قبل استقرار الأوضاع في أوروبا نفسها، ودلك نحو سنة ١٨٢٠ ومن أوائل الارساليات الأجنبية التبشيرية، جاء الانجيليون سنة ١٨٢٣.[١٠٤] ومع استقرار المبشرين في فلسطين منذ منتصف القرن التاسع عشر، انطلقت مشاريعهم الثقافية.

اقتسم الانجيليون، منذ قدومهم، العمل في سوريا؛ فاهتم الأميركيون أكثر بالقسم الشمالي منها، واهتم الانكليز والألمان أكثر بالقسم الجنوبي ــ اي فلسطين

كانت اشهر مدارس الانكليز مدرسة صهيون، ومدرسة المطران في القدس، وعددا من المدارس الداخلية للاناث في القدس وبيت لحم ويافا والناصرة. أما الألمان، فكانت اشهر مدارسهم في القدس المدرسة الصناعية شنيلّر، وطاليثا قومي. وأما الروس (المسكوب)، فكانت أول مدارسهم في بيت جالا، وهي مدرسة خاصة للإناث.[١٠٥]

انتشرت مدارس الروم الأورثوذكس في معظم المدن والقرى التي يسكنها الأورثوذكس من أبناء البلاد. وقد اقتصرت هذه المدارس ــ بداية ــ على تدريس اللغة اليونانية والصلوات. ثم تطورت مناهجها وأصبحت تدرّس اللغة العربية، اسوة بالمدارس الانجيلية، وأخذت تجذب اليها المعلّمين الأكفاء.

كانت مدارس اللاتين على يد البعثات الفرنسية، من أول المدارس التي أُنشئت في البلاد. وكانت تتبع منذ إنشائها النهج الفرنسي في التربية والتعليم، وكانت منزلتها العلمية إجمالا، ارقى من مدارس الحكومة، او مدارس الروم. لكنها، اسوة بسائر المدارس الأجنبية، صرفت جهدا كبيرا

(١٠٢) خليل عبد الله طوطح، «التهديب»، في: حنا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٠.
(١٠٣) المصدر نفسه.
(١٠٤) حنا صلاح، «جغرافية البلاد»، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣
(١٠٥) خليل عبد الله طوطح، «التهديب»، في: حنا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٣ ــ ١٠٥.

على تدريس الشؤون الدينية والصلوات، كما ان لغة التدريس فيها كانت اللغة الفرنسية وأما اللغة العربية فكانت صعيفة فيها؛ غير ان اهم الفوائد لمدارس اللاتين، بالسبة الى طلابها، أنها مكنتهم ـ بفضل إتقانهم اللغة الفرنسية ـ من ان يعملوا في مختلف القطاعات التجارية والمصرفية، وفي المواصلات (إدارة البريد والتلغراف وشركات البواخر والقطر الحديدية وغيرها)؛ إذ كانت الأفصلية دوما لطلاب مدارس «الفرير»، اي مدارس اللاتين. وأسست راهبات اللاتين أيصا مدارس متعددة للاناث. [١٠٦]

كان من ابرز نتائج انتشار مدارس الارساليات الأجنبية، أنها وفرت فرصة التعليم لمعظم أبناء الطوائف المسيحية، فضلا عن أنها مكنتهم من إتقان اللغات الأجنبية أما أبناء الطوائف الاسلامية، فقد توجه معظمهم الى المدارس الحكومية والكتاتيب (ثم المدارس الوطنية الخاصة حين أُنشئت، لكنها كانت قليلة العدد) ولمّا كانت المدارس الحكومية لا تفي بالغرض، فقد نجم عن ذلك ان هذه المدارس لم تستوعب، سنة ١٩١٤، أكثر من ١٧,٠٠٠ طالب من مجموع ١٥٠,٠٠٠ ممن تتراوح أعمارهم بين ٧ و١٨ عاما. وأما بالنسبة الى الطلاب المسيحيين، فقد كانت الفرص متاحة لهم بصورة أفضل كثيرا، الأمر الذي ادى الى ان ترتفع نسبة التعليم بين الطلاب المسيحيين أضعاف ما هي عليه بين المسلمين. [١٠٧]

كان من ابرز نتائج صدور الدستور العثماني سنة ١٩٠٨، توجّه أبناء البلاد ـ تلقائيا ـ نحو نهضة علمية وأدبية وصحافية. وعلى صعيد التربية والتعليم، شهدت سنة ١٩٠٨ ولادة أول مدرسة وطنية عُرفت بـ«المدرسة الدستورية»، وقد أنشأها اربعة من كبار الأساتذة التربويين هم: خليل السكاكيني، وعلي جار الله، وجميل الخالدي، وافتيم مشبّك. وكذلك كانت مدرسة «روضة المعارف» من بعدها، والتي أنشأها المربي القدير الشيخ محمد الصالح. وقد كانت هاتان المدرستان، الدستورية والروضة، ابرز المدارس الوطنية التي أُنشئت في إثر صدور الدستور، واستمرت حتى الحرب الكبرى.

نهجت المدرسة الدستورية على احدث الوسائل التربوية والعلمية، لا قياسا بعصرها فحسب، بل قياسا بأي عصر متطور لاحق. وإنْ اشتهرت المدارس الحكومية العثمانية باللاءات الثلاث: «لا تعليم ولا منزل ولا مدرّس»، فقد اشتهرت المدرسة الوطنية الدستورية بلاءات مختلفة هي:

---

(١٠٦) راجع: المصدر نفسه، ص ١٠٠ ـ ١٠٥.

(١٠٧) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٧٣.

«لا قصاص ولا جوائز ولا علامات.»[١٠٨] ونقتطف من افتتاحية جريدة «فلسطين» وصفا حيا لزيارة المدرسة الدستورية التي كانت، يومذاك، في عامها الثالث:

> نظرنا مدرسة قد أطلقت عقول تلامذتها من رباط الأوهام، وحررت نفوسهم من أسر الجبن والرياء اللذين يلازمان العلمة، وثبتت فيهم روح الرجولية والإقدام. ترى التلميذ منهم لا يخشاك آتيا ولا يهابك متكلما ولا يحني الرأس أمامك رياء، ولا يحتمي منك جبنا يحادثك إذا حادثته، ويجيبك إذا سألته، ويناقشك إذا ناقشته.
>
> يحترم التلميذ منهم معلّمه لكونه أستاذا يستفيد منه، ولا يرتجف منه لأنه رجل وهو غلام، فلا عقوبات توجبه ان يتلبّس بالمكر والخداع لينجو منها، ولا جوائز تلزمه طرق باب التدليس والرياء ليحصل عليها حلٍّ عنك ترتيب دروسها وكيفية إعطاء هذه الدروس على احدث الطرق الأميركية من قبل أساتذة يعتبرون تلامذتهم رفاقا لهم [١٠٩]

اتجه الشباب المقتدر ماليا الى الدراسة في الخارج وإكمال تحصيله العلمي، وخصوصا في استانبول وبيروت والقاهرة، كما توجه بعضهم الى باريس وقد كان لوجود الشباب العربي من فلسطين وسواها من بلاد العرب في هذه العواصم من أجل الدراسة، الأثر الكبير في مساهمتهم في ميلاد الحركة السياسية التي انطلقت جمعياتها السرية والعلنية من هذه المدن بالذات.

لم يقتصر الوعي العربي الوطني على شباب فلسطين في الخارج؛ ففي القدس نفسها، لمّا أقفلت مدارس متعددة أبوابها بسبب الحرب، افتتح جمال باشا السفاح «الكلية الصلاحية» أمام الطلاب العرب من فلسطين وسوريا ولبنان، وهو يهدف من إنشائها الى ان تصبح معقلا للطورانية، وأن يصبح طلابها حملة العقيدة الطورانية بين بني قومهم. غير انه كان للسفاح عكس ما أراد تماما؛ إذ تحول طلاب الكلية الصلاحية العسكرية، الى طليعة عربية واعية بفضل أساتذتهم، الذين كان منهم: محمد إسعاف النشاشيبي، والشيخ حسن ابو السعود، والشيخ عبد الرحمن سلام، ورستم حيدر. وقد استمرت الصلاحية ثلاثة أعوام، انتقلت بعدها الى دمشق، ولم تلبث ان أقفلت أبوابها قبيل نهاية الحرب.[١١٠]

وساهمت الصحافة الأدبية في خلق مناخ ثقافي في البلاد. فالى جانب الدوريات السياسية، صدر بين سنتي ١٩٠٦ و١٩١٤ اربع عشرة دورية ادبية، منها اربع دوريات مدرسية صدرت عن المدارس الحديثة في نهجها التربوي كالمدرسة الدستورية. وفي طليعة الدوريات الأدبية: جريدة

---

(١٠٨) عجاج نويهض، «رجل من فلسطين. خليل السكاكيني»، جريدة «فلسطين» (القدس)، ٩ تموز/يوليو ١٩٥٥.

(١٠٩) ي [يوسف العيسى]، «المدرسة الدستورية»، جريدة «فلسطين»، العدد ٩٠، ٢٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١١.

(١١٠) عجاج نويهض، مصدر سبق ذكره.

«الأصمعي» لحنا عبد الله العيسى، سنة ١٩٠٨؛ وجريدة «القدس»، في السنة نفسها، لصاحبها جورجي حبيب حنانيا، وكانت جريدة علمية ادبية إخبارية. أمّا اهم المجلات الأدبية كافة، فكانت «النفائس العصرية» التي صدرت منذ سنة ١٩٠٩، وتنبع ميزتها من قلم صاحبها الأديب والرائد في القصة العربية الحديثة، خليل بيدس؛ فقد أتقن بيدس اللغة الروسية، ونشر ترجمات لأمهات الأدب الروسي، كما استقطب بمكانته الأدبية الشعراء والأدباء العرب، حتى اصبحت مجلته في طليعة المجلات الأدبية العربية.

ترددت في الصحافة الأدبية في فلسطين، بصورة عامة، أسماء شعراء وأعلام في الفكر والأدب، منها: اسكندر الخوري البيتجالي، وخليل السكاكيني، وخليل بيدس، ونخلة زريق، وعلي الريماوي، ومحمد إسعاف النشاشيبي الذي أُطلق عليه «اديب العربية»، وسليم اليعقوبي الذي عُرف بتوقيعه المستعار «حسّان فلسطين».[111]

برزت من خلال الصحافة اليومية، حتى الحرب الكبرى، بواكير نهضة فكرية وأدبية واجتماعية، وحتى مسرحية. فجمعية «نهضة التمثيل الأدبية» تقدم «هملت»، وغيرها؛ والجمعيات النسائية يتكاثر عددها، وكذلك أعمالها؛ فضلا عن إقبال المعاهد الخاصة على تدريس اللغات المتعددة والفنون والموسيقى، ومنها «دار الفنون» في حيفا. غير ان هذه النهضة الوليدة والواعدة قد تعثرت في الحرب الكبرى، حتى أصابها الشلل، كما أصاب الضعف او الشلل وجوه الحياة الأخرى، لا في فلسطين وحدها بل في بقاع متعددة من هذا العالم الذي يعيش، أول مرة، جهنم حرب عالمية.

رابعا: التطور الزراعي

يُعتبر المجتمع الفلسطيني بصورة عامة مجتمعا زراعيا؛ فالزراعة هي الميدان الذي اجتذب اليه الأكثرية من السكان، مالكين كانوا اومزارعين اوعمالا مزارعين. ومع ذلك، فلم يوجد في فلسطين إقطاعيات كبيرة من الأراضي، كما وجد في مصر او في شمال سوريا مثلا وبمعنى آخر، فالاقطاع الزراعي بالمفهوم التقليدي كان غائبا. وإنْ يكن هذا لا ينفي وجود عدد من العائلات تملك الواحدة منها أراضي تقدر بأربعين ألف دونم، وحتى ستين ألف دونم، إلّا ان معظم الأراضي في فلسطين كانت ملكيات صغيرة. ولم يكن نصف الذين يعملون في الزراعة يجنون أكثر من كفاف

(١١١) «الصحافة»، «الموسوعة الفلسطينية»، القسم العام، المجلد الثالث، ص٧ – ٩.

يومهم، ويزرعون أرضا أقل من ثلاثين دونما. وهذا، بالإضافة الى ان ثلث المزارعين لم يمتلكوا أرضا، وكانوا يجبرون على العمل عند سواهم. ومع تزايد عدد السكان كانت مساحة ملكية الأراضي تصغر، بحكم توزع الإرث.(١١٢)

كانت احدى مشكلات فلسطين الرئيسية ان الدولة لم تسجّل الأراضي في فلسطين (ولا في سوريا) تسجيلا كاملا دقيقا. ولمّا باشرت ذلك، سنة ١٩١٣، داهمتها الحرب بعد عام وتوقفت أعمال التطويب في مرحلتها الأولى.(١١٣)

صدر قانون الأراضي سنة ١٨٥٨، وكان الهم الأكبر للسلطات العثمانية من ورائه جمع الضرائب المستحقة؛ ذلك بأن تسجيل الأراضي باسم أصحابها، يجعل من هؤلاء مسؤولين أمام الدولة عن دفع الضرائب. غير ان عمليات التسجيل كانت تتم عادة مع وصف قطعة الأرض بصورة عامة، من دون الاشارة الى وجود خرائط، ومن دون القيام بمسح دقيق للأراضي أصلا. ومنذ البدء بالتسجيل على هذه الصورة، اي منذ سنة ١٨٧١ حتى سنة ١٩١٤، لم يكن قد سُجّل بعد أكثر من ربع مساحة فلسطين الاجمالية.

كان من اهم الأسباب وراء ذلك، تهرّب المزارعين الصغار انفسهم من عملية التسجيل لأسباب متعدّدة، أهمها: عدم قدرة المزارع على دفع الرشاوى المطلوبة للموظفين، واعتقاد المزارع ان التسجيل لن يُظهر أكثر من جزء صغير من الأرض التي يعتقد أنها ملكه، كذلك كان بعض الفلاحين يهرب من التسجيل اعتقادا منه انه يهرب في الوقت نفسه من الضرائب الباهظة، ومن التجنيد الاجباري؛ فالتملك معناه وجود سجل رسمي له في الدولة ولعل اهم الأسباب كلها كان عدم الوضوح في مفهوم الملكية في أدهان الناس عامة، بين المشاع العام والمُلك الخاص.(١١٤)

كانت الدولة هي المالك الأكبر؛ فكانت تملك فعلا أراضي شاسعة في كل البلاد تعرف بـ «المشاع» او «الجفتلك». وكانت الدولة تسلم المزارعين أحيانا أجزاء من أراضيها بشروط معينة، أهمها ان المزارع يصبح مالكا للأرض إذا اعتنى بها لسنين محدودة، وإذا دفع الضرائب العينية والمالية المستحقة عليه (١١٥) أمّا الفلاحون والملاكون الصغار عامة، فكان قسم كبير منهم، إمّا يبادر الى تسجيل ارضه باسم الملاكين الكبار هربا من الضرائب، وإما يعلن عجزه عن دفع

(١١٢) Gilmour, *op.cit.*, p 23

(١١٣) حنا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩

(١١٤) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٦٧.

(١١٥) حنا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩ ـ ٥٠.

الضرائب المستحقة عليه، فتبادر الدولة الى الاستيلاء على ارضه وعرضها في المزاد من أجل **استيفاء** ديون الضرائب المترتبة عليه. ومن هذا الباب الواسع حصلت العائلات الثرية، من لبنانية وفلسطينية، على اخصب الأراضي في فلسطين.[١١٦] ولعل أكثر الأمثلة شيوعا في هذه العمليات، كانت أراضي مرج ابن عامر ووادي الحوارث.

بادرت السلطات العثمانية الى بيع ١٧ قرية في مرج ابن عامر لحساب دائنيها من اربع عائلات لبنانية مرموقة، فاشترى آل سرسق ـــ وهم احدى العائلات الأربع ـــ حصص العائلات الثلاث الأخرى، ثم اشتروا أراضي إضافية، حتى تملكوا مساحة تتراوح بين ١٨٠,٠٠٠ و ٢٣٠,٠٠٠ دونم من أخصب الأراضي.

وكذلك أراضي وادي الحوارث بين حيفا ويافا؛ فعندما عجز أصحابها عن دفع الضرائب المستحقة عليهم، انتهى الأمر ببيع وادي الحوارث الى أنطوان التيّان (وهو لبناني من سكان يافا)، فاشترى ما مساحته ٣٠,٠٠٠ دونم ثم باعها الى هنري استرنغان (وهو فرنسي مقيم في سوريا) سنة ١٨٨٢. وظل الرهن من دائن الى آخر، حتى استولت الوكالة اليهودية عليها في أثناء الانتداب.[١١٧]

لم يكن الوعي الوطني غائبا عما كان يجري بالنسبة الى بيع الأراضي؛ فقد جاء في جريدة «الكرمل»:

> ما معنى قرار نظارة المالية ببيع الجفالك الأميرية بعد ورود بشائر الاتفاق [يقصد قرارات المؤتمر العربي الأول في باريس]؟ وهل عند الأهالي مال لمشترى هذه الأراضي بالمزاد العلني!
>
> الحكومة تقول انها تريد البيع بشرط حفظ حقوق المزارعين، وما هي قوة هذا الشرط في نظر القانون. انه كمن يبيع فرسا ويشترط على المشتري ان لا يبيعها لغيره اولا يستخدمها في الشيء الفلاني، فالبيع صحيح والشرط فاسد...
>
> يا رجال الحكومة! ان الصهيونيين إنما يسعون الآن لإيجاد أكثرية في فلسطين، فما دامت مهاجرتنا من بلادنا،[١١٨] ومهاجرتهم اليها مستمرة، وإذا بعتموهم الجفالك الأميرية صاروا في اربع او خمس سنين أكثرية، وتوسلوا بحميع الوسائل للاستقلال، وأوروبا تعاونهم، ولهم من قوانين لاهاي ما يساعدهم. تفكروا قبلما تندموا ولا تجرّوا علينا مشكلة مكدونيا ثانية في سوريا...[١١٩]

(١١٦) عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥.

(١١٧) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٦٩.

(١١٨) هذا التخوف من هجرة الفلسطينيين الى الخارج مبالغ فيه؛ فقد هاجر منذ أوائل القرن العشرين عدد ضئيل طلبا للرزق، ولا سيما من بيت لحم وبيت جالا ورام الله والناصرة وقرى القدس، ولم يتجاوز عدد المهاجرين حتى سنة ١٩١٨ ثلاثة عشر ألفا، اي بنسبة ٢٪ من السكان (حنا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥).

(١١٩) جريدة «الكرمل» (حيفا)، العدد ٣٤٧، ٨ تموز/يوليو ١٩١٣.

لقد ادى تنوع المناخ في فلسطين الى تنوع في الانتاج الزراعي؛ فالحبوب من معظم أنحاء البلاد، وحتى في السهول الصغيرة؛ والقطن والتبغ من الشمال؛ والعنب من الخليل وبيت لحم؛ والزيتون من نابلس والرامة؛ والجوز من جنين؛ واللوز من الرملة؛ والموز من أريحا؛ والباذنجان من بتّير؛ والبطيخ من طولكرم؛ والرمّان من وادي الطواحين، والبرتقال ــ اهم الصادرات ــ من يافا وغزة. أما شهرة فلسطين الزراعية فقد كانت، بصورة رئيسية، بالحمضيات والزيتون والعنب.

وساهم البدو في نمو الحياة الاقتصادية ــ وهم الفئة المجهولة والمنسيّة في الاحصاءات الرسمية ــ فكانوا مزارعين، وكانوا رُعاة. وقد وفّروا للبلاد برعيهم للماشية مواد الحليب والأجبان واللحوم والصوف والجلود

ومن ابرز ما يميز الزراعة في هذه المرحلة، قيام قسم كبير منها على صيغ تعاونية بين المزارعين؛ فقد تألفت أنواع مختلفة من الشركات الزراعية لتضافر عوامل الانتاج المختلفة.[١٢٦]

خامسا: التطور الصناعي والتجاري

سعت القرى الفلسطينية، في معظمها، لتحقيق نوع من الاكتفاء الذاتي في إنتاج حاجاتها، ولا سيما في الملابس والسجاد والطوب ومواد البناء الأخرى. غير انه كان في فلسطين أيضا نوع من التخصّص الاقليمي الذي تطور على مدار السنين. وفي هذا المجال، برز أصحاب المهن والصناعات الحرفية؛ فاشتهرت الخليل بإنتاج الزجاج والمنتوجات الصوفية والجبنة والملبن؛ كما اشتهرت بيت لحم والقدس بإنتاج العلب التذكارية والسبحات والهدايا المصنوعة من خشب الزيتون والصدف؛ في حين اشتهرت غزة بالفخاريات؛ ونابلس والقدس ويافا وغزة بإنتاج الصابون المصنوع من زيت الزيتون؛ وكذلك المجدل ويافا ونابلس بالمنسوجات القطنية.[١٢٧]

اجرت الحكومة البريطانية إحصاء للصناعات في فلسطين سنة ١٩٢٧؛ وقد ثبت وجود ١٢١٥ منشأة صناعية، كانت قائمة سنة ١٩١٤، فضلا عن المنشآت التي توقفت خلال تلك الفترة.[١٢٨]

---

(١٢٦) راجع بشأن الانتاج الزراعي: المصدر نفسه، ص٥٥٣ ــ ٥٥٥؛
Gilmour, *op.cit* , pp. 24-26.

(١٢٧) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٥٥.

(١٢٨) تعني المنشأة الصناعية كل مصنع او مشغل ينتج سلعة ما جاهزة للبيع، باليد او عن طريق الطاقة، ويضم يدا عاملة بأجر او من دون اجر. اي ان الصناعات المنزلية للاستهلاك العائلي خارج هذا الاحصاء (روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٨٠).

لقد ادى تنوع المناخ في فلسطين الى تنوع في الانتاج الزراعي؛ فالحبوب من معظم أنحاء البلاد، وحتى في السهول الصغيرة؛ والقطن والتبغ من الشمال؛ والعنب من الخليل وبيت لحم؛ والزيتون من نابلس والرامة؛ والجوز من جنين؛ واللوز من الرملة؛ والموز من أريحا؛ والباذنجان من بتّير؛ والبطيخ من طولكرم؛ والرمّان من وادي الطواحين؛ والبرتقال ــ اهم الصادرات ــ من يافا وغزة. أما شهرة فلسطين الزراعية فقد كانت، بصورة رئيسية، بالحمضيات والزيتون والعنب.

وساهم البدو في نمو الحياة الاقتصادية ــ وهم الفئة المجهولة والمنسيّة في الاحصاءات الرسمية ــ فكانوا مزارعين، وكانوا رُعاة. وقد وفّروا للبلاد برعيهم للماشية مواد الحليب والأجبان واللحوم والصوف والجلود

ومن ابرز ما يميز الزراعة في هذه المرحلة، قيام قسم كبير منها على صيغ تعاونية بين المزارعين؛ فقد تألفت أنواع مختلفة من الشركات الزراعية لتضافر عوامل الانتاج المختلفة.(١٢٦)

خامسا: التطور الصناعي والتجاري

سعت القرى الفلسطينية، في معظمها، لتحقيق نوع من الاكتفاء الذاتي في إنتاج حاجاتها، ولا سيما في الملابس والسجاد والطوب ومواد البناء الأخرى. غير انه كان في فلسطين أيضا نوع من التخصّص الاقليمي الذي تطور على مدار السنين. وفي هذا المجال، برز أصحاب المهن والصناعات الحرفية؛ فاشتهرت الخليل بإنتاج الزجاج والمنتوجات الصوفية والجبنة والملبن؛ كما اشتهرت بيت لحم والقدس بإنتاج العلب التذكارية والسبحات والهدايا المصنوعة من خشب الزيتون والصدف؛ في حين اشتهرت غزة بالفخاريات؛ ونابلس والقدس ويافا وغزة بإنتاج الصابون المصنوع من زيت الزيتون؛ وكذلك المجدل ويافا ونابلس بالمنسوجات القطنية.(١٢٧)

اجرت الحكومة البريطانية إحصاء للصناعات في فلسطين سنة ١٩٢٧؛ وقد ثبت وجود ١٢١٥ منشأة صناعية، كانت قائمة سنة ١٩١٤، فضلا عن المنشآت التي توقفت خلال تلك الفترة.(١٢٨)

---

(١٢٦) راجع بشأن الانتاج الزراعي: المصدر نفسه، ص ٥٥٣ ــ ٥٥٥؛
Gilmour, *op.cit*, pp. 24-26.

(١٢٧) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٥٥.

(١٢٨) تعني المنشأة الصناعية كل مصنع او مشغل ينتج سلعة ما جاهزة للبيع، باليد او عن طريق الطاقة، ويضم يدا عاملة بأجر او من دون اجر. اي ان الصناعات المنزلية للاستهلاك العائلي خارج هذا الاحصاء (روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، ، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٨٠).

يتضح من الاحصاء المذكور، ان أكثر المشآت الصناعية عددا كانت معاصر زيت الريتون التي بلغ عددها ٣٣٩ معصرة، يليها مصانع حصر القش التي بلغت ١٢٤ مصنعا، ومصانع الأحذية ١١٤ مصنعا، ومصانع أشغال الحديد ١٠١ من المصانع. أما ابرز الصناعات الأخرى (من غير المائة مصنع للواحدة منها)، فهي: المطاحن، والمحابز، ومعامل الصابون، والفخار، والحياكة، والمطابع، ومشاغل النجارة، والخياطة، ومعاصر زيت السمسم، وصناعة مواد البناء (طوب وبلاط وأنابيب).(١٢٩)

ولا يشتمل الاحصاء أعلاه على الصناعات المنزلية المنتشرة في القرى والعديد من المدن؛ فبينما ورد في هذا الاحصاء وجود ٤٢ مصنعا للحياكة في فلسطين كلها (حتى سنة ١٩١٤)، ورد في تقرير للقنصل الانكليزي سنة ١٩١٠، ان في المجدل (وحدها) خمسمائة نول، وفي غرة خمسين. ويجلب أصحاب هذه الصاعة القطن عادة مں إنكلترا فيصبغونه ثم يحيكونه، ويبيعون إنتاجهم في الدول المجاورة وقد بلغ ما ورد عليهم من القطن سنة ١٩١٠ من مدينة مانشستر نحو عشرة آلاف بون.(١٣٠)

كانت اشهر الصناعات الفلسطينية التي اكتملت بالفن اليدوي والإبداع الجمالي، صناعة الصدف التي تميزت بيت لحم بها، وبرع فيها معظم أبنائها رجالا ونساء، الأمر الذي جعل ابراهيم باشا يأخذ معه عددا من التلحميين المهرة لإنشاء صناعة الصدف في مصر.

استوردت فلسطين الصدف من بومباي ومن جدّة، ثم حولته الى قطع فنية على مختلف الأنواع: صلبان، ومجسّمات للأماكن الدينية، وتجليد كتب دينية، وهدايا تذكارية صغيرة، وأدوات زينة، وحتى الى صناعة البنادق المزخرفة الدقيقة التركيب. ولّما حاولت الحكومة التركية القبض على التلحميين صنّاع البنادق المزخرفة، هرب هؤلاء من البلاد، فتأخرت من بعدهم هذه الصناعة.(١٣١)

كان من الطبيعي ان يؤدي التطور الصناعي، وكذلك التطور الزراعي المرافق له، الى تطور مماثل في التجارتين الداخلية والخارجية. وقد ساهم إنشاء الخطوط الحديدية للنقل منذ القرن التاسع عشر، في دفع عجلة الاقتصاد الى الأمام، فدُشِّن أول الخطوط بين يافا والقدس سنة ١٨٩٢، وكان

---

(١٢٩) روحر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق دكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٨١، نقلا عن:
Government Census of Industries, 1928

(١٣٠) حنا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ٧٧.
نستنتج مں تقرير القنصل الانكليزي أعلاه، ان الأرقام المذكورة لديه تشمل الحياكة المنزلية، كما تشمل الحياكة في المصانع.

(١٣١) يعقوب حنظل، «صناعة الصدف»، في: حنا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ٨٥ ــ ٨٨.

ينقل البضائع، وكذلك السياح في المواسم. وانتهى العمل بالخط بين حيفا ودرعا سنة ١٩٠٤. وهذا بالاضافة الى خطوط داخلية اخرى استُكملت في سنوات الحرب.

أمّا طرق المواصلات المسماة الطرق السلطانية، فقد استُكملت أول طرقاتها سنة ١٨٦٧، وهي الطريق التي شقت في الجبال بين يافا والقدس. وكانت معظم الطرق السلطانية تقام على آثار الطرق الرومانية القديمة. وقد ازداد انتشار هذه الطرق بين المدن المتعددة في كل الاتجاهات داخل البلاد، وكذلك بين الداخل والخارج: مع عمّان وصيدا والقنيطرة. وقد أُقيمت معظم هذه الطرق بين سنتي ١٩١١ و ١٩١٤، سنة الحرب الكبرى.[١٣٢]

وكان لفلسطين ثلاثة موانىء قبل الحرب الكبرى، وهي موانىء يافا وحيفا وغزة. أمّا أكثرها شهرة وأهمية، فكان ميناء يافا؛ وهو، حتى بالمقارنة مع موانىء المنطقة، كان الميناء الثاني بعد ميناء بيروت، وكان ميناء حيفا هو الثالث.[١٣٣]

قبل سنة ١٨٤٧، كانت الصادرات الفلسطينية تُشحن الى أوروبا عن طريق مرفأ بيروت. لكنّ المحصول الزراعي كان وفيرا جدا في تلك السنة، وهو ما جعل البواخر ترسو أمام ميناء يافا لتنقل الشعير الى الجزائر، والذرة والسمسم الى مرسيليا وتريستا. كما رست بواخر أمام ميناء حيفا لتنقل السمسم الى مرسيليا. وفي السنة التالية، سنة ١٨٤٨، وصلت السفن من بريطانيا محمّلة بالسلع الانكليزية أول مرة، مباشرة الى فلسطين، وعادت محمّلة بالحبوب. وهكذا ابتدأت التجارة الدولية بالنموّ والازدهار.[١٣٤] وقد بقي التجار الأجانب، ولا سيما الطليان واليونان، مسيطرين على التجارة الدولية حتى سنة ١٨٥٦، حين صدر الخط الهمايوني الذي ادى الى وصاية الدول الأوروبية (عبر قنصلياتها) على الأقليات المسيحية في الشرق، فأقبل المسيحيون العرب على التجارة الدولية، ثم تبعهم المسلمون. ويمكن القول إجمالا ان التجار العرب أخذوا يتوسعون في التجارة الدولية منذ منتصف السبعينات حتى سيطروا عليها.[١٣٥]

ويعطي هذا المثال دليلا على نمو صادرات البلاد في المرحلة الأولى لنمو التجارة الدولية؛ فقد

---

(١٣٢) المصدر نفسه، ص ٩٤ ــ ٩٥

(١٣٣) حنا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ٨٩ ــ ٩٠.

في إحصاء لسنة ١٩١٠ ان عدد البواخر التي رست في موانىء المنطقة كان: ١١٤٣ في ميناء بيروت، و٧٠٧ في ميناء يافا، و٥٥٥ في ميناء حيفا، و٤٧٢ في ميناء الاسكندرونة، و١٣٧ في ميناء اللاذقية، و١٠٩ في ميناء صيدا (المصدر نفسه، ص ٩٠).

(١٣٤) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٦٣.

(١٣٥) نبيل بدران، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ٣٥.

ارتفعت قيمة الصادرات من ميناء يافا من ١٥٠,٠٠٠ جنيه استرليني في منتصف الخمسينات الى ما يتراوح بين ٢٥٠,٠٠٠ و ٥٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني في منتصف السبعينات. وكان ما بين ثلث الصادرات ونصفها يتألف من القمح والشعير والذرة البيضاء، وشملت باقي الصادرات السمسم، وزيت الزيتون، والبرتقال الشموطي، والصابون المصنّع من زيت الزيتون [١٣٦]

ارتبط حجم الصادرات سنويا بكميات المحاصيل الزراعية والفائض عن حاجة البلاد. وقد ارتبطت المحاصيل ــ أساسا ــ بالأمطار وغزارتها في سنة، وشحّها في سنة اخرى. غير ان الصادرات الفلسطينية تميزت مع ذلك بتنوعها، ولم تقتصر على نوع واحد (كالقطن من مصر او الحرير من جبل لبنان). وهذا ما جعل مجموع الصادرات يستقر استقرارا نسبيا، حتى في بعض السنوات التي هبط الانتاج الزراعي فيها. كما بقي تصدير السمسم والصوف ثابتا نسبيا.[١٣٧] والأهم من ذلك كله، ان ميزان الصادرات والواردات يشير الى وجود فائض زراعي في فلسطين، إذ كان من النادر استيراد بعض الحبوب للاستهلاك المحلي.[١٣٨]

بلغ مجموع الصادرات من ميناء يافا سنة ١٩١٣ ما قيمته ٣,٦٤٠,٧٧٢ دولارا أميركيا. كما بلغت الصادرات ، حتى منتصف السنة التالية، ما نسبته ٦٣ ٪ تقريبا من هذا المجموع، الأمر الذي يشير الى ارتفاع ملموس في الصادرات لولا نشوب الحرب وتوقف الموانىء عن العمل. ومع استخراج النسب المئوية التقريبية لصادرات يافا سنة ١٩١٣، يحتل البرتقال نسبة ٤٠ ٪، والصابون ٢٧ ٪، والخمر والكحول ٨ ٪، والأثمار والموز ٦ ٪، والتذكارات الدينية ٤ ٪، وبزر السمسم ٤ ٪. بينما تتوزع بقية الصادرات على مواد مختلفة أهمها: الجلود، والخضروات، والحبوب.[١٣٩]

أُرسلت الصادرات من ميناء يافا لسنة ١٩١٣ الى مجموعة من الدول، وتبلغ الصادرات بالنسب التقريبية: ٣٧ ٪ الى مصر، و٢٧ ٪ الى بريطانيا، و١١ ٪ الى تركيا، و٦ ٪ الى روسيا، و ٥ ٪ الى فرنسا، و ٤ ٪ الى النمسا والمجر، و ٣ ٪ الى ألمانيا. وتوزعت باقي الصادرات على عدد من الدول، منها الولايات المتحدة، وبلجيكا، والمستعمرات البريطانية، وإيطاليا.[١٤٠]

---

(١٣٦) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٦٥
نقل المؤلف هذه الاحصاءات عن تقارير للقناصل الأجانب

(١٣٧) المصدر نفسه، ص ٥٦٥ ــ ٥٦٦.

(١٣٨) المصدر نفسه، ص ٥٦٦.

(١٣٩) حنا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧ ــ ٥٨.
نقل المؤلف هذه الاحصاءات عن تقارير للقناصل الأجانب.

(١٤٠) المصدر نفسه، ص ٦١ ــ ٦٢.

اهتمت الصحافة الفلسطينية بالاقتصاد اهتماما خاصا، قبيل الحرب الكبرى. وجاء في إحصاءات نشرتها جريدة «فلسطين»، ان الواردات عبر ميناء يافا بلغت، سنة ١٨٨٥، ما قيمته ٣٥٢,٠٠٠ فرنك. أما الصادرات، فقد بلغت ٤,٣٧٥,٠٠٠ فرنك؛ وأمّا سنة ١٩١١، فقد بلغت الواردات من الميناء نفسه ١٥,٩٥٤,٠٠٠ فرنك، بينما بلغت الصادرات ١١,٨٥٥,٠٠٠ فرنك.

ثم قارنت جريدة «فلسطين» بين عدد البواخر، فذكرت ان عدد البواخر كان بالعشرات سنة ١٨٨٥، والباقي كان مراكب شراعية بأعداد كبيرة. أما في سنة ١٩١١، فقد بلغ عدد البواخر ٧٦٦ باخرة، بينما تراجع عدد المراكب الشراعية الى ١٠٦٥ مركبا. وتعلّق الجريدة بأن التقدم طبيعي، وهو ليس بفعل الحكومة، وإنما بجهد أبناء البلاد العرب، وكذلك بجهد اليهود المقيمين، وقد دعتهم بـ «الاسرائيليين».[١٤١]

هناك جداول اخرى يظهر من خلالها، بالأرقام، جهود التجار المصدِّرين للحمضيات من مختلف الفرقاء؛ وقد اخترنا الحمضيات بالذات، لأنها على رأس قائمة الصادرات الفلسطينية. فخلال ١٩١٣ ــ ١٩١٤، شحن من ميناء يافا ١,٥٥٣,٨٦١ صندوق برتقال، صدّر التجار العرب منها ١,١٣١,٨٦١ صندوقا، اي بنسبة ٧٢ ٪ تقريبا، بينما صدّر التجار اليهود (بواسطة شركتي بارديس ومركاز) ٣٨٢,٠٠٠ صندوق، اي بنسبة ٢٥ ٪. وصدّر التجار الألمان ٤٠,٠٠٠ صندوق، اي بنسبة ٣ ٪.[١٤٢] وهكذا يتضح ان تصدير الحمضيات ــ اهم المنتوجات الزراعية ــ كان في القسم الأكبر منه في ايدي المزارعين والتجار العرب.

ارتفع الميزان التجاري، بصورة إجمالية، في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، الى أضعاف ما كان عليه سابقا، حتى تفوّق المعدّل التجاري في فلسطين على المعدّل التجاري في سوريا، وتفوّق معدّل الصادرات من ميناء يافا على معدّل الصادرات من ميناء بيروت بنسبة ٣ : ١.[١٤٣]

ان إعطاء صورة دقيقة وشاملة للتطور الاقتصادي الفلسطيني في هذه المرحلة، امر يصعب التوصل اليه من خلال الأرقام والاحصاءات. ربما كان الأمر بالغ الصعوبة لولا تقارير القناصل الأجانب. غير ان هناك وجها آخر لهذا الاقتصاد، وهو يبرز من خلال الإشكالية الكبرى في العلاقات بين المرافق الاقتصادية عامة، والأجهزة الادارية العثمانية المسؤولة، فقد كانت المرافق

---

(١٤١) جريدة «فلسطين»، العدد ١٠١، ٦ كانون الثاني/يناير ١٩١٢.

(١٤٢) حنا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥.

(١٤٣) المصدر نفسه، ص ٥٣ ــ ٥٤.

الاقتصادية في واد، وتلك الأجهزة المسؤولة في واد آخر وللمثال، نقتطع من الصحافة اليومية عما كان يجري في نهاية سنة ١٩١١.

عقد في القدس عاصمة اللواء، الاجتماع الرابع للهيئة التي سمّاها الدستور «المجلس العمومي»، وهي تضم عشرين عضوا من سكان اللواء، يجتمعون لأربعين يوما من أجل التداول والتوصل الى طرح المشاريع الاصلاحية. وتعلّق الصحافة بقولها: لكن الحكومة لا تقرأ التقارير وكأنها «كتابة على الماء»، وكلاهما مسؤول؛ فالجهة الأولى تطمع كثيرا، والدولة لا تعطي شيئا.(١٤٤)

كانت ابرز مطالب «المجلس العمومي» التعديل التخميني للأعشار، بالاضافة الى فرز الأراضي المشاع في القرى، والمطالبة بتحسين أوضاع سكك الحديد، والموانىء، والكهرباء، والتلغراف، واللاسلكي، وغيرها. وإنْ تكن هذه المشاريع تكلف الملايين، فلا أقل من تلبية المطلبين الرئيسيين المتعلقين بملكية الأرض. وقد طالبت الصحافة بتظاهرات قانونية عامة تؤيد هذين المطلبين.(١٤٥)

عندما داهمت الحرب الكبرى البلاد، توقفت أعمال التسجيل المنظمة التي حاول «الاتحاديون» القيام بها منذ سنة ١٩١٣، وكذلك توقفت مظاهر متعددة من مظاهر الحياة، بسبب الحرب.

---

(١٤٤) جريدة «فلسطين»، العدد ٩٢، ٦ كانون الأول/ديسمبر ١٩١١.

(١٤٥) المصدر نفسه، العدد ٩٧، ٢٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩١١.

الفصل الثالث
المقاومة العربية للنشاط الصهيوني

أولا: إرهاصات الوعي العربي على الخطر الصهيوني

اعتبر سكان فلسطين انفسهم في العهد العثماني جزءا من العرب الذين، بدورهم، اعتبروا انفسهم جزءا من «الأمة العثمانية»، الأمة المتعددة القوميات. لذلك، لم يكن قول العربي «أنا عثماني» يعني تنكره لتاريخه او عروبته، بل كان يعني ضمنا: «أنا عربي عثماني»

على الرغم من التقهقر السياسي والتقهقر الاقتصادي اللذين أخذا ينهشان سمعة الامبراطورية العثمانية ــ دوليا ــ وعلى الرغم من الاستبداد الحميدي، فان العرب عامة، وأهل فلسطين خاصة، كانوا يشعرون دوما بانتمائهم الى دولة كبيرة، الى امبراطورية عظمى. ومّما عزز هذا الشعور لديهم اهتمام الدولة الطبيعي بالمقدسات الدينية؛ وما كان ممكنا ــ على الصعيد النفسي ــ للعربي في فلسطين ان يستوعب اي خطر خارجي على بلاده إلّا من هذا الاطار، إطار الانتماء الى دولة كبرى. فهل يعقل ان تشكل تلك الجماعات الهاربة من اضطهاد القيصر خطرا على امن الدولة العثمانية المترامية الأطراف؟

وفضلا عن ذلك، فان هجرة اليهود الى البلاد في العهد الحميدي، لم تكن أول هجرة يهودية جماعية الى فلسطين، هروبا من اضطهاد الحكام في أوروبا. وكما استقبلت فلسطين المضطهدين من إسبانيا والبرتغال في القرن السادس عشر، عادت تستقبل المضطهدين من روسيا ورومانيا في القرن التاسع عشر، برحابة إنسانية ودينية وتاريخية، مع التصوّر الطبيعي ان هذه الهجرة ــ كغيرها ــ من الهجرات السابقة في التاريخ.

من هذه المنطلقات، تظهر اية محاولة للبحث عن مقاومة شعبية عامة للموجة الأولى من الهجرة

الأولى، على أنها محاولة خارج المنطق العام للأمور؛ وذلك على الرغم من حوادث متفرقة هبّ الفلّاحون فيها للدفاع عن حقوقهم.

جرت أول محاولة سنة ١٨٨٦ في إثر طرد المستوطنين اليهود للفلاحين سكان الخضيرة وملبّس (بتاح تكفاه) بقسوة بالغة؛ فقد عاد هؤلاء الفلاحون المقهورون، وهاجموا المستوطنين اليهود. وفي إثر الاصطدامات بين الفريقين، بادرت الحكومة العثمانية الى فرض قيود على الهجرة.[١٤٦] وقد تكررت مثل هذه الحادثة أكثر من مرة.[١٤٧]

وكما شعر الفلاحون بالخطر المباشر على أعمالهم وأرزاقهم، كذلك اخذت قطاعات اخرى تشعر بالمنافسة الجديدة، ولا سيما في القطاع المهني والقطاع التجاري. وهكذا تكوّن الوعي على الخطر الصهيوني من الواقع اليومي. ومع تكرار حوادث الجشع الصهيوني في الاستيلاء على مقدّرات البلاد، تمخّض رفض الشعب للمزاحمة الصهيونية في شؤون حياته، عن عمل سياسي منظّم.

في أيار/مايو ١٨٩٠، ولمّا كان صبر العرب قد عيل من محاباة متصرف القدس رشاد باشا لليهود، قام وفد من وجهاء المدينة بتقديم الاحتجاج ضدّه الى الحكومة. وبعد عام، قام وجهاء المدينة، أيضا، بتقديم عريضة الى حكومة الآستانة يطالبون فيها بمنع هجرة اليهود الروس الى فلسطين، وتحريم استملاكهم للأرض. وكذلك، ورد في العريضة نفسها احتجاج على سيطرة اليهود المتدرجة على تجارة البلد.[١٤٨]

ومما يشير الى الوعي القومي على الخطر الصهيوني، ما ورد في مذكرات كالفرسكي على لسان امين أرسلان، قائمقام طبريا في أواخر القرن التاسع عشر، إذ قال له: إننا لم نحارب ضدّ مساوىء طرد المستأجرين العرب من دون تعويض، بل ضد التغيّر في الصفة القومية للمنطقة.[١٤٩]

لم يتفجر وعي الفلسطينيين القومي مع الاستيطان اليهودي ــ الصهيوني فقط، بل قبل ذلك، عندما ايّد سكان فلسطين ثورة عرابي في مصر على الاستعمار البريطاني. فقد ذكر القنصل البريطاني في القدس، في تقاريره الى حكومته سنة ١٨٨٢، ان تجاوب عرب فلسطين مع ثورة عرابي قد ادى

(١٤٦) عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨ ــ ٤٩.
(١٤٧) راجع: المصدر نفسه، ص ٤٩.
(١٤٨) Porath, *op cit*, p 26
(١٤٩) خيرية قاسمية، «النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ ــ ١٩١٨» (بيروت. منظمة التحرير الفلسطينية ــ مركز الأبحاث، ١٩٧٣)، ص ٣٣

الى اضطرابات في كل من يافا والقدس. كما قال: «انه من الثابت والأكيد ان المسلمين المحليّين يعطفون بعمق على عرابي بوصفه مسلما يحارب صد المشركين، وأيضا، وبشكل خاص، بوصفه بطل الجنس العربي المسلم الذي يتوقف على نجاحه مستقبل جنسهم لا مجرّد صد الغزو عن مصر وحسب.»[(١٥٠)]

ومن المنطق القومي نفسه، تجاوب عرب فلسطين أيضا مع ثورة المهدي بعد عامين. ويتضح ذلك من تقرير بعث به القنصل البريطاني في القدس الى حكومته سنة ١٨٨٤. فقد ورد فيه انه على الرغم من عدم إيمان مسلمي فلسطين بالجانب الديني من حركة المهدي، «فان هناك تعاطفا مكبوتا مع المهدي كعربي يناضل من أجل جنسه ضد السيطرة العثمانية وسوء الحكم العثماني.»[(١٥١)]

اخذت صحافة مصر، بلسان العرب خارج فلسطين، تعكس ــ بصورة عامة ــ في مفهومها للتعامل مع الصهيونية المستجدة في المنطقة، اتجاها مختلفا عن مفهوم أبناء البلاد الفلسطينيين: فبينما رأت هذه الصحافة ــ بلسان العرب خارج فلسطين ــ اهمية الاستفادة من التقدم الاقتصادي والتقني للحركة الصهيونية في فلسطين، وكأنها تقول ان التقدم الاقتصادي والعلمي للعرب عندما يصل الى مجاراة الجانب الصهيوني، وربما يتفوق عليه، لن تعود هناك من مشكلة؛ وبينما ركز الزعماء الصهاينة ــ من جهتهم ــ دوما على الفوائد الاقتصادية الجلّى التي تحملها الهجرة اليهودية، وعلى الازدهار الذي سيعمّ فلسطين اقتصاديا وثقافيا، وسينال منه كل العرب أيضا، كان للفلسطينيين أبناء البلاد رؤية مختلفة، وموقف مختلف؛ فهؤلاء كانوا يرون التمدد الصهيوني، أمام اعينهم، يزحف زحفا بطيئا، ولكنه آخذ في الانتشار. وقد تصدى الفلسطينيون لهذا الزحف بوسائل متعدّدة. وبقدر ما كان التغلغل الصهيوني يتمدد للاستيلاء على المزيد من الأرض ومقدّرات البلاد، كان التصدّي له يشتد ويتخذ وسائل مستجدّة.

في السنة نفسها التي شهدت مؤتمر بازل، أُنشئت في القدس هيئة محلية ذات صلاحيات حكومية بشأن التدقيق في طلبات نقل الملكية في متصرفية القدس. ولم تكن ولادة هذه الهيئة سنة ١٨٩٧ مصادفة، بل حماية للأرض من الجشع الصهيوني. وقد اثبتت هذه الهيئة فاعليتها، ولا سيما بجهود رئيسها محمد طاهر الحسيني، مفتي القدس، وهو الذي كان من ابرز من تصدّى للخطر الصهيوني. وقد تمكّن من الحؤول دون حصول اليهود على أراض زراعية في متصرفية القدس،

---

(١٥٠) و. خ ٢٢٦ ــ ٢٠٤، رقم ٣٧، كما ورد في عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧
(١٥١) و. خ ١٩٥ ــ ١٤٧٧، ١٤ آذار/مارس ١٨٨٤، كما ورد في: المصدر نفسه.

لسنوات عديدة.[١٥٢] وهذا ما دعا الجمعية الاستعمارية اليهودية (الأيكا) الى التوجّه نحو منطقة الجليل التي كانت تتبع إداريا ولاية بيروت. غير انه حتى في الجليل لم يحصل اليهود، في الفترة بين سنة ١٨٩٨ وسنة ١٩٠٢، إلّا على مستعمرة سْجيره (الشجرة) سنة ١٩٠٠؛[١٥٣] وقد اصبحت تعرف فيما بعد باسم إيلانياه.

انتشر الوعي العام، حتى شهدت سنة ١٩٠٠ حملة احتجاج واسعة من العرائض الجماعية ضد صفقات بيع الأراضي لليهود. وحاول الفلاحون مرات متعددة وقف إتمام عملية البيع، كما حدث في منطقة طبريا؛ فقد ابتاع اليهود أرضا كبيرة من عائلة سرسق اللبنانية، ولمّا جاء الفنيون لمسح الأرض، تمهيدا للاجراءات القانونية في نقل الملكية، هاجمهم الفلاحون، وحاولوا منع إتمام البيع. وفي مطلع القرن العشرين، نجح العرب عدة مرات في منع بعض الصفقات، او إلغاء بعضها الآخر بواسطة التأثير في الباب العالي، واستصدار أحكام منه بالالغاء.[١٥٤]

كان الحدث البارز، في صيف سنة ١٩٠٥، تسرُّب نسخ عديدة من كتاب نجيب عازوري، «يقظة الأمة العربية»، الى فلسطين. وكان الكتاب الشهير قد صدر في السنة نفسها، كما كان عازوري صديقا للكثيرين خلال عمله في القدس (مساعدا لحاكم القدس) لسنة خلت. غير ان اقتناء كتاب كهذا كان يعتبر جريمة؛ فقد ألقت السلطات القبض على عدد من الشخصيات البارزة في يافا وغزة والرملة، بتهمة اقتناء الكتاب.[١٥٥]

تجسّد الخطر الصهيوني في السنوات الأولى من القرن العشرين بنموّ المستعمرات اليهودية، ثم تحوّلها النوعي مع الهجرة الثانية الى مستعمرات صهيونية فعلا، ذات أهداف سياسية واضحة في بناء مجتمع جديد. ولعله ليس مصادفة أبدا ان تنشأ ثلاث مستعمرات دفعة واحدة خلال سنة ١٩٠٨، سنة الدستور؛ تلك السنة التي حملت معها الآمال المتناقضة للعرب ولليهود. فالعرب الفلسطينيون رأوا في التجربة الدستورية القادمة جسرَ الحرية والخلاص وبناء المستقبل؛ واليهود كذلك رأوا الأهداف نفسها، لكن لجهة بناء دولتهم، وبهدف ان تكون الحرية والخلاص والمستقبل

---

(١٥٢) عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠.

(١٥٣) Sokolow, *op.cit*, Vol. II, p 331

ذكر سوكولوف ان مساحة مستعمرة سجيره تبلغ ١٧,٧١٧ دونما، وهي ارض زراعية، كما ذكر شراء مزرعة سجيره سنة ١٨٩٩، غير انه لم يذكر مساحتها. ويلاحظ ان اسميّ المستعمرة والمزرعة واحد (راجع: المصدر نفسه)

(١٥٤) عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠ ــ ٥١.

(١٥٥) المصدر نفسه، ص ٥٢.

لهم وحدهم. ولم تكن وسائل اليهود للوصول هي الدستور او المعوثان، في اية حال، بل كانت وسائلهم عبر دهاليز الآستانة نفسها؛ هذه العاصمة التي اصبحت معقلا للحركة الصهيونية في الأشهر الأخيرة من حكم السلطان عبد الحميد، وفي عهد «الاتحاديين» من بعده، حيث سيغدو نفوذ الصهيونية ظاهرا للعيان.

ثانيا: الأقلام العربية الأولى

عندما عقد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل سنة ١٨٩٧، أشارت اليه الصحف المصرية، ولا سيما الصحف التي أنشأها السوريون. فنشرت «المقطم» مقالا بعنوان «مملكة صهيون»، كتبه من باريس امين أرسلان، وجاء فيه وصف للمؤتمر وطبيعته وأهدافه: «انه للمفاوضة في مشترى أراضٍ فسيحة وقرى كثيرة في فلسطين وبجوار أورشليم في الدولة العلية، وجعلها مملكة اسرائيلية مستقلة تحت سيادة الحضرة الشاهانية، عاصمتها القدس الشريف...» وبعد ان اوضح الكاتب مقررات المؤتمر علّق بقوله انه يستبعد إمكان تحقيق تلك المملكة، وليس ذلك «إلّا لأن المسيحيين لا يرضون ان يبيت بيت المقدس في يد اليهود... وأن للدول حق الاعتراض على الباب العالي إذا أجاز ذلك البيع.»[(١٥٦)]

وكان نجيب عازوري أول عربي يندد بالخطر الصهيوني بوضوح ورؤية بعيدة المدى، لاستحالة تعايش الكيانين معا، العربي والصهيوني، وبالتالي حتمية الصراع المستقبلي بين العروبة والصهيونية.

كان عازوري شاهد عيان على ضعف الادارة العثمانية، وتغلغل الفساد في أجهزتها، الأمر الذي ادى الى التسلل الصهيوني من خلال التحايل على القوانين والرشاوى. وقد استهل كتابه «يقظة الأمة العربية»، الذي اصدره بالفرنسية من باريس سنة ١٩٠٥، بالفقرة التالية:

> ان ظاهرتين هامتين، متشابهتي الطبيعة بيد أنهما متعارضتان، لم تجذبا انتباه احد حتى الآن تتضحان في هذه الآونة في تركيا الآسيوية اعني: يقظة الأمة العربية وجهد اليهود الخفي لإعادة تكوين مملكة اسرائيل القديمة على نطاق واسع. ومصير هاتين الحركتين هو ان تتعاركا باستمرار حتى تنتصر إحداهما على الأخرى وبالنتيجة النهائية لهذا الصراع بين هذين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متضاربين يتعلق مصير العالم بأجمعه. وليس للمرة الأولى على كل حال تتناقش في الأقطار العربية مصالح أوروبا في حوض

---

(١٥٦) جريدة «المقطّم»، ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٩٧، كما وردت في. خيرية قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤.

البحر الأبيض المتوسط، لأن هذه المنطقة تصل بين ثلاث قارات وثلاثة بحار كانت على مدى عهود متفاوتة مسرحا لأحداث سياسية او دينية قلبت مصير العالم بأسره [١٥٧]

ارفق عازوري إشاراته المقتضبة والواضحة في آن واحد، بشأن الخطر الصهيوني، عبر كتابه «يقظة الأمة العربية»، بوعد بمعالجة أكثر إسهابا في كتاب له في قيد الإعداد بعنوان «الخطر اليهودي». غير ان هذا الكتاب لم يصدر قط.[١٥٨]

كان نجيب نصار من أوائل الذين نبّهوا باستمرار الى الخطر الصهيوني، عبر جريدته «الكرمل»، ويندر ان يخلو عدد من مقال او خبر او تعليق على الخطر الصهيوني. وفي سنة ١٩١١، اصدر كتابا صغيرا قيّما بعنوان «الصهيونية: تاريخها غرضها أهميتها»، وهو ترجمة ملخصة عن «الأنسيكلوبيديا اليهودية». وقد ذكر في مطلعه الأسباب التي دعته الى نشره، وأهمها جهل المسؤولين العثمانيين في الآستانة بالصهيونية.[١٥٩] كما علّق في نهايته قائلا:

أنا ارتجف من استعمال لفظتي وهم وخيال لأن الذين يستطيعون الاستيلاء على نصف أموال العالم بمزاحمة الشعوب النشيطة وهم في حالة الضعف والتشتيت ويكون لهم تأثير عظيم على سياسة ممالك العالم بأسرها أيعجزون عن تحقيق امنيتهم في سوريا وفلسطين إزاء حكومة كحكومتنا أحوالها المالية على ما هي عليه من الضعف وشعبها مما لحق به من الظلم والاستبداد فقد نشاطه وضعفت وطنيته والدول الأجنبية تطمع فيها في كل امر أيعجزون عن ذلك لا سيما بعد ان يكونوا جمعوا كلمتهم ولمّوا شعثهم.

كرهت شعوب الأرض بقاء اليهود في بلدانهم يزاحمونهم على الرزق فرغبوا في عزلهم ليرتاحوا منهم ولذلك ولأسباب اخرى فحكومات أوروبا تساعدهم على تحقيق آمالهم عندنا [١٦٠]

انطلقت الصحافة العربية بصورة عامة في سنة الدستور، اي سنة ١٩٠٨. فقد حدا الأمل بحياة دستورية حرة على إصدار خمس عشرة صحيفة في فلسطين (من مجموع ٣٥ صحيفة صدرت في المدن السورية هذه السنة) وقد صدر منها اثنتا عشرة صحيفة في القدس، وثلاث في حيفا. وقبيل الحرب الكبرى، كان هنالك في فلسطين ست وثلاثون صحيفة، غير أنها اضطرت الى التوقف في أثناء الحرب، بأوامر سنيّة.

---

(١٥٧) نجيب عازوري، مصدر سبق ذكره، ص ٤١

(١٥٨) وضع عازوري مخطوطات اخرى لم تظهر قط، وهي: «الوطن العربي: دراسة معمقة للوضع الراهن ودراسة مستقبل الأقطار العربية الآسيوية»؛ «الدول الأجنبية ومسألة المقدسات المسيحية في الأرض المقدّسة: خلاصة تاريخية وعرض للوضع الراهن» (احمد بوملحم، «توطئة تاريخية»، في نجيب عازوري، المصدر نفسه، ص ٢٢).

(١٥٩) نجيب الخوري نصّار، «الصهيونية: تاريخها غرضها أهميتها» (ملخصا عن الأسيكلوبيديا اليهودية)، (حيفا: مطبعة الكرمل، ١٩١١)، ص ٢ ـ ٣.

(١٦٠) المصدر نفسه، ص ٥٩.

اخذت الصحف العربية في فلسطين على عاتقها نشر الوعي ضد الخطر الصهيوني. أمّا ابرز هذه الصحف في هذا المضمار فكانت، بالاضافة الى «الكرمل»: صحيفة «فلسطين» لصاحبها عيسى العيسى، من رجال الحركة العربية، وقد صدرت سنة ١٩١١؛ وصحيفة «المنادى» لصاحبها سعيد جار الله، وقد صدرت في مطلع سنة ١٩١٢، واتخذت اهم أهدافها مكافحة السياسة الصهيونية.

تتميز كل من «الكرمل» و«فلسطين»، بمتابعة دقيقة لصفقات بيع الأراضي ـ بالأسماء والأرقام وأدق التفاصيل ـ ولتصرفات المسؤولين في الادارة العثمانية، وكذلك للتطورات في الحركة الصهيونية داخل فلسطين وخارجها. فكما كانت تتابع نمو المستعمرات، كانت تتابع المؤتمرات الصهيونية في أوروبا، ونمو النفوذ الصهيوني في الآستانة، وأقوال الزعماء الصهاينة. والى جانب ذلك كله، كانت لا تغفل عن متابعة شؤون المقاومة الوطنية للحركة الصهيونية، ومتابعة شؤون الناس العادية، وعلى رأسها شؤون الفلاحين وهمومهم اليومية؛ فكانت صحيفة «فلسطين» تعالجها بإرشاد واع ومسؤول عبر سلسلة مقالات بعنوان «رسائل فلّاح». أما صحيفة «الكرمل»، فكانت لا تفتأ تخاطب الناشئة والجيل الجديد.[١٦١]

نقلت الصحف العربية في الخارج، عن «الكرمل» و«فلسطين»، أخبار التسلل الصهيوني الى فلسطين، ولا سيما صحيفة «المقتبس» في دمشق، و «المفيد» و «الحقيقة» و «الرأي العام» في بيروت. كما نشرت هذه الصحف مقالات وتحليلات عن الصهيونية لعدد من الكتّاب العرب البارزين، منهم: محمد كرد علي، وشكري العسلي، وعبد الغني العريسي، ومحمد محمصاني. ونشرت أيضا مقالات لكتّاب من فلسطين، ومنهم: عمر الصالح البرغوثي، وعبد الله مخلص، ونجيب نصار.[١٦٢]

تابعت صحافة فلسطين كل ما ينشر في صحف الآستانة والقاهرة ودمشق وبيروت، بشأن حاضر فلسطين ومستقبلها. وناقشت المقالات البارزة، وخصوصا تلك التي كانت تنشر بدوافع صهيونية مبطّنة على صفحات جريدة «المقطم»؛ وهكذا كان يكفي أبناء البلاد ان يطالعوا «الكرمل» و«فلسطين» حتى يطلعوا على اهم ما يدور بشأن بلادهم، وما يدور في فلك الصهيونية.

ان الصفحات الأربع التي يحتوي العدد الواحد عليها، وسواء أكانت لـ«الكرمل» ام لـ«فلسطين»، تبدو بشكلها الخارجي هزيلة جدا إزاء الصحف المعاصرة، غير أنها كانت غنية

---

(١٦١) كانت كل من «الكرمل» و«فلسطين» تصدر مرتين كل اسبوع.

(١٦٢) راجع بشأن «المقتبس» حيرية قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٧٥.

عبد الله مخلص سوري الأصل، ونجيب نصار لبناني الأصل.

جدا بالوعي القومي لكتّابها البارزين ـ أمثال نجيب نصار وعيسى العيسى وإسعاف النشاشيبي وخليل السكاكيني ـ وبما كانت تنقله من مقالات وآراء عن الصحافة العربية، وما تنشره من مواقف وتصريحات للأصوات العربية ضد الخطر الصهيوني، ولا سيما أصوات النواب العرب.

كان صوت النائب المقدسي محمد روحي الخالدي من ابرز أصوات النواب العرب. وقد انتخب نائبا عن القدس في كل المجالس النيابية منذ سنة ١٩٠٨، حتى كانت وفاته المفاجئة سنة ١٩١٣، وهو لم يكن قد انهى بعد محطوطته القيّمة بعنوان: «السيونزم او المسألة الصهيونية»؛ لقد كان الخالدي أول من كتب في «المسألة الشرقية» من العلماء العرب.(١٦٣) ولو نُشرت مخطوطته في المسألة الصهيونية في حينها، لكان أيضا أول من كتب في الصهيونية، كتابة تاريخية علمية تحليلية، تبتدىء بالجذور الدينية للصهيونية وتنتهي بظهور الصهيونية الحديثة والجمعيات اليهودية.

رأى روحي الخالدي ان الصهيونيين قد وضعوا «اسس دولتهم في الخارج».(١٦٤) وقد أشار، في بحثه عن الأسس الدينية للصهيونية، الى الفارق الرئيسي بين نظرة اليهودية ونظرة كل من المسيحية والاسلام الى الحياة الأبدية. وكذلك أشار الى اسس الفكر التوسعي الصهيوني، مستشهدا بالنصوص التوراتية؛ فهو يقول:

> الذي يتلو كتب العهد القديم لا يجد فيها شيئا من أخبار نعيم الجنة ولا عذاب جهنم الواردة في القرآن الكريم ولا من أخبار الحياة الأبدية وملكوت السموات الواردة في الانجيل الشريف. [وهو ما أشار اليه في مقدمة المخطوطة بقوله ان اليهود]* تحصر السعادة الدينية والدنيوية في امتلاك صهيون والحكم فيها.(١٦٥)

كذلك يقول في موضع آخر:

> ان جميع ما ورد في كتاب العهد القديم من الترغيب والترهيب والتشويق والإنذار والوعد والوعيد إنما هو منحصر في صهيون فالسعادة الدنيا في امتلاكها والتحكم فيها واستخدام الغرباء في حرث أرضها

(١٦٣) نال روحي الخالدي الشهادة العالية من «المكتب الملكي» في الآستانة سنة ١٨٩٣، ثم درس في معهد العلوم السياسية في باريس ثلاثة أعوام، ومن بعدها في السوربون، حيث درس فلسفة العلوم الاسلامية والآداب الشرقية. وهو في أثناء وجوده رئيسا لجمعية القناصل في بوردو بفرنسا، كان ينشر مقالاته في «الأهرام»، و«المؤيد»، و«طرابلس الشام»، ومجلة «الهلال»، ومجلة «المنار» (وليد الخالدي، في. «دراسات فلسطينية»، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠ ــ ٤١).

(١٦٤) وليد الخالدي في. «دراسات فلسطينية»، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥.

* في الأصل.

(١٦٥) المصدر نفسه، ص ٤٧ ــ ٤٨.

ورعي مواشيها وأكل ثروة الأمم والتآمر على محدهم والتكاثر فيها بالتناكح والتناسل ونحو دلك والشقاء في خرابها والجلاء عنها وحكم الغير فيها وإلحاقهم بالسيف والجوع والوباء والسبي. . . .[١٦٦]

أما عن التوسع الصهيوني، فقد كتب الخالدي، استدلالا من النصوص التوراتية، وقبل وعد بلفور بسنوات:

ان عددهم يكون كثيرا حتى تضيق بهم فلسطين فيمتدون الى لبنان والى ما وراء الأردن ولذا تراهم اليوم يطمعون في استعمار سوريا والعراق وجميع آسيا العثمانية والشرق كما سترى.[١٦٧]

نشر العديد من المقالات في الصحافة العربية عن الصهيونية، فكرا ونهجا وخطرا، في تلك المرحلة. وكان من أبرزها مقالات المؤرخ جرجي زيدان، اللبناني الأصل، وصاحب دار الهلال في مصر؛ فقد زار فلسطين سنة ١٩١٣، واطلع عن كثب على أحوال البلاد، وعلى المستعمرات والمنشآت الصهيونية، ونشر سلسلة مقالات عن تاريخ الصهيونية وأهدافها وأعمالها في فلسطين. وقد توصل الى ان تغلُّب اليهود واضح؛ فهم أصحاب الثروة، وأخصب المغارس، وأفخم المنازل.

امتازت مقالات جرجي زيدان باطلاع واسع على الصهيونية، ولكنها انطلقت من رؤية الكاتب المنبهر لا المؤرخ المنصف، كما اعتاد عليه قراؤه العرب؛[١٦٨] لقد نسب الى الصهيونيين ــ وحدهم ــ كل نجاح حققوه، غير ملتفت الى دور الدول الأوروبية الاستعمارية، لا في دعم الصهيونية فحسب، بل في خلقها أيضا. وقد توصل الى نظرية «الملك لصاحبه» بحكم الأمر الواقع؛ وهذا معناه ان البلاد ستؤول الى اليهود. قال:

اليهود يبتاعون الأرضين بطرق قانونية شرعية لا جناح عليهم فيها حسب الظاهر، والحكومة في هذه الأيام لا تستطيع مصادرتهم او منعهم من استثمار الأرض بأموالهم وعرق جبينهم. نعم ان المرابين من اليهود يغتنمون ضعف الفلاح المدين لهم ويقبضون عقاره إذا قصّر عن الدفع. وهكذا يفعل سائر المرابين بمصر وغيرها من اليهود وغيرهم. وأما ممّا لا شك فيه من مستقبل تلك البلاد ان الحال إذا ظلت على ذلك واليهود عاملون على ابتياع الأرضين واستعمارها وأهلها غافلون او متجاهلون وحكومتها ساكتة او مشغولة، فلا يمضي زمن طويل حتى تصير كلها لليهود. ولا عبرة في من يتولى شؤونها السياسية ولا فرق ان تكون يومئذ في سلطة العثمانيين او العرب او الفرنساويين او الانكليز. فان العبرة في من

(١٦٦) المصدر نفسه، ص ٤٨.

(١٦٧) المصدر نفسه، ص ٤٩.

(١٦٨) من ابرز مؤلفات المؤرخ جرجي زيدان: «العرب قبل الاسلام»؛ «تاريخ التمدن الاسلامي»؛ «تاريخ آداب اللغة العربية» ــ وكل منها في عدة أجزاء. أما أكثر ما اشتهر به فهي رواياته التاريخية الأدبية العشرون، ودار الهلال التي أنشأها في مصر.

يملك الأرض ويستولي على غلّتها، وليس صاحب السيادة السياسية إلا وسيلة لحفظ الأمن وتأييد ذلك الملك لصاحبه.(١٦٩)

لم يكن جرجي زيدان متفردا بموقف الابهار بالصهيونية وأعمالها، إزاء ما كان يشعر العربي به من انحطاط حضاري في دولة كبرى تعيش أعوامها الأخيرة بضعف وتآكل. فقد علقت مجلة «المنار»، بعد إعادة نشرها احدى مقالات جرجي زيدان،(١٧٠) بالتالي:

ليعتبر بهذه الهمة العالية من كان له قلب يشعر وعقل يفكر وليتعلّم من سيرة هؤلاء اليهود كيف تحيا الأمم بعد موتها وتعزّ بعد ذلّها. . .(١٧١)

شهدت صحافة مصر معارك صحافية حامية في موضوع الشؤون الصهيونية، ولا سيما بين «الاهرام» و«المقطم» وكانت الأخيرة مسرحا لنشر الفكرة الصهيونية منذ سنة ١٩٠٩، كما يريدها أربابها، ولها مراسل يهودي في فلسطين يدعى نسيم ملّول.

يتضح من متابعة الحملات الصحافية ان قادة الرأي العام العربي خارج فلسطين عامة، وفي مصر خاصة، حيث مقر النخبة فيهم، وحيث نشأة حزب اللامركزية، قد اطلعوا على الخطر الصهيوني مما يقرأون ويسمعون، غير انهم لم يكونوا ــ بطبيعة الحال ــ على صلة مباشرة بما يجري، وهو ما دعاهم الى التقليل من اهمية الخطر السياسي؛ فهم قد رأوا ان النشاط الصهيوني لا يحمل أكثر من خطر اقتصادي او اجتماعي. وحتى الخطر الاقتصادي، فقد رآه بعضهم ازدهارا اقتصاديا يجدر بالعرب الاستفادة منه وتقليده. أما الذين ناقشوا درء الأخطار الاقتصادية والاجتماعية، فقد طالبوا بتنازل اليهود الأجانب عن جنسياتهم، وحصولهم على الجنسية العثمانية، وبهذا يتساوون مع المواطنين العثمانيين كافة، فيصبح في الإمكان الاستفادة منهم على قاعدة «المواطنية». ومن هذا المنطلق، نشأت لدى بعض الزعماء السياسيين العرب في القاهرة فكرة إمكان الاتفاق مع الصهيونيين.(١٧٢)

استبعد هؤلاء فكرة نجاح الصهيونية مستقبلا في إنشاء دولة. فكتب رفيق العظم (من زعماء اللامركزية فيما بعد)، في نهاية سنة ١٩١٠، مقالا يستبعد فيه «قيام ملك اسرائيل في أورشليم»،

---

(١٦٩) جرجي زيدان، «فلسطين: تاريخها وآثارها وسائر أحوالها الاقتصادية والاجتماعية والعلمية»، مجلة «الهلال» (القاهرة)، السنة الثانية والعشرون هجرية، ١٩١٣ ــ ١٩١٤، ص ٥٢٠ ــ ٥٢١.

(١٧٠) جرجي زيدان، «الصهيونية»، مجلة «المنار»، المجلد السابع عشر، الجزء الخامس، ص ٣٨٥ ــ ٣٩٠، ٢٥ نيسان/إبريل ١٩١٤، نقلا عن: مجلة «الهلال»، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٣.

(١٧١) المصدر نفسه، ص ٣٩٠.

(١٧٢) خيرية قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢ ــ ٦٣.

استنادا الى معارضة اليهود الذين يفضّلون البقاء في أوطانهم، والى رفض المسيحيين مملكة اسرائيلية في ارض المقدّسات المسيحية، والى قوة الدولة العثمانية صاحبة السيادة. وخلص الى القول ان تخلي اليهود عن الجنسيات الأجنبية ضرورة لعدم جلب المشكلات للدولة. أما المشكلات مع أهل البلاد، فتعود ــ فقط ــ الى النواحي الاقتصادية التي يتفوق اليهود فيها تفوقا عظيما، وليس من حلّ إلاّ ان ينهض أهل البلاد لمجاراة اليهود «. . . وإلاّ كانوا طعمة لجيرانهم، وكان الخطر محيقا بهم من هذه الجهة لا محالة.»(١٧٣)

تبارت الأقلام الصهيونية، من جهتها، لتأكيد عدم وجود اية أهداف سياسية لها. وكما نشر سليمان يلين (محامي جمعية الأيكا في فلسطين) في جريدة «لسان الحال» الصادرة في بيروت، فليس القصد سوى «إيجاد مزارع في فلسطين والبلاد المجاورة لها لأجل إيواء بعض اليهود المساكين المظلومين. . .»(١٧٤)

شرح روحي الخالدي في مخطوطته عن «المسألة الصهيونية» خطة الصهيونيين وراء شراء بعض الصحف العربية، من أجل ترويج أفكارهم. وقد ابتدأوا بهذه الخطة في الآستانة مع الأتراك، وكانت الأولى جريدة «إقدام» بالتركية، وتبعتها «أوريان» و«جون تورك» بالفرنسية. كما استخدم الصهيونيون أقلاما غير يهودية «لكي لا يسيء الناس الظن بها عند دفاعها عن منافع الصهيونيين.» واستعمل الصهيونيون الأسلوب نفسه مع بعض الجرائد السورية كجريدة «النصير» في بيروت، و«النفير» في القدس، و«الأخبار» في يافا؛ «فإذا نشرت مقالة في جريدة النصير مثلا في الدفاع عن الصهيونية نقلتها جريدة جون ترك في الحال وأوهمت ان الدفاع ورد في جرائد سوريا المعتبرة.»(١٧٥)

شهدت الصحافة العربية عامة، وفي مصر خاصة، منذ أواخر سنة ١٩١٣، معركة حامية بشأن إمكان عقد اتفاق بين حزب «اللامركزية» و«الحركة الصهيونية». وقد انطلق زعماء اللامركزية من كون حزبهم حزبا عثمانيا طليعيا لامركزيا في دولة عثمانية كبرى، يؤلف اليهود

---

(١٧٣) المصدر نفسه، ص ٨٤.
نشر مقال رفيق العظم أعلاه بعنوان «اليهود في فلسطين والجمعية الصهيونية» في «الحضارة»، ١٩١٠/١٢/٢٩، ونقلته «المقتبس»، ١٩١١/١/١١ (المصدر نفسه).

(١٧٤) المصدر نفسه، ص ٨٤ ــ ٨٥.
نقلت «الأهرام» مقال سليمان يلين أعلاه في ١٩١١/٣/٨، ونقلته «جون تورك» في ١٩١١/٣/١٨ (المصدر نفسه).

(١٧٥) وليد الخالدي، في: «دراسات فلسطينية»، مصدر سبق ذكره، ص ٧٤.

المستجدّون فيها آخر العثمانيين، تجنّسا، لكنهم ربما أصبحوا أول العثمانيين في التقدم الاقتصادي، حتى قبل تجنّسهم.

بدا واضحا ان زعماء اللامركزية جادّون في طلب الاجتماع، وواثقون بمكانتهم كزعماء حرب طليعي يحاول الالتفاف على الصهيونية وكسبها، قبل ان تنجح هي في الالتفاف على مقدّرات البلاد. أمّا الصهيونيون، من جهتهم، فواضح انهم كانوا غير جادّين إطلاقا، لأن اية مفاوضات جدّية قد تكشف عن نياتهم الاستعمارية.

فشل الاجتماع بين اللامركزيين والصهيونيين قبل ان يعقد؛ فقد برز الخلاف الأول في شأن مكان عقد الاجتماع، إذ ارتأى محمد كرد علي ان يعقد في دمشق، واقترح كالفرسكي ان يعقد في مستعمرة روش بيناه، واقترح نجيب شقير ان يعقد في مصر. أمّا الخلاف الثاني فكان في شأن مطالبة زعماء اللامركزية بحضور زعماء الصهيونية هذا الاجتماع، أمثال سوكولوف وجاكوبسون، ورفض الصهيونيين ذلك بحجة خشيتهم إغضاب الأتراك. والواقع انهم كانوا يريدون كسب الوقت، في سنة تنذر رياحها بحرب عالمية؛ والأهم من ذلك كله، انهم كانوا لا يضمرون اي احترام للامركزيين، او سواهم من زعماء العرب.

لم ينكر زعماء اللامركزية هذه المفاوضات السرية التي كانت الآستانة أرضا لها، بالاضافة الى المراسلات. وقد قال حقي العظم ان حزبه، اللامركزية، قد استحسن عقد هذا المؤتمر والاتفاق مع الصهيونيين، شرط ان تصان مصالح العرب قبل كل شيء.

وثارت الصحافة في فلسطين، ولا سيما «فلسطين» و«الكرمل»، ضد كل من يحاول عقد اتفاق بين العرب والصهيونيين.(١٧٦)

في هذه المرحلة التي شهدت انجذاب المفكرين العرب خارج فلسطين، بالنسبة الى الموقف من الصهيونية، نحو محاور متباعدة، بل متناقضة، من الرفض التام الى الحوار، ومن مفهوم شمولي للخطر الصهيوني الى مفاهيم جزئية تنحصر في معظم الأحيان بالخطر الاقتصادي، نشر السيد رشيد رضا (من رجال اللامركزية) مقالا في مجلته «المنار» يحمل رأيا قاطعا في الموقف من الصهيونية.

توقف صاحب «المنار»، في مستهل مقاله، إزاء «تكوّن ممالك البلغار واليونان والصرب والجبل الأسود والألبان من أملاك الدولة العثمانية في أوروبا.» كما توقف إزاء فتح الدول الكبرى أفواهها

---

(١٧٦) راجع محاولات الاتفاق العربي ــ الصهيوني والردود العنيفة عليها في صحافة فلسطين، في: خيرية قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٨ ــ ٢٥٣، ٢٥٨ ــ ٢٦١.

اعتمدت المؤلفة على أوراق محب الدين الخطيب، والأرشيف الصهيوني

لابتلاع الأملاك العثمانية في آسيا، وإزاء صعود الحركة الصهيونية «الى تكوين دولة من أوزاع المهاجرين الفقراء في بلاد تتنازع على شبر الأرض فيها اقوى الأمم والدول.»(١٧٧) وحلّل موقف الصهيونيين بقوله:

> علم الصهيونيون ان الدول الكبرى لا يسمحنّ لواحدة منهنّ بامتلاك مهبط الوحي ومصدر الدين الموسوي والعيسوي وأنه إذا زال ملك الترك من بلاد فلسطين فلا بد ان تكون مستقلة تحت حماية جميع الدول (وهذا رأي بعضهم في الحجاز أيضا) فطمعوا في إرضاء الدول بأن تحل أشكال التنازع بين الدول والمذاهب المسيحية بأن يكون اليهود هم أصحاب الملك في هذه المملكة، بل طمعوا أيضا في إرضاء جمعية الاتحاد والترقي بذلك، بل يقال انهم أقنعوها به فهي تساعدهم على التمهيد له لتقطع الطريق على العرب وتكثر خصومهم في بلادهم، ولا محل هنا للبحث في إثبات هذا القول او نفيه، وإنما جئنا بهذه المقدمة كلها لأجل تذكير الذين أكثروا القول في المسألة الصهيونية من كتّاب العرب بأنهم ما فتئوا يدورون حولها ولمّا يدخلوا فيها.(١٧٨)

ثم اوجز الكاتب رأيه في فقرة ختامية:

> يجب على زعماء العرب أهل البلاد احد امرين. إمّا عقد اتفاق مع زعماء الصهيونيين على الجمع بين مصلحة الفريقين في البلاد إنْ أمكن ــ وهو ممكن قريب إذا دخلوا عليه من بابه، وطلبوه بأسبابه ــ وإمّا جمع قواهم كلها لمقاومة الصهيونيين بكل طرق المقاومة، وأولها تأليف الجمعيات والشركات، وآخرها تأليف العصابات المسلحة التي تقاومهم بالقوة ــ وهو ما تحدّث به بعضهم على ان يكون أول ما يعمل، وإنما هو الكي ــ والكي آخر العلاج كما يقال (١٧٩)

أمّا داخل فلسطين، فلم يكن الموقف بحاجة الى نقاش، ولذلك دأبت الصحافة على نشر الوعي ضد الخطر الصهيوني، وعلى ترجمة أقوال الزعماء الصهيونيين وبرامجهم. وقد أثارت جريدة «فلسطين» ضجة كبرى سنة ١٩١٤ بترجمتها الدقيقة لـ«البروغرام الصهيوني السياسي» الذي وضعه أوسشكين زعيم العمليين. ويتلخص برنامجه في التمهيد للاستيلاء على فلسطين كالآتي:

> كل امة تسعى وراء كيان سياسي مستقل حر، يجب عليها توصلا لغايتها هذه ان تراعي ثلاث حالات ضرورية.
>
> ١ ــ حالة الشعب: ان يكون على شيء من الاستعداد، وذلك من حيث الشعور القومي الراقي، والجمعيات القوية المنظمة، ورؤوس الأموال الكبيرة، والاستعداد للتضحية
>
> ٢ ــ حالة البلاد: ان تكون البلاد ملكا للأمة بالفعل اقتصاديا وعقليا، ان تكون كل قوى تلك

---

(١٧٧) السيد رشيد رضا، «المسألتان الشرقية والصهيونية»، مجلة «المنار»، المجلد السابع عشر، الجزء الرابع، ٢٧ آذار/مارس ١٩١٤، ص ٣١٩ ــ ٣٢٠.

(١٧٨) المصدر نفسه، ص ٣٢٠.

(١٧٩) المصدر نفسه.

الأرض الحيوية في يد شعبها، وإنْ كانت الأرض تحت سيادة شعب غيره إسيا. يضاف الى دلك إيجاد علاقة روحية بين الشعب والأرض وإشباع التربة من دمه وعرق جبينه وإلا كانت غير صالحة للاستقلال.

٣ ــ الظروف الخارجية: لا بد من بروغرام سياسي لاحتناب ما يقف في سبيل الأمة من عثرات، لا بد من اقتناع الحكام بإخلاص الحركة وفوائدها، ولا بد من استمالة الرأي العام الأجنبي [١٨٠]

أثار نشر بروغرام اوسشكين، المفصّل في مقالات متتابعة عبر جريدة «فلسطين» سنة ١٩١٤، نقاشا حاميا في الصحافة العربية.[١٨١] وقبل انتهاء هذه السنة، تقدمت الجمعية العربية الفتاة ــ وهي الجمعية السياسية الرائدة في الفكر القومي (والجمعية السرية في حينها) ــ بموقف محدّد من الصهيونية، كتبه احد أعضائها البارزين محمّد محمصاني؛ فهو قد رافق الجمعية منذ تأسيسها في باريس حيث كان يدرس الحقوق، ولمّا عاد الى مسقط رأسه بيروت، لمع اسمه بين الكتّاب العرب الأوائل في الصهيونية، ولا سيما عبر صفحات «المفيد» و«فتى العرب». وقد ترك مخطوطة قيّمة بعنوان «دعاة الفكرة الصهيونية».[١٨٢]

حدد محمد المحمصاني الموقف العربي العام بموقف التصدي للصهيونية، وهو الموقف الجامع لكل العرب، وللسوريين منهم بوجه خاص؛ فالخطر الصهيوني لا يتهدّد فلسطين وحدها، بل سوريا كلها. وقال ان الحركة الصهيونية حركة حديثة، إلّا ان الجميع أصبحوا بفضل نشاط الكتّاب والصحف يعتقدون ان الصهيونية خطر على البلاد، ويشعرون بضرورة مقاومتها، «لا فرق في ذلك بين فلسطينيين وغيرهم من أبناء العرب، ولا سيما في سوريا، فانهم جميعا متكافلون في هذه المسألة، حسبما يقتضيه التضامن القومي.»

وتحدث عن يقظة الشبيبة الفلسطينية وقيامها بتأليف الجمعيات المختلفة لدرء الخطر الصهيوني. أمّا فيما يتعلق بالتهمة الشائعة يومذاك بأن المقاومة ليست إلّا صراخا وعويلا، فقد رد بحكمة المثقف المطّلع على تاريخ الشعوب ونضالاتها: «ان العاملين على مقاومة الصهيونية يفكرون بوسائل اهم وأنجع مما يتصورون. . . وفاتهم ان طور القول والكلام يتقدم دائما طور العمل في حياة الفرد والجماعات. . .»

---

(١٨٠) كما ورد في عجاج نويهض، مصدر سبق ذكره، ١٩ تموز/يوليو ١٩٥٥

(١٨١) أعادت نشر «البروغرام الصهيوني السياسي» لأوسشكين عن جريدة «فلسطين»، عدة صحف ومجلات عربية، ومنها مجلة «المنار»، المجلد السابع عشر، الجزء التاسع، آب/أغسطس ١٩١٤، ص ٦٩٧ ــ ٧٠٨.

(١٨٢) خير الدين الزركلي، «الأعلام» (بيروت، لا ناشر، الطبعة الثالثة ١٩٦٩)، الجزء السابع، ص ٣١٨ ــ ٣١٩.

أمّا على صعيد المقاومة العربية الشاملة، فقال ان الجميع على اتفاق تام بشأن مبدأ المقاومة، وعلى اختلاف فيما يخص نهج المقاومة. فبينما تقول فئة بوجوب مقاومة الصهيونيين بسلاحهم العلمي والاقتصادي فقط، تبرز «فئة ثانية عاملة نشيطة هي اليوم قدّام الفكرة العربية ولها مستند عظيم من الشبيبة المتعلمة... ترى وجوب دفع الخطر الصهيوني بجميع الوسائل التي تتوفر للجماعات المتضامنة القوى المشتركة بالمصلحة... لسنا إزاء حركة مباراة ومنافسة، بل حركة دفاع عن حياة عامة توجب الأخذ بكل طرق المقاومة، لا فرق بين إنشاء الجمعيات والنقابات وبين تأليف العصابات المسلحة.»

وانتهى الى القول: «ولذلك فنحن مع رأينا بالتقوى والانتظام يجب ان نقيس عملنا على جميع ما عند الصهيونيين من القوى العاملة كي يتاح لنا التفوق على حركتهم ونُبيّن لهم كيف تبقى بلاد العرب للعرب.»(١٨٣)

ثالثا: تطوّر الموقف العثماني

عندما أعلن السلطان عبد الحميد الدستور ثاني مرة في عهده، في ٢٣ تموز/يوليو ١٩٠٨، ظن الناس خيرا في الاتحاديين الجدد، أصحاب المبادىء، الذين ضغطوا على السلطان لإصدار الدستور. ولم يمر عام واحد حتى اقدم الاتحاديون على خلع السلطان عبد الحميد، والمجيء بالسلطان محمد رشاد خلفا له. وقد كان آخر السلاطين هذا، سلطانا إسميا؛ فالحكم الفعلي بات للاتحاديين. ولسنا هنا في صدد تاريخهم، إلاّ من جهة علاقتهم بالحركة الصهيونية.

تؤكد رسائل السفارة البريطانية في الآستانة الى وزارة الخارجية في لندن، دور اليهود، ولا سيما الدونمة؛ وهم اليهود الذين تظاهروا بالاسلام. وتؤكد أيضا دور الماسونية وزعمائها من اليهود في سالونيك، في اجتذابهم الأعضاء في «تركيا الفتاة» وإقناعهم بتبني الماسونية، وشعاراتها: «حرية ــ إخاء ــ مساواة»، وحتى طقوسها السرية. وقد توصلت الماسونية الى إقناع الاتحاديين بأنها جسرهم للقضاء على عبد الحميد. ولمّا وصل الاتحاديون الى الحكم فعلا، بدا ان اليهود الماسون يعتبرون هذا العهد عهدهم، فالفرحة التي عمت أوساط اليهود عامة كانت واضحة للعيان.(١٨٤)

---

(١٨٣) جريدة «الاقدام»، أول آب/أغسطس ١٩١٤، كما ورد في. خيرية قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦١ ــ ٢٦٢.

(١٨٤) راجع: خيرية قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٤١ ــ ٤٩
اعتمدت المؤلفة على سجلات الخارجية البريطانية.

ولم يَخْفَ التغلغل الصهيوني على الزعماء العرب، ولا سيما المقيمين منهم في الآستانة وقد كان السيد رشيد رضا من المقيمين هؤلاء آنذاك، فكتب مقالا شرح فيه طبيعة الاستبداد في جمعية الاتحاد والترقي التي طغت على زعماء شرفاء في الجمعية أمثال صادق بك، «قومندان» الانقلاب العثماني وموجد الدستور؛ فقد كان صادق بك متعدا عن الأضواء، ويرى ان على جمعية الاتحاد والترقي «ان تترك للحكومة الحرية في عملها، وتكتفي بالمراقبة عليها، فلا تتعرض لشيء إلاّ إذا رأت الدستور مهددا بالزوال » إلاّ انه لم يفلح في ذلك، فقد بات ارتباط زعماء الجمعية بالضباط، واشتغال الضباط بالسياسة، من أعظم الأخطار التي تهدد الدولة.(١٨٥)

لقد فرضت الأقلية المتعصّبة في الجمعية سياستها، وما كان على سائر الأعضاء إلاّ الطاعة من دون مناقشة، وما على الوزراء والمسؤولين من الأعضاء إلاّ التنفيذ.(١٨٦)

أمّا عن علاقة الاتحاديين بالماسونية، فيقول السيد رشيد رضا:

> ان هؤلاء الزعماء كلهم من شيعة الماسون يجتهدون في نشرها وجعل رجال الحكومة من أعضائها، كما ينشرونها في ضباط الجيش، وقد يكون هذا تمهيدا للفصل بين السياسة والدين وتجريد السلطان من الخلافة الاسلامية
>
> ان من لوازم تشيعهم للماسونية قوة نفوذ اليهود فيهم وفي الدولة وذلك يفضي الى فوز الجمعية الصهيونية في استعمار بلاد فلسطين الذي يراد به إعادة ملك اسرائيل الى وطنهم الأول، والى ابتلاع أصحاب الملايين من اليهود لكثير من خيرات البلاد.(١٨٧)

ويقول عن سياسة الاتحاديين الطورانية:

> من اهم مقاصد هؤلاء الزعماء جعل السيادة والسلطة في المملكة العثمانية للشعب التركي والتوسل بقوة الدولة الى إضعاف اللغة العربية وإماتتها في المملكة وتتريك العرب مع إبقائهم ضعفاء بالجهل والضغط وذبذبة اللسان، ومنع الألبانيين والأكراد من تدوين لغتهم وجعلها لغة علمية...»(١٨٨)

جابهت الامبراطورية العثمانية على الصعيد الخارجي ضربات متعدّدة، وابتدأت أطرافها في

---

(١٨٥) السيد رشيد رضا، «امير الألاي صادق بك»، مجلة «المنار»، المجلد الرابع عشر، الجزء الرابع، نيسان/إبريل ١٩١١، ص ٢٦٧

(١٨٦) يحتسب الثلثان من مجموع الحضور لا من مجموع الأعضاء؛ ففي نظام جمعية الاتحاد والترقي انه إذا أُقرّت اية مسألة بنسبة الثلثين، وجب على الباقي الانصياع من دون مناقشة. فاذا حضر الجلسة ستون، وهم نصف أعضاء الحزب (المائة والعشرين)، واتفق اربعون منهم على المسألة، كان ذلك كافيا قانونيا، وأمّا عمليا فمؤداه ان الثلث يتحكم في الثلثين (المصدر نفسه، ص ٢٦٩).

(١٨٧) السيد رشيد رضا، «امير الألاي صادق بك»، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٩.

(١٨٨) المصدر نفسه، ص ٢٧٠

أوروبا تتقلّص بالتدريج. فبعد إعلان الدستور بأشهر، أعلنت بلغاريا استقلالها عن الدولة بصورة رسمية.(١٨٩) ثم أعلنت النمسا إلحاق مقاطعتي البوسنة والهرسك بأمراطوريتها بصورة رسمية.(١٩٠) وخلال العام الثاني من الحكم الدستوري، التحقت جزيرة كريت باليونان، وكانت قد خرجت عن الحكم العثماني بصورة فعلية، منذ مدة غير قصيرة. أما الضربة الكبرى فكانت سنة ١٩١١، حين هاجمت إيطاليا طرابلس الغرب، واحتلتها، وأعلنت إلحاق الولاية كلها ببلادها. وقد كانت طرابلس الغرب لا تزال ولاية عثمانية. وهكذا ــ وبعد حرب قاسية ــ تنازلت الدولة العثمانية لإيطاليا، في معاهدة أوشي التي تلت الحرب، عن ولاية طرابلس الغرب ومتصرفية بني غازي.

وقبل عقد صلح أوشي، كانت الدول البلقانية قد اتفقت على مهاجمة الولايات العثمانية، مستفيدة من الحصار الايطالي؛ وهكذا نشبت الحرب البلقانية التي تعرضت الجيوش العثمانية فيها للهجوم من كل الجهات. وقد انتهت هذه الحرب بسرعة، وفصلت في إثرها، عن الدولة العثمانية، جميع ولاياتها الأوروبية باستثناء قسم من ولاية أدرنة.(١٩١)

وجابهت الدولة، على الصعيد الداخلي أيضا، ثورات واضطرابات متعددة، منذ صدور الدستور حتى الحرب الكبرى؛ فكانت أولها ثورة اليمن، وآخرها ثورة الألبان.

كان من ابرز نتائج انهزام الجيوش العثمانية في البلقان طرح المسألة الشرقية بأبعادها كافة، ولا سيما ان خروج الولايات الأوروبية من الامبراطورية العثمانية غيّر من التوزيع الديموغرافي، والنسب القومية؛ فزادت النسبة بين العرب ومجموع سكان الامبراطورية زيادة كبيرة، وكذلك ارتفعت نسبة الأرمن؛ وهذا ما جعل الأتراك يشعرون أول مرة بأنهم باتوا الأقلية في امبراطوريتهم الكبرى. وسعيا وراء مصالح الدولة العثمانية، واقتناصا للفرصة المؤاتية، جرت مفاوضات بين الدولة من جهة، وبين كل من الدول الأوروبية الكبرى من جهة ثانية. وكذلك جرت مفاوضات، على صعيد آخر، فيما بين الدول الأوروبية. وكانت التسوية شعار هذه المفاوضات السرية التي جرت

(١٨٩) كانت بلغاريا قد استقلت قبل عقود من السنين، إلّا أنها كانت لا تزال تعتبر تابعة للدولة العثمانية بصورة رسمية وفعلية. راجع: ساطع الحصري، «البلاد العربية والدولة العثمانية» طبعة موسعة تتضمن الاتفاقيات السرية التي كانت عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية الكبرى قبيل الحرب العالمية الأولى (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٠)، ص ١١٣

(١٩٠) وُضعت مقاطعتا البوسنة والهرسك تحت إدارة النمسا منذ معاهدة برلين، وقد دخلت بصورة فعلية في عداد ممتلكات الامبراطورية النمساوية منذ مدة تزيد على ثلاثة عقود من السنين، إلّا أنها بقيت ــ من وجهة الحقوق الدولية ــ تابعة للدولة العثمانية (ساطع الحصري، مصدر سبق ذكره، ص ١١٤).

(١٩١) ساطع الحصري، مصدر سبق ذكره، ص ١١٤ ــ ١١٧.

في النصف الأخير من سنة ١٩١٣ والنصف الأول من سنة ١٩١٤؛ وهي المفاوضات التي لم يشر الأتراك شيئا عنها قبل سنة ١٩٥١.[١٩٢]

جرت المفاوضات والاتفاقيات مع كل من بريطانيا، وألمانيا، وفرنسا. وكانت ابرز الموضوعات التي تناولتها، مناطق النفوذ والامتيازات الأجنبية المتعددة. أمّا ابرز النتائج السياسية بالنسبة الى الأوروبيين، فكانت إقرار الأتراك العثمانيين بما يلي:

- الاعتراف بحماية بريطانيا على جنوب الجزيرة العربية.
- الاعتراف بحماية فرنسا على تونس ومراكش.
- التخلي عن المطالب المتعلقة بالبحرين وقطر وحضرموت
- تحديد الحدود بين ولاية اليمن وبين المحميات البريطانية
- الاعتراف بالاتفاقية التي كان عقدها شيخ الكويت مع بريطانيا.
- التعهد بعدم التدخل في شؤون الكويت الداخلية والخارجية.[١٩٣]

أمّا عبر الاتفاقيات الاقتصادية والثقافية، فيبدو جليا ان سوريا هي منطقة نفوذ فرنسية. ويعلّق المؤرخ ساطع الحصري على هذه الاتفاقيات بقوله: في الحقيقة ان المفاوضات التي جرت والاتفاقيات التي عقدت بين الدول الأوروبية كانت وضعت «اسس اقتسام آسيا العثمانية، من الوجهتين: الاقتصادية والسياسية»، ورسمت خطوط اقتسامها بصورة فعلية. انها كانت قد قسمت الولايات والمتصرفيات العربية التي تمتد من سواحل الشام وحدود إيران الى اربع مناطق نفوذ، وحققت ثلاثا منها لكل من فرنسا وبريطانيا وألمانيا، وجعلت الرابعة مشتركة بين بريطانيا وألمانيا.

اقرت اتفاقيات الحرب العالمية الأولى ــ بطبيعة الحال ــ ما كان مقررا لكل من فرنسا وبريطانيا. غير أنها أبطلت ما كان مقررا لألمانيا، وقسّمته بين فرنسا وبريطانيا.

ولذلك، ينتهي الحصري الى القول: «ان اسس اقتسام البلاد العربية المذكورة كانت قد تقررت قبل الحرب العالمية الأولى، تحت علم الحكومة العثمانية نفسها.»[١٩٤]

بالنسبة الى الموقف العثماني من الحركة الصهيونية، فقد ادت أحداث سنة ١٩٠٨ الى المزيد

---

(١٩٢) نشر يوسف حكمت بابور «تاريخ الانقلاب التركي» في مجلدات، في الخمسينات، وقد خصص أحدها للبحث في هذه المعاهدات والاتفاقيات التي جرت قبيل الحرب الكبرى، مستندا الى محفوظات وزارة الخارجية التركية، ونشرت هذا المجلد مطبوعات «لجنة التاريخ التركي» سنة ١٩٥١. وقد استقى المؤرخ ساطع الحصري معلوماته بشأن الاتفاقيات السرية من مصدر يوسف بابور أعلاه.

(١٩٣) ساطع الحصري، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٥

(١٩٤) المصدر نفسه، ص ٢١٥ ــ ٢٢٧

من وضوح العلاقات بين الفريقين، وعلانيتها. فقد أرسل وولفسون رئيس اللجنة التنفيـذية الصهيونية، وورارث هيرتسل، منذ تلك السنة، ممثلا دائما للجنة التنفيذية في الآستانة. وقد اختار للمهمة صهيونيا لامعا، هو فيكتور جاكوبسون الذي كان قد زار الآستانة سابقا، وعرفها جيدا. وسرعان ما برز دأب الحركة الصهيونية على استغلال المرحلة في القضايا الصغيرة، كما في القضايا الكبيرة، حتى قال نورداو معلقا على أحداث سنة ١٩٠٨: «لو عاش هيرتسل حتى هذا اليوم، لكان في منتهى السعادة، قائلا: هذا هو ميثاقي.»(١٩٥)

باشر الصهاينة مباحثاتهم مـع العثمانيين. غير ان هذه المباحثات توقفت ما بين سنتي ١٩٠٩ و ١٩١١، بسبب انشغال الدولة بقضاياها الأخرى ولم يضيـع الصهاينة وقتهم، فقاموا بتمويل بعض الصحف في هذه المرحلة من أجل كسب الرأي العام. وكان همّ جاكوبسون الأكبر تنسيق العمل بين المنظمات الصهيونية والاسرائيلية في الآستانة نفسها. فقد كانت أكثر من جهة، تفاوض باسم الصهاينة،(١٩٦) تحمل أكثر من وجهة نظر، فبعضها رأى الدولة العثمانية مضمحلّة لمصلحة بريطانيا، وبعضها الآخر رآها باقية. وفي جميـع الحالات، كان هناك إجماع صهيوني على اهمية الآستانة.

أعطت الحروب الايطالية والبلقانية ضد الدولة العثمانية دفعا جديدا للصهيونية وأصبحت هذه الدولة الكبرى، في أيام محنتها، أكثر استعدادا للاستماع الى المطـالب الصهيونية، فرفعت القيود جزئيا عن الهجرة الى فلسطين، وأصبـح شراء الأراضي من قبل الأجانب أكثر سهولة وفي الوقت نفسه، لم يعد للحكم المركزي في الآستانة العاصمة سلطة قوية على الولايات البعيدة، الأمر الذي جعل الموظفين والمسؤولين الكبار، ممثلي الدولة في فلسطين، يتمتعون بحرية في تفسير الأوامر الصادرة اليهم من الآستانة.(١٩٧)

بالـغ الصهاينة، في أثناء الغزو الايطالي لطرابلس الغرب، في إظهار دعمهم للدولة العثمانية، حتى أوهموا العثمانيين انهم جادون في سعيهم لتجنيد الشبان اليهود. لكنهم اكتفوا، عمليا، بمساهمة فريق طبـي، وإصدار بيانات عطف تتّسم بالغموض. لقد كانت المهمة الرئيسية لممثلي اللجنة التنفيذية الصهيونية في استانبول، حماية اليشوف في فلسطين، خلال السلم والحرب وقد قدمت الحركة الصهيونية للدولة العثمانية، في هذه المرحلة، الكثير من الاغراءات والأموال. لكن، على

(١٩٥) Laqueur, *op.cit.*, p. 140.

(١٩٦) من ابرز الجهات المفاوضة المكتب الصهيوني (مكتب وولفسون) وجمعية الأليانس الاسرائيلية.

(١٩٧) Laqueur, *op.cit.*, p. 142.

الرغم من كل ما قدمته، فقد بقي شعار الدولة العثمانية إزاء الصهيونية: «فلسطين ليست للبيع».(١٩٨)

رابعا: النواب العرب
في مواجهة الصهيونية

ظهرت «الكتلة النيابية العربية» سنة ١٩١١، وكانت المخاطر الصهيونية ابرز اهتماماتها. غير ان نشاط النواب الفلسطينيين والعرب ضد الصهيونية قد سبق نشوء الكتلة؛ فقد تقدم نائب يافا حافظ السعيد، في حزيران/يونيو ١٩٠٩، باستجواب في مجلس المبعوثان بشأن مقاصد الصهيونية، وتساءل عما إذا كانت الحركة الوطنية لليهود تنسجم مع مصلحة الامبراطورية العثمانية، مطالبا بأن يُغْلق مرفأ يافا في وجه المهاجرين اليهود.(١٩٩)

وطرح نائب القدس روحي الخالدي، بعد عامين، قضية الهجرة اليهودية، وأوضح مخاطرها بأدق المعلومات. وقد خلص منها الى تأكيد مسعى الحركة الصهيونية للاستيطان وتأليف امة لليهود في البلاد. وردّ وزير الداخلية خليل بيك: «اننا موقنون بأن اليهود العثمانيين ليسوا على رأي دعاة الصهاينة، بل هم ضدّهم في ذلك، مراعاة لمصالحهم... أما اليهود الأحانب فان الحكومة تتخذ الوسائل حتى لا يجتمعوا في مكان واحد، وهي ستسير على هذه الطريقة أبدا.»(٢٠٠)

طالب نواب القدس مجلس المبعوثان بسن تشريع يمنع الصهاينة من الهجرة وامتلاك الأراضي.(٢٠١) وقد تميز هؤلاء باطلاعهم الواسع على القضية الصهيونية؛ فسعيد الحسيني كان يجيد اللغة العبرية، وروحي الخالدي لم يكن العالم المؤرخ فحسب بل أيضا النائب المسؤول، والشاهد المتابع يوما فيوما لما يجري في وطنه. وكانت جلسة صاخبة في خريف سنة ١٩١٢، عندما احتج العرب بشدة على تملك اليهود منطقة زراعية في مرج ابن عامر.(٢٠٢) وقد وقف النواب

(١٩٨) *Ibid*, p 143.

(١٩٩) *The Jewish Chronicle* (London), June 18, 1909,
كما وردت في: عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠.

(٢٠٠) «المؤيد»، العدد ٦٣٠٩، ١٩١١/٣/٨، كما وردت في: توفيق علي برو، «العرب والترك: في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ ــ ١٩١٤» (القاهرة: معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٠)، ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣.

(٢٠١) عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢.

(٢٠٢) George Antonius, *The Arab Awakening* (London: Hamish Hamilton, 2nd ed, 1945), p. 259.

العرب صوتا واحدا ضد التغلغل الصهيوني، وكان في مقدمتهم: امين أرسلان، ورضا الصلح، وشكري العسلي.

جدّد نجيب الأصفر، في آذار/مارس ١٩١٣، طلبه لامتياز الجفالك،[٢٠٣] وهو يهودي ظهر في الآستانة كرجل ذي مشاريع اقتصادية بحتة، والى الحد الذي تناقش الناس في امره في البداية: أهو صهيوني ام لا؟ فمشاريع الأصفر لم تكن صهيونية المظهر، بل المحتوى؛ وهذا ما جعل «الكرمل» تشن عليه حملة شعواء، فكتب نجيب نصار يقول:

> ... هو ذا مشروع الأصفر الذي يقضي بسقوط جانب كبير من البلاد «الأراضي المدورة الأميرية» [الجفالك] في ايد اجنبية عاد فظهر على المسرح لثالث او رابع مرة كأنّ كلما قيل فيه في دوائر السياسة وعلى منبر مجلس الأمة وكتب عنه في الصحف السيارة لم يكف لطيه والاهتمام بتوزيع هذه الأراضي على الأهالي الوطنيين العثمانيين واستيفاء بدل مثلها أقساطا...[٢٠٤]

لم تقتصر المعارضة في فلسطين على الصحافة وحدها، بل لحقت بها حركة شعبية انطلقت من نابلس، حيث عقد اجتماع كبير احتجاجا على مشروع الأصفر لنيل استثمار ارض الغور شرقي نابلس، صدر في إثره احتجاج يطالب الحكومة «بأن تصرف النظر قطعيا عن مشروع المزاد العلني وإعطاء الأراضي ببدل المثل وبصورة مقسطة للمتصرفين والمزارعين فيها الذين خرجت من ايديهم بطرق استبدادية والذين إذا حرمتهم الحكومة منها لا يجدون ما يلجأون اليه فيقعون في مهواة الويل... ان هذا البيع على هذه الصورة هو بالحقيقة بيع لنا ولبلادنا »[٢٠٥] وكذلك أُرسلت برقيات الاستنكار الى الآستانة من اجتماعات مماثلة في المدن الفلسطينية ونجحت الحملة الشعبية، أخيرا، في إسقاط مشروع الأصفر بتخلي الآستانة عنه.[٢٠٦] وكان من أسباب نجاحها مساندة النواب العرب، ورجالات العرب، كعبد الكريم الخليل الذي كان يقود الحملة في الآستانة ضد مشروع الأصفر.[٢٠٧]

---

(٢٠٣) جريدة «الكرمل»، العدد ٣١٦، ١٤ آذار/مارس ١٩١٣.

(٢٠٤) «الأراضي المدوّرة»، المصدر نفسه، العدد ٣١٧، ٨ آذار/مارس ١٩١٣.

(٢٠٥) حريدة «الكرمل»، العدد ٣٥٧، ١٢ آب/أغسطس ١٩١٣.

(٢٠٦) عزة دروزة، أوراق خاصة، محفوظة في مكتبة خاصة، «ترجمة حياة عزة دروزة»، ص ٢.

(٢٠٧) احد أعضاء الجمعيات العربية [اسعد داغر]، «الثورة العربية: مقدماتها ـ أسبابها ـ نتائجها» (مصر: مطبعة المقطم، ١٩١٦)، ص ٨٤

خامسا: الفلسطينيون والمؤتمر العربي الأول

كان عوني عبد الهادي، ابن نابلس، احد الشبان الخمسة العرب الذين هيأوا سرا للمؤتمر العربي الأول في باريس سنة ١٩١٣ ــ وهو المؤتمر الذي أُطلق عليه «مؤتمر الشهداء» لكونه «المؤتمر الذي أذاع الأماني القومية وجرّ أعضاءه الى المشانق»؛ فقد انطلق جمال باشا في محاكماته الصورية لأحرار العرب من هذا المؤتمر ورجاله.[٢٠٨]

لم يعلن العرب في مؤتمرهم الأول انفصالا عن الدولة العثمانية، لكنهم أعلنوا عروبتهم وحبهم لها؛ وتلك هي الجريمة. وكانت ابرز الكلمات في هذا الباب، كلمة عبد الغني العريسي الذي تساءل: «هل للعرب حق جماعة؟»، وأجاب:

> ان الجماعات في نظر علماء السياسة لا تستحق هذا الحق إلا إذا جمعت على رأي علماء الألمان وحدة اللغة ووحدة العنصر، وعلى رأي علماء الطليان وحدة التاريخ ووحدة العادات، وعلى مذهب ساسة الفرنسيس وحدة المطمح السياسي فإذا نظرنا الى العرب من هذه الوجوه الثلاثة علمنا ان العرب تجمعهم وحدة لغة، ووحدة عنصر، ووحدة تاريخ، ووحدة عادات، ووحدة مطمح سياسي. فحق العرب بعد هذا البيان ان يكون لهم على رأي كل علماء السياسة دون استثناء حق جماعة، حق شعب، حق امة. . .
>
> فنحن عرب قبل كل صبغة سياسية. حافظنا على خصائصنا وميزاتنا وذاتنا منذ قرون عديدة رغما مما كان يتنانا من حكومة الآستانة من أنواع الادارات كالامتصاص السياسي او التسخير الاستعماري او الذوبان العنصري. فكل ما تدرعت به الآستانة من الوسائل لم يؤدّ الى غير نتيجة واحدة وهي الحرص على مكانة حق الجماعة وإحياء هذا الحس الشريف النبيل حس الجنسية. .[٢٠٩]

وقد وردت على المؤتمر برقيات تأييد لمبادىء الاصلاح واللامركزية التي تبنّاها، من مختلف أنحاء فلسطين، ولا سيما من جنين وغور بيسان ونابلس وحيفا ويافا، وكذلك من طلاب فلسطين وأبنائها المقيمين في الآستانة. وقد حملت هذه البرقيات نحو ١٥٠ توقيعا.[٢١٠] إلّا انه كثيرا ما ورد توقيعان او ثلاثة تواقيع نيابة عن المئات او الآلاف في هذه الجمعية او تلك المدينة؛ فبرقية الشيخ

---

(٢٠٨) راجع أعلاه ما كتب عن المؤتمر العربي الأول في البند ثامنا ــ الفصل الثالث ــ القسم الثالث؛ عصبة من الكتاب الأحرار، «مؤتمر الشهداء: المؤتمر الذي أذاع الأماني القومية وجر أعضاءه الى المشانق»، تمهيد يوسف يزبك (بيروت: منشورات جريدة اليوم، [١٩٥٥]).

(٢٠٩) عبد الغني العريسي، «حقوق العرب في المملكة العثمانية»، اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر، المؤتمر العربي الأول (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩١٣)، ص ٤٢ ــ ٤٣.

(٢١٠) راجع: المصدر نفسه، ص ١٦٣ ــ ٢١٠

مصطفى الخطيب من مشايخ غور بيسان، والشيخ صالح القاسم شيخ جبول، أُرسلت باسم سبعين ألفا من عرب بيسان، وقد طرحت الموضوع الخطر الذي تزامن مع انعقاد المؤتمر، وهو بيع الجفالك.[٢١١]

لم يطرح الموضوع الصهيوني على مؤتمر باريس. وهذا، على الرغم من كون العديد من رجال المؤتمر من أوائل العرب وعيا على الخطر الصهيوني. وربّما نتج ذلك من أولوية البحث في عوامل النهوض بالعرب وتطبيق اللامركزية. وفي حال النجاح في هذه المجالات، يكون القضاء على احتمالات الخطر الصهيوني سهلا.

تعود تواريخ إرسال البرقيات من فلسطين الى المؤتمر، الى أسابيع قبل انعقاده. وإنْ دلّ ذلك على شيء، فهو يدل على نجاح الأحزاب والجمعيات العربية السرية وفروعها المنتشرة في فلسطين، في تحريك الرأي العام صوب المؤتمر العربي الأول، حتى قبل الصحافة نفسها.

سادسا: نشوء الأحزاب والجمعيات

تنقسم الأحزاب والجمعيات السياسية، التي شهدتها فلسطين في نهاية العهد العثماني، الى فئتين: الفئة الأولى هي الأحزاب والجمعيات العربية، السرية منها والعلنية، التي نشأت في الآستانة وباريس، ثم أنشأت فروعا لها في فلسطين. وقد عالجنا سابقا دور الفلسطينيين من خلال هذه المؤسسات، بدءا بالشبيبة العربية سنة ١٩٠٥، وانتهاء بالثورة العربية سنة ١٩١٦.[٢١٢] أمّا الفئة الثانية، فهي الأحزاب والجمعيات المحلية في فلسطين. وعلى الرغم من عدم توفر المصادر الكافية فيما يتعلق بنشاطات هذه الفئة وأعمالها، فان الاشارات المستمرة في الصحافة اليومية بشأنها تدل على انصراف معظمها الى مكافحة الصهيونية، كما تدل على ان معظم أعضائها من الشبيبة.

أُنشىء الحزب الأول باسم «الحزب الوطني العثماني» سنة ١٩١١، وكان الشيخ سليمان التاجي الفاروقي من مؤسسيه. وقد نشر في صحيفة «المفيد» ما جاء فيه بشأن طبيعة الحزب وأهدافه:

> حزب وطني لتطوير كل ما هو مفيد للشعب وتوجيه كل الجهود نحو معارضة قانونية للحركة

---

(٢١١) المصدر نفسه، ص ١٨٨.

(٢١٢) راجع بشأن «الأحزاب والجمعيات العربية»، أعلاه. الفصل الثالث ـــ القسم الثالث.

الصهيونية ومحاربتها بسلاح الحق، بالاضافة الى إثارة وعي الأمة للعواقب الوخيمة للصهيونية، وتذكير الحكومة بواجباتها التالية:

أولا: منع الهجرة وذلك بتطبيق نظام جواز السفر الأحمر

ثانيا: منع بيع الأراضي

ثالثا إجراء إحصاء لليهود وإعطاء العثمانيين منهم بطاقات هوية واضحة.

رابعا فرض رقابة حكومية وبرنامج الدراسة الرسمي على مدارسهم

خامسا: حظر اجتماعاتهم الخاصة ما لم يسبقها الحصول على إذن خاص من السلطات وفقا للقوانين المرعية الإجراء بهذا الصدد.

سادسا: إجراء أعمال مسح لأراضي المستعمرات، وفرض مختلف الضرائب والأعشار والويركو عليهم مع إعادة تقييم وتقدير المبالغ المالية التي ضاعت على الخزينة عن السنوات الماضية (٢١٣)

اتخذت «جمعية مكافحة الصهيونية» من نابلس مقرا رئيسيا لها سنة ١٩١٣، كما أقامت فروعا في عدة مدن رئيسية. وكانت تدعو الى مقاومة بيع الحكومة للأراضي بالمزاد العلني، والى المحافظة على حقوق الفلاحين، ومساعدتهم لتقسيط الديون لهم أقساطا سنوية. (٢١٤)

ودعا نجيب نصار الى إنشاء «الجامعة العربية الفلسطينية» في خريف سنة ١٩١٣. ولم يكن ذلك من منطلق إقليمي، وهو السبّاق في إيقاظ الوطنية، بل لدرء الخطر الصهيوني. وقد حدّد الأسباب لإنشاء هذه «الجامعة» كما يلي:

فلسطين بما فيها من الشرفاء والأمراء والكبراء والناشئة المتعلمة الناهضة ينبغي ان تؤلف جامعة قومية قوية في نفسها ولا تكون عالة على بيروت او الشام او حلب او العراق او الحكومة العثمانية فالبلاد التي تكون عالة على إخوانها وجاراتها وحكوماتها تكون بحد ذاتها ضعيفة وضعفها يضعف حكوماتها وجاراتها. ولكن إذا كان فيها شيء من القوة الذاتية فقوتها تكون درعا لها وحصنا لجاراتها وحكوماتها (٢١٥)

برزت أسماء متعددة لجمعيات محلية عاملة ضد الصهيونية. ففي القدس وحدها أُنشىء سنة ١٩١٤ اربع مؤسسات سياسية واقتصادية، هدفها «الوقوف في وجه الأخطار الوشيكة التي تهدد ارض الوطن وإنقاذ البلاد من الدمار»، وهي: الجمعية الخيرية الاسلامية، وجمعية الاخاء والعفاف، وشركة الاقتصاد الفلسطيني العربي، وشركة التجارة الوطنية الاقتصادية. (٢١٦)

---

(٢١٣) «المفيد»، ١٩ آب/أغسطس ١٩١١، كما ورد في: عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢ — ٦٣.

(٢١٤) عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٧١.

(٢١٥) نجيب نصار، «الجامعة العربية الفلسطينية»، «الكرمل»، العدد ٣٦٦، ١٩ أيلول/سبتمبر ١٩١٣

(٢١٦) عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٧٣، نقلا عن رسالة من الشيخ راغب ابو السعود نشرتها جريدة «فلسطين».

وفي استانبول، تكتّل الطلبة من أبناء فلسطين، ومن زملائهم العرب أبناء صور ومرجعيون، في جمعية لمكافحة الصهيونية، يكون مقرها الرئيسي في القدس، وفروعها في المدن الفلسطينية. وأما غايتها فكانت:

. توحيد الكلمة وجمع القلوب عموما والفلسطينيين خصوصا للسعي في سبيل مصلحة البلاد ولا سيما مكافحة الصهيونية بكل الوسائل. فإذا لم يتيسّر ذلك من خلال المال فمن خلال رجال العلم والأدب والاخلاص.[٢١٧]

وفي القاهرة، أنشأ الطلبة الفلسطينيون في الأزهر الشريف «جمعية مقاومة الصهيونية» في أيار/مايو ١٩١٤، وهدفها العمل بين «جميع طبقات الشعب العربي عامة وفي سوريا وفلسطين خاصة، وقد شملت نشاطاتها النواحي السياسية والاقتصادية والاعلامية.»[٢١٨]

وكان جليا، عبر الصحافة في فلسطين، انتشار الوعي العام ومشاركة المواطنين عبر الرسائل والنداءات التي لم تكن موقّعة دائما بسبب الخوف من بطش السلطات؛ فكثيرا ما أُقفلت هذه الصحيفة او تلك، عقابا لها على اندفاعها الوطني وقد نشرت «الكرمل» في صيف سنة ١٩١٤ منشورا من القدس من دون توقيع بعنوان «نداء عام الى الفلسطينيين»، اتسمت لغته الخطابية بمشاعر الحزن والأسى والخوف من الضياع: «يا أبناء البلاد ندعوكم باسم الاسلام الآسف. باسم الوطن الحزين. باسم جزيرة العرب. باسم سوريا العزيزة. باسم (فلسطين)...» أما غرض المنشور، فيبدو عبر الدعوة الى تنفيذ قانون: «لا تُباع الأراضي الأميرية الى الأجانب مطلقا»، وكذلك الدعوة الى تقوية التجارة والصناعة، والى منع الهجرة، والى طرد السماسرة وعدم بيع الأراضي، والى مطالبة الأوقاف بفتح المدارس العربية الدينية والصناعية والمهنية والزراعية. أمّا ذروة الأخطار التي تهدد الوطن في هذا النداء، فقد كانت «الخطر الصهيوني».[٢١٩]

ان إلقاء نظرة شمولية على الوعي العربي في فلسطين ضد الصهيونية، في مرحلة ما قبل بلفور، يظهر انتشار هذا الوعي ونموه السريع، وكذلك انتشار أدوات المقاومة وأساليبها، والى الحدّ الذي تبدو معه عناصر هذه المقاومة وإمكانات تطورها أكبر من حجم الخطر الصهيوني الظاهر او المرئي على الأقل، داخل فلسطين. غير أنها لم تكن كذلك بالنسبة الى حجم الخطر الصهيوني الجاثم في أوروبا، والقادم الى الشرق عبر اجنحة الانتداب البريطاني.

---

(٢١٧) المصدر نفسه، نقلا عن رسالة من جودت قندوس نشرتها صحيفة «الاقدام»، ١٩١٤/٦/٢١.

(٢١٨) المصدر نفسه، ص ٧٤، نقلا عن صحيفة «الاقدام»، ١٩١٤/٧/١٩

(٢١٩) جريدة «الكرمل»، العدد ٤٤٤، ٧ تموز/يوليو ١٩١٤.

الفصل الرابع
وعد بلفور

أولا: صدور الوعد

لم يشهد تاريخ البشرية حربا طاحنة، نجم عنها من المتغيّرات والثورات والتقلبات ما نجم عن الحرب العالمية الأولى. فمع نهاية هذه الحرب، كانت نهاية اربع امبراطوريات في أوروبا وآسيا، هي الامبراطوريات الروسية القيصرية، والنمساوية ـ الهنغارية، والألمانية، والعثمانية. وقد ادى اضمحلال الامبراطوريات هذه الى المزيد من قيام الدول القومية في أوروبا الشرقية والوسطى، والمزيد من التوسع لدول اخرى كاليابان وإيطاليا. أمّا الإرث العثماني في الشرق الأدنى، فقد بات من حقوق الحلفاء المنتصرين: بريطانيا وفرنسا.

تلك هي النتائج البارزة للحرب الكبرى في الخرائط الجديدة. أمّا اهم النتائج التي تخطّت فيما بعد حدودها على الأرض، فهي امتداد الثورة الاشتراكية الى خارج روسيا (الاتحاد السوفياتي) من جهة، وتعاظم القوة الأميركية والنفوذ الأميركي مع الانحسار النسبي لقوة بريطانيا وفرنسا ونفوذهما في الوضع الدولي من جهة اخرى، وذلك على الرغم من كل ما بدا ظاهريا آنذاك من صورة مغايرة للحقيقة، تتمثل في العزوف الأميركي عن السيطرة، وفي قدرة المارد الاستعماري البريطاني ـ الفرنسي على ابتلاع الشرق. وقد رأى المؤرخ الفيلسوف أوزوالد شبنغلر انهيار بريطانيا قادما على الطريق، مع نهاية الحرب العالمية الأولى، وهي كانت لا تزال في قمة سطوتها الظاهرة.[٢٢٠]

انفردت فلسطين وحدها من دون بلاد العالم كله، بأثر استعماري مزدوج للحرب الكبرى: فكان هناك اثر مباشر تجلّى في وقوع فلسطين جزءا من حصة بريطانيا عند تقاسم المغانم؛ وأثر غير

(٢٢٠) قال أوزوالد شبنغلر، منذ سنة ١٩١٨، ان الحضارة الغربية هي في شتاء دورتها الحضارية، وانها ستذوي في القرن الثالث والعشرين، وستحل مكانها إما حضارة سلافية (روسية) وإما حضارة صينية.

مباشر لم تظهر نتائجه إلاّ بعد ثلاثين عاما، اي مع نشوء دولة «اسرائيل». وقد كانت الاشارة الأولى الى «اسرائيل» هذه عبر وعد بلفور إشارة غامضة، تستنتج استنتاجا من خلال تحليل الوعد، ومن خلال تعبير «الوطن القومي» الذي قدّمت له شروحات متعددة في حينه.

احتوى «الوعد» بالنص الانكليزي على ٦٧ كلمة (باستثناء العنوان). ولم يعرف في التاريخ الدبلوماسي ان نصّا ما، او اتفاقية ما، نال من العناية والجهد والشطب والتغيير ما ناله هذا النص ذو الأسطر المعدودة، لقد استهلكت اللقاءات والمفاوضات والتحضيرات لهذا «الوعد» عدة أعوام. وأمّا صناعة النص وحدها، فقد استغرقت عامين، عمل خلالهما عدة فرقاء على إعداد نصوص متعددة. وقد عبرت هذه النصوص المحيط الأطلسي للتشاور والاتفاق مع اليهود في الولايات المتحدة.[٢٢١] وأخيرا، وبعد تنقيح ست مسودّات في المرحلة الأخيرة، صدر «الوعد» في صيغته النهائية.[٢٢٢]

صدر وعد بلفور عن وزارة الخارجية البريطانية في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧، وهو عبارة عن رسالة من اللورد بلفور وزير الخارجية الى روتشيلد، احد كبار الأثرياء اليهود:

> ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على ان يفهم جليا انه لن يؤتى بعمل من شأنه ان يغيّر الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ولا الحقوق والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى.[٢٢٣]

ثانيا: قانونية الوعد

حاول وايزمن في مذكراته ان يخفي الكثير من الخطوات التحضيرية لـ «الوعد»، وهو الذي كان على رأس الفريق الصهيوني المفاوض؛ فقال انه بينما كان مجلس الوزراء البريطاني مجتمعا لاقرار صيغة «الوعد» (التي يدّعي وايزمن ضمنا انه كان لا يزال يجهلها)، جاء مارك سايكس يبشّره، ووثيقة الوعد في يده، وهو يقول: «دكتور وايزمن، انه صبي.» ويعلّق وايزمن في مذكراته: «حسنا، أنا

(٢٢١) Jeffries, *op cit*, p 5.

(٢٢٢) W.T. Mallison, «The Balfour Declaration· An Appraisal in International Law,» in *The Transformation of Palestine, op cit.*, p. 71.

(٢٢٣) ترجمة الوعد تعتمد على تقرير اللجنة الملكية في فلسطين، ١٩٣٧.

لم يعجبني الصبي في البداية، فهو لم يكن ما كنت اتوقعه. لكنني أدركت ان هذه الولادة حدث كبير.»[(٢٢٤)]

يلقي إنكار وايزمن لمعرفته المسبقة بكل تفاصيل «الوعد»، وحتى بصيغته، الضوء على اهمية الشكل الذي اتفق عليه؛ فـ «الوعد» ـ شكليا ـ مجرد رسالة من وزير خارجية بريطانيا الى ثري يهودي، وليس من المفروض ان يكون الثري اليهودي ومَنْ معه، او مَنْ وراءه، على اطلاع مسبق بمضمون الرسالة. أمّا في الحقيقة، فهذا الوعد «اتفاقية» بين بريطانيا والحركة الصهيونية، وهي اغرب اتفاقية في التاريخ؛ إذ لم يوقعها الفريق الثاني، اي الحركة الصهيونية، ولا حتى مَنْ يفترض فيه انه ممثل لها ولليهود، اي روتشيلد. غير ان هذا «الوعد» قد اكتسب شرعية قانونية ودولية، من وجهتي النظر البريطانية والصهيونية، معا، حين تضمّن صك الانتداب البريطاني على فلسطين (فيما بعد) هذا «الوعد»، ثم حين اقر صك الانتداب نفسه، من قبل عصبة الأمم في جنيف سنة ١٩٢٢؛ وأمّا التساؤل: لِمَ صدر «الوعد» إذاً وعدا في رسالة، ولم يصدر في اتفاقية رسمية كما تكون الاتفاقيات السياسية الرسمية، فتسقط اهميته ما دام الفريقان المعنيان ـ بريطانيا والحركة الصهيونية ـ قد اعتبرا «الوعد» وثيقة سياسية رسمية.

هناك فرقاء آخرون لم يقرّوا بأن لـ «الوعد» شرعية قانونية دولية. وقد دحض المحامي الفلسطيني هنري كتن هذه «الشرعية» من وجهة النظر القانونية المحضة، فقال انه لم يكن لـ «الوعد» أصلا شرعية قانونية حين صدوره؛

> فبريطانيا لم تكن لها اية سيادة على فلسطين، ولا سلطة لإصدار الوعد، وهذا ما يجعل الوعد باطلا قانونيا. ولا يكون الوضع أفضل إطلاقا حين تقدم القوى الكبرى، مثل فرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة، او اي عدد من القوى الأخرى التي لم تكن تملك بدورها سيادة على فلسطين، على الاعتراف بالوعد. ان اعترافا كهذا يكون اعترافا باطلا، ولا يملك اية نتيجة شرعية، ذلك بأن تراكم الأعمال الباطلة قانونيا لا ينشأ عنه عمل قانوني شرعي.[(٢٢٥)]

وردّا على الذين يقولون ان السيادة على فلسطين وسواها من الأراضي التي كانت ضمن الأراضي العربية في ظل الحكم العثماني، قد تخلّت عنها الدولة العثمانية نفسها للدول الحليفة في معاهدة السلم، يقول هنري كتن ان هذا القول خطأ؛ فتركيا لم تتخلّ عن السيادة على فلسطين للدول الحليفة، لا في معاهدة سيفر، ولا في معاهدة لوزان، لأنها لم تكن يومذاك صاحبة السيادة،

---

(٢٢٤) Chaim Weizmann, *Trial and Error*, 4th Impression (London. Hamish Hamilton, 1950), p 262

(٢٢٥) Henry Cattan, *Palestine and International Law The Legal Aspects of the Arab Israeli Conflict* (London Longman, 2nd ed , 1976), p 61.

كي تتخلّى عنها لغيرها. وبناء على ذلك، فان تضمين وثيقة دولية كصكّ الانتداب وعد بلفور، ما كان ممكنا ان يجعل منه نصا قانونيا، بالاضافة الى انه لا توجد اية قداسة للوثائق التي يقال انها وثائق دولية؛ فهذه لا يمكنها ان تجعل من غير الشرعي وغير القانوني شرعيا وقانونيا. وفي الحقيقة، فالعكس هو الصحيح؛ اي ان تضمين وعد بلفور في صك الانتداب عوضا من ان يجعل الوعد شرعيا وقانونيا، فالوعد الباطل هو الذي يقود الى طرح عدم شرعية الانتداب.[٢٢٦]

اثبت بطلان «الوعد» أيضا الرئيس السابق لمحكمة العدل الدولية، جول بازديفان، بقوله:

انه لا يحق لأية دولة، بناء على مشيئتها، ان تمد سطوتها على حساب دول اخرى وشعوب اخرى ان القانون الدولي لا يعترف بأهلية الدولة البريطانية على أراض غير أراضيها الخاصة، وعلى شعوب غير رعاياها ومواطنيها [٢٢٧]

على الرغم من كل ما تقدم من حجج قانونية ومنطقية لبطلان «الوعد»، فهناك رأي قانوني مغاير يعتبر «الوعد» بمثابة اتفاقية دولية بين أطراف متعددة، وذلك استنادا الى صدوره عن دولة (هي بريطانيا)، ثم إقراره من قبل عصبة الأمم؛ وحتى ماليسون صاحب الشروحات القانونية الشهيرة لـ «الوعد»، هو من أنصار هذا الاتجاه.[٢٢٨]

ابرز ما قيل بايجاز في «قانونية» وعد بلفور، انه الوثيقة التي من خلالها «أعطى شعب ما [يقصد الشعب البريطاني] شعبا ثانيا [يقصد اليهود] وعدا بامتلاك بلد يخصّ شعبا ثالثا [يقصد الشعب الفلسطيني].»[٢٢٩] أمّا ابرز ما قيل في «الوعد» بتهكم تناقلته الأجيال فهو «انه وعد من لا يملك لمن لا يستحق.» ومما لا شك فيه ان «الوعد» قد اصبح، في المحافل السياسية والدولية، النقطة المركزية في المطالب الصهيونية ــ الاسرائيلية القانونية.[٢٣٠]

---

(٢٢٦) *Ibid.*

(٢٢٧) As quoted from *Ibid.*, p. 59.

(٢٢٨) Mallison, in *The Transformation of Palestine, op.cit.*, p 65.

(٢٢٩) Arthur Koestler, *Promise and Fulfilment* (New York: Macmillan), p. 4, as cited in Henry Cattan, *op.cit*, p. 58.

(٢٣٠) Mallison, in *The Transformation of Palestine, op.cit.*, p. 65.

ثالثا: الجانب الصهيوني
في الحرب الكبرى

عندما أُعلنت الحرب الكبرى، اتخذت إزاءها المنظمة الصهيونية رسميا سياسة الحياد التام، ونقلت مقرّها الرئيسي من برلين الى كوبنهاغن. وساد بين اليهود في فلسطين جو من الحذر والتخوف، ولا سيما بعد أوامر جمال باشا «بمقاومة نشاط الحركة المثيرة للفتن، والتي تعمل باسم الصهيونية لإقامة حكومة يهودية في الجزء الفلسطيني من الامبراطورية العثمانية.»[٢٣١] وقد أُبعد عدد من زعماء اليهود الروس الى أجزاء اخرى من الامبراطورية، بينما لجأ آخرون الى مصر.[٢٣٢]

وفي الوقت نفسه، دأب ريتشارد ليشتهايم، ممثل المنظمة الصهيونية في استانبول، على حض كل من الحكومتين العثمانية والألمانية على اتخاذ سياسة ملائمة للأهداف الصهيونية، معتمدا في إقناع كل منهما على قنوات مختلفة.

بالنسبة الى تركيا، استمر ليشتهايم على خطى هيرتسل، محاولا إقناع المسؤولين الأتراك بصداقة اليهود وولائهم للامبراطورية العثمانية؛ أمّا عند انتهاء الحرب، فسوف تكون الامبراطورية من القوة بحيث يصبح في إمكانها الاستفادة، الى حد كبير، من المساعدات المالية اليهودية ومن النشاط الاستيطاني اليهودي، من دون ان يكون هناك اي خطر من «قومية يهودية». ومع تصاعد الحركة العربية، حاولت الحركة الصهيونية إقناع الأتراك بأن وجودها في فلسطين سيغدو بعد الحرب ضرورة للوقوف في وجه الحركة العربية المعادية للفريقين، اي للأتراك الاتحاديين وللصهاينة.

وبالنسبة الى ألمانيا، فقد استمر التوجه الصهيوني على خطة هيرتسل في إبراز الهوية الحضارية الألمانية ــ اليهودية، والمصالح المشتركة. وقد لخّص ليشتهايم موقف الصهيونية من ألمانيا بالنقاط التالية: رابطة اللغة الألمانية؛ العلاقات التجارية؛ قدرة اليهود على التأثير في ميداني الصحافة العالمية والمال؛ اهمية العرفان بالجميل من قبل اليهود عامة ويهود أميركا خاصة تجاه ألمانيا، إنْ هي ساندت الحركة الصهيونية؛ الأهمية السياسية لإيجاد قاعدة ثقافية في مصلحة ألمانيا في الشرق الأدنى، ولا سيما ان ألمانيا هي التي ستصبح القوة العظمى في هذا الشرق مستقبلا، وأما فلسطين فستصبح، بفضل

---

(٢٣١) Bohm, *Die Zionistische Bewegung*, Vol I, p. 293, as cited in Nevill Barbour, *Nisi Dominus* (London George G Harrap, 1946), p. 53.

(٢٣٢) *Ibid*, p 53

الهجرة اليهودية وتحوّلها الى قاعدة سياسية ــ تجارية، اشبه بـ «جبل طارق» تركي ــ ألماني على حدود المحيط الانكليزي ــ العربي [٢٣٣]

ومبالغة من الصهاينة في إثبات ولائهم لتركيا، اقترحوا على الحكومة إنشاء فرقة من اليهود البولونيين تحارب مع الأتراك لحماية فلسطين، وتتألف من عشرة آلاف يهودي؛ وذلك في مقابل وعد من ألمانيا باستعمار يهودي لفلسطين بعد الحرب. غير ان هذا الوعد لم يُعط قط. ومع تصاعد حرارة المفاوضات بين الحركة الصهيونية وبريطانيا، صُرف النظر نهائيا عن ألمانيا، من دون ان يمنع ذلك المحافظة على ورقة «التقرب السري» منها، سلاحا في يد المفاوضين الصهاينة في لندن، يشهرونه في وجه بريطانيا إنْ دعت الحاجة.

كان موقف الصهاينة في مصر، بالنسبة الى جبهتي الحرب، مناقضا لموقفهم في استانبول؛ فقد رأى فلاديمير جابوتنسكي (وهو احد الزعماء الصهاينة في فلسطين فيما بعد) ان الحلفاء سينتصرون، لذلك رأى اهمية التوجه نحو بريطانيا، واقترح تنظيم اليهود في مصر في قوة عسكرية كي تساعد بريطانيا عندما تغزو فلسطين. ولم يرفض البريطانيون هذا العرض، وإنْ كانوا لم يقبلوه تماما؛ فتألفت ثلاث فرق يهودية في صيف سنة ١٩١٧، وقدّمت بعض الخدمات خلال سنة ١٩١٨. وهكذا، بينما كان وايزمن يتقدم في مفاوضاته في لندن، كان جابوتنسكي يحاول التقدم عسكريا، او إيهام بريطانيا بذلك على الأقل، مما دعاه الى تشبيه نفسه بغاريبالدي، ووايزمن بكافور.[٢٣٤]

لم يكن سهلا على اليهود في الولايات المتحدة اتخاذ موقف ما، بسبب اتخاذ الولايات المتحدة موقفا صريحا، مؤداه طرح الاتفاقيات السرية جانبا وعدم تقسيم تركيا.[٢٣٥] إلّا ان هذا الموقف لم يمنع السفير الأميركي في تركيا، مورغنتاو (وهو يهودي الأصل)، من إلقاء خطاب في صيف سنة ١٩١٦ يلمّح فيه الى قدرته الذاتية على «التفاوض من أجل ان يبيع الأتراك فلسطين للصهاينة.»[٢٣٦]

بقي اليهود الأميركيون ملتزمين مبدأ الحياد، وهو المبدأ الذي اتخذه آخر مؤتمر صهيوني قبل

---

(٢٣٣) *Ibid*, pp. 54-55.

(٢٣٤) *Ibid.*, p. 55.

(٢٣٥) Leonard Stein, *The Balfour Declaration* (London· Vallentine, Mitchell, 1961), p. 355.

(٢٣٦) *Ibid*, p 357.

عمل مورغنتاو سفيرا للولايات المتحدة في استانبول (١٩١٣ ــ ١٩١٦)، وقد تحوّل فيما بعد الى الخط المناهض للصهيونية، وكان احد اليهود المعروفين الذين وقعوا عريضة ضدّ الصهيونية في الأيام الأولى لمؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ الى الرئيس ولسون (*Ibid.*, p. 395).

الحرب، وملتزمين أيضا القرار الذي اتخذه المؤتمر الأخير نفسه، والقاضي بعدم القيام بأي عمل يؤدي الى استفزاز تركيا، خشية إيذائها لليهود في فلسطين. إلّا ان إعلان الولايات المتحدة ــ أخيرا ــ دخولها الحرب قد حرّر اليهود الأميركيين، فقطعوا آخر صلة لهم بمكتب المنظمة الصهيونية في كوبنهاغن، وأعلنوا منذ ربيع سنة ١٩١٧ ارتباطهم بكل من وايزمن وسوكولوف (في لندن)، وذلك محاولة منهم لتشكيل جبهة صهيونية موحّدة تجمع بين هؤلاء، وبين كل من برندايس وتشلينو، اي بين زعماء اليهود في لندن وواشنطن وموسكو، من أجل التوصل الى تفاهم تام مع الحكومة البريطانية.(٢٣٧)

كان الدور الأساسي للحركة الصهيونية خلال الحرب الكبرى في بريطانيا بقيادة الدكتور حاييم وايزمن (الذي اصبح فيما بعد رئيسا للمنظمة الصهيونية). وقد كان محاضرا في الكيمياء في جامعة مانشستر، كما كان عضوا بارزا في المؤتمرات الصهيونية. وحين اندلاع الحرب، كان في إجازة في سويسرا، فقطع إجازته متوجها الى لندن، وهو مؤمن كل الايمان بانتصار بريطانيا، ومدرك كل الادراك ان اليوم الذي كان يحلم هيرتسل به قد جاء.(٢٣٨)

تروي معظم المراجع عن وعد بلفور ان وايزمن ورفاقه هم الذين ابتدأوا الاتصالات بالسياسيين البريطانيين. كما تروي هذه المصادر كيف اخذ وايزمن ينجح في استقطاب هذا السياسي او ذاك. أمّا الواقع، فهو انه كان في بريطانيا الكثيرون من الساسة البريطانيين ولادة وجنسية، والصهاينة فكرا، وقد وُجِدَ هؤلاء قبل مجيء وايزمن، وحتى قبل هيرتسل، ولم تكن صهيونيتهم إلّا تلبية للمصلحة الاستعمارية البريطانية. وما المشاريع المتعددة في القرن التاسع عشر، كمشروع غولير، او مشروع ميتفورد، إلّا أمثلة.(٢٣٩) لذلك، فان نشأة العلاقات الاستعمارية ــ الصهيونية لم تكن يوم أول لقاء بين وايزمن وبلفور سنة ١٩٠٦، اذ نشأت قبل ذلك. كما انه كان من الطبيعي ان يؤدي تطور الحركة الصهيونية وسعيها للاستيلاء على فلسطين الى الالتقاء مع المصالح البريطانية الاستعمارية؛ وقد كانت الحرب العالمية الأولى الفرصة المثالية لكل من الفريقين.

---

(٢٣٧) *Ibid*, p. 360.

(٢٣٨) Laqueur, *op cit.*, pp 181-182.

(٢٣٩) راجع بشأن المشاريع الصهيونية قبل قيام الصهيونية، أعلاه البند خامسا ــ الفصل الثاني ــ القسم الرابع.

رابعا: أهداف «الوعد» ودوافعه

كان الهدف الرئيسي لبريطانيا من إصدار «الوعد» ان تتمكن بعد الحرب من إحكام قبضتها الاستعمارية على فلسطين، من دون ان يكون لفرنسا او لغيرها من القوى الدولية اي نفوذ او حصة في فلسطين. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، كان لا بد من ان تتحالف بريطانيا مع الحركة الصهيونية. وقد اعتقدت حين اصدرت «الوعد» أنها ستستمر في مكانة الدولة الاستعمارية الأولى، وأن الصهاينة سيستمرّون في موقع المحتاج الى عطف الدولة الكبرى والاعتماد عليها، كما توحي بذلك صيغة «الوعد».

رأى جورج أنطونيوس ان هناك دافعين رئيسيين الى إصدار «الوعد»، واعتبر الدافع الاستعماري هو الدافع الأقوى بينهما، وغايته تأمين فلسطين او جزء منها لتكون حصنا حاميا لوجود بريطانيا ومصالحها في مصر من جهة، ومركزا لاتصالها بمستعمراتها في اقصى الشرق من جهة ثانية. أمّا الدافع الرئيسي الثاني، فهو دافع سياسي يرمي الى كسب العناصر الصهيونية في ألمانيا والنمسا، وهي التي كانت تفاوض قوى المحور لاصدار وعد تركي لليهود في فلسطين؛ فأرادت بريطانيا إقناع الصهاينة بأن النصر إنْ يكن الى جانب الحلفاء، فهو الذي يؤمن الوعد لهم؛ وفي الوقت نفسه، أرادت ان تلطّف من عداء اليهود في دول الحلفاء تجاه روسيا، وإعطاء هؤلاء اليهود الذين كانوا فاعلين في القضاء على العهد القيصري، حافزا ومحركا للعمل على إبقاء روسيا في دوامة الحرب.

لم يلغ أنطونيوس وجود الدوافع الأخرى، من مالية او سياسية او دينية او إنسانية، فتلك لها أهميتها. غير ان الدافع الاستعماري كانت له الأولوية. وحتى لو لم تتفق بريطانيا مع الحركة الصهيونية على وعد بلفور بالذات، فقد كان من الواضح ان بريطانيا هي التي كانت تفتح الآفاق أمام الصهاينة للمساومات من أجل ان تكون فلسطين من حصتها عند تقاسم غنائم الحرب.[٢٤٠]

ولّما كانت فرنسا واضحة أيضا في مطامعها في سوريا ولبنان، وحتى في فلسطين، فان استبعادها نهائيا عن فلسطين كان يستوجب وعدا كوعد بلفور للحركة الصهيونية بأن تكون فلسطين وطنا قوميا لليهود في المستقبل. وحتى يتم ذلك، لا بد من وجود بريطانيا، كدولة منتدبة، لتؤمن لها إرساء دعائم ذلك الوطن. وقد وعد الصهاينة بريطانيا بأن يعارضوا في المحافل الدولية تدويل فلسطين كما

(٢٤٠) Antonius, *op cit.*, p. 261

اتفق عليه في سايكس ــ بيكو، وأن يساندوا بريطانيا للوصول الى فلسطين.[٢٤١]

كان لبريطانيا، في مرحلة المفاوضات بشأن «الوعد»، مطلبان مُلحّان: أولهما كسب الحرب؛ وثانيهما الدفع بقوة بريطانيا العسكرية ومكانتها الدولية الى الحد الأقصى، تمهيدا لمفاوضات السلام المقبلة ومع إحراز ألمانيا التفوق في حرب الغواصات سنة ١٩١٧، اخذت بريطانيا تبحث عن المساعدات من اي مكان؛ وهكذا تلاقت المصالح البريطانية مع المصالح الصهيونية.[٢٤٢]

كان لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني، وبلفور وزير خارجيته، في مقدمة الساسة البريطانيين من أنصار «الوعد». ولا يذكر شتاين، صاحب الكتاب الشهير عن وعد بلفور، شيئا عن دوافعهما الاستعمارية.[٢٤٣] بل انه ينسب الى بلفور آراء معادية للسامية في فترة ما قبل الحرب،[٢٤٤] وكذلك بالنسبة الى لويد جورج. غير انه في الوقت نفسه يركز كثيرا على إنسانية لويد جورج وتأثره بالحكايات والنبوءات التوراتية بعودة اليهود الى الأرض المقدسة. وقد وصفه شتاين بأنه «كان حساسا تجاه الرؤيا اليهودية الدينية.»[٢٤٥]

ولا يوجد في مذكرات وايزمن اي تلميح الى الأهداف الاستعمارية البريطانية؛ فلويد جورج، في رأيه، كان إنسانيا. كما ان الدوافع لدى بريطانيا كانت إجمالا، في رأيه، من منطلقات إنسانية فقط.

وكذلك هربرت صموئيل في مذكراته؛ فهو يعزو الدوافع الرئيسية للحكومة البريطانية «الى عطف حقيقي على تطلعات اليهود الى استعادة فلسطين انطلاقا من العامل الروحاني والقيم الخلقية لليهود، وللعالم كله بصورة غير مباشرة.» وبعد سرد الفوائد الاقتصادية والحضارية لـ«الوطن اليهودي»، يصل هربرت صموئيل الى ذكر «صون مصالح بريطانيا» [٢٤٦]

كان الجانب الصهيوني أكثر وضوحا في أهدافه، وهي الأهداف التي أعلنها مؤتمر بازل منذ سنة ١٨٩٧، والتي تتجسد نهائيا في إقامة دولة يهودية على ارض فلسطين. وقد سعى الصهاينة، منذ بدء

---

(٢٤١) *Ibid*, pp 260-263

(٢٤٢) Mallison, in *The Transformation of Palestine, op.cit*, p 67

(٢٤٣) كان ليونارد شتاين طالبا في أكسفورد ورئيسا لاتحاد الطلبة اليهود في مرحلة المفاوضات، ثم انضم الى الحركة وأصبح سكرتير المنظمة الصهيونية العالمية بعد الحرب. وقد وصفه وايزمن بأنه كان يهوديا بالفطرة (Weizmann, *op.cit*, p 207).

(٢٤٤) Stein, *op.cit*, p 163

(٢٤٥) *Ibid*, p. 143

(٢٤٦) Viscount Samuel, *Memoirs* Reprinted (London. The Cresset Press, 1945), p. 147

المفاوضات، لاكتساب «حقهم» في إنشاء «دولتهم». إلاّ ان طموحهم هذا كان يجد منه واقعيا عاملان: العامل الأول هو العدد الضئيل لليهود في فلسطين، فكيف يطالب بدولة من كانوا لا يؤلفون ــ فعليا ــ أكثر من ٨ ٪ من عدد السكان؟ ولهذا باتت عملية هجرة اليهود الى فلسطين على رأس البرنامج الصهيوني منذ بدء المفاوضات؛ أمّا العامل الثاني، فهو المصالح البريطانية. إذ ان بريطانيا هي التي تريد ان تحكم فلسطين، ومن هنا كان على التطلعات الصهيونية ان تتلاءم مع المصالح البريطانية.(٢٤٧)

وهناك تحليل واقعي مبسّط للمصالح المتبادلة، أشار لويد جورج نفسه اليه حين قال.

> لقد أعطانا الزعماء الصهاينة وعدا قاطعا بأنه إذا اخذ الحلفاء على انفسهم عهدا بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، فهم سيفعلون ما في وسعهم، ويجمعون كل قواهم، لدعم قضية الحلفاء في كل مكان من العالم. وقد حافظوا على كلمتهم نصا وروحا.(٢٤٨)

لم يشارك فريق كبير من اليهود، ولا سيما بين اليهود البريطانيين، الحركة الصهيونية في أهدافها. وهذا ما جعل الكثيرين من المؤرخين يشيرون الى ثلاثة فرقاء في المفاوضات: البريطاني، والصهيوني، واليهودي.

كانت دوافع الفريق اليهودي من منطلقات إنسانية في حججها، ومصلحية في حقيقتها، وقد تزعمه الثري الكبير مونتاغو. ولمّا كان أصحاب هذا الفريق يعلمون ان الأهداف الانسانية بحاجة الى وسائل شرعية، فقد بات هدفهم الأول والمباشر حماية حقوقهم المكتسبة في بريطانيا، ورأوا في إقحام الصهيونية موضوع القومية اليهودية وتبنّيها، تهديدا لحقوقهم السياسية في بريطانيا. وكان هؤلاء وراء تضمين الوعد المحافظة على حقوق اليهود في الدول التي يقيمون فيها؛ وبمعنى آخر، فهم قد رفضوا التنازل عن الحقوق التي اكتسبوها من الاندماج في الدول الغربية في مقابل إنشاء «غيتو صهيوني في فلسطين».(٢٤٩) وكان التعبير الذي يردده مونتاغو: «سوف تصبح فلسطين غيتو العالم.»(٢٥٠)

ومن خلال تعارض الفريق اليهودي مع الأهداف الصهيونية، سعى هذا الفريق لتثبيت

---

(٢٤٧) Stein, *op.cit.*, p 126

(٢٤٨) Lloyd George, *Peace Treaties*, p 1139, as cited in Mallison, in *The Transformation of Palestine, op cit.*, p 88

(٢٤٩) Mallison, in *The Transformation of Palestine, op.cit*, p. 70.

(٢٥٠) Great Britain, Public Records Office, Cab, No 24/24 (August 23, 1917), as cited in Mallison, in *The Transformation of Palestine, op cit*, p. 75.

حقوق الفلسطينيين التي كانت ممارسة في بلادهم. وهذا بالاضافة الى انهم، انطلاقا من وعيهم التام على الاضطهاد التاريخي لليهود، آمنوا بضرورة حماية الفلسطينيين. وأمّا النظرة الصهيونية فكانت لا تعترف أصلا بوجود الفلسطينيين كشعب، كي تقر لهم ببعض الحقوق (٢٥١)

بريطانيا، من جهتها، كانت قد اعترفت للفلسطينيين بحقوقهم كعرب في الدولة العربية، من خلال رسائل حسين ــ مكماهون قبل سنتين. غير أنها، في دوامة خديعتها التاريخية للعرب، لم تتلفت الى حقوق الفلسطينيين في «الوعد» تلبية لرغبة اليهود الانسانيين غير الصهيونيين، كما يشاع، او انطلاقا من صحوة ضمير مفاجئة، بل انطلاقا من مصالحها الحربية؛ ففي سنة ١٩١٧، كانت بريطانيا تسعى جاهدة لإحراز نصر عسكري حاسم ضد الأتراك، وكان أللنبي قائد الجيش البريطاني يتأهب لدخول فلسطين من جنوبها، وكان يسعى من أجل ذلك لإرضاء الضباط والجنود العرب كي يقدموا المعونة الحربية، كما انه ما كان ممكنا للبريطانيين ان يتوقعوا استقبالهم كمحررين ما لم يعترفوا بالحقوق الانسانية الأساسية لسكان البلاد.(٢٥٢)

هناك ثلاثة دوافع شائعة لإصدار وعد بلفور. وعلى الرغم من شيوع هذه الدوافع الثلاثة، الى حد بعيد، فان أيا منها لا يستند الى حقائق او معلومات ثابتة.

الدافع الشائع الأول عن دخول أميركا الحرب. ويتلخص هذا الدافع في ان الحركة الصهيونية هي التي تمكنت من جر الولايات المتحدة الى الحرب (سنة ١٩١٧)، ومكافأة لها على ذلك، أعطتها بريطانيا «الوعد». يقول كريستوفر سايكس انه لم يجد شيئا في أوراق والده مارك سايكس (وهو من ابرز الشخصيات البريطانية المفاوضة) عن هذه النقطة. وكذلك يقول ان بلفور لم يصرح بأي شيء في شأنها وقد انتشر هذا الدافع الشائع لفترة ما في البداية، ثم اختفى فجأة، وما عاد احد من السياسيين يتحدث عنه.(٢٥٣) أمّا أنطونيوس فيعلق بقوله ان الاعتقاد ان وعد بلفور كان مكافأة لليهود الذين استعملوا تأثيرهم المالي والسياسي لجر الولايات المتحدة الى الحرب، هو إمّا شائعة لا أساس لها، وإمّا ان يكون أساسها قائما على خدمات سرية للغاية لليهود، والى الحد الذي تاهت معه عن كل المؤرخين الأميركيين.(٢٥٤)

أمّا الدافع الشائع الثاني، فهو ان «الوعد» كان مكافأة على المساهمات المالية الكبيرة التي

---

(٢٥١) Mallison, in *The Transformation of Palestine, op.cit.*, p 70

(٢٥٢) *Ibid.*, p 71

(٢٥٣) Christopher Sykes, *Two Studies in Virtue* (London. St. James's Place, 1953), p 224

(٢٥٤) Antonius, *op.cit.*, pp 260-261.

تدفقت من مصادر يهودية لتمويل خزينة الحرب. وهذا الدافع يمكن دحضه بسهولة، لكون الأموال التي قدمها اليهود لبريطانيا خلال سنتي ١٩١٧ و١٩١٨ محدودة، فضلا عن كونها عائدة الى يهود أثرياء معادين للصهيونية.(٢٥٥)

وأمّا الدافع الشائع الثالث ــ وهو الأكثر شهرة بين الدوافع ــ فهو ان «الوعد» كان مكافأة لوايزمن على مساهمته العلمية في اختراع مادة الأسيتون. ويقول لويد جورج، رئيس وزراء بريطانيا، في مذكراته ان العامل الرئيسي يعود الى مساهمة وايزمن الكيميائي خلال الحرب في تطوير إنتاج مادة الأسيتون، وبالتالي في صناعة المواد التفجيرية، مما ساعد في تحسين الوضع العسكري؛ وهذا ما جعله يعرض على وايزمن مكافأة شرفية. غير ان وايزمن رفض المكافأة قائلا انه لا يريد شيئا لنفسه، لكنه يريد لشعبه.(٢٥٦) ويعقّب وايزمن على ما رواه لويد جورج في مذكراته، التي صدرت لاحقا، بقوله «أنا اتمنى لو كان الأمر بمثل هذه البساطة.»(٢٥٧) أمّا هربرت صموئيل، فيشير في مذكراته أيضا الى الموضوع نفسه، نافيا نفيا قاطعا اهميته؛ فهو يقول ممتدحا وايزمن:

> لقد كان وايزمن المتحمس، وايزمن الدبلوماسي الذي يستحق ان يمنح الشرف العالي كلما تُروى القصة، وايزمن الكيميائي يأتي فقط في درجة أقل كثيرا. ومن دون انتقاص من خدمته في صناعة المتفجرات، وحتى لو لم يسمع قط عن الأسيتون، فأنا اعتقد ان وعد بلفور كان سيأخذ تماما الشكل الذي اتخذه، وأنه كان سيُعلَن تماما حين أُعلن.(٢٥٨)

بالاضافة الى التناقضات التي رويت عن دوافع لويد جورج بالذات، من دوافع دينية وإنسانية تجاه اليهود، او أسيتونية مكافأة لوايزمن، او استعمارية خفية لإبعاد شبح فرنسا عن فلسطين، فان المؤرخ نيفيل باربور يعلّق بأن رئيس الوزراء البريطاني المسؤول لم يشرح قط كيف يحق له ان يخص الدكتور وايزمن وحده بمكافأة، لم يُعْطَ مثلها اي عالم بريطاني آخر قد قدّم لبلده خدمات مشابهة او أعظم. وحتى النظرية العلمية المنسوبة الى وايزمن في صناعة المتفجرات،(٢٥٩) لا وجود لها في السجلات المعاصرة للحرب الكبرى.(٢٦٠)

ربما كانت اهمية شائعات كهذه ان تقوم بدور الستارة على ما كان يجري حقيقة من استعدادات

---

(٢٥٥) *Ibid.*, p. 261.

(٢٥٦) David Lloyd George, *War Memoirs* (London: Odhams, 1938), Vol. I, pp. 348-349.

(٢٥٧) Weizmann, *op cit*, p. 191.

(٢٥٨) Samuel, *op cit.*, p. 147.

(٢٥٩) ورد ذكر المادة التي قيل ان وايزمن قد ساهم في صنعها، في المصادر الانكليزية بأسماء مختلفة، هي: Acetone؛ Cordite؛ Trinitrotoluol.

(٢٦٠) Barbour, *op.cit.*, footnote 3, p. 63.

على المسرح السياسي، وفي الكواليس؛ لكنّ جذور وعد بلفور قديمة في بريطانيا قِدَم مصالحها الاستعمارية في الشرق. ويعود احد هذه الجذور الى حملة نابليون الى مصر وفلسطين، وندائه الشهير لليهود لإقامة دولة في فلسطين كما يعود جذر آخر الى الطموح اللامحدود لمحمد علي الكبير في حكم فلسطين وبلاد الشام. وما كانت المشاريع المتعددة لأمثال تشرشل وميتفورد وغولير إلّا تأكيدات متلاحقة للنيات الاستعمارية البريطانية. وما كان لويد جورج، في القرن العشرين، بأكثر حماسة من غلادستون وبالمرستون في القرن التاسع عشر؛ وفي هذا السياق التاريخي، لا يمكن ان يُنظر الى وعد بلفور أكثر من كونه الصدى باللغة الانكليزية لنداء نابليون باللغة الفرنسية، ومن كونه هراوة الاستعمار على رأس كل من يحاول من الشرق ان يحكم الشرق، كمحمد علي الكبير.

وفي هذا السياق التاريخي، أيضا، لا يطرح السؤال: لماذا صدر وعد كوعد بلفور؟ ولكن: لماذا تأخر صدور وعد كهذا؟ وردا عليه، فقد كان لا بد من ولادة حركة صهيونية، ومن نضوج هذه الحركة. كما انه كان لا بد من حرب عالمية كي تتقوّض أركان دول، وتقوم دول؛ ففي إثر حرب طاحنة يؤخذ، عند توزيع الغنائم، من أراضي الغير ما لا يؤخذ عبر قرون.

بريطانيا، بمفردها، كانت لا تستطيع الاستئثار بفلسطين من دون فرنسا، على الأقل؛ والحركة الصهيونية، بمفردها، كانت لا تملك في فلسطين ما يؤهلها لأي طموح مستقبلي، ولكنها كانت تملك في الساحة الأوروبية ما جعلها قوية بعين بريطانيا. وفي هذا المجال، رأى المؤرخ البريطاني توينبي ان تحرر اليهود في الغرب، على الصعيدين الاقتصادي والسياسي، كان قد قطع شوطا بعيدا في منح الأصوات اليهودية وزنا مهما، وذلك على الرغم من عدم تحررهم النفسي بعد؛ إلّا انهم قد أصبحوا قوة لا يستهان بها في أوروبا، ولا سيما في وسطها وغربها، وحتى في الولايات المتحدة. ثم تسارعت تطورات الحرب الكبرى بانضاج عملية «الوعد»، فأخذت القوى المتحاربة تتنافس في كسب ود اليهودية العالمية، والأبعد من ذلك، في تجنب عداوتها.[٢٦١]

واختصر جيفرز (الكاتب البريطاني أيضا) جذور الوعد ودوافعه وطبيعته في جملة موجزة بقوله: «جاء الوعد كالماء الذي يبحث عن منبعه.»[٢٦٢]

---

(٢٦١) Arnold Toynbee, *A Study of History* (London: Oxford University Press, 1963), Vol. VIII, p. 303

(٢٦٢) Jeffries, *op cit*, p. 5.

خامسا: المفاوضات

تمثل فريق الحركة الصهيوبية في المفاوضات بأبرز زعمائها في بريطانيا خلال الحرب الكبرى، فكان برئاسة الدكتور وايزمن، عضو المؤتمرات الصهيونيـة ورئيس الاتحاد الانكليزي الصهيوني. وكان المفاوض الثاني ناحوم سوكولوف، وهو المؤرخ وعضو اللجنة التنفيذية في المنظمة الصهيونية.

وكان على رأس الجانب البريطاني لويد جورج رئيس الوزراء، واللورد بلفور وزير خارجيته. ويصعب تعداد الساسة البريطانيين المسؤولين المؤيدين للصهيونية، غير ان ابرز الأسماء هي إسما هربرت صموئيل، ومارك سايكس.(٢٦٣)

قابل وايزمن لويد جورج في كانون الثاني/يناير ١٩١٥، كما قابل بلفور باستمرار خلال سنتي ١٩١٥ و١٩١٦؛ فقد كان الثاني، بصفته مسؤولا عن الأميرالية البحرية، رئيسا للأول في نطاق العمل، إذ كان يعمل مستشارا علميا كيميائيا للأميرالية البحرية، وهكذا توثقت عرى المعرفة بين الرجلين.(٢٦٤)

وبرز الكثيرون من الكتّاب والأصدقاء الانكليز المؤيدين للصهيونية السياسية. وكان أولهم سْكوت المحرر في صحيفة «مانشستر غارديان»، وزميله سايدبوثام المحرر العسكري في الجريدة نفسها التي نشرت له في ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٥ المقال الرائد والأول في الربط الوثيق بين الأهداف الصهيونية وانتصار الحلفاء في الحرب.(٢٦٥) واستمرت هذه الصحيفة في اتباع الخط الصهيوني، حتى تقدّم سايدبوثام ومجموعة من أصدقائه اليهود في مانشستر بمذكرة الى الحكومة البريطانية يحثونها فيها على مساندة الصهيونية سياسيا وعسكريا وإنسانيا، ورفعوها الى وزارة الخارجية في ربيـع سنة ١٩١٦. كما قاموا بإنشاء لجنة فلسطين البريطانية وإصدار دورية اسبوعية تبدو، شكلا، بريطانية ليبرالية استعمارية، وأما محتوىً، فصهيونية كليا.(٢٦٦)

كان هربرت صموئيل من ابرز الوزراء المؤيدين للصهيونية في حكومة إسكويث، وقد قدم مذكرة صهيونية الى هذه الحكومة في تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٦، غير أنها لم تلق صدى لانشغال

---

(٢٦٣) Laqueur, *op cit.*, p. 182

عندما قابل وايزمن صموئيل أول مرة ظنّ انه يهودي بريطاني لا مبالٍ، ثم فوجىء بأنه كان أكثر صهيونية منه (*Ibid.*).

(٢٦٤) *Ibid.*, pp 182, 188

(٢٦٥) Barbour, *op cit.*, p 56, as quoted from H Sidebotham, *Great Britain and Palestine* (London, 1937), p. 24.

(٢٦٦) Barbour, *op.cit.*, p. 57.

الحكومة بقضايا أكثر اهمية؛ فالحرب كانت مستمرة ولكنها لم تكن تتقدم بصورة جيدة، وفرنسا غير متحمسة على الإطلاق لوطن يهودي بإشراف بريطانيا، والأميركيون لم يكن تأثيرهم واضحا بعد. وقد كانت هذه الأسباب خلفية الأزمة التي ادت الى استقالة حكومة إسكويث في كانون الأول/ديسمبر ١٩١٦، ومجيء حكومة لويد جورج. لقد خسرت الصهيونية في الحكومة الجديدة هربرت صموئيل لكنها ربحت رئيس الحكومة نفسه ووزير خارجيته بلفور، بالاضافة الى اللورد ميلنر عضو المجلس الحربي، واللورد روبرت سيسل مساعد وزير الخارجية. أما من زعماء الفريق اليهودي المناوىء، فقد ضمت الحكومة الجديدة إدوين مونتاغو بعد انقطاع قصير.[٢٦٧]

رافق التغيير الحكومي تطورات عسكرية؛ فقد اخترق الجيش البريطاني شبه جزيرة سيناء في أواخر سنة ١٩١٦، وقام بعدوان على غزة في آذار/مارس ١٩١٧ انتهى بالفشل. غير ان هذا لم يمنع المجلس الحربي من اتخاذ قرار في ٢ نيسان/إبريل بغزو فلسطين.[٢٦٨]

منذ بدء المباحثات في لندن بين الجانبين الصهيوني والبريطاني، بادر فريق من اليهود الى إعلان معارضتهم لدولة يهودية كما يريدها الصهاينة. وقاد هذه الحملة مجلس ممثلي اليهود البريطانيين، والرابطة الانكليزية اليهودية، وحفنة من كبار الأثرياء اليهود يتقدمهم إدوين مونتاغو الذي اصبح وزير الدولة لشؤون الهند، وكلود مونتفيوري.[٢٦٩] وتألفت «اللجنة اليهودية المشتركة» التي اخذت على عاتقها التكلم باسم اليهود الانكليز. وقد نشرت في جريدة «التايمز» رسالة في ٢٤ أيار/مايو ١٩١٧ تعترض فيها بشدّة على المشروع الصهيوني. وقد كان هؤلاء مناصرين للثقافة اليهودية في فلسطين، ومطالبين بالحريات المدنية والدينية والحقوق السياسية لليهود في فلسطين اسوة ببقية الشعب في البلاد. فنظرتهم الى اليهودية اقتصرت على كون اليهودية نظاما دينيا، ولا علاقة بينها وبين موقعهم السياسي؛ ولذلك أعلنوا «انهم كمواطنين في البلاد التي يعيشون فيها، فهم يشعرون بانتمائهم انتماء كاملا وصادقا الى الروح القومية في هذه البلاد، ومصالحها.» وأكّدوا ان الاعتراف بقومية يهودية في فلسطين سيستتبع معاملة اليهود كأغراب في دول العالم وتهديد مراكزهم فيها، ولذلك فقد رفضوا رفضا قاطعا ان يكون لليهود امتيازات سياسية او أفضلية اقتصادية على سائر المواطنين، خوفا من ان ينعكس هذا التمييز على وضع اليهود في الدول، حيث مصلحة اليهود قائمة على مبدأ المساواة في الحقوق بين كل الأديان. فإذا أخلّ اليهود بهذا المبدأ في فلسطين، فسيرتدّ عليهم

---

(٢٦٧) Laqueur, *op cit* , p 191.

(٢٦٨) *Ibid*

(٢٦٩) Antonius, *op.cit.*, pp 260-261; Mallison, in *The Transformation of Palestine, op.cit* , p 67

هذا الخلل، ولا سيما لأنهم سيبقون الأقلية في فلسطين، وسوف تؤدي هذه الأوضاع الى استعداء جيرانهم من قوميات وأديان اخرى، فتكون النتيجة تأخر اليهود، لا تقدمهم.(٢٧٠)

وكان مونتاغو واضحا جدا في هذا الاتجاه حين قال: «ان تحرر اليهود وحريتهم في دول العالم أكثر اهمية ألف مرة من وطن.»(٢٧١)

كان للمعارضة اليهودية اثر بارز في نص الوعد، فلم تعتبر فلسطين هي «الوطن القومي للشعب اليهودي»، كما يريد الصهاينة، وإنما كان التعبير «تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين.» كذلك كان لها أثرها في ضمانة حقوق اليهود في الأقطار التي يسكنونها.(٢٧٢)

عيّن لويد جورج السير مارك سايكس ليبدأ المفاوضات مع الصهاينة والواقع ان كلا من الفريقين كان يعتمد على سايكس كمستشار لخبرته بشؤون الشرق الأدنى.(٢٧٣) وفي شباط/فبراير ١٩١٧، عقد اللقاء الرسمي الأول في سلسلة اللقاءات التي انتهت بوعد بلفور، وكان بين الحضور سايكس وصموئيل، بالاضافة الى زعماء الصهاينة وعلى رأسهم وايزمن، وبالاضافة الى اثنين من آل روتشيلد.(٢٧٤)

كانت سنة ١٩١٧ حافلة بالنشاط المتواصل: سوكولوف يسافر الى إيطاليا وفرنسا لتسويق المشروع الصهيوني؛ والخلافات اليهودية تتراجع حدتها أمام كسب اليهود في الولايات المتحدة، وبزوغ نجم القاضي برندايس؛ ووايزمن يسافر الى جبل طارق حيث يلتقي يهودا أميركيين.(٢٧٥)

وكانت هذه السنة أيضا مملوءة بالشطب والتعديل والتغيير في صيغة الوعد؛ فكلمة «وطن قومي» جاءت مكان «مأوى» او «ملجأ». وعندما ابتدأت صناعة المسودات في وزارة الخارجية، كانت الحكومة البريطانية تتجه الى إعلان جعل فلسطين ملاذا لليهود الضحايا الهاربين من الاضطهاد؛ وهنا عارض سوكولوف مصرّا على ان يلاقي الوعد أهداف مؤتمر بازل بإنشاء وطن قومي للشعب اليهودي. وكان الاتجاه الصهيوني مع إصدار وعد مقتضب يتضمن مبدأين: مبدأ الاعتراف بفلسطين وطنا قوميا للشعب اليهودي؛ ومبدأ الاعتراف بالمنظمة الصهيونية.(٢٧٦)

---

(٢٧٠) Barbour, *op cit.*, pp. 59-60

(٢٧١) Stein, *op cit*, pp. 525-526

(٢٧٢) Barbour, *op.cit.*, p 61.

(٢٧٣) *Ibid.*, p. 58, Antonius, *op.cit*, p. 261.

(٢٧٤) Laqueur, *op.cit.*, p 191.

(٢٧٥) *Ibid.*, pp. 192-195; Stein, *op.cit*, p. 465.

(٢٧٦) Stein, *op.cit.*, pp. 468-470.

كان للصهاينة ما أرادوا، في نهاية المطاف، فحصلوا على وعدهم. أما بالنسبة الى بريطانيا، فلم يكن هذا هو الوعد او المشروع الأول بشأن فلسطين، بل كان الرابع. فالأول كان الاتفاقية البريطانية مع الأتراك الاتحاديين سنة ١٩١٣؛ والثاني الاتفاقية مع العرب عبر رسالة مكماهون الى الشريف حسين في ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٥، والثالث اتفاقية سايكس ـ بيكو في أيار/مايو ١٩١٦؛ والرابع وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧.

سادسا: ردات الفعل الدولية

نشرت الصحافة البريطانية نص الوعد في ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧، وكان تقديمها وعرضها للوعد يعنيان حتما التمهيد لدولة يهودية. فقد صدرت صحيفة «الديلي إكسبرس» بمانشيت كبير: «دولة لليهود» أما صحيفتا «التايمز» و«مورننغ بوست»، فاختارتا مانشيت: «فلسطين لليهود». كما علقت صحيفة «ذي أوبزيرفر» بأنه «لا يمكن ان تكون هناك، في هذه المرحلة الحاسمة، ضربة سياسية تفوقها عدلا وحكمة.»[٢٧٧]

قام اليهود بتوزيع الوعد بالطائرات على تجمعاتهم في المدن الألمانية والنمساوية، وكذلك من بولونيا الى البحر الأسود. أما السلطات البريطانية، فلم تنشر شيئا موجها الى الشعب الفلسطيني، وخلا إعلان الجنرال أللنبي في إثر احتلال الجيش البريطاني للقدس في ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩١٧ ودخوله المدينة دخول الظافرين بعد يومين، من اية إشارة الى وعد بلفور. وطوال سنتي ١٩١٨ و١٩١٩، لم يطبع «الوعد» رسميا، ولم ينشر رسميا، ولا أُشير اليه مرة واحدة في مناسبة عامة.[٢٧٨] وقد مرّت ثلاثة أعوام حتى أُذيع «الوعد» رسميا في فلسطين. وكانت أول مرة عرف فيها الشعب الفلسطيني بالوعد، بواسطة جريدة «المقطم» التي نشرت نصه في ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧ نقلا عن مراسلها في لندن. ولمّا عادت بعد اربعة أيام تنشر صدى «الوعد» لدى يهود الاسكندرية، واحتفالاتهم الكبيرة، ايقن العرب فداحة الخطب.

أظهرت المجتمعات اليهودية في مختلف الأقطار ابتهاجا كبيرا، وبرزت حماسة اليهود الروس والأميركيين في مئات القرارات المؤيدة. وحتى اليهود الذين كانوا بعيدين عن الشؤون اليهودية قد أعربوا عن استعدادهم للمساهمة في بناء فلسطين الجديدة. أمّا زعماء اليهود الألمان، وعلى الرغم من

(٢٧٧) Laqueur, *op.cit.*, pp. 198-199

(٢٧٨) Barbour, *op.cit.*, p 62

موقفهم غير المستقر، فانهم رحبوا بـ «الوعد» كحدث تاريخي عالمي، وضاعفوا جهودهم للحصول على وعد من ألمانيا وتركيا.[٢٧٩]

تسلمت وزارة الخارجية الألمانية رسميا نص الوعد في ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر. غير ان وزير الدولة الألماني لم يقابل وفدا صهيونيا بحجة مشاغله؛ وقد عكس هذا موقف الحكومة الألمانية المعارض للصهيونية. أما وزير الخارجية النمساوي، فقد استقبل وفدا صهيونيا في الفترة نفسها، ووعد بالمساعدة.

ايّد الرئيس ولسون «الوعد»، لكنه لم يعلن بداية تأييده رسميا بسبب ضغط من وزير خارجيته الذي رأى عدم توريط ولسون، وحجته ان الولايات المتحدة ليست في حرب مع تركيا، وأن اليهود انفسهم منقسمون حول الصهيونية، وأن المصالح التجارية في البلاد المقدسة لا يمكن تجاهلها. غير ان الرئيس ولسون عاد، بعد عشرة اشهر من صدور «الوعد»، فأبدى إعجابه وتأييده للصهيونية، وذلك في رسالة بعث بها الى الحاخام ستيفان وايز، رئيس اللجنة الأميركية الموقتة للشؤون الصهيونية العامة.[٢٨٠] كما يروي وايزمن على لسان ولسون قوله:

> انني مقتنع بأن الأمم الحليفة، بالتعاون التام مع حكومتنا وشعبنا، قد اتفقت على انه ستقام في فلسطين اسس الدولة اليهودية.[٢٨١]

كانت الحماسة ضعيفة بالنسبة الى حكومة البلشفيك الجديدة في بيتروغراد؛ فقد كانت فلسطين بعيدة وغير مهمة نسبيا. وعندما علق المسؤولون لاحقا على «الوعد»، قالوا انه مكيدة امبريالية، وجزء من خطة شاملة ضد السوفيات، من أجل دعم المصالح الامبريالية ضد الثورة العالمية.[٢٨٢]

تميزت الحكومة الايطالية بموقف عقلاني مختلف عن سائر الدول الغربية، ولم تكن الحكومة الفاشية قد قامت بعد، حتى ينسب الموقف الايطالي الى المعسكر المضاد. فقد اعربت وزارة الخارجية الايطالية بوضوح عن أنها تفضل إقامة نظام دولي في فلسطين على الحماية البريطانية.[٢٨٣] ثم قدّمت جوابا أكثر دقة ودبلوماسية، قام السفير الايطالي في لندن بتسليمه الى سوكولوف في ٩

(٢٧٩) Laqueur, *op.cit.*, p. 199.

(٢٨٠) Stein, *op cit.*, pp. 593-595.

(٢٨١) Weizmann, *op.cit*, p. 265.

(٢٨٢) Laqueur, *op.cit.*, p. 200.

(٢٨٣) *Ibid.*

أيار/مايو ١٩١٨، وفيه تأكيد لمواقف الحكومة الايطالية السابقة، واستعدادها لاتخاذ الخطوات الملائمة «من أجل تسهيل إنشاء مركز قومي يهودي في فلسطين، مع الإدراك انه، من ناحية ثانية، لن ينشأ عنه اي إجحاف بالوضع القانوني والسياسي للجماعات الدينية القائمة، ولا بالحقوق المدنية والسياسية التي يتمتع الاسرائيليون* بها في اي بلد آخر.»(٢٨٤)

لقد تميّز الموقف الايطالي بنقطتين بارزتين: الأولى، استعمال تعبير «الجماعات الدينية» كما يجب استعماله، لا كما استعمله بلفور، باطلاق التعبير «جماعات دينية» لفظا، والمراد منه حقيقة «جماعات قومية»؛ والثانية، تركيز الحكومة الايطالية على «الوضع القانوني والسياسي» لسكان البلاد، وهذا التركيز بحدّ ذاته يناقض جوهر «الوعد» أصلا.(٢٨٥)

سابعا: معنى «الوعد» وأبعاده

تختلف الشروحات بشأن وعد بلفور اختلافات بيّنة. وإنْ تكن هناك من صفة واحدة يمكن إطلاقها على هذا «الوعد» فهي صفة الغموض؛ فللكلمة الواحدة تأويلات متعددة، وعن التعبير الواحد تصريحات متباينة. ولم ينكر الكتّاب الصهاينة الأذكياء غموض الوعد، حتى ان شتاين هو الذي يقول ان وعد بلفور ليس وثيقة قانونية بل سياسية، وهي وثيقة غامضة بكل معنى الكلمة، بحيث يمكن تفسيرها بطرق متباينة. ولمّا كان الوضع الدولي مرنا للغاية، فقد اختلفت التفسيرات من اسبوع الى آخر.(٢٨٦)

قُدِّم الوعد لكل شعب بصورة مختلفة. فقد قُدِّم للانكليز على انه النتاج الخالص لحكومتهم؛ وقُدِّم لليهود كضمانة لم تنبع إلاّ من ضمير الحكومة البريطانية؛ ثم قُدِّم للعرب فيما بعد على انه صوت بريطانيا الحليفة، وقيل لهم انه وعد لليهود ـــ ولم يُقَل لهم انه نصٌّ اعدّه صهاينة من مختلف الجنسيات ـــ وطُلِبَ منهم احترامه لأنه حصيلة الفكر البريطاني بالنسبة الى مشكلة فلسطين.(٢٨٧)

كان الطرح الانساني أول الشروحات المعلنة التي قدّمها بريطانيون مسؤولون؛ ففي الاحتفال

---

(٢٨٤) Jeffries, *op cit*, p. 19.

* وردت في الأصل بالايطالية israelitit وبالانكليزية Israelites

(٢٨٥) *Ibid*, pp 19-20.

(٢٨٦) As quoted from Laqueur, *op cit*, p 201.

(٢٨٧) Jeffries, *op cit.*, p 7.

الذي أُقيم لـ «الوعد» في دار الأوبرا في لندن بتاريخ ٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩١٧، تكلم ثلاثة من كبار السياسيين فقال روبرت سيسل:

«أُمنيتنا ان تكون البلاد العربية للعرب، وأرمينيا للأرمن، ويهودا لليهود. . . وإنْ تمّت الأمور هكذا، فلتكن تركيا، تركيا الحقيقية، للأتراك.»(٢٨٨)

وتحدث مارك سايكس بعواطف مشابهة مع أمله «بأن تحمل الصهيونية روحانية آسيا الى أوروبا، وحيوية أوروبا الى آسيا.»(٢٨٩)

أما أورمسبي ــ غور (وزير الدولة لشؤون المستعمرات ١٩٣٦ ــ ١٩٣٨)، فقد تكلم بغموض أكثر. إذ بعد ان اعرب عن سعادته بأن وعد بلفور قد صدر بينما كادت بريطانيا تحتلّ فلسطين، محاولا إيهام المستمعين بأن الكسب لم يكن سبب «الوعد»، قال «انه دعم المطلب اليهودي كعضو في الكنيسة الانكليزية.»(٢٩٠)

تباينت الشروحات كثيرا بشأن تعبير «الوطن القومي»؛ فقد أنكرت المنظمة الصهيونية، في المرحلة الأولى، اي هدف لها في إقامة دولة. حتى ان سوكولوف قال في مقدمة كتابه الذي كتبه سنة ١٩١٨، ان الدولة اليهودية لم تكن قط جزءا من البرنامج الصهيوني. غير ان هذا يتناقض كليا مع خطاب الدكتور موسى غاستر ــ احد زعماء اليهود ــ في الاحتفال المذكور أعلاه عندما أعلن:

«ان اليهود أرادوا فلسطين لتكون فلسطين اليهود، لا مجرد فلسطين ليهود. لقد رغبوا في الأرض من جديد لتصبح كما كانت في الأيام الغابرة، وكما كانت في صلوات اليهود وفي توراتهم. الأرض يجب ان تكون لهم.»(٢٩١)

في أثناء انعقاد مؤتمر السلم في باريس سأل لانسنغ، وزير الخارجية الأميركي، وايزمن: «ماذا تعني بالوطن القومي اليهودي؟» وأجابه وايزمن: «انه يعني إيجاد إدارة تنشأ عن أوضاع البلاد الطبيعية، مع الامل بأن تؤدي الهجرة اليهودية الى ان تصبح فلسطين في النهاية يهودية، كما هي إنكلترا إنكليزية.» ثم طرح وايزمن؛ بدوره، السؤال على الوزير الأميركي: «هل اوضحت وجهة نظري؟»، فرد عليه: «من دون ريب».(٢٩٢)

صدر أول شرح بريطاني رسمي لـ «الوعد» في أيار/مايو ١٩٢٢ عبر الكتاب الأبيض الذي

(٢٨٨) Barbour, *op cit.*, p. 65

(٢٨٩) *Ibid.*

(٢٩٠) *Ibid*

(٢٩١) *Ibid.*, p. 66

(٢٩٢) Weizmann, *op cit.*, p 305

رفعته الحكومة الى مجلس النواب. وقد برز فيه، أولا، ما لم يكن يرمي **«الوعد» اليه، لا ما يرمي** اليه؛ فـ «الوعد» لم يكن يعني حعل فلسطين بلدا يهوديا كليا، و «الوعد» لم يهدف الى اضمحلال السكان العرب، او اضمحلال لغتهم او حضارتهم، او جعلهم في مرتبة ادنى؛ فجنسية المواطنين جميعا لن تكون إلّا جنسية فلسطينية.

ثم مضى الكتاب الأبيض يشرح ما يعنيه «الوعد». فجاء فيه ان هناك ٨٠,٠٠٠ يهودي، لهم مؤسساتهم الدينية والاجتماعية، ولهم لغتهم وعاداتهم، وهم يملكون خصائص قومية، وقد كان «الوعد» يهدف الى «تطور المجتمع اليهودي القائم بحيث يصبح مركزا يستمد منه الشعب اليهودي ككل ــ انطلاقا من الدين والعِرق ــ اهمية واعتزازا.» وتوقف الكتاب الأبيض مليا إزاء الروابط التاريخية وأهمية الدعم الدولي والهجرة اليهودية.(٢٩٣)

لم يُذكر العرب، شعب فلسطين، في «الوعد» قط، واكتُفي بالاشارة اليهم باعتبارهم «الجماعات غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين.» وكلمة «جماعات» هي الترجمة الحرفية للنص الانكليزي non-jewish communities. أمّا الترجمة التي قدّمت للعرب، والترجمة الرسمية التي نُشرت في تقرير اللجنة الملكية (سنة ١٩٣٧)، فقد استبدلت «الجماعات» بـ «الطوائف»؛ وفي الحالتين، فالضرر الفادح قائم، وهو إلغاء كل اعتبار لوجود الشعب أولا، وهو نسبة الأكثرية من السكان أهل البلاد الى الأقلية التي وفدت أغلبيتها خلال العقود الأربعة الأخيرة فقط، وهي بالرقم المجرد نسبة ٩٠ ٪ من السكان، الى ٨ ٪ منهم (وأما النسبة الباقية، اي ٢ ٪، فهي نسبة السكان الأحانب).

ان التشطيب النهائي على كلمة العرب لم يكن خداعا ساذجا، بل كان تخطيطا هادفا لتغطية فداحة النسب في عدد السكان؛ فلا احد كان يعرف خارج الشرق الأدنى ــ حقيقة ــ نسبة التوزيع بين السكان، ولا احد كان عشية حرب عالمية على استعداد للسؤال والتنقيب: كم عدد اليهود في فلسطين؟

لم يقتصر ضرر «الوعد» بالنسبة الى العرب على إلغاء وجودهم وتحويلهم الى حماعات طائفية، ولا على تشويه أوضاعهم وتزييفها، بل أعطاهم أيضا ضمانة كاذبة. فـ «الوعد» يطالب بعدم المساس بحقوقهم المدنية والدينية؛ ان الحقوق الدينية سهلة التعريف، أمّا الحقوق المدنية فلا؛ انها قانونيا وسياسيا تعبير غير معرّف او محدّد، ولذلك تبدو ضمانة شيء غير معرّف ولا محدّد، مهزلة.

---

(٢٩٣) Command Paper, No. 1700, June 1922, as cited in Samuel, *op cit*, pp 169-170.

ان تعبير «الحقوق المدنية» المجرد يعطى عادة لغريب في بلد لا يعتبر فيه مواطنا. أمّا «الحقوق المدنية» في وعد بلفور، فقد بقيت تعبيرا من دون تعبير، والى الحد الذي فقدت فيه مع الأيام كل قيمة، وكل ضمانة.(٢٩٤)

سأل جيفرز مرة المندوب السامي في القدس: ما هي «الحقوق المدنية» المذكورة؟ فأجابه: «حسنا، انه يصعب جدا تعريفها.»

ولمّا كان يستحيل منطقيا إعطاء ضمانات لما كان بحاجة الى تعريف وتحديد، فقد اعتبر هذا التعبير ـ بحد ذاته ـ نصرا في الصيغة اللفظية، لا أكثر. هو التعبير الخادع الذي حرم العرب حقوقهم، وأخذ كل شيء منهم؛ بينما هو يبدو ظاهريا انه من أجل حمايتهم (٢٩٥)

خلاصة وعد بلفور بالنسبة الى العرب، ليست فقط في «خلق» وطن يهودي على ارضهم، لكن في تجاهلهم المطلق، وتغييب حقوقهم الطبيعية والمشروعة كأي شعب آخر في العالم؛ وهنا تلاقى الفريقان، البريطاني والصهيوني. ويحلّل جيفرز موقف الفريقين بقوله: «ان البريطانيين رأوا ان من الضروري ان يغمضوا اعينهم على حقوق العرب، والصهاينة كانوا مقتنعين او انهم أقنعوا انفسهم بأن لا حقوق للعرب...»(٢٩٦)

يلاحظ انه في مقابل الغموض الشديد، بل الابتعاد عن تعريف حقوق العرب، شعب فلسطين، جاء التعريف الدقيق لحقوق اليهود في أقطار العالم التي يقيمون فيها؛ فهذه الحقوق التي يجب ألاّ تمسّ، هي بالتحديد «الحقوق والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى.» ان هذه الجملة في وعد بلفور هي الدليل على المخطط الاستعماري ـ الصهيوني بإنشاء دولة صهيونية في المستقبل. فلماذا الضمانات لليهود في دول العالم، إنْ لم يكن الهدف من الوطن القومي إنشاء دولة بكل ما في الكلمة من معنى، او حتى شبه دولة؟ لو كان المقصود بالوطن القومي مركزا روحانيا حضاريا، او استراحة تاريخية لكل يهودي متعبّد، او لكل يهودي مضطهَد، لما كان هناك من ضرورة لهذه الضمانات إطلاقا.(٢٩٧)

---

(٢٩٤) Jeffries, *op cit.*, pp. 13-14.

(٢٩٥) *Ibid*, p. 14.

تعمد جيفرز عدم دكر اسم المندوب السامي، بقوله:

Once I asked a High Commissioner himself... (*Ibid.*)..

(٢٩٦) *Ibid*, p. 16.

(٢٩٧) راجع:

Ibid., pp 15-16.

ما هي أبعاد الوعد في نظر صانعيه؟

ان التصريحات البريطانية المسؤولة، الصادرة مع «الوعد»، اوبُعيد صدوره، كانت مواربة ومتقلبة وغامضة أحيانا أكثر من «الوعد» نفسه، ولا سيما بشأن «الوطن القومي». أمّا أقصى ما صدر عن مسؤول بريطاني في الكشف عن حقيقة المقصد من «الوعد»، فهو ما صرح به لويد جورج نفسه، رئيس الوزراء والمسؤول الأول عن إصداره، ولكن بعد عشرين عاما، في إفادته للجنة الملكية:

> كانت الفكرة ــ وهذا هو التفسير الذي وضع في حينه ــ بأنه لن تقام دولة يهودية من خلال معاهدة الصلح، من دون العودة الى رغبات الأكثرية من السكان. ومن ناحية اخرى، كان متوقعا انه عندما يحين الوقت لإقامة مؤسسات تمثيلية في فلسطين، إذا كان اليهود في غضون ذلك قد تجاوبوا مع الفرصة المعطاة لهم بفكرة الوطن القومي، وقد أصبحوا أكثرية واضحة بين السكان، فآنئذ تصبح فلسطين بالتالي دولة يهودية (٢٩٨)

الملاحظة الأولى على تصريح لويد جورج انه لا ينسب «الفكرة» الى جهة محددة، وإنْ يكن من المفروض أنها فكرة الحكومة البريطانية؛ فالمسؤولون لم يعلنوا هذه النيات حين صدور «الوعد»، وبينهم لويد جورج نفسه والأرجح ان تفسيره هذا، بعد عشرين عاما، هو تفسيره الصهيوني، وما يؤمن به حقيقة؛ فهو على رأس البريطانيين الصهاينة، لكن هيبة الدولة ومصالحها لم تكن لتسمح بالإعراب عن النيات في إنشاء دولة يهودية سنة ١٩١٧.

أما الملاحظة الثانية، فهي بشأن إشارته الى رغبات الأكثرية من السكان، مع إيحائه بأنها إشارة ديمقراطية، بينما هي على النقيض من ذلك؛ إذ قد أُرفقت عمدا، لدى ذكر معاهدة الصلح، لنشر الوهم بالديمقراطية لا لتطبيقها، لأن بريطانيا كانت علنا ضد اي استفتاء في تلك المرحلة، وعمليا رفضت المشاركة في لجنة الاستفتاء المعروفة بلجنة كنغ ــ كرين، وذلك لأن الأكثرية من السكان كانت من العرب. وأمّا ديمقراطية لويد جورج، في نهاية تصريحه، فهي ديمقراطية مشروطة بأن يصبح اليهود «أكثرية واضحة بين السكان».

كان لكبار المسؤولين الانكليز تصريحات لاحقة (لصدور «الوعد») كشفت المزيد من البعد الصهيوني في أعماقهم؛ فقد عاد بلفور يصف «الوعد» بأنه ينظر اليه على انه الإنجاز الكبير في حياته. (٢٩٩) أمّا سيسل (وهو احد مؤسسي عصبة الأمم)، فقد اعتبر الوطن القومي اليهودي مساويا في اهميته لعصبة الأمم نفسها. (٣٠٠)

---

(٢٩٨) Barbour, *op cit*, pp 66-67

(٢٩٩) Weizmann, *op cit.*, p 265.

(٣٠٠) *Ibid*

خاتمة

«الحقيقة لا تتجزأ»

الفيلسوف الشاعر الكنعاني
كاهن أوغاريت الأكبر
إيلي ميلكو

هناك عاملان أساسيان كان لكل منهما الأثر الأكبر في تاريخ فلسطين الحضاري والسياسي، من فجر التاريخ حتى يومنا هذا. ويمتاز هذان العاملان بكونهما يخرجان على القدرة البشرية، فكلاهما قَدَرٌ اضفى على فلسطين موقعا متميزا لم يمتلكه اي بلد آخر في العالم، عبر التاريخ كله.

العامل الأول جغرافي، وهو موقع «كنعان: فلسطين»، همزة الوصل بين القارات الثلاث، وبين الحضارات المتعددة، إذ اضحت بحكم موقعها هذا ملتقى للطرق التجارية والقوافل، وممرا للجيوش المتقاتلة. وهي كما كانت للجيوش الفارسية واليونانية قديما، اصبحت للجيوش الاستعمارية حديثا؛ فلسطين بوابة العبور بين الشرق والغرب.

والعامل الثاني ديني. فقد كان قدر فلسطين أنها وطن الديانات السماوية الثلاث؛ نحوها توجه موسى، وعلى أرضها ولد عيسى، واليها أسرى محمد. فالمؤمنون من جميع أنحاء العالم يلتفتون نحوها، وكذلك السياسيون الطامعون فيها، وفي المنطقة بأسرها، تحت ستار الدين. لهذا قامت الحروب الصليبية قديما، ولهذا قام التحالف الاستعماري ــ الصهيوني حديثا.

ومن أجل هذين العاملين: عامل الجغرافيا ــ السياسية (الجيو ــ بوليتيك)، وعامل الديانة ــ السياسية (الثيو ــ بوليتيك)، كان تاريخ فلسطين ساحة للصراع، وما زال كذلك.

طرحنا في مقدمة الكتاب ثلاثة أسئلة رئيسية:

فلسطين لمن؟

مَنْ شعبها؟

ما قضيتها؟

وتمهيدا للاجابة، نتوقف عند ابرز المعالم لمراحل التاريخ الحضارية الكبرى التي مرت البلاد بها. ونعرّف المرحلة الحضارية الكبرى بثلاثة عناصر أساسية:

أولا، هي المرحلة التي سادت فيها حضارة ما في أرجاء البلاد كلها، لا في قسم منها. فهي حضارة لم تنحصر بين أبناء قومها فحسب، بل كانت مثلا يُحتذى للأقوام والشعوب والقبائل المجاورة لها، او التي وُجدت في رحابها، كما كانت شعلة استنار بوهجها الآخرون المعاصرون لها، من دون ان يحرقهم لهيبها.

ثانيا، هي الحضارة التي انتشرت لغة شعبها، حتى باتت أكثر اللغات تداولا.

ثالثا، هي الحضارة التي بناها المقيمون في البلاد، والمهاجرون اليها الذين استقروا فيها، واندمجوا مع سكانها، ولم يهاجروا منها قط.

وبناء على هذا التعريف، تبرز حضارتان رئيسيتان في فلسطين منذ اقدم العصور حتى القرن العشرين، هما: الحضارة الكنعانية، والحضارة العربية الاسلامية.

* * *

شهدت فلسطين في فجر تاريخها نمو حضارة سامية عظيمة، هي حضارة الكنعانيين. وقد عُرفت تلك البلاد حتى العهد الروماني ببلاد كنعان*

تعتبر الحضارة الكنعانية من اقدم الحضارات في بلاد «الشرق الأدنى»، ويعود وجود الكنعانيين فيها الى الألف السابع قبل الميلاد. وقد اشتهرت مدن كنعانية في الألف الثالث قبل الميلاد، وعُرفت منها أريحا بأنها اقدم مدينة في العالم

تطورت اللغة الكنعانية ونضجت في أول الألف الثاني قبل الميلاد. ووصلت الحضارة الكنعانية الى أوجها، فلسفة وشعرا وموسيقى وصناعة وزراعة وعمارة، خلال القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد وقد كان ذلك كله قبل ان يتوجه موسى وقومه من سيناء نحو ارض كنعان، «ارض اللبن والعسل»، وقبل ان يستولي على مدنها الساحلية الفلسطينيون الإيجيون القادمون عبر البحر المتوسط.

تزامن وجود الكنعانيين منذ القدم مع العديد من الأقوام والقبائل التي كانت تهاجر الى تلك البلاد، قادمة من شبه الجزيرة العربية في موجات سامية متتالية. كما ان البلاد قد تعرضت، في ذلك الحين، لحروب وغزوات خارجية متعددة. وقد ادى ذلك كله الى وجود ممالك ودول ــ مدينية الى جانب المدن الكنعانية، وحتى على حساب أراضيها. كما انه قد ادى الى وجود لغات متعددة، للأقوام المتعددة، في الزمن الواحد. غير ان ذلك لم يحل دون استمرار اللغة الكنعانية اللغة الشعبية المحكية منذ فجر التاريخ حتى القرن السادس قبل الميلاد، عندما حلت مكانها بالتدريج اللغة الآرامية، لغة أهل بابل، فأصبحت اللغة المحكية في البلاد.

استمرت الآرامية احد عشر قرنا طوال عهود الفرس واليونان والرومان. ومما سمح لها بذلك ان أيا من هؤلاء الحكام لم يفرض لغته على السكان، وحتى لم يفرض هيمنته (بمفهوم الهيمنة

---

* امتدت حدود بلاد كنعان من أوغاريت (رأس الشمرا) الى غزة على ساحل البحر الأبيض المتوسط الشرقي، ومن صحراء بلاد الشام وجنوبي آسيا الصغرى الى صحراء النقب، وكانت تشمل أراضي تعرف اليوم بفلسطين وسوريا ولبنان، وقد عُرِفت المدن الكنعانية لاحقا في سوريا ولبنان بالمدن الفينيقية، كما عُرف سكانها بالفينيقيين.

الاستعمارية في القرن التاسع عشر او القرن العشرين)، الأمر الذي سمح لكل قوم بأن يتداول أبناؤه فيما بينهم لغتهم الخاصة، وبأن يتعلموا ما يشاؤون او ما يشعرون بالحاجة اليه، من اللغات الأخرى.

ليس في حصرنا للحضارات القديمة الكبرى بالحضارة الكنعانية ما يلغي اهمية الحضارات الأخرى المتعددة، والتي عاشت كل منها ردحا من الزمن. ولسنا في مجال تعدادها، وإنما نكتفي بالاشارة الى اربع حضارات بارزة هي، على سبيل المثال، ووفقا لترتيبها الزمني، الحضارات الاسرائيلية، والفارسية، واليونانية، والرومانية. ونتوقف عند الحضارة الاسرائيلية، لكونها الحضارة التي يطرحها بعض المؤرخين على أنها أولى الحضارات، وأهمها في الأرض المقدسة.

كانت حضارة الاسرائيليين القدماء حقا حضارة مزدهرة في تاريخ كنعان، وخصوصا في عهد داود وسليمان. غير ان هذه الحضارة لم تصل الى ما وصلت اليه لولا الحضارة الكنعانية التي نقلت عنها. ان الحضارة الاسرائيلية فصل من تاريخ بلاد كنعان، ولا يجوز اعتبارها حضارة هذا التاريخ كله، كما يدّعي ذلك البعض من المؤرخين.

ولو اعتمدنا التعريف الذي قدمناه للحضارة الكبرى الشاملة، لوجدنا ان الحضارة الاسرائيلية القديمة لا تتوافق مع اي عنصر من عناصر التعريف الثلاثة. ونضيف الى ذلك، ان ابرز اثر للحضارة الاسرائيلية هو ما نشأ عنها بعد أفولها، ونعني به الأثر الخالد الذي كتبه أحبار اليهود في عصور لاحقة، اي التوراة. ويرجع الفضل للتوراة، في تصور الكثيرين ووهمهم، ان الاسرائيليين القدماء كانوا بُناة الحضارة الأولى. والدليل، في رأيهم، ان لا اثر هناك لكتاب آخر، قبل التوراة. والدليل، في رأيهم أيضا، ان حكايات التوراة التاريخية اضحت مصدر إلهام للأدباء والشعراء والفنانين عبر الأجيال، في أوروبا والغرب كله، لا بين اليهود وحدهم.

جاء الدليل القاطع، على ان التوراة لم تكن الكتاب الأول، متأخرا جدا، وذلك في سنة ١٩٢٨. ففي هذه السنة، اكتُشفت آثار مدينة أوغاريت الكنعانية. وقد تجمّع حول أوغاريت، منذ اكتشافها حتى اليوم، مكتبة ضخمة تشهد نصوصها الأدبية والفلسفية والشعرية وحكاياتها ومراسلات حكامها على أنها هي الأصل والبداية، لِما احتوته التوراة في النهاية. وقد توصل ديل ميديكو، احد علماء الآثار الذين تفرغوا لدراسة النصوص الكنعانية وترجمتها، الى القول ان التراث اليهودي مأخوذ في قسم منه عن التراث الكنعاني، وفي قسم آخر صغير عن تراث ما بين النهرين («اللآلىء من النصوص الكنعانية»، ١٩٨٩، ص ٧).

قبل اكتشاف آثار أوغاريت، كان من الطبيعي ان تعتبر التوراة اقدم النصوص، وأن تعتبر

حكاياتها التاريخية أولى القصص، وأن تعتبر مزامير داود أول الأشعـار. ولكن بعد اكتشـاف أوغاريت، ما عاد من الطبيعي ان تستمر حملات التجاهل للكنعانيين، من قبل بعض المؤرخين. ويجب ان ينصب المزيد من الدراسات على تاريـخ فلسطين القديم، إنصافا للحقيقة التي قال بشأنها الفيلسوف الشاعر الكنعاني كاهن أوغاريت الأكبر: «الحقيقة لا تُجزّأ».

اصبحت بلاد كنعان تعرف بفلسطين مـع مطلـع العهد الرومايي. وكان الحدث الأعظم في هده المرحلة ولادة السيد المسيح، عليه السلام، ودعوته الى المحبة والسلام، وتعاليمه التي جاءت تفتـح عهدا جديدا للعالم كله، وللانسان في كل مكان.

من مرحلة الاضطهاد الروماني للمسيحيين، التي دامت ثلاثة قرون، الى مرحلة اعتناق الدولة الرومانية للدين المسيحي، التي دامت ثلاثة قرون اخرى، اكتسبت فلسطين مكانة بارزة لا في بناء شخصية الانسان المقيم على أرضها فحسب، بل أيضا في تعميم الفكر المسيحي داخل هذه الأرض وخارجها ولمّا كان الكثيرون من أبناء القبائل العربية قد هاجروا الى فلسطين وديار الشام في العهد الرومايي، فقد تنصّر الكثيرون منهم وأضحوا نواة الكنيسة الشرقية، وأجداد المسيحيين العرب في فلسطين وجوارها.

* * *

ابتدأت المرحلة الحضارية الكبرى الثانية، وهي الحضارة العربية ــ الاسلامية، في القرن السابـع للميلاد؛ ومن صفحاتها الأولى، فتـح امير المؤمنين عمر بن الخطاب بيت المقدس. أمّا جذور هذه المرحلة، فقد كانت قبل دلك بقرون بعيدة. فالعرب لم يكونوا بغرباء عن فلسطين، كالفاتحين السابقين، بل كان لهم فيها أجداد، هم أول من سكن البلاد منذ فجر التاريـخ، كالعمالقة وسواهم من القبائل العربية التي تردد ذكرها في التوراة. وإنْ اعتُبرت تلك القبائل من القبائل البائدة، فان ذكرها قد بقي في وجدان العرب.

خلال العهد الروماني، شاد الأنباط العرب دولتهم وحضارتهم في البتراء، وامتد حكمهم من الأردن الى جنوب فلسطين وغربها، ومن حروفهم النبطية تطورت الحروف الأبجدية؛ واليهم، والى الغساسنة، والى العشرات من القبائل العربية الأخرى التي سكنت فلسطين قبل الفتـح، يعود الفضل في جعل اللغة العربية، زمن الفتـح، لغة معروفة ومنتشرة في فلسطين.

ليس هناك من خلاف بين المؤرخين، عربا وغير عرب، في شأن وجود حضارة عربية إسلامية كبرى انتشرت عبر قارات ثلاث، وإنْ اختلفت التقويمات، او اختلفت التسميات، فقيل أحيانا انها إسلامية فقط، او قيل انها إسلامية ــ عربية، او قيل انها عربية. لقد آثرنا وصفها بالعربية الاسلامية

لأن الوجود العربي يسبق ــ زمنيا ــ مجيء الاسلام، وأيضا لأن العروبة والاسلام ــ في اعتقادنا ــ وجهان لعملة واحدة في تاريخ العرب عامة، وفي تاريخ فلسطين خاصة.

أما الخلاف بين المؤرخين في هذا الشأن، فهو فيما خصّ مكانة فلسطين في الدولة العربية الاسلامية؛ إذ حرصت الأدبيات الاستشراقية، وقبل الأدبيات الصهيونية نفسها، على تصوير فلسطين بلدا قاحلا منسيا ومهملا، حتى من قبل الخلفاء المسلمين. كما حرصت على إظهار فلسطين بلدا لا اهمية له، ولا لشعبه، لولا مكانته التوراتية.

أصاب هؤلاء المؤرخون في قولهم ان القدس لم تكن يوما عاصمة للخلافة، كمكة او دمشق او بغداد او القاهرة. غير ان الحقيقة الأهم من ذلك، ان القدس كانت قلب الدولة النابض. فما لقيت مدينة من اهتمام الخلفاء بها ورعايتهم لها ما لقيته مدينة القدس، وذلك بقدومهم اليها، وإشرافهم بأنفسهم على أمنها، وعمارة «أقصاها» وسورها، في إثر كل حرب او زلزال: من الخليفة عمر بن الخطاب الى عبد الملك بن مروان الى عمر بن عبد العزيز الى ابي جعفر المنصور الى المأمون الى صلاح الدين، وحتى الى عبد الحميد، كانت القدس قلب الدولة النابض؛ وهذه كلمة حق.

وكلمة حق، أيضا، ان العهود الاسلامية المتتالية تبارت في إعادة بناء المدن والقلاع والأسوار والمساجد في فلسطين: من الأمويين الى العباسيين الى الطولونيين الى الفاطميين الى الأيوبيين الى المماليك الى العثمانيين الى الحكام المحليين، كآل الظواهرة وآل الجزار.

تواصلت الحضارة العربية الاسلامية من دون انقطاع ثلاثة عشر قرنا من الزمن تواصلا طبيعيا، وبلغة واحدة، هي اللغة السامية العربية، لغة القرآن الكريم. وقد كانت فلسطين اسرع البلدان الى تقبل التعريب، وكانت كنائسها ــ البيزنطية سابقا ــ أولى الكنائس الشرقية التي رُتّلت فيها الصلاة بالعربية. وأما بناء المسجد الأقصى، فهو لم يساهم في ترسيخ الشخصية الاسلامية لمدينة الإسراء فقط، بل ساهم أيضا في ترسيخ وجهها الحضاري، وفي انبعاث روحها العربية.

ولا يغيب عن البال شغف بعض المؤرخين الأجانب ببعثرة الحضارة الاسلامية، وشرذمتها وفقا للعهود السياسية؛ فهي تارة اموية، وأخرى عباسية، او مملوكية، او عثمانية. والحق ان هذه التسميات تصحّ على العهود السياسية كعناوين، لكنها لا تنطبق على التطور الحضاري الذي استمر نهرا جاريا، يتدفق أحيانا وينضب أحيانا اخرى، لكنه يبقى مستمرا بفضل ينبوعيه الأصيلين: العروبة والاسلام.

ساهمت فلسطين، إذاً، في تطور الحضارة العربية ــ الاسلامية. وإنْ تكن الأكثرية من سكانها من العرب المسلمين، فذلك لا يعني إطلاقا انهم كانوا وحدهم بناة هذه الحضارة. فقد ساهم في

بنائها جميع القاطنين في كنفها، من عرب مسيحيين، وعرب يهود، ومن مسلمين غير عرب؛ فالاسلام قد أُنزل «قرآناً عربيّاً»، والاسلام قد جاء متمما للديانات الأخرى، وما جاء مناقضا لها.

ولو عدنا الى التعريف الذي قدّمناه للحضارة الكبرى، لوجدنا ان الحضارة العربية الاسلامية تتوافق مع عناصر التعريف التوافق كله.

* * *

نعود مجددا الى الأسئلة التي طرحناها مقدما، ونبتدىء بالسؤال الأول:

فلسطين لِمن؟

فلسطين من خلال تاريخها الطويل، ومنذ ثلاثة عشر قرنا ــ على الأقل ــ لشعبها العربي الفلسطيني. وهو صاحب الحق في ان يتمتع في وطنه بكامل الحقوق التي يتمتع بها اي شعب آخر في وطنه.

لكن فلسطين، من خلال وعد بلفور والسياسة البريطانية الاستعمارية، تحولت الى دولة «رهينة»، او دولة منتدب عليها من قبل بريطانيا، بانتظار تسليم «الرهينة» الى الحركة الصهيونية، لا الى أصحاب الحق. وهذا ما يثبت ان «الوعد» الشهير لم يكن في حقيقته وعدا من طرف واحد، وإنما كان اتفاقية بين طرفين. بريطانيا من جهة، والحركة الصهيونية من جهة اخرى.

تميزت الاتفاقية الاستعمارية ــ الصهيونية (البلفورية) عن الاتفاقيات الاستعمارية المعهودة، كاتفاقية سايكس ــ بيكو، التي تحكمت في المنطقة ردحا من الزمن، ثم زالت من الوجود بزوال أبطالها وعهدها، وإنْ بقيت آثارها في الحدود المصطنعة بين أقطار الوطن العربي الواحد؛ ان هذه الاتفاقية تميزت بأن الجوهر الاستعماري الاستيطاني لوعد بلفور، لم يَزُل قط بزوال أبطاله وزوال عهده، ولا بانتقال مركز الثقل الاستعماري من لندن الى واشنطن في الحرب العالمية الثانية. لقد تغيّر صانعو القرارات المصيرية بشأن فلسطين، لكن الجوهر الاستعماري الاستيطاني لوعد بلفور بقي مستمرا حتى يومنا هذا، يتغير ويتبدل وفق أوضاع دولية وإقليمية تزداد تعقيدا.

وبالعودة الى القسم الرابع من هذا الكتاب، المتعلق بنشأة الحركة الصهيونية وتطورها، تظهر ثلاث حقائق رئيسية:

أولا، ان الحركة الصهيونية كانت دخيلة على فلسطين. فهي حركة سياسية نشأت وترعرعت في أوروبا، وهي ما زالت حتى يومنا هذا خارج فلسطين، وإنْ استبدلت مركز ثقلها الأوروبي بالأميركي لأسباب ديموغرافية (يهودية)، وأخرى سياسية واقتصادية

ثانيا، ان الحركة الصهيونية ما كان ممكنا لها ان تستمر لولا تحالفها الاستراتيجي مع القوى

الاستعمارية الغربية. وكانت «عبقرية» هيرتسل في إدراكه هذه الحقيقة منذ بداية البداية، وذلك قبل مؤتمر بازل الشهير، اي منذ منتصف العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وتشهد يومياته على عمق إدراكه هذا. كما ان مسيرة الحركة الصهيونية عبر القرن العشرين، قد اثبتت استحالة استمرار «اسرائيل» ربيبة الصهيونية بانفصالها عن القوى الاستعمارية او الامبريالية.

ثالثا، ان الحركة الصهيونية، في حدّ ذاتها، حركة استعمارية استيطانية عنصرية، بحيث لا تصح مقارنتها مع اية حركة استعمارية اخرى. هي آخر الحركات الاستعمارية في العالم، لكنها الأكثر ظلما وعدوانا؛ فهي ما جاءت فلسطين لتحتل وتبقى فقط، وإنما جاءت لتحتل وتحلّ مكان السكان الأصليين، العرب الفلسطينيين.

ان الادعاء الصهيوني بالحقوق اليهودية الدينية في فلسطين ادعاء مردود، لا لأن العقل البشري لا يأخذ بالنبوءات التوراتية فحسب، بل أيضا لأن هذه النبوءات، في حال القبول بها، تنقلب ضد الصهيونية؛ فهي تشمل العرب قبل اليهود، لكونهم أبناء الابن الأكبر لابراهيم، اي اسماعيل.

والادعاء الصهيوني بالحقوق التاريخية مردود أيضا، بسبب البعد الزمني الهائل بين حكم بني اسرائيل القديم، ودولة «اسرائيل» الحديثة التي بشّر بلفور بها. هناك ثمانية عشر قرنا تفصل بين القرن العشرين وآخر الجماعات اليهودية المتمردة، اي ثورة باركوخبا الذي ادّعى انه المسيح المنتظر. أما بين القرن العشرين ونهاية عهد سليمان، العهد الاسرائيلي الذهبي، فتسعة وعشرون قرنا. وإنْ دلّت هذه الفوارق الزمنية الهائلة على الاستحالة المنطقية لإعادة بناء الدولة، فالقوانين الدولية الحديثة، والمستقاة أصلا من المنطق التاريخي والانساني، لا وجود فيها لمبدأ «الحق التاريخي».

والادعاء الصهيوني بفلسطين مردود قانونيا، أيضا، لكونه ادعاء لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق القوة القاهرة وإجلاء السكان العرب. والمعلوم ان الاحتلال بالقوة امر ترفضه الشرائع الدولية. لكن عندما يتقبله المجتمع الدولي، وتباركه الدول العظمى، فذاك دليل آخر على تحالف «ابدي» لا استراتيجي فقط، بين الصهيونية والامبريالية.

وما هو اهم من ذلك كله، ان الادعاء الصهيوني البلفوري بفلسطين، سنة ١٩١٧، مردود ديمقراطيا، لأنه منح أقلية من السكان حقوق الأكثرية. لقد بلغت نسبة اليهود المقيمين في فلسطين سنة «الوعد»، ٩٪ من السكان وفقا للاحصاءات التقديرية، ولحسابات المؤرخ البريطاني جيفرز. ولو أضفنا الى عدد السكان العرب عدد البدو العرب المنسيين في كل الاحصاءات ــ سهوا او عمدا ــ حينذاك، لانخفضت نسبة اليهود الى ما دون ٨٪، ولبلغت تحديدا ٧,٨٪.

فلسطين إذاً، لسكانها العرب، تاريخيا، وقوميا، وحضاريا، وقانونيا، وديمقراطيا.

* * *

ننتقل الى السؤال الثاني:

من شعبها؟ من شعب فلسطين؟ ما صفاته؟

يرجع أبناء فلسطين اليوم بأصولهم الحضارية والعرقية الى آلاف السنين، الى العهد الذي اشتهرت فيه أريحا ويبوس وكريات أربع وأشدود وعكّو ويافي وغزة وسواها، بصفتها مدنا كنعانية مزدهرة فأبناء فلسطين اليوم هم أحفاد الشعب الكنعاني، وأحفاد الأقوام والقبائل كلها التي استقرت في البلاد، ولم تهاجر منها مؤثرة الاندماج والتزاوج مع السكان الأصليين. وهم أحفاد الأقوام الذين تكلموا لغات ولهجات متعددة، لكنهم تفاهموا دائما بلغة واحدة، في الزمان الواحد. هم الذين تكلموا الكنعانية، فالآرامية، فالعربية.

أبناء فلسطين اليوم، يعتزّون بذكر القبائل العربية البائدة: العمالقة، والمديانيين، والاسماعيليين، والمعينيين، وقيدار. وينتسبون الى الأنباط والغساسنة، والى عاملة ولخم، والى سلسلة لا تحصى من القبائل التي استقرت قبل المسيحية والاسلام. كما ينتسبون الى اليمن، والى الحجاز، والى قبائل الفتح وأبطاله، والى قبائل المغرب العربي.

ويجمع بين أبناء فلسطين ما هو اقوى من نسب الرحم، وهو ذلك الإدراك الوجداني العميق لأهمية فلسطين وطنا للديانات السماوية الثلاث، وما يوحد بين هذه الديانات من جوامع مشتركة.

في ظلال الحضارة العربية الاسلامية، لم يُضطهَد ايٌّ من أبناء فلسطين لمعتقده الديني. فعمر بن الخطاب رفض الصلاة في كنيسة القيامة، كي لا يبني مكانها المسلمون من بعده مسجدا، قائلين: «هنا صلّى عمر». ولم يتمتع اليهود بالأمان كما تمتعوا في عهده. وحافظ صلاح الدين على المقدسات المسيحية واليهودية حفاظه على المقدسات الاسلامية. وهو عندما استرد القدس من الافرنج الصليبيين، كان الى جانبه المسيحيون الأورثوذكس العرب؛ فالوحدة بين أبناء البلاد، لم تتزعزع يوما بسبب الانتماء الديني.

ما السمات القومية لشعب فلسطين؟

سمات عربية.

ان اعتبار فلسطين جزءا من كل، اي جزءا من دولة كبرى او وطن أكبر، امر لا يقلل من أهميتها، ولا يطغى على شخصيتها، ولا يسلب من شعبها صفاته القومية، في اي حال من الأحوال. بل على العكس من ذلك، ان انتماء أبنائها الى الأمة العربية الاسلامية، قد فتح الآفاق أمامهم للمساهمة في بناء حضارتها، فلم ينحصروا، ولم يتقوقعوا على انفسهم. وكان منهم كبار العلماء والفقهاء والمؤرخين والأدباء، الذين نكتفي بذكر واحد منهم، هو الإمام الشافعي، احد الأئمة

الأربعة الكبار، وابن مدينة غزة.

وشارك أبناء فلسطين في الحكم أيضا، فكان من أبنائها وزراء كبار ووزراء مفوضون مشهود لهم بالحكمة والعدل، ومنهم: رجاء بن حيوة (وهو من بيسان) في عهد عمر بن عبد العزيز الأموي؛ والربيع بن يونس وابنه الفضل (وهما من الخليل) في عهود ابي جعفر المنصور وهارون الرشيد والأمين العباسية؛ والحسن بن علي اليازوري (وهو من يازور) في عهد المستنصر بالله الفاطمي؛ والقاضي الفاضل (وهو من عسقلان) في عهد صلاح الدين الأيوبي.

وكما شارك أبناء فلسطين في الحكم، شاركوا في الثورات أيضا. وكانت آخر الثورات قبل الانتداب، الثورة العربية الكبرى. ويشهد القسم الثالث من هذا الكتاب على الدور الذي قام أبناء فلسطين به في النضال السياسي أواخر العهد العثماني، كما في صفوف الثورة العربية. كما يشهد القسم الخامس على انه كانت في فلسطين تباشير نهضة اجتماعية ثقافية اقتصادية واعدة، عندما داهمتها الحرب الكبرى، وعندما أطبق الانتداب عليها.

هؤلاء هم أبناء فلسطين سنة ١٩١٧، سنة «الوعد». هؤلاء هم الذين كانوا سيصبحون سادة بلادهم في فلسطين، تماما كما اصبح أبناء سوريا سادة في سوريا، او أبناء العراق سادة في العراق، لولا التآمر الاستعماري ــ الصهيوني بانشاء رأس الحربة الاستعمارية فالامبريالية في قلب الوطن العربي، في فلسطين؛ فلسطين التي كانت عبر ثلاثة عشر قرنا مضى قلب الدولة النابض، لا يستقر الحكم في الدولة ولا يزدهر، ما لم تكن مدينة بيت المقدس في أمان.

* * *

وردا على السؤال الثالث والأخير:

فلسطين، ما قضيتها؟

تنكّرت بريطانيا بالوعد ذي الأسطر الثلاثة لشعب فلسطين، فلم تذكره قط بالاسم، وسلبته حقوقه، وكذلك فعلت الشيء نفسه في صكّ الانتداب. غير ان الشعوب العريقة لا تنتظر حقوقها من الحاكم المستعمِر، ولا يُقضى عليها بسهولة، وحتى لو لم يبلـغ تعدادها المليون نسمة، كما كان تعداد الشعب الفلسطيني يوم «الوعد».

هكذا ولدت القضية الفلسطينية ــ قانونيا ــ سنة ١٩١٧. انها قضية نضال مشروع لشعب باتت ارضه محتلة بحكم بريطاني مباشر، ومهددة باحتلال صهيوني استيطاني غير مباشر. وطوال عهد الانتداب البريطاني، كانت القضية الفلسطينية قضية نضال لتحرير فلسطين واستعادتها وطنا عربيا سيدا، وإقامة حكم وطني ديمقراطي على أرضها. وكانت، في الوقت نفسه، قضية نضال

للمحافظة على وحدة أبنائها، وعلى تطلعاتهم القومية.

أما الولادة الحقيقية للقضية الفلسطينية، كجزء لا يتجزأ من القضية العربية، فقد كانت قبل سنة ١٩١٧ بعشرات السنين، كما أنها كانت خارج فلسطين، في أوروبا مهد الاستعمار. فهي ولادة ترتبط ارتباطا جذريا بالمخططات الاستعمارية إزاء المسألة الشرقية، والساعية سعيا حثيثا لإحكام السيطرة الأوروبية على مقدرات الدولة العثمانية، والاستيلاء على أراضيها، حين تحين الفرصة الملائمة؛ وقد كانت الفرصة خلال الحرب العالمية الأولى.

ونكتفي بالعودة الى مطلع القرن التاسع عشر، كي لا نذهب ابعد من ذلك، لمشاهدة المستعمرين الأوروبيين وهم يقفون بالمرصاد للدولة العثمانية المنهارة، لـ «الرجل المريض»، يحصون عليه أنفاسه. كما يقفون بالمرصاد، أيضا، لكل حاكم قوي يصعد من هذا الشرق العربي. هكذا وقفت أوروبا في وجه محمد علي الكبير، فردّت جيشه الى مصر، وحصرت طموحاته داخل مصر.

ومنذ عهد محمد علي الكبير، كان هناك قرار استعماري اوروبي استراتيجي بشأن المنطقة العربية بأسرها. ولم يتغير هذا القرار حتى اليوم، بل اكتسب قوة أكبر بانتقاله من المرحلة الأوروبية الاستعمارية الى المرحلة الأميركية الامبريالية. ويتلخص هذا القرار في عدم السماح لأية قوة عربية او إسلامية بأن تصعد من هذا الشرق لتأخذ مكان الدولة العثمانية، او مكان الدولة العربية، من قبلها. كما لن يسمح لقوة كهذه بأي تطور ذاتي يؤدي الى سيطرتها الفعلية على المقدرات الهائلة التي تحتويها المنطقة.

وبالاضافة الى المصالح الاستعمارية في المنطقة العربية، يجب الاعتراف بوجود عداء لدى الكثيرين من الغربيين تجاه العروبة وتجاه الاسلام، بسبب التنافس التاريخي الطويل بين الغرب والشرق، او كما كان يدعى في العصور السابقة، بين المسيحية والاسلام. فان كلا من هاتين الطاقتين، العروبة والاسلام، تمتلك قدرة هائلة لبناء امة قوية، تعيد الى الذاكرة الأوروبية سيطرة العرب على إسبانيا، والبحر المتوسط، والمواصلات نحو الشرق الأقصى، او سيطرة العثمانيين على نصف أوروبا. والكارثة من المنظار الاستعماري، او الامبريالي، أعظم، إنْ اجتمع العاملان في دولة واحدة (كمصر في عهد جمال عبد الناصر، الذي كان زعيما في دول العالم الثالث، كما كان في العالمين العربي والاسلامي). وتزداد الكارثة هولا، إنْ توحدت دولتان عربيتان (كمصر وسوريا في عهد الجمهورية العربية المتحدة).

وإنْ تكن هذه الأمثلة حديثة نسبيا، ومستقاة من مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، اي المرحلة التي يفترض أنها مرحلة الشرائع الدولية العادلة وهيئة الأمم المتحدة، فانه يصبح من

السهل تصور المواقف الاستعمارية ومخططاتها، للقضاء على الحركة العربية الواحدة، وعلى ثورتها الوليدة، في المرحلة الاستعمارية السافرة، وفي خضم الحرب العالمية الأولى.

كان هدفا استراتيجيا للدول الاستعمارية ان تنتهي الحرب الكبرى بتجزئة المنطقة العربية، ومن أجل ذلك كانت اتفاقية سايكس ــ بيكو. وربما أدرك المستعمرون ــ حينذاك ــ أكثر من العرب انفسهم، القدرات الهائلة والكامنة في العالم العربي، وفي اية دولة عربية موحدة على جزء من هذا العالم؛ لذلك، قضوا على هذه الدولة الوليدة في دمشق سنة ١٩٢٠. ومنذ تلك السنة حتى يومنا هذا، واصلت السياسة الاستعمارية الامبريالية عدوانها بضرب اي توجه عربي وحدوي، وبتكريس التجزئة والتقسيم. ولمّا كان بندا واضحا في هذه السياسة ألا تتكرر المحاولة، اي محاولة الثورة العربية، او الوحدة العربية، فقد بات إنشاء الوطن القومي الصهيوني ــ في حد ذاته ــ هدفا استراتيجيا لـ «الغرب»، يضمن زرع المستقبل العربي بالألغام، ويضمن المصالح الاستعمارية الامبريالية في المنطقة.

ما كان وعد بلفور وليد ساعته، او وليد الحرب الكبرى. فالمشاريع البريطانية الاستعمارية بانشاء وطن يهودي او مستعمرة لليهود في فلسطين، قد سبقت ولادة الحركة الصهيونية نفسها أكثر من نصف قرن. وقد تفوق مشروع ميتفورد او مشروع غولير، مثلا، على وعد بلفور نفسه في إنكار الشعب العربي الأصيل، وفي تمجيد اليهود الذين كانوا هم انفسهم معرضين عن كل هذه المشاريع، حينذاك.

يستنتج من هذا كله، ان العلاقة بين قضية الوحدة العربية والقضية الفلسطينية، علاقة جدلية وتاريخية ومصيرية. ويلاحظ انه منذ نهاية الحرب الكبرى، وفي كل مرحلة من تاريخ الأمة العربية المعاصر، تتعثر فيها المسيرة الوحدوية يتعثر أيضا النضال ضد الصهيونية، وتنخفض اسهم القضية الفلسطينية في الساحة الدولية، وحتى في الساحة العربية. وفي كل مرحلة تقوى فيها المسيرة الوحدوية يتقدم فيها النضال ويقوى ضد الصهيونية، وترتفع فيها اسهم القضية الفلسطينية في المحافل الدولية.

وسوف نتابع المسيرتين معا، في كل من الكتابين المقبلين. وما خاتمة هذا الكتاب سوى البداية في نضال الشعب العربي الفلسطيني، ونضال الأمة العربية، لاستعادة الشعب الفلسطيني حقوقه الوطنية الثابتة، ولإنجاز الهدف القومي الثابت، هدف الوحدة العربية.

المصادر والمراجـع



المصادر والمراجع العربية

أولا: المصادر

١ ـ الكتب الدينية

ـ «القرآن الكريم». القدس: دار الأيتام الاسلامية الصناعية، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م (أول طبعة تصدر عن القدس الشريف في تاريخ العرب والاسلام).

ـ «الكتاب المقدس: كتب العهد القديم، والعهد الجديد» بيروت: جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى، ١٩٧١.

٢ ـ الوثائق

ـ أيوب، سمير. جمع وإعداد. «وثائق أساسية في الصراع العربي الصهيوني». الجزء الأول: «مرحلة الارهاصات». الجزء الثاني: «مرحلة زرع المؤامرة». بيروت. صامد للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٤

ـ فرحات، إدمون. «القدس في الوثائق الفاتيكانية» بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٩١.

ـ اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر. «المؤتمر العربي الأول المنعقد في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سن جرمن في باريس ١٨ ـ ٢٣ حزيران ١٩١٣». القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩١٣.

ـ مصر. وزارة الارشاد القومي ـ الهيئة العامة للاستعلامات. الجزء الأول. «ملف وثائق فلسطين ٦٣٧ ـ ١٩٤٩». القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٦٩.

ـ منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركز الأبحاث. وثائق محفوظة. الوثائق السياسية.

ـ موسى، سليمان. تحرير. «الثورة العربية الكبرى: وثائق وأسانيد». عمان: دائرة الثقافة والفنون، ١٩٦٦.

ـ موسى، سليمان. تحرير. «المراسلات التاريخية ١٩١٤ ـ ١٩١٨، الثورة العربية الكبرى». عمان: سليمان موسى، ١٩٧٣.

ـ «وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية: من أوراق أكرم زعيتر». إعداد بيان نويهض الحوت. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٩.

ـ «وثائق فلسطين: مائتان وثمانون وثيقة مختارة ١٨٣٩ ـ ١٩٨٧». منظمة التحرير الفلسطينية ـ دائرة الثقافة، ١٩٨٧.

٣ ـ الموسوعات

ـ ابن ابي أُصيبعة موفق الدين ابي العباس احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي. «عيون الأنباء في طبقات الأطباء». شرح وتحقيق نزار رضا. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥.

ـ الحفني، عبد المنعم. «الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية» بيروت: دار المسيرة، ١٩٨٠.

ـ «دائرة المعارف الاسلامية»، لجنة الترجمة. القاهرة: لا مطبعة، ١٩٣٣.

ـ الزركلي، خير الدين. «الإعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين». الطبعة الثالثة. بيروت: لا ناشر، ١٩٦٩.

ـ «الموسوعة الفلسطينية: القسم العام (في اربعة مجلدات)». تحرير هيئة الموسوعة الفلسطينية برئاسة احمد المرعشلي. الطبعة الأولى. دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤.

ـ «الموسوعة الفلسطينية: القسم الثاني ـ الدراسات الخاصة (في ستة مجلدات)». تحرير هيئة الموسوعة الفلسطينية برئاسة انيس صايغ. الطبعة الأولى. بيروت: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٩٠.

٤ ـ الأوراق الخاصة والمخطوطات

ـ الخالدي، حسين فخري. «مذكرات خاصة». مخطوطة لم تنشر محفوظة في مكتبة خاصة. بيروت، ١٩٤٩

ـ الخطيب، محب الدين. «أوراق خاصة». محفوظة في مكتبة خاصة.

ـ الدجاني، احمد صدقي. «عبد الحميد في التاريخ». مخطوطة لم تنشر بعد.

ـ دروزة، عزة. «أوراق خاصة». محفوظة في مكتبة خاصة.

ـ عبد الهادي، عوني. «أوراق خاصة». محفوظة في منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركز الأبحاث

ـ نويهض، عجاج. «أوراق من تاريخ العرب الحديث». (مخطوطة لشهادات من رجال الحركة العربية. سجّل المؤلف معظمها في عمان ودمشق خلال ١٩٥٣ ـ ١٩٥٩ في ستة وعشرين كراسا).

٥ ــ اليوميات والمذكرات والرحلات

ــ أرسلان، شكيب. «سيرة ذاتية». الطبعة الأولى. بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٩.

ــ بنيامين بن يونه التطيلي النباري الأندلسي الرحالة الربي، ٥٦١ ــ ٥٦٩هـ / ١١٦٥ ــ ١١٧٣م. «رحلة بنيامين». ترجمه عزرا حداد عن الأصل العبري وعلق عليه. بغداد: المطبعة الشرقية، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م.

ــ داغر، اسعد. «مذكراتي على هامش القضية العربية». القاهرة· دار القاهرة للطباعة، ١٩٥٩.

ــ السكاكيني، خليل. «كذا أنا يا دنيا: يوميات». إعداد هالة السكاكيني. القدس: المطبعة التجارية، ١٩٥٥.

ــ العجلوني، محمد علي «ذكرياتي عن الثورة العربية الكبرى». عمان: منشورات مكتب الحرية، ١٩٥٦.

ــ العسكري، تحسين. «مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية». جزآن. الجزء الأول. بغداد: مطبعة العهد، ١٩٣٦. الجزء الثاني. النجف: مطبعة الغري، ١٩٣٨.

ــ «عوني عبد الهادي: أوراق خاصة». إعداد خيرية قاسمية. بيروت· منظمة التحرير الفلسطينية ــ مركز الأبحاث، ١٩٧٤.

ــ الغصيني، فايز «مذكراتي عن الثورة العربية» دمشق: مطبعة الترقي، ١٩٥٦.

ــ قدري، احمد. «مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى». دمشق: ابن زيدون، ١٩٥٦.

ــ مدحت باشا. «مذكرات». تعريب يوسف كمال حتاته. مصر: مطبعة هندية، ١٣٢٥هـ.

ــ «مذكرات الملك عبد الله». الطبعة الرابعة. نشرها امين ابو الشعر. عمان: المطبعة الهاشمية، ١٩٦٥.

٦ ــ البلدانيات والأطالس

ــ البندك، مازن. «أطلس الصراع العربي الصهيوني حتى بداية ١٩٧٨». كتب المادة التاريخية خيرية قاسمية. بيروت: دار القدس، لا تاريخ.

ــ خمار، قسطنطين. «أسماء الأماكن والمواقع والمعالم الطبيعية والبشرية والجغرافية المعروفة في فلسطين حتى العام ١٩٤٨». الطبعة الثانية. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠.

ــ صايغ، انيس. «بلدانية فلسطين المحتلة، ١٩٤٨ ــ ١٩٦٧». بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية ــ مركز الأبحاث، ١٩٦٨.

- مومرجي الدومنكي، الأب ا. س. «بلدانية فلسطين العربية». بيروت: مطبعة جان دارك، ١٩٤٨
- المنجد، صلاح الدين. «معجم أماكن الفتوح». القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٦٠.

ثانيا: المراجع

١ ـ الكتب

- ابن الأثير، ابو الحسن علي بن محمد. «الكامل في التاريخ». ١٣ مجلدا. بيروت: دار صادر ـ دار بيروت، ١٩٦٥ ـ ١٩٧٩.
- ابن خلدون، عبد الرحمن. «تاريخ العلامة ابن خلدون. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر». القسم الأول، المجلد الثاني. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦.
- ابن عبد ربه، ابو عمر احمد بن محمد. «العقد الفريد». شرحه ورتّب فهارسه احمد امين، احمد الزين وابراهيم الابياري. ٧ أجزاء. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٩ ـ ١٩٤٤.
- ابن هشام (عبد الملك بن هشام المعافري). «السيرة النبوية: من أصلها لمحمد بن إسحاق المطلبي». تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. الطبعة الثانية. القاهرة: مطبعة الحلبي، ١٩٥٥.
- ابو حديد، محمد فريد «صلاح الدين الأيوبي وعصره». القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤، ١٩٢٧.
- ابو صادق. إعداد. «الماسونية بلا قناع» بغداد: منشورات دار البصري، ١٩٦٧.
- ابو عسل، إيلي ليفي. «يقظة العالم اليهودي». القاهرة: مطبعة النظام بمصر، ١٩٣٤.
- اتيلغان، الجنرال جواد رفعت. «الخطر المحيط بالاسلام. الصهيونية وبروتوكولاتها». ترجمه وهبي عز الدين عن التركية. بغداد: مطبعة الجاحظ، ١٩٦٥.
- احد أعضاء الجمعيات العربية [اسعد داغر]. «الثورة العربية: مقدماتها ـ أسبابها ـ نتائجها». مصر: مطبعة المقطم، ١٩١٦.
- أختر، محمد. «تحليل وعد بلفور». ترجمة محمد يونس الحسيني. القدس: جريدة مرآة الشرق ومطبعة بيت المقدس، ١٩٢٩.
- إدّه، ميشال. «الشتات اليهودي والصراع العربي ـ الاسرائيلي: اليهود السوفيات واليهود الأميركيون». بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٩٠.

ـ أرسلان، شكيب. «الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية». المجلد الثاني. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، لا تاريخ.

ـ أركون، محمد. «تاريخية الفكر الاسلامي». ترجمه هاشم صالح عن الفرنسية. بيروت: منشورات مركز الانماء القومي، ١٩٨٦.

ـ الأسد، ناصر الدين «محمد روحي الخالدي: رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين». القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٠.

ـ الأصمعي، عبد الملك بن قريب (١٢٣ ـ ٢١٧هـ). «تاريخ العرب قبل الاسلام». تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين بغداد: مشورات المكتبة العلمية، ١٩٥٩.

(عن نسخة كتبت عام ٢٤٣هـ بخط يعقوب بن السكيت).

ـ الأعظمي، احمد عزت. «القضية العربية: أسبابها مقدماتها تطوراتها ونتائجها». الطبعة الأولى. ٦ أجزاء. بغداد: مطبعة الشعب، ١٩٣١ ـ ١٩٣٤.

ـ امين، احمد. «ضحى الاسلام». موسوعة احمد امين الاسلامية. الطبعة العاشرة. الجزء الأول والجزء الثاني. بيروت: دار الكتاب العربي، لا تاريخ.

(الطبعة الأولى نشرت سنة ١٩٣٥).

ـ أويغور، ضياء. «جذور الصهيونية». ترجمه ابراهيم الداقوقي عن التركية. بغداد: وزارة الثقافة والارشاد، ١٩٦٦

ـ إيفانوف، يوري. «احذروا الصهيونية!». [موسكو]: منشورات وكالة أنباء نوفوستي، ١٩٦٩.

ـ بازيلي. «سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي: من الناحيتين السياسية والتاريخية». ترجمة يسر جابر بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٨.

ـ بدران، نبيل. «التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني». الجزء الأول. بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركز الأبحاث، ١٩٦٩.

ـ برانايتس (الأب). «فضح التلمود: تعاليم الحاخاميين السرية». اعدّه وترجمه عن الانكليزية زهدي الفاتح. الطبعة الثانية. بيروت: دار النفائس، ١٩٨٣.

(النص الأصلي للكتاب موضوع باللغتين العبرية واللاتينية، وقد صدر عن «الأكاديمية الامبراطورية للعلوم» في سان بيترسبورغ، ١٩٨٢).

ـ البرغوثي، عمر الصالح. «الوزير اليازوري: بحث عن العروبة ومجد مصر وتضحيتها لانقاذ فلسطين والدفاع عنها». مصر: دار الفكر العربي، لا تاريخ.

- البرغوثي، عمر الصالح؛ وخليل طوطح. «تاريخ فلسطين». القدس: بولس سعيد ووديع سعيد، ١٩٢٣.
- برو، توفيق علي. «العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ ــ ١٩١٤». القاهرة: جامعة الدول العربية ــ معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٠.
- البستاني، سليمان. «الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده». لا مكان: لا ناشر، [١٩٠٨].
- البستاني، سيف الدين. «أوقفوا هذا السرطان: حقيقة الماسونية وأهدافها» دمشق: دار النهضة العربية للتأليف والترجمة والنشر، [١٩٦٤].
- البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر. «فتوح البلدان» تحقيق عبد الله وعمر انيس الطباع. بيروت: دار النشر للجامعيين، ١٩٥٧.
- بن تغري بردي، جمال الدين ابي المحاسن يوسف. «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة». ١٦ جزءا. القاهرة: وزارة الثقافة والارشاد القومي ــ المؤسسة المصرية العامة، لا تاريخ.
- توما، إميل. «الصهيونية المعاصرة: دراسات». عكا: منشورات الأسوار، ١٩٨٢.
- توما، إميل. «فلسطين في العهد العثماني». عمان: الدار العربية للنشر والتوزيع، لا تاريخ.
- التونسي، محمد خليفة. «الخطر اليهودي. بروتوكولات حكماء صهيون». القاهرة. مطبعة دار الكتاب العربي، ١٩٥١.
- جريس، صبري. «تاريخ الصهيونية: ١٨٦٢ ــ ١٩١٧» الجزء الأول. بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية ــ مركز الأبحاث، ١٩٧٧.
- جمال باشا. «كيف جلت القوات العثمانية عن بلاد العرب». تعريب فؤاد ميداني. بيروت: لا ناشر، ١٩٣٢.
(نشرت تباعا في جريدة «الأحرار»).
- جميل، حسين. «بطلان الأسس التي اقيم عليها وجود اسرائيل على الأرض العربية». بغداد: وزارة الثقافة والارشاد، ١٩٦٨.
- الجندي، انور. «تراجم الاعلام المعاصرين في العالم الاسلامي». القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٠.
- الجوزي، صليبا. جمع وإعداد. «القروي الفلسطيني: من الصرّة الى الحفرة. من المهد الى اللحد. من أواخر الاحتلال العثماني الى أوائل الاحتلال البريطاني». بيروت: الاعلام المركزي ــ جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني، ١٩٧٥.
- «الجوهر الرجعي للصهيونية: مجموعة مقالات». موسكو: دار التقدم، ١٩٧٥.

ــ الحاج، كمال؛ وعبد الله النحار «الصهيونية بين تاريخين». قسمان. بيروت: دار العودة، ١٩٧٢.

ــ الحافظ، ياسين. «حول بعض قضايا الثورة العربية». بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٥.

ــ الحافظ، ياسين. «الهزيمة والايديولوجيا المهزومة» بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩.

ــ حتي، فيليب؛ وإدورد جرجي؛ وجبرائيل جبور. «تاريخ العرب» (مطول) الطبعة الثالثة. جزآن بيروت. دار الكشاف، ١٩٦١.

ــ حداد، يوسف ايوب. «خليل السكاكيني: حياته مواقفه وآثاره». [بيروت]: الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٨١

ــ حسن، حسن ابراهيم. «تاريخ الاسلام: السياسي والديني والثقافي والاجتماعي» الطبعة السادسة. الجزء الأول: «الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والأندلس ١ ــ ١٣٢ هـ/ ٦٢٢ ــ ٧٤٩ م». القاهرة. مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١.

ــ الحسيني، إسحق موسى. «عروبة بيت المقدس». بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية ــ مركز الأبحاث، ١٩٦٩.

ــ الحسيني، (الحجة السيد) هبة الدين (الشهرستاني). «المعجزة الخالدة». الطبعة الثانية. الكاظمية: مطبوعات مكتبة الجوادين العامة، ١٣٧١ هـ/ ١٩٥١ م

ــ الحصري، ساطع. «آراء وأحاديث في القومية العربية». سلسلة التراث القومي: الأعمال القومية لساطع الحصري رقم (٧). إعادة لطبعة ١٩٥٦. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥.

ــ الحصري، ساطع. «آراء وأحاديث في الوطنية والقومية». سلسلة التراث القومي: الأعمال القومية لساطع الحصري رقم (١). إعادة لطبعة ١٩٤٤. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤.

ــ الحصري، ساطع (ابو خلدون). «أبحاث مختارة في القومية العربية ١٩٢٣ ــ ١٩٦٣». جزآن. بيروت: دار القدس، ١٩٧٤.

ــ الحصري، ساطع. «البلاد العربية والدولة العثمانية». الطبعة الثانية موسعة. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٠.

(يتضمن الاتفاقيات السرية التي كانت عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية الكبرى قبيل الحرب العالمية الأولى).

ــ الحصري، ساطع. «دفاع عن العروبة». بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٦.

ـ الحصري، ساطع. «العروبة أولا». بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٥.
ـ الحصري، ساطع. «العروبة بين دعاتها ومعارضيها». بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٢
ـ الحصري، ساطع. «في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية». سلسلة التراث القومي٠ الأعمال القومية لساطع الحصري رقم (١١). إعادة لطبعة ١٩٥٨. بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥.
ـ الحصري، ساطع. «ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات». سلسلة التراث القومي: الأعمال القومية لساطع الحصري رقم (١٣). إعادة لطبعة ١٩٥٩. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥.
ـ الحصري، ساطع. «محاضرات في نشوء الفكرة القومية». سلسلة التراث القومي: الأعمال القومية لساطع الحصري رقم (٥). إعادة لطبعة ١٩٥١. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥.
ـ حمّور، عرفان محمد. «أسواق العرب: عرض ادبي تاريخي للأسواق الموسمية العامة عند العرب». بيروت: دار الشورى، ١٩٧٩.
ـ الحنبلي، مجير الدين. «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل». نسخة مخطوطة عن الأصل. ٩٠١ هـ.
ـ الحوت، بيان نويهض. «الشيخ المجاهد عز الدين القسام في تاريخ فلسطين». بيروت: دار الاستقلال للدراسات والنشر، ١٩٨٧.
ـ الحوت، بيان نويهض. «القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٤٨». بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١.
ـ حوراني، ألبرت. «الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩». الطبعة الثالثة. بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٧.
ـ الخازن، نسيب وهبه. «أوغاريت: أجيال أديان ملاحم». بيروت: دار الطليعة، ١٩٦١.
ـ الخازن، يوسف. «الدولة اليهودية في فلسطين». ترجمه غسان الخازن عن الفرنسية وعلق عليه. بيروت: مختارات، ١٩٨٧.
ـ الخالدي، احمد سامح. «أهل العلم والفكر في ريف فلسطين». عمان: منشورات دائرة الثقافة والفنون ـ وزارة الثقافة والاعلام، ١٩٦٨.
ـ الخالدي، روحي. «المقدمة في المسألة الشرقية: منذ نشأتها الأولى الى الربع الثاني من القرن الثامن عشر». القدس: مطبعة دار الأيتام الاسلامية. لا تاريخ.

ـ خالدي، مصطفى؛ وعمر فروخ. «التبشير والاستعمار في البلاد العربية: عرض لجهود المبشرين التي ترمي الى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي». الطبعة الخامسة. بيروت ـ صيدا: المكتبة العصرية، ١٩٧٣.

ـ الخالدي، وليد. تحرير. «القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني». الجزء الأول. [عمان]: اتحاد الجامعات العربية ـ الأمانة العامة، ١٩٨٣.

ـ خان، ظفر الاسلام. «تاريخ فلسطين القديم ١٢٢٠ ق. م. ـ ١٣٥٩ م. منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي». بيروت: دار النفائس، ١٩٧٣.

ـ خان، ظفر الاسلام. «التلمود: تاريخه وتعاليمه». الطبعة الخامسة. بيروت: دار النفائس، ١٩٨٤.

ـ خدوري، مجيد. «عرب معاصرون: أدوار القادة في السياسة». بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٣.

ـ الخضري، الشيخ محمد. «محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية». الطبعة السادسة. الجزء الأول والجزء الثاني. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٧٠هـ.

ـ الخطيب، محب الدين. «مع الرعيل الأول». الطبعة الثانية. نشره قصي محب الدين الخطيب. القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٧٨ هـ.

ـ خلف الشيخ خزعل، حسين. «حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب». بيروت: مطابع دار الكتب، ١٩٦٨.

ـ خلف الله، محمد احمد. «الكواكبي: حياته وآراؤه». القاهرة: مكتبة العرب، لا تاريخ.

ـ الخليلي، جعفر. «موسوعة العتبات المقدّسة: قسم القدس». المجلد الأول والمجلد الثاني. بغداد: دار التعارف، ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م.

ـ خوري، شحاده؛ ونقولا خوري. «خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية». القدس الشريف: مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٥.

ـ الخوري، عبد الحليم الياس. «الماسونية: ذلك العالم المجهول». بيروت: دار العلم للجميع، ١٩٥٤.

ـ خوري، يوسف ق. «الصحافة العربية في فلسطين». بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، والاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٧٦.

ـ دافدسن، فرنسس؛ وجماعة من اللاهوتيين. «تفسير الكتاب المقدس». بيروت: مركز المطبوعات المسيحية، ١٩٦٣.

ـــ الدباغ، مصطفى مراد. «بلادنا فلسطين». الجزء الأول، القسم الأول. بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٥.

ـــ الدباغ، مصطفى مراد. «القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين». فلسطينيات ١. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩.

ـــ الدباغ، مصطفى مراد. «الموجز في تاريخ الدول الاسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين». جزآن. فلسطينيات ٣. بيروت: دار الطليعة، ١٩٨١ ـــ ١٩٨٢.

ـــ الدباغ، مصطفى مراد. «الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين». فلسطينيات ٢. بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٠.

ـــ الدبس، المطران يوسف. «من تاريخ سورية الدنيوي والديني». ٩ مجلدات. بيروت: المطبعة العمومية، [١٨٩٣ ـــ ١٩٠٥].

ـــ الدجاني، حسن صدقي. «تفصيل ظلامة فلسطين». القدس: المطبعة التجارية، ١٩٣٦.

ـــ دروزة، محمد عزة. «حول الحركة العربية الحديثة». الجزء الأول. صيدا: المكتبة العصرية، ١٩٥٠.

ـــ دروزة، محمد عزة. «العدوان الاسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث على فلسطين وما جاورها». جزآن. بيروت: دار الكلمة للنشر، ١٩٧٩.

ـــ الدوري، عبد العزيز. «التكوين التاريخي للأمة العربية: دراسة في الهوية والوعي». بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤.

ـــ الدوري، عبد العزيز. «الجذور التاريخية للقومية العربية». بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٠.

ـــ ديب، سهيل. «التوراة: تاريخها وغاياتها». الطبعة الخامسة. بيروت: دار النفائس، ١٩٨٤.

ـــ ديسّو، رنيه. «العرب في سوريا قبل الاسلام». ترجمة عبد الحميد الدواخلي، مراجعة محمد مصطفى زيادة. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٩.

ـــ ديورانت، وِل. «قصة الحضارة». ترجمة محمد بدران. عدة أجزاء. القاهرة: جامعة الدول العربية ـــ الادارة الثقافية، لا تاريخ.

ـــ الرافعي، عبد الرحمن. «جمال الدين الأفغاني: باعث نهضة الشرق ١٨٣٨ ـــ ١٨٩٧». [القاهرة]: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦١.

ـــ رامزور، إرنست أ. «تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨». ترجمة صالح احمد العلي. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٠.

ـــ رزوق، اسعد. «التلمود والصهيونية». بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية ـــ مركز الأبحاث، ١٩٧٠.

ـــ الرملي، فتحي. «الصهيونية أعلى مراحل الاستعمار». القاهرة: وكالة الصحافة الافريقية، ١٩٥٦.

ـــ رنسيمان، ستيفن. «تاريخ الحروب الصليبية». ترجمة السيد الباز العريني. ٣ مجلدات. بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٧ ـــ ١٩٦٩.

ـــ الريحاني، امين. «الأعمال الكاملة: القوميات». المجلد الثامن ـــ حزآن. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٣.

ـــ الريحاني، أمين. «النكبات: خلاصة تاريخ سورية منذ عهد الطوفان الى عهد الجمهورية بلبنان». الطبعة الثالثة. بيروت: مؤسسة دار الريحاني، ١٩٧٦.

ـــ زايد، عبد الحميد. «القدس الخالدة». القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤.

ـــ زريق، قسطنطين. «نحن والتاريخ». الطبعة الخامسة منقحة. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨١.

ـــ زيدان، جرجي «تاريخ التمدن الاسلامي». خمسة أجزاء. القاهرة: مطبعة الهلال، ١٩٢٢ ـــ ١٩٣١.

ـــ زيدان، جرجي. «العرب قبل الاسلام». الطبعة الثالثة. الجزء الأول [القاهرة]: مطبعة الهلال، ١٩٣٩.

ـــ ستودارد، لوثروب. «حاضر العالم الاسلامي». ترجمة عجاج نويهض. يتضمن فصولا وتعليقات للأمير شكيب أرسلان. ٤ مجلدات في كتابين. الطبعة الثانية. القاهرة: مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، ١٣٥٢هـ

(صدرت الطبعة الرابعة للكتاب عن دار الفكر في بيروت، ١٣٩٤هـ /١٩٧٣م).

ـــ سعيد، أدونيس وخالده. تقديم. «الإمام محمد عبده». بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٣.

ـــ سعيد، امين. «الثورة العربية الكبرى». ٣ مجلدات. مصر: مطبعة عيسى البابي وشركاه، لا تاريخ.

ـــ سعيد، امين. «الدولة العربية المتحدة». الجزء الأول: «تاريخ الاستعمار الانكليزي في بلاد العرب». مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، لا تاريخ.

ـــ سوسه، احمد. «العرب واليهود في التاريخ: حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الآثارية». بغداد: وزارة الاعلام ـــ مديرية الثقافة العامة، ١٩٧٢.

(اصدرت وزارة الاعلام في الجمهورية العراقية ملخصا للكتاب بعنوان «الملخص لكتاب العرب واليهود في التاريخ»، تلخيص وتبسيط جعفر الخليلي، ١٩٧٧).
- سيجال، م. ص. «حول تاريخ الأنبياء عند بني اسرائيل». ترجمه حسن ظاظا عن العبرية وعلّق عليه. بيروت: منشورات جامعة بيروت العربية، لا تاريخ.
- شرارة، عبد اللطيف. «روح العروبة». صيدا: المكتبة العصرية، لا تاريخ.
- الشرقاوي، عبد الرحمن. «محمد رسول الحرية». القاهرة: عالم الكتب، ١٩٦٢.
- الشريف، ماهر. «تاريخ فلسطين الاقتصادي ـ الاجتماعي». بيروت: دار ابن خلدون، ١٩٨٥.
- الشقيري، احمد. «خرافات يهودية». عمان: مطابع الدستور التجارية، ١٩٨١
- الشيرازي، محمد المهدي الحسيني. «هؤلاء اليهود». بيروت: دار الصادق، لا تاريخ.
- «شيعة المسونيين». بيروت: مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، ١٨٨٥.
- صايغ، انيس. «فلسطين والقومية العربية». بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركز الأبحاث، ١٩٦٦.
- صايغ، انيس. «الهاشميون والثورة العربية الكبرى». بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٦.
- صبيح، محمد. «بطل لا ننساه: عزيز المصري وعصره». بيروت ـ صيدا: منشورات المكتبة العصرية، ١٩٧١.
- صفوة، نجدة فتحي. «بيروبيجان: التجربة السوفيتية لانشاء وطن قومي يهودي». بغداد: مركز الدراسات الفلسطينية ـ جامعة بغداد، ١٩٧٣.
- صلاح، حنا. «فلسطين وتجديد حياتها». نيويورك: الجمعية الفلسطينية لمقاومة الصهيونية، ١٩١٩.
- الصليبي، كمال. «التوراة جاءت من جزيرة العرب». ترجمة عفيف الرزاز. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٥.
- «الصهيونية أداة الرجعية الامبريالية». [موسكو]: مطبوعات وكالة أنباء نوفوستي، ١٩٧٠.
- الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير. «تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك». تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم. الجزء الأول. القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٦٠.
- طلاس، مصطفى. «الثورة العربية الكبرى». الطبعة الثالثة. بيروت: دار الشورى، [١٩٧٨].
- الطناحي، طاهر. تحقيق. «مذكرات الإمام محمد عبده». القاهرة: دار الهلال، لا تاريخ.

ـ طوقان، قدري حافظ. «جمال الدين الأفغاني: آراؤه كفاحه وأثره في نهضة الشرق». القدس: مطبعة بيت المقدس، ١٩٤٧.

ـ طوقان، قدري حافظ. «مقام العقل عند العرب». بيروت: دار القدس، لا تاريخ.

ـ الطيباوي، عبد اللطيف. «محاضرات في تاريخ العرب والاسلام». الجزء الأول. بيروت: دار الأندلس، ١٩٦٣.

ـ ظاظا، حسن. «الساميون ولغاتهم: تعريف بالقرابات اللغوية والحضارية للعرب». [القاهرة]: دار المعارف بمصر، ١٩٧١.

ـ ظاظا، حسن. «الفكر الديني الاسرائيلي: أطواره ومذاهبه». القاهرة: جامعة الدول العربية ـ معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧١.

ـ ظاظا، حسن. «القدس مدينة الله...؟ ام مدينة داود...!». الاسكندرية: جامعة الاسكندرية، ١٩٧٠.

ـ العابدي، محمود. «أوابد من التاريخ». عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٨.

ـ العابدي، محمود. «قدسنا». القاهرة: جامعة الدول العربية ـ معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٢.

ـ العابدي، محمود. «محنة بيت المقدس». الطبعة الثانية. عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٠.

ـ العارف، عارف. «تاريخ القدس». [القاهرة]: دار المعارف بمصر، ١٩٥١.

ـ عازوري، نجيب (مؤسس جامعة الوطن العربي في مطلع القرن العشرين). «يقظة الأمة العربية». ترجمة احمد بوملحم، تقديم زاهية قدورة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، [١٩٧٨].

ـ عبد الرحمن، اسعد. «المنظمة الصهيونية العالمية ١٨٨٢ ـ ١٩٨٢». الطبعة الثانية. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٠.

ـ عبده، الشيخ محمد. «الثائر الاسلامي جمال الدين الافغاني، ورسالة الرد على الدهريين». القاهرة: دار الهلال، لا تاريخ.

ـ العروي، عبد الله. «العرب والفكر التاريخي». الدار البيضاء ـ المغرب: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٣.

ـ العريسي، عبد الغني. «مختارات ‹المفيد›». تقديم ناجي علوش. بيروت: دار الطليعة، ١٩٨١.

ـ عصبة من الكتاب الأحرار. «مؤتمر الشهداء: المؤتمر الذي أذاع الأماني القومية وجرّ أعضاءه الى المشانق». تمهيد يوسف ابراهيم يزبك. بيروت: منشورات جريدة اليوم، ١٩٥٥.
ـ «عصر السلطان عبد الحميد، وأثره في الأقطار العربية». الطبعة الثانية. سلسلة تاريخية مصورة من ١٥ جزءا في مجلد واحد. دمشق: المطبعة الهاشمية، ١٩٣٩.
ـ عضو جمعية عربية سرية. «ثورة العرب الكبرى ١٩١٦». حماه: منشورات الرائد العربي، ١٩١٦.
ـ العقاد، عباس محمود. «ابراهيم ابو الأنبياء». [القاهرة]: دار الهلال، لا تاريخ.
(صدر أيضا في سلسلة كتاب اليوم، آب/أغسطس ١٩٥٣).
ـ العقاد، عباس محمود. «الاسلام دعوة عالمية». بيروت ـ صيدا: منشورات المكتبة العصرية، [١٩٦٢].
ـ العقاد، عباس محمود. «حقائق الاسلام وأباطيل خصومه». القاهرة: دار الاسلام، ١٩٥٧.
ـ العقاد، عباس محمود. «الرحالة ‹كاف› عبد الرحمن الكواكبي». القاهرة. المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٩٥٩.
ـ العقاد، عباس محمود. «عبقرية محمد». القاهرة: دار الهلال، ١٩٦٦.
ـ العقيقي، نجيب. «المستشرقون». ٣ أجزاء. القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥.
ـ علي، جواد. «تاريخ العرب قبل الاسلام». الجزء الأول ـ القسم السياسي. بغداد: مطبعة التفيض، ١٩٥٠.
ـ الإمام علي بن ابي طالب. «نهج البلاغة». جمع الشريف ابو الحسن محمد الرضي ابن الحسن الموسوي من كلام امير المؤمنين ابي الحسن علي بن ابي طالب عليه السلام، وشرح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وتحقيق عبد العزيز سيد الأهل. الطبعة الثانية. بيروت: دار الأندلس، ١٩٦٣.
ـ عمارة، محمد. تحقيق. «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: الاصلاح الفكري والتربوي والالهيات». الطبعة الثانية. الجزء الثالث. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠.
ـ عمارة، محمد. تحقيق. «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: في تفسير القرآن». الجزء الرابع والجزء الخامس. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣.
ـ عمارة، محمد. تحقيق. «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: الكتابات الاجتماعية». الطبعة الثانية. الجزء الثاني. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠.

ـ عمارة، محمد. تحقيق. «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: الكتابات السياسية». الطبعة الثانية. الجزء الأول. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩.

ـ عمارة، محمد. دراسة وتحقيق. «جمال الدين الأفغاني: الأعمال الكاملة». الجزء الأول: «الله. . والعالم. . والانسان». بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩.

ـ عمارة، محمد. تحقيق. «جمال الدين الأفغاني: الأعمال الكاملة: الكتابات السياسية». الطبعة الأولى. الجزء الثاني. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١.

ـ عمارة، محمد. دراسة وتحقيق. «عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة». بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٥.

ـ عمارة، محمد. «العرب والتحدي». سلسلة كتب عالم المعرفة. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أيار/مايو ١٩٨٠.

ـ عمارة، محمد. «معارك العرب ضد الغزاة ١١٨٧ ـ ١٨٠٧: حطين، تحرير القدس، المنصورة، عين جالوت، رشيد». بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢.

ـ العمري، صبحي. «لورنس كما عرفته». بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩.

ـ العمري الموصلي، محمد طاهر «تاريخ مقدرات العراق السياسية: تاريخ سياسي يبحث عن تطور علاقات الدول الأجنبية في العراق وعن سر القضية العربية والثورة الحجارية والقضية العراقية خاصة، وعن ثورات العراق عام ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ مفصلا ومستندا على وثاق رسمية وخصوصية». ٣ أجزاء. الموصل: مطبعة عيسى محفوظ، ١٩٢٤.

ـ عنّان، محمد عبد الله. «دولة الاسلام في الاندلس: الخلافة الأموية والدولة العامرية». العصر الأول ـ القسم الثاني. طبعة رابعة مزيدة منقحة. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٩.

ـ عنّان، محمد عبد الله. «عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس». العصر الثالث ـ القسم الثاني. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤.

ـ العودات، يعقوب (البدوي الملثم). «من أعلام الفكر والأدب في فلسطين». عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٦.

ـ غرايبة، عبد الكريم. «سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤٠ ـ ١٨٧٦». القاهرة: جامعة الدول العربية ـ معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦١ ـ ١٩٦٢.

ـ الغلاييني، الشيخ مصطفى. «الاسلام روح المدنية». الطبعة الرابعة. بيروت: المكتبة الاهلية، ١٣٥٤هـ /١٩٣٥م.

(صدرت الطبعة الأولى سنة ١٩٠٨ بعنوان «الاسلام وكرومر»).
ـ فرح، بولس. «من العثمانية الى الدولة العبرية». الناصرة: الصوت، ١٩٨٥.
ـ فرّوخ، عمر. «العرب في حضارتهم وثقافتهم». بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٦.
ـ فريحة، انيس. «أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها: دراسة لغوية». سلسلة العلوم الشرقية ـ الحلقة السابعة والعشرون. بيروت: الجامعة الاميركية ـ منشورات كلية العلوم والآداب، ١٩٥٦.
ـ فريحة، انيس. «ملاحم وأساطير من أوغاريت (رأس الشمرا)». بيروت: الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٦٦.
ـ قاسمية، خيرية. «النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ ـ ١٩١٨». بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركز الأبحاث، ١٩٧٣.
ـ «قاموس الكتاب المقدس». تحرير بطرس عبد الملك وجون ألكسندر طمسن وابراهيم مطر. مجلدان. بيروت: مكتبة المشعل الانجيلية، ١٩٦٤، ١٩٦٧.
ـ «القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني». بيروت: وزارة الدفاع الوطني ـ الجيش اللبناني ـ الأركان العامة ـ الشعبة الخامسة؛ مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٣.
ـ قلعجي، قدري. «ثلاثة من أعلام الحرية: جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، سعد زغلول». بيروت: دار الكاتب العربي، لا تاريخ.
ـ قنواتي، الأب جورج شحاته. «المسيحية والحضارة العربية». بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لا تاريخ.
ـ «القومية العربية والاسلام: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية». بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨١.
ـ كربيتس، بيير. «ابراهيم باشا». ترجمة محمد بدران. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧.
ـ كنعان، جورجي. «وثيقة الصهيونية في ‹العهد القديم›». لا مكان: لا ناشر، ١٩٧١.
(أُعيد نشره في بيروت سنة ١٩٧٧).
ـ [الكواكبي، عبد الرحمن] الرحالة الكواكبي الملقب بالسيد الفراتي. «ام القرى: اي ضبط ومفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الاسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦». لا مكان: لا ناشر، [١٩٠٠].

ـ [الكواكبي، عبد الرحمن] الرحالة ك. «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد». مصر: الأزهر الشريف، [١٩٠٠].
ـ الكيالي، عبد الوهاب. «تاريخ فلسطين الحديث». بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٠.
ـ الكيالي، عبد الوهاب. «المطامع الصهيونية التوسعية». بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركز الأبحاث، ١٩٦٦.
ـ لوبون، غوستاف. «حضارة العرب». ترجمة محمد عادل زعيتر. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، ١٩٤٥.
ـ لوبون، غوستاف. «فلسفة التاريخ». ترجمة عادل زعيتر. القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٥٤.
ـ ماركس، كارل. «المسألة اليهودية». ترجمه محمد عيتاني عن طبعة ألفريد كوست، باريس ١٩٥٢. بيروت: منشورات مكتبة المعارف، ١٩٥٦.
ـ محمد علي، عبد الرحيم. «ثبت المصادر العربية عن فلسطين». نجف: مطبعة الغري الحديثة، ١٩٦٦.
ـ المخزومي، محمد باشا. «خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني: وفيها مجمل آرائه وأفكاره ومرتئاه في أهل الشرق والغرب أخلاقا وسياسة واجتماعا». بيروت: المطبعة العلمية ليوسف صادر، ١٩٣١.
ـ «مساجد مصر: ٢١هـ ـ ١٣٦٥ هـ/٦٤١م ـ ١٩٤٦م». جزآن. المملكة المصرية: وزارة الأوقاف، ١٩٤٨.
ـ مسعد، حنا بولس. «همجية التعاليم الصهيونية». القاهرة: مطبعة كوستا تسوماس، ١٩٣٨.
ـ مغنيّة، محمد جواد. «اسرائيليات القرآن: تفسير اسرائيليات القرآن يظهر حقيقة اليهود وعقيدتهم الصهيونية». الطبعة الثانية. بيروت: دار الجواد، ١٩٨٤.
ـ المقريزي، احمد بن علي بن عبد القادر. «الخطط المقريزية». ٣ مجلدات. لبنان ـ الشيّاح: مكتبة إحياء العلوم ومنشورات دار العرفان، لا تاريخ.
ـ مكاريوس، شاهين. «تاريخ الاسرائيليين». مصر: مطبعة المقتطف بمصر، [١٩٠٤].
ـ من قبل القائد العام للجيش الرابع. «إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرت تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعاليه». لا مكان: مطبعة الطنّين، ١٩١٥.
ـ المناصرة، عز الدين. «الكنعانياذا». بيروت: الدار العالمية، ١٩٨٣.

- منظمة المؤتمر الاسلامي ــ لجنة القدس. «وثيقة القدس». عمان: مطابع بيت المقدس، ١٩٨٤.
- موسى، سليمان. «الحركة العربية: سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨ ــ ١٩٢٤». بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٠.
- موسى، سليمان. «الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى». عمان: دار النشر والتوزيع والتعهدات، ١٩٥٧.
- موسى، سليمان. «لورنس والعرب: وجهة نظر عربية». الطبعة الأولى. عمان: لا ناشر، ١٩٦٢.
- مؤنس، حسين. «الشرق الاسلامي في العصر الحديث». الطبعة الثانية. القاهرة: لجنة الجامعيين لنشر العلم، ١٩٣٨.
- ميلكو، إيلي (كبيركهنة أوغاريت). «اللآلىء: من النصوص الكنعانية». ترجمها وقام بدراستها هـ. ي. ديل ميديكو، ونقلها الى العربية وعلّق عليها مفيد عرنوق. الطبعة الثانية. بيروت: دار أمواج، ١٩٨٩
- ناصر الدين، علي. «قضية العرب». طبعة ثالثة منقحة ومزيدة. بيروت: منشورات عويدات، ١٩٦٣.
- النجار، عبد الله؛ وكمال الحاج. «الصهيونية بين تاريخين». قسمان. بيروت: دار العودة، ١٩٧٢.
- نشابه، هشام. تحرير. «دراسات فلسطينية: مجموعة أبحاث وضعت تكريما للدكتور قسطنطين زريق». بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨.
- نصّار، نجيب الخوري. «الصهيونية: تاريخها غرضها أهميتها (ملخصا عن الأنسيكلوبيديا اليهودية)». حيفا: مطبعة الكرمل، ١٩١١.
- النمر، إحسان. «تاريخ جبل نابلس والبلقاء». الجزء الأول: «حوادث عهد الإقطاع». دمشق: مطبعة ابن زيدون، ١٩٣٨.
- نويهض، عجاج. «ابو جعفر المنصور وعروبة لبنان: لخم والمردة». بيروت: مطابع دار الصحافة، ١٩٦٢.
- نويهض، عجاج. «بروتوكولات حكماء صهيون». الطبعة الثانية. مجلدان. بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨٠.

(أعادت دار الاستقلال للدراسات والنشر إصدار الكتاب للمرة الثالثة في مجلد واحد بعنوان: «بروتوكولات حكماء صهيون: نصوصها، رموزها، أصولها التلمودية»، ١٩٩٠).

ـ نويهض، عجاج. «رجال من فلسطين». بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨١.

ـ نويهض، عجاج. «فتح القدس». بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨٠.

ـ هورس، جوزف. «قيمة التاريخ: دراسة فلسفية»، ترجمة نسيب وهيبه الخازن. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٦٤.

ـ هيكل، محمد حسين. «حياة محمد». الطبعة الثالثة عشرة. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٨.

ـ الواقدي، ابو عبد الله محمد بن عمر. «من فتوح الشام». الطبعة الأولى. جزآن. القاهرة: المطبعة العثمانية المصرية، ١٩٣٥.

ـ اليازجي، حليم «بحوث في الفكر القومي العربي: إشكاليات نظرية الايديولوجيا الاصلاحية ومظاهرها في الفكر العربي الحديث». سلسلة دراسات أُعدت باشراف معن زيادة. المجلد الثاني II . بيروت: معهد الانماء العربي، ١٩٨٥.

ـ ياغي، عبد الرحمن. «حياة الأدب الفلسطيني الحديث. من أول النهضة حتى النكبة». بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٦٨.

ـ اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب س جعفر بن وهب المعروف بابن واضح الاخباري. «تأريخ اليعقوبي». ٣ أجزاء. بيروت: دار الفكر، ١٩٥٥.

ـ يفسييف، ي.س. تحرير. «الصهيونية الحقيقة والاختلاقات: مجموعة مقالات». موسكو: دار التقدم، ١٩٨٠.

ـ يونغ، لويس. «العرب وأوروبا». ترجمة ميشيل ازرق. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩.

٢ ـ الدوريات*

ـ الجامعة العربية (جريدة اسبوعية ثم نصف اسبوعية)، ١٩٢٧ ـ ١٩٣٥. القدس، منيف الحسيني. (١٩٢٩، ١٩٣٢).

---

* الدوريات التي استُعملت منها مقالات في أعداد محددة لم تُدرَج في القائمة أعلاه، ويُكتفى بما ورد بشأنها في الحواشي.

ـ الفكر العربي (مجلة شهرية)، ١٩٨٠ ـ . بيروت، معهد الانماء العربي.
(عدد خاص: «الفكر القومي العربي نقد وتجديد» العدد ٥٦، آذار ـ نيسان/مارس ـ إبريل ١٩٨٩).

ـ فلسطين (جريدة نصف اسبوعية ثم ثلاث مرات أسبوعيا ثم يومية)، ١٩١١ ـ ١٩١٤، ١٩٢١ ـ ١٩٦٧. يافا ـ القدس، عيسى داود العيسى. (١٩١١ ـ ١٩١٤؛ ١٩٥٥).

ـ الكرمل (جريدة اسبوعية ثم نصف اسبوعية ثم يومية)، ١٩٠٨ ـ ١٩١٤، ١٩٢٠ ـ ١٩٣٩. حيفا، نجيب نصار. (١٩١٢ ـ ١٩١٤).

ـ المعرفة (مجلة شهرية)، [١٩٦٠] ـ . دمشق، وزارة الثقافة والارشاد القومي.
(عدد خاص: «القضية العربية في صراعها مع الصهيونية العالمية». العدد ٤٩، آذار/مارس ١٩٦٦).

ـ المنار (مجلة شهرية)، ١٨٩٨ ـ ١٩٣٥. القاهرة، السيد محمد رشيد رضا. (١٨٩٨ ـ ١٩١٤).

ـ هيريتم *Herytem* (مجلة فصلية).
(عدد خاص عن الشعب الفلسطيني، اللاسامية، الصهيونية، اليهودية، العنصرية المضادة للعرب ومحاكمة الغرب، بأقلام كتّاب يهود. أيار ـ تموز/مايو ـ يوليو ١٩٦٩. ترجمة وتعليق الياس مرقص. بيروت: دار الحقيقة، ١٩٧٤).

المصادر والمراجع الأجنبية

أولا : المصادر

١ ــ الوثائق

— *Britain and Palestine 1914 — 1948: Archival Sources for the History of the British Mandate.* Compiled by Philip Jones Oxford: Oxford University Press, 1979.

— Ingrams, Doreen. Comp. Annot. *Palestine Papers 1917 — 1922. Seeds of Conflict.* London: John Murray, 1972.

— Laqueur, Walter ed *The Israel — Arab Reader: A Documentary History of the Middle East Conflict* London: Weidenfeld and Nicolson, 1969.

— Wolf, Lucien. *Notes on the Diplomatic History of the Jewish Question: With Texts of Treaty Stipulations and other Official Documents.* London: Spottiswoode, Ballantyne, 1919.

٢ ــ الموسوعات

— *Encyclopaedia Britannica, or, a Dictionary of Arts and Sciences.* By a Society of Gentlemen in Scotland. Edinburgh: A. Bell and C. Macfarquhar, 1768 — 1771.

— *the new Encyclopaedia Britannica,* 15th ed. Chicago, 1974.

— *Encyclopaedia Judaica.* Jerusalem: Keter Publishing House, 1972.

— *The Encyclopedia of Jewish Knowledge.* In one Volume. Edited by Jacob De Haas. New York: Behrman's Jewish Book House, 1946.

— *The Encyclopedia of the Jewish Religion.* Edited by Zwi Werblowsky and Geoffrey Wigoder. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1965

— *An Encyclopedia of World History: Ancient, Medieval, and Modern, Chronologically Arranged* Compiled and edited by William L. Langer. Revised Edition. London: George G. Harrap, [1954].

— *Encyclopedia of Zionism and Israel.* Edited by Raphael Patai. New York: Herzl Press / McGraw — Hill, 1971.

— *International Encyclopedia of the Social Sciences.* Edited by David L. Sills. U.S.A.: The Macmillan Company and the free Press, 1968.

— *The Jewish Encyclopedia: A Descriptive Record of the History, Religion, Literature and Customs of the Jewish People from the Earliest Times.* New York: Ktav Publishing House, 1901

— *The New Standard Jewish Encyclopedia.* New Revised Edition. Edited by Geoffrey Wigoder. 5th ed. New York: Doubleday and Company, 1977.

٣ ــ اليوميات والمذكرات والرحلات

— Balock, Maltbie Davenport *Letters from Egypt and Palestine.* Reprint of the 1902 ed. New York: Arno Press, 1977.

— Bentwich, Norman *A Wanderer in the Promised Land.* London: The Soncino Press, 1932.

— Cooke, Arthur William. *Palestine: In Geography and in History.* Vol. II. London· Charles H Kelly, 1901
— Gordon, Benjamin L. *New Judea· Jewish Life in Modern Palestine and Egypt* Philadelphia· Julius H. Greenstone, 1919
— Khusrau, Nasir I. *Diary of a Journey through Syria and Palestine* (In 1047 A.D.). Translated from the Persian and annotated by Guy Le Strange Reprinted by University Microfilms International London: Palestine Pilgrims, Text Society, 1888.
— Leete, Frederick de Land *Palestine: Its Scenery, Peoples and History.* London. Skeffington and Son, [1933].
— Leighton, William Henry. *A Cook's Tour to the Holy Land in 1874: The Letters of William Henry Leighton* London. Francis James Publishing Co., 1947.
— Lloyd George, David. *War Memoirs.* Vol. I. London· Odhams, 1938.
— Meir, Golda. *My Life.* New York: G.P. Putnam's Sons, 1975.
— Newton, Frances. *Fifty Years in Palestine.* London: Coldharbour Press, 1948
— Palestine Exploration Fund. *The City and the Land: A Course of Seven Lectures on the Work of the Society, Delivered in Hanouver Square in May and June 1892.* London: Palestine Exploration Fund; A.P. Watt, 1892.
— Patai, Raphael, ed. *The Complete Diaries of Theodor Herzl.* Translated by Harry Zohn. 5 Vols. New York, London· Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960
— Samuel, Viscount. *Memoirs.* Reprinted. London. The Cresset Press, 1945.
— Stanley, Arthur Penrhyn *Sinai and Palestine: In Connection with their History* London: John Murray, 1910
— Storrs, Ronald. *Orientations.* Definitive Edition. London: Nicholson and Watson, 1945.
— Tannous, Izzat. *The Palestinians: Eyewitness History of Palestine Under British Mandate.* New York: I.G.T. Company, 1988.
— Temple, Sir Richard. *Palestine Illustrated.* London: W.H. Allen and Co., 1888.
— Weizmann, Chaim. *Trial and Error.* 4th Impression. London· Hamish Hamilton, 1950.

٤ ـ البلدانيات والأطالس

— *Atlas of the Bible Lands.* New York: C.S. Hammond and Company, n.d.
— Gilbert, Martin. *The Arab — Israeli Conflict· Its History in Maps.* London: Weidenfeld and Nicolson, 1974.
— McNally, Rand. *Historical Atlas of the Holy Land.* New York: Rand McNally and Company, n.d
— Smith, George Adam. *Historical Atlas of the Holy Land.* 2nd ed. London: Hodder and Stoughton, 1936.

ثانيا: المراجع

الكتب

— Abu-Lughod, Ibrahim. ed. *The Transformation of Palestine.* Evanston: Northwestern University Press, 1971.
— Albright, William Foxwell. *Archaelogy and the Religion of Israel.* New York: Anchor Books, 1969.

— Albright, W F. *The Archaelogy of Palestine* Revised and Reprinted from the 1949 ed. London· Penguin Books, 1956
— Aldington, Richard. *Lawrence of Arabia· A Biographical Enquiry* London. Collins, 1955.
— Antonius, George. *The Arab Awakening.* 2nd ed London: Hamish Hamilton, 1945.
— Avineri, Shlomo *The Making of Modern Zionism The Intellectual Origins of the Jewish State* London Weidenfeld and Nicolson, 1981.
— *The Babylonian Talmud in Selection.* Edited and translated from the original Hebrew and Aramaic by Leo Auerbach. New York. Philosophical Library, n.d.
— Bakanov, B. *Zionist Falsehoods.* Moscow. Novosti Press Agency Publishing House, 1974
— Baramki, Dimitri. *The Art and Architecture of Ancient Palestine.* Beirut. Palestine Liberation Organization — Research Center, 1969.
— Baramki, Dimitri. *Phoenicia and the Phoenicians* Beirut, Khayats, 1961.
— Barbour, Nevill *Nisi Dominus. A Survey of the Palestine Controversy.* London: George G. Harrap, 1946.
— Barzun, Jacques and Henry F. Graff. *The Modern Researcher.* (The Classic Work on Research and Writing Newly Revised and Expanded) 4th ed. New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1985.
— Beaton, P. *The Jews in the East.* Translated from the German of Dr. Frankl. Vol. II. London: Hurst and Blackett, 1859
— Beatty, Ilene. *Arab and Jew in the Land of Canaan* Chicago. Henry Regnery Company, 1957.
— Bein, Alex. *The Return to the Soil. A History of Jewish Settlement in Israel.* Jerusalem: The Youth and Hechalutz Department of the Zionist Organisation, 1952.
— Benas, Bertram B. *Zionism· The Jewish National Movement.* Reprinted from Volume LXV of the Proceedings of the Literary and Philosophical Society of Liverpool, 1919.
— Ben-Jacob, Jeremiah *The Jewish Struggle* London· George Allen and Unwin, 1942.
— Bentwich, Norman. *Zionism and Jewish Culture* Zionist Pamphlets, No. 2 London: The Zionist, 1915.
— Berger, Elmer. *Israel's Threat to Judaism in Palestine: Zionism V Judaism, Christianity, Islam.* Dublin: Irish Arab Society, 1970.
— Berger, Elmer *Memoirs of an Anti — Zionist Jew.* Beirut: The Institute for Palestine Studies, 1978.
— Berger, Elmer. *Zionist Ideology — Obstacle to Peace.* Tripoli· EAFORD, The International Organization for the Elimination of all Forms of Racial Discriminations, 1981.
— Berle, A. A. *The World Significance of a Jewish State.* New York: Mitchell Kennerley, 1918.
— Birco, A. L. *Lilienbloom the Zionist.* With a letter by Max Nordau. Edinburgh: Jewish Renaissance Publishers, 1912.
— Bloch, Marc *The Historian's Craft.* Translated from the French by Peter Putnam. New York: Vintage Books, 1953.
— Blumberg, Arnold. *Zion before Zionism 1838 — 1880* Syracuse — New York: Syracuse University Press, 1985.

— Breasted, James Henry. *The Conquest of Civilization.* Revised Edition. New York: Harper & Brothers, 1938.
— Bredin, Jean-Denis *The Affair. The Case of Alfred Dreyfus.* Translated from the French by Jeffrey Mehlman New York: George Braziller, 1986.
— Buheiry, Marwan R. ed. *Intellectual Life in the Arab East, 1890 — 1939.* Beirut: American University of Beirut, 1981.
— Bullard, Sir Reader. *Britain and the Middle East: From Earliest Times to 1952.* 2nd ed. London: Hutchinsow's University Library, 1952.
— Cattan, Henry. *Jerusalem.* London: Croom Helm, 1981.
— Cattan, Henry. *Palestine and International Law: The Legal Aspects of the Arab — Israeli Conflict.* 2nd ed. London. Longman, 1976.
— Cohen, Israel. *The Zionist Movement.* London: Fredrick Muller, 1945.
— Cohen, Morris. *Zionism: Tribalism or Liberalism.* New York: 1946. (A chapter in Cohen's new book «The Faith of a Liberal» is reprinted here by special arrangement, with the publishers, Henry Holt & Co.).
— Cook, Stanley. *An Introduction to the Bible.* Reprinted. Great Britain: Penguin Books, 1952.
— Deutscher, Isaac. *The Non — Jewish Jew, and other Essays.* London: Oxford University Press, 1968.
— Dimont, Max I. *Jews, God and History.* New York: A Signet Book New American Library, 1962.
— Easton, Stewart C. *The Heritage of the Past. From the Earliest Times to the Close of the Middle Ages.* New York: Holt, Reinhart and Winston, 1963.
— Eban, Abba. *Heritage: Civilization and the Jews.* New York: Summit Books, 1984.
— ESCO Foundation for Palestine. *Palestine: A Study of Jewish, Arab, and British Policies.* Reprint of the 1947 ed. 2 Vols. Milwood, N. Y.: Kraus, 1980.
— Ford I, Henri. *The International Jew.* Introduction by Gerald L. K. Smith. [U.S.A.: n.p., 1951]. (Originally published 1922).
— Gardner, Helen. *Art through the Ages.* 3rd ed. New York: Harcourt, Brace and Company, 1948.
— Gellner, Ernest. *Nations and Nationalism.* Ithaca & London: Cornell University Press, 1983.
— Gilmour, David. *Dispossesed: The Ordeal of the Palestinians.* Reprinted. London: Sphere Books, 1984.
— Goodman, Paul. *Zionism and the Jewish Diaspora.* London: The English Zionist Federation. 1921.
— Gottlieb, W.W. *Studies in Secret Diplomacy during the First World War.* London: George Allen & Unwin, 1957.
— Granovsky, A. *Land and the Jewish Reconstruction in Palestine* Authorized Translation. Jerusalem: «Palestine and Near East» Publications, 1931.
— Graves, Philip. *Palestine, the Land of Three Faiths.* Reprint of the 1923 ed. Westport, Connecticut: Hyperion Press, 1976.
— Grunebaum, G.E. *Modern Islam: The Search for Cultural Identity.* Reprinted. New York: Vintage Books, 1964.
— Ha-Am, Achad. *Ten Essays on Zionism and Judaism.* Translated from the Hebrew by Leon Simon. London: George Routledge and Sons, 1922.

— Hadawi, Sami *Bitter Harvest: Palestine 1914 — 67.* New York. The New World Press, 1967.
— Hadawi, Sami & Robert John. *The Palestine Diary* Vol I: 1914 — 1945. Beirut: The Palestine Research Center, 1970.
— Halley, Henry H. *Bible Handbook: An Abbrivated Bible Commentary.* 20th ed., 3rd printing. Chicago· Henry H. Halley, 1956.
— Herodotus. *The History of Hirodotus.* Translated by George Rawbinson. 24th printing. Great Books of the Western World No. 6. Chicago· Encyclopaedia Britannica, 1982.
— Herzl, Theodor. *The Jewish State: An Attempt at a Modern Solution of the Jewish Question.* Translated by Sylvie D'avigdor. 4th ed. London: Rita Searl. 1946.
— Hess, Moses. *Rome and Jerusalem: A Study in Jewish Nationalism* Translated from the German by Meyer Waxman. New York: Bloch Publishing Company, «The Jewish Book Concern,» 1918 (A copy of *Rome and Jerusalem* was translated by Rabbi Maurice J. Bloom. New York: Philosophical Library, 1958).
— Hitti, Philip K *History of Syria· Including Lebanon and Palestine.* London· Macmillan, 1951.
— Hitti, Philip K. *Lebanon in History: From the Earliest Times to the Present.* London: Macmillan, 1957.
— Hourani, Albert. *Arabic Thought in the Liberal Age 1798 — 1939.* Reprinted of the 1962 ed Great Britain: Cambridge University Press, 1983.
— Hourani, A.H. *Great Britain and the Arab World.* London: John Murray, 1945
— Hourani, A.H. *Syria and Lebanon.* A Political Essay. 3rd Impresion. London: Oxford University Press, 1954.
— Hurewits, J.C. *The Struggle for Palestine.* New York: W.W. Norton and Company, 1950.
— al-Husry, Khaldun S. *Origins of Modern Arab Political Thought.* Reprinted of the 1966 ed. New York: Caravan Books, 1980.
— Hyamson, Albert M. *British Projects for the Restoration of Jews to Palestine.* Reprinted from the Publications of the Jewish Historical Society, No. 26, 1918.
— Hyamson, Albert M. *Palestine. The Rebirth of an Ancient People.* London: Sidwick & Jackson, 1917.
— Ingram, O. Kelly, ed. *Jerusalem: Key to Peace in the Middle East.* Durham: Triangle Friends of the Middle East, 1978.
— *The Israel Yearbook 1950/51.* Editor in Chief S. Tolkowsky. Tel Aviv: Israel Publications, [1952].
— Jagersma, H. *A History of Israel in the Old Testament Period.* Translated by John Bowden from the Dutch. Philadelphia: Fortress Press, 1983.
— Jannaway, Frank G. *Palestine and the Jews; or the Zionist Movement an Evidence that the Messiah will soon appear in Jerusalem to rule the whole World therefrom.* Birmingham: C.C. Walker, 1914.
— Jastrow, Morris. *Zionism and the Future of Palestine: The Fallacies and Dangers of Political Zionism.* New York: The Macmillan Company, 1919.
— Jeffries, J.M.N. *The Balfour Declaration.* Reprinted from *Palestine: The Reality,* chapter 11, Longman, Green & Co., 1939. Beirut: The Institute for Palestine Studies, 1969.

— Josephus. *The Jewish War.* Translated by G.A. Williamson. Revised Edition of the 1959 translation. Great Britain: Penguin Books, 1984.
— Kedourie, Elie and Sylvia G. Haim. eds. *Palestine and Israel in the 19th and 20th Centuries.* London: Frank Cass, 1982.
— Keller, Werner. *The Bible as History: Archaeology confirms the Book of Books.* Translated from the German by William Neil. London: Hodder & Stoughton. 1956.
— Khalidi, Walid. *Before Their Diaspora. A Photographic History of the Palestinians 1876 — 1948.* Washington D.C.: Institute for Palestine Studies, 1984.
— Khalidi, Walid. ed *From Haven to Conquest. Readings in Zionism and the Palestine Problem Until 1948.* 2nd Printing. Washington: The Institute for Palestine Studies, 1987.
— Khalidi, Walid & Jill Khadduri. eds. *Palestine and the Arab—Israeli Conflict: An Annotated Bibliography.* Beirut: Institute for Palestine Studies, 1974.
— Koestler, Arthur. *The Thirteenth Tribe: The Khazar Empire and its Heritage.* New York: Random House, 1976.
— Kurland, Samuel. *Biluim: Pioneers of Zionist Colonization* New York: Scopus Publishing Company, 1943. (Published for Hechalutz Organization of America).
— Landau, Jacob M. *Abdul-Hamid's Palestine. Rare Century-old Photograph from the Private Collection of the Ottoman Sultan now published for the First Time.* London: André Deutsch, 1979.
— Landman, S. *History of Zionism.* Zionist Pamphlets, No. 3. London: The Zionist, 1915.
— Laqueur, Walter. *A History of Zionism.* New York: Holt, Rinehart and Winston, 1972.
— Lenczowski, George. *The Middle East in World Affairs.* Ithaca, New York: Cornell University Press, 1952.
— Lewis, Bernard. *The Arabs in History.* London: Hutchinson's University Library, 1950.
— Lilienthal, Alfred M. *The Zionist Connection II: What Price Peace?* Reprinted. New Brunswick, New Jersey: North American, 1982.
— Link, Werner and Werner J. Feld. *The New Nationalism: Implications for Transatlantic Relations.* New York: Pergamon Press, 1979.
— Loewinson - Lessing, V. ed. *Rembrandt Harmensz Van Rijn: Paintings From Soviet Museums.* Leningrad: Aurora Art Publishers, 1975.
— Macalister, R.A.S. *A History of Civilization in Palestine.* Reprinted from the 1912 ed. Cambridge: Cambridge University Press, 1921.
— Mack, John E. *A Prince of our Disorder: The Life of T.E. Lawrence.* Boston. Little, Brown and Company, 1976.
— Mandel, Neville J. *The Arabs and Zionism before World War I.* Berkely, Los Angeles, London: University of California Press, 1976.
— Mehdi, M.T. ed. *Palestine and the Bible.* New York: New World Press, 1970.
— Menuhin, Moshe. *The Decadence of Judaism in our Time.* Beirut: The Institute for Palestine Studies, 1969.
— Nashabe, Hisham. ed. *Studia Palaestina: Studies in honour of Constantine K. Zurayk.* Beirut: Institute for Palestine Studies, 1988.
— O'Brien, Conor Cruise. *The Siege. The Saga of Israel and Zionism.* London: Weidenfeld and Nicolson, 1986.
— Oldenbourg, Zoé. *The Crusades.* Translated from the French by Anne Carter. New York: Ballantine Books, 1966.

— Parkes, James. *End of an Exile: Israel, the Jews and the Gentile World.* London. Vallentine, Mitchell, 1954
— Parkes, James. *A History of the Jewish People* London Weidenfeld and Nicolson, 1962.
— Parkes, James. *A History of Palestine from 135 A D. to Modern Times* London: Victor Gollancz, 1949
— Parzen, Herbert. ed. *Herzl Speaks: His Mind on Issues, Events and Men.* Herzl Institute Pamphlet No 16 New York: The Herzl Press, 1960
— Parzen, Herbert. *A Short History of Zionism.* New York: Herzl Press, 1962
— Paton, Lewis Bayles. *The Early History of Syria and Palestine.* Reprinted of the 1901 ed U.S A · Hyperion Press. 1981.
— Peters, Joan. *From Time Immemorial: The Origins of the Arab—Jewish Conflict over Palestine* New York: Harper & Row, 1984.
— Pinsker, Leo *Auto—Emancipation.* Edited by A.S. Eban. England. Federation of Zionist Youth, [1932]
— Porath, Y *The Emergence of the Palestinian—Arab National Movement 1918 — 1929.* London: Frank Cass, 1974.
— Ramsay, Captain A.H.M. *The Nameless War* 4th ed London: Britons Publishing Company, 1962.
— Razzouk, Ass'ad *Greater Israel A Study in Zionist Expansionist Thought.* Beirut: Palestine Liberation Organization—Research Center, 1970.
— Razzouk, Ass'ad. *The Partisan Views of Reverend James Parkes.* Beirut: Palestine Liberation Organization—Research Center, 1970.
— Rihani, Ameen *The Fate of Palestine.* Beirut: The Rihani Printing and Publishing House, 1967.
(Mainly a series of lectures by the late Ameen Rihani given in the United States, England and Canada during the years 1927 — 1939).
— Rodinson, Maxime *Cult, Ghetto, and State· The Persistence of the Jewish Question.* Translated by Jon Rotschild London: Al Saqi Books, 1983.
— Ruppin, Arthur. *The Agricultural Colonisation of the Zionist Organization in Palestine.* Translated from the German by R.J Feirvel. London: Martin Hopkinson and Company, 1926.
— Ruppin, Arthur. *Three Decades of Palestine. Speeches and Papers on the Upbuilding of the Jewish National Home.* Jerusalem: Schocken, 1936.
— Rustum, Asad J. *The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria 1831 — 1841.* Beirut American Press, 1936
— Sachar, Howard M. *A History of Israel: From the Rise of Zionism to our Time.* New York: Alfred A. Knopf, 1982.
— Sacher, H. ed *Zionism and the Jewish Future.* With Two Maps. London: John Murray, 1916.
— Said, Edward W. *Orientalism.* New York: Pantheon Books, 1978.
— Sankowsky, Shoshanna Harris. *A Short History of Zionism.* New York: Bloch Publishing Company, 1947.
— Sayegh, Fayez A. *Zionism: «A Form of Racism and Racial Discrimination»: Four Statements Made at the U N. General Assembly.* New York· Office of the Permanent Observer of the Palestine Liberation Organization to the United Nations, 1976.

— Schechtman, Joseph B. *Zionism and Zionists in Soviet Russia Greatness and Drama.* U.S A.· Zionist Organization of America, 1966.
— Scott, Lieut. Colonel J. Chreagh. *The Hidden Government.* 3rd ed. London: Britons Publishing Society, 1960.
— Segre, Dan V. *A Crisis of Identity· Israel and Zionism.* Oxford: Oxford University Press, 1980.
— Selzer, Michael ed. *Zionism Reconsidered· The Rejection of Jewish Normalcy.* London· Collier—Macmillan, 1970.
— Seters, John Van. *In Search of History: Historiography in the Ancient World and the Origins of Biblical History* New Haven: Yale University Press, 1983.
— Sharif, Regina *Non—Jewish Zionism: Its Roots in Western History.* London: Zed Press, 1983.
— Sokolow, Nahum. *History of Zionism: 1600 — 1918.* Selected and Arranged by Israel Solomons. 2 Vols. London. Longmans, Green, 1919.
— Stein, Leonard. *The Balfour Declaration.* London: Vallentine-Mitchell, 1961.
— Steppat, Fritz. *Zionism—Judaism· Some Historical Aspects of the Clash between Zionism and Arab Nationalism.* Beirut: University Christian Center Forum, 1968
— Stewart, Desmond *Theodor Herzl.* Garden City, New York: Doubleday & Company, 1974.
— Sykes, Christopher. *Two Studies in Virtue.* London: Collins, 1953.
— Taylor, Alan R. *The Zionist Mind.* Beirut: The Institute for Palestine Studies, 1974.
— Tibawi, A.L. *British Interests in Palestine 1800 — 1901: A Study of Religious and Educational Enterprise.* London: Oxford University Press, 1961.
— Tibawi, A.L. *Jerusalem: Its Place in Islam and Arab History.* Beirut: Institute for Palestine Studies, 1969.
— Toynbee, Arnold. *A Study of History.* 12 Vols. London: Oxford University Press, 1934 — 1963.
— Viteles, Harry. *A History of the Co—operative Movement in Israel.* Book one: *The Evolution of the Cooperative Movement.* London: Vallentine-Mitchell, 1966.
— Wallace, Robert *The World of Rembrandt 1606 — 1669.* 10th Printing. Amsterdam. Time—Life Books, 1982.
— *World Conquest through World Government: Protocols of the Learned Elders of Zion.* Translated from the Russian of Sergei A. Nilus by Victor E. Marsden. 81st impression of the 1920 ed. London: Britons Publishing Society, 1958.
— Young, Leonard (Wing Commander). *Deadlier than the H Bomb* 2nd ed. London: Britons Publishing Society, 1956.
— Zeine, Zeine N. *The Emergence of Arab Nationalism: With a Background Study of Arab—Turkish Relations in the Near East* Reprinted of the 1958 ed. Delmar, New York: Caravan Books, 1973.

الفهرست

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

هذا الكتاب

هذا الكتاب يجيب عن ثلاثة أسئلة رئيسية: فلسطين لمن؟ مَنْ شعبها؟ ما قضيتها؟ وهو ينطلق من الميزة الرئيسية التي تنفرد قضية فلسطين بها عن سائر القضايا السياسية المعاصرة، وهي كونها القضية الوحيدة التي تضرب جذورها في أعماق التاريخ. ومع ذلك، يصعب تصنيفه على انه مجرد كتاب في التاريخ، او السياسة. انه محاولة جادة للاحاطة الشاملة بمختلف الجوانب المتعلقة بفلسطين وقضيتها.

يناقش هذا الكتاب بمنهج علمي ماهيّة «حقوق اليهود الدينية والتاريخية» في فلسطين، ويكشف الغطاء عن أولوية الحضارة الكنعانية وتفوقها في فلسطين وجوارها. ويتناول وحدانية فلسطين بين دول العالم، كموطن للديانات السماوية الثلاث.

كذلك يؤكد هذا الكتاب عروبة فلسطين، وجذورها التاريخية، ويبرز اهمية الحضارة العربية الاسلامية التي سادت فلسطين بتواصل، منذ القرن الأول للهجرة / السابع للميلاد.

وهو يحتوي ردودا قاطعة على المزاعم الصهيونية، ويتناول الحركة الصهيونية في أوروبا، وعواملها، وروادها، مثبتا أنها حركة استعمارية استيطانية، ودخيلة على فلسطين منذ نشأتها وصولا الى وعد بلفور.

الناشر

عن المؤلفة

● ولدت د. بيان نويهض الحوت في مدينة القدس، وهي تحمل لهذه المدينة الخالدة ذكريات الطفولة الحلوة، والهجرة المرّة.

● أستاذة مادة «القضية الفلسطينية» في كلية الحقوق والعلوم السياسية في الجامعة اللبنانية (الفرع الأول) منذ سنة ١٩٧٩.

● من مؤلفاتها: «القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ ــ ١٩٤٨»، الصادر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت (١٩٨١)، وعن دار الأسوار في عكا (١٩٨٤)؛ و«الشيخ المجاهد عز الدين القسام في تاريخ فلسطين»، الصادر في سلسلة «أوراق الاستقلال» عن دار الاستقلال في بيروت (١٩٨٧).